

كِنَانَةُ السَّهَامِ
فِي
الْخُطْبِ الْعَصْرِيَّةِ لِلْإِمَامِ
(المجموعة كاملةً)
(100 – 1)

جمع وترتيب وإعداد

أحمد بن محمد بن حلمي بن عبده (آل الحتّة)

دكتوراه - الدعوة والثقافة الإسلامية

إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف المصرية

اللهم اجعلها في سماء الإسلام:

سراجاً وقمراً مُنيراً

وعلى المنابر نُوراً

واجعل اللهم فيها:

الهداية والرشاد

والعصمة والبركة والسداد

والحكمة والنور والضياء

(اللهم آمين)

خاطبتُ بها فِطْرَةً
وحاججتُ بها عقلاً؛
فلعلَّها تُحركُ قلباً فيخشعُ،
أو فِطْرَةً فتعودُ إلى مَهْدِها الأوَّلِ،
أو عقلاً فيرعوي وينزجر.

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

وبعد: فإنَّ أصدق الحديث كتابُ الله تعالى، وأحسنُ الهدي هديُّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

ثم أمَّا بعد.

فالدعوة إلى الله تعالى من أعظم الأعمال منزلةً وأعلاها قدرا وشرفا، وكيف لا تكون كذلك؟! فصاحبها يسير على سنن المرسلين - عليهم الصلاة والسلام -؛ يُعرِّفُ الخلقَ بخالقهم، ويدلُّهم عليه، ويحبِّبهم فيه، ويرغبهم في عبادته، ويبعِظُ ويذكِّرُ من نسي منهم حقَّه تعالى عليه، ويرشِدُ ضالَّهم، ويهدي تائبهم وحيرائهم، ويعلمُ جاهلهم، وينصَحُ من استنصحه، ويفرِّجُ بقله كروبَ المكروبين وأثقالَ المُخطئين؛ فيفتحُ أمامهم أبوابا من الرجاء قد ظنُّوها مُغلقةً. فهو يسير في دروب الحياة مُتعلِّما ومُعَلِّما، ومُربِّيا، ومُرشِّدا، وناصحا، ومُذكِّرا، ومُفتِّيا، وداعيا، وواعظا، وأمرأ بالمعروف وناهيا عن المنكر، وقدوةً، وأئِمُّونجا يُقتدى به ويُحتذى حذوه .. ولم لا يكون بهذه المثابة! وقد قال الله تعالى في حقِّه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي

مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿فصلت﴾. وقد قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وَمَنْ (مَنْ) اسْتَفْهَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّفْيِ، أَيْ لَا أَحَدٌ أَحْسَنُ قَوْلًا مِنْ هَذَا الْفَرِيقِ؛ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾». فليس هناك قولٌ هو أحسن من قولهم.

ولمَّا كان الداعي إلى الله تعالى وريث الأنبياء والمرسلين، وسالك طريقهم، وكان كلامه أحسن الكلام؛ ناسب أن أذكره بقول الله تعالى لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿الحجر﴾ فلا يجوز من النبي صلى الله عليه وسلم وقد أعطاه الله تعالى هذا العطاء العظيم - (الذي هو: السبع المثاني والقرآن العظيم = سورة الفاتحة كما في حديث أبي سعيد بن المعلّى في صحيح البخاري) -؛ لا يجوز معه أن يمدَّ عينيه إلى ما مَتَّعَ الله تعالى به الكافرين «لِأَنَّ مَنْ أَعْطَاهُ رَبُّهُ - جَلَّ وَعَلَا - النَّصِيبَ الْأَكْبَرَ وَالْحَظَّ الْأَوْفَرَ، لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى النَّصِيبِ الْأَحْقَرِ الْأَخْسَّ» - كما قاله الشنقيطي في أضواء البيان -. فحالك أيُّها الداعي كذلك؛ فإياك ثمَّ إياك أن تَمُدَّ عينيك إلى مُتَعٍ زائِلَةٍ وقد عَظَّمَ اللهُ تعالى أجرك، ورفع قدرك وذكرك، وجعل قولك أحسن الأقوال. وفي مثل هذا التفضيل يقول الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [الإسراء]. وكذلك قوله تعالى عنه وعن ولده سليمان عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل] فلم يذكر ربُّنا تعالى أنَّه فضَّلَهما بالملك - فكانا ملكين - وإنما فضَّلَهما بالوحي والعلم الذي أعطاه إياهما. فهنيئًا لك أيُّها الداعي؛ هذه النون التي اشتمل عليها فعل (آتينا)، و(فضَّلنا)، و(فضلنا). فالذي جعلك في هذه المكانة هو الله تعالى وكفى.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعليِّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: (قَوْلَاللهِ لِأَنَّ يُهْدَىٰ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَّكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) [أخرجه البخاري]، فانظر: رجلٌ واحد .. تكون سببا في هدايته؛ خير لك من هذا المال الذي هو أثنى أموال العربي. وقد يكون سبب هدايتك في حياتك أو بعد مماتك؛ بكلمة كتبتها، أو تكلمت بها في درس أو خطبة أو لقاء أو محاضرة خرجت

منك؛ في حال رضا من الله تعالى بغلت بك مبلغاً يغبطك عليه الأولون والآخرون في عرصات يوم القيامة!! فلا تمدن عينيك إلى متع زائلة؛ وقد آتاك الله تعالى هذا الفضل العظيم.

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) [أخرجه مسلم]؛ فكم هي الأجور التي تنتظر الداعي إلى الله تعالى والتي كان سبباً في إحيائها!! وكم هي الأحكام التي علّمها وبنّوها في الخلق وعُمِلَ بها؟ وكم هي الشعائر التي ظهرت بعد انطماسها وكان ظهورها على يديه. ولا أريد أن أضرب أمثلة لعلماء أجلاء سطوراً بدمائهم صفحات من التاريخ المنشود على أراضٍ قد ماتت فيها الشرائع وانطمست؛ فجاؤوا وبنّوا فيها حياة الإيمان والذكر الحكيم؛ إذ إن قائمتهم تطول، كثر الله تعالى سوادهم. وجعلني وإياك منهم.

فكرة هذه الكنانة⁽¹⁾:

في غالب الخطب التي أقف فيها بين يدي الجمهور؛ يكون اعتنائي كبيراً بتحضيرها، ولا أمل من هذا التحضير حتى وإن تكرر الوقوف بين أيديهم عن نفس الموضوع مرّات ومرّات؛ ففي تكرار المذاكرة والبحث يظهر أمامي من الأدلة والأفكار ما لم يكن قد ظهر في المرات السابقة - فهذه طبيعة العمل البشري الذي يعتريه النقص -؛ وأقوم بتدوين تلك الخطب - مع تكرار بعضها - في دفاتر عندي.

وبعد فترة من الفترات؛ انقذ في ذهني أن أجمع من هذه الدفاتر خطباً ولقاءات وأفكاراً أرى ميسر الحاجة إليها مع قلة الكلام عنها!. لا سيما ونحن في عصر كهذا الذي نعيشه؛ فالأفكار المنحرفة ليس لها حاجز يحجزها أو حاجب يحجبها، وإنما هي كالنار التي تبدأ في الهشيم فلا

(1) الكنانة: هي ذاك الوعاء الذي يُصنع من الجلد ونحوه؛ كي تُوضع فيه السهام والنبال التي تُستخدم في الحروب أو في الصيد.

يَمُرُّ عليه إلا زمنٌ قليل فيُقضى عليه. فكان من هذه المواضيع ما تكلمتُ فيه عن الضروريات الخمس: (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، وكان منها ما تكلمت فيه عن أساسيات الفهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ك: (الوحي، والقرآن، والسنة، والصحابة، صراط المغضوب عليهم والضالين، ..) وكان منها ما يَمُسُّ الواقع الذي نعيشه؛ ك: (الرأي العام، والوطن، والأسرة وما يُهددها من أخطار، والرجولة والشباب، ..) وكان فيها كذلك صفاتُ وارثي جنان الخلد؛ ك: (الصالحون، والطيبون، والشهداء، والمؤمنون، والمسلمون، والشهداء، والصائمون والحجاج، ومن يُحبهم الله تعالى ..) وكان منها ما يَمَسُّ الجانبَ الأهمَّ في حياة المسلمين وهو العقيدة؛ ك: (التوحيد ونواقض الإيمان، واليوم والآخر، والجنة والنار، والقبر ..)، وكذلك فيها مواضع تخصُّ أركان الإسلام، وأخرى لبيان حقوق المسلمين مع بعضهم.

وقد عزمتُ في أول شروعي لإعداد هذه الكنانة على استخراج مائة موضوع منها⁽¹⁾؛ فمنَّ الله سبحانه وتعالى عليَّ بها في مجموعتين؛ نشرتُ الأولى منهما، وها هي: **الثانية مع الأولى حتى يكتمل البناء في صورته ومظهره. فأسأل الله تعالى القبول والتوفيق والسداد:**

(1) كتبتُ قبل ذلك في بحثٍ نشرته؛ - وهو على الشبكة - بعنوان: (الغيوم الكاسفة على وجه الدعوة والداعية)؛ ما يدل على أنني لا أوافق على موضوع الخطبة الموحدة وقلت فيه مُعللاً: «إذ أنه ما من شكٍّ في أن هناك اختلافٌ بينَ بين الجماهير في هذه الأمور وفي غيرها؛ فالبيئة ذات الثقافة العالية لا يصلح معها الخطاب الذي يوجه إلى البيئة ذات الثقافة القليلة - كالأُمِّيَّة مثلاً -، أو البيئة البعيدة عن مجريات الأمور والأحداث العظيمة، وكذلك لا يصلح الخطاب لقوم عندهم من العبادات والأخلاق ما ليس عند الآخرين من العصاة والمذنبين، فقد كان كلُّ نبيٍّ من الأنبياء يُكَلِّم قومه في دعوته إياهم عن ما ظهر عندهم من الآثام؛ فهذا لوطٌ عليه السلام يكلم قومه في ذنبيهم، وكذلك شعيب عليه السلام في تطفيف الكيل والميزان، .. بالإضافة إلى الأصلِّ الأصيل والركن الركين في الدعوة؛ وهو دعوتُهم جميعاً عليهم السلام الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له» ص: (117)، وكذلك قُلْتُ: «بالنسبة لموضوع الخطبة الموحدة؛ فإما أن يكون الأمر كما كان؛ بحيث كل داعية يرى ما يناسب جماهيره ويحدثهم فيه، أو يتم وضع العنوان الخاص بالخطبة وتحت العناصر فقط دون غيرها؛ والهدف من ذلك هو عدم تعطيل آليات البحث عند هؤلاء الأئمة. فلا أقل من أن يبحث الإمام عن أدلة لقائه مع الجماهير» ص: (128)، (129). وكان هذا الكلام في معالجة قضية التحديد لعنوان لخطبة الجمعة وإلزام الأئمة بها. ولست مُناقِضاً به ما في هذه الكنانة.

وكان لي في إعدادها منهجٌ سرّيتٌ عليه:

- الاهتمامُ بتحديد العناصر الرئيسة.
- مُراعاةُ الأسلوب الوعظي بعيداً عن التكلُّف والتطويل في إيصال المُراد.
- جعلُها مجموعاتٍ (فُصولاً)، بحيث يربط موضوعاتها رِباطاً عامّاً بينها.
- ليس شرطاً أن يكون الموضوع في لقاءٍ واحد؛ فقد أُلقيت كثيراً منها في لقاءاتٍ.
- جعلتُ تخريجَ الحديثِ النَّبويِّ بجواره مقتصرّاً على مصدر واحد فقط في الأعم الأغلب؛ ولم أَسْتَشْهَد بالضعيف منها إلا إذ نَبَّهْتُ عليه.
- اعتمدتُ فيها على ذكر الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية ولم أَسْتَطِرِد فيها كلاماً نثرِيّاً بين النصوص إلا فيما يوضّح المُراد من ذكرها.
- ليس لي فيها إلا الجمعُ والترتيبُ. وإن يكن ثمَّ جُهد غير ذلك: فهو لإيضاح معنى أو استنباط آخر أو تقوية فكرةٍ .. وهذا قليل جداً؛ إن لم يكن نادراً.
- ليس هناك موضوع في هذه الكِنانة إلا وقد كُتِبَتْ فيه أبحاثٌ أو رسائلٌ علمية أو مؤلفاتٌ؛ ورُبّما كانت فكرةٌ أحدها تلخيصُ كتابٍ أو كلمةٌ سمعْتُها لداعية أو مُحاضِر أو غير ذلك .. ولم أقيّد تلك المصادر أو تلك المراجع التي كانت سبباً فيها؛ مُراعاةً لطبيعة إعداد الخُطب الوعظية أثناء تحضيرها. والله تعالى يتولى مُجازاة كلٍّ؛ فجزاؤه هو أحسن الجزاء.
- وذاك مَسرُداً عامّاً لتلك المواضيع التي في هذه الكِنانة:

وأما ما في هذه الكِنانة؛ فليس من التحديد في شيء؛ وإنما هو من باب التذكير بموضعات معاصرة قليلة الطروق، ومُعالجات قضايا ربّما تكون جديدة على بعض البيئات أو على بعض الشخصيات. فيختار منها الداعية ما يشاء وقتما يشاء.

مسردُ الخطب

عن هذا المسرد .. أقول:

أولاً: جعلتُ ترتيبه لا على حروف المُعْجَم؛ بل على ترتيب إيرادها في أماكنها.

ثانياً: لم أذكرُ الفصولَ العامة للمواضيع؛ - وهي في فهرس الموضوعات -، وهي: (في الفهم عن الله تعالى وعن ورسوله صلى الله عليه وسلم)، (الضروريات الخمس)، (الوارثون جنان الخلد)، (في الفضاء المجتمعي)، (مُلَحٌّ ومُختارات).

ثالثاً: بعد اتمام الكنانة ووصولها إلى مائة موضوع - كما كانت هذه هي النِّية في أول أمرها - جعلت مسرداً للمجموعة الأولى. وآخر للمجموعة الثانية. وفي جوار كل واحدٍ منها - على اليمين - رقمٌ للموضوع يدلُّ على ترتيبه ومكانه في الكنانة.

رابعاً: وقد وضعتُهما بين يدي تلك المواضيع؛ إغناءً للقارئ عن تصفُّحها جميعاً، فإذا ما رأى منها موضوعاً قد أعجبه ذهب إليه مباشرة.

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
1 - بين الوحي والهوى	14	39 - الراعون للعهود	288
2 - القرآن الكريم	24	40 - الحافظون فروجهم.	293
3 - السنة النبوية	30	41 - النفس المُسلمة.	299
4 - الصحابة رضي الله عنهم	36	42 - المحسنون.	308
5 - التزكية	42	43 - الصادقون.	315
6 - علاقات للمسلم.	48	44 - الشهداء.	320
7 - الاستجابة والتسليم	55	47 - أهمية الرأي العام	349
8 - العبادة.	61	48 - في ترك الفضول	254

362	49 - خطورة الشائعات	68	9 - مُحَبَّطَات الأَعْمَال.
370	50 - الرجولة والشباب	73	10 - التوحيد.
498	68 - بين الدنيا والآخرة	118	15 - الدِّين
511	70 - الدعاء.	126	16 - النَّفْس
531	73 - بر الوالدين	133	17 - النسل (العِرض)
537	74 - الطهارة والنظافة	139	18 - المال.
543	75 - الإدمان والتدخين	146	19 - العقل.
549	76 - ضوابط الأسواق	201	27 - الإرث الأخرى.
554	77 - خير أمة.	207	28 - الصالحون.
567	79 - المسؤولية.	212	29 - الطيبون.
581	81 - حق المسلم على المسلم	217	30 - المتقون.
590	82 - ما تصلح به الدنيا.	223	31 - المؤمنون.
614	85 - الأسرة (بيوتنا).	230	32 - المُعْرَضُونَ عَنِ اللُّغُو
624	86 - من نواقض الإيمان	235	33 - المحافظون على الصلاة
638	87 - الشهود على العبيد	242	34 - الخاشعون في الصلاة
644	88 - ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى	249	35 - المؤدِّون الزكاة
652	89 - فرائض الإسلام (مقاصدها)	281	38 - الراعون للأمانة

وأما موضوعات المجموعة الثانية؛ فهي:

450	61 - حق الطريق	79	11 - الكلمة المقدسة
456	62 - حق الجوار	88	12 - في محاوراة الملحدِين
462	63 - الموسيقى والغناء	96	13 - النَّبِيُّ (آيات الصدق ..)
468	64 - الربا	108	14 - حقوق النَّبِيِّ ..

475	65 - الأعداء في القرآن والسنة	152	20 - في الحلال والحرام
482	66 - وأعدوا لهم ما استطعتم ..	157	21 - العلم والجهل
489	67 - أسباب زيادة الرزق	163	22 - الإخلاص والنية
503	69 - ماذا قدمنا لديننا؟	169	23 - القلوب وما أدراك ..
516	71 - الصلاة على النبي	175	24 - غير المغضوب عليهم..
524	72 - المساجد آداب وأحكام	184	25 - الشبهات والشهوات.
560	78 - الحياء كله خير	193	26 - المكفرات للذنوب.
573	80 - يريد الله بكم اليسر	255	36 - الصائمون.
599	83 - التوكل والأخذ بالأسباب	271	37 - الحجاج.
607	84 - الملعونون	327	45 - من يُحبهم الله تعالى.
659	90 - تصحيح المفاهيم.	338	46 - التوابون.
669	91 - أولياء الرحمن ...	377	51 - النبلاء
675	92 - الظن.	386	52 - القدوة.
682	93 - العدل.	395	53 - الوطن
690	94 - الظلم.	403	54 - المصلحة العامة والخاصة.
699	95 - القبور مشاهد وعبر.	409	55 - صلة الأرحام.
707	96 - من القبور إلى ساحات ..	416	56 - حراسة الفضيلة
718	97 - الجنة	423	57 - الأخلاق.
727	98 - النار	430	58 - سفاسف الأمور ومعاليها
736	99 - أثر الإيمان باليوم الآخر	437	59 - الوقت والفراغ في الأجازات
743	100 - وصايا مودّع	444	60 - السخرية والاستهزاء

وفي ختام هذه المُقدِّمة؛ أقول:

إن كان من توفيق فيما هو مُدَوَّن بين يديك؛ فمن الله تعالى وحده، وأسأله الإخلاص والقبول، وإن كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمَنِّي ومن الشيطان والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم منه براء. وحسبي في ذلك أنِّي قد وضعتُ بين يديك رؤوسَ أقلامٍ لمواضيع أو لأفكارٍ؛ لعلَّها أن تكون على منبرك أو على مكتبك أو في مجلسك أو في بيتك مع أسرّتك في يوم من الأيام بعرضٍ وأسلوبٍ أرقى وأوفى من هذا.

وأعوذ بالله تعالى أنْ أكون ممَّن شغل وقت إخوانه بما لا ينفع، أو أكون ممَّن جعل عمل الآخرة للدنيا.

سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك.

كتبه:

أحمد بن محمد بن حلمي بن عبده (آل الحتة)

دكتوراه - الدعوة والثقافة الإسلامية - جامعة الأزهر

إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف المصرية

قرقية - السنبلوين - دقهلية - مصر.

(ليلة الأربعاء: 21/ محرم/ 1447هـ - 16/ 7/ 2025م).

وبعدُ .. فهاك سِهَامُ الكنانة؛ الواحد يتلوه الآخر

والله المُستعان

في
(الفهم عن الله تعالى وعن رسوله
صلى الله عليه وسلم)

«آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ، عَلَى مُرَادِ اللَّهِ،
وآمَنْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»
"الشافعي رحمه الله تعالى"

بين الوحي والهوى (1)

عناصر الموضوع:

أولاً: المقدمة.

ثانياً: قيادة الوحي (معالم وآثار).

ثالثاً: قيادة الهوى (معالم وآثار).

(الموضوع)

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ﴾ {النجم}؛ وقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ {القصص} فليس ثمّة نطق إلا بأمرين؛ إما بوحى وإما بهوى.

وكما هو معلوم فإن مصدر الوحي هو الله سبحانه وتعالى؛ فكذاك معلوم أن مصدر الهوى هو العقل الإنساني، ونجاة المرء - في أي زمان ومكان - إنما هي في اتباع الأول ومخالفة الثاني.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ] وقال سبحانه عن الذين يتبعون أهواءهم؛ بل ويؤلهونها: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ {الفرقان}؛ وقال عنهم كذلك: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ {الجاثية}.

(1) قد يكون في ثنايا هذا الموضوع ما يخالف المنهج الذي بينته في المقدمة؛ وما ذاك إلا: لأن لها سبباً؛ حيث إنني قد اشتركت في برنامج من البرامج المهمة بمناقشة القضايا الإلحادية والأفكار المنحرفة (صناعة المحاور)، وقد طلب مني القائمون عليه إعداد خطبة من خطب الجمعة؛ فكانت هذه مع بعض التعديلات التي أجريتها عليها بعد.

وعليه فليس من عجب أن يكون شرط كمال الإنسان في إنسانيته بل وفي إيمانه اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم. (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) [أخرجه ابن أبي عاصم في السنة - وذكره النووي في الأربعين].

فالهداية والتوفيق والرشاد إنما هو بما يُوحيه الله تعالى إلى عباده عن طريق رُسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. وكذلك الضدُّ بالضدِّ؛ فإنَّ الضلال والهلاك والفساد بكلِّ أنواعها وصورها وفروعها؛ بل وصيرورة الإنسان إلى حالة هي من أخطَّ الدركات في إنسانيته كالأنعام بل أضل؛ إنما هو: باعتماده على عقله وهواه ونفرتِه عن خالقه ومولاه.

وفي هذه الكلمات القليلة أوضَّحُ إن شاء الله تعالى؛ معالمَ وآثارَ كلِّ من القيادَتَيْن (الوحي والهوى) في قيادتهما للبشرية تعزيزاً لإيمان المؤمنين وتثبيتاً لقلوبهم بأن ما هم عليه إنما هو الحق الذي لا مَرِية فيه؛ بل ولا يُقبل فيه خلاف.

ثانياً: قيادة الوحي (معالم وآثار).

بدايةً لا بد وأن يُعلم أن المقصود بالوحي هنا إنما هو ما أوحى الله تعالى به إلى كلِّ أنبيائه ورسله؛ وليس المقصود هنا؛ القرآن فقط - وإن كان هو خاتمها والمهيمن عليها، بل والناسخ لها - وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قال بعد أن ذكر جملة من الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ {الأنبياء}. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوة لعلات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى ..) [أخرجه البخاري] فوحدة المصدر دليلٌ على اتفاق الغاية وإن اختلفت الطرق الموصلة إليها وهي الشرائع.

ومما لا شك فيه أن هذه القيادة انطلقت في أوائل انطلاقها من مُسلمة يُبنى عليها ما يتفرع عنها من توجيهات وتشريعات؛ وهي مُسلمة الوجود الإلهي فقد قال جلَّ ذكره: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ {إبراهيم} وقوله تعالى عن كثير منهم في آيات شتى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا

لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١٠﴾ فكان خطاباً تذكيرياً لما هو مركز في نفوسهم وليس خطاباً تأسيسياً لأمر لم يعرفوه.

أ - معالم هذه القيادة.

أبرز هذه المعالم تتركز في:

• ربط المدعوين بخالقهم ورازقهم (المصدر الإلهي). وهذا المعلم هو من المعالم المهمة في دعوات الأنبياء والمرسلين؛ فما من رسول ولا نبي إلا ويعلق دعوته بمصدرها الأعلى، وهو الله تعالى؛ فعندما انحرفت البشرية عن طريقها المستقيم الذي ظلت عليه قروناً عدّة - عشرة قرون - من لدن آدم إلى نوح عليهما السلام؛ كانت دعوة نوح صلى الله عليه وسلم فيها ما فيها من ترسيخ لهذا المعلم؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ سورة نوح؛ ثم كانت الرسل من بعده - إذ هو الرسول الأول. ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ - تسيّر على منواله وهديه؛ بل ويأتي من بعده أبو الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه. مُستندلاً على عباد الكواكب بقوله: ﴿ قَالَ يَقُومُ إِنِّي بُرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ {سورة الأنعام} وعلى عبّاد الأصنام بهذا المنهج فيقول: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا

مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ {الشعراء} وكذلك كل الأنبياء والمرسلين صلوات عليهم جميعا. فهو معلم لا يغيب في هذه القيادة الإلهية.

• **الحفاظ على تكريم الإنسان في المركز الذي وضعه الله تعالى فيه بلا إفراط ولا تفريط.**
فالإنسان في الخطاب الالهي له منزلة تتناسبه؛ بحيث تتناسب وما حباه الله تعالى به من القدرات والإمكانات. ففي هذا الخطاب نجد التكريم الإلهي لهذا الإنسان لا يطغى به ليكون إلهاً يُعبد؛ وكذلك لم ينحط به ليكون في منزلة هي كالبهائم أو كالدواب التي لا تعقل؛ بل جعله إنساناً يكون في حاجة إلى من يُذكره إذا نسي، ويشفى أمراضه إذا مرض، ويُطعمه إذا جاع؛ ويكسوه إذا عري، وكذلك هو إنسان في حاجة إلى من يهديه في حيرته ويُرشده إذا ما ضلَّ السبيل، وهذا ظاهرٌ جداً في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ فضمن لي أسباب البقاء وأسباب الحياة؛ بضرورياتها وحاجياتها بل وتحسينياتها ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ من حيرتي وضلالي. فتكريمه إنما هو تكريمٌ بالعدل والقسط وليس تكريماً بالهوى والشهوة؛ فمن العدل أن يُوضع في موضعه الذي وضعه الله تعالى فيه؛ فتكريمه إذاً في كونه عبداً مربوباً مخلوقاً؛ جاء إلى هذه الحياة لغاية وهدف وليس عبثاً؛ وعليه: فإذا ما حقق هذا الهدف كان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ {الحجرات}؛ وإذا ما انحرف عن هذه الغاية انحط بتكريمه الآدمي إلى أن أصبح: ﴿كَأَلَّا نَعْلَمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وسنرى أثر ذلك في قيادة الهوى.

• **تسخير الكون بكل ما فيه؛ تيسيراً للإنسان في تحقيق مهمته الوجودية (العبادة).** من معالم القيادة الإلهية؛ أنها تلفت نظر المدعوين إلى هذا الكون المُسخَّر لفتاً يتفكرون به في خالقه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {الدخان} وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة﴾ ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿البقرة﴾ فهو كون مهية لهذا الإنسان من أجل وظيفته تلك وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿العنكبوت﴾

• **معالجة ما تفشى في مجتمعاتهم من الأمراض.** وهذا معلّم أساسي في هذه القيادة الإلهية؛ إذ أنه: تُعالج من خلالها ما تفشى من أمراض في مجتمعاتها؛ فلم تغض الطرف عنها؛ ولم تقل هذه القيادة: (أعطوا ما لقيصر لقيصر؛ وما لله لله)⁽¹⁾ بل كانت تلك القيادة فيها أوامر متعلقة بالمال والحياة: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿١٧٧﴾﴾ {هود} قيادة متمثلة بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ {الأنعام} وانظر كذلك إلى معالجة لوط عليه السلام لفاحشة نفشت في مجتمعه نكراء تنكرها العقول؛ وكذلك معالجة شعيب لتطيف الموازين.. وغير ذلك، وقبل كل هذا معالجتهم ما ظهر في أقوامهم من عبادتهم لغير الله والتي هي أكبر الفواحش والكبائر.

• **الموازنة بين متطلبات الروح وحاجات الجسد.** ومن معالم تلك القيادة؛ موازنتها بين حاجات الإنسان روحا وجسدا؛ فلم تهمل جانبا على حساب الآخر، بل هي كما اهتمت

(1) مرجع انجيل مرقس: (12: 16-17)؛ يُنسب هذا القول إلى عيسى عليه السلام؛ وله قصة في المكان المشار إليه؛ فقد قال ذلك إجابة على سؤال وجه إليه لم تُدفع الجزية؟ فأجاب بذلك؟ فهل هو من تحريف الكتبة؟ أم من المنسوخ؟ أم ماذا؟ وعلى كل ففي شرعنا ما هو في آية الأنعام المذكورة أعلاه.

بالعقائد والعبادات التي تربط العبد بربه وخالقه؛ كذلك اهتمت بالإنسان في حياته ومعيشته، فنجد فيها تشريعات في المعاملات بشتى أنواعها ما يحلُّ منها وما يحرم، وكذلك الجوانب الاجتماعية وعلاقة الرجل بالمرأة وبناء الأسرة وما صاحب ذلك من السيِّجات الواقية لهذه العلاقة العظيمة، وكذلك التشريعات التي تنظم حياة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة الدُّول بعضها مع بعض، وغير ذلك في شتى صور الحياة وأحوالها؛ في صورة من صور الإعجاز التشريعي الذي يشهد لمُشرِّعه بأنه كما قال عن نفسه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ {المك}. فلم تجعل تلك القيادة أتباعها في صومعات ولا في أديرة معزولين عن دنيا الناس، وكذلك لم يجعلهم عبَّاداً للمادة يربحون منها ويكنزون؛ وإن كان على حساب إخوانهم من بني البشر.

• هذه بعض المعالم لدعوة الوحي الإلهي؛ وأمَّا عن آثارها فهناك بعضها:

ب - آثار هذه القيادة.

وأمَّا آثار هذه القيادة الإلهية فأمر لا يُنكره عاقل؛ فما تقدَّمت البشرية نحو إنسانيتها؛ وما أخذت سبيلاً من سُبُل الرقي والتحضر إلا عن طريق تلك القيادة النبوية:

فهل هناك قيادة كرَّمت الإنسان جنيناً، ثم رضيعاً، ثم طفلاً، ثم فتىً، ثم شاباً، وهكذا إلى أن يُردَّ إلى أرذل العمر؛ هل هناك من كرمه في هذه الأحوال إلا هي؟!.

فهل هناك قيادة كرَّمت الإنسان حياً وميتاً، إلا هي؟

وهل هناك قيادة كرمت مخالفيها؛ حتى ألزمت نفسها بالمحافظة عليهم والدفاع عنهم مع اختلاف عقيدتهم؛ وهذا إذا ما انضمُّوا تحت سلطانها ولوائها؛ إلا هي؟!

وهل هناك قيادة كرَّمت المرأة - حفيدة، وبناتاً، وأختاً؛ ثم زوجة؛ وأمًّا إلى أن تكون جدَّة وهكذا؛ فليست كما يُقال نصف المجتمع إذ هي تلدُّ النصف الآخر؛ فهي المجتمع كُلُّه! فهل من قيادة

كَرَّمَت المرأة بهذا التكريم؟! هل هناك قيادة أفرزت للبشرية مجتمعا من المجتمعات مثل ما أفرزته تلك القيادة في بلاد الإسلام من أمثال: (عمر بن عبد العزيز؛ وهارون الرشيد ..) وما أندلس المسلمين - لا إسبانيا الغرب - عنا ببعيد⁽¹⁾؛ والتي جعلت مُفكراً من مفكري الغرب يتحسّر على توقف الفتح الإسلامي عند بلاط الشهداء؟. أظن أن ذلك لم يكن ولن يكون إلا في ظلال القيادة الإلهية.

إن الحديث عن آثار تلك القيادة حديث ذو شجون؛ وخلاصته: أنه ما من خير نالته البشرية في حياتها وتاريخها الطويل إلا وهو أثر من آثار وحي السماء.

ثالثاً: قيادة الهوى (معالم وآثار).

ما ظنُّك بقيادة ليس لها رابط ولا رادع، وليس عليها رقيب ولا حسيب بل ولا سلطان، وإنما هو الهوى، والذات، والرغبات واللذات التي تهواها النفوس؛ ففضاؤها واسع رُحْبٌ ليس فيه حواجز. فلم تتقيد بقيد ولم تربط نفسها برباط، ولم تعقل عقلها بعقال؛ وإنما تركت أمرها لهواها حتى صيرته إلهًا ومعبودًا؛ ففيها الشهوات مُوجبة مُستعرة؛ فقد ينزو الفحل فيها على أمّه ومحارمه؛ وفيها بيع المرء أعز الأشياء عنده في مقابل شهوة ولذة في ساعة؛ بل في دقائق ثم تتقضي، ولا عصمة فيها للدماء ولا للأرواح؛ بل القوي فيها يأكل الضعيف، والغني يستعبد الفقير، والأنثى ذليلة للذكر ومحطاً لرحله ميراثاً له فقط ... وحسبك من شرّ سماعه دون رؤيته .. فأنا لا أتحدث عن عالم للحيوان وإنما أتحدث عن عالم قيادته في يد الإنسان؛ لا في يد الرحمن جل جلاله وتقديسه أسماؤه.

أ - معالم هذه القيادة.

• **مناهضة الخطاب الديني والقائمين عليه.** تلك وقاحة من وقاحات هذه القيادة؛ إذ أن دأبهم مع رسالات السماء؛ كما كانوا مع القرآن؛ فعنه قال تعالى مُبيناً حالهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

(1) لم أُمثّل بالأعلى من الأمثال؛ كزمن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين؛ اكتفاءً بالأدنى على الأعلى؛

وإنما فعلت ذلك لظهور النموذج المادي الذي يلهث وراءه كثير من الناس في حياة هذه الأمثلة المذكورة أعلاه

كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٦٦﴾ {فصلت}. وقالوا عن نبي: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ {الأعراف} وكذلك قالوا عن آخر: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف] وآخر: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء]؛ ويبدو أن هذا إرث يتوارثه أفراد هذه القيادة؛ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ﴿٥٤﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ {الذاريات} عجيبة جداً هذه المناهضة .. فالقائمون على الخطاب الديني لا يدعون الناس لأنفسهم؛ وإنما يدعونهم إلى الله تعالى؛ لا يريدون منهم أجراً؛ وإنما أجرهم على الله تعالى مقصور، ولا ينسبون الفضل إليهم وإنما ينسبونه لله تعالى. إذا فلماذا هذه المناهضة؟! ليس من جواب إلا أن القيادة الدينية بوحى السماء تنزع وتخلع سلطان الهوى من على تلك النفوس.

● ربط المدعويين بذواتهم وأنفسهم (مدعويين ودعاة) وتلك مصيبة أخرى تُبين لذوي العقول المتحررة من سلطان الأهواء؛ فساد حاكمية الهوى وسلطانه على البشرية، فإما أن يدعو الهوى أصحابه إلى التمسك بتقليد لمجموعة من الآباء ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ {الزخرف} وإما أن يكون لشخص واحد، يُسمع له ويُطاع؛ ولعلَّ هذا الذي قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾؛ من زعمائهم؛ وإما لدينٍ مُحَرَّفٍ أَضَفَىٰ عليه محرفوه مَسْحَةً إلهية؛ وما ذك إلا تدليس وغش لأقوامهم وتقديس لهوى أنفسهم؛ فقد نصبوا أنفسهم أرباباً يُعبدون من دون الله تعالى؛ وفيهم يقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وكذلك قال فيهم: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ {التوبة}. وهذا في السابق؛ وأما في تاريخنا؛ تاريخ البشرية الحديث فكم كان لهذه الأسماء من ويلات على البشرية كلها؛ أمثال: (هتلر، لينين، ستالين، داروين، وفرويد ..) وسواد تلك القائمة القائمة في حياة البشرية يطول.

• إهمال إنسانية الإنسان بتقديس إنسانيته (كمن خاف على ولده فقتله). إن وضع الإنسان في موضع غير الموضع الذي وضعه الله فيه؛ إنما هو من قبيل الجناية عليه، فإذا ما قُدِّس في هذه الحياة تقديساً يرفعه من محكوم إلى حاكم عليها، فإن ذلك سوف يجعله مُستترفاً لكافة الإمكانيات المتاحة له في تحقيق حاكميته تلك؛ وهو بذلك قد جعل نفسه عبداً لهذه الحياة، مُسخراً نفسه لها ولأهلها فحسب. وإلا فما ظنك بإنسان جعل تقدّمه ورُقّيه في هذه الحياة من أجل أن يسعد فيها (اجتماعياً، وطبياً، وعلمياً، وسياسياً، ومعلوماتياً، ورفاهياً) فجعل المركز الذي يدور حوله في هذه الحياة هو إنسانيته فحسب. بغض النظر عن دين يتدين به أو أخلاق يرجوا من ورائها ثواباً في الآخرة، فتقدّمه إنما هو إشباع للجسد بغرائزه ونزواته وليس غير. فهذا إن تسلط على الآخرين إنما هو إشباع لرغبته؛ وإن جمع المال إنما هو لرغبته، وإن قتل فكذا، وإن استعمر فكذا، وإن استحوذ على خيرات الآخرين فكذا. فكل في فلك إنسانيته لا غير.

• نبذ الفضائل؛ وإشاعة المنكرات. وهذه وقاحة أخرى لتلك القيادة؛ ولها أمثلة كثيرة؛ فقد قالوا عن أهل الطهارة والعفاف: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ لأن جريمتهم - في مجتمع الهوى - نكراء!!؛ وهي: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ {الأعراف} بل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ {الأنفال} وهذا أيضاً كأنه وصية يتواصلون بها؛ فقد قال ورقة بن نوفل - وكان على علم بكتب أهل الكتاب - للنبي صلى الله عليه وسلم عندما قصّ عليه خبره من نزول الوحي: (ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك! فيقول رسول الله: أو مخرجي هم؟؛ قال ورقة: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) [أخرجه البخاري]؛ فإذا ما عجز هؤلاء عن إخراج هذه الثلة الطاهرة من بينهم؛ فعلوا كفعل أهل الإفك وقد قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ {النور: 19}. هذه بعض المعالم.

وأما آثارها فكثيرة؛ منها:

ب - آثار هذه القيادة.

يُغني عن ذكر آثارها والاستطراد فيها؛ **معالمها** - عفواً: بل وقاحاتها - التي سبقت.

فما ظهر الإلحاد الذي تأباه العقول السليمة والفطر المستقيمة إلا في ظلامها.

وما أريقَت الدماء ولا أزهقت الأنفس إلا في حرورها؛ إذ لا ظلال لها.

وما استُعبدت النساء؛ بل ولا بعنْ أوكارها.

وما ظهرت الفواحش بكل صورها ووسائلها إلا في حاناتها.

وإلا - فبالله عليكم - من الذي يحمل في هذه الأيام الدعوة إلى الشذوذ الجنسي؟ من الذي

يدعوا إلا تحرير - بل تجريد - المرأة من حيائها وشرفها؟.

بل ما هي القيادة التي إذا ما ملكت؛ قتلت، فلم ترحم أحداً؛ لا رجلاً ولا امرأة؛ ولا كبيراً ولا

صغيراً، ولا إنساناً ولا حيواناً، لا براً ولا بحراً بل ولا جواً ... هل هي قيادة الوحي أم قيادة الهوى؟

اللهم ارزقنا اتباع هداك، وما جاءنا عن رُسلك ومُصطفاك.

وجنبنا الهوى ومُضلات الفتن

إنك أنت السميع العليم

ربِّ اغفر وارحم .. وتجاوز عما تعلم .. إنك أنت الأعز الأكرم.

القرآن الكريم

العناصر:

المدخل

أولاً: أحوال (الجمادات والكفار وأهل الكتاب والجن) مع القرآن الكريم.

ثانياً: من فضائل القرآن.

ثالثاً: فضل التلاوة.

رابعاً: القرآن حجة لك أو عليك.

(الموضوع)

قال الله تبارك وتعالى؛ مُبِيناً عجز الجن والإنس عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء] وزاد هذا الأمر بياناً ببيان عجزهم عن أن يأتوا بعشر سور مثله؛ فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود]، وزاد هذا الأمر إيضاحاً أكثر فأكثر ببيان عجزهم عن أن يأتوا بسورة مثله فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس] بل عن أن يأتوا بسورة من مثله فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] فإذا كان أمر القرآن كذلك، فلا بد من الوقوف معه وقفة نستلهم منها فضائله وأحوال الخلق معه، وبيان شيء من الواجبات علينا تجاهه وغير ذلك. وهذا ما يدور عليه الحديث.

أولاً: أحوال الخلق (الجمادات، والكفار وأهل الكتاب والجن) مع القرآن الكريم.

- أما الجمادات. فلقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر] وقال جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد] والخبر في هذه الآية محذوف لدلالة السياق عليه: أي لكان هذا هو شأن القرآن.

- وأما عن حال الكفار مع القرآن الكريم. ففي حالة غريبة جداً؛ عندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم: سجد في آخرها، وسجد معه الناس جميعاً مسلمهم وكافرهم؛ فلقد روي (أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس) [أخرجه البخاري] دغ عنك الخوض في سبب سجودهم!! فالمهم أنهم سجودوا؛ فهل هو سجود لبلاغته ونظمه أم لسطوته على القلوب والعقول أم ماذا...؟.

- وأما عن حال أهل الكتاب. ففي القرآن الكريم إشارات جليّة على ذلك. فقد قال الله تعالى عن طائفة منهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة]. وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ١٧٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ١٧٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء]؛ بل عندما فاجأ الوحي نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم في الغار ذهبَتْ به زوجته إلى واحد من منهم: (فَانْطَلَقَتْ بِهِ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، وَكَانَ رَجُلًا تَنَصَّرَ، يَقْرَأُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَ وَرَقَةُ: مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَى، وَإِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُّؤَزَّراً) [أخرجه البخاري]، ولما سمع النجاشي بعض القرآن من مهاجرة

الحبشة - كما جاء في كتب السيرة - تأثر به هو وحاشيته ثم قال: (إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ).

- وأما عن الجن. فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿[الأحقاف] وقال أيضاً: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن]. وهنا يقف المرء متعجباً؛ لهذا العجب الذي وجده الجن من القرآن الكريم؛ فهل هو عجبٌ لنظمه ولفظه، أم لأحكامه وتشريعاته، أم لأخباره وقصصه، أم لإحكامه وعدم تناقضه، أم لسهولة وبُسرته مع إعجازه .. سبحان الله العظيم!!.

ثانياً: من فضائل القرآن.

فضائل القرآن؛ أكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تُذكر، فمنها:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَهْلُ الْقُرْآنِ؛ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ) [أخرجه الحاكم في المستدرک].
- وقال: (يُقَالُ لصاحبِ القرآنِ اقرأُ وارتقِ ورتِّلْ كما كنت تُرتِّلُ في الدنيا فإنَّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها) [أخرجه أبو داود والترمذي].
- وقال: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ). قال: وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان، حتَّى كَانَ الْحَجَّاجُ قَالَ: وَذَلِكَ الَّذِي أَفْعَدَنِي مَفْعَدِي هَذَا. [أخرجه البخاري] وأبو عبد الرحمن السلمي أحد مشاهير القراء علَّم الناس القرآن من إمرة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى زمن الحجاج وسبب هذه المدة الطويلة هو هذا الحديث!! كما قيل في شرحه.
- وقال: (مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ) [أخرجه البخاري ومسلم].

• وروي: (أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنُ أَبْرَى، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْرَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ) [أخرجه مسلم].

• وكذلك روي: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أَحَدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمَا أَكْثَرَ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ..) [أخرجه البخاري وغيره]. ولكن أي تكريم لهذا الذي أخذ من القرآن أكثر من أخيه .. فلا يضره أن يدفن في الأمام أم في الخلف .. فوق الأرض أم تحتها .. إنه قد مات!! ولكنها رسالة للأحياء قبل أن تكون لحاملي القرآن.

ثالثاً: فضل التلاوة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر]. وقال الطبري بسنده عن مطرف بن عبد الله أنه قال في هذه الآية: «هذه آية القراء».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ أَلِفَ حَرْفٍ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مَ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ) [أخرجه الترمذي].

وقال عليه الصلاة والسلام: (اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّاتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغْنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ) [أخرجه مسلم].

وقال عليه الصلاة والسلام: (الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ فِي الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصَّيَّامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتَهُ الطَّعَامَ وَالشَّهْوَةَ فشفَّعني فيه، ويقولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتَهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فشفَّعني فيه قال فيشفعان) [أخرجه أحمد].

معنى التلاوة: وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا معنى التلاوة؛ فمعناها كما هو معروف، ولها معنى آخر وهو: الاتباع؛ قال ابن الجوزي في تفسيره: «وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُونَ﴾ قَوْلَانِ. أَحَدُهُمَا: يَقْرَءُونَ. وَالثَّانِي: يَتَّبِعُونَ». فلا بد وأن نكون على علم بهذا المعنى، إذ كيف يجوز لنا أن نُقيم حروف القرآن أحسن إقامة؛ ونحن مُضِيعِينَ لحدوده وقواعده وأحكامه. ولذلك كان العنصر الأخير في هذا اللقاء؛ وهو:

رابعاً: القرآن حجة لك أو عليك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعَ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوْبِقُهَا) [أخرجه مسلم].

يكون القرآن حجةً لك إن عملت بما فيه، وحجة عليك إن لم تعمل بما فيه، حتى وإن كنت له تاليا وله معلماً؛ فمن أول من تُسعر بهم جنهم ثلاثة. منهم قارئ للقرآن: (فيقولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ بلى يَا رَبِّ. قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ قَالَ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فيقولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وتقولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ ويقولُ لَهُ اللَّهُ بل أردت أن يقالَ فلانٌ قارئٌ؛ فقد قيلَ ذلك) [أخرجه الترمذي]، وكان من هدي الصحابة رضي الله عنهم في تعلُّم القرآن كما قال عبد الله بن مسعود: (كُنَّا نَتَعَلَّمُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، فَمَا نَعَلَّمُ الْعَشْرَ الَّتِي بَعْدَهُنَّ؛ حَتَّى نَتَعَلَّمَ مَا أُنْزِلَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ مِنَ الْعَمَلِ). فالعملُ العملَ حتى ننتفع بالقرآن ويكون لنا لا علينا.

همسة في أذن مُعلّمي القرآن الكريم في المدارس أو المعاهد أو الحلقات.

الصبر .. الصبر؛ فقد كتب الله تعالى لكم الأجر؛ وانظروا إلى هذا المِثال: « جاء في طبقات الشافعية أن الربيع بن سليمان - رحمه الله - كان بطيء الفهم، فكرر عليه الشافعي - رحمه الله - مسألة واحدة؛ أربعين مرة فلم يفهم!، فقام الربيع من المجلس حياءً، فدعاه الشافعي في خلوة وكرر عليه حتى فهم، وقال له: ياربيع! لو قدرْتُ أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه» أخرج البيهقي في مناقب الشافعي. وقد أراد الله تعالى أن يتولى نقل علم الشافعي هذا الطالب الذي كان بطيء الفهم!!.

قال الإمام الآجري في كتابه "أخلاق العلماء" في أوصاف العالم إذا عُرِف بعلمه: «فأما أخلاقه مع مجلسيه فصبور على من كان ذهنه بطيئاً عن الفهم حتى يفهم عنه، صبور على جفاء من جهل عليه حتى يرده بحلم،.. ولا يعنف السائل بالتوبيخ القبيح فيخجله».

فإياك ثم إياك من هذا؛ وبخاصة؛ إذا ما علمت أو تيقنت من زهادة الناس فيما معك .. فلا يجتمع على التلاميذ مثبّطان (تزهيد من الناس فيما معك) (وتتغير منك عن ما معك).

والحمد لله رب العالمين

السنة النبوية

العناصر:

مقدمة "في معنى الشهادتين".

أولاً: اقترانات بيّنات.

ثانياً: مركزية السنة النبوية في فهم القرآن الكريم.

ثالثاً: عقوبات لمخالفات.

(الموضوع)

من المعلوم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) [أخرجه البخاري]. فأول هذه الأركان هو ركن الشهادتين؛ وهذا الركن ينقسم إلى شقين؛ والثاني منهما: (وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) والذي يعني - كما قيل -: «طَاعَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ» فلا بد من هذه الأربع في تحقيق معنى الشهادة بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الشهادة لا بد فيها من شروط وضوابط حتى لا نكون فيها من الكاذبين المنافقين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون] فشهدوا للرسول بالرسالة ومع ذلك كذبهم الله عز وجل!!

ولبيان أهمية السنة النبوية المطهرة؛ ننظر في هذه الأمور:

أولاً: اقترانات بينات.

فقد جاء في القرآن الكريم الاقتران بين (الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم)، وبين: (القرآن والسنة) وبين: (طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم). وغيرها. فلا يصح أن يتخلف أحد الشيئين عن الآخر.

فمثلاً:

- في الطاعة؛ فلا تنفك طاعة الله تعالى عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء] بل وجعل الله تعالى طاعة نبيه صلى الله عليه وسلم طاعة له؛ فقال جلّ ذكره: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء].

- وفي محبة الله تعالى وارتباطها بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران].

- وفي اقتران القرآن بالسنة نصوص كثيرة منها. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب] قال ابن جرير: «يعني بالحكمة: ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُوشِكُ الرَّجُلُ مَتَكَنًا عَلَىٰ أُرِيكَتِهِ يَحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحَلَّلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ إِلَّا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) [ابن ماجه في سننه].

- وعند التنازع فلا سبيل إلى رد المتخاصمين إلا إليهما أو إلى أحدهما. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء]

- مصدرهما واحد؛ "هو الوحي الإلهي". قال الله تعالى: ﴿وَالْتَجِمَ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعُهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه، فنهتني قُرَيْشٌ عن ذلك، وقالوا: تكتبُ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ في الغضبِ والرضا، فأمسكتُ حتى ذكرتُ ذلكَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرجَ منه (إلا حقٌّ) [أخرجه أحمد وأبو داود].

ثانياً: مركزية السنة في فهم القرآن.

هناك قاعدة تضافر العلماء على ذكرها؛ في هذا المقام؛ وهي: «القرآن إلى السنة أحوج من السنة إلى القرآن». وهذا يعني أن فهم القرآن لا يتسنى لنا إلا إذا رجعنا إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد لا يستقل القرآن بالحكم إلا بعد البيان النبوي له، أما السنة على العكس فقد تستقل بالحكم دون الرجوع إلى القرآن الكريم.

ومن الأدلة على ذلك:

أركان الإسلام العملية من الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لن نستطيع الوقوف على تفاصيلها من الشروط اللازمة لها، والأركان التي تقوم عليها، والسنن المكملة لها إذا لم نرجع إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم في بيانها.

ومن الآيات البينات في الدلالة على هذه القضية؛ أن هناك نصوص من القرآن إذا قطعناها عن التفسير النبوي ستؤدي إلى إشكالات كثيرة، منها:

• قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة].
فنفهم من عموم هذه الآية أن الميتات بأنواعها كلها محرمة؛ وكذلك الدماء، ولكننا إذا رجعنا إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم سنجد استثناءات لهذا العموم؛ وهو الأثر: (أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ وَدِمَانٍ: فَأَمَّا الْمِيتَتَانِ فَالْجَرَادُ وَالْحِيتَانُ، وَأَمَّا الدِّمَانُ فَالطُّحَالُ وَالْكَبِدُ) [أحمد وابن ماجه؛ والصحيح هو الموقوف عن عبد الله بن عمر] وفي الحديث الآخر: (سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأ به عطشنا أفنتوضأ من ماء البحر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الطهور ماؤه الحل ميتته) [أخرجه البخاري]. فلو اقتصرنا على الآية لكان أكل السمك والكبد والطحال حراماً!!.

• قال الله تعالى بعد أن ذكر المحرمات في الزواج من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ [النساء]. فما عداهن حلال بنص الآية؛ ولكن تأتي السنة وتستثني شيئاً آخر من عموم هذا الحل وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا) [أخرجه البخاري ومسلم].

• وقول الله تعالى في آيات الصيام عندما ذكر وقت بداية الصيام ونهايته: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة]؛ فظاهر الآية يدل على إباحة الأكل والشرب إلى أن نستطيع التمييز في سواد الليل بين خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود - وقد فهم منها ذلك عدي بن حاتم رضي الله عنه ؛ فقال: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ، مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ أَهُمَا الْخَيْطَانِ، قَالَ: إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا، إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: إِنْ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ) [أخرجه البخاري] -. فلو لم يكن البيان من النبي صلى الله عليه وسلم لأوهم النص إشكالات كثيرة!!.
وغير ذلك من الدلائل الواضحة على لزوم الرجوع إلى التفسير النبوي في فهم القرآن الكريم.

ثالثاً: عقوبات لمخالفات.

حذر الشرع الشريف من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم؛ بل رتب على مخالفة أمره عقوبات رادعة، وجاء ذلك في نصوص كثيرة؛ منها:

قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور] والفتنة التي رتبها الله تعالى على مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال أهل التفسير؛ إما: الضلال، أو البلاء في الدنيا، أو الكفر. وقد قال جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء]. وفي نص عام عن الرسل جميعاً؛ يقول الله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيَّةٍ عَذَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق]. وكذلك بعد أن ذكر الله تعالى جملة من الرسل وما فعله أقوامهم من التكذيب قال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَعَ السِّيفِ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) [أخرجه أحمد في المسند]. وقال أيضاً: (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) [أخرجه البخاري].

وكتدليل على هذا العقاب الذي حذرنا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم منه؛ ما حدث للمسلمين في غزوة أحد من الهزيمة بعد النصر، وما كان هذا إلا بسبب مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من الرماة الذين كانوا على الجبل؛ وفي ذلك يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ

وَعَدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مِمَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿آل عمران﴾.

ومثال آخر: في غزوة تبوك؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستهبُّ عليكم الليلة ريحٌ شديدةٌ. فلا يقيمُ فيها أحدٌ منكم. فمن كان له بغيرٌ فليشدَّ عقاله "فهبتُ ريحٌ شديدةٌ. فقام رجلٌ فحملته الريح حتى ألقتَه بجبلي طيِّئٍ) [أخرجه مسلم] وهذا جزاء المخالفة.

وإذا أردتَ أن تعلم ما السبب فيما آل إليه أمر المسلمين اليوم؛ فانظر في حجم مخالفاتهم لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم في كافة شئون الحياة؛ فلما خالف مجموعة من الصحابة رضي الله عنهم أمراً واحداً!! .. كان ما كان في غزوة أحد .. فما بالنا نحن والأوامر التي خالفناها لا نُحصى كثرة!!.. فالله المستعان.

فالواجب علينا هو طاعةُ النبي صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

الصحابة رضي الله عنهم.

العناصر:

مقدمة (في أهمية الإسناد وماهيته وأنه من الدين).

أولاً: آيات وأحاديث في فضائل الصحابة رضي الله عنهم.

ثانياً: جهودهم في نقل الدين (تعليماً وتعلماً وجهاداً).

ثالثاً: خطورة الطعن فيهم.

(الموضوع)

هناك مميزات ميّز الله بها أمتنا عن غيرها من الأمم؛ منها: أن دينها منقولٌ جيلاً عن جيلٍ؛ بضبط وإتقان تامٍ لا ينخرم، فنعلمه من خلال سلسلة من العلماء الأثبات، والجيال الثقات في العلم والدين والحفظ والإتقان؛ يُوضّح ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن المبارك؛ قال: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء». وقال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال، خص الله به المسلمين دون سائر الملل».

يعلم هذا الأمر جيداً غيرُنا ممن تاه دينُهُ وضاع؛ فعملوا على جمعه وترقيعه من هنا وهناك؛ فليس عندهم ما عندنا من الإسناد المتصل، ولا من الإتقان والضبط الذي تميّز به ديننا.

وعلى رأس هذه السلسلة المباركة التي نقلت لنا ديننا هم: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا اللقاء سيكون مُبيّناً لفضائل الصحابة رضي الله عنهم، وما فعلوه في نقلهم لديننا، ثم موضّحاً خطورة الطعن فيهم.

أولاً: آيات وأحاديث في فضائل الصحابة رضي الله عنهم.

من الآيات التي وردت في فضلهم؛ قوله سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح]، فقد زكاهم الله سبحانه وتعالى في ظاهرهم: (بالصلاة رُكَّعًا وسُجَّدًا)، وفي باطنهم فلا يبتغون ولا يريدون إلا وجه الله تعالى. وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ آلِهِمُ الدَّارُونَ وَقَرَّبَهُمُ الْأُولَىٰ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ آلِهِمُ الدَّارُونَ وَقَرَّبَهُمُ الْأُولَىٰ وَالَّذِينَ أَتَّبَعُوهُمْ يُبَدِّلُ اللَّهُ وَجْهَ اللَّهِ عَنَّا وَرِضْوَانًا عَنَّا وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة]، وقال أيضاً في وعدٍ منه لا يتخلف: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد] والحسنى: هي الجنة.

- وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح].

ومن الأحاديث.

- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، قَالَ: فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: أَحْسَنْتُمْ - أَوْ أَصَبْتُمْ - قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِّمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ) [أخرجه مسلم] فوجود

الصحابه رضي الله عنهم أمانٌ للأمة من الفتن والبدع والهلاك، كما جاء ذلك عن عمر رضي الله عنه في حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه؛ حيق يقول : (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ، .. ، وَلَكِنْ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَيُّكُسْرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: يُكُسْرُ، قَالَ: إِذَا لَا يُغْلَقُ أَبَدًا، قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ فَهَبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُدَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ) [أخرجه البخاري].

- عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانُهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتُهُمْ) [أخرجه البخاري].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ) [أخرجه مسلم].

- وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَاثْبَعَتْهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وَرَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ) [أخرجه أحمد في المسند وهو صحيح موقوف].

ثانيًا: جهودهم في نشر الإسلام.

- لنا أن نتخيل الصحابة الذين هاجروا من المدينة أو من الجزيرة العربية إلى: (مصر)، (والشام؛ وهي: فلسطين والأردن ولبنان وسوريا)، و(العراق)، و(اليمن)، و(الفرس والروم)،

و(الحبشة) .. وغيرها من البلدان التي تشرفت بأقدام الصحابة عليها. وجلسهم فيها وتعليمهم العلم النافع ونشر الهداية والنور إلى العالمين.

- و(لَمَّا كَانَ يَوْمٌ بَدَرَ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِرْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ، مَا دَامَا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ..) [أخرجه مسلم] فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة الله تعالى في الأرض معلقةً ببقائهم وزوالها معلقاً بزوالهم.

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، فَيَغْزُو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُونَ: فَيْكُمْ مَنَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، فَيَغْزُو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فَيْكُمْ مَنَ صَاحِبَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، فَيَغْزُو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فَيْكُمْ مَنَ صَاحِبَ مَنَ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ) [أخرجه البخاري].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة) [أخرجه أحمد].

ثالثاً: خطورة الطعن فيهم.

- الطعن فيهم علامة من علامات النفاق؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ) [أخرجه البخاري]. وكذلك ما جاء: (أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرِو

- وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَ،
إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَاءُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ،
فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةٍ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ
نُخَالَةٌ؟! إِنَّمَا كَانَتْ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وَفِي غَيْرِهِمْ) [أخرجه مسلم]. والنخالة ما يبقى من القمح بعد أخذ
الدقيق من القشر. فأراد هذا الطاعن في أصحاب رسول الله أن هذا الصحابي الذي نصحه بهذه
النصيحة ليس من فضلاء الصحابة ومشاهيرهم وأعلامهم؛ بل هو من المغمورين!!.

- يؤدي إلى طمس معالم الحلال والحرام. فهم الذين نقلوا لنا مراد الله ومراد رسوله صلى الله
عليه وسلم من الآيات والأحاديث في بيان الحلال والحرام؛ فمثلاً: (عن عُرْوَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ زَوْجِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السَّنِّ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى (إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ
شَعَائِرِ اللَّهِ) فما أَرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئاً أَنْ لَا يَطُوفَ بِهِمَا، قَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ: كَانَتْ
فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطُوفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ وَكَانَتْ مَنَاةُ
حَذَوَ قُدَيْدٍ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) [أخرجه أبو داود].

- يؤدي إلى الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم. فكما هو معلوم قول الرسول صلى الله
عليه وسلم: (المرءُ على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالط) [أخرجه أبو داود]، وفي هذا يقول ابن
تيمية ناقلاً: «القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم قدح فيه عليه
السلام، كما قال الإمام مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم، إنما طعنوا في أصحابه ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً
صالحاً لكان أصحابه صالحين». فأصحاب الرجل هم علامة على حسن سلوكه وأخلاقه ودينه فإذا
كانوا على هئية حسنة كاملة فهو كذلك.. والعكس بالعكس.

- إعلام من الله بالحرب .. لمن طعن فيهم أو انتقصهم. وقد قال الله تعالى في الأولياء
والصالحين وهم السادة فيهم: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ

أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَبَدَهُ الَّذِي يَبْطِشُ بِهِ، وَرِجْلَهُ الَّذِي يَمْشِي بِهِ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]. وَهُمْ كَذَلِكَ يَدْخُلُونَ فِي سَادَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَوَعَّدَ اللَّهُ مِنْ آذَاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمِلُوا بُهْتَانَنَا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الْأَحْزَاب].

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَرْضَى عَنْهُمْ وَأَنْ يَتَرَحَّمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَمْتَنِلَ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ؛ فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الْحَشْر].

والحمد لله رب العالمين.

التزكية

الغناصر:

المدخل.

أولاً: أهمية التزكية (نصوص من القرآن والسنة)

ثانياً: ماهيتها ومعناها.

ثالثاً: من وسائل تزكية النفوس.

رابعاً: وقد خاب من دساها.

(الموضوع)

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم؛ مُظهراً في ذلك مِنِّته علينا فقال جلَّ ذكره: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران]. فهذه هي وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم: (يتلوا علينا الكتاب - يُزكينا - يُعلمنا الكتاب والحكمة). وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم مُعَاتِباً إِيَّاهُ في أَمْرِ الأَعْمَى الذي جاء طالباً زكاة نفسه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۖ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۖ﴾ [عبس]

وليست هذه وظيفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقط؛ بل كلُّ الأنبياء كذلك، فقد قال الله تعالى عن موسى عليه السلام في قِصَّتِهِ مع فِرْعَوْنَ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ ۝١٦ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۖ ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۖ ۝١٨ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات]؛ بل كانت هذه القضية حاضرة في دعاء إبراهيم عليه

السلام بعدما رفع البيت هو وولده إسماعيل عليهما السلام؛ فقد قال الله تعالى في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة]؛ وليس في دعائه فقط؛ بل وفي صُحفه التي قال الله تعالى عن شيء مما كان فيها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٥ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ١٦ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٧ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى].

أولاً: أهمية التزكية (نصوص من القرآن والسنة).

وقبل أن أوضح معنى التزكية؛ أودُّ أن أذكر شيئاً مما يدل على أهميتها.

فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ٧٥ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه].

وقال الله تعالى بعد قسمٍ متعدد على مُقسم عليه وهو فلاح مَنْ زَكَّى نفسه وخسارة مَنْ دَسَّاهَا. فقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَلَهَا ١ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّلَهَا ٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَدَهَا ٥ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَلَهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الفلاح مرتبطاً بها؛ فقال جلَّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر].

وجاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ قال: (لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ؛ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي

أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا) [أخرجه مسلم].

ثانياً: ماهيتها ومعناها.

وبعد ذكر هذه النصوص الدالة على أهميتها؛ لابد من إيضاح معناها وبيان سبيلها ثم وسائلها. فأقول:

يظهر هذا المعنى من قول الله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف]، وفي نفس السورة عند قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿قَالَ أَقْتُلْ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف]. فكما أن الطعام الصالح للتناول لابد وأن يكون خالياً وبعيدا من عن ما يفسده على متناوليهِ، وكذلك الغلام الذي لم يزل قبل سن البلوغ ولم يجر عليه قلم التكليف فلم يرتكب آثاماً تؤثر على طهارته التي ستتغير وتتبدل بعد حين؛ عندما يرهق أبويه طغيانا وكفر. فكذاك ينبغي أن يكون هذا المعنى حاضرا معنا في طهارة النفس وتركيتها فكما نُظهر أرضنا من الشوائب وطعامنا من المفاصد علينا كذلك أن نُخلي أنفسنا من جميع الأمراض القلبية التي تؤثر على سلامتها بين يدي الله عز وجل.

وطالما أن هذه النفس مخلوقة لله عز وجل فلا بد وأن نطلب تركيتها منه عز وجل. وأن ننظر فيما دللنا عليه من أجلها فهو القائل: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور] لأنه سبحانه وتعالى أعلم بخلقه من خلقه بأنفسهم.

ثالثاً: من وسائل تزكية النفوس.

- العبادات وطاعة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم. فمن أراد أن يُزكي نفسه فعليه بأداء العبادات التي افترضها الله عز وجل عليه من طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله

صلى الله عليه وسلم وكذلك سائر التشريعات؛ فقد قال جل ذكره: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب] وقال عن الزكاة أيضاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة] وقال تعالى في بيان أحكام الاستئذان: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور] وقال سبحانه بعدها في غص البصر: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور] وقال كذلك في آيات الطلاق وأحكامه في سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَوْمٌ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذه التشريعات صادرة عن الله عز وجل، فهو الذي خلقنا وهو الذي يعلم ما يصلحنا وما يطهر نفوسنا؛ فهو القائل عن نفسه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. بل وفي صلاة الجماعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُتَنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا؛ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَإِنَّ الصَّفَّ الْأَوَّلَ عَلَى مِثْلِ صَفِّ الْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ فَضِيلَتَهُ لَابْتَدَرْتُمُوهُ، إِنَّ صَلَاتَكَ مَعَ رَجُلَيْنِ أَزْكَىٰ مِنْ صَلَاتِكَ مَعَ رَجُلٍ، وَصَلَاتُكَ مَعَ رَجُلٍ أَزْكَىٰ مِنْ صَلَاتِكَ وَحْدَكَ، وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ) [النسائي في السنن]، وإياك أن تقول كما يقول المقصرون في العبادات والطاعات (أهم شيء ما في القلوب!!) وكذبوا فلو صفت قلوبهم وطهرت لهرعت إلى عبادة الله عز وجل.

— ذكر الله عز وجل والقرآن الكريم. ذكر الله عز وجل هو الشفاء من كل داء؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء] فمن أراد تزكية نفسه وطهارتها فعليه بذكر الله تعالى وهو القرآن والسنة؛ والذي إذا أعرض عنه المرء كان في معيشة ضنكا، وعليه فمن أراد تزكية نفسه وطهارتها فعليه به وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أُتَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ

وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟!، قالوا: بَلَى، قال: ذِكُرْ اللَّهَ) [الترمذي في سننه]. وفي الأثر وهو مرسل: (إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ، قِيلَ: فَمَا جَلَاؤُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: تَلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ وَكَثْرَةُ ذِكْرِهِ) [البيهقي في الشعب]. وَيُرَوَّى عَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ طَهَرْتُ قُلُوبَكُمْ مَا شَبَعْتُمْ مِنْ كَلَامِ رَبِّكُمْ».

- ذِكْرُ الْمَوْتِ وَالْدَارِ الْآخِرَةِ. وقد قال الله سبحانه وتعالى عن جملة من أنبيائه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص] وفي تفسيرها: «إِنَّا خَصَصْنَاهُمْ بِخَاصَّةٍ عَظِيمَةٍ، حَيْثُ جَعَلْنَا ذِكْرَ الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَعَمَلُوا لَهَا بِطَاعَتِنَا، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَذَكَّرُوهُمْ بِهَا». وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ) [أخرجه الترمذي] فَأَكْثَرُوا أَحْبَبْتِي ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ - الْمَوْتِ - فَإِنَّهُ مَا كَانَ فِي كَثِيرٍ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلَا قَلِيلٌ إِلَّا جَزَاءُهُ. فالموت: تلك الحقيقة التي يستسيغ بها الصالحون حياتهم وما فيها من الآلام، ويفزع منها العصاة والطالحون فَيُنْغَصُ عَلَيْهِمْ عَيْشُهُمْ.

- الْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ. أدب الظاهر عنوان أدب الباطن؛ فإذا كان الظاهر حسناً كانت النفس حسنة، وإذا كان سيئاً في ظاهره كان في باطنه كذلك. وإلا لو أن رجلاً ادَّعى أن نفسه طاهرة ومع ذلك لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ويؤذي جيرانه بلسانه وجوارحه.. هل هذا يُصدق؟! وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم استقامة الظاهر دليلاً على استقامة الباطن فقال: (عِبَادَ اللَّهِ لَتُسْوَونَ صَفَوْفَكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجْهِكُمْ) [أخرجه البخاري ومسلم]. فالصدق والوفاء والرحمة والرأفة والمحبة والمودة والألفة وغيرها من الأخلاق لها أكبر الأثر في تركية النفس

رابعاً: وقد خاب من دساها⁽¹⁾.

قال أهل التفسير في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ «وقد خسر من دس نفسه مخفياً إياها في المعاصي والآثام». ومن الآثام التي تسببت في تدسية النفوس وحرمانها من الزكاة:

- الذين يكتُمون ما أنزل الله عز وجل وكذلك يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران].

- ومنهم أصحاب هذه المعاصي: (ثلاثة لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، - قال أبو معاوية: - ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شيخ زان، ومَلِكٌ كَذَّابٌ، وعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) [أخرجه مسلم].

- وكذلك منهم: (ثلاثة لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ: المَنَّانُ الذي لا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، والمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْفَاجِرِ، والمُسْبِلُ إزاره. وفي رواية: ثلاثة لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (أخرجه: مسلم).

- ومنهم: (ثلاثة لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ، يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنُ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَقَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا) [أخرجه البخاري].

أسأل الله تعالى أن يُطَهِّرَ قلوبنا؛ وأن يجعلنا صالحين مُصلحين إنه جواد كريم.

(1) أُحِبُّ في ذكر هذه الخصال أن تُذكر في هذا الموطن سرداً دون تفصيل.

علاقاتُ للمُسلم⁽¹⁾

العناصر:

أولاً: علاقة المسلم بخالقه سبحانه وتعالى (عبودية).

ثانياً: علاقة المسلم بالكون (تسخير).

ثالثاً: علاقة المسلم بالإنسان (عدل وإحسان).

رابعاً: علاقة المسلم بالحياة (ابتلاء).

خامساً: علاقة المسلم بالدار الآخرة (مسئولية وجزاء).

(الموضوع)

الإنسان لم يُخلق عبثاً؛ وإنّما هو مخلوق في هذه الحياة لهدف وغاية، فوجوده في الحياة ليس صدفةً ولا هملاً؛ فقد قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون] «أَي: أَفَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قَصْدٍ وَلَا إِرَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا» وقال جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة] «لَيْسَ يُتْرَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، وَلَا يُتْرَكَ فِي قَبْرِهِ سُدًى لَا يُبْعَثُ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، مَحْشُورٌ إِلَى اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ».

ولأجل ذلك.. كان المُسلم في هذه الحياة مُطالباً بإقامة علاقاتٍ تُحقق له قضية الإِتران بينه وبين الموجودات من حوله، وبينه وبين خالقه الذي أوجده وكلفه، وبينه وبين الدار الآخرة التي يلقي فيها جزاء ما قدّم. وضبط هذه العلاقات سيجعل المُسلم في هذه الحياة يعيش حياة مُستقرّة مطمئنّة؛ فلن يسخط إذا ما تعرض لأزمة من الأزمات، ولن يطغى إذا ما فُتح عليه من النعم، ولن ينسى حجمه وقدره في هذه الحياة إذ هو مخلوق؛ والله تعالى خالقٌ، وكذلك ضبط صورة التعامل مع

(1) مستفادة من كتاب: فلسفة التربية الإسلامية، د/ ماجد عرسان الكيلاني.

المخلوقات التي سُخِّرَت من أجله ولم يُسَخَّر هو من أجلها، وكذلك التعامل مع إخوانه ممن شاركوه العقل والتكليف؛ عند الإحسان أو الإساءة وغير ذلك.

فمثلاً .. علاقة المسلم في بلده تختلف أحوالها باختلاف أحواله؛ فكونه: (مواطناً، أباً، ابناً في أسرة، مُديراً، موظفاً، قريباً في عائلة، تاجراً، سائقاً، ..) كلُّ هذه العلاقات لها حقوق، ولا يستطيع التملُّص من أحدها مُحتجاً أنه مشغول بأخرى؛ فهو معها كمن يصنع دوائر اتصالٍ، ولكن كل دائرة لها طبيعتها وخصوصيتها.. فهذا مثال عقلي يوضح المراد من ذكر هذه العلاقات التي يتميز بها المسلم. ولأجل هذه العلاقا كان هذا اللقاء. فأقول مُستعيناً بالله تعالى:

أولاً: علاقة المسلم بخالقه سبحانه وتعالى (عبودية).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىْ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

فطبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق إذا: هي (العبودية)؛ أن يكون المخلوق عبداً لله تعالى لا لشهواته ونزواته وهواه.

ولأجل ذلك .. فقد جاء بها جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل].

والعبودية .. لا ينحصر معناها في العبادات المعروفة بأركان الإسلام العملية؛ من صلاة وصيام وزكاة وحج فحسب؛ وإنما تشمل مظاهر الحياة؛ بل والموت كذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ

إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ [الأنعام]. فالعبودية: اسم جامع لكل ما يُحبُّه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة والبراءة مما يُنافي ذلك ويُضاده.

ثانياً: علاقة المسلم بالكون (تسخير).

وهذه العلاقة يوضحها قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية]. وهذه اللفظة: (لكم). هي تشريف وتكليف لمن يعقل ويتفكر ويفهم سبب وجوده في هذه الحياة.

والحذر كلُّ الحذر من أن ينقلب التسخير على الإنسان بعد أن كان له؛ فقد قال الله تعالى عن قوم سَخَّرَ لهم ما حولهم من المخلوقات؛ فكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، وكانوا في قوة ومنعة، وكانوا .. وكانوا.. ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت].

وهذا التسخير إنما هو لتحقيق العلاقة التي بين الإنسان وخالقه وهي العبادة؛ فقد قال جلَّ ذكره: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَعَاتِكُم مِّن كُلِّ مَاءٍ سَالِثُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم]. فالشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والبر بما في باطنه، والبحر بما في أعماقه، والجو بما فيه، بل وجميع ما تقع عليه الأعين من هذا الكون الفسيح، هو مُسَخَّرٌ للإنسان؛ إقامة الحياة باستخلافه فيها وتعميرها، وتحقيقاً لعبودية الله تعالى.

ثالثاً: علاقة المسلم بالإنسان (عدل وإحسان).

المُسلم لا يخلو في حياته اليومية عن التعامل مع المخلوقات على اختلافها ألوانها وأشكالها وطبائعها؛ وهو مأمور بتحقيق مقامين أساسيين في هذا التعامل. وقد جاء الأمر بهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل]؛ وعليه:

فالمقام الأول: الإحسان. فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ بل ويتجلى أثر هذا الإحسان وأهميته في رجوع أثره إلى صاحبه، فقد قال سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء]، ومن كان طريقه وسمته الإحسان مع الخلق فإن جزاءه الإحسان؛ فقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن].

ومما يبين عموم مقام الإحسان قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليجد أحدكم شفرته، وليرْح ذبيحته) [أخرجه النسائي].

فالإحسان مطلوب مع كل أحد؛ مع الأقارب، ومع الزوجين، ومع الحيوانات بل ومع الأعداء، والإحسان مطلوب كذلك في كل الأحوال التي تعتري الإنسان؛ في حال الحرب والسلم، في الجدل والمناظرات وحال الدعوة والموعظة الحسنة.

والمقام الثاني: العدل.

فلابد وأن يكون عادلاً؛ فلا يجور، ولا يحيف، ولا يعتدي، ولا يظلم.. فالعبد مأمور بالعدل حتى مع من ناصبوه العدا؛ فقد قال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة]، وقال أيضاً في توضيح علاقة المسلم بغيره إذا التزم هذا الغير بما يُمليه عليه أهل الإسلام: ﴿لَا

يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿الممتحنة﴾

ومن العدل: العدل في الأقوال حتى ولو كان على قريب أو صديق، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام].

ومن العدل: العدل في الكتابة والإملاء والإشهاد والحكم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ .. فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة] وقال جل ذكره: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء].

والعدل في كل شيء معلّم أساس من معالم الإسلام؛ فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِّن نُّورٍ، عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ - وَكُنَّا يَدِيهِ يَمِينٍ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا) [أخرجه مسلم].

وفي إشارة جامعة إلى مقامي العدل والإحسان؛ يقول الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذا العدل؛ وأما الإحسان الذي يأتي بالإصلاح: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى].

رابعاً: علاقة المسلم بالحياة (ابتلاء).

الحياة التي يعيش فيها المسلم؛ وُضِعَتْ للابتلاء والامتحان، سواءً في ذلك الخير والشر، فقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك]، وقال أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء] وقال أيضاً: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا

أَبْتَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿[الفجر]، وقد قال تعالى مُبِينًا أَصَالَهَ الْإِبْتِلَاءَ فِي أَصْل خِلْقَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان]

وحتى تفاوت الناس في الدرجات الحياتية؛ إنما هو ابتلاء واختبار لأصحاب كل درجة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام]. فما هو حالك في هذه النعم التي تتقلب فيها ليل نهار، وما هو حالك في الدرجة التي جعلها الله تعالى لك في الدنيا فجعلك في مكان وتحتك آخرون يأترون بأمرك وينتهون بنهيك؟.

وحتى لا تَسْتَرِيبَ من حتمية هذا الابتلاء وخاصة في جانب الشر؛ أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَاهِدْنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) [أخرجه مسلم]. فاعلم أن الله تعالى لا يُنسب إليه الشرُّ أبدًا؛ فأفعاله كلها خير، وإن وُصِفَتْ بالشر فإنما هو بالنسبة إلى شخص واحد فقط؛ هو من أصيب بها، فمثلاً: "المريض يتألم ويُبْتَلَى بهذا المرض؛ نعم .. ولكن ينتفع من مرضه أشخاص كثيرون كالطبيب والصيدلي والمستشفى وسائق العربة .. وخلق لا يُحصون كثرةً. وعليه فلا يليق بالمسلم أن ينسب الشر الذي ألمَّ به الله عز وجل فما ابتلاك إلا لأنه يحبك أو ليرفع قدرك أو يُخفف عنك أُنْقَالَ الذنوب؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ) [الترمذي في السنن].

وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ قولاً يُبَيِّنُ فيه حتمية الابتلاء وأنَّ الله بعثه لِيَبْتَلِيَهُ وَلِيَبْتَلِيَ بِهِ فَقَالَ: (إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا) [صحيح مسلم] وإذا وصلت إلى هذا المعنى فسوف يكون كلُّ ابتلاء عليك برداً وسلاماً .. خَفَّفَ اللهُ عَنْ أَصْحَابِ الْإِبْتِلَاءَاتِ ابْتِلَاءَاتِهِمْ.

خامساً: علاقة المسلم بالدار الآخرة (مسئولية وجزاء).

هذه الدار الآخروية للمسلم فيها علاقة تخصه - لإيمانه بها - دون غيره؛ فله عنها عقيدة ثابتة لا تتغير؛ يلقي فيها جزاء ما قدم من أعمال، فمناقيل الذر من الخير أو الشر فيها لا تغيب، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة].

وهذا الأمر عام لكل أحد حتى للرسل الكرام؛ فقد قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف] وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالأُمِيرُ الذي على النَّاسِ رَاعٍ وهو مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وهو مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وهو مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [أخرجه البخاري].

وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) [أخرجه مسلم].

نسأل الله تعالى الفهم الرشيد والقول السديد

الاستجابة والتسليم.

العناصر:

أولاً: معنى الاستجابة والتسليم، والأدلة على أهميتهما.

ثانياً: صور للتسليم في العهد النبوي.

ثالثاً: فوائد التسليم والاستجابة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: بواعث التسليم للأمر الإلهي.

(الموضوع)

المُسلم؛ من وُصفه بهذا الوصف ينبغي عليه أن يكون مُتَحلياً بهذا المعنى ظاهراً وباطناً، فظاهره كالأسير الذي وقع في يد مَنْ أسره وقيده، فلا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً؛ بل ولا يملك لنفسه موتاً ولا حياة - هذا في الظاهر -، وأمّا الباطن فقد استسلم قلبه طواعيةً لله عز وجل فحركاته وسكناته منبعها ومنشؤها الله عز وجل؛ فليست له إرادة من نفسه ولا مشيئة فهو في باطنه كالميت بين يدي مُغسله انعدمت إرادته وحركته إلا من مُغسله هذا.

وقد قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى قانوناً ينبغي أن يُحفظ؛ وهو: «مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ» فالوظيفة المنوطة بنا نحن المسلمين - منصوبة على الاختصاص - هي التسليم والاستسلام والاستجابة والطاعة لما جاء على لسان هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ولما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم؛ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة] (فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ،

فقالوا: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصَّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، قالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا﴾ [البقرة]. فكان الواجب عليهم أولاً التسليم فقط بعيداً عن أي شيء آخر: قبلته النفوس أو العقول أم لم تقبله - إذ كيف يُحاسِبُ على حديث يجري في نفسه ولا يستطيع دفعه!! - المهمُّ التسليم. ثم جاء بعد ذلك التخفيف من الله عز وجل فنُسِخَ هذا الحكم.

وأزيد هذا المعنى تجلية وتوضيحاً فأقول عن موضوعنا هذا:

أولاً: معنى الاستجابة والتسليم والأدلة على أهميتهما.

"التسليم: بذل الرضا بالحكم" والاستجابة: "يُقال إنها التلبية، والمصدر الإجابة بمنزلة الطاعة والطاقة" والتلبية معناها: إجابتي لك يارب وإخلاصي.

وهذا المعنى من الأمور التي يتعلق عليها قبول الأعمال عند الله عز وجل؛ إذ إنَّ المنافقين أذعنوا ظاهراً وأبوا في بواطنهم بل وأضَمُّوا الكفر والنفاق عياداً بالله.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء] فقد جمعت الآية مقاماتٍ ثلاثة: الظاهر والباطن وحسن استسلام كل من الظاهر والباطن. ففيها: (إسلام - وإيمان - وإحسان).

وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ^ط وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُٗٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال] وقد جاء في تفسيرها العملي واقعة تشهد لهذا المعنى؛ فعن أبي سعيد بن المعلّى: (كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} ..) [أخرجه البخاري]. فيجب أن لا تكون الصلاة مانعة من الاستجابة للرسول عليه الصلاة والسلام!! فما الحال والشأن إذا كان المانع ليست صلاة ولا طاعة بل: هوى ومعصية وشهوات ..

وقال الله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّجَالٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكَيرٍ﴾ [الشورى] فلا بد من الاستجابة لله تعالى والحذر من التسويف؛ فيوم القيامة لا ينفع فيه الندم ولا تجزى النفس إلا بما قدّمت.

ثانياً: صور للتسليم في العهد النبوي.

للتسليم في حياة الصحابة رضي الله عنهم؛ صورٌ كثيرة جداً بل يصعب على المرء حصرها، من أبرزها هذه الحوادث:

- الإسراء والمعراج. هذه الرحلة الميمونة المباركة، والتي فيها من البركات والخيرات والمشاهد والعبر؛ قد انقسم الناس حولها إلى أقسام متعددة فمن مُصدّق بها وموقن، ومن مُكذب بها وراذٍ، ومن تاركٍ للدين بسببها بعد أن كان تحت ظلاله. والذي كان ينبغي أن يكون هو تصديق المُسلم واستسلامه لهذا الخبر؛ دونما شكٍّ أو ريب وحالهم في ذلك يُلخّصه موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى؛ أصبح يتحدث الناس بذلك؛ فارتدّ ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال

ذلك؟ قالوا: نعم قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدق ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سُمي أبا بكر الصديق رضي الله عنه» [أخرجه الحاكم].

وحتى تعلم وقع هذا الخبر على نفوس الصحابة؛ لا بد من استصحاب الحالة التي كانوا يعيشونها: فرجل أمي، لم يعرف التقدم العلمي ولم يسمع بسرعة صواريخ الفضاء، يعيش في الصحراء، يرعى الأغنام والإبل والبقر، يقطع هذه المسافة في شهر أو نحو، .. وفجأة يسمع مثل هذا الخبر، ومن صادق لم يعرف عنه إلا الصدق .. وليس هذا فحسب: فلقد أخبر هذا المجتمع القرشي بالإسراء فقط ولم يخبرهم عن المعراج!! .. فلم ينفع في هذا المقام إلا التسليم فقط.

• **تحويل القبلة.** لسفيه من السفها أن يقول كما قال أسلافه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة] فكان الجواب من الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بل وتكون العلة من هذا الحدث العظيم؛ بما بينه الله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة]. وكان حالهم تجاه هذا الحدث العظيم: (بيننا الناس بقاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة) [أخرجه البخاري]، فلم ينتظروا حتى الفراغ من هذه الصلاة، أو لم يقولوا إنه خبر واحد فقط نريد معضداً له.. وإنما أثناء الصلاة تكون الاستجابة لأمر الله تعالى.

• ومواقف أخرى كثيرة؛ ومنها: صلح الحديبية؛ وفيه قول عمر رضي الله عنه: (اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ؛ فلقد رأيتني أردت على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آلو عن الحق وذاك يوم أبي جندل) وقد قالها بسبب ما رأى من الشروط المجحفة بالمسلمين، وكأنهم ليسوا على الحق. وموقف أبي بكر من مسطح وقد وقع في عرض ابنته وقد منع عنه

النَّفَقَةُ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُهَا عَلَيْهِ. لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور] (قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا عَنْهُ أَبَدًا) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]. وَعِنْدَنَا مَوَاقِفُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ .. كُلُّهَا مِثَالُ صَدَقٍ عَلَى تَسْلِيمِ الصَّحَابَةِ التَّامِ؛ كَحَادِثَةِ (تَحْرِيمِ الْخَمْرِ)، وَ(ارْتِدَاءِ الْحِجَابِ وَمَوْقِفِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ) وَغَيْرِهَا.

ثالثاً: فوائد التسليم والاستجابة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم. كثيرة؛ منها:

- تحقيق الرُّشْد: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة].

- تحقيق الزيادة من فضل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى].

- تحقيق الاستمساك بالعروة الوثقى التي هي شهادة التوحيد وكلمة الإخلاص: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان].

- تحقيق الفوز بالجنة؛ فقد ادعى اليهود والنصارى أن الجنة حكرٌ عليهم؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

رابعاً: بواعث التسليم للأمر الإلهي.

للتسليم بواعثٌ ومُحَفِّزَاتٌ، ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا؛ منها:

1 - **مصدرية الوحي الإلهي:** فالمسلم في تسليمه للأمر الإلهي؛ يوقن بأنه يتبع وحياً معصوماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو لا يستسلم لأمرٍ بشري ولا لقانون سيتغير ويتبدل بعد حين. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]

2 - **لأنه من الله تعالى الذي هو أعلم بنا من أنفسنا.** فهو أعلم بما يصلحنا وما ينفعنا وما يضرنا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم].

3 - **النموذج السابق.** مرّت نماذج كثيرة من تسليم الصحابة رضي الله عنهم، للأمر الإلهي وكان الجزاء كما هو معلوم: مكن الله تعالى لهم، ونصرهم على عدوهم، ودانت لهم البلاد والعباد. فإن أردنا أن نصل إلى ما وصلوا إليه فلا بد من السير على سننهم واقتفاء أثرهم⁽¹⁾.

والحمد لله رب العالمين

(1) أنصح بالرجوع إلى كتاب: (ينبوع الغواية الفكرية. عبد الله العجيري) فقد أفاد وأجاد في الحديث عن التسليم للنصوص الشرعية؛ قبل أن يتكلم عن مزالق هدر النصوص الشرعية. فجزاه الله خيراً

العبادة

الغناصر:

المقدمة (لماذا العبادة؟! وهل ينتفع الله تعالى بها؟، وهي وظيفة الكائنات (جبلّة وتكليفاً).

أولاً: معناها، وأسسها وأركانها، وشروطها.

ثانياً: ديمومتها.

ثالثاً: صفات العابدين.

رابعاً: وماذا إذا لم نعبد الله عز وجلّ؟!!

(الموضوع)

هَبْ أَنْ إِنْسَانًا حَائِرًا تَائِهًا فِي الْبِيدَاءِ أَوْ فِي الظُّلُمَاتِ؛ وَمَعَ حَالَتِهِ هَذِهِ قَدْ أَلَمَّ بِهِ الْمَرَضُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ وَقَالَ لَهُ أَنَا خَبِيرٌ بِهَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا تَائِهٌ حَيْرَانٌ، وَفَوْقَ ذَلِكَ عِنْدِي عِلْمٌ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَدْنُكَ مِنْ أَسْبَابِ الصِّحَّةِ حَتَّى تَصِلَ بِهِ سَلِيمًا إِلَى هَدْفِكَ وَمُبْتَغَاكَ؛ وَفَوْقَ هَذَا وَذَاكَ لَا أُرِيدُ مِنْكَ ثَمَنًا عَلَى مَشُورَتِي إِنْ اتَّبَعْتَهَا.. فَالطَّرِيقَ الصَّحِيحَ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تَسْلُكَهُ هُوَ هَذَا.. وَسَلَامَةٌ جِسَدِكَ مُتَعَلِّقَةٌ بِكَذَا وَكَذَا.. ثُمَّ تَرَكَهُ وَانصَرَفَ.

أَوْ كَطَبِيبٍ رَأَى مَرِيضًا فِي الطَّرِيقِ؛ فَقَالَ لَهُ: أَنَا طَبِيبٌ! وَأَنْتَ مَرِيضٌ بِكَذَا وَكَذَا، وَعَلَامَةٌ مَرَضِكَ أَنَّكَ تَشْعُرُ بِكَذَا وَكَذَا.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ!.. فَقَالَ لَهُ الْمَرِيضُ.. صَدَقْتَ. فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: وَحَتَّى نَتَعَافَى عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا.. ثُمَّ تَرَكَهُ الطَّبِيبُ وَانصَرَفَ وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ أَجْرَةً أَوْ ثَمَنًا لِمَشُورَتِهِ!!.

فَهَلْ لِذَلِكَ التَّائِهِ الْحَيْرَانِ فِي تِلْكَ الْبِيدَاءِ، أَوْ لِهَذَا الْمَرِيضِ أَنْ يَتْرَكَ تِلْكَ الْمَشُورَةَ أَوْ أَنْ يَرْتَابَا فِي نَصَحِ مَنْ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِهَا!!.

تأمل معي .. الله سبحانه وتعالى قال عن نفسه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك] وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم]. فالذي خلقنا وأنشأنا.. هو الذي أمرنا بعبادته؛ لأن فيها صلاحنا ورشدنا ومنافعنا، والله سبحانه وتعالى لا تتفعه طاعاتنا ولا تضره معاصينا سبحانه وتعالى؛ فهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات] وقال: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت] وفي الحديث القدسي: (يا عبادي، إنكم لن تبخلوا ضري فتضروني، ولن تبخلوا نفعي فتتفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها) [أخرجه مسلم]. فعبادتنا لله عز وجل نفعها إلينا، وضرر تركها علينا، وهو سبحانه وتعالى غني عنا وعننا، وهي سبب نجاتنا في بقاء الحياة.. وهي محور اللقاء؛ ولكن قبل الحديث عن ماهيتها؛ أشير إلى أنها:

وظيفة الكائنات (جبلّة وتكليفاً، طوعاً وكرهاً).

وهذا هو منطوق كتاب الله عز وجل؛ فالله تبارك وتعالى قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم] وقال عن تسبيح الكائنات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء] وقال عن سجودها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج]، فمن

امتنع عن السجود والعبادة طاعةً لله عز وجل في الدنيا استحق العذاب بل كانت الجمادات أعبدَ الله منه. فهذه جبلةُ جبل الله تعالى عليها هذه الكائنات، وأمر الله تعالى بني آدم بها؛ فكانت منهم تكليفاً واختياراً لمن آمن منهم، وقهراً لمن عصى وطغى فهم داخلون في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فالكلُّ عبيد لله تعالى تحت سلطانه وقهره.

فطالما أن العبادة هذا شأنها، وهو الشأن العظيم والمقام الكبير؛ فما هي؟، ولِمَ نصرِفها؟، وما مكوناتها وأسسها؟، وما أركانها؟، وما شروطها؟.. وغير ذلك مما يظهر في هذا اللقاء.

أولاً: معناها، وأركانها، وشروطها.

أما المعنى: فهي: «اسمٌ جامع لكل ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة والبراءة مما ينافي ذلك ويُضادُّه». فأنت ترى عمومَ هذا التعريف؛ فلا ينحصر معنى العبادة في أركان الإسلام الخمس، بل يتعداه إلى كلِّ مظهر من من مظاهر الحياة؛ في: (النوم واليقظة)، في: (المسجد وغيره)، في: (البيت والشارع)، في: (المعهد والمدرسة أو الجامعة)، وفي حالات: (الفرح والنجاح والمرح .. والسرور)، وفي حالات: (الحزن والألم والفقد والبأساء والضراء)، وشاملٌ كذلك أعمال الجوارح، وأعمال القلوب.

يؤيدُ هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الأرضُ كُلُّها مَسْجِدٌ، إِلَّا الْحَمَامَ وَالْمَقْبَرَةَ) [أخرجه أبو داود وغيره]، فالأرض كلها محلٌّ للعبادة وهكذا ينبغي أن تكون، وأخلاق المسجد ينبغي أن تكون موجودةً في الأرض كلها؛ لأنها هي الأخرى مسجدٌ!! وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام]؛ فليس عندنا في الإسلام؛ كما قيل: «دُع ما لقيصر لقيصر .. وما لله لله» وقد سبقهم بذلك مَنْ وصفهم الله تعالى دائماً: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ۚ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام].

وأما الأسس والأركان: فلها أساسان، ولا بد وأن يكونا كذلك في غاية الكمال؛ وهما: (كمال الحب والرجبة مع كمال الذل والرغبة)، فقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر] وقال عن زكريا عليه السلام مع زوجته: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء] ولذلك قيل في متون العقيدة: «وَالْأَمْنُ وَالْإِيَّاسُ يَنْقُلَانِ عَنِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَسَبِيلُ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ».

وأما الشروط؛ فلها شرطان بهما يكون العمل صالحاً مقبولاً:

فأما الأول: فالإخلاص. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر] وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ) [أخرجه مسلم]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) [أخرجه البخاري]. وفي الحديث: (أُرِيتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ: لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَةَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ) [أخرجه النسائي].

وأما الثاني: المتابعة. وهي متابعتنا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فنعبد الله تعالى كما عبد النبي صلى الله عليه وسلم ربّه؛ فهو القائل في الصلاة: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) [أخرجه البخاري]. وقال في الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ) [أخرجه مسلم] وقال أبو بكر رضي الله عنه في الزكاة: (هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا) [أخرجه أبو داود وغيره].

وقد جمع بينهما الفضيل بن عياض عندما سئل عن قوله تعالى: (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) فقال: «هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان

خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل؛ حتى يكون خالصا وصوابا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة».

ثانياً: ديمومتها. العبادة لله عز وجل لا ينفك عنها المسلم بحال؛ ولذلك ينبغي أن تكون هذه العبادة الثوب الذي صبغ حياته كلها؛ فقد قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً^ط وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة] فالصبغة هنا؛ هي: «دين الله، قاله ابن عباسٍ وسُمِّيَ صِبْغَةً لِظُهُورِ أَثَرِ الدِّينِ عَلَى صَاحِبِهِ، كَظُهُورِ أَثَرِ الصَّبْغِ عَلَى الثَّوْبِ، وَلِأَنَّهُ يَلْزِمُهُ وَلَا يُفَارِقُهُ، كَالصَّبْغِ فِي الثَّوْبِ».

فينبغي على المسلم أن يكون دائم العبودية إلى أن يلقي ربه تبارك وتعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر] أي عليك أن تكون دائم العبودية لله تعالى إلى أن تلقى الموت؛ وكما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا^{٣٠} وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم]. وعليه .. فلا يصل الإنسان إلى حالة من الحالات تسقط عنه فيها الفرائض إلا بفقد عقله أو كان صغيراً لم يبلغ أو كان على عذر من أعذار النساء التي تسقط عنهم فرض الصلاة وقضاءها.

ثالثاً: صفات العابدين.

قد وصف الله تعالى أنبياءه بالعبودية في مواطن من كتابه؛ فقال عن لوط وإبراهيم وأولاده أئمة الدين؛ عليهم جميعاً الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء] وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف] وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف].

وللعابدين في القرآن الكريم وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم أوصاف جليلة؛ من أهمها:

- لا يستكفون عن عبادة الله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء]. وقد جاء في ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على ربه بعد رفعه من الركوع: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدًا: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ) [أخرجه مسلم]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر]

- يأكلون الطيبات ويشكرون الله تعالى على نعمه وآلائه. فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة]

- يفعلون الخيرات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها؛ كما في الآية التي جاءت عن إبراهيم وأولاده ولوط عليهم الصلاة والسلام.

- يتورعون عن الشبهات خوفا من الوقوع في المحارم. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا، تَكُنْ عَبْدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنَعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحَبُّ لِلنَّاسِ مَا تَحَبُّ لِنَفْسِكَ، تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنِ جَوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ، تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقَلِّ الضَّحَاكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحَاكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ) [أخرجه ابن ماجه في سننه].

رابعاً: ماذا إذا لم نعبد الله عز وجل؟!.

عبادة الله عز وجل هي حقه علينا؛ فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: (.. هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ) [أخرجه البخاري] فإذا لم نؤدِّ هذا الحق كما ينبغي لم يكن لنا عند الله عهدٌ أن ينصرنا أو أن يمكن لنا في الأرض أو أن نكون من وارثي جنات النعيم فكلها أمور مقرونة بعبادته.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور] وهذا الوعد لنا إن وفينا له تعالى بعهده؛ والذي هو: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ءَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس] فالله عز وجل قال عن نفسه مُستفهما مُنكرا على من شك في هذا الوصف: ﴿وَمَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة] وقال: ﴿وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء] فليس هناك أحد أصدق قولاً وأوفى عهداً من الله تعالى؛ وقد قال لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة] فهذا وصفه مع كل أحد؛ ونحن أكرم على الله عز وجل من بني إسرائيل.

والحمد لله رب العالمين.

مُحِبَّاتُ الْأَعْمَالِ

المقدمة.

مُحِبَّاتُ الْأَعْمَالِ.

(الموضوع)

مما لا شك فيه أن نجاة العبد بين يدي ربه تبارك وتعالى في الآخرة موقوفة على أمور؛ وهذه الأمور: منها ما يتعلق بقصده وإرادته، ومنها ما يتعلق بلسانه ومنطقه، ومنها ما يتعلق بأعمال جوارحه؛ فهذه كلها أركان مهمّة في نجاته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه] فالدرجات العلى لم تكن للذين حققوا الإيمان فحسب؛ بل جاؤوا به مشفوعاً بعمل الصالحات. وقال الله تعالى أيضاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل] فالحياة الطيبة لمن جاء بالإيمان والعمل الصالح معاً، وكذلك قال الله تعالى في وصف أصحاب الميمنة: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ❶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ❷ فَكَ رَقَبَةٍ ❸ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❹ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ❺ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ❻ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ❼ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ❽ [البلد] فقد جمعوا الأعمال الصالحة من فكّ الرقاب وإطعام الطعام .. وشفعوها بتحقيق الإيمان بالله تعالى.

ولأجل أهمية العمل وزكنيته في نجاة العباد يوم القيامة؛ ازداد خوف الصالحين على أعمالهم أن لا يتقبلها الله عز وجل؛ فقد قالت عائشة رضي الله عنها في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ قالت يارسول الله: (أهو الذي يزني ويسرق، ويشرب الخمر؟) قال: (لا، يا بنت أبي بكرٍ أو يا بنت الصديق ولكنهُ الرجلُ يصوم، ويتصدق، ويصلي، وهو يخافُ أن لا يُتَقَبَّلَ منه) [أخرجه ابن ماجة وغيره].

ولأجل هذا وغيره .. أحببت أن أقف مع بعض الأسباب التي تكون سببا في بطلان العمل والتي ينبغي على المسلم أن يعلمها حذرا من الوقوع فيها؛ ومنها:

محبطات الأعمال:

أولاً: الإشراك بالله تعالى. الإشراك بالله تعالى هو السبب الرئيس الذي لا تنفع معه في الآخرة أي حسنة، ولا أي عمل صالح؛ بل يؤدي إلى بطلانها وعدم الانتفاع بها. فقد قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر] فهذا وحى الله تعالى لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وللذين من قبله عليهم السلام كذلك، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وقال عن مظهر من مظاهر الشرك وأثر من آثاره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالُهُمْ﴾ ٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد].

بل إن الله تعالى ضرب لأعمال الكافر مثالين كاشفين لحسرة هذا الكافر وندامته على أعماله التي ظنها نافعة له يوم القيامة .. وهيهات؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ٢٩ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُبِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور]، وقصة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ودفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وما أعظمه من عمل صالح .. ومع ذلك لم يكن سببا في نجاة صاحبه من النار. وكذلك قصة عبد الله بن جدعان الذي كان يطعم الطعام ويصل الأرحام .. ومع ذلك لم تنفعه لعدم إيمانه.

وأما جزاؤه عليها.. فالثناء والمدح والأجر المادي في الدنيا فقط؛ وليس له في الآخرة إلا النار: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود].

ثانياً: رفع الصوت على رسول صلى الله عليه وسلم. وقد صرّحت نصوص القرآن الكريم بأن هذا الأمر مُوجب لبطلان العمل وحبوطه فقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات]، ومن نظر في تفسير هذه الآية وما ورد حولها من آثار يرى عجباً من الصحابة فمن قائل: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا أَكَلِّمُكَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ) وهو أبو بكر رضي الله عنه، وهذا الآخر: (فَمَا كَانَ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ) وهو عمر رضي الله عنه، وهذا الصحابي الذي جلس في بيته مُنْكَسّاً رأسه ظاناً أن الآية قد نزلت فيه؛ لأنه كان ذا صوتٍ مُرتفعٍ جِبِلَّةً وَخِلَقَةً؛ فتأتته البشارة بأنه ليس من أهل النار بل هو من أهل الجنة وهو ثابت بن قيس رضي الله عنه.

وهذا الأدب في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد مماته عليه الصلاة والسلام؛ فعن معن بن عيسى قال: «كان مالك بن أنس إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل وتبخر وتطيب، فإذا رفع أحد صوته في مجلسه زجره، قال: قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، فمن رفع صوته عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ثالثاً: انتهاك محارم الله تعالى خلوة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تِهَامَةٍ بِيضَاءٍ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هِبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهْمُ لَنَا أَلَّا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا). [أخرجه ابن ماجه]. وقد قال الله تعالى في أمثالهم: ﴿وَلَا تُجَدِّدْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ٣٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء]

رابعاً: الرياء. ومن الأسباب التي تجعل العمل هباءً لا قيمة له؛ ذلك العمل الذي كان مبعثه ومنشؤه ثناء الناس ورؤية الناس؛ فلقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا شَرَكًا فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ) [أخرجه مسلم] وفي رواية أخرى: (يقول الجبارُ تبارك اسمه أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملاً وأشرك معي غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك). وقد: (جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرايت رجلاً عَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له. فأعادها ثلاثَ مرارٍ ويقولُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء. ثم قال: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتِغَايَ بِهِ وَجْهَهُ) [أخرجه النسائي].

خامساً: التآلي على الله عز وجل. وهذا من الجهل العظيم بمقام الله عز وجل؛ إذ كيف يجروا إنسان أن يحجر على الله تعالى في أفعاله؛ فهو سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء] و قد روى مُسلمٌ في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَنْ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ، أَوْ كَمَا قَالَ) والحديث له قصة عند أبي داود: فقد (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يُذنبُ، والآخر مُجتهدٌ في العبادة، فكان المجتهدُ لا يزالُ يرى الآخرَ على الذَّنْبِ، فيقول: أَقْصِرْ، فوجده يوماً على ذَنْبٍ، فقال له: أَقْصِرْ، فقال: خَلْنِي وَرَبِّي، أَبْعَثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فقال: والله لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أرواحهما، فاجتمعا عند ربِّ العالمين، فقال لهذا المجتهد: أَكُنْتَ بي عالمًا، أَوْ كُنْتَ على ما في يَدَي قَادِرًا؟! وقال للمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وقال للآخر: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ) وهذا قد أُعْجِبَ بفعل نفسه أولاً، وجمع مع هذا الذنب احتقار الآخرين؛ فكان جزاؤه هذا.

سادساً: ترك صلاة العصر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) [أخرجه البخاري]، وهذه الصلاة هي الوسطى التي قال الله عنها: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِتِينَ﴾ [البقرة].

سابعاً: إتيان الكهان. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقَبَّلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) [أخرجه مسلم].

ثامناً: اتخاذ الكلاب في البيوت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ اتَّخَذَ كَلْبًا، لَيْسَ بِكَلْبٍ صَيِّدٍ، وَلَا غَنَمٍ، نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ) [أخرجه مسلم].

تاسعاً: سوء الأخلاق. وهذا السبب لا يتعلق بعدم القبول وإنما يتعلق بعدم الانتفاع بها بعد قبولها. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) [أخرجه مسلم]. وروى كذلك: (قال رجل: يا رسول الله، إِنَّ فُلَانَةً يُذَكِّرُ مِنْ كَثَرَةِ صَلَاتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ قال: هِيَ فِي النَّارِ، قال: يا رسول الله، فَإِنَّ فُلَانَةً يُذَكِّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَتَّصِقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ قال: هِيَ فِي الْجَنَّةِ) [أخرجه أحمد]. فقد ذهب أثر أعمال هؤلاء إلى غيرهم ولم ينتفعوا بها.

فعلينا المحافظة على أعمالنا؛ فالله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد].

والحمد لله رب العالمين

التوحيد

العناصر:

المقدمة.

فضائل التوحيد.

(الموضوع)

لا بد للعبد حتى يصح إيمانه واعتقاده، ومن ثمّ نجاته في الدنيا والآخرة؛ من اعتقاد:

أولاً: وحدانية الله تعالى في الملك والخلق والرزق والتدبير. فهو سبحانه وتعالى خالق وما سواه مخلوق، وهو الرازق وما سواه مرزوق، وهو مُدَبِّرُ أمور خلقه ومُصَرِّفُ أحوالهم سبحانه وتعالى. فقد سبحانه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس].

ثانياً: وحدانية الله تعالى في العبودية. فهو وحده المعبود بحق وما سواه من المعبودات فعبادته باطلة؛ فقد قضى سبحانه أن لا نعبد إلا إياه فقال جلّ ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء]، وقد أرسل الله رسله لذلك؛ فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]، وهذا هو المتواتر على السنة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقد جاء عنهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل].

ثالثاً: وحدانيته في أسمائه وصفاته. فأسماءه سبحانه وتعالى وصفاته بلغت الكمال والحسن والجلال فلا يُدانيها ولا يُساميها في ذلك أسماء وصفات المخلوقين. قال الله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم] وقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۚ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]، فكل ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لابد من إثباته لله تعالى من غير تحريف ولا تعطيل مع اعتقاد وحدانيته تعالى في حقائق ومعاني تلك الأسماء وهذه الصفات؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

فإن الله تعالى واحد ليس له مثل، ولا عدل، ولا كفاء، ولا مساو، ولا ظهير سبحانه وتعالى. وهذا التوحيد: قد أعدَّ الله تعالى لمن حققه ولمن عمل به وعاش عليه منحةً وعطايا جليلاً؛ منها:

أولاً: غفران الذنوب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء] وفي الحديث القدسي: (قال الله تعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك، ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك، يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرةً) [أخرجه الترمذي].

ومما يدل على أن التوحيد يُكفر الله تعالى به الذنوب ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشُر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سَجَلٍ مثلُ مدِّ البصر ثم يقول: أُنكرُ من هذا شيئاً؟ أظلمك كُتبتني الحافظون؟ يقول:

لا يا رب. فيقول: أفلَكَ عُدْرٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظِلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بَطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فيقول: احضِرْ وَزَنَكَ، فيقول: يا ربَّ ما هذه البِطَاقَةُ مَعَ هذه السَّجَّلاتِ؟ فقال فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قال: فتوضعُ السَّجَّلاتُ في كِفَّةٍ والبِطَاقَةُ في كِفَّةٍ فطاشتِ السَّجَّلاتُ وثقلتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَتَّقِلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ) [أخرجه الترمذي وأحمد].

ثانياً: دخول الجنة على ما كان من العمل.

وفي ذلك حديثان؛ فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَ الرَّجُلِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوَلَدْنَا فِي الشَّرْكِ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا، فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَنْطَيِّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ) [أخرجه البخاري] وفي شرح يوضح سبب تفضيلهم بهذه المنقبة: أن «هُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ - وَمِنْهَا مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ - يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، فَيُفَوِّضُونَ أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي تَرْتِيبِ الْمُسَبِّبَاتِ عَلَى الْأَسْبَابِ مَعَ تَهَيُّئَتِهَا؛ فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.»

والحديث الثاني: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ

اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ - وفي رواية -: مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، أَيُّهَا شَاءَ) [أخرجه البخاري].

ثالثاً: الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة.

فقد جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ؛ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]. [أخرجه البخاري].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور] وقد قال الله تعالى أيضاً: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل] فانظر إلى هذه النعمة التي ترتبت على الإيمان والتوحيد؛ وكذلك قال الله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ إِلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ﴾ [قريش] وكفار قريش كانوا يتعبدون بعبادات ولكنها لم تكن لله وإنما كانت للأصنام التي اتخذوها واسطة بينهم وبين الله تعالى؛ فالمقصود من الأمر بالعبادة هو التوحيد؛ أي فليوحدا الله تعالى بعبادتهم ولا يصرفوها لغيره.

رابعاً: تفريج الكرب في الدنيا والآخرة.

تحقيق التوحيد في قلب العبد وإظهار الالتجاء إلى الله تعالى في وقت الشدة والكرب؛ يجعل الفرج بعد الكرب أكيدا، واليسر بعد العسر سريعا؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). [أخرجه البخاري].

وكذلك ما حدث لنبي الله تعالى يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت؛ فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَجَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء]

خامسا: توحيد الله تعالى دعاء كل الأنبياء.

كل الأنبياء كان هذا الذِّكْرُ أفضلَ أذكارهم؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضلُ ما قلْتُ أنا والنَّبِيُّونَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [أخرجه الطبراني في الدعاء]

فهذا نوح عليه السلام؛ فقد جاء: (أَنْ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ فِي حَلَقَةٍ مُبْهِمَةٍ فَصَمْتُهُنَّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [أخرجه أحمد].

وهذا موسى عليه السلام؛ فقد جاء عنه: (قال موسى: يَا رَبِّ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ؟ قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا. قَالَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخْصُنِي بِهِ. قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [النسائي في السنن الكبرى].

بل في وصية من وصايا الأنبياء لأبنائهم وهم على فراش الموت؛ تأتي الوصية بالتوحيد، فقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة]

ولكن .. هذا الفضل؛ وهذه العطايا؛ وهذه العظمة؛ وهذا الانتساب لهذا الركب الجليل ركب الموحدين؛ هل هو لكل أحد لكل من تلفظ بالتوحيد ولم يعمل به؟ أم ماذا؟

أقول: جاء في بعض الآثار أن: (مفتاح الجنة هو شهادة أن لا إله إلا الله) [وهو أثر ضعيف]؛ وقد أخرج البخاري عن وهب بن منبه تعليقا هذا القول: «أنه قيل له أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك وإلا لم يفتح لك» [رواه البخاري معلقا].

فلا بد للمفتاح من أسنان .. وإلا لم يُفتح لك.

فمن جاء بهذا المفتاح ولم يعمل بما يستلزمه؛ فليس له حق في أن يُفتح له؛ لأنه إما أن يكون شبيها بالمنافقين عملوا ظاهرا وأضمروا الكفر باطنا، أو يكون به شبه بالمرجئة الذين عرفوا باطنا ولم يعملوا ظاهرا. نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين.

الكلمة المقدسة (1) **

العناصر:

المقدمة (في معناها).

هذه الكلمة هي أعظم الكلمات وأفضلها عند رب الأرض والسموات، فلأجلها قام سوق الجهاد وأزهقت الأنفس، ويُنَمُّ البنين والبنات ورُمِلت النساء، وكانت القيامة وما فيها من أهوال، ولأجلها كانت الجنة والنار. ولِعَظَمها وشرف منزلتها عند الله تعالى أشهد عليها خيرة خلقه؛ فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران].

فمعناها: أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى ولا يستحق العبادة غيره سبحانه وتعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج]، فالله تعالى هو المعبود بحق وكل ما عُبد من دونه فهو باطل. وفضائل هذه الكلمة كثيرة؛ فهي مبدأ الأمر ومُنْتَهَاهُ، وفيها: الفوز والفلاح والنجاح لمن ابتغاه. ومن هذه الفضائل:

- **ركن الإسلام الأعظم.** فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) [صحيح البخاري]. فالشهادتان متلازمتان لا تصح إحداهما دون الأخرى، فهما تصديق بوحداية الله تعالى وألوهيته وإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته؛ لذلك كانا رُكْنًا واحدًا هو أساس البناء، وبقية الأركان تابعة له.
- **أول واجب على المكلف (الإقرار بهما مع النطق باللسان).** فأول ما يُطالب به العبد من أمر دينه هو الإقرار بهما مع النطق باللسان؛ فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حينما بعثه إلى اليمن: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّكَ تَأْتِي

(1) هذه الخطبة مأخوذة من كتاب "الكلمة المقدسة" لشيخنا محمد بن إسماعيل المقدّم. مع زيادات فتح الله تعالى بها.

قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَنُزِّلُ فِي فَقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) [صحيح مسلم]. فأول شيء يُدعى إليه هو هذا لا غير.

• **عاصمة الدم والمال.** فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) [صحيح مسلم]. وفي بيان لهذا المعنى؛ يأتينا قصص عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في عصمتها لدم قائلها وإن كانوا كاذبين!.

فهذا مثلاً: أسامة بن زيد رضي الله عنه يقول: (وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمَحِي حَتَّى قَتَلَتْهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟! قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟! قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ) [صحيح البخاري].

وعن المقداد بن عمرو رضي الله عنه: (أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَأَقْتَتَلْتُنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَازَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ، أَقَتَلْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَقْتُلْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ) [صحيح البخاري].

ولكن لابد مع قولها من شرط حتى تعصم دم قائلها وأموالهم وهو في الحديث: (وَيُؤْمِنُوا بِي، وبِمَا جِئْتُ بِهِ) فمن قالها ولم يؤمن بالشريعة فلا عصمة له.

حتى وإن كانوا كاذبين بينهم وبين أنفسهم كالمنافقين الذين كذبهم الله في شهادتهم؛ فقد قال جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون]. فقد كانوا في صفوف المسلمين معدودين من الصحابة، فعندما قال: (عبدُ الله بنُ أبيّ، .. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ، فبلغَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَقَامَ عُمَرَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: دَعْنِي، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) [صحيح البخاري]. فكانوا في عداد الصحابة، وكانوا ملتزمين كراهية لأحكام المسلمين وكانوا معصومي الدماء والأموال.. وهذا كله لأنهم شهدوا شهادة التوحيد!.

- **أعلى شعب الإيمان؛ وشرط في صحة وقبول الشعب الأخرى.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بضْعٌ وستونَ، شُعْبَةً، فأفضَلُها - وفي رواية: أعلاها - قَوْلُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) [صحيح مسلم]. وهي شرط كذلك في قبول بقية الشعب؛ فمن جاء بأي عمل من الأعمال الصالحة وإن كان كالجبال لا يُقبل منه؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [صحيح مسلم]. وأشدُّ من هذا المثل مثال أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان يدفع عن ابن أخيه ويحوطه وينصره .. وما أعظمه من عمل!! ولم ينتفع به لأنه لم يقل الكلمة التي أَرادها النبي صلى الله عليه وسلم منه وهو على فراش الموت: (فَقَالَ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَزْعُبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) [صحيح البخاري]. فمهما جاء العبد من الأعمال الصالحة: (كالصدقات وبناء المستشفيات والمعاهد والمدارس ..) لا يقبل منه إلا

إذا جاء بهذه الشُّعْبَةُ التي هي أساس بقية الشعب. وقد قال الله تعالى عن الكافرين وأعمالهم: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان]، وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور].

• **أفضل الذكر.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله) [سنن الترمذي]، وقال أيضاً: (أفضل الكلام بعد القرآن أربعٌ وهنَّ من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) [أخرجه أحمد]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً عن مَنْ قال مرةً واحدة: (لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كان له عشرُ رقبَةٍ من ولدِ إسماعيلَ، وكُتِبَ له عشرُ حسناتٍ، وحُطَّ عنه عشرُ سيئاتٍ، وُرفِعَ له عشرُ درجاتٍ، وكان في حرزٍ من الشيطانِ حتى يُمسيَ. وإن قالها إذا أمسى كان له مثلُ ذلك حين يصبحُ) [أبو داود وأحمد]، وقال أيضاً: (من قال غداةً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويميت وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ وقال كتبَ الله له بكلِّ واحدةٍ قالها عشرُ حسناتٍ؛ ومحا عنه بها عشرُ سيئاتٍ ورفعَ الله بها عشرَ درجاتٍ وكنَّ له كعشرِ رقابٍ وكنَّ له مَسْلَحَةٌ من أولِ النهارِ إلى آخره ولم يعمل يومئذٍ عملاً يَقْهَرُهُنَّ فإن قالها حين يُمسي فمثلُ ذلك) [أحمد في المسند] وفي صحيح مسلم: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، عشرَ مرارٍ كان كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ). وقال أيضاً: (من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، في يومٍ مئةَ مرَّةٍ؛ كانت له عدلُ عشرِ رقابٍ، وكُتِبَتْ له مئةُ حسنةٍ، ومُحِيتُ عنه مئةُ سيئةٍ، وكانت له حرزاً من الشيطانِ يومه ذلك حتى يُمسيَ، ولم يَأْتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاء به، إلا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلك) [صحيح البخاري].

• **من الباقيات الصالحات.** قال الله تعالى: ﴿الْأَمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وجمهور المفسرين على أن الباقيات الصالحات

هي ما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (خُذُوا جُنَّتَكُمْ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ عَدُوِّ حَضَرَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ جُنَّتُكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) [الحاكم في المستدرک وقال على شرط مُسلم]. وقيل عن الباقيات الصالحات كل عمل صالح يبقى للآخرة.

● **مُجددة للإيمان في القلوب.** وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفٍ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ الْخَلْقُ، فَسَلُّوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ) [المستدرک على الصحيحين] ومن وسائل تجديده ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: (جدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نَجَدِّدُ إِيْمَانَنَا؟ قَالَ: أَكْثَرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [أخرجه أحمد في المسند وهو ضعيف] وهي كذلك تُعالج ما حدث في الإيمان من خدشٍ أو نقص فمن حلف بغير الله؛ كان كفارة حلفه: أن يقولها. كما في الأثر: (مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَى أَقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ) [صحيح البخاري].

● **مضمون الوحي الشريف وقطب رحاه.** فقد قال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل] وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]. فقد أنزل الله تعالى وحيه في كتبه، وعلى السنة رسله، بل وجعل الجنة والنار في الآخرة لأجلها. فما أعظمها من كلمة. فقد جاء بها كل الرسل وكانت قاسماً مشتركاً بينهم؛ فكلهم قد قالوا: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود] بل كانت هي الكلمة الباقية التي جعلها إبراهيم عليه السلام باقية في عقبه يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذريته: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف]. وكانت أول الكلمات التي تلقاها موسى عليه السلام من الوحي الشريف فقد قال الله تعالى له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه].

• روح الإيمان وسر حياته. فالناس بغير لا إله إلا الله موتى وإن كانوا بين الأحياء في لهو ولعب؛ قد قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].
فهي الروح التي بها حياة القلوب والأبدان وبغيرها صاحبها ميت؛ وقد قال الله تعالى عن الوحي عموماً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف] فكما أن الله يحيي الأرض بعد موتها إذا أنزل عليها مادة حياتها، فكذلك القلوب عندما ينزل عليها الوحي؛ وقطب رحاه لا إله إلا الله؛ فقد قال جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد].

• سبب طهارة الإنسان وزكاته. فقد قال الله تعالى عن المشركين الذين لم يدينوا بها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة] وقال أيضاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة]. وأما المؤمن فقد قال أبو هريرة: (لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا جُنُبٌ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ، فَأَنَسَلْتُ، فَأَتَيْتُ الرَّحْلَ، فَأَغْتَسَلْتُ ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَقَالَ: أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرٍّ، فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَبَا هُرٍّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ) [صحيح البخاري].

• وصية الأنبياء عند الموت. فهذا يعقوب عليه السلام يُوصي بنيه عند موته بها؛ فقد قال الله تعالى عنه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ ﴿البقرة﴾. وجاء كذلك عن نوح عليه السلام وصيته لابنه عند موته: (أمرك بلا إله إلا الله؛ فإنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ والأَرْضِينَ السَّبْعَ لو وُضِعَتْ في كِفَّةٍ وُضِعَتْ لا إله إلا الله في كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بهنَّ لا إله إلا الله، ولو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ والأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ في حَلَقَةٍ مُبْهِمَةٍ فَصَمْتُهُنَّ لا إله إلا الله) [أخرجه أحمد في مسنده]. ولأجل ذلك كان لِمَنْ قالها عند موته وخُتِمَ له بها فضل عظيم وثوابٌ جزيل؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَالَ لا إله إلا الله خَتَمَ لَهُ بها دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خَتَمَ لَهُ بها دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خَتَمَ لَهُ بها دَخَلَ الْجَنَّةَ) [أخرجه أحمد في المسند]، وقال طلحة بن عبيد الله: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ إِلَّا كَانَتْ نُورًا لَصَحِيفَتِهِ، وَأَنَّ جَسَدَهُ وَرُوحَهُ لِيَجِدَانِ لَهَا رَوْحًا عِنْدَ الْمَوْتِ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُهَا هِيَ الَّتِي أَرَادَ عَمَّهُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَوْ عَلِمَ كَلِمَةً أَنْجَى لَهُ مِنْهَا، لِأَمْرِهِ بِهَا) [أخرجه أحمد في المسند]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لا إله إلا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ) [أبو داود في السنن].

• **أثقل شيء في الميزان.** وفي ذلك حديث صاحب البطاقة والذي فيه: (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بَطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزَنَّاكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَقَالَ فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتَوَضَّعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ) [سنن الترمذي].

• **نَجَاةٌ لِّصَاحِبِهَا مِنَ النَّارِ وَإِنْ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ.** وفيها حديث معاذ رضي الله عنه عندما كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: (يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: يَا مُعَاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا، قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: إِذَا يَتَكَلَّمُوا وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا) [صحيح البخاري]. وحديث: (يُدرُسُ الإسلامُ كما يُدرُسُ وشي الثَّوبِ، حتَّى لَا يُدرَى ما صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نُسُكٌ، وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَيَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: فَنَحْنُ نَقُولُهَا. قَالَ صِلَةُ بْنُ زُفَرٍ لِحُدَيْفَةَ: فَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُمْ لَا يَدْرُونَ ما صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نُسُكٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُدَيْفَةُ، فَرَدَّدَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُدَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ! [الحاكم في المستدرک]. وحديث الغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم؛ وفيه: (كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلَمَ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) [صحيح البخاري].

• **سَبَبُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.** وفيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ) [صحيح البخاري].

• **مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ.** يدل على كونها كذلك هذا الذكر: (ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ، أَوْ فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) [صحيح مُسلم]. فهي مِفْتَاحُهَا، وكما قال العلماء ليس مِفْتَاحٌ إِلَّا وَلَهُ أَسْنَانٌ، فإن جاء المرء بمِفْتَاحٍ لَا أَسْنَانَ لَهُ لَمْ يَفْتَحْ لَهُ، وَأَسْنَانُ هَذَا الْمِفْتَاحِ؛ شُرُوطُهَا مِنْ: (العلم والصدق والإخلاص والقبول والانقياد واليقين والمحبة). وأختم هذه الفضائل بشيء يدفع بعض الإشكالات التي قد ترد عليها؛ وهو مقارنة بين حالين لشخصين؛ أولهما نبيٌّ من أنبياء الله تعالى والثاني عدو الله تعالى؛ وكلاهما قد قال كلمة التوحيد فانتفع بها النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بها العدو، **إنهما:**

(يونس عليه السلام) فقد قال كلمة التوحيد، وهو في بطن الحوت فنجاه الله تعالى: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] ولك أن تقف مع هذا الدعاء الجليل وبالأخص ضمير الخطاب (أَنْتَ) فكأنه يُخَاطَبُ حاضراً أمامه.

والعدو (فرعون عليه لعنة الله). فهذا الشقي العدو؛ فقد قال كلمة التوحيد والإيمان في البحر حال غرقه ومع ذلك لم تنفعه؛ فلم يكن قد عاش عليها، ولذلك أعلن إيمانه بصيغة الغائب فقال الله عنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوءَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالَسَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس]. فكان عبرة.

فَمَنْ قَالَهَا وَعَاشَ عَلَيْهَا .. نَفَعَتْهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِهَا .. آمِينَ.

الله جل جلاله (الخالق) .. في مُحاورَة الملحدِين .

المقدمة.

أولاً: أدلة الوجود.

ثانياً: نماذج من الحق في مواجهة الباطل: (إبراهيم - عليه السلام - مع آزر، والنمرود).

ثالثاً: الاستدلال بالخالقية على أوصاف الله عز وجل وإلهيته.

(الموضوع)

قد يظنُّ الإنسان في هذا العصر أنَّه قد أُوتِيَ من العلم ما يجعله غنياً عن ربه غير مُفْتَقِرٍ إليه؛ وما هذا إلا دليلٌ على جهله وغلطسته؛ فمهما أُوتِيَ من العلم فهو إلى علم الله تعالى قليل؛ وقد قال ربنا سبحانه وتعالى عن شيءٍ نحيا به ونسير ومع ذلك عَلِمْنَا عنه قليل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]، وفي قصَّة موسى والخضر النبيين عليهما السلام: (.. فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّ نَفَرَةٌ أَوْ تَفَرَّتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَفَرَةٍ هَذَا الْعُصْفُورُ فِي الْبَحْرِ، ..) [صحيح البخاري] ومع هذا الكم الضئيل من العلم قد يظنُّ الإنسان من نفسه وطغيانه أنه قادرٌ على: (الاستغناء بالعلم المادي عن الوحي!!). بل وقد يزداد في طغيانه وعُتُوّه وكبريائه إلى أن يجحد الخالق سبحانه وتعالى؛ وقد قال الله تعالى عن قوم ليس لآخرة في أذهانهم حساب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان].

وهذا الموضوع لبيان بعض الشُّموس التي قد تجحد العين نورها؛ وليس هذا عيباً في الحق بل لأجل ما أصابها من العمى؛ فأصبحت لا تُبصر شيئاً من نور الحق ولا تراه.

أولاً: أدلة الوجود الإلهي.

فسبحان من له في كل شيء آية تدل على أنه الواحد الواحد؛ ومن هذه الدلائل والآيات

1 - دليل الخلق. وقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الدليل اعتناءً بالغاً؛ فهو من «أغرب مفاهيم القرآن العظيم ومن أكثرها استعصاءً على الفهم والإدراك، فهو دالٌّ عموماً على التكوين والإنشاء إبداعاً واختراعاً؛ أي أنه خلق الخلق على غير مثالٍ سابق، فإنه تعالى فطر خلقه وأنشأهم ولم يُسبق له فيه نموذجٌ يُحتذى، فسبحانه وتعالى خالق عظيم.

ثم تأمل كيف كان خلق آدم عليه السلام؟ كيف صنع الله تعالى من الطين المتعفن بشراً سوياً؟ يفيض جمالاً وحيويةً، عجباً، عجباً! كيف كانت كُتَل الطين في جسم آدم تتحول إلى شرايين وشُعيرات دموية، وعظماً ولحماً طرياً؟ عجباً، عجباً! كيف تحول الصلصال في محاجره عليه السلام بصراً يبرق، ويُشعُّ بنور الحياه ويرى الألوان والأشياء، ويسيل بالدموع فرحاً وحزناً عجباً، عجباً! كيف تخلَّق التراب في جمجمته دماغاً مائعاً مارجاً؟ متكوناً من ملايين الخلايا اللطيفة الحساسة، تجري شُعيراتها بالدم الدفَّاق، وتخترن ملايين المعلومات والذكريات، وتتأهب للتفكير في أدقِّ الخطرات والنظرات؟ عجباً، عجباً!.

ذلك هو الخلق الذي تحدَّى الله تعالى به كلَّ الخلق؛ فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال بعدها واصفاً عجز معبوداتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل]. وقال أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج].

وقال سبحانه وتعالى عن قضية الخلق حينما جاء الكافر إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُنكراً البعث الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ [يس: (1)].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قضية الخلق كذلك في أسلوب عقليّ يُذعن المرء من خلاله ويُسلم بخالقية الله تعالى لهذا الكون؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور] ف«هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خُلِقوا من غير خالق؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل، محالٌ أن يكون هناك مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق. ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: 35]، وهذا أيضاً من المستحيل، مستحيل أن يكون العبد موجداً خالقاً لنفسه، فإن من لا يقدر على أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبغاً واحداً، ولا ظفراً، بل ولا شعرةً، فكيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟ وإذا بطل القسمان تعيّن أن لهم خالقاً خلقهم، وفاطراً فطرهم. ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: 36]؛ فبيّن بهذا القسم الثالث أنهم بعد أن وُجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، وأن الواحد القهار، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، هو الذي خلقهم، وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكين، بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه، فهو الإله الحق الذي يستحق العبادة والشكر» من كلام بن القيم رحمه الله تعالى.

وقد نقل ابن كثير رحمه الله تعالى عن الأئمة وغيرهم في ذلك نقولات حسنة. منها؛ أنه: «قَدْ سُئِلَ بعض الأعراب: مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى؟ فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ الْبُعْرَةَ لَتَنْدُلُ عَلَى الْبَعِيرِ، وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ لَتَنْدُلُ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فَجَاجٍ، وَبَحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ؟ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟»

(1) يُنظر في الكلام على قضية الخلق هذه: "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إِبصار آيات الطريق" تأليف: فريد الأنصاري ص: (64 - 77) ط: دار السلام.

عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّ الرَّشِيدَ سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَاسْتَدَلَّ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمَاتِ.

عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ بَعْضَ الزَّانِدَةِ سَأَلُوهُ عَنْ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى، فَقَالَ لَهُمْ: دَعُونِي فَإِنِّي مُفَكِّرٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أُخْبِرْتُ عَنْهُ ذَكَرُوا لِي أَنَّ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ مُوقَرَّةٌ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْمَتَاجِرِ وَلَيْسَ بِهَا أَحَدٌ يَحْرُسُهَا وَلَا يَسُوقُهَا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَتَسِيرُ بِنَفْسِهَا وَتَخْتَرِقُ الْأَمْوَاجَ الْعِظَامَ حَتَّى تَتَخَلَّصَ مِنْهَا، وَتَسِيرَ حَيْثُ شَاءَتْ بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسُوقَهَا أَحَدٌ. فَقَالُوا: هَذَا شَيْءٌ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ، فَقَالَ: وَيَحْكُمُ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُحْكَمَةِ لَيْسَ لَهَا صَانِعٌ!! فَبُهِتَ الْقَوْمُ وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ وُجُودِ الصَّانِعِ، فَقَالَ: هَذَا وَرَقُ الثَّوْتِ طَعْمُهُ وَاحِدٌ تَأْكُلُهُ الدُّودُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْإِبْرَيْسِمُ، وَتَأْكُلُهُ النَّحْلُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَسَلُ، وَتَأْكُلُهُ الشَّاةُ وَالْبَعِيرُ وَالْأَنْعَامُ فَتُلْقِيهِ بَعْرًا وَرَوْتًا، وَتَأْكُلُهُ الظَّبَّاءُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمِسْكُ وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: هَاهُنَا حِصْنٌ حَصِينٌ أَمْلَسُ، لَيْسَ لَهُ بَابٌ وَلَا مَنْفَذٌ، ظَاهِرُهُ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَبَاطِنُهُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ انْصَدَعَ جِدَارُهُ فَخَرَجَ مِنْهُ حَيَوَانٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذُو شَكْلِ حَسَنِ وَصَوْتٍ مَلِيحٍ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْبَيْضَةَ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا الدَّجَاجَةُ

قَالَ آخَرُونَ: مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ الْمُنِيرَةِ مِنَ السَّيَّارَةِ وَمِنَ النَّوَابِتِ، وَشَاهَدَهَا كَيْفَ تَدُورُ مَعَ الْفَلَكَ الْعَظِيمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ دَوِيرَةً وَلَهَا فِي أَنْفُسِهَا سَيْرٌ يَخْصُهَا، وَنَظَرَ إِلَى الْبِحَارِ الْمُتَنَفِّةِ لِلْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْجِبَالِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْأَرْضِ لِنَقَرٍ وَيَسْكُنُ سَاكِنُوهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَلَوَانِهَا كَمَا قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ وَمَا زُرَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالنَّبَاتِ الْمُخْتَلِفِ الطُّعُومِ وَالْأَرَابِيحِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ مَعَ اتِّحَادِ

طَبِيعَةِ الثَّرْبَةِ وَالْمَاءِ، عِلْمَ وُجُودِ الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَحِكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ بِهِمْ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ وَبِرَّهُ بِهِمْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَالْآيَاتُ فِي الْقُرْآنِ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ كَثِيرَةٌ جِدًّا».

2 - دليل الإتيان والإحكام والنظام:

«ومن نظر في هذا العالم، وتأمل أمره حق التأمل؛ علم قطعاً أن خالقه أتقنه وأحكمه، غاية الإتيان والإحكام، فإنه إذا تأمله وجده كالبيت المبني المُعدُّ فيه جميع عتاده، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والمنافع مخزونة كالذخائر، كل شيء منها لأمر يصلح له، والإنسان كالمالك المخول فيه، وضروب النبات مهياةً لماربه، وصنوف الحيوان مصرفة في مصالحه، فمنها ما هو للدر والنسل والغذاء فقط، ومنها ما هو للركوب والحمولة فقط، ومنها ما هو للجمال والزينة، ومنها ما يجمع ذلك كله كالإبل، وجعل أجوافها خزائن لما هو شراب وغذاء ودواء وشفاء ففيها عبرة للناظرين، وآيات للمتوسمين، وفي الطير واختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها ومقاديرها ومنافعها وأصواتها، صافات وقابضات، وغاديات ورائحات، ومقيمات وظاعنات: أعظم عبرة وأبين دلالة على حكمة الخالق العليم» [الصواعق المرسلة. ابن القيم]

ومن وجوه الإتيان والإحكام كذلك: ما جعله الله تعالى من التناغم والتناسب والوئام بين أجزاء الكون، وبين أجزاء الإنسان وأجزاء الحيوانات؛ فليس هناك تنافر بين الشمس والقمر ولا بين النجوم والكواكب ولا بين البر والبحر، ولا بين السماء والأرض.

وانظر كذلك إلى أجزاء الإنسان: فالسمع والبصر والكلام والإحساس والإدراك كل هذه الحواس في تناغم وتناسق وتناسب، وانظر كذلك إلى حركة الأكل من مبدأها إلى منتهاها وإلى اكتساب كل عضو من أعضائه من هذا الأكل بما يُفيدُه وينفعه؛ وفي ذلك وغيره يقول الله تعالى: ﴿سَرِّهِمْ

ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾
[فصلت] وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

وسبحان من قال في كتابه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء] وقال كذلك: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون] والواقع: أنَّ أحوال السماوات والأرض وانضباط أحوالهما دليل على وحدانية خالقهما وفاطرهما وإحكامه وإتقانه؛ ففساد السماوات والأرض واضطراب نظامهما مقرون بوجود إلهين أو آلهة تعالى الله عما يقولون الظالمون علواً كبيراً.

ثانياً: نماذج من الحق في مواجهة الباطل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيَ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيَ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]. فليس من شأن الإله المعبود أن يكون غائبا في وقت من الأوقات أو آفلاً. وكذلك لم يكن إبراهيم عليه السلام ناظراً يريد الوصول إلى شيء قد غاب عنه أو شك فيه؛ بل كان مُناظراً مُنتزلاً في الخطاب مع قومه عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: الاستدلال بالخالقية على أوصاف الله تعالى وإلهيته.

ثم إنَّ القرآن الكريم قد انتقل بقارئه من محيط الخالقية؛ خالقية الله تعالى للكون بما فيه إلى محيط آخر لازم له، وهو أنَّ هذا الخالق لا بد من الإذعان والخضوع له والانكسار بين يديه بالعبودية؛ فهذا حقه سبحانه وتعالى علينا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: (هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ قُلْتُ: لَا، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) [صحيح البخاري].

فالخالق سبحانه وتعالى له حقُّ هو من أكد الحقوق؛ وهو العبودية التي خلقنا الله تعالى لأجلها. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]؛ فالذي خلقنا وخلق من قبلنا، وجعل الأرض والسماء بهذه الصورة التي أمامنا لا يستحق سبحانه وتعالى أن يُشرك معه في عبوديته.

وقال سبحانه وكذلك: ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة]؛ فهو الإله الواحد المعبود بحق سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم ودليل ذلك ما في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والسحاب المُسخَّر بين السماء والأرض، وخلق البحار وما فيها من الأفلاك المواخر التي تشق الماء فيها، .. وغيرها من مظاهر القدرة والإتقان.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى اتصافه بصفات الجلال والكمال عن طريق خلقه لهذه المخلوقات فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق] فقد خلق سبحانه وتعالى السماوات

والأرض كي نعلم أنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وأنه سبحانه قد أحاط بكل شيء علماً. وكذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور] «كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون».

فالذي خلق السماوات والأرض؛ قادر على غيرهما من المخلوقات بل وهي أهون عليه وأيسر، وقد الله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر]. فخالق هذا الكون بما فيه؛ لابد وأن يكون حكيماً سمياً بصيراً لطيفاً خبيراً، له كل الأسماء الحسنى والصفات العلى. إذ كيف لا يوصف بذلك وخلق لمخلوقاته شاهد ومُعرف به وعليه سبحانه وتعالى.

ثم إن من مخلوقاته ما يوصف بأوصاف الكمال والجمال؛ فجميع أنواع الجمالات التي نراها في الكون مبنوثة، وجميع أنواع الكمالات كذلك شاهدة على اتصافه سبحانه وتعالى بأعلى مما فيها بالكمال والجمال وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت] فواهب الكمال أولى به من غيره.

والحمد لله رب العالمين.

النبي صلى الله عليه وسلم (آيات صدقه ودلائل اصطفائه)

المقدمة.

أولاً: رعاية الله تعالى له صلى الله عليه وسلم قبل بعثته.

ثانياً: دلائل الاصطفاء.

ثالثاً: من آيات الصدق.

(الموضوع)

حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ حديثٌ تكتنفه الأشواق، وتهفوا إلى ذكره الأفئدة وتشتاق، فهو صلى الله عليه وسلم حبيب رب العالمين، والسراج المنير والبشير النذير، الذي لو لم تكن له من المعجزات إلا سيرته لكانت كافية في إثبات نبوته وامتنال أمره واقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم؛ قال ابن حزم رحمه الله: «إن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى» وقد احتجَّ النبي صلى الله عليه وسلم على قومه بما عهده عنه قبل بعثته كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُمِّتٌ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ^ط إِيَّيَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ^ط فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس]؛ فكيف لهذه العقول التي عايشَتْ هذا النبي الأمين الصدوق أن تطلبَ منه هذا الطلب - الذي هو الكذب على الله عز وجل - فكيف يكذب على الله تعالى من لم يكذب على الناس؟! وقد مكث فيهم دهرًا طويلاً - أربعين سنة - لم يعهدوا عليه الكذب! فكيف له أن يتقول على الله تعالى الأقاويل.

وإذا كان الله تعالى قد قال عن نبيه وكنيّه موسى صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه] «ولتتربى على نظري وفي حظي وكلاءتي، وأيُّ نظر وكفالة أجلّ وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبّر ذلك لمصلحة موسى» فيقينا واعتقادنا أنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم عند ربّه أولى بذلك.

وفي هذا اللقاء سوف نُظهر بعضَ مواطن التربية والرعاية والحفظ للنبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى، ونُظهر كذلك من آيات صدقه ودلائل اصطفاؤه؛ ما يجعلُ موقف الرافضين لدعوته صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرها - قديماً وحديثاً - موقفاً تأباه العقول وترفضه النفوس والفطرُ المُستقيمة.

أولاً: رعاية الله تعالى له صلى الله عليه وسلم قبل بعثته.

- أنا ابن الذبيحين. فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم جدّه الأعلى لأبيه؛ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقصته في القرآن الكريم معلومة معروفة؛ إذ قال الله تعالى في بدايتها: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَآنَبَتِ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات] ثم كان ما كان من الفداء والتضحية. وأمّا جدّه لأبيه مباشرة وهو عبد المطلب؛ فقد ذُكر عن أبي سفيان خبر الذبيح فقال: «فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك - صلى الله عليه وسلم - فقل لمعاوية، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب نذر إن سهل الله حفر زمزم أن يذبح أحد أولاده، فخرج السهم على عبد الله أبي النبي - صلى الله عليه وسلم - ففداه بمائة بعير» وقيل: «فالمشهور أن عبد المطلب: نذر إن الله وهبه عشرة أبناء أن يتقرب إلى الله بذبح أحدهم، فتمّ له ما رجا وأعطاه الله عشرة، فأقرع بينهم أيّهم يذبحه فوقع القرعة

على عبد الله فلم يذبحه ووداه بمائة من الإبل، بدلاً من ذبحه واستقرت هذه الدية في قريش فيما ذكر جماعة من المؤرخين لقريش وعبد المطلب». وقد استقرت هذه الدية عندنا في الإسلام بعد.

ومن هذا كله نشهد حفظ الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو في أصلاب آبائه؛ فلو دُبح هذا أو ذاك لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

— أنا دعوة أبي إبراهيم. وكذلك من معالم حفظ الله عز وجل ورعايته لنبيه صلى الله عليه وسلم أن جعل إبراهيم عليه السلام يدعو ربه أن يبعث رسولا في هذه البقاع الطاهرة بقاع بيت الله الحرام فيقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة]؛ وكذلك يُبَشِّرُ به عيسى عليه السلام وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وغيره: (إني عند الله مكتوبٌ بخاتم النبيين وإن آدمَ لمُنْجِدٌ في طينته وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام) [أخرجه أحمد في مسنده]؛ وانظر كذلك إلى هذه الأم وإلى رؤياها التي كان فيها خبر هذا النور؛ فهو صلى الله عليه وسلم نور وقد وصفه الله تعالى بالسراج المنير فقال: ﴿يَنَاطِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب]!

— لم يعبد الأوثان. وكذلك حفظه الله تعالى من عبادة الأوثان حتى قبل بعثته؛ بل إن العلماء رحمهم الله تعالى مُجمعون على أن الأنبياء معصومون من الكبائر حتى قبل بعثتهم؛ فلا يُتصور منهم الكفر ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أي خديجةُ واللَّهِ لا أعبدُ اللَّاتَ والعزى واللَّهِ لا أعبدُ أبداً قال: فتقولُ خديجةُ: خلَّ اللَّاتُ خلَّ العزى. قالَ كانتَ صنمُهُمُ اللَّتي كانوا يعبدونَ ثم يضطجعونَ) [مسند أحمد] وقال كذلك في قصة بحيرا الراهب عندما سأله بهما مُستحلفاً له؛ قال:

(لا تسألني بهما، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما). بل قد قرر علماء العقائد أن الأنبياء مولودون على الإيمان.

- لم يأكل طعاماً مما لم يذكر اسم الله عليه. فقد صحَّ: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلَدِ حِمْيَرَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ، فَقَدَّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفْرَةً، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ أَكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا أَكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ! إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ) [صحيح البخاري].

- لم يهَمْ بأمر من أمر الجاهلية إلا مرتين وقد عصمه الله تعالى فيهما؛ فقال: (ما هممتُ بقبيحٍ ممَّا يهْمُ به أهلُ الجاهليَّةِ إلَّا مرتينِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا قُلْتُ لَيْلَةً لَفَتَنِي كَانَ مَعِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفَتَيَانُ قَالَ: نَعَمْ فَخَرَجْتُ فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً وَصَوْتَ دُفُوفٍ وَمَزَامِيرَ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فَلَانٌ تَزُوجُ فَلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزُوجُ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْني عَيْنِي فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظُنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ فَخَرَجْتُ فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقِيلَ لِي مِثْلَ مَا قِيلَ لِي فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ حَتَّى غَلَبَتْني عَيْنِي فَمَا أَيْقَظُنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ لِي مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا) قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَوَ اللهُ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللهُ بِبُيُوتِهِ) [صحيح ابن حبان].

- في بناء الكعبة وتجديدها. فقد كان صلى الله عليه وسلم يحمل الأحجار مع العباس بن عبد المطلب ولما انكشفت عورته سقط مغشياً عليه وطمحت عيناه إلى السماء وما روي بعده عريانا؛ فقد جاء أنه: (لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ، ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْعَلْ إِرَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَخَرَّ إِلَى

الأرضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: إِزَارِي إِزَارِي فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ [صحيح البخاري] وكذلك حَكَّمُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنْدَمَا اخْتَلَفُوا فِيمَنْ يَتَوَلَّى وَضَعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَكَانَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَهُمْ بِالْأَمَانَةِ؛ فَتَقُولُ الرَّوَايَةُ: (وَإِنَّ قُرَيْشًا اخْتَلَفُوا فِي الْحَجَرِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ بِالسُّيُوفِ، فَقَالَ: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأَمِينَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ رَضِينَا بِكَ، فَدَعَا بِثَوْبٍ فَبَسَطَهُ وَوَضَعَ الْحَجَرَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لِهَذَا الْبَطْنِ، وَلِهَذَا الْبَطْنِ - غَيْرَ أَنَّهُ سَمَّى بَطُونًا -: لِيَأْخُذَ كُلُّ بَطْنٍ مِنْكُمْ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، فَفَعَلُوا، ثُمَّ رَفَعُوهُ، وَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ) [الحاكم في المستدرک].

- شق صدره صلى الله عليه وسلم. فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال: (.. واسترضعتُ في بني سعدِ بنِ بكرٍ فبينما أنا في بهمٍ أتاني رجلانِ عليهما ثيابٌ بيضٌ معهما طستٌ من ذهبٍ مملوءٌ ثلجًا فأضجعاني فشَقَّ بطني ثم استخرجا قلبي فشَقَّاه فأخرجا منه عِلْقَةً سوداءَ فَأَلْقَيَاهَا ثُمَّ غَسَلَا قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثَّلْجِ حَتَّى إِذَا أَلْقَيَاهُ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ زِنِّهِ بَعْشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فوزنني بعشرة فوزنتهم ثم قال زِنِّهِ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فوزنني بمائة فوزنتهم ثم قال زِنِّهِ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ فوزنني بألف فوزنتهم فقال دَعُهُ عَنْكَ فلو وزنته بأُمَّتِهِ فوزنتهم) [البداية والنهاية لابن كثير].

فهذه كُلُّهَا دَلَالٌ صِدْقٌ وَشَوَاهِدٌ حَقٌّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَفِظَ نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْذُ طُفُولَتِهِ بَلْ وَقَبْلَهَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثَانِيًا: دَلَالٌ الْأَصْطِفَاءِ وَعِنَادِ الْكِبَرِيَاءِ.

وهذه الدلائل كانت أمام أعينهم واضحةً جليَّةً ومع ذلك جحدوا بها واستكبروا؛ وقد أخبر الله تعالى بهذا التناقض الشديد في حياتهم؛ فقال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام]. فهم لا يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم يجحدون بما آتاه الله تعالى من فضله ويستكبرون؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا

لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿الزخرف﴾. أَيْ: «وقال المشركون المكذبون: هَلَّا أنزل الله هذا القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف، وهما الوليد بن عقبة وعروة بن مسعود الثقفي بدلاً من إنزاله على محمد الفقير اليتيم».

ومن دلائل الاصطفاء التي لم تُواجه إلا بالاستكبار والعناد والجحود؛ هذه المواقف:

- مع الراهب؛ فقد أخرج خبره الترمذي في سننه؛ فقال: (خرج أبو طالبٍ إلى الشام وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخٍ من قُرَيْشٍ فلما أشرَفُوا على الراهبِ هبطوا فحلُّوا رحالهم فخرج إليهم الراهبُ وكانوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُلْتَفَتُ قَالَ فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاء فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَا عَلِمَكَ فَقَالَ إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ حَجَرٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيِّ وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفٍ كَتَفِهِ مِثْلُ النَّفَّاحَةِ ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ فَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الْإِبِلِ فَقَالَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فِيءِ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ فَقَالَ انظُرُوا إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ مَا عَلَيْهِ قَالَ فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ .. قَالَ أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا أَبُو طَالِبٍ. فَلَمْ يَزَلْ يَنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكَ وَالزَّيْتِ) [سنن الترمذي]. فانظر إلى هذه الدلائل التي أخبر بها الراهب ومع ذلك أبوا واستكبروا حين بُعث بهذا النور صلى الله عليه وسلم.

- هرقل مع أبي سفيان بن حرب. فقد ورد أنَّ هرقلَ عظيم الروم أرسل إلى أبي سفيان بن حرب - حين كان في تجارة إلى الشام - يسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقدم إليه أبو سفيان ومعه ركب من قريش : (فَقَالَ - هرقل -: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ فَأَجَعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ

لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنِ الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَّبَنِي فَكَذَّبُوهُ. فَوَ اللَّهُ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ:

كَيْفَ نَسَبُهُ فَيْكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضِعْفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ بَلْ ضِعْفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدُرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مَدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي

كَلِمَةً أَدْخِلَ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ،

يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ،

وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّ فَيْكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي

نَسَبِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا

الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا،

قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ

أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَلَّاتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَلَّاتُكَ أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَلَّاتُكَ أَيْرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ. وَسَلَّاتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ. وَسَلَّاتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَقَابِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَغْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ .. [صحيح البخاري].

فانظر إليهم وقد سمعوا هذه الدلائل التي استدلت بها هذا الملك؛ ومع ذلك لم يُدْعِنُوا لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!.

- النجاشي رضي الله عنه مع عمرو بن العاص - قبل إسلامه - فهذا ملك آخر يذهب إليه ركب من قريش - عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة المخزومي - كي يستعديه أهل مكة على النفر الذين ذهبوا إليه مهاجرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم (مُهَاجِرَةُ الْحَبْشَةِ). فَلَمَّا سَمِعَ النَّجَاشِيُّ الْمَلِكُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ الْقُرْآنَ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: (فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ {كهيعص}، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَافِقَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا، وَلَا أَكَادُ) ثُمَّ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ فَسَأَلَهُمْ: (مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا؛ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُوْدًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتُ هَذَا الْعُوْدَ) [أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده]. ومع ذلك أبوا واستكبروا!!.

- كذلك قولهم وشهادتهم "ما جربنا عليك كذبا قط". فقد: (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهُ فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [صحيح البخاري]. فكيف لم تُجربوا عليه كذبا قط، وقد صدقتموه في جميع الأخبار واستأمنتموه على كثير من الأمانات؛ ثم إذا جاءكم بهذا النبأ العظيم الذي هو خبرٌ من أحكم الحاكمين لم تصدِّقوه. فما هذا إلا جحودٍ لِمَا هو في النفوس مستقرٌّ!.

- وكذلك موقف اليهود. كذلك من المواقف التي يعلوها الاستكبار والعناد؛ موقف هؤلاء الذين أوتوا الكتاب والذي يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك كفروا وجحدوا؛ فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، وكذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] فقد عرفوا .. ومع ذلك كفروا فلم يُدعِنوا!.

ومع أن من علماء اليهود من علم صدق النبي صلى الله عليه وسلم عندما نظر في وجهه فقط؛ فقد جاء أن عبد الله بن سلام - وكان من علماء يهود؛ ثم أسلم - قال: (لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) [أحمد في مسنده].

ومن الشهادات كذلك؛ شهادات «الثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكابر مُفكِّري الغرب»⁽¹⁾. أمثال: مايكل هارت - العالم الأمريكي المعاصر؛ يقول في كتابه "المائة. تصنيف

(1) بهذا العنوان عقد الدكتور: سيد حسين العفاني فصلاً كبيراً في كتابه: (وا محمداه) بين فيه بعض هذه الثناءات من هؤلاء المفكرين، ج4، ص: (227 - 445). الناشر دار العفاني. ط: أولى 1427هـ.

لأعظم الشخصيات أثراً في التاريخ": «إن اختياري لمحمد - عليه الصلاة والسلام - ليكون على رأس القائمة أعظم الناس أثراً، قد يدهش بعض القراء ويثير التساؤل عند الآخرين، إن محمداً هو الرجل الوحيد في العالم الذي نجح إلى حد بعيد في الجانبين الديني والدنيوي معاً.. رجل نشأ نشأة متواضعة، نجح في تأسيس ونشر واحدة من أعظم الديانات في العالم، كما أصبح سياسياً ناجحاً، واليوم بعد ثلاثة عشر قرناً - الصحيح خمسة عشر قرناً - ما زال تأثيره قوياً شاملاً». صلى الله عليه وسلم.

فهذه كلها دلائل صدق وشهادات حق للنبي صلى الله عليه وسلم؛ وهي كافية لمن أراد الإذعان والقبول لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: آيات الصدق.

فقد تعددت آيات صدقه صلى الله عليه وسلم؛ فلا يستطيع أن يحصرها عادٌ، ومنها:

- ما قيل عنه في التوراة والإنجيل. وهذا نوع من الاستدلال عظيم؛ إذ يستدلُّ المُستدلُّ على قضيته بما في يد خصمه. وقد أرشدنا الله تعالى في القرآن الكريم إلى ذلك فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف] وقال تعالى عن عيسى عليه السلام صاحب الإنجيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف].

وجاز لقائلٍ منهم أن يقول؛ هذا من القرآن ولا نؤمن به؟! فنقول له: ما زالت النبوات المُبشرة بمحمد صلى الله عليه وسلم في كتابكم لمن تدبرها وتأملها - على الرغم من التحريف والتبديل الذي أصاب كتابكم - أمثال ما جاء في سفر التثنية أن الله قال لموسى: «سَأُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيُخَاطِبُهُمْ بِكُلِّ مَا أَمَرُهُ بِهِ. وَأَيُّ رَجُلٍ لَمْ يَسْمَعْ كَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي، فَإِنِّي أَحَاسِبُهُ عَلَيْهِ» فالمِثلية بين موسى ومحمد صلى الله عليهما

وسلم أظهرُ فيهما من موسى وعيسى أو موسى ويوشع على أنبياء الله ورسله الصلاة والسلام جميعاً؛ ولذلك ذكر الله تعالى في مواطن من القرآن الكريم الاقتران بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وكذلك فإن محمداً صلى الله عليه وسلم كان كلام الله تعالى في فمه فلم يكن كاتباً، ولا نزلت عليه الألواح. ومن الإنجيل: (لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك ييكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، ... إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية، ذاك يمجديني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم). [يوحنا].

- **النبي الأمي.** من أبرز الآيات الدالة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة ومع ذلك جاء بهذا الإعجاز الباهر الظاهر القاهر؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت] ف: «لو كنت قارئاً أو كاتباً من قبل أن يوحى إليك لشك في ذلك المبطلون، وقالوا: تعلّمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها».

- **إخباره عن الغيبات.** وهذه من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم؛ وهي كثيرة حتى ذكر بعض العلماء أنها زهاء ألف أمر غيبي؛ وهي على أنواع: «فمنها ما تحقق حال حياته صلى الله عليه وسلم، ومنها بعده، ومنها ما يكون قريباً من الساعة، وفي كل ذلك دلائل على نبوته ورسالته» ومنها: "الرياح التي أخبر عن هبوبها ليلاً في غزوة تبوك" فكانت كما أخبر عليه الصلاة والسلام وكذلك: "أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي فيما لا يزيد عن تسع سنين" فكان كما أخبر الله تعالى في كتابه وليس هذا فقط بل المنطقة التي كانت فيها المعركة كما وصفها الله تعالى: "أدنى الأرض". وكذلك: "إخباره عن القادة الثلاثة الذي قتلوا في غزوة مؤتة وهو بالمدينة؛ فقد جاء: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى زَيْدًا، وَجَعْفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ

يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ: حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ [صحيح البخاري].

- اتَّسَقُ شَرِيعَتُهُ وَانْسَجَامُهَا. وتلك آية ما أعظمها؛ فليس هناك تضارب ولا تناقض ولا تتافر بين أحكام الشريعة الإسلامية ولا بين آيات القرآن ولا بين أخباره ولا بين قصصه ومواعظه. والأحكام فيها على تنوعها ليس فيها اختلال؛ فأحكام الأسرة والجنايات والعبادات والبيع والشراء والمعاملات وسائر الأحكام الفقهية كأنها منظومة متكاملة، أو كأنها عِقْدٌ يتلأأ على جبين الحياة لا تحجبه أشعة الشمس عن عيون الناظرين.

وبعد .. فإني لم أتكلَّم عن كثيرٍ من مُعْجَزَاتِهِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أَوْ عَلَى يَدَيْهِ؛ فلم أتكلَّم مثلاً عن القرآن الكريم - أكبر آياته -، ولا عن انشقاق القمر، ولا عن حنين الجذع، ولا عن نبع الماء من بين يديه، ولا عن إحياء القلوب والأبدان من شركها وضلالها وظلماتها إلى حياض الإيمان، ولا .. ولا .. ولا ... فأيات نبوّته صلى الله عليه وسلم لا يجدها إلا المُبْطَلُونُ الكافرون المَكْذِبُونَ به صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله رب العلمين.

حقوق النبي صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾

المقدمة

أولاً: وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: وجوب طاعته ولزوم سنته صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: نبوة بشرية.

(الموضوع)

لقد امتنَّ الله تعالى على العالم كله ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان رحمة للعالمين؛ ومحبةً للسالكين، وحجةً على العباد أجمعين.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران] وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]، وقال مظهرًا فضله ببعثته صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ② وعآخرين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الجمعة]. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]

(1) هذه الخطبة مأخوذة من كتاب: (حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة - محمد بن

خليفة التميمي). وكتاب: (محبة النبي صلى الله عليه وسلم بين الإجلال والإخلاق - مجلة البيان)

فكانت هذه المنة وهذه النعمة؛ سببا في إخراجنا من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، ومن دركات الجهل إلى واحات العلم وساحات المعرفة؛ فتعلمنا على يديه صلى الله عليه وسلم الكتاب والحكمة، وتعلمنا أمورا لولاه صلى الله عليه وسلم لم يكن إلى تحصيلها من سبيل .. ولهذا وغيره كان من الضروري أن نقف وقفة تليق بهذا المقام الشريف؛ مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان حقوقه علينا. وهي كالتالي:

أولاً: وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً. ومعناه: «تصديقه وطاعته واتباع شريعته»؛ وكذلك معنى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع».

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد] وقال سبحانه عَمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٍّ، ولا نصرانيٍّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار) [صحيح مسلم]. وفيه أيضاً: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله).

ولابد كذلك من الإيمان بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم للثقلين الإنس والجن؛ فليست خاصة بقوم دون قوم؛ بل للناس كافة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ] وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: (أُعْطِيتُ خَمْسًا

لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: ... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً [صحيح البخاري].

وكذلك لا بد من الإيمان بأنه خاتم النبيين؛ فلا نبي بعده. وقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [الأحزاب]، وقال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي) [صحيح مسلم]. (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) [صحيح البخاري].

وكذلك لا بد من الإيمان بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة؛ فلم يكتُم منها شيئاً. إذ هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير]؛ فليس بخيلاً بتبليغ ما أمره الله أن يبلغكم إياه من الوحي كي يأخذ عليه أجراً، ولا بمتهم يزيد في القرآن ما ليس منه أو ينقص منه ما هو فيه. لأن الله تعالى أمره بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة] ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: (مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ، ..) [صحيح البخاري].

ثانياً: وجوب طاعته ولزوم سنته.

قد فرض الله سبحانه وتعالى طاعة كل رسول أرسله؛ فقال جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء] بل إن الكافرين في الآخرة يتمنون أن لو كانوا أطاعوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيَّتْنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ [الأحزاب] وقد أقسم الله تعالى بربوبيته على أمرٍ هو من عظام الأمور؛ وهو: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [النساء]. وهذا لأن صلاح العباد في آخرتهم ودنياهم إنما هو بالرسالة التي أنزلها الله تعالى على رسله؛ لذلك كان أمر الطاعة من أهم الأمور. وقد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعاً». وعدّها الآجري فوجدها نيّفاً وثلاثين موضعاً. ومن هذه المواضع:

منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» [النساء]، وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقال جلّ ثناؤه مبيناً سبباً من أسباب محبته تعالى للعبد ومغفرته لذنوبه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ [آل عمران]. وبين سبحانه وتعالى سبباً آخر من أسباب النصر والتمكين على الأعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال].

ومن الأحاديث النبوية:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) [صحيح البخاري].

وقد بين الله تعالى أَنَّ مَنْ أَطَاعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء] وقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى أيضاً؛ فقال: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي) [صحيح البخاري] وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم قال: (يُوشِكُ الرَّجُلُ مَتَكَّنًا عَلَى أَرْيَكَتِهِ يَحْدُثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابٌ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ إِلَّا وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) [سنن ابن ماجه].

ويبعث على طاعة النبي صلى الله عليه وسلم وامتنال أمره؛ شفقته ورحمته صلى الله عليه وسلم بأمرته وحرصه عليها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة] وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك مثلاً؛ فقال: (إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا) [صحيح البخاري].

ثالثاً: محبته صلى الله عليه وسلم وكثرة ذكره. وقد تنوعت دلائل القرآن الكريم والسنة النبوية في بيان هذا الواجب؛ ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ عِبَادُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة] فليترصد بالعذاب من قدم محبوباً من هذه المحبوبات على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وليحذر كذلك هذا الوصف بالفسوق؛ فانه لا يهدي القوم الفاسقين. وذلك يقتضي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا؛ فقد قال تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب] فهو صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا ومن أولادنا ومن أزواجنا ومن ديارنا وأموالنا ومن كل شيء.

وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ما يشفي ويكفي، حيث جاء عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا،

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ [صحيح البخاري].

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [صحيح البخاري]. وعنه رضي الله عنه أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) [صحيح البخاري].

ومما يدلُّ على عظيم أمر محبة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ما جاء عن أنس رضي الله عنه أيضاً: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا. قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. قَالَ أَنَسُ: فَمَا فَرَحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قَالَ أَنَسُ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ) [صحيح البخاري].

ومن علامات محبته صلى الله عليه وسلم: اتباع أمره عليه الصلاة والسلام، والدفاع عن سنته، وتعلم سيرته وهديه،.. وغير ذلك من هذه العلامات والتي منها كذلك:

كثرة ذكره بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم؛ فمن أحب شيئاً لهج لسانه بذكره. وقد أمرنا الله تعالى به في القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب]. وصلاة المسلم لا بد وأن تشمل على الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وذلك في التشهد وإلا فهي باطلة، وكذلك حضنا النبي صلى الله عليه وسلم وأمرنا بها فقال: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ

صَلَاةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَتَّبِعِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيِ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ) [صحيح مسلم].

ولأهمية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم؛ كانت هناك عقوبات لتاركها. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (البخيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) [أخرجه الترمذي وأحمد]. وكذلك: (رغم أنف رجلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ ورغم أنف رجلٍ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له ورغم أنف رجلٍ أدرك عنده أبواه الكبَر فلم يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ) [أخرجه الترمذي وأحمد].

ثالثاً: تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح]. فقد أرسله الله تبارك وتعالى شاهداً ومُبشراً ونذيراً «رجاء أن تؤمنوا بالله، وتؤمنوا برسوله، وتعظموا رسوله وتُجلّوه، وتسبّحوا الله أول النهار وآخره» فتعظيمُ النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله من مقاصد إرساله صلى الله عليه وسلم.

ومن مظاهر هذا التعظيم والتوقير والإجلال له صلى الله عليه وسلم:

- رفع الله تعالى ذكره. فقد قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح]. فقد أصبح يُذكر في الأذان وفي الإقامة وفي غيرهما من مواطن التشريف؛ فلا يُذكر الله تعالى إلا ذُكر معه عليه الصلاة والسلام.
- أن الله أمر الأمة أن لا تُنادي النبي صلى الله عليه وسلم باسمه مجرداً. فقال جل ذكره: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور] فهذا نهْيٌ للمؤمنين أن يُنادوا النبي صلى الله عليه وسلم باسمه أو بكنيته (يا محمد) أو (يا أبا القاسم)؛ بل: (يا نبي الله) (يا رسول الله).
- وكذلك أمر الله تعالى الأمة أن لا ترفع صوتها فوق صوته صلى الله عليه وسلم ولا أن يتقدموا بين يديه صلى الله عليه وسلم بقول أو رأي أو أي نوع من أنواع التقدم بين يديه؛

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات].

• ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه: (أنا سيّد ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ، وأوّلُ من يَنشَقُّ عنه القبرُ، وأوّلُ شافعٍ وأوّلُ مُشَفِّعٍ) [صحيح مُسلم].

• أن الله تعالى يُرضيه. فقد قال تعالى عن تحويل القِبلَةِ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة]. وقال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى]. وفي صحيح مُسلم: (أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي هُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36] الآية، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلَّهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسْؤُوكَ).

وبالجملة: «فقد اتفق المسلمون على أنه صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق جاها عند الله، فلا جاه لمخلوق أعظم من جاهه، ولا شفاعَة أعظم من شفاعته، فمما ذُكر وغيره يتبين أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء، بل وأفضل الخلق، وأعظمهم منزلة عند الله تعالى»

رابعاً: نبوة بشرية.

فعندما اقترح المُشركون على النبي صلى الله عليه وسلم أموراً تتنافى مع بشريته صلى الله عليه وسلم؛ أظهر لهم - لا أقول العجز ولكن - طبيعة الرسالة؛ وهي أنه صلى الله عليه وسلم بشر مثلهُم ولا يرتفع عليهم إلا بالوحي؛ فهو بشرٌ يُوحى إليه فقط!! قال: ﴿وَقَالُوا لَن تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

تَفْجَرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن تُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ [الإسراء]. فعجباً لمن يُخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن بشريته ونبوته، فيعتقد فيه ما لم يأذن به الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وسلم عن نفسه: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) [صحيح البخاري].

فهو صلى الله عليه وسلم بشر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعا إلا ما شاء الله، وكذلك لا يعلم الغيب إلا بما علّمه الله تعالى إياه، فهو صلى الله عليه وسلم لا يقول على الله بما لا يعلم. وكذلك نحن: لا نقول فيه أو عنه إلا بما علّمنا الله تعالى أو أمرنا به.

والحمد لله رب العالمين.

الضروريات الخمس

«فَقَدْ اتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ - بَلْ سَائِرُ الْمِلَلِ - عَلَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ وُضِعَتْ:

لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ، وَهِيَ:

الدِّينُ، وَالنَّفْسُ، وَالنَّسْلُ، وَالْمَالُ، وَالْعَقْلُ

وَعِلْمُهَا عِنْدَ الْأُمَّةِ كَالضَّرُورِيِّ»

(الإمام الشاطبي رحمه الله)

الدين

العناصر:

أولاً: أهمية الدين في حياة المسلمين.

ثانياً: سُبُل المحافظة على الدين.

ثالثاً: أخطار تهدد الدين في النفوس.

خاتمة (دعاء لإصلاح الدين)

(الموضوع)

من الضروريات التي هي كالرأس من الجسد، والتي إذا فُقدتْ أو تعرضتْ لأي نقص أو خلل أدى ذلك إلى نقص أو خلل في الحياة بمقدار هذا النقص أو ذلك الخلل، فالعلاقة بينهما علاقة طردية تزداد بزيادته وتتناقص بنقصه؛ هي ضرورة:

(الدين أو التدبُّن بما أنزله الله تعالى في كتابه أو بيَّنه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم). وسوف أذكر في هذا اللقاء إن شاء الله تعالى؛ ما يبيِّن أهمية الدين في نفوس المسلمين، والسُّبُل التي تُحافظ على هذه الضرورة وكذلك الأخطار التي تهدد استقراره في المجتمع أو تؤثر عليه سلباً.

أولاً: أهمية الدين في حياة المسلمين.

تظهر أهمية الدين في هذه النقاط التالية:

1 - الإجابة على الأسئلة الوجودية. فهناك أسئلة مُلحةٌ على الإنسان لا يستطيع الإجابة عنها من خلال معطيات العلم الحديث، وإذا ما أراد الإنسان أن يهتدي إلى معرفتها فلا بد من الرجوع إلى حياض الدين وتصوراتها عنها ففيه الشفاء والاهتداء. ومن هذه الأسئلة المركزية: (من

أين جننا؟)، (ولماذا جننا؟)، (والى أين المصير؟)، (لماذا الفقر والغني؟)، (لماذا الصحة والمرض؟)، (لماذا الحرب والسلم؟)، (لماذا النجاح والفشل؟)، (لماذا السراء والضراء؟)، (لماذا المنع والعطاء؟)، بل: (لماذا الموت والحياة؟) .. وغيرها.

وكُلُّها أسئلةٌ .. يسعى الإنسانُ بعقله وفكره ووجدانه إلى أن يحققَ فيها الاستقرار النفسي والمعرفي؛ فانهدام هذا الاستقرار النفسي والمعرفي قد أدى إلى انحراف كثير من الشباب وانزلاقهم في مهاوي الشياطين ومهالكهم. فظهر ما يُسمَّى: بالإلحاد، وعبادة الشيطان، والمذهب الرُّبوبي، والمذهب العلماني.. وغيرها من المذاهب الضالة والأفكار المنحرفة التي هي نتيجة من النتائج اللازمة والمتربطة على عدم ضبط الرؤية المعرفية لأمثال هذه الأسئلة الوجودية وغيرها.

2 - ضبط الجانب الأخلاقي والغرائزي. فقد وضع الله تعالى في الإنسان غرائزَ وشهواتٍ، وركَّبها فيه تركيباً بديعاً، فإذا ما تُرك الإنسان وهذه الغرائز وتلك الشهوات بلا رابط أو ضابط فسوف ينزل بنفسه من درجات الإنسانية إلى دركات البهيمية. فمن الذي يضبط له الغريزة الجنسية، أو غريزة الخوف، أو الحبِّ والكُره والبغض أو حبِّ الفضول، أو الاشتمزاز .. وغيرها من الغرائز؟.

ومن الذي يحكم على امرأة: أنَّه يحلُّ له النكاح منها وأخرى لا يحل؟ فهذه من المحرمات وليست هذه كذلك؟ وغير ذلك!!.. ومن الذي يحكم على الإنفاق بأنه تبذير أو تقتير؟ أو على الغيرة بأنها ديانة أو شكٌّ، أو على الشجاعة بأنها تهوُّر أم جُبْن؟. وهكذا في كل الفضائل؛ إذ ما من فضيلة إلا وهي بين رذيلتين!!.. من الذي يحكم على فعلٍ بأنه عدل وآخر بأنه ظلم، أو على أمرٍ بأنه من المساواة وآخر بأنه من الجور؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ - وفي رواية: - "صالح" الأخلاق). هذا كُلُّه لا يكون إلا عن طريق الدين.

3 - الموازنة بين حاجات الجسد وحاجات الروح. فلم يأت الدين بنفي ما يتعلق بالجسد ولا بنفي ما يتعلق بالحواس الإنسانية، وكذلك لم يأت بنفي ما يتعلق بالروح أو النفس الإنسانية؛ فلكلٍ من الجسد والروح ضرورياته وحاجياته وتحسيناته فلا يعتدي حقُّ هذه على تلك ولا تلك على

الأخرى؛ فقد: (أَخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، قَالَ: فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِلْأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَاتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ) [أخرجه البخاري] فهناك حقوق لا بد من مراعاتها مُجتمعاً.

4 - تشريعاته الضابطة لمعاملات الخلق. فالخلق يتعاملون مع بعضهم البعض ولا بد من ضابط لمعاملاتهم حتى لا يطغى الإنسان على حق أخيه؛ إذ الإنسان بطبعه ظلوم جهول، وإذا لم يكن أمامه رادع يردعه أو قوة تصده عن غيّه سيعتدي؛ فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه؛ قال: (كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَفْذَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا. [وفي رواية]: فَسَقَطَ مِنْ يَدِي السَّوْطُ مِنْ هَيْبَتِهِ) [أخرجه مسلم]، فلم يخوفه النبي صلى الله عليه وسلم بسلطانه عليه أو بقانون أو بتشريع أو بدستور وإنما (بقدره الله عليه!!). وهذا في الجانب المعرفي العلمي فقط؛ أما في الجانب التشريعي فهناك الكفارات والزواجر والحدود والتعزيرات الكفيلة بضبط هذه الأخلاق.

5 - حديثه عن الغيبيات. الغيبيات ركن ركين من أركان الدين؛ فالقيامة وأهوالها، والجنة والنار وما فيهما، والملائكة والجنّ، وأحوال الأمم الماضية، والغيبيات التي تتعلق بالموت وما يتبعه وما يتقدم عليه منها، وغير ذلك من هذه الغيبيات .. كلّها أمور تقرّد الدين بالحديث عنها ولم يُناقض واقعاً ملموساً في حديثه ذلك؛ فلم يأت فيها بشيء يخالف واقع الناس أو يُناقض علماً يقينياً

تعلموه واعتمدوه؛ إذ هي أخبار قائمة على خبر الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم؛ فمن آمن به آمن بها، ومن جحد نبوته ورسالته لم ينفعه الحديث عنها!!.

6 - رِبْطُهُ لِلْمُسْلِمِ بِالْآخِرَةِ. وهذه أهمية كبرى فالدين الإسلامي في كثير من تشريعاته وآوامره يربط المسلم بالآخرة؛ فتجد في نصوص الوحي الشريف تلك العبارة بكثرة؛ وهي: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)؛ ويُردفها النبي صلى الله عليه وسلم بجواب شرطٍ متعدد الصور والأعمال، ومنها: (فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، ..)، (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُتَّقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْنُتْ)، (فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)، وفي المعاملات الربوية: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَأْخُذَنَّ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ)، وكذلك: (فَلَا يَسْقِ مَاءَهُ وَلَدَ غَيْرِهِ). وفي الذكر الحكيم؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝۱ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝۲ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝۳ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝۴ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝۵ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝۶﴾ [المطففين]

ثانيًا: سُبُلُ المحافظة على الدين.

وهذه السُّبُل منها ما هو إيجابيٌّ ومنها ما هو سلبيٌّ؛ فمن الإيجابيات التي ينبغي أن تكون لأجل المحافظة عليه:

- جَعْلُهُ شَعَارًا ظَاهِرًا. وهذا له أكبر الأثر في الحفاظ عليه؛ فإذا ما انزوى الدين في المجتمع وأصبح في ركنٍ بعيدٍ لا يلتفت إليه؛ انمحى أثره وقلَّ تأثيره في نفوس الخلق، ثم وُجِّهت إليه السهام وأُلصقت به البلايا والرزايا وأصبح هو المتهم الأول في كل بليَّة، وشيئًا فشيئًا يندثر ويتلاشى، وأما إذا ما كان ظاهرًا وواضحًا وُضوح الشمس في سَطِّ النهار فلا شكَّ بأنه سيشتدُّ عودُه. فلا بد من أن يكون ظاهرًا في الطُّرُقَات والمساجد والمدارس والمعاهد والجامعات، والبيوت وفي البر والبحر والجو وفي كل مكان فالأرض كلها لله لا لأحد سواه؛ وقد ألمح النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله: (إِنَّ لِلْإِسْلَامِ صَوِيَّ وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، مِنْهَا أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحُجُّ الْبَيْتِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ

تُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ إِذَا مَرَرْتَ بِهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَقَدْ تَرَكَ سَهْمًا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَرَكَهُنَّ فَقَدْ وَلَّى الْإِسْلَامَ ظَهْرَهُ) [الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام - الألباني]. والمنارة والصوة - وهي: ما غلظ من الأرض وارتفع - ففيهما معنى الظهور. "وقد قيل في المثل: الهجوم خير وسيلة للدفاع". فظهوره هجومه على غيره. واندثاره فيه هجوم عليه!!.

- إشاعة يُسْرِهِ وَسِمَاتِهِ وَسَعَتِهِ. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ) [أخرجه البخاري]. وعن عائشة رضي الله عنها أنه: (سَأَلَهَا رَجُلٌ: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ مِنَ اللَّيْلِ إِذَا قَرَأَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رُبَّمَا رَفَعَ، وَرُبَّمَا خَفَضَ. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي الدِّينِ سَعَةً. قَالَ: فَهَلْ كَانَ يُوتَرُّ مِنَ أَوَّلِ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رُبَّمَا أُوتِرَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَرُبَّمَا أُوتِرَ مِنْ آخِرِهِ. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي الدِّينِ سَعَةً) [أخرجه أحمد في المسند]، فما أحوجنا إلى من يُيسِّر على الناس عباداتهم فيكون عالما بمواطن الرُّخص ومواطن العزيمة، عالما فقيها يُعطي لكل حالٍ حكمها وليس هو على طريقة مَنْ يُريدون سلخ الناس من دينهم؛ فاليُسْر يُسْر بما قاله الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذه القصة عبرة؛ فها هي عائشة رضي الله عنها: (قَالَتْ يَوْمئِذٍ - يَعْنِي يَوْمَ لَعَبِ الْحَبْشَةِ فِي الْمَسْجِدِ - وَنَظَرْتُ عَائِشَةُ إِلَيْهِمْ لَتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمِحَةٍ) [أخرجه أحمد] ويُروى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقصة لعب الحبشة بالحِراب في المسجد معروفة.

- الأخذُ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا) [أخرجه البخاري]. فإذا لم يكن في ديننا رادعٌ لأهل الفساد لبغوا وسعوا في الأرض فساداً وهلاكاً؛ ولذلك كانت الحدود (كحدِّ الزنا والقذف والسرقه وشرب الخمر وقطاع الطريق والردة) والتعزيرات

(التي يراها الإمام لأصحاب المعاصي التي لا حدَّ فيها ولا كفَّارة؛ وقد تصل إلى القتل!!) في الإسلام زواجر وكفارات. ومن الحكم السائرة بين الناس "مَنْ أَمِنَ العقوبةَ أساءَ الأدبَ"

ومن السبلات التي تؤثر عليه؛ ما يلي:

- ارتكاب الفواحش والمجاهرة بها. وهذا فيه تهديد لبقاء الدين واستقراره في النفوس؛ بل وفي المجتمعات، فإذا ما كثُر الخبثُ في بلد أو قرية أو مكان ما؛ كان هذا مؤذنً بهلاكه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ) [أخرجه البخاري].

والناس إذا ما رأوا الفواحش وألفتها عيونهم .. هان عندهم الدينُ وأصبحوا لا يقدرُون الله حقَّ قدره؛ فلذلك كان هؤلاء لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، ولا يستحقون العافية ولا المعافاة.

- اللعب بعقول الجماهير وعقائدهم. كثيرٌ هؤلاء الذين يلعبون بعقول الجماهير؛ فهذا مُتَكَلِّم في الدين وليس من أهله، وهذا مبتدع يدعو إلى بدعته ليل نهار، وهذا مذيع في برنامج يسخر من الدين وحملته، وهذا لاعبٌ اتخذ عقولَ المسلمين ملاعب يلعب فيها بأرائه وكلامه وأخلاقه.. والغوغاء خلفه مُقلِّدون!!، فلهؤلاء جميعاً.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ) [صحيح مسلم] وإذا كان هذا لمن غير حدود الأرض ومعالِمها؛ فما بالنا بمن يلعب بعقول الناس أو يُغيّر عقائدهم أو يُشككهم فيها، وأقول: (جاء صُبَيْغُ التَّمِيمِيّ إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن {وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا} قال: هي الرِّيحُ، ولولا أَنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يقولُه ما قلْتُه، قال: فأخبرني عن {الْحَامِلَاتِ وِقْرًا} قال: هي السَّحَابُ ولولا أَنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يقولُه ما قلْتُه، قال: فأخبرني عن {قَالُمُقْسِمَاتٍ أَمْرًا} قال: هي الملائكة ولولا أَنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يقولُه ما قلْتُه، قال: فأخبرني عن

{الْجَارِيَاتِ يُسْرًا} قال: هي السفن ولولا أنني سمعتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يقولُه ما قلتُه، ثم أمر به فضرب مائة وجُعِلَ في بيتٍ، فلما برأ دعا به فضربه مائة أخرى وحمله على قَتَبٍ وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع النَّاسَ من مجالستِه، فلم يزلْ كذلك حتَّى أتى أبا موسى فحلف له بالأيَّمانِ المغلَّظة ما يجدُ في نفسه ممَّا كان يجدُ شيئاً، فكتب في ذلك إلى عمرَ، فكتب عمرُ: ما إخاله إلَّا قد صدق فخلَّ بينه وبين مجالسة النَّاسِ) وهي قصة مشهورة.

أخيراً .. دعاء لإصلاح الدين.

- فقد (كان رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا معاشي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا معادي، واجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كُلِّ خَيْرٍ، واجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لي مِنْ كُلِّ شَرٍّ). [أخرجه مسلم].

- و(قلَّما كان رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يقومُ من مجلسٍ حتَّى يدعُو بهؤلاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ ما تحولُ بِهِ بَيْنَنَا وَمِيقَاتِ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ اليَقِينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقَوَاتِنَا ما أَحْيَيْتَنَا، واجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، واجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا) [أخرجه الترمذي في السنن].

- وعلى المسلم أن يسأل البراءة ويطلبها لدينه وعرضه؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعِيهِ إِلَى أُذُنَيْهِ، إِنَّ الْحَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ انْتَقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) [البخاري ومسلم].

- وكذلك: (لم يكن رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدَعُ هؤلاءِ الدَّعواتِ حينَ يُمسي وحينَ يُصبحُ اللهمَّ إني أسألكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةَ، اللهمَّ إني أسألكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهمَّ استُرْ عورتِي وآمِنْ رَوْعاتي؛ اللهمَّ احفظْني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذُ بعظمتِكَ أنْ أَغْتَالَ مِنْ تَحْتِي) [أخرجه أبو داود].

- بل إن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كان يقول للرجل إذا أرادَ سفرا ادْنُ مِنِّي أودِّعَكَ كما كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يودِّعُنَا فيقول أستودِعُ اللهَ دينَكَ، وأمانتَكَ، وخواتيمَ عملِكَ) [أخرجه الترمذي].

فاللهم إنا نستودعك ديننا فأنت خير من يحفظ الودائع،

فلا تجعل اللهم مصيبتنا في ديننا .. اللهم آمين.

النَّفْسُ.

العناصر:

المقدمة.

أولاً: نظرة الإسلام إلى النفس البشرية.

ثانياً: سُبُل وقاية النفس في الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: تكريم النفس الإنسانية غايةً من غايات الإسلام العظيمة.

(الموضوع)

عندما خلق الله عز وجل الإنسان وبين أنه خليفة في الأرض؛ سألت الملائكة ربّها سؤال استفهام عن الحكمة التي من أجلها خلق الله عز وجل هذا الإنسان؛ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] وليبيان عظمة هذا المخلوق وأهميته؛ قال العلماء عن معنى هذه الخلافة: «أَنَّهُ خَلِيفَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِقَامَةِ شَرْعِهِ، وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ، وَالْحُكْمِ فِي خَلْقِهِ» وهذا قول ابن مسعود، وقيل: «أَنَّهُ خَلَفَ مَنْ سَلَفَ فِي الْأَرْضِ قَبْلَهُ» وهو قول ابن عباس. فالنفس البشرية لها مكانة عظيمة؛ فهي مكانة منبثقة من مكانة خالقها، ومن شرف العمل المنوط بها؛ من إقامة شرع الله وإقامة الدلائل على التوحيد، والحكم بين الناس. فمخلوق هذه مكانته .. لا بد من الاهتمام به اهتماماً بالغاً؛ ولهذا كان اللقاء؛ من خلال هذه العناصر:

أولاً: نظرة الإسلام إلى النفس البشرية وأهميتها.

تتجلى نظرة الإسلام إلى هذه النفس البشرية في صورٍ من أهمها:

1 - خلقه الله تعالى بيده. فقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَإِيبْلَيْسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ﴾ [ص]. وقال عبدُ الله بنُ عمرَ (خلقَ الله أربعةَ أشياءَ بيده: العرشَ، والقلمَ، وآدمَ، وجنَّةَ عدنَ، ثم قالَ لسائرِ الخلقِ: كُنْ فَكَانَ) [مختصر العلو للذهبي].

2 - ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر]. فقد شَرَّفَ الله هذه النفس الإنسانية وأضافَ مادَّةَ حياتِها إلى نفسه؛ إضافةً تشريفٍ .. كما أضافَ المساجدَ إليه، وكما أضافَ ناقةَ صالحٍ إليه، وكذلك غيرها من المُضافات، فليس المقصود من تلك الإضافة أنها جزءٌ من الله سبحانه تعالى.

3 - جعل الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، ووهبه عقلاً؛ فضَّله به على سائر المخلوقات. ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين].

4 - وأرسل إليه رُسُلَه وأنزل عليهم كُتُبَه؛ هدايةً له وإرشاداً، وسخر له البر والبحر والسماء والأرض والحيوانات. والأدلة على ذلك واضحات بيِّنات.

5 - الله تعالى في تشريعاته: (يُريد به اليسر لا العسر)، (يُريد أن يتوبَ عليه)، (ما جعل عليه في الدين من حرج)، (يُخفف عنه .. لأنه ضعيف) (لا حاجة له في عذابه إن شكر وآمن .. فهو البرُّ الرحيم).

6 - نفس الإنسان ليست ملكاً له .. وإنما لخالقها وباريها. فقد يظنُّ الإنسان بجهله أو بطغيانه المادي؛ أنه يملك نفسه التي بين جنبيه فيفعل فيها ما يشاء دون رقيب أو حسيب .. لا. فليس هذا له. فإن الذي خلقها .. ملكها، وليس للموهوبة له أن يتصرف فيها إلا بما أَراده خالقها فقط. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي

نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا) [أخرجه البخاري]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء] فليس للإنسان أن يتصرف في نفسه كيف شاء.

بل الأعجب من ذلك؛ أنه قد ورد النهي عن المبيت على سطح ليس عليه جدران تحمي صاحبها حال النوم: (مَنْ نام على إِجَارٍ ليس عليه ما يَدْفَعُ قَدَمَيْهِ فَخَرَّ، فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْهُ الذِّمَّةُ، وَمَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ إِذَا ارْتَجَّ، فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْهُ الذِّمَّةُ) [أخرجه أحمد]. وكذلك جاء النهي عن السفر ليلاً منفرداً؛ خشية الضرر الذي قد يلحق نفسه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بَلِيلٍ وَحْدَهُ) [أخرجه البخاري].

وإذا أردنا أن نُوسِّعَ دائرةَ هذا المنهيات عن طريق القياس الشرعي؛ فسائقوا السيارات والمركبات عموماً إذا ما تجاوزوا المعتاد من السرعة على الطرقات، وَمَنْ يُمارسون الطب وليسوا من أهله فيؤذون الناس، وَمَنْ يركبون البحر مُعرضين أنفسهم للهلاك؛ وغيرها صورٌ كثيرةٌ داخلةٌ في هذا المعنى.

ثانياً: سُبُل وقاية النفس في الشريعة الإسلامية.

تعددت سُبُل الوقاية للنفس الإنسانية؛ فمثلاً:

1 - تحريمُ منعها من مُتطلبات الحياة والجسد: فقد قال رسول الله عليه وسلم عندما علم عن

شخصٍ أنه: «نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَنْظِلَ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ»؛ فقال عليه السلام: (مُرْهُ: فَلْيَتَكَلَّمَ وَلْيَسْتَنْظِلْ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ) [أخرجه البخاري]. وفي حديث الثلاثة الذي سألوا عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلمَّا أخبروا كأنهم تقالُّوها؛ وفيه: (جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُّوْهَا، فَقَالُوا: وَإِنْ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ،

قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَنْفَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [أخرجه البخاري].

وكذلك: يُوضِّح هذا المعنى هذه القصة التي حدثت بين صحابيين؛ فقد: (آخَى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: فِيمَ الْآنَ، قَالَ: فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ) [أخرجها البخاري]. فالنوم والشرب والأكل والزواج، والاستئطال في الفياء، والقعود، والكلام، .. من لوازم الجسد فلا يُطغى عليه بمنعه إيّاها.

2 - تحريم التعدي عليها ولو بالقليل. وهذا التعدي له صور؛ منها:

- ارتكاب المحرمات والمنهيات التي أمرنا باجتنابها: مثل (المسكرات، والمخدرات، والتدخين، وتناول الميتات، والشذوذ الجنسي، والزنا، والسمر بعد العشاء، ..) وغيرها من الأمور التي ثبت ضررها للبدن. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة - يعني العبد - من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسمك ونُرويك من الماء البارد) [أخرجه الترمذي].

- التعدي على دمه أو إزهاق روحه. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا حَرَامًا) [أخرجه البخاري]. وقال أيضا: (بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم. كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ؛ دمه، وماله، وعرضه) [أخرجه مسلم].

وقال في خطبة الوداع: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا) [أخرجه مسلم]. وقال أيضاً: (أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالدِّمَاءِ) [أخرجه البخاري]. وقال كذلك: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قَالَ: ..، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ..) [أخرجه البخاري]، بل إن الناظر في كلام الله عز وجل يجد في سياق قصّة ابني آدم وما فيها من عبر؛ هذه الآية: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة].

- **التعدي على أي جزء من بدنه.** فقد أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دية ثنيتين وقعتا نتيجة عضّة وقعت باعتداء؛ فقد جاء: (أَنَّ رَجُلًا عَضَّ يَدَ رَجُلٍ، فَزَرَ يَدَهُ مِنْ فَمِهِ، فَوَقَعَتْ ثَنِيَّتَاهُ، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَعْضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعْضُّ الْفَحْلُ؟ لَا دِيَةَ لَكَ) [أخرجه البخاري].

- **ترويعه بأي شيء ولو قليلاً:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً) [أخرجه أبو داود].

- **عدم ظلمها بأي نوع من أنواع الظلم.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أخرجه أبو داود]. وإذا كان هذا في المُعَاهِد، فما بالنا بالنفس المسلمة ذات الأخوة الإيمانية وظلمها.

ثالثاً: تكريم النفس الإنسانية غاية من غايات الإسلام العظيمة.

وقد جاء تكريمها من وجوه عدة:

1 - لكونها نفس: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء]. وما سبق ذكره في

العنصر الأول هي صور لهذا التكريم. وكذلك قد وقف النبي صلى الله عليه وسلم لجنازة مَرَّتْ فَقِيلَ له إنها جنازة يهودي؛ وتبعه على ذلك صحابيان جليلان، فقد: (كَانَ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لهما إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيُّ مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا) [أخرجه البخاري].

2 - رِبْطُهَا بِالسَّمَاءِ لَا بِالْأَرْضِ. فلم يرض لها عبودية الكائنات؛ لا نبياً ولا ملكاً ولا عظيماً ولا حيواناً ولا حجراً ولا شجراً، ولكنه أراد منها الإسلام ديناً، وأراد منها التأله لخالقها لا لغيره. وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ) [أخرجه مسلم]. وهذه وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه: (أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ) [أخرجه أحمد في المسند]. وما أحسن هذا التعلق!.

3 - تَشْرِيعَاتُ الْإِسْلَامِ لِلْحِفَافِ عَلَيْهَا (دُنْيَا وَآخِرَى). فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم]، وقال: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت]، ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء] وهذا عهدٌ في شرائع النبيين قبل نبينا عليهم جميعاً الصلاة والسلام: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم].

4 - أخلاق الإسلام .. ترفعها من دركات البهيمية إلى درجات الإنسانية. فما هو الحياء

يسموا بها سمو لا يُساويها فيه خلق آخر، وهذا العدل، وذاك الكرم والسخاء، وهذا جلب الخير للغير، وهذه العِزَّة والأنفة في غير كِبَر، وهذا إنصاف المظلوم والاقتصاص من الظالم، وهذه عفة المطعم والمنكح، .. وسلسلة كبيرة من الأخلاق تنفض عن هذه النفس غبار الدنيا وترابها وتعرج بها مِعراج الطُّهر والشرف.

وإن أردتَ أن تعلم هذا الأمر - أعني أمر الأخلاق - فانظر إلى ما عند الآخرين ممَّن لم يدينوا بالإسلام .. وقد صدق القائل «وبضدّها تتميز الأشياء».

(اللهم زكّ نفوسنا أنت خير من زكّاها .. طهرها أنت خير من طهرها)

والحمد لله رب العالمين

النَّسْلُ (والعرض)

المقدمة.

أولاً: نظرة الإسلام إلى النَّسْل.

ثانياً: سُبُل وقاية النَّسْل في الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: تكثير النَّسْل غاية من غايات الإسلام العظيمة.

(الموضوع)

من الضروريات التي حافظت عليها الشرائع محافظةً كبيرةً؛ "ضرورة النسل". وذلك لأن النسل هو الذي يُشكّل الأمة في مُستقبلها وحاضرها. ويظهر هذا من خلال:

أولاً: نظرة الإسلام إلى النَّسْل.

من ينظر في نصوص الوحي الشريف يجد قضية الأبناء وصلاخ أحوالهم قد شغلت أذهان الكثيرين من الأنبياء والصالحين وتابعيهم إلى يوم الدين؛ فمثلاً:

- نوح عليه السلام وولده والحوار الذي دار بينهما وما فيه من الدلالات.
- إبراهيم عليه السلام والمباركون من نسله؛ فما هو يطلب من الله تعالى أن تكون الإمامة الدينية في ذريته فقد قال الله تعالى عن ذلك: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾ [البقرة]. ويطلب من الله تعالى الوهاب غلاماً من الصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿[الصافات]، ويكون هذا الغلام الصالح موصوفاً بـ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿[مريم]، ويأتي حفيده من بعده يعقوب عليه السلام في وصيته لأبنائه: ﴿وَوَصَّىٰ

بِهَآ إِبرَهِمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ
 وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبرَهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾. وتكون قضية
 النصح والتوجيه بالموقع الرفيع في هذا النسل المبارك؛ فيعقوب عليه السلام لما علم أبناءه
 منه اهتمامه بالنصيحة قدموها على الحفظ في قصتهم مع أخيه يوسف: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا
 مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١٣٨﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف] ويأتي حفيدهم موسى عليه السلام وكذلك أمر النصيحة عند أهله
 مهم: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ
 وَهُمْ لَهُ نَصِحُونَ﴾ [القصص].

- وهذا زكريا عليه السلام ودعاؤه بالذرية الطيبة.
 - وذاك لقمان الحكيم ونصائحه العتيقة لولده.
 - وتلك الخشية المفطور عليها الآباء تجاه أبنائهم إذا ما تركوهم ضعافاً؛ وعلاجها:
 ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا
 سَدِيدًا﴾ [النساء].
 - وتلك وسيلة من الوسائل التي تُتيح للوالد الثواب الواصل له بعد موته؛ إذا ما كان ولده
 صالحاً. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ
 ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) [أخرجه مسلم].
- وغير ذلك من الأخبار والآثار التي تظهر منها أهمية الأولاد في الإسلام.

ثانياً: سُبُل وقاية النسل في الشريعة الإسلامية. تعددت سُبُل وقاية الإسلام للنسل؛ ومنها:

- 1 - الزواج. فخرُوج هذا النسل إلى هذه الحياة معلوم النسبة (هذا أبوه وهذه أمه)؛ هو أولى
 أساسيات الحفاظ عليه، إذ كيف يمشي ويدبُّ برجليه الأرض رافعاً رأسه إلى السماء وهو لم يعلم

مِنْ أَيِّ مَاءٍ تَخْلُقُ أَوْ مِنْ أَيِّ رَحِمٍ دُفِعَ!! وانظر إلى هذا الترتيب في تلك الآية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل]

2 - تحريم الزنا والطعن في الأنساب. وتحريمه معروف مشهور لا يخفى؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ ادْخُلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَدَّ وَلَدَهُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) [أخرجه أبو داود] وقال أيضاً: (مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ) [أخرجه البخاري] وهذا ابن عباس رضي الله عنهما يقول: (خِلَالُ مِنَ خِلَالِ الْجَاهِلِيَّةِ: الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالنِّيَاحَةُ. وَنَسِي الثَّلَاثَةِ، قَالَ سُفْيَانُ: وَيَقُولُونَ: إِنَّهَا الْإِسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ) [أخرجه البخاري].

ويدخل في ذلك؛ تحريم التبني، فقد قال الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب]؛ إذ كيف يُدعى ولدٌ لغير أبيه؟!.

3 - تحريم قتلها أو التعدي عليها بأي نوع من أنواع التعدي ولأي سبب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء] وقد ذكرت الآية السبب المشهور ساعتها؛ وإلا فخشية الفقر = خشية العار أو الابتلاء بهم أو خشية تحمُّل المسؤولية .. وغيره، فلا يجوز لأي سبب أن يُقتل هذا النسل. بل وكانت من بنود بيعة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة]

وانظر كذلك إلى هذا الجنين الذي اعتُدي عليه؛ وبقضي فيه النبي صلى الله عليه وسلم قضاءً؛ إذ: (اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُدَيْلٍ، فَرَمَتِ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا،

فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَضَى أَنَّ دِيَّةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ، عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى أَنَّ دِيَّةَ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ].

ويأتي في سياق هذا الموضع أمرٌ قد شاع وانتشر ألا وهو الإجهاض الذي هو التخلص من هذا النسل قبل أن يخرج إلى هذه الحياة مغادراً تلك البقعة التي لفظته فلم ترض به!! وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [التكوير]

وهذا الصيام الذي هو أحد مبان الإسلام العظام؛ يُرَخَّص فيه للمرأة حاملاً كانت أو مُرْضِعَةً أن لا تصوم وتفطر؛ حتى تتقوى، فلا يتأثر هذا النسل ضعفاً أو نمواً.

4 - تكليف الآباء برعاية هذا النسل. فقد قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، ..) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ] وأولى هذه الرعاية النَّصْح والإرشاد؛ فلا تقتصر فقط على الطعام والشراب وحاجات الجسد، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحْطُهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَاحَةَ الْجَنَّةِ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]، حتى وإن بخل الرجل بأمواله على بنيه؛ كان للزوجة أن تأخذ من ماله دون علمه شريطة أن يكون الأخذ بالمعروف؛ فهذه هند رضي الله عنها تقول: (يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ: خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدَكَ، بِالْمَعْرُوفِ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ].

والنفقة على الأولاد من أولى واجبات الرعاية لهم على والديهم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غَنَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ. تَقُولُ الْمَرْأَةُ: إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي، وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي، وَيَقُولُ الْعَبْدُ: أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي، وَيَقُولُ الْإِبْنُ: أَطْعِمْنِي، إِلَى مَنْ تَدْعُنِي؟! فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: لَا، هَذَا مِنْ كَيْسِ أَبِي هُرَيْرَةَ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقد جاء عن سفيان الثوري؛ قوله: «عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال» فإذا كان أمرُ المال - اكتساباً أو جمعاً؛ والذي يُعدُّ عصب الحياة - قد أُوكِلَ إلى الرجال بطبيعة الحال؛ فغادروا البيوتَ لأجله فتغربوا وارتحلوا وسافروا وتركوا أولادهم وفلذات أكبادهم في أيدي نسائهم .. هنا نقول: (وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا) فاستشعرن أيتها النسوة تلك المسؤولية؛ التي لا يجوز معها الاشتغال (بالمُلهيات، ولا بالشاشات، ولا بالموضات، ولا بالفيديوهات، ولا بوسائل التواصل "التقاطع الاجتماعي"...) (ألا فليتقين الله تعالى فإنهن مسؤولات هل حفظن أم ضيعن؟).

فرعاية هذا النسل: ديناً، وعقلاً، وصحةً، ومسكناً، وتعليماً.. وهكذا كل متطلبات الحياة الضرورية بقدر الوسع الذي قال الله تعالى عنه: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق] كل هذا واجب لهم على من يرعاهم.

ثالثاً: تكثير النسل غاية من غايات الإسلام العظيمة.

قد امتنَّ الله تعالى على قوم فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف] وعلى آخرين فقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرًا نَفِيرًا﴾ [الإسراء].

و(جاء رجلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا، قَالَ: لَا ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ: تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِّرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ) [أخرجه أبو داود].

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه أنس بقوله: (اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ) [أخرجه البخاري]؛ وفي بعض الروايات عند البخاري: (فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلَا دُنْيَا

إِلَّا دَعَا لِي بِهِ؛ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ. فَإِنِّي لَمِنَ أَكْثَرِ الْأَنْصَارِ مَالًا، وَحَدَّثْتَنِي ابْنَتِي أُمَيَّةُ: أَنَّهُ دُفِنَ لِصُلْبِي مَقْدَمَ حَجَّاجِ الْبَصْرَةِ بَضْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِئَةً) وهذا العدد من صُلْبِهِ...!! فلو كانت كثرة الولد شقاءً أو فقرًا ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بها.

الخاتمة .. وفيها:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان]
﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿١٩٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران].

وقد قال شوقي:

ياربّ، فكثّرنا عددا ... وابدّل لأبوتنا المددا

هيئْ لهم ولنا رشدا ... ياربّ، وخُذ بيدِ الوطن

والحمد لله رب العالمين

المَالُ

العناصر:

مُقَدِّمَة

أولاً: أهمية المال في حياة المسلمين.

ثانياً: وسائل وضوابط في تحصيل المال الحلال.

ثالثاً: تشريعات لحفظ الأموال.

(الموضوع)

من القواعد الفقهية المقررة: (الوسائل لها أحكام المقاصد)؛ والمال وسيلة من تلك الوسائل، التي تأخذ حكم مقصدها، فمن قصد بماله وجه الله تعالى، والدار الآخرة، والتقوى على العبادة، وفعل الخيرات والتقليل من المنكرات ..، فهذا ليس كمن نوى بماله ضد ذلك، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء) [أخرجه الترمذي وأحمد]. فالمقصود من هذا الحديث: المترتب على هذا المال وليس المال نفسه؛ فتحصيل أفضل المنزل بالمال والنية والأعمال الصالحة وتقوى الله تعالى كذلك.

لأجل هذا كان للمال في حياة المسلمين مكانة .. وأي مكانة!! وهذا ما سوف يظهر إن شاء

الله تعالى في ثنايا هذا الموضوع؛ من خلال النقاط التالية.

أولاً: أهمية المال في حياة المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء]؛ فقد جعل الله عز وجل المال في هذه الآية (قوام الحياة). وقد سمّاه الله تعالى في القرآن الكريم (الخير)؛ فقال جلّ ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات] والخير في كلا الآيتين هو المال. ولا يخفى ما تحمله هذه التسمية من معانٍ.

ومن أشرف المقامات: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وهو على المنبر، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ، وَالتَّعَفُّفَ، وَالمَسْأَلَةَ: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) [أخرجه البخاري] ومعلوم أن اليد العليا: .. الْمُعْطِيَّةُ، والسفلى: .. السَّائِلَةُ.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في جواب سؤال: (إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصِرَةٌ حُلُوءَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ- وفي رواية: فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ -، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ) [صحيح مسلم] وفي رواية عند البخاري (وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

فانظروا إلى هذه المنقبة؛ والتي لها سببان مذكوران في آنٍ والحد؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر رضي الله عنه: (إِنَّ مِنْ أَمَنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ) [أخرجه البخاري]، والمقصود بـ (أَمَنِ) ليس هو المِنَّة التي تُبْطَل ثواب العمل وإنما سماحة نفسه بماله لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ويخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس من أصحابه: (وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَقَالَ: أَجَلُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْغِنَى، فَقَالَ:

لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم) [أخرجه ابن ماجة في سننه].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك - أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك عندما نزلت توبتهم -: وقد قال كعب رضي الله عنه (إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) [أخرجه البخاري] وقد جاء في شرحه لابن دقيق العيد: «فيه دليل على أن إمساك ما يحتاج إليه من المال أولى من إخراج كله في الصدقة».

فالمال وسيلة في حياة المسلم لا يستطيع الاستغناء عنها، إذ هو وسيلة إلى: (ستر العورات لأداء الصلوات)، (إحصان النفس وعفتها بالزواج)، (الحج والعمرة)، (الزكوات والصدقات)، (عزة النفس وترفعها عن ذل السؤال)، (الصدقة الجارية)، (إفاضة المال على الإخوان، وإطعام الطعام، وتفريج الكربات، ..).

والمال وسيلة للمجتمع المسلم في تحقيق عزته ورفعة شأنه بين الأمم؛ ففروض الكفايات، وقبلها فروض الأعيان لن تكون بالصورة المرجوة إلا إذا كانت الأمة مُستغنية بهذا المال عن الأمم الأخرى؛ وهذا كله بعد إيمانها بالله عز وجل وتمسكها بعقيدتها وشريعتها.

وقد قال لقمان الحكيم لولده: «يَا بُنَيَّ، اسْتَغْنِ بِالْكَسْبِ الْحَلَالِ عَنِ الْفَقْرِ، فَإِنَّهُ مَا افْتَقَرَ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَصَابَهُ ثَلَاثُ خِصَالٍ: رِقَّةٌ فِي دِينِهِ، وَضَعْفٌ فِي عَقْلِهِ، وَذَهَابٌ مُرُوعَتِهِ، وَأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ: اسْتِخْفَافُ النَّاسِ بِهِ» إحياء علوم الدين.

ثانياً: وسائل وضوابط تحصيل المال الحلال.

من وسائل تحصيل المال الحلال:

1 - الدعاء: فقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوات لأنس بن مالك رضي الله عنه: (قَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ) [أخرجه البخاري] فالعبرة بكثرة المال مع البركة؛ لا بالكثرة فقط!! وقد قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة] ودعا أبو الأنبياء لذريته عند البيت الحرام قبله فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى. وفي رواية: وَالْعِفَّةَ) [أخرجه مسلم]. فالغنى من أكبر أسباب الاستغناء عن الخلق.

وقد علم علي بن أبي طالب رضي الله عنه دعاء لمكاتب عجز عن أداء ما يفك به رقبته من ذل العبودية؛ وقد علمها إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل، فقال له قل: (اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ) [أخرجه الترمذي وأحمد].

وقد أرشدنا الله تعالى في كتابه أن نسأله من فضله؛ فقال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء] ومن الأدعية الجامعة في هذا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة]. فمن ضاقت به الأحوال والأمور عليه أن يلجأ إلى من خزان جوده وكرمه لا تنفد.

2 - الأخذ بالأسباب: فقد قال الله جل ذكره ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ) [أخرجه البخاري]، فلأن تجمع حطباً على ظهرك فتبيعه فتغنم منه ربحاً ولو قليلاً؛ خير لك من عطاء يكون بذل السؤال!!.

وهذا نبي الله داود عليه السلام؛ يقول عنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) [أخرجه البخاري]؛ فكان ملكاً ونبياً ومع ذلك لم يتَّكَلْ على مُلكه أو نبوّته بل كان يأكل من عمل يده، وليس هذا فحسب إذ كان عمله في الحديد؛ وقد آله الله تعالى له.

فهناك أبواب كثيرة للعمل: إمّا (بالأموال، أو بالأبدان، أو بالعقول)؛ وما عليك إلا أن تطرقها سائلاً الله من فضله مُعْتَمِداً ومتوكلاً عليه، مُسْتَحْضِراً في ذَهْنِكَ قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً) [أخرجه الترمذي وأحمد].

ومن الضوابط المهمة في تحصيل هذا المال الحلال:

1 - المال .. مال الله تعالى ونحن مستخلفون فيه. قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد] فاستحضار هذا المعنى في نفس المسلم سيجعله في الحياة الاقتصادية مُنْطَلِقاً من مُراقَبة الله عز وجل له، مِمْتَثِلاً للأوامر منتهياً عن النواهي؛ فهذا شأن المُسْتَخْلَف الذي معه المال؛ فكما يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: «هُوَ مَعَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ .. فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخْلَافاً عَنْكَ، فَلَعَلَّ وَارِتَكَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ، فَيَكُونَ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ، أَوْ يَعَصِيَ اللَّهَ فِيهِ فَتَكُونَ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ». فقد ترك المالُ غيرَكَ وأتى إليك، وعمّاً قريبٍ سيتركك إلى غيرِكَ.

2 - لا بد من سخاء النفس. وقد قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ ..) [أخرجه البخاري] فلا بد من هذا السخاء؛ فـ«إِنَّ مَنْ أَخَذَ الْمَالَ الَّذِي يُبْدَلُ

له بغير إلحاح في السؤال، ولا طمع ولا حرص، ولا إكراه أو إخراج للمعطي؛ كثر ونما، وكان رزقاً حلاًلاً يشعر بلذته» ومن كان في أخذه مستشرفاً لم يُبارك له فيه، ومثله كمثله من يأكل ولا يشبع.

3 - الأخوة مقدّمة على المال. وهذا أساس ركين من أسس التعامل المادي في حياة المسلمين؛ فلا يُقدّم المسلم حبّ المال على أخيه؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى هاهنا. ويُشير إلى صدره ثلاث مرّات. بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم. كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ؛ دمه، وماله، وعرضه) [أخرجه مسلم].

فالحسد: من دوافعه؛ المال الموجود عند المحسود، والنّجش: أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها، والبيع على بيع بعض، والخِطبة على خطبة الأخ - كما في حديث آخر - ومال المسلم عموماً: حرام على الآخرين أن يعتدوا عليه بأي وسيلة من وسائل التعدي.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء]؛ فأبى وسيلة فيها أكل أموال الناس بالباطل محرّمة لأنها قد تؤدّي إلى قتل النفس. والآية تحتل قتل النفس حقيقة (كمَنْ يقتل نفسه بحديدة أو بسُمّ يشره ..) وتحتل: (لا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) وهو قول ابن عباس وغيره. فكان أخوك بمنزلة نفسك التي بين جنبيك.

4 - للآخرين في أموالك حقّ. ليس المقصود من هذا الضابط الحديث عن الزكاة أو الصدقة أو ما في معناها؛ بل المقصود .. أن استحضار حقوقهم يجعلك في اكتساب الأموال ساعياً لك ولغيرك؛ لا لنفسك فحسب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء].

فَذُؤُوا الْقُرْبَىٰ لَكُمْ حَقٌّ؛ ومنه: قول النبي صلى الله عليه وسلم للذي أراد أن يتصدق بماله .. (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) [أخرجه البخاري]، فَمِنْ حَقِّهِمْ أَنْ تَسْعَى فِي إِغْنَائِهِمْ وَفِي سَدِّ حَاجَاتِهِمْ. لا أَنْ تَضِيعَهُمْ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَضِيعَ مِنْ يَقُوتٍ) [أخرجه أبو داود وأحمد]. وَأَمَّا الْمَسَاكِينُ وَالْيَتَامَى وَأَصْحَابُ الْحَاجَاتِ .. فَحَقُّوهُمْ مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ.

ثالثاً: تشريعات لحفظ الأموال.

لعلَّ المذكورَ آنفاً قد أظهر لنا أهمية المال في حياة المسلمين؛ الأمرُ الذي يجعلنا محافظين عليه أشدَّ المحافظة، وقد شرَّع الإسلام كذلك في سبيل المحافظة عليه شرائعَ متعددة وحرَّم كذلك تعاملات من شأنها التعدِّي على الأموال الآخرين.

فهذا حدُّ السرقة معلومٌ أمره؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة]. وهذا حدُّ الحِرَابَةِ - قطع الطريق أو ما يُشابهه في الأزمان الحديثة من السطو المسلح على المؤسسات وغيرها - لِمَنْ أَخَذَ الْمَالَ فَقَطَّ: ﴿تُقَطَّعُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِمَّنْ خَلَفَ﴾ [المائدة]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَنُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَنُقْطَعُ يَدُهُ) [أخرجه البخاري].

وكذلك من الأمور المحرمة حفظاً على الأموال: (الربا وأنواعه وصوره كثيرة، والبيعتين في بيعة، والرشوة، والقمار والميسر، وأكل الميراث، وأكل أموال اليتامى، والتعدِّي على الأموال العامة، وأثمان المُحرمات).

وختاماً .. فنسأل الله تعالى البركة في أموالنا وأن يُوسِّعَ أرزاقنا.

العقل

العناصر:

المقدمة.

الأول: العقل والحجة الشرعية.

الثاني: العقل والتكليف الشرعي.

الثالث: تشريعات للحفاظ على العقل.

الموضوع

مَنْ يُقَلِّبُ صَفَحَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ اهْتِمَامًا بِالْغَا بِالْعَقْلِ، فِيهِ كَلِمَاتٌ سَتَطْرُقُ سَمْعَهُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ؛ فَمَثَلًا: (تَعْقِلُونَ - يَعْقِلُونَ - يَعْقِلُهَا - عَقْلُوهُ - نَعْقِلُ)، وَكَذَلِكَ كَلِمَاتٌ: (الْأَلْبَابِ) وَالتِّي تَعْنِي الْعُقُولَ، وَكَلِمَةٌ (النُّهَى) وَتَعْنِي الْعَقْلَ، وَكَلِمَةٌ (الْحِجْر) تَعْنِي: الْعَقْلَ. فَكُلُّهَا مَوَادٌ تَعْنِي إِحْجَامَ صَاحِبِهَا عَنِ الْمَهَالِكِ وَمَنْعَهُ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنَ الْمَوَادِّ الَّتِي تَهْتَمُّ بِإِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالتَّبَصُّرِ وَالنَّظَرِ فِيمَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَحُودَاتٍ أَمَامَ عَيْنَيْهِ. كُلُّ هَذَا يُوَكِّدُ بوضوح على أهمية العقل في الخطاب الشرعي. وفي هذا اللقاء - إن شاء الله تعالى - يظهر بعض من الجوانب التي تُوضِّحُ اهتمام الإسلام به.

الأول: العقل والحجة الشرعية.

من الأمور التي يتعجب المرء من ظهورها في القرآن الكريم؛ ما يدلُّ على أن الله تعالى أقام الحجة على الكافرين من قبيل عقولهم؛ فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك] وقد أورد الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى

يُغْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) [أخرجه أحمد وأبو داود]، وقال المفسرون في تفسيرها: «وقال الكفار: لو كُنَّا نسمع سماعًا يُنْتَفَعُ به، أو نعقل عقلَ من يميز الحق من الباطل». فأقام الله تعالى عليهم الحجة من أنفسهم.

وانظر كذلك إلى هذه الحجة العقلية في مقام الرسالة؛ إذ قد طلب الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا آخر أو أن يُبدل هذا القرآن؛ فأمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس] فالحجة عليهم أنه لبث فيهم بين ظهرانيم مدة من الزمن طويلة (أربعين عاما) لم يُعرف عليه كذبٌ أو خيانةٌ وقد شهدوا له بذلك؛ فبأي عقلٍ يدّعي هذا الشخص مثل هذا الادعاء، ثمَّ يُكذِّب فيه بعد ذلك، أو يُطلب منه ما يُناقض شهادتهم عنه، وقد جاء في مواطن أخرى من القرآن الكريم التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه صاحبهم؛ للدلالة على شِدَّةِ ملازمتهم له ومعرفتهم بأخباره وأحواله كما يعرف الصاحب أخبار صاحبه؛ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خَمْسَةٍ وَفَرَّدَ ثَمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ] وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم]، وقوله كذلك: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ فأين عقولكم وقد كفرتم بهذا الذي تعلمون عنه ما تعلمونه عن أبنائكم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

وقد جاء كذلك في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على حُجِّيَّةِ العقل واعتبار إدراكاته؛ بل وتقديمها على ظاهر أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ذاتها؛ فقد: (بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمْرُكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقِدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا،

وَيَقُولُونَ: فَرَزْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]؛ فَاَنْظُرْ إِلَى أَمْرِ النَّبِيِّ لَهُمْ بِطَاعَةِ هَذَا الْأَمِيرِ؛ وَإِلَى هَمَّهُمْ بِدَخْلِهَا تَتَفِيدَا لِأَمْرِ أَمِيرِهِمْ؛ وَإِلَى الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي أَذْهَانِهِمْ فَخَالَفُوا بِهَا أَمْرَهُ .. ثُمَّ اَنْظُرْ إِلَى إِقْرَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَعْلِهِمْ. وَكَذَلِكَ: (أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُتَّهَمُ بِأَمٍّ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيِّ: اذْهَبْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ فَأَتَاهُ عَلِيٌّ فَإِذَا هُوَ فِي رَكْبٍ يَتَبَرَّدُ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: اخْرُجْ، فَنَآوَلَهُ يَدَهُ فَأَخْرَجَهُ، فَإِذَا هُوَ مَجْبُوبٌ لَيْسَ لَهُ ذَكَرٌ، فَكَفَّ عَلِيٌّ عَنْهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَمَجْبُوبٌ مَا لَهُ ذَكَرٌ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ]، فَهَذَا الَّذِي يُتَّهَمُ بِأَمٍّ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا شَكَّ أَنَّهَا جُرْأَةٌ عَلَى حَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبِهَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ؛ وَلَكِنْ لَمَّا تَبَيَّنَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ حَالِهِ إِذْ كَيْفَ يُظَنُّ بِهِ ذَلِكَ وَلَيْسَتْ لَهُ آلَةُ الذَّكُورَةِ!!.. فَلَمْ يُطَبِّقْ عَلَيْهِ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقَتْلِ لِلْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَطْعِيَّةِ الظَّاهِرَةِ.

وَاَنْظُرْ كَذَلِكَ إِلَى تِلْكَ الْحُجَّةِ الَّتِي أَقَامَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي ادْعَائِهِمْ عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٧ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران] فكيف يكون كما زعمتم ولم تَوجدوا إلا بعده بقرون متطاولة وأزمان متباعدة؟. فكيف يُنسب السابق لمذهب ابتدعه اللاحق. أفلا تعقلون!!؟. ولهذا كان الخطاب القرآني بالحجة العقلية في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران]؛ فأين عقولكم لو كنتم من أصحابها؟! ولأجل ذلك فلستم له بأولياء إنما أولياؤه وأنصاره وأتباعه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا والله تعالى ولي المؤمنين. فليس إبراهيم عليه السلام يهوديا ولا نصرانيا وإنما هو مُسلمٌ حنيفٌ مائلٌ عن الشرك عليه الصلاة والسلام.

وانظر كذلك إلى تلك الحجة التي أقامها أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام على قومه عبدة الأصنام؛ فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) أَفِ لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟؛ فأين العقول التي عبدت أصناما لا تنفع ولا تضر، ولا تبصر ولا تسمع ولا تُغني شيئا عن عابديها؟ فالذي يُعبد هو الذي يملك هذه الأمور حتى إذا ما وقع العابد في ضيق وكرب رفع عنه معبوده ضيقه وكربه. وكذلك حُجته عليه الصلاة والسلام على عابدي الكواكب؛ فيها أكبر مظهر من مظاهر الاحتجاج العقلي لو كانوا يعقلون.

الثاني: العقل والتكليف الشرعي.

معلوم عند علماء الفقه هذا الحديث؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ) [أخرجه أبو داود]، فالعقل هو مناط التكليف وهو الآلة التي يُدرك بها معاني الخطاب التكليفي، والتي بها يتميز عن دركات البهيمية ويعلموا بها في درجات الإنسانية؛ إذ إنَّ مَنْ فَقَدَ عَقْلَهُ سَيَكُونُ فِي تَصَرُّفَاتِهِ كَالْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تَسْتَحِي مِنْ إِبْدَاءِ عَوَارِهَا أَمَّا النَّاظِرِينَ. وَلَا يَنْفَعُهُ سَاعَتُهَا أَنْ يَكُونَ ذَا مَالٍ، أَوْ جِسْمٍ ضَخْمٍ، أَوْ ذَا أَوْلَادٍ، .. فَكُلُّ هَذِهِ الْمَكْمَلَاتِ تُزَيِّنُ صَاحِبَهَا إِذَا كَانَ عَاقِلًا، وَكَذَلِكَ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا إِنْ كَانَ بَلَا عَقْلٍ.

إضافة إلى ذلك أن المجنون لا يلزمه شيء من العبادات؛ فقد رفع الله تعالى عنه التكليف؛ فلا يُطالب بصلاة ولا صيام ولا حج، ولا يصح منه بيع ولا شراء ولا إجارة حتى ولو لأعيان ماله، وكذلك لا يصح منه مباشرة عقد من العقود عموما إذ هو مسلوب الولاية.

وانظر إلى هذه الصورة التي تحكي امرأة يعتريها من الغشيان والإغماء ما يعتري المصروع؛ فعن عطاء بن أبي رباح قال: (قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السُّودَاءُ؛ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ،

فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَلَّا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.. [أخرجه البخاري]. وكذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الأربعة الذين يحتجون يوم القيامة؛ فيه دليل واضح على أهمية العقل في القضايا التكليفية ففيه قوله عليه الصلاة والسلام: (أربعة يحتجون يوم القيامة، رجلٌ أصمٌّ لا يسمعُ، ورجلٌ هرمٌ، ورجلٌ أحمقٌ، ورجلٌ مات في الفترة. أما الأصمُّ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وأنا ما أسمع شيئاً. وأما الأحمقُ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ والصبيانُ يحدفونني بالبعرِ. وأما الهرمُ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أعقلُ. وأما الذي في الفترة فيقول ربِّ ما أتاني رسولٌ. فيأخذُ مواثيقهم ليُطعنه. فيرسلَ إليهم رسولاً أن ادخلوا النارَ. فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانتْ عليهم برداً وسلاماً) [أخرجه أحمد في مسنده]. فلولا ما لحقهم من هذه العلل لما كانت لهم حجة عند الله عز وجل ولما كانوا مُعرّضين لهذا الاختبار.

الثالث: تشريعات للحفاظ على العقل.

لَمَّا كَانَ العقل بهذه المثابة وهذه المكانة في الإسلام؛ فقد جاءت تشريعات إسلامية مُحكمة للحفاظ عليه من أي أذى. إذ الاعتداء عليه اعتداء على الكيان الإنساني ونقله من درجات السمو الإنساني إلى دركات البهيمية؛ ومما يدل على ذلك:

- **تحريم الخمر والمسكرات.** فتحريمها من الأمور الظاهرة في الإسلام نصّاً وغايةً؛ فنصوص التحريم معلومة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجِهٍ: بعينها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها، وشاربها، وساقها) [أخرجه ابن ماجه وأحمد]. فتحريم الخمر نصُّه ظاهر من كتاب الله تعالى ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(السُّكْرُ مِنَ الْكِبَائِرِ) [البُصِيرِي - اتحاف الخيرة]، وأما أضراره فكثيرة؛ أخطرها ضرره على الدماغ وعلى مراكز الذكاء والتفكير عند الإنسان وأصحاب الطب على يقين من هذا. وإضافة إلى ذلك؛ فإن أبا بكر رضي الله عنه لما سئل: (هل شربت الخمر في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله! فقل له: ولم؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي).

• **وتحريمُ السَّحْرِ.** لأن الساحر يعمد إلى إلحاق الأذى بالناس إما في أموالهم أو أبنائهم أو أبدانهم أو عقولهم وكل هذا مُشاهد وملموس.

• **الدية واجبة لمن اعتدى عليه فذهب عقله.** ومعنى هذا: أن الاعتداء على العقل بأي صورة من الصور التي تؤدي إلى زهاب منفعتة؛ فقد أوجب الشرع في هذا الدية كاملة ففي الحديث وإن كان به ضعف إلا أن العمل عليه عند أهل العلم: (وفي العقلِ الديةُ مائةٌ من الإبل) [البیهقي في الكبرى].

• **النهي عن مخالطة أهل البدع حتى لا تُغيّر أفكارهم.** فتغيير عقول الناس وأفكارهم وعقائدهم أمرٌ ليس بالهين؛ بل إن كان صاحبه مُحَقّاً أخذَ الجزاء الكبير على تغييرهم. وإن كان صاحبه مُبْطِلاً فقد أخذَ الذنب العظيم والعذاب الأليم؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ...) [أخرجه البخاري] فليس بعد تغيير عقائد الناس وما عليه قلوبهم ذنب.

ولكن ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا محدودية العقل؛ فله حدود يسير في فلكها؛ فإذا ما تجاوزها ضلَّ السبيل، وجنى على نفسه بعقله. وسبيله في ذلك كالحواس الإنسانية التي لها حدود ملموسة؛ فلا يرى الإنسان ولا يسمع ولا يشم إلا ما يقع في حدود قدرته التي جُبل عليها. وكذلك العقل؛ فلا يستطيع العقل أن يخوض في الغيبات إلا إذا كان قائده الشرع الشريف. والحمد لله رب العالمين.

معالم في الحلال والحرم

المقدمة

أولاً: الذي يُحَلَّل ويُحَرَّم هو الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الحلال عندنا طيب والحرام عندنا خبيث.

ثالثاً: في الحلال ما يُغني عن الحرام.

رابعاً: الحلال بين والحرام بين.

خامساً: العلماء وموقعهم من التحليل والتحريم.

(الموضوع)

الحلال والحرام من الأحكام التكليفية؛ التي أمر الله عز وجل بها العباد أمراً جازماً، إمّا أمراً بالفعل أو أمراً بالترك. فإذا فعل الإنسان المأمور به وترك المحظور عليه؛ فقد سقط عنه الطلب وخرج من عهدة التكليف. وكذلك لا يتوجه إليه لوم ولا عقاب. بل يستحق الثناء والإكرام. ولذلك كانت هذه القضية من القضايا المهمة؛ التي ينبغي على المسلم إن يقف معها وقفات؛ تنبئ له طريقها. ومن هذه الوقفات:

أولاً: الذي يُحَلَّل ويُحَرَّم هو الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحق خالص لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ فلا ينبغي لأحدٍ مهما كان حجمه أو شأنه أن يتجاسر على هذا الحق أو يتألى على الله عز وجل. فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَاللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس] وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل]. وكذلك السنة النبوية قال

عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يَوْشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَالٍ فَأَحْلُوا وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ) [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَأَحْمَدُ]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهَكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا) [أَخْرَجَهُ الدِّرَاقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ]، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَشْيَاءَ؛ مِنْهَا مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى]. وَقَدْ قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الشَّارِعُ وَضَعَ الشَّرَائِعَ وَأَلْزَمَ الْخَلْقَ الْجَزِيَّ عَلَى سَنَنِهَا، وَصَارَ هُوَ الْمُنْفَرِدَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حَكَمَ بَيْنَ الْخَلْقِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ التَّشْرِيعُ مِنْ مُدْرَكَاتِ الْخَلْقِ لَمْ تَنْزِلِ الشَّرَائِعُ، وَلَمْ يَبْقَ الْخِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا احتِيجَ إِلَى بَعْثِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَهَذَا الَّذِي ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللَّهِ قَدْ صَيَّرَ نَفْسَهُ نَظِيرًا وَمُضَاهِيًّا؛ حَيْثُ شَرَعَ مَعَ الشَّارِعِ، وَفَتَحَ لِلَاخْتِلَافِ بَابًا، وَرَدَّ قَصْدَ الشَّارِعِ فِي الْإِنْفِرَادِ بِالتَّشْرِيعِ، وَكَفَى بِذَلِكَ شَرًّا». وَعَلَيْهِ: فَالَّذِي حَرَّمَ الْحَرَامَ وَحَلَّلَ الْحَالَ، وَحَدَّ الْحُدُودَ، وَفَرَضَ الْفَرَائِضَ، وَشَرَعَ لِلنَّاسِ الشَّرَائِعَ؛ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثَانِيًا: الْحَالِلُ عِنْدَنَا طَيِّبٌ وَالْحَرَامُ عِنْدَنَا خَبِيثٌ. وَهَذِهِ مَزِيَّةٌ مِيزَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى غَيْرِنَا مِمَّنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ قَبْلَنَا. فَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ أَيْضًا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام] «فَبِسَبَبِ ظُلْمِ الْيَهُودِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ مِنَ الْمَأْكَلِ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، وَبِسَبَبِ صَدِّهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرِهِمْ عَنِ دِينِ اللَّهِ الْقَوِيمِ». وَأَمَّا نَحْنُ فَالطَّيِّبَاتُ حَالِلٌ لَنَا وَلَيْسَ فِيهَا حَرَامٌ عَلَيْنَا. وَكَذَلِكَ كُلُّ الْخَبَائِثِ عَلَيْنَا

حرام ليس فيها حلال. فقد قال تعالى في أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف]. وقد صحت هذه الشائبة عن أبي الجويرية الجرمي قال: (سألت ابن عباس عن الباذق - اسم آخر للخمر -، فقال: سبق محمد صلى الله عليه وسلم الباذق: فما أسكر فهو حرام. قال: الشراب الحلال الطيب، قال: ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث) [صحيح البخاري].

ثالثاً: في الحلال ما يُغني عن الحرام. وهذا من سعة رحمة الله تعالى؛ أنه تعالى لم يضيق على الناس أحوال معيشتهم. فليس هناك باب من الأبواب التي أغلقها الشرع لأجل أن التحريم ظاهر فيها؛ إلا وقد جعل هناك فرجا ومخرجاً من الحلال. فهذا: «من محاسن الإسلام ومما جاء به من تيسير على الناس؛ أنه ما حرم شيئاً عليهم إلا عوضهم خيراً منه؛ مما يسد مسده، ويغني عنه، .. فقد حرم عليهم الاستقسام بالأزلام وعوضهم عنه دعاء الاستخارة. وحرم عليهم الربا وعوضهم التجارة الربحية. وحرم عليهم القمار، وأعاضهم عنه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيول والإبل والسهام وحرم عليهم الحرير، وأعاضهم عنه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن. وحرم عليهم الزنا واللواط، وأعاضهم عنهما بالزواج الحلال، وحرم عليهم شرب المسكرات، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن. وحرم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات. وهكذا إذا تتبعنا أحكام الإسلام كلها، وجدنا أن الله جل شأنه لم يضيق على عباده في جانب إلا وسّع عليهم في جانب آخر من جنسه، فإنه سبحانه لا يريد بعباده عنتاً ولا عسراً ولا إرهاقاً، بل يريد اليسر والخير والهداية والرحمة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٣١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ٣٢ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء].

رابعاً: الحلال بيّن والحرام بيّن. وهذه من الأمور النافعة والوسائل الهادية إلى أقوم الطرق. فالحمد لله تبارك وتعالى بيّن للناس ما ينفعهم وما يضرهم حتى لا يُعذَّب أحداً قبل إقامة الحجة عليه. فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة] وهذا البيان لأحكام الدين حتى لا نضلَّ فقد قال في آية الكلاله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الَّتِي كُنَّا نُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مِن قَبْلُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ [النساء]. وقال سبحانه كذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا دُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام] وقال سبحانه عن الكتاب الكريم عموماً: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل].

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كزاع يزعى حول الحمى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)** [صحيح البخاري]. ولوضوحها وبيانها كان ليلاً ونهارها سواءً، وكانت بيضاء نقية لا غش فيها ولا غش. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك)** [سنن ابن ماجه].

خامساً: العلماء وموقعهم من التحليل والتحريم. وللعلماء في هذه القضية دور لا يخفى؛ وهو دور الإظهار والتوضيح والكشف عن مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، أمّا أن يكونوا هم المُشرِّعون للأحكام من عند أنفسهم فيحلُّوا ويحرِّموا بأهوائهم. فهذا فيه تأليه لأنفسهم واتخاذ لهم أرباباً من دون الله تعالى. وقد قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة]

وفي توضيحٍ نبوي لهذه الآية يقول عدي بن حاتم رضي الله عنه: (أتيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفي عُنقي صليبٌ من ذهبٍ فقال: يا عدي اطرَحْ هذا الوثَنَ وسمِعه يُقرأ في سورة براءة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} فقلتُ إِنَّا لسنا نعبدُهم، قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه فتلك عبادتُهم) [الترمذي في السنن]. وقال سبحانه أيضاً: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران] وفي تفسيرها يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: «فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَمَشَائِخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، فَإِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَبَلَّغْتُهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامُ. إِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ وَبَلَّغْتُهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامُ».

وقد كانت هذه القضية واضحةً عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكانوا لا يقبلون المقارنة بين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول غيره - ولو كان ما كان من ذوي العلم والديانة -، بل وعدُّوا ذلك إذا حدث من المهلكات. فقد جاء عند أحمد رحمه الله: (تمتع النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فقال عروة بنُ الزبيرِ نهى أبو بكرٍ وعمرُ عن المتعةِ فقال: ابنُ عباسٍ ما يقولُ عَرِيَّةٌ قال يقولُ نهى أبو بكرٍ وعمرُ عن المتعةِ فقال ابنُ عباسٍ: أراهم سيهلكون أقولُ قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويقولُ نهى أبو بكرٍ وعمرُ) [مسند أحمد] فهذا هو دورهم فقط. أمَّا أن يُقابَلَ قولُهم بقول الله تعالى أو بقول رسوله صلى الله عليه وسلم ففي ذلك الهلاك الأكيد. ولا بد للمسلم أن يحتاط لدينه؛ فلا يسأل إلا مَنْ يثق بدينهم من أهل العلم؛ فهم الحجة بينه وبين الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

العلم والجهل

العناصر:

المقدمة.

الأول: فضائل العلم.

الثاني: مخاطر الجهل.

الثالث: بين العلماء والجهال.

(الموضوع)

قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وهيئة وصورة؛ وميزه عن غيره بما يُقيم الحجة به عليه فقال: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين]، ونفخ الله تعالى فيه من روحه بعد أن خلقه بيده؛ فقال تعالى عنه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر]. وهذه الروح أمرها عجيب مُحيرٌ استأثر الله تعالى بعلمها وكنهها نفسه سبحانه فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]. وأعطاه عقلاً يُميز به بين الأمور؛ فيفعل المأمور ويجتنب المحذور، وإلا فقد رُفِعَ عنه القلم؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَشُبَّ وَعَنِ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَعْقِلَ) [الترمذي في سننه].

وهذا الجسد بمكوناته من اللحم والدم والأعضاء والجوارح له طعام وغذاء يقوم عليه؛ وليس خاصاً به، بل شاركه فيه الحيوانات العجماوات التي لا تعقل؛ فقد قال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ۝٤٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٤٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٤٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٤٧ وَعَنَبْنَا وَقَضَبًا ۝٤٨

وَزَيُّنُونًا وَنَحْلًا ﴿١٩﴾ وَحَدَاقٍ غُلْبًا ﴿٢٠﴾ وَفَكِهَةً وَأَبًا ﴿٢١﴾ مَتَّعَا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيَكُمْ ﴿٢٢﴾ [عبس] ففيه شراكة بين الإنسان والأنعام.

وأما الروح فلها غذاؤها وطعامها؛ وهو معرفة الله تعالى بأوصافه وكمالاته وجلاله وأفعاله وشرعه، فقد وصف الله تعالى من لم يؤمن بالميت وإن كان حيًّا يعيش ويلهو ويلعب؛ ثم أصبح في عُرف الشرع حيًّا عندما أُوتِي مادة حياته عندما آمن، فقال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]. ولا يتأتى هذا الغذاء الرباني إلا بالعلم؛ ولأجل هذا كان العلم وسيلة لتحصيل هذا الغذاء الرباني كي تحيا به الأرواح ولا تموت وتُدفن في صدور أصحابها.

وقد كان اللقاء لأجل ذلك في عناصر:

أولاً: فضائل العلم.

للعلم وللعلماء فضائل كثيرة، يسعى في تحصيلها الساعون والمجتهدون؛ وسعيهم لا يملون فيه ولا يكلون، فلا يدخرون فيه وسعاً؛ لا وقتاً ولا مالاً ولا راحةً ولا لذةً ولا أيَّ شيء؛ وهم في ذلك سُعداء في حُبور وهناء، وكيف لا يكون سعيهم كذلك! ففيه تحصيل تلك الفضائل:

- هم شهود لله عز وجل. فقد قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران] فقد استشهد الله تعالى بهم على أعظم مشهود عليه وهو وحدانيته وألوهيته سبحانه وتعالى.
- هم وارثوا مقام النبوة. فقد صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: (من سَلَكَ طريقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طريقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتها لَطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يورثوا ديناراً ولا درهماً إِنَّمَا وَرثوا الْعِلْمَ فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍّ

وافر) [الترمذي في السنن وغيره]. وكل جملة من جُمِلَ هذا الحديث ينبغي أن نقف معها وقفات؛ فهو طريق إلى الجنة، وطريق لاستجلاب رضا الملائكة وتواضعها له، وهو طريق لجلب استغفار المخلوقات له، والعلماء هم الوارثون ميراث الأنبياء من العلم والهدى والنور. بل وفضلهم على الخلق كفضل القمر على سائر الكواكب. فما أعظمها!.

• **هم أهل الخشية والإنابة لله تعالى.** فكلما ازداد الإنسان معرفة بربه؛ كلما كان قريباً من طاعة ربه ومولاه، بعيداً عن معصيته مخالفا لهواه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أُمَّة مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَعْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أُمَّتَهُ تَزْنِي، يَا أُمَّة مُحَمَّدٍ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحِحتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) [صحيح البخاري] وكذلك قال - وله قصّة - (أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَاتَّقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [صحيح البخاري].

• **هم أهل البصيرة والنور.** فهم أهل البصيرة الذين نور الله تعالى قلوبهم بالإيمان والعلم النافع، وما ذاك إلا لأنهم أخذوا من النور الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقد قال جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى] وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد] ولذلك كانت دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى على بصيرة وهدى؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف] فكانوا هم أهل البصيرة وغيرهم أهل الظلام والعمى.

• **هم أهل الخير دون سواهم.** فقد قال أبو ذر رضي الله عنه: (العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس لا خير فيهم، كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك). وجاء عن علي رضي الله تعالى عنه الخامس: (أو مُحِبّاً) فهو لاء: (العالم والمتعلم والمستمع

للعلم والمُحِبُّ للعلم) أهل الخير ولا خير فيمن سواهم!. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا إِنَّ الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرُ الله وما والاهُ، وعالمٌ، أو متعلِّمٌ) [سنن الترمذي وابن ماجة؛ وفيه مقال]. فالعالم الذي يُعَلِّمُ الناس كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو يُعَلِّمُ الناس العلم النَّافع ومن يستمعوه هم الذين قد حازوا الخير أجمع.

- **هم أهل الدرجات العلى.** فقد قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة]. ولأجل مكانة العلم في النفوس وما له من الآثار على المجتمعات فقد رفع الله تعالى درجة الكلب إذا كان مُعلِّماً في حل صيده للأكل؛ فقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة]. فالكلب - وهو ما يصيد بنابه أو مخلبه - إذا كان مُعلِّماً وجاء صاحبه بصيد جاز له أكله. وإن لم يكن مُعلِّماً فلا يحل صيده ولا أكله. ولعلو درجتهم فقد نفى الله تعالى مُساواتهم لغيرهم ممن لا يعلمون فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر].
- ثانياً: مخاطر الجهل.**

- **في الجهل إرضاءٌ للشيطان.** وكيف لا يكون كذلك وهو الوسيلة التي يستطيع أن يدخل من خلالها إلى كل أحد؛ بل وكلُّ المداخل الشيطانية متفرعة عنه. فالجاهل الذي اتخذ من الجهل حجاباً يمنع وصول الحق إليه لن تنفعه كثرة الأدلة حتى وإن كانت الأدلة كما وصفها الله تعالى؛ فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام]. فلا غرو إذا في محبة الشيطان لهؤلاء. وكيف لا يحبهم ولا يرضى بأفعالهم؛ فقد يطلبون آلهة تُعبد من دون الله

تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف].

- **الاجتراء على الفواحش من سمات الجاهلين.** فقد جاء في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام؛ قوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف]. وفي تفسيرها: «أي: أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجهال»؛ ولأنهم جاهلون بقدرة الله تعالى وعلمه وأوصافه؛ هان عليهم فانساقوا وراء شهواتهم وملذاتهم. ومما يدل على ذلك أيضاً؛ أن الجهال أهل الاستهزاء والسخرية بالآخرين قول الله تعالى في قصة البقرة عندما أمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة]؛ فالجاهل هو الذي يسخر من الآخرين ويستهزئ بهم.

- **في الجهل إزهاق للأرواح وسفك للدماء.** فقد جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في خبر الذي قاتل مائة نفس: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟..) [صحيح مسلم] فكان جهل الراهب سبباً في الجناية على نفسه أولاً، وجهل المجتمع في التفريق بين العابد والعالم؛ سبباً في الجناية على هذه النفس!! وكذلك جاء في قصة المشجوج الذي كانت عليه جنابة؛ وقد أفتاه أصحابه بالغسل فمات؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أخبر بخبره: (قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوهُ إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شَفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ؟) إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ، وَيَعَصِبَ عَلَى جَرِحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ) [أخرجه أبو داود وفي سنده مقال]

- **في الجهل تخلف وتأخر.** وهذا أمر لا يحتاج إلى بيان؛ فالجاهل متخلف عن ركب المدنية والحضارة وفي حاجة إلى من يُداويه ويدفع عن أمراضه وآلامه. وصدق قول القائل:
بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يُبنِ ملكٌ على جهل وإقلال
ثالثاً: بين العلماء والجهال.

ولمّا كان الجهل نقيض العلم أمر الله سبحانه تعالى أنبياءه صلى الله عليهم جميعاً وسلم؛ بأن يُعْرِضُوا عن الجاهلين فقال جلّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف]، وقال له أيضاً: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام] ووعظ الله تعالى نبيه نوحاً - أول رسولٍ - عندما سأل ربه سؤالاً لا يتناسب ومقام النبوة؛ فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ١٥ قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ١٦ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود]؛ ولأجل هذه المعاني كان من أخص صفات عباد الرحمن أنهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان].

وأخيراً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ..) [صحيح البخاري] وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس بقوله: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّوْبِيلَ) [أخرجه أحمد]. ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة بالحفظ فقال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي سَمِعْتُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا فَأَنْسَاهُ، قَالَ: ابْسُطْ رِدَاءَكَ فَبَسَطْتُ، فَغَرَفَ بِيَدِهِ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: ضُمَّهُ فَضَمَمْتُهُ، فَمَا نَسِيتُ حَدِيثًا بَعْدُ) [صحيح البخاري].

رزقنا الله علماً نافعا ورزقا طيباً وعملاً متقبلاً.

الإخلاص والنية⁽¹⁾

العناصر:

مقدمة.

أولاً: أهمية النية والإخلاص وما هيئته.

ثانياً: عاقبة النية الحسنة والإخلاص.

ثالثاً: عاقبة النية السيئة في الدنيا والآخرة.

(الموضوع)

من الابتلاءات التي ابتلي بها الإنسان في هذه الحياة؛ بل التي خلق الله عز وجل الموت والحياة لأجلها (حُسن العمل)، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف]، وقوله سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك]. فقد ابتلانا الله تعالى بحسن العمل لا بكثرته ومظهره. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) [صحيح مُسلم] وفي بيان هذا المعنى كذلك قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ) [صحيح البخاري]. وكذلك جاء في دعاء سليمان عليه السلام ما يُشير إلى هذا المعنى إذ يقول عليه الصلاة والسلام كما ذكر ذلك ربُّنا عنه: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل]. فالعامل لابد وأن يعمل العمل الذي يُرضيه سبحانه وتعالى لا ما يرضاه هو.

(1) هذا الموضوع رجعت فيه إلى كتاب رياض الصالحين للنووي، وكتاب أعمال القلوب، د: خالد بن عثمان السبت.

ولكن كيف يكون العمل حسناً مرضياً عند الله تعالى مقبول؟. يوضح لنا هذا الجواب الفضيل بن عياض؛ فيقول: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، قال: والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة». وسوف أتكلم في هذه الورقات عن الإخلاص وما يتبعه من النية؛ مبيناً أهميته وما يترتب عليه في الدنيا والآخرة. فأقول وبالله تعالى التوفيق:

أولاً: أهمية النية والإخلاص وماهيته.

يقول سهل التستري: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا «أن حركاته وسكونه في سرّه وعلايته لله وحده لا شريك لا يُمازجه شيء ولا نفس ولا هوى ولا دنيا» وقال بعضهم: «الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله عز وجل ولا مُجازياً سواه».

فالإخلاص هو توحيد الإرادة والقصد. فيكون الله تعالى وحده مُرادَه فلا يلتفت العبد إلى شيء معه سبحانه وتعالى. ولذلك تعددت الأوامر والألھيه والنصوص النبوية به؛ ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة]، وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر] وغيرها من النصوص القرآنية. وقد جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ما يبين شأنه وعظيم منزلته:

— فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً:

فقد (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له فأعادها ثلاث مرّات، يقول له رسول الله: لا شيء له ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغي به وجهه) [سنن النسائي]. وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً

أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) [صحيح مُسلم]. فهذا أراد أجرا وذكرا وثناءً عند الناس، أو عملَ عمله الله تعالى وجعل مع الله تعالى شريكا له .. فكان الجزاء (لا شيء له).

- وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن على النية مدار الأمر والشأن؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ،..) [صحيح البخاري] وقال: (إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بِالِ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ) [صحيح البخاري]. فلقد نوى قتلا ولم يقع منه؛ فكان الجزاء: في النار وهو المقتول!. وفي الحديث ذلك: (إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ شَهِدِهَا فَكْرِهَهَا - وَقَالَ مَرَّةً: أَنْكَرَهَا - كَمَنْ غَابَ عَنْهَا. وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا) [سنن أبي داود]، وقال أيضا: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) [صحيح البخاري]. فهذا فضل الله تعالى .. ولذلك كانت من أعظم الوصايا التي وصَّى بها أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ولده: «يا بني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير». وعن عائشة رضي الله عنها: (يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا كَانُوا بَبْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ. قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ) [صحيح البخاري].

ثانياً: عاقبة النية الحسنة والإخلاص.

- إلقاء القبول لصاحبه في الأرض مع وفور المهابة في قلوب الخلق. وذلك لأن الله تعالى يُحِبُّهُمْ؛ وَمَنْ أَحَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَوُضِعَ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وقد قال ابن القيم: «وقد جرت عادة الله التي لا تبدل وسنته التي لا تحول؛ أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه،

ويلبس المرائي اللابس ثوب زور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به، فالمخلص له المهابة والمحبة، وللآخر المقت والبغضاء».

- طريق إلى محبة الله تعالى ونصره ورعايته. فلعل الله تعالى بما في قلوبهم أحبهم ورضي عنهم؛ فقد قال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلَاتِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ) [سنن النسائي].

- الإخلاص يُكثِّرُ العمل. وفي ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْتَبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ قُلُوهُ، أَوْ فَصِيلَهُ) [صحيح مسلم].

- سبب لنجاة العبد من الكربات. وفي ذلك حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار ثم انطبقت عليهم الصخرة؛ وقد جاء فيه: (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ) [صحيح البخاري] ولهذا المعنى استحَبَّ كثير من السلف أن تكون للإنسان خبيئة من عمل صالح لا يعلم به أحد قريب أو بعيد. وكذلك ما جاء في قصة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه وفيها: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةً نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَقَالَ: اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ: عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَظَلٍ، وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَرْحٍ.. وَأَمَّا عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ فَرَكِبَ الْبَحْرَ، فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ، فَقَالَ أَهْلُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا؛ فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا ههنا. فقال عِكْرِمَةُ: وَاللَّهِ لَنْ لَمْ يُنَجِّنِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ، لَا يُنَجِّنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَهْدًا إِنَّ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتَى مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ، فَلَأَجِدَنَّه عَفْوًا غَفُورًا كَرِيمًا، فَجَاءَ وَأَسْلَمَ) [السلسلة الصحيحة للألباني]. ولعل من الشواهد القرآنية على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا

بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ لَبِثَ أُنْحِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ ﴿يُونُس﴾ وقد قال الله تعالى عن نبيه يوسف صلى الله عليه وسلم: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف].

ثالثاً: عاقبة النية السيئة في الدنيا والآخرة.

مما يدفع العبد إلى الإخلاص؛ علمه بعاقبة المرائين الذين عملوا أعمال الآخرة للدنيا، فإذا
وقف الإنسان على مصيرهم وما هو حالهم في الآخرة؛ هرعت نفسه إلى الإخلاص وإصلاح
القلوب، وأقبلوا مُخلصين على ربهم راجين ثوابه. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بَشِّرْ هَذِهِ
الْأُمَّةَ بِالسَّعَاءِ، وَالْدِّينِ، وَالرَّفْعَةِ وَالنَّصْرِ، وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا،
لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) [أحمد في مسنده].

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً عن قوم عملوا أعمالاً عظيمة من أعمال الآخرة ولكنهم
عملوها للدنيا: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ، لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ
جَائِيَةٌ، فَأُولُو مَنْ يُدْعَى بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَارِيءِ: أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بلى يا رب، قال: فما عملتَ فيما
علمت؟ قال: كنتُ أقومُ به آناً اللَّيْلِ وَآناً النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ
الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَان قَارِيءٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى
بصاحبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ أَوْسَعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بلى يا
رب، قال: فماذا عملتَ فيما آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كنتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، أَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ
الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌّ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى
بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فَبِمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبٍّ! أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ،
فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:

فلانٌ جريءٌ، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسولُ الله على رُكبتَي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خلقِ الله تُسَعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامةِ [سنن الترمذي].

فالأوجب على العبد: أن يستعين بالله تعالى في تحقيق الإخلاص، وأن يقطع على نفسه كلَّ طريق من طُرُق الهوى، وأن يعلم ما يُضاد الإخلاص من الرياء والسمعة حتى لا يقع فيها، وأن يقطع طمعه في المخلوقين ولا يلتفت إلى مدحهم. وأن يُحاسب نفسه أولاً بأول على التقريط في حق الله تعالى وعلى نيته وخواطره ووارداته على نفسه، وأن يجتنب مواطن الشهرة قدر الإمكان.

والحمد لله رب العالمين

القلوب وما أدراك ما القلوب⁽¹⁾.

العناصر:

المقدمة.

الأول: أنواع القلوب.

الثاني: علامات صحة القلب ومرضه.

الثالث: وسائل إصلاح القلوب.

(الموضوع)

للقلب أهمية كبيرة جداً؛ فعليه مدار أمرنا؛ صلاحاً وفساداً في الدنيا والآخرة، فلقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]. وقال سبحانه: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْحَلَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ انْتَقَى الْمَشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَعَ يَرْعَى حَوْلَ الْحَمَى أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنْ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) [صحيح البخاري ومسلم]، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ) [صحيح مسلم]. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن القلب هو محل التقوى فقال: (وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْزَنُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) [صحيح مسلم]. وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ

(1) يُنْظَرُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ: (إِغَاثَةُ اللَّفَّانِ مِنْ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ) لِابْنِ الْقَيْمِ. وَهُوَ كِتَابٌ عُمْدَةٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

نُكْتَةُ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةُ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُجَحِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ [مسند أحمد].

فالقلب السليم المنيب الصالح هو الذي به صلاح أحوال المرء وبه نجاته في الدنيا والآخرة. وهذا القلب هو موضع نظر الرب تبارك وتعالى. وأمّا القلب الذي لكثرة ما أُشْرِبَ من الفتن والشبهات أصبح أسودَ مُربادًا كالكوز منكسًا؛ قد انسَدَ عن قبول الحق والإذعان والانقياد له.

وهذا القلب: هو الذي يُحَدِّدُ مِقْدَارَ الْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بُعْدًا وَقُرْبًا؛ فَقَدْ يَكُونُ الْمَرْءُ مِنْ حَيْثُ الْجَسَدُ وَالْقُوَّةُ وَالْأَعْضَاءُ وَالصُّورَةُ غَيْرَ مَقْبُولٍ عِنْدَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ لَهُ الْمَنْزِلَةُ الْعُلْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَقَلْبُهُ حَيٌّ يَنْبُضُ بِرُوحِ الْإِيمَانِ؛ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ مِنْهُمْ الْبِرَاءُ بِنُ مَالِكٍ) [سنن الترمذي]. وجاء أيضًا؛ أنه قد: (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟). قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشْفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يَسْمَعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: (مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟). قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشْفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يَسْمَعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) [صحيح البخاري]. فالتفاضل عند الله تعالى بما وقر في القلب. بل وقد ذكر الله تعالى كما في الحديث القدسي: (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُفْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى، وَمُسْلِمٌ، وَرَجُلٌ فَقِيرٌ) [صحيح مسلم].

أولاً: أنواع القلوب.

وللقلوب أنواع ذكرتها آيات الذكر الحكيم، وهذه الأنواع تنبئ عن أحوال أصحابها؛ وهذه الأنواع قد ذكرها الله تعالى في كتابه فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الحج﴾ فهناك قلب: (مريض)، و (قاسٍ)، و (مُخْبِتٌ).

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً؛ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد] وكذلك قوله تعالى عن أصحاب البقرة وما حكاه الله تعالى عنهم وعن قتلهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة]، فسبحان من جعل من القلوب من هو أقسى من الحجارة وأصلب. «فإن قلوبهم قست وامتنت عن قبول الحق، فهي تشبه في الصلابة الحجارة، بل أشد قسوة منها، وأصبحت بفقد تأثرها بالآيات وتفاعلها بالمواعظ والعبر، كأنها جمادات، بل إنها تدنّت عن درجة الجماد أيضاً، لأن الحجارة قد ينفجر منها الماء، ويسيل أنهارا تحيي الأرض وتتفع النباتات، وقد تتشقق فيسيل منها ماء بسيط فيكون عينا لا نهرا».

الثاني: علامات صحة القلب ومرضه.

فالقلب السليم: هو «الذي سلّم من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادةً، ومحبةً، وتوكلاً، وإنابةً، وإخباتاً، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله لله، فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى الله، وإن منع منع الله. ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله - صلى الله عليه وسلم -، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الانتماء والافتداء به وحده دون كل أحد، في الأقوال والأعمال». والقلب الصحيح السليم: «ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له».

والقلب المريض: هو الذي به مادة للحياة ومادة للمرض والهلاك؛ فأى المادتين غلبت على القلب كان لها وكان من أصحابها. وقد وصف الله تعالى القلوب بالمرض في مواطن؛ منها:

قوله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة]، وكذلك قال عنهم: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [٤٨] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور]، وكذلك قال الله عز وجل عن مرضى القلوب وعن المنافقين: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [ملعونين آيَنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا] [الأحزاب]. وكذلك ذكر الله تعالى مرضى القلوب الذين يتحسسون الشهوات ويتتبعونها بقوله: ﴿يَنسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب].

فإذا كان المرء يلجأ إلى الشرع عندما يكون له الحق، ولا يلجأ إليه إذا كان عليه الحق؛ فهذا قلب فيه مرض وفساد. وإذا كان المرء مُشيعاً للأراجيف والإشاعات، مُتتبعاً للشهوات والشبهات، مُعاهداً لله في الضراء ناقضاً عهده في السراء .. فصاحب هذا القلب مريض أو به مادة المرض التي ينبغي له أن يسعى في علاجها سعيه في علاج أمراضه الأخرى أو أشد.

الثالث: وسائل إصلاح القلوب.

من رحمة الله تعالى أن جعل لكل داء دواء؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) [صحيح مسلم]. وقد جعل الله تعالى أدويةً لأمراض القلوب وأدوائها؛ ومنها:

• **الاستغفار، وذكر الله تعالى وقراءة القرآن الكريم.** فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال]، وقال أيضا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) [صحيح مسلم]. وقد قال أيضا: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) [صحيح البخاري].

• **محبة الله تعالى.** فمحبة الله تعالى جالبة لسلامة القلب وصحته وكيف لا يكون سليماً هذا القلب الذي أحبَّ الله تعالى بصدقٍ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ. مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا. وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ. وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْذِفَ فِي النَّارِ) [صحيح البخاري ومسلم].

• **تعلق القلوب بالمساجد.** وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسَاجِدِ) [صحيح البخاري ومسلم]. فالمساجد هي محالٌ لجميع الأدوية التي بها صلاح القلب.

• **تذكر الموت وزيارة القلوب.** وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَرُوزُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ) [مسند أحمد] وفي بعض طرقه المسند لهذا الحديث: (أَلَا إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ: نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنَّهَا تَرْقِي الْقُلُوبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، فَرُوزُوهَا، وَلَا تَقُولُوا هَجْرًا). وكذلك ذكر الموت وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أَكْثَرُ مَا ذَكَرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ) [ابن ماجة في السنن]

• **الابتعاد عن الأمور التي تمرض القلوب وتفسدها.** فينبغي على العبد أن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يمرض قلبه أو يفسده من الأغاني والأفلام والمسلسلات ومحال الشهوات والبدع وغير ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾
[الأنعام].

• **الدعاء بصلاح القلوب.** فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) [مسند أحمد]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ) [مسند أحمد]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر].

فكما أن المرء يجتهد في الدعاء طلباً للرزق وصلاح الأولاد وغير ذلك من أمور الدنيا؛ فلا ييخل على نفسه بالدعاء لصلاح قلبه فهو ملكٌ والجوارح كلها له جنود.
والحمد لله رب العالمين.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

العناصر:

المقدمة

أوصاف اليهود والنصارى في القرآن والسنة.

(الموضوع)

ليس من شك في أهمية سورة الفاتحة؛ فهي سورة لا تصح الصلاة بدونها، وهي أم القرآن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي الرقية، وهي الصلاة، .. وغيرها من الأسماء والمعاني التي ارتبطت بها. فهي سورة قد اصطفاه الله تعالى من كتابه؛ حتى تكون في صلاة العبد صلةً بينه وبين عبده؛ يُردِّدها العبد في صلاته - وجوباً - في يومه وليلته على أقلِّ أحواله: (سبعة عشر مرة = عدد ركعات الفرائض)؛ فلا شك أنها سورة لها شأن خاص.

فلا بد حينئذ من التدقيق والتحقيق للمعاني التي تضمنتها؛ ففيها: الثناء على الله تعالى وتوحيده، وفيها: سؤاله سبحانه وتعالى هداية الصراط المستقيم. فقد قال سبحانه فيها: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿التوبة﴾

ومن المعاني التي تضمنتها: (سؤال المسلم أن يُجنبه الله تعالى صراط المغضوب عليهم وكذلك الضالين). فمن هم هؤلاء حتى يحذر المسلم صراطهم وطريقهم وسنتهم؟.

والمغضوب عليهم: هم اليهود الذين لعنهم الله تعالى وغضب عليهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة] **والضالون:** هم النصارى الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا

تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١﴾ [المائدة]. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه كثيرا من الروايات التي تؤيد هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله عليهم وكذلك عن التابعين. وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَصَفُهُمْ وَنَعَتْهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْهَدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ، وَامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَرَوَاجِرِهِ، غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ، فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَلَا صِرَاطِ الضَّالِّينَ وَهُمْ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَانِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ، وأكد الكلام بلا لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ تَمَّ مَسْلُكِينَ فَاسِدِينَ، وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى». وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَدِرَاعًا بِدِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ) [صحيح البخاري]. وقد حدثت حادثة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم توضح هذا المعنى؛ وهي: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ، مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمَشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلَّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَرْكَبَنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) [الترمذي] وقد وقع هذا الأمر في كثير من الأمور العقدية والأخلاقية والتشريعية ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم

وفي هذه الورقات سوف أُبين أوصاف كلٍّ من اليهود والنصارى والتي تضمنتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية؛ مُوضِّحًا من خلال ذلك سبيلهم وما عُرفوا به من خبيث الطباع ولئيم الخلال؛ حذرا من التشبه بهم أو السير على خطاهم. وذلك في العناصر التالية:

أولاً: ينسبون إلى الله تعالى وإلى رسوله عليهم الصلاة والسلام وإلى المؤمنين الأباطيل.

فقد نسبوا إلى الله تعالى أوصاف النقص والمسكنة والمذلة؛ فقالوا: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران].

ووصفوا الله تعالى بأنه مغلول اليد؛ فقالوا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة]، ونسبوا إليه الولد: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة] وردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء]، ونسبوا إليه التعب واللغوب بعد خلقه السموات والأرض ولأجل هذا اتخذ اليوم السابع راحة له؛ فرد عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق]. تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

وكذلك نسبوا إلى أنبياء الله تعالى ما هم منه براء؛ فقد أنكر الله تعالى عليهم قولهم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْلِمْتُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة]. وكذلك قولهم عن إبراهيم عليه السلام أنه يهودي أو نصراني حيث قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران]. ومن نظر في كتب القوم وما عليه عقيدتهم في الأنبياء والمرسلين؛ وجدهم لا يستكفون من نسبة الفواحش بل والإشراك بالله تعالى إلى الأنبياء؛ فنسبوا إليهم الزنا والسرقة والكذب والخديعة والخيانة، .. والضعف والمذلة حتى نسبوا إلى يعقوب عليه السلام أنه كان يُصارع الله تعالى في فنيئيل وتغلب عليه!! وكذلك يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض؛ فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء]، وهم كذلك يكفرون بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد قالوا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة]

ومن أساليبهم الماكرة مع المؤمنين ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران]. أي: «وقالت جماعة من علماء اليهود: آمنوا في الظاهر بالقرآن الذي أنزل على المؤمنين أول النهار، واكفروا به آخره، لعلهم يشكّون في دينهم بسبب كفركم به بعد إيمانكم فيرجعون عنه قائلين: هم أعلم منا بكتب الله وقد رجعوا عنه». فاحذر أن تنخدع بمدح أحدهم لك!.

ثانياً: يدعون أن الآخرة لهم. فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة]. فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة] وَلَن يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [البقرة]. فلو كانوا صادقين في دعواهم لتمنّوا الموت. ولكنهم وبسبب ما قدّموه من المعاصي والظلم والإشراك بالله تعالى لا يتمنّونه أبداً. فقد: «حَبِيبَتُ إِلَيْهِمُ الْخَطِيئَةُ طُولَ الْعَمْرِ» وذلك للخزي الذي علموه لهم في الآخرة.

وعلى كل حال: فسواء في ذلك المؤمنون وأهل الكتاب وسائر الخلق؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء]. فليست القضية قضية شخص أو أُمْنِيَّة؛ وإنّما هي: (عمل .. يُجَازَى به المرء).

ثالثاً: يُنكروَن الحقَّ بعد ظهوره وجلائه. بل ويسعون جاهدين في إخفائه بعد ظهوره.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة]. يبيِّن هذا الأمر حديثُ النبي صلى الله عليه وسلم: (لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ) [صحيح البخاري]

«والمُرَادُ بالعَشْرَةِ: الأعيانُ والرُؤساءُ منهم، وَبِحَتْمَلٍ أَنَّهُ أَرَادَ عَشْرَةً مُّعَيَّنِينَ؛ وَإِلَّا فَقَدْ آمَنَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُلُوفٌ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ إِنْهُمُ الْمُخَالِفِينَ لِي مِنْهُمْ فِي رِقَابِ أُولَئِكَ الْعَشْرَةِ؛ لَكُونِهِمْ رُؤَسَاءَ الْقَوْمِ فِي هَذَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَّضَ بَالِنَهْيِ عَنِ التَّقْلِيدِ فِي الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْمَرْجِعَ فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّلِيلِ». وقد قال الله تعالى عن إخفائهم للكتب المنزلة عليهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة]. وفي قصة الرجم لليهوديين؛ التي ذكرتها كتب التفسير ما يدل على ذلك.

ففيها: «أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَيْنًا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟" فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ! فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجِمَا فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ».

رابعاً: الجُبْنُ والخورُ. ففي قصة من قصص بني إسرائيل؛ في أول عصر ملوكهم، قصة طالوت وجنوده؛ في سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة] «ولما عبر طالوت النهر هو والقلَّةُ المؤمنة معه - وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً - لملاقاة العدو، ورأوا كثرة عدوهم وعدَّتهم، قالوا: لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء». والعجيب أنَّ هذا

هو حال المؤمنين منهم!! وكذلك في قصة دخول الأرض المقدسة - فلسطين ؛ وقد وعدهم الله تعالى بالنصر على عدوهم إذا دخلوا؛ فقال جل ذكره: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ١٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٢٣ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة]. وكذلك ما ذكره الله تعالى عنهم - في سورة بني النضير - ﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر]. «لا يقاتلكم - أيها المؤمنون - اليهود مجتمعين إلا في قرى مُحَصَّنَةٍ بالأسوار، أو من وراء جدران، فهم لا يستطيعون مواجهةكم لجنبهم، بأسهم فيما بينهم قوي لما بينهم من العداوة، تظن أنهم على كلمة واحدة، وأن صفهم واحد، والواقع أن قلوبهم متفرقة مختلفة»

خامساً: تقديسهم للأموال ولِمَتَعَ الحياة الدنيا. بلغ من تقديسهم وعبادتهم للأموال؛ أنهم أدعوا لأنفسهم الغنى ونسبوا إلى الله الفقر. وقد مرَّت الآية سابقاً، وكذلك مما يدل على هذا المعنى قولهم عندما تمَّ اختيار طالوت ملكاً عليهم: ﴿قَالُوا أَلَيْكَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة]. وكذلك عن حبهم للحياة الدنيا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة]. وانظر إلى قيمة المال عند اليهود في هذا النص: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْباطِلِ﴾ [النساء]. فإما أنهم يُحصلون المال بالمعاملات الربوية وقد نُهوا عنها أو عن طريق الرشوة وإليها الإشارة بأكل أموال الناس بالباطل.

سادساً: ينقضون العهود والمواثيق. ذكر الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات عن

بيني إسرائيل - من اليهود والنصارى - هذا الأمر؛ فقد قال جل ذكره عنهم : ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفَرِهِمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۝﴾ [النساء] فقد ذكر الله عنهم في هذا الموضع فقط: كفرهم بآيات الله، وقتلهم للأنبياء، وقولهم على مريم عليها السلام البهتان العظيم، وكذلك من بهتانهم قولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم!! وقال أيضا: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [آل عمران] وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝﴾ [المائدة]. فالغدر ونقض العهود والمواثيق شيمتهم وخصالتهم.

سابعاً: أشد الناس عداوة وحقدا وحسدا للمؤمنين. وهذه من خصالهم اللازمة في

تعاملاتهم مع المؤمنين؛ فقد قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ [المائدة]. فهذا نص صريح في عداوتهم لنا. وكذلك ينتج عن هذه العداوة حقدهم وحسدهم وتمنيهم أن لم ينزل علينا خير من الله عز وجل؛ فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾ [البقرة] وبعدها كذلك؛ يقول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۝﴾ [البقرة]، وكذلك: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران]. فالحسد والحقد وإرادة الإضلال لنا.. فهذه شيمتهم ومنهجهم معنا.

ثامنا: يُبدلون كلام الله تعالى ويحرفون بعدما عقلوه. فقد ذكر الله تعالى عنهم هذا الأمر في غير ما آية من كتابه فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة] وقبلها أيضاً ذكر سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة]. والأعجب من هذا كله أن تحريفهم لم يكن عن جهل بما حرفوه أو عن عجز وعدم قدرة على تحقيقه؛ قال سبحانه: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]. بل ويكتبون بأيديهم ويقولون أقولاً من عند أنفسهم ثم ينسبونها إلى الله تعالى فقد قال جل ذكره عنه: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنْتَهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران]. فقد جمعوا مع كلام الله تعالى كثيرا من الانحرافات؛ فإمّا: بالتبديل، أو بالزيادة والنقص، أو بالتحريف أو بالإخفاء والطمس. ومن طالع كتب القوم وجد هذا ظاهرا وواضحا وضوح الشمس. ولأجل هذا كله استحقوا ما ذكر الله عز وجل عنهم: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة].

وأخيرا .. وليس بآخر: ليسوا على شيء .. فلا تغتروا بهم.

فقد قالوا عن أنفسهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة] «وقالت اليهود: ليست النصارى على دين صحيح، وقالت النصارى: ليست اليهود على دين صحيح، وهم جميعاً يقرؤون الكتب التي أنزلها الله عليهم وما فيها من الأمر بالإيمان بكل الأنبياء دون تفريق» وإذا كان هذا هو قولهم عن

أنفسهم؛ فهذا كذلك هو قول الله عز وجل عنهم وسببه أنهم لم يُقيموا التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله عز وجل فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُثَبِّتُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة] « قل - أيها الرسول -: لستم - أيها اليهود والنصارى - على شيء من الدين المعتد به حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل، وتعملوا بما أنزل عليكم من القرآن الذي لا يصح إيمانكم إلا بالإيمان به، والعمل بما فيه».

فلا تغتروا أيها المؤمنون بما عليه القوم في دينهم وما زينوه به من الأباطيل والماراس والطقوس التي لا يليق بالمسلم أن يُشابههم فيها. وكذلك لا تغتروا بدنياهم التي هي جنَّتهم؛ إذ ليس لهم في الآخرة من نصيب.

وأقول في ختام هذا الحديث عن هذه الآية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ قد: «دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْمُكَلَّفِينَ ثَلَاثُ فِرَقٍ: أَهْلُ الطَّاعَةِ، وَإِلَيْهِمُ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، وَأَهْلُ الْمَعْصِيَةِ وَإِلَيْهِمُ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَأَهْلُ الْجَهْلِ فِي دِينِ اللَّهِ وَالْكَفْرِ وَإِلَيْهِمُ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ وَلَا الضَّالِّينَ»؛ «أَنَّ الَّذِينَ كَمُلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ لِذَاتِهِ وَالْخَيْرِ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُرَادُونَ بِقَوْلِهِ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فَإِنْ اخْتَلَّ قِيْدُ الْعَمَلِ فَهُمْ الْفَسَقَةُ وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ .. وَإِنْ اخْتَلَّ قِيْدُ الْعِلْمِ فَهُمْ الضَّالُّونَ». فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الطاعة الذين هم أهل العلم والعمل.

والحمد لله رب العالمين.

الشُّبُهَات والشَّهَوَات

المقدمة.

أولاً: الشبهات.

ثانياً: كيفية النجاة من الشبهات.

ثالثاً: الشهوات.

رابعاً: كيفية النجاة من الشهوات.

(الموضوع)

من الأمور التي لا يخلو إنسان من التعرُّض لها؛ إما في قلبه أو في عقله أو في دينه؛ أمر الشبهات والشهوات. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الشهوات والشبهات في قوله: (إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ، شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى) [أحمد في المسند]. وسوف نقف مع وكل واحدة منهما وقفتين؛ أولهما: لبيان ماهيتها. وثانيهما: لبيان النجاة منها. كما يلي:

أولاً: الشبهات.

قد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم باجتنابها فقال: (إِنَّ الْحَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَزْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلَكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) [صحيح البخاري]. وقد جاء في رواية: (حَالٌ بَيْنَ، وَحَرَامٌ بَيْنَ، وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ، مَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ؛ فَهُوَ لِلْحَرَامِ أَتْرَكُ،

ومَحَارُمُ اللَّهِ حِمَى، فَمَنْ أَرْتَعَ حَوْلَ الْحِمَى؛ كَانَ قَمِنًا أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ) [مسند أحمد]. وعند الدارمي عن مجاهد قال: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾» [الأنعام: 153] قَالَ: الْبِدْعَ وَالشُّبُهَاتِ».

وهذه الشبهات: «هي الأمور التي تكون غير واضحة الحكم من حيث الحل والحُرمة، فلا يَعْلَمُ الكثير هل هي حلالٌ أو حرامٌ، ويدخل في ذلك جميع الأمور المشكوك فيها؛ مثل: المال المشبوه أو المخلوط بالرِّيا، أو غيره من الأموال المحرمة، أمّا إن تأكد أن هذا من عين المال الربوي، فإنه حرام صرف دون شك، ولا يُعد من المشتبهات».

وقد عرفها ابن القيم رحمه الله فقال: «الشُّبُهَة: وَارِدٌ يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ انْكِشَافِ الْحَقِّ» وقد سُمِّيَتْ بذلك: «لغموضها وعدم اتضاح حالها وخفاء حكمها على التعيين».

فعلى المسلم أن يحتاط لدينه؛ في عبادته ومعاملته وفي بيعه وشرائه وفي نكاحه وطلاقه وفي كل شيء!، ولا يركن إلى أمرٍ من الأمور المشتبهة؛ بحجة أن عالما قال بها أو أن حكيما صدرت عنه. فقد قال معاذ رضي الله عنه: (وَأَحْذَرُكُمْ رِيْغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ، قَالَ: قُلْتُ لِمَعَاذِ: مَا يُدْرِينِي - يَرْحَمُكَ اللَّهُ - أَنْ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى، اجْتَنِبْ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهَرَاتِ الَّتِي يُقَالُ مَا هَذِهِ!، وَلَا يَنْتَبِهَنَّ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَهُ أَنْ يُرَاجَعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا) [سنن أبي داود]. وفي الأثر عن النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) [صحيح مسلم]. فلم تطمئن النفس إلى هذا الأمر فحاك في الصدر وتردد فيه لاشتباهاه وعدم وضوحه.

ثم إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال عنها - كما في الحديث السابق -: (مضلات الهوى)؛ وذلك لأنَّ مُحَرِّكها هو الهوى لا الوحي. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية]. وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصاص] وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات]. وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتَّى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به) [ابن أبي عاصم في السنة]. فالذي يُعارض القرآن الكريم أو السنة النبوية المُطهرة برأيه؛ ولا يُسلم لأحكامهما ولا لأخبارهما؛ فقد اتباع الهوى والشبهات، وكذلك لم يتجرد قلبه لله عز وجل. بل قد اتخذ إلهه هواه.

ثمَّ إن في هذا علامةً على أن الزيف عن الصراط المُستقيم وجادة السبيل قد تحكم في قلبه وأصبح فيه أمراً مُستقراً. فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

ثانياً: كيفية النجاة من الشبهات.

- التسليم لله عز وجل وللرسول صلى الله عليه وسلم.
- الحذر من الذين يتَّبِعون الشهوات.
- الحذر من الذين يُجادلون في آيات الله تعالى بغير علم. وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل».

ثالثاً: الشهوات.

قال الله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران]. وفي مُسند الإمام أحمد - والحديث له قصة - (فَقَالَ شَدَّادٌ: إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَمَّا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مِنْ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ وَالشَّرِّكَ" .. فَأَمَّا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا، هِيَ شَهَوَاتُ الدُّنْيَا مِنْ نِسَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا.. [مسند أحمد].

فقد تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ والحديثُ الشَّرِيفُ ذِكْرَ شَيْءٍ مِنَ الشَّهَوَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَضْبُطَ شَأْنَهُ مَعَهَا، فَلَا يَكُونُ مُسْرِفًا فِيهَا أَوْ عَابِدًا لَهَا؛ أَيْ فَلَا تَكُنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتُ مُسْتَقَرَّةً فِي قَلْبِهِ. وكذلك يضبط شأنه فيها فلا يبتعد عنها ابتعاداً يضرُّ به؛ بحيث يعيش في هذه الحياة عَيْشَةَ الْهَلْكِ والجوعى. ف«أصل الشَّهْوَةِ: نزوع النفس إلى ما تريده، وذلك في الدُّنْيَا ضربان: صادقة، وكاذبة، فالصادقة: ما يختلُّ البدن من دونه كشهوة الطَّعام عند الجوع، والكاذبة: ما لا يختلُّ من دونه.. وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يحتمل الشَّهَوَاتَيْنِ» أ.هـ "المفردات للأصفهاني.

وقبل أن أخوض في بيان ما لهذه الشهوات من آثار؛ أقول من الذي زينها أولاً؟ فقد ذكرتِ الآيةُ الكريمةُ هذا الفعل بصيغة البناء لما لم يُسمَّ فاعله - البناء للمجهول - «وَاخْتَلَفَ النَّاسُ مِنَ الْمُرَيْنِ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: اللَّهُ زَيْنَ ذَلِكَ، وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الْمُرَيْنُ هُوَ الشَّيْطَانُ، وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ الْحَسَنِ، فَإِنَّهُ قَالَ: مَنْ زَيْنَهَا؟ مَا أَحَدٌ أَشَدَّ لَهَا ذِمًّا مِنْ خَالِقِهَا. فَتَزِينُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ بِالْإِجَادِ وَالتَّهْيِئَةِ لِلِانْتِفَاعِ وَإِنْشَاءِ الْجِبَلَةِ عَلَى الْمِيلِ إِلَى

هَذِهِ الْأَشْيَاءُ. وَتَزْيِينُ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هُوَ بِالْوَسْوَسَةِ وَالْخَدِيعَةِ وَتَحْسِينِ أَخْذِهَا مِنْ غَيْرِ وُجُوهِهَا»
أ.هـ من القرطبي.

وَاتَّبَاعُ الشَّهَوَاتِ مُرْدٍ وَطَاعَتُهَا مَهْلَكَةٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم] فقد أضاعوا صلواتهم وانشغلوا عنها وكان السبب في إضاعتها هو اتباعهم شهواتهم ونزواتهم.

ثُمَّ إِنْ مَنْ يَتْرِكُ الشَّهَوَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى الْأَجْرُ الْعَظِيمُ. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ حَدِيثُ الصِّيَامِ؛ وَفِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ: (الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي) [أحمد في المسند وأصله في البخاري].

ثُمَّ إِنْ النَّارُ قَدْ حُقِّقَتْ بِالشَّهَوَاتِ؛ فَعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (حُقِّقَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُقِّقَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) [صحيح مسلم]. وَفِي رِوَايَةٍ (وَحُجِّبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ) [صحيح البخاري] وَفَائِدَةُ هَذَا التَّمَثِيلِ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُنَالُ إِلَّا بِقَطْعِ مَفَاوِزِ الْمَكَارِهِ وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا. وَأَنَّ النَّارَ لَا يُنْجَى مِنْهَا إِلَّا بِتَرْكِ الشَّهَوَاتِ وَفِطَامِ النَّفْسِ عَنْهَا» فَالشَّهَوَاتُ طَرِيقٌ إِلَى النَّارِ.. فَالْحَذَرُ الْحَذَرُ. وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَهَا حِجَابٌ، هَذَا الْحِجَابُ الَّذِي يَسْتَرُهَا عَنِ النَّاظِرِينَ؛ مَنْ اقْتَحَمَهُ فَقَدْ دَخَلَ الْمَحْجُوبَ عَنْهُ، وَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ، وَلَكِنَّهُ حِجَابُ التَّكَالِيفِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَلِذَلِكَ كَانَ فِي ظَاهِرِهِ مَوْصُوفًا بِالْمَكَارِهِ؛ ﴿بَابُ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد].

أَمَّا عَنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ. فَقَدْ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِهَذَا التَّرْتِيبِ الْبَدِيعِ.

- شَهْوَةُ النِّسَاءِ: فَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) [صحيح مسلم]. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ) [صحيح البخاري]. وَعَنْ طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ - التَّابِعِيِّ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ قال: «أي في أمر النساء». وقال وكيع بن الجراح: «يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ». فلأجل ضعفه في شأن النساء أباح الله له نكاح الأمة على ما فيه من العواقب السيئة التي تؤدي إلى استرقاق الأولاد. "ينظر: تفسير ابن كثير". ومما يدل على هذا المعنى ويُقوّيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: («إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمَوَ، قَالَ: "الْحَمَوُ الْمَوْتُ") [سنن الترمذي] وانظر إلى هذا الأثر كذلك؛ ففيه بيان هذا الخطر فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: («لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»). فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَةً وَاكْتُنِبْتُ فِي غُرُوزَةٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «ارْجِعْ فَحُجِّ مَعَ امْرَأَتِكَ» [صحيح البخاري].

وأما إذا كان المقصود من النساء الإعفاف وكثرة النسل والذرية؛ فليس هذا ما يُدْمُ عليه المروء أو يُعَاب، بل هذا مطلوبٌ ومندوبٌ إليه. والأحاديث في ذلك معلومة مشهورة كقوله صلى الله عليه وسلم: (حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) [سنن النسائي] وقال أيضاً: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) [صحيح مسلم].

- شهوة البنين. ومحبة البنين من الأمور الجبلية التي فطر عليها الإنسان. فإذا كان للتفاخر والتكاثر والتباهي والزينة فهو داخل في هذه الآية فينبغي الحذر منها، لا سيما وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن]. وقال: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد]. فما في الحياة الدنيا - بما عليها من الزينة والتفاخر والتكاثر - إلا متاع الغرور. وقد ذكر الله تعالى نعمة البنين في معرض الذم فقال عن الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهَدَاءَ ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ١٥ ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المذثر] وقد جاء أنهم: (عشرة). و(قيل: ثلاثة عشر).

أما إذا كانوا لغير ذلك من تكثير نسل المسلمين، وإعداد العدة لنشر الدين وصيانة المؤمنين؛ فلا يدخلون في هذه الآية وما فيها من الذم؛ بل قد: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها، قال: لا ثم أتاه الثانية فنهاء، ثم أتاه الثالثة، فقال: تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم) [أبو داود في السنن]. وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأنس فقال: (اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته) [صحيح البخاري] ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لإنسان إلا بما فيه الفلاح والنجاح له في الدنيا والآخرة. ويقول أنس رضي الله عنه عن استجابة الله تعالى لدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم له: (فإني لمن أكثر الأنصار مالا وأولادا. وأخبرتني ابنتي أمينة: أنه دفن لصليبي - أي: أولادي، غير أحفادي وأسباطي، والحفيد: ولد الابن، والسبط: ولد البنت - إلى وقت مجيء الحجاج بن يوسف الثقفي إلى البصرة - وذلك سنة خمس وسبعين من الهجرة - بضع وعشرون ومئة نفس).

- شهوة القناطير المقتطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث: «وَحُبُّ الْمَالِ - كَذَلِكَ - تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الضُّعَفَاءِ، وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا مَذْمُومٌ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ شَرْعًا». وقد قال الحكيم لقمان لولده: «يا بُنَيَّ، اسْتَغْنِ بِالْكَسْبِ الْحَلَالِ عَنِ الْفَقْرِ، فَإِنَّهُ مَا افْتَقَرَ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَصَابَهُ ثَلَاثُ خِصَالٍ: رِقَّةٌ فِي دِينِهِ، وَضَعْفٌ فِي عَقْلِهِ، وَذَهَابُ مُرُوعَتِهِ، وَأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ: اسْتِخْفَافُ النَّاسِ بِهِ». وهذه وصية قيس بن عاصم عند الموت لابنيه: «وَعَلَيْكُمْ بِالْمَالِ وَاصْطِنَاعِهِ، فَإِنَّهُ مَنْبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ، وَيُسْتَعْنَى بِهِ عَنِ اللَّيْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَمَسْأَلَةَ النَّاسِ، فَإِنَّهَا مِنْ آخِرِ كَسْبِ الرَّجُلِ» [الأدب المفرد]. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اثنان يكرههما ابن آدم: الموت؛ والموت خير من الفتن، ويكره قلة المال؛ وقلة المال

أَقْلُ لِلْحِسَابِ) [أخرجه أحمد]. وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: (سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) [صحيح البخاري]. وقد عليه الصلاة والسلام عن الخيل - التي كان يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا وَلَكِنَهَا بَعْدَ مَحَبَّتِهِ لِلنِّسَاءِ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: (الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، وَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ أَرْوَاتُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بَنَهْرٍ فَشَرِبَتْ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا، كَانَ ذَلِكَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَسِتْرًا وَتَعَفًُّا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ كَذَلِكَ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ وَزْرٌ) [صحيح البخاري].

- الشرف والسؤدد. وهذه من الشهوات التي تُسْفِكُ لِأَجْلِهَا الدَّمَاءَ وَتُزْهِقُ النَفُوسَ وَالْأَرْوَاحَ؛ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ ذَا شَرَفٍ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا ذَنْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لَدِينِهِ) [سنن الترمذي]. فَحِرْصُ الْمَرْءِ عَلَى هَذِهِ الشَّهْوَةِ مِنَ الْمُفْسَدَاتِ لِلْقَلْبِ وَلِلدِّينِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعَمَ الْمَرْضِعَةُ وَبُسْتِ الْفَاطِمَةُ) [صحيح البخاري]. وَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ أَيْضًا: (لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ) [صحيح البخاري] وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) [صحيح مسلم]. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٣﴾ [القصص]. وقد قال سفيان الثوري: «ما رأيت زهداً في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرئاسة تحامى عليها وعادى».

وليس الأمر على عمومته كما سبق في الشهوات الماضية؛ بل قد يفتح الله تعالى على المسلمين بالخير العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة؛ فيُنشَرُ الدينُ ويظهرُ الخيرُ ويضمحلُ الشرُّ؛ وكذلك قد يصرف الله تعالى عنهم من البلايا والرزايا والمصائب ما لا يعلمه إلا الله تعالى ويكون سبب ذلك كله هو "السلطان" وقد رُوي موقوفاً عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ أمثال: (عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان رضي الله عنهما) وعن جماعة من التابعين - أمثال: عمر بن عبد العزيز والحسن البصري.. - قولهم: «إِنَّ اللَّهَ يَزَعُ بِالْسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآنِ». ويُذكرُ في هذا السياق قول الله تعالى على لسان يوسف صلى الله عليه وسلم عندما قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ١٠٤ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [يوسف] وقد ذكر العلماء - كالماوردي - من وسائل إصلاح الدنيا: «دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح».

رابعاً: كيفية النجاة من الشهوات.

ويُمكن إجمال أسباب النجاة من الشهوات في النقاط التالية:

- معرفة طبيعة الحياة وأنها موضوعةٌ للابتلاء..
- معرفة طبيعة الجنة وأنها محفوفةٌ بالمكاره.
- أن يعلم العبد بأن ما عند الله تعالى خير وأبقى؛ فلا ينشغل العبد بالفاني عن الباقي.
- ثم إن الشهوات يوم القيامة خزيٌّ وندامةٌ وحسرةٌ على صاحبها.

والحمد لله رب العالمين

مُكْفَرَاتُ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ

القدمة.

أولاً: مُكْفَرَاتُ فِي الدُّنْيَا.

ثانياً: مُكْفَرَاتُ فِي الْآخِرَةِ.

(الموضوع)

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْشَاهَا الْعَبْدُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ؛ ذُنُوبَهُ، كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا وَذَلِكَ لِشِدَّةِ ضَرَرِهَا عَلَيْهِ؛ فَهِيَ سَبَبُ الْعَذَابِ وَالْخِذْلَانِ وَعَدَمُ التَّوْفِيقِ وَالْجَهْلُ وَمَحَقُّ الْبَرَكَةِ.. وَحَدَّثَ مَا شَتَّتَ عَنْ عَقُوبَاتِ الْمَعَاصِي وَأَثَارِهَا.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ أَسْبَابًا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ خِلَالِهَا تَكْفِيرَ هَذِهِ الْمَعَاصِي وَمَحْوَ آثَارِهَا؛ وَحَتَّى لَا يَقْدُمَ الْعَبْدُ عَلَى رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحَمَّلًا بِأَوْزَارِهَا، وَسَاعَتَهَا سِينْدُمُ وَلَا يَنْفَعُ النَّدَمُ حِينَئِذٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: (إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) [صحيح مُسلم]، وَيَا وَيْلَهُ ثُمَّ يَا وَيْلَهُ مَنْ ظَهَرَ لَهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَى بَالٍ وَلَا حِسَابٍ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ١٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ [الزمر]. وَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى (1) هَذِهِ الْأَسْبَابَ مِنْ اسْتِقْرَائِهِمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَجَدُوهَا عَشْرَةً؛ مِنْهَا مَا هُوَ فِي الدُّنْيَا وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْآخِرَةِ. وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ كَمَا يَلِي:

(1) وَمِمَّنْ جَمَعَ هَذِهِ الْأَسْبَابَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي فِتَاوَاهِ مِنَ الْمَجْلَدِ السَّابِعِ. وَقَدْ

تَحَدَّثَ عَنْهَا فِي كُتَيْبِ مُفَرَّدِ الشَّيْخِ (إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَرْزُوعِيِّ).

أولاً: مُكْفَرَاتُ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا.

● **التوبة النصوح.** قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحريم]. والتوبة النصوح: «تخليصها من كلّ غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه» وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى عنها: «هي أن يكون الذنب نُصب عينيه، ولا يزال كأنه ينظر إليه». والتوبة لها شروط إن لم تتوفر فيها لا تكون مقبولة؛ منها: (الندم على ما فات)، (العزم على عدم العود)، (الإقلاع عن المعصية)، (ردّ الحقوق إلى أهلها) ففي تفسير ابن كثير: «وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هُوَ أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَاضِرِ، وَيَنْدَمَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي، وَيَعْزِمَ عَلَى أَلَّا يَفْعَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. ثُمَّ إِنْ كَانَ الْحَقُّ لِأَدَمِيٍّ رَدَّهُ إِلَيْهِ بِطَرِيقِهِ». وعن أثر التوبة كذلك في تكفير الذنوب قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان]، فليس هذا في التكفير فقط بل يُبدل الله سبحانه وتعالى سيئاته حسناتٍ!؛ فيترك السيئات التي كان يعملها ويُقبل على عمل الحسنات، أو أن تلك السيئات بنفس التوبة النصوح تتقلب حسنات فيكون كلما تذكر العبد سيئاته عاد وندم واسترجع فتُحدث له توبة وعملًا صالحًا ويكون إذا وجد الذنب في صحيفته يوم القيامة لا يُضره، فهذا انقلابها حسنات بهذا الاعتبار. وهما قولان لأهل العلم.

● **الاستغفار.** وكذلك من مُكْفَرَاتِ الذُّنُوبِ والمعاصي الاستغفار؛ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تدل على هذا المعنى، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: (من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، غفر له، وإن كان قد فر من الزحف) [أبو داود في السنن] وكذلك قوله عليه السلام: (سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أُبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأُبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ

شَرَّ مَا صَنَعْتُ. إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ - أَوْ: كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ - وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلُهُ [صحيح البخاري] وقد كان هذا من شأنه صلى الله فكان كثير الاستغفار؛ حيث يقول عن نفسه صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) [صحيح مسلم]. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: رُبَّمَا أَعْدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِئَةَ مَرَّةٍ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [أخرجه أبو داود والترمذي]. وقد أمر الله تعالى بالاستغفار وبين أنه سبب الغفران للذنوب؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَلْحَقُهُ أَذًى﴾ [آل عمران]. وإذا كان الشيطان يعدُّ بالفقر ويأمر بالفحشاء؛ فالله تعالى قابل ذلك بالمغفرة والعطاء فقال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة] فمن استغفر الله تعالى غفر له؛ فهو الغفور الشكور سبحانه وتعالى.

● **الحسنات الماحية.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذرٍّ: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) [المستدرک على الصحيحين وهو في الأربعين النووية]. فالذي يأتي بعملٍ من الأعمال السيئة وأراد أن يُكفِّرَ الله له هذا الذنب؛ فعليه أن يُبادر بعده بعمل الحسنات. فذلك يمحو أثرها وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير لآية هود بعض الشواهد على ذلك ومنها:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) [صحيح البخاري].
- وقوله: (الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ) [صحيح مسلم].

- وعن علي رضي الله عنه قال: (حدَّثني أبو بكرٍ وصدق أبو بكرٍ رضي الله عنه، أنه قال: سَمِعْتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلم يقول: ما من عبدٍ يذنبُ ذنبًا، فيُحسنُ الطُّهورَ، ثمَّ يقومُ فيُصلي ركعتين، ثمَّ يستغفرُ اللهَ، إلَّا غفرَ اللهُ له، ثمَّ قرأَ هذه الآية: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ) [أبو داود في السنن].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ). [صحيح مُسلم]

فعلى المسلم إذ ما اقترف ذنبا من الذنوب أن يبادر بعمل صالح بعده حتى يُذهب الله تبارك وتعالى عنه وزره وإثمه.

• **دعاء المؤمنين والملائكة للعبد.** فقد جاء في استغفار الملائكة للمؤمنين قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر] فمن الآية نعلم أن الملائكة: «يطلبون المغفرة للذين آمنوا بالله، قائلين في دعائهم: ربنا، وسع علمك ورحمتك كل شيء، فاغفر للذين تابوا من ذنوبهم، واتبعوا دينك، واحفظهم من النار أن تمسهم» ومن هذا القبيل أيضا جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: (دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِ) [صحيح مُسلم]. ومن ذلك أيضا قوله عليه الصلاة والسلام: (الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ) [صحيح البخاري]. ومن دعاء المؤمنين لإخوانهم بالمغفرة قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿[الحشر]﴾ وما جاء عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح]. وجاء في دعاء المؤمنين لإخوانهم كذلك واستجابة الله تعالى لهم؛ في هذا الحديث: (ما من رجلٍ مسلمٍ يموتُ، فيقومُ على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً؛ إلا شفّعهم الله فيه) [صحيح مسلم]. وفي رواية أخرى: (ما من ميتٍ تُصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائةً، كلُّهم يشفعون له؛ إلا شفّعوا فيه) [صحيح مسلم] وفي عرصات يوم القيامة كذلك؛ ينفع المؤمن أخاه فقد قال الله عز وجل: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف] ومن مظاهر هذا النفع شفاعته فيه عند ربه سبحانه وتعالى؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: (فوالذي نفسي بيده، ما منكم من أحدٍ بأشدّ مُناشدةً لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفنكم، فتحرّم صورهم على النار.. فيقول الله عز وجل: شفّعت الملائكة، وشفّعت النّبيون، وشفّعت المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين) [صحيح مسلم].

- **المصائب المكفرة في حياته.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يُصيبُ المسلم، من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ، حتّى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها) [صحيح البخاري] وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كذلك: (دخلتُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يُوعكُ، فمسستُه بيدي فقلتُ: إِنَّكَ لَتُوعِكُ وَعْكَاً شَدِيداً، قَالَ: أَجَلُ، كما يُوعِكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ قَالَ: لَكَ أَجْرَانِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ما من مسلمٍ يُصيبُهُ أذى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا) [صحيح البخاري] وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسه وولده وماله، حتّى يلقى الله وما عليه خطيئة) [الترمذي وأحمد].

ثانياً: مكفّرات في الآخرة.

- ذكر العلماء رحمهم الله تعالى من المكفّرات الأخروية للذنوب والآثام؛ أموراً، منها ما يلي:
- **شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [صحيح البخاري] وقد جاء في شفاعته صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة؛ وقد استتبط العلماء منها أنواعاً كثيرة لهذه الشفاعة؛ **ومن هذه الأنواع:** «شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدّعوا مَنْ أنكرها وصاحوا به من جانب ونادوا عليه بالضلال» والأحاديث بذلك معروفة معلومة.
 - **رحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.** كذلك من الوسائل التي يُكفّر الله عز وجل للعبد بها ذنوبه ومعاصيه؛ رحمة الله تعالى. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عنها: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقٍ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً؛ فَبِهَا تَغْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ) [صحيح مسلم]

وقد قال الله تعالى عنها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف] وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَصْفَرُ وَأَخْيَضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟ فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمَ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتْقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ..) [صحيح مسلم].

وقد ذكر العلماء كذلك أسباباً أخرى يُكفّر الله تعالى بها للإنسان ذنوبه وخطاياها؛ وعلى كل حال فينبغي للعبد أن لا يتهاون بالذنوب مُعتمداً على أن الله تعالى سيُكفّر له بهذه المُكفرات، فهو سبحانه وتعالى مالكُ يوم الدين، فلا يملك أحدٌ لأحدٍ شيئاً إلا بإذنه تعالى.

والحمد لله رب العالمين

في

(الوارثون جنان الخلد)

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[المؤمنون]

استقراءً لجُملةٍ من أسباب الإرث الأخرى

في الإرث الأخرى

العناصر:

المدخل.

أولاً: معنى "الإرث الأخرى".

ثانياً: أسباب الإرث الأخرى.

ثالثاً: موانع الإرث الأخرى.

(الموضوع)

أمر الناس في غاية العجب؛ إذ تراهم يتعلقون بهذه الدار ويتناسون الآخرة دار القرار، ويتنازعون فيها عليها وكأنهم فيها مُخلّدون، يتقاطعون ويتدابرون ويتحاسدون ويتباغضون؛ بل ويتقاتلون .. على نصيبهم منها، وما لهم فيها من متاع، ونسوا نصيبهم وحظّهم وميراثهم من الدار الآخرة؛ والذي لا يصلون إليه إلا ببذل أسباب وانتفاء موانع وتحقيق شروط.

وهذا هو محلّ حديثنا ومحطّ ترحالنا؛ فهل لنا: نصيب نرثه في الآخرة؟، وممّن نرثه؟. وقبل أن أجيب على هذه التساؤلات وغيرها أبدأ بذكر آيات وأحاديث الإرث الأخرى، ثم مثال يوضح معالم هذا المراد:

قال الله تعالى في مطلع سورة "المؤمنون" بعد ذكر جملة من الأوصاف: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون] وقال تقدّست أسماؤه: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء]، ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]،

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَلَاحٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾
[الزخرف].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحدٍ إلا له مَنزَلانِ: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات فدخل النار، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنزَلَهُ، فذلك قوله: هُمُ الْوَارِثُونَ) [أخرجه ابن ماجه].

فهذه بعض نصوص الإرث الأخرى.

وأما المثال؛ فانظروا .. - رحمني الله وإياكم - إلى:

رجل في غربة بعيدة عن وطنه يجمع الأموال كي يتزوج أو يُحصِّل أسباب المعيشة ورفاهيتها؛ فمنَّ الله عليه بالرزق الحلال حتى كثر ماله؛ ثم تزوج بامرأة ذات مالٍ وجمال بعد أن أعدَّ بيتاً جميلاً يسكنه، ثم قدَّر الله عليه أن يُنفق بعض الأموال في طلب الدُّرية في علاج نفسه وزجه فرزقا بالولد، فأخذا يُنفقان عليه ولا ييخان؛ ومع ذلك لم تنزل ثروة الوالد في نَمُوِّ فكان فيها من أنواع المال: النقود والعقارات والسيارات والأنعام .. وعدَّد ما شئت من أصناف الخير .. وبعدما شبَّ الولد وبلغ سنَّ الرشاد إذ بالموت يأخذ أباه ثم في إثره أمه ..

فما هو حال هذا الولد الرشيد بعد فراقهما .. دُعْ عنكَ أَمْرَ الْحُزَنِ .. فليس هذا مُرادِي.

هذه الثروة التي ورثها هذا الشابُّ الرشيد من أبيه وأمّه:

هل تَعِبَ فيها؟ .. لا.

هل تَغَرَّبَ لأجلها؟ .. لا.

هل أنفق على إنجاب نفسه؟ .. لا.

هل أنفق على نفسه حتى بلغ وترعرع؟ .. لا. بل ولا شارك فيها أدنى مُشاركة.

إذا فلماذا استحقّها؟. لأن من أسباب الإرث البنوة. .. نعم .. ولكن السبب هذا؛ ليس راجعاً إليه وإنما إلى مَنْ جمع تلك الثروة. فإيا لها من ثروة بلا تعب!!.. ولذلك قال السادة العلماء عن الميراث؛ بأنه: ما أخذته بغير عوض.

وكذلك.. ما الشأن إذا ما تعدّى هذا الولد على سبب وجوده في هذه الحياة (والده)؛ فقتله مثلاً!! .. لا شك أنه قد قطع علاقة البُنوة بقاطع لا يستحق معه التركة، أو بقاطعٍ أعظم من قاطع القتل وهو اختلاف الدين - فعلاقة الدين أعظم من علاقة النسب - فذلك لا يستحق التركة. أو كان الولد رقيقاً عبداً مملوكاً لغيره - فحقُّ سيده حينئذٍ أعظم؛ فلا مال للمملوك مع سيده - فلا يستحق المال الموروث من والده لأنه سيكون لسيده وليس له.

هذا مثال؛ قصدتُ منه إظهار العجب من هذا اللفظ القرآني (الوارثون)؛ فهو فعلاً كما قال الله تعالى وصدق. فالذي خلق الجنة وجعل فيها ما فيها من أنواع النعيم هو الله تعالى، والذي خلقنا ورزقنا وأعاننا على عبادته هو الله عز وجل؛ ومع ذلك وعدنا بالجنة إرثاً إن جئنا بالسبب الذي هو مُسبِّبُه. فسبحانه تعالى له الفضل وله المنّة أولاً وآخراً⁽¹⁾. ثم بعد ذلك أقول عن موضوعنا:

أولاً: في معنى الإرث الأخرى.

أن الله سبحانه وتعالى أعدَّ الجنّة في الآخرة لعباده الصالحين تفضلاً منه سبحانه بسبب أعمالهم الصالحة في الدنيا. وكذلك المؤمنون يرثون أماكن أهل النار التي كانت لهم في الجنة لو دخلوها. وفي هذا يقول ابن الجوزي في زاد المسير: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا سُمِّيَ الْكُفَّارُ أَمْوَاتًا بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾. [النحل: ٢١]. وَسَمَّى الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءً بِقَوْلِهِ: ﴿لِيُنْذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] أَوْرِثَ الْأَحْيَاءَ الْمَوْتَى». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا كان يوم القيامة، دفعَ الله عزَّ وجلَّ إلى كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا، فيقول: هذا فِكاكُكَ مِنَ النَّارِ) [أخرجه مسلم].

(1) راجع الأقوال التي قيلت في معنى الإرث في زاد المسير لابن الجوزي في موضع سورة الأعراف

ثانياً: أسباب الإرث الأخرى.

وطالما أنه إرث فلا بد له من أسباب؛ وهذه الأسباب يجمعها كلها عبادة الله عز وجل؛ ففي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَذَرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرُهُمْ، فَيَتَكَلَّوْا) [أخرجه البخاري ومسلم].

وهذا الحق: إنما هو حقٌ أوجبه الله على نفسه ولم يوجبه أحدٌ عليه سبحانه وتعالى كما قال جل ذكره: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام] وهذا من قبيل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي) [أخرجه البخاري ومسلم]. ويدخل تحت هذا السبب أسباب أخرى كثيرة وهذا هو أصلها؛ ومن هذه الأسباب كذلك: (الصلاح، والتقوى، والإيمان، الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحفظ الفروج، ورعاية الأمانة والشهادة..)

ف: «الأعمال أسبابٌ موصلةٌ إلى الثواب والعقاب..» وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنِّه، وصدقته على عبده، إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقُدرةَ عليها، وحبَّها إليه، ورَبَّنَّها في قلبه وكرَّهَ إليه أضدادها، ومعَ هذا فليست ثَمناً لِجَزَائِهِ وَثَوَابِهِ، ولا هي على قَدْرِهِ».

ولأجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يُجَبِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدَّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا) [أخرجه البخاري]، فالمنفي هو أن يكون العمل ثمناً أو جزاءً؛ وإنما

هو سبب من الأسباب الموصلة إلى هذا الثواب وعلى هذا يحمل قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فهذه الباء باء السببية وليست باء المعاوضة. فهناك فرق بين من يقول: (اشتريت الدار بألف) وبين من قال: (أخذت الدار بالإرث) فالأول: ثمن والثاني سبب

ثالثاً: موانع الإرث الأخرى.

وهذه الموانع: منها موانع تحجب صاحبها حجب حرمان؛ فلا يدخلها أبداً بل هي محرمة عليه، ومنها موانع تحجب صاحبها حجب نقصان فلا يدخلها ابتداءً قبل أن يُنقَى أو يُقضى ما عليه.

أما الموانع التي تمنع صاحبها منع حرمان وتُحرّم عليه الجنة فلا يدخلها أبداً فهو: **الشرك بالله تعالى**. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم يقول: مَنْ ماتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ. وَقُلْتُ أَنَا: وَمَنْ ماتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ) [أخرجه البخاري ومسلم] وهذا **الشرك**: يُشبه ذلك الولد الذي قطع علاقة بنوته من أبيه بقتله، والمُشرك: قد قطع علاقة عبوديته مع خالقه، أو أشرك في عبوديته لله تعالى إلهاً آخر كالرق - المانع للإرث - ولا يقبل الله تعالى معه شريكاً.

وما سوى ذلك من الذنوب فهي راجعة إلى مشيئة الله وعفوه ومغفرته أو عذابه وعدله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

وأما الموانع التي تمنع صاحبها وتحجبه حجب نقصان فلا يدخلها ابتداءً قبل أن يُنقَى أو يُقضى ما عليه. فهي الذنوب التي جاءت على لسان الشارع الحكيم مصدرة أو محكوم على

صاحبها - وهو من المسلمين - بعدم دخول الجنة؛ من أمثال أصحاب الكبائر التي حكمت عليهم النصوص بالحرمان من الجنة وما زالوا في عداد المسلمين.

كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ) وقوله: (مَنْ أَرَى الرَّبَّاءَ اسْتَطَالَهُ فِي عَرْضِ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَإِنَّ هَذِهِ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ قَطَعَهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ). وقوله: (مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) وقوله: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ) وقوله: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ). وقوله: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ)، وقوله: (ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مَدْمُنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسَّحْرِ)⁽¹⁾ وغيرها من الأحاديث.

وعلى هذا المعنى يُحْمَلُ الاستثناء الوارد في آية هود من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَيَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود]، قال ابن الجوزي في زاد المسير: «وَالسَّادِسُ: أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ يَرْجِعُ إِلَى لُبِّ مَنِ لَبِثَ فِي النَّارِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ، ثُمَّ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُقَاتِلٌ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: فَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مِنَ الْخُلُودِ مُكْتَبَ أَهْلِ الذُّنُوبِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي النَّارِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ إِخْرَاجِ الْمُذْنِبِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَخَالِدِينَ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ إِدْخَالِ الْمُذْنِبِينَ النَّارَ مُدَّةً».

أحبابي قِصَّةٌ قَصِيرَةٌ وَوَصِيَّةٌ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: أَتَشْهَدُ. ثُمَّ أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ النَّارِ. أَمَا وَاللَّهِ مَا أَحْسَنُ دَنْدَنْتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ قَالَ: حَوْلَهَا تُدْنَدُنُ) [ابن ماجة في سننه].

فنسأل الله تعالى الفردوس الأعلى من الجنة.

(1) وهذه كلها أحاديث صحيحة.

الصالحون

العناصر:

المدخل.

أولاً: تعريف الصالح والصالح وأهميتهما.

ثانياً: من هم الصالحون؟

ثالثاً: أوصاف الصالحين.

(الموضوع)

وَضَحَّتْ نصوصُ الشرعِ الشريفِ أن الجنةَ دارٌ أعدها الله تعالى لعباده الصالحين؛ فقال جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء] وقد جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ﴾ قَالَ: أَرْضُ الْجَنَّةِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالثَّوْرِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قَالَ اللَّهُ أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَافْرُؤُوا إِن شِئْتُمْ {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: 17]) [أخرجه البخاري]. وقد جعل الله تعالى الصالحين من أوليائه فقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ فمن هم الصالحون الذين يتولاهم الرحمن والذين يستحقون وراثة جنات النعيم؟ وما هي أوصافهم؟ وهل كلُّ من ادعاه لنفسه يكون صادقاً في دعواه؟

ولأهمية هذا الموضوع؛ لابد من بيان أمرين:

الأول: قضية الصلاح هي محور رسالات الأنبياء. قال الله تعالى عن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) [أخرجه البخاري في الأدب المفرد].

الثاني: قد ادعى الإصلاح والصلاح ناسٌ هم من أبعد الخلق عنه، فانظر - مثلاً - قول الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [آل عمران] إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة] وقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر] فهو يخاف على دين المصريين من التبديل الذي جاء به موسى عليه السلام، أو أن يظهر موسى الفساد في الأرض، ولا غرابة إذا من قول تابعٍ من أتباع فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنِّي تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ .. سبحان الله!! وطالما أن الأمر بهذه المثابة فمن هو الصالح؟.

هو: «الذي يقوم بحق الله تعالى وحق العباد» فهو الذي يؤدي الفرائض والواجبات، وينتهي عن المحرمات ويُسارع في الخيرات، وهو كذلك يُراعي حقوق العباد عليه.

والصالح ضده الفاسد قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِصْلَاحِ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة] فالحكم بالصلاح والفساد إلى الله تعالى وليس إلى عباده؛ فمن قال الله عنهم (فاسدون) فهم كذلك، وإن ادعوا صلاحا وإصلاحا. ومن قال عنهم (صالحون) فهم كذلك وإن رُموا واتُّهموا بالفساد.

وقد جاء في نصوص الشرع وصنف أناسٌ بالصلاح، وهم:

ثانياً: من هم الصالحون وأوصافهم؟.

الأنبياء. وصف الصلاح مُلَازِمٌ لهؤلاء لا ينفك عنهم؛ فهم الصالحون المصلحون الداعون إلى الصلاح فقد قال الله تعالى بعد ذِكْرٍ جملةٍ منهم: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام] وقال أيضاً: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم] وقال أيضاً عن يونس عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم].

الذين يتمسكون بالكتاب. لأنهم يتمسكون بأساس الإصلاح وقانونه ونظامه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف] ولأجل ذلك كان جزاؤهم عظيماً ونعمة الله عليهم كبيرة، فهم الرفيقُ الحسن الذين أنعم الله عليهم، وقد أمرنا الله تعالى أن نسأله أن نكون معهم في صلواتنا فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء] ففي سورة الفاتحة نسأله تعالى أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم وهم هؤلاء.

المؤمنون. فالمؤمن صالح في نفسه يسعى لإصلاح غيره، وقد قال الله تعالى عن صالحى الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن].

الذين يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر. وهذه من أظهر علاماتهم وأبرز صفاتهم؛ فأمرهم بالمعروف وإصلاح ونهيهن عن المنكر إصلاح، قال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَابِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَنَاءً لَّيْلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران].

المرأة الصالحة. وهي التي قامت بحق ربها سبحانه وتعالى عليها وكذلك قامت بحق زوجها، وقد قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء] ولأجل هذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) (أخرجه مسلم).

الذين يسعون بالإصلاح بين الناس. وعن أم كلثوم بنت عقبة أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا). قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِّمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.. [أخرجه مسلم]. بل قال الله تعالى عن النجوى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء].

ثالثاً: إشكالات .. ودفعها.

الصالح والابتلاء. هل معنى الوصف بالصالح للمرء "أن يكون في عصمة من الابتلاء"؟ والجواب على ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعِبَاءَةَ الَّتِي يَحْوِيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرِّخَاءِ) [أخرجه ابن ماجه] وعلى ذلك فقد - بل - يُصاب النَّبِيُّ أو الصَّاحِبِيُّ أو الصَّدِيقُ أو الْمُؤْمِنُ.. بالابتلاءات في الأموال أو الأنفس أو الأمراض أو في أي شيء.. وما هذا إلا رِفْعَةٌ لدرجاته وعلوٌ لمنزلته عند الله عز وجل.

أنهلك وفينا الصالحون؟. هل وجود الصالحين في المجتمع عصمة له من الهلاك؟ يُجيبنا على هذا السؤال هذا الأثر: (قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ) [أخرجه البخاري] فكثرة الخبث دليل على قِلَّةِ الصالحين، وأما إذا كانت القرية أو المدينة كلها أو غالبها متمسكا بالصلاح داعيا إليه نابذا للفساد فهنا يتحقق قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وساعتها لا يضر وجود بعض المفسدين

القليلين الذين لا يؤثرون بفسادهم على المجموع الأعظم والجماهير الأكثر. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا كثرت الخبث) ولم يقل: (إذا انعدم الخبث)؛ وشتان ما بينهما. والله أعلم.

مع الدعاء.

ولمكانة الصالحين العالية؛ دعا أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام بهذه الدعوات: فعن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات] وعن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف] وعن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل].

وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ) [أخرجه مسلم].

وكان من دعاء المسلم لأخيه المسلم إذا عطس: (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ - أَوْ صَاحِبُهُ -: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحْ بِالْكُم) [أخرجه البخاري].

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا صالحين مُصلحين

آمين.

الطيبون

العناصر:

المدخل.

أولاً: الجنة طيبة .. وهي للطيبين.

ثانياً: أوصاف الطيبين.

ثالثاً: ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث.

(الموضوع)

من صفات وارثي جنات النعيم؛ (أنهم طيبون). وبذلك صرّحت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية على قائلها أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد قال جلّ ذكره وتقدّست أسماؤه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل] وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر]. فمن هم الطيبون؟ وما هي أوصافهم؟ ولماذا كانت الجنة لهم دون غيرهم؟ هذا هو اللقاء.

أولاً: الجنة طيبة .. وهي للطيبين.

فالجنة .. تربتها طيبة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا مُحَمَّدُ أَقْرَى أُمَّتِكَ السَّلامَ، وأخبرهم أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَإِنَّهَا قِيَعَانٌ، وَغِرَاسُهَا لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) (أخرجه الترمذي).

وكلامها طيب لا لغو فيه ولا تأثيم. قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج].

ومساكنها طيبة. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة]. فلما كانت الجنة بهذه الأوصاف (كلامها ومساكنها وترتبتها طيبة)؛ فناسب أن لا يدخلها إلا الطيبون؛ وهم:

الذين طابت قلوبهم بمعرفة الله عز وجل، وطابت ألسنتهم بذكره، وجوارحهم بطاعته. وقد جعلهم الله تعالى خيار عباده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيارُ عبادِ الله عندَ اللهِ الموفونَ المُطِيبُونَ) [أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وله قصة].

فينبغي على من يريد أن يكون في هذه الدار الطيبة أن يكون كلامه ككلامهم، ومسكنه كمسكنهم، وحركات جوارحه وسكناته كحركاتهم وسكناتهم.. وفي كل شيء بهذه الصفة (طيبة).

ثانياً: أوصاف الطيبين.

قبل أن أذكر هذه الأوصاف؛ لابد من التأكيد على هذا المعنى؛ وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا) (أخرجه مسلم). وهذه الأوصاف أجناس من الطيبات التي لا يقبل الله تعالى غيرها؛ فالطيبون هم:

- الذين يأكلون الطيبات: فقد أمر الله عز وجل بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وفي الأثر عن عثمان رضي الله عنه: «وَعِفُّوا إِذْ أَعَفَّكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْمَطَاعِمِ بِمَا طَابَ».
- الذين يتكلمون الكلام الطيب: وأطيب ما يتكلمون به هو ذكر الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهي كلمة التوحيد.

وكذلك هم الذين لا يُنْفَرُونَ الناس ولا يَقْطُوهُمْ من رحمة الله تعالى؛ بل يُسْمَعُونَهُمْ ما يحبون: ف(لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ) [أخرجه البخاري]، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عن الجنة ومُستَحَقِّها: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ لَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ) [أخرجه أحمد وغيره .. وفي الصحيح لمن ألان الكلام]. وذلك كله لأن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلام إلا الطيب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر].

• **الذين يتصدقون بالطيبات:** فلا يقصدون بصدقتهم خبيث أموالهم بل يخرجون من طيبها، فتطيب أموالهم بذلك الخارج الطيب؛ قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلَّا لِيُطَيَّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ) [أخرجه الحاكم في المستدرک وقال: صحيح على شرط الشيخين].

• **الذين ينكحون الطيبات الطاهرات العفيفات.** فقد قال سبحانه وتعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور] وقد أمر الله تعالى بنكاح مَنْ طابت أوصافهم منهنَّ فقال: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء].

• **ذوو الحياة الطيبة في الدنيا.** فقد قال الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل] والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة على أي جهة كانت؛ فقد قال العلماء في تفسيرها: "القناعة، والرزق الحلال والعبادة، والعمل بالطاعة، والانشراح بها..

ثالثاً: ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث.

وهذه في طبيعة التشريع الإسلامي؛ إذ ليس بعد الطيب إلا الخبيث، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم مُحَلَّلاً للطيبات ومُحَرِّماً للخبائث، فما تَمَّ عِنْدَنَا إِلَّا طيب حلال أو خبيث حرام؛ فقد قال جلَّ ذِكْرُهُ فِي وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف].

وَأَمَّا غَيْرُنَا فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بعض الطيبات عقوبة لهم بسبب بَغْيِهِمْ وظلمهم وأكلهم لأموال الناس بالباطل؛ فقال الله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء] وقال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام].

وعلى المؤمنين أن يعلموا "أن الله تعالى جعل من حكمة أفعاله في خلقه ما يميز به بين الخبيث والطيب؛ فقال تعالى في أحداث غزوة بدر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [٣٦] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال] ولأجل ذلك ينبغي على المؤمنين أن لا يغتروا بالخبيث وإن كان كثيراً ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْوَلِيُّ الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة] فحتى وإن أعجبك فلا تغتر به أو بكثرته!!.

دعاء:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران]

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ إذا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا) [أخرجه أحمد وابن ماجه].

فنسأل الله تعالى أن يُطَيِّبَ قُلُوبَنَا وَأَلْسِنَتَنَا وَجَوَارِحَنَا وَذُرِّيَّاتَنَا وَأَرْزَاقَنَا وَنِسَاءَنَا وَحَيَاتَنَا .. إنه سميع قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين

المتقون

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾

العناصر:

أولاً: التقوى؛ تعريفها، ومنزلتها.

ثانياً: أوصاف المتقين.

ثالثاً: أمور .. ننتقيها!!.

رابعاً: كيف نحقق تقوى الله عز وجل؟.

(الموضوع)

تعددت نصوص القرآن الكريم دلالة على أن جزاء المتقين الجنة؛ فقد جعلها الله تعالى كرامة لهم ومستقراً؛ فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد] ﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان] ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان]. ونصوص القرآن في ذلك كثيرة؛ فالمتقون موعودون بالجنة، وهي إرثٌ جعله الله لهم؛ ولهم فيها كذلك المقام الأمين؛ بل وجعل سبحانه وتعالى الآخرة كلها محصورة عليهم فقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. فهذه النصوص المتكاثرة تستوجب علينا وقفةً مع هذه الخصلة الحميدة والصفة الشريفة؛ في بيان كنهها ومكانتها ومنزلتها وأوصاف أصحابها.. وغير ذلك، وهذا في العناصر التالية:

أولاً: تعريفها، ومنزلتها ومكانتها.

التقوى: من مادة (وقى يقي وقاية)؛ والوقاية: «حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره»؛ وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَيبًا تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَيبًا تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل] فالله سبحانه وتعالى: «جعل لكم قمصانًا وثيابًا من القطن وغيره تدفع عنكم الحر والبرد، وجعل لكم دروعًا تقيكم بأس بعضكم في الحرب، فلا ينفذ السلاح إلى أجسامكم» وعلى ذلك: «فالتقوى في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات» - كما في مفردات الراغب الأصفهاني .. وقال ابن رجب رحمه الله تعالى: «أصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره .. وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه». وقد جاء في تعاريفها أقوال كثيرة لا تخرج عن هذا والله أعلم.

وأما منزلتها ومكانتها: فلها في الإسلام أعلى المنازل وأشرف الأماكن؛ فهي:

- **وصية الله للأولين والآخرين؛** فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء].

- **خير زاد يتزود به المرء:** ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة].

- **شرط قبول الأعمال؛** فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة].

- **الغاية من جميع العبادات؛** فقد قال تقدست أسماؤه في أول أمرٍ في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة].

- **وأهلها هم أولياء شعائر الله تعالى.** فهم أولياء البيت الحرام؛ فقد نفى الله تعالى ولاية المشركين للبيت الحرام إذ قد صدوا الناس عنه، وأثبتها للمؤمنين فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ

وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الأنفال﴾ وهم كذلك أولياء الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا؛ وحيث كانوا) [أخرجه أحمد].

- والمتقون هم الوفود المكرمون على الله عز وجل؛ فقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم].

ثانياً: أوصاف المتقين (1).

للمتقين أوصاف كثيرة؛ وسوف أقصر على بعض النصوص التي جمعت قدراً كبيراً منها؛ أمثال:

قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة].

فمن أوصافهم: «تحقيق أركان الإيمان - إنفاق الأموال في وجوه الخير بالزكوات والصدقات وغيرهما - الوفاء بالعهد - الصبر - الصدق»

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۚ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران]. فزادت هذه الآيات أوصافاً آخر؛ منها: «كظم

(1) أحب أن تذكر هذه الخصال سرداً؛ فكل خصلة منها تحتاج إلى لقاء بمفرده، وليس هذا مقصود اللقاء.

الغيظ - والعفو والصفح عن الناس - تحقيق مقام الإحسان - وإذا ما وقعوا في معصية عادوا مُسرعين إلى الله فلم يُصروا على معصية».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ ١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ ١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ ١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝﴾ [الذاريات]. وكذلك زادت هذه الآيات أوصافاً إضافة إلى ما سبق ؛ أنهم: «يُلازمون قِيَامَ اللَّيْلِ، يَسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ، يُؤَدُّونَ الْحَقَّ إِلَى أَهْلِهَا».

ثالثاً: أمور .. نتقيها!!.

وطالما أن التقوى - كما سبق بيانه - هي حفظ الإنسان نفسه عن ما يكون سبباً في هلاكها في الدين والدنيا؛ فقد وردت نصوص شرعية توضّح جملة من الأمور التي ينبغي أن نحذرها ونتقيها؛ ومنها:

1 - النار. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) [أخرجه البخاري].

2 - يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة] وهي آخر آيات القرآن نزولاً!.

3 - الدنيا والنساء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ. وفي رواية: لَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ). [أخرجه مسلم].

4 - الشُّبُهَات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ) (أخرجه البخاري).

5 - الظُّلْمُ وَالشُّحُّ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ) [أخرجه مسلم]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر، التغابن]

6 - الأَرْحَامُ. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء]. أي: واتقوا قُطْعَ الأرحام التي تربط بينكم فلا تقطعوها.

7 - الْفِتْنَةُ الْعَامَّةُ. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال] فهي مِحْنَةٌ لَا يُخَصُّ بِهَا أَهْلُ الْمَعَاصِي وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ فَحَسَبَ، بَلْ تُصِيبُ الصَّالِحِينَ مَعَهُمْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ!!.

8 - وَأَخِيرًا .. بَلْ هُوَ الْأَوَّلُ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] فالله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر]. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ، وَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَغْفَرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ. قَالَهُ قَتَادَةُ».

رابعاً: كيف نحقق تقوى الله عز وجل؟.

نحققها بأمور؛ من أهمها:

1 - الْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. قال الله عز وجل: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوْنَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة].

2 - تحقيق معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى. فإذا تعبد العبد لربه بهذه الأسماء دعاءً وتوسلاً وإحصاءً وعمل بمقتضاها قذف ذلك - ولابد - تقوى الله في قلبه. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [ثلاثتها بالبقرة] وغيرها الكثير والكثير.

3 - العلم بكتابة أعمالنا وإحصائها علينا. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة] وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار].

4 - نقدُ الله تعالى حقَّ قدره. فكلما عظم الإنسان ربه حقَّ التعظيم والتقدير كلما كان الله أنقى؛ وعلى طاعته أخرى، وعن معصيته أبعد وأنقى. فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُخَشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا﴾ [فاطر]. ولكن كثيراً ممن قلَّتْ خشيتهم لله تعالى بجهلهم واغترارهم؛ قد جعلوا الله تعالى أهون الناظرين إليهم فاستخفوا من الناس بقبائحهم بينما بارزوا الله عز وجل بها.

أحبابي دائماً هذا الدعاء على ألسنتنا: (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا) [أخرجه مسلم].

والحمد لله رب العالمين

المؤمنون

العناصر:

مقدمة.

أولاً: تعريف الإيمان (تعريفه، وأوصافه، والفرق بينه وبين الإسلام، وزيادته ونقصانه..).

ثانياً: أوصاف المؤمنين (المتعدية واللازمة).

ثالثاً: شرطية الإيمان في قبول الأعمال.

رابعاً: تحريم الجنة على غير المؤمنين.

الموضوع

تعددت نصوص الوحي الكريم بالدلالة على أن للجنة أصحاباً اختصهم الله تعالى بها ولها؛ وهم المؤمنون، فقال جلّ ذكره وتقدّست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود]، وكذلك ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين وفلاحهم وأوصافهم؛ ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١١ الذين يرثون ألفردوس هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون]. وإذا كان الأمر بهذه المثابة وبهذه الدرجة فلا بد من معرفة الأمور التي تتعلق بالإيمان؛ من حيث: تعريفه، وما يترتب عليه والأوصاف الدالة على إيمان أصحابها، وأثر الإيمان في قبول الأعمال وغير ذلك من الأمور. وهاك هي:

أولاً: تعريف الإيمان.

عندما سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان في حديث جبريل عليه السلام؛ أجاب بقوله: (الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره). (أخرجه مسلم). وعرفه علماء السلف بقولهم: (الإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان) وعلى ذلك: "قال المعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح" كما قاله الإمام النووي في شرحه على مسلم.

- له أركان: والمقصود بها إمّا هذه الأركان أو الوسائل التي يتأتى بها؛ وهي: (القلب واللسان والجوارح)، أو أمّا الأركان التي توضح شكله وماهيته؛ فهي الستة السابقة في حديث جبريل عليه السلام.

- له محلّ يسكنه: ألا وهو القلب. قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مَظْمُونٌ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل] وقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات] وقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة]. وحديث جبير بن مطعم: (سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم: يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي) (أخرجه البخاري)

- له شعبٌ ومراتب تتفاضل فيما بينها. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضغّ وسبعون، أو بضغّ وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) [أخرجه مسلم].

- له طعم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا) [أخرجه مسلم].

- له حلاوة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ) [أخرجه البخاري].

- له آيات ودلائل: وهي كثيرة؛ إذ ما من عملٍ من أعمال الإسلام العظام إلا وهو علامة من علامات صدقه في قلوب العباد؛ منها: حبُّ الصحابة رضي الله عنهم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ) [أخرجه البخاري].

- ويُنزع عن صاحبه ويعود إليه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ. قَالَ عِكْرِمَةُ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: كَيْفَ يُنْزَعُ الْإِيمَانُ مِنْهُ؟ قَالَ: هَكَذَا؛ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا، فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) [أخرجه البخاري] ويُفسر هذا الحديث أكثر روايةً أبي داود: (إذا زنى الرجل خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ، كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ). والذي نُزِعَ عنه في تلك الحالة هو كمال الإيمان فأصحاب الكبائر معهم أصله؛ إلا إذا استحلوا فيكفرون باستحلالهم.

- ويزيد وينقص: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال] وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) [أخرجه أبو داود].

- **يَخْلُق وَيَتَجَدَّد:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ) [أخرجه الطبراني والحاكم].

- **الفرق بينه وبين الإسلام:** الإسلام له الأعمال الظاهرة من الصلاة والصيام والزكاة والحج وقبل ذلك الشهادتين، وأما الإيمان فله الأعمال الباطنة وأساسها الأركان الستة السابق ذكرها؛ وهذا الفرق عند اجتماعهما في مكان واحد من النصوص الشرعية كقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات]، وأما عند انفراد أحدهما عن الآخر فالواحد منهما يشمل الاثنين معاً مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران]. فهذه الآية تشمل عمل الظاهر وعمل الباطن.

ثانياً: أوصاف المؤمنين. أوصاف أهل الإيمان كثيرة منها:

1 - **يظنون بإخوانهم خيراً** قال الله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظن بها سوءاً، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجاً) [الآداب الشرعية لابن مفلح].

2 - **ومنها قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال].

3 - **ومنها:** ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة].

4 - **ومنها:** ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة].

5 - ومنها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر].

6- يُحِبُّونَ لِإِخْوَانِهِمْ مَا يُحِبُّونَهُ لَأَنْفُسِهِمْ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) [أخرجه البخاري].

7 - ومنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَاقِهِ) [أخرجه البخاري].

8- ومنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) [أخرجه البخاري].

9- ومنها: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا) [أخرجه أبو داود].

(فالظنُّ الحسن بإخوانهم، ووجل القلب عند سماع الذكر، والتوكل على الله تعالى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومُؤلاة المؤمنين ومحبتهم كمحبة نفوسهم، ومُعادة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقربين لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، وخلو قلوبهم من الغل والضغينة للمؤمنين) ومنها: (عدم إيذاء جيرانهم، وإكرام ضيوفهم، والكلام بالخير إذا ما ترجحت مصلحة الكلام؛ وإلا فالصمت، وحسن أخلاقهم إذ كمال إيمانهم بهذا .. (1) وغيرها الكثير والكثير.

(1) وأحبُّ للداعية أن يَسْرُدَ هذه الآيات والأحاديث سرداً.. ثم يعلق عليها إجمالاً.. وإلا فكل صفة تستدعي في مجال الوعظ والتذكير لقاءات وليس لقاءً...!!

ثالثاً: شرطية الإيمان في قبول الأعمال.

لابد للعمل من شروط حتى يُقبل؛ منها: الإخلاص لله تعالى ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، وقبلهما: إيمان في قلب العبد بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً. وإلا فأعماله كلها ليس لها وزن في الآخرة؛ ولو كانت في أعلى درجات الصلاح!!.

وهذا الشرط جاء صريحا في كتاب الله تعالى في مواطن كثيرة؛ منها: قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ١٢ ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ ١٣ ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ١٤ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ١٥ ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد] بل جاء حبوط العمل عن المشركين بسبب شركهم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر].

عن عائشة رضي الله عنها: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمَسْكِينِ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [أخرجه مسلم]. وهذا في إطعام الطعام وصلة الأرحام.

وحتى لو كان العمل هو "الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم!!!! فأبو طالب خالداً مخلداً في النار؛ فلم ينفعه دفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا في تخفيف عذابه فقط لا في نجاته. فقد مات كافراً. وهذه مسألة كبرى لمن فقهها.

رابعاً: تحريم الجنة على غير المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ يهوديٍّ، ولا نصرانيٍّ، ثم يموتُ ولم يؤمنِ بالَّذي أُرسلْتُ به، إلَّا كانَ من أصحابِ النَّارِ) [أخرجه مسلم].

دعاء:

عبد الله بن مسعود: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةً النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ، جَنَّةِ الْخُلْدِ) [أخرجه أحمد في المسند].

عن عبد الله بن عمرو: (إِنَّ الْإِيْمَانَ لَيَخْلُقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ .. فَاسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى: أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيْمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ) [صحيح الجامع: الألباني].

ومن الأدعية القرآنية: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيْمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران].

ومن دعاء المؤمنين لبعضهم البعض: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد] و ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح].

وفي الختام (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْتَرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) أخرجه الترمذي.

فَاللَّهُمَّ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ .. آمين.

المعرضون عن اللغو

العناصر:

أولاً: مقدمة وتعريف للغو.

ثانياً: من صفات المؤمنين.

ثالثاً: مجالس اللغو حتى نبتعد عنها.

رابعاً: البديل.

الموضوع

أولاً: مقدمة وتعريف للغو.

وصف الله تعالى الوارثين جنات النعيم بأوصاف كثيرة؛ وكلها أوصاف شريفة عالية، ومنها هذا الوصف (عن اللغو معرضون)؛ فهم بعيدون كل البعد عن اللغو وعن مظاهره؛ فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون] وقال سبحانه في صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان] وجعل كذلك من صفات المسلمين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص] بل جعل الله تعالى من مظاهر النعيم لهم في الجنة أنهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة] وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ [النبا]. فإذا كان المسلمون والمؤمنون وعباد الرحمن بعيدين عن اللغو وعن مظاهره، بل وجعل الله تعالى لهم في الجنة مظهراً من مظاهر نعيمهم فيها أنهم لا يسمعون فيها لغوا ولا كذاباً بل ولا تأثيماً فأذاً في منأى عنه دنيا وآخره. فما هو هذا اللغو؟!

اللغو: قال أبو جعفر بن جرير الطبري بعد ذكر عدد من الأقوال في تفسير موضع سورة الفرقان: « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مرّوا كراما، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح؛ فسبُّ الإنسانِ الإنسانَ بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو. وذكرُ النكاح بصريح اسمه مما يُستقبح في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو،.. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وإذا مرّوا بالباطل فسمعوه أو رأوه، مرّوا كراما، مرورهم كراما في بعض ذلك بأن لا يسمعوه، وذلك كالغناء. وفي بعض ذلك بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أودوا بإسماع القبيح من القول، وفي بعضه بأن يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأن يروا من المنكر ما يغير بالقول فيغيروه بالقول. وفي بعضه بأن يضاربوا عليه بالسيوف، وذلك بأن يروا قوما يقطعون الطريق على قوم، فيستصرخهم المراد ذلك منهم، فيصرخونهم، وكلّ ذلك مرورهم كراما».

ثانياً: من صفات المؤمنين.

من صفات المؤمنين أنهم يصونون ألسنتهم وآذانهم وجوارحهم عن أي مظهر من مظاهر اللغو؛ بل يسعون جاهدين في تخليص عباداتهم ومعاملاتهم منه؛ فمثلاً:

صلاة الجمعة: من شروط تحصيل كامل ثوابها؛ أن تبتعد عن اللغو؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا قُلْتُمْ لِصَاحِبِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَتَيْتُ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ) (أخرجه البخاري)؛ بل جاء في فضائلها فضلٌ لم يُعهد مثله في نصوص الشرع!!، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من غَسَلَ وَاغْتَسَلَ، وَغَدَا وَابْتَكَّرَ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ، وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلٌ سَنَةٍ؛ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا)!! [أخرجه النسائي].

وفي الصيام وزكاة الفطر: (عن ابن عباسٍ قال فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائمين من اللغو والرفث وطعمة للمساكين من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات) (أخرجه أبو داود).

وفي التجارة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن هذه السوق يُخالطها اللغو والكذب، فشوبوها بالصدقة) [أخرجه النسائي].

وفي تطهير مجالسهم مما قد يشوبها من اللغو واللغو؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك) [أخرجه الترمذي].

وفي وصفٍ عامٍ للمؤمن؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء) [أخرجه الترمذي].

ومن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطول الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمساكين، فيقضي له الحاجة) [أخرجه النسائي].

ثالثاً: مجالس اللغو حتى نبتعد عنها.

من مجالس اللغو التي ينبغي على المسلم أن يجتنبها؛ هذه المجالس:

- **المجالس التي فيها الاستهزاء بآيات الله وشرائعه ودينه.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء]. وقد قال الله تعالى عن أبي الأنبياء: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ ﴿مريم﴾ وهذا الاعتزال ضروري للمسلم حتى لا يُكثّر سوادهم أو يُصاب بما أصيبوا به من الكفر والضلال أو البدعة.

• **المجالس التي تصرف الناس عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.** لأن من أوصاف الكافرين أنهم يتواصون باللغو في آيات الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت] وهذا اللغو له صور متعددة؛ تختلف باختلاف زمانها ومكانها، قديماً وحديثاً: بالتلفيق والتدليس والتشويش والتهميش والكذب على أهل الدين وعلى القائمين بخدمته. بل كان من الأسباب الرئيسة التي أوردتهم جهنم؛ فقد قال تعالى عنهم: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ ۝٤٤ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ۖ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۖ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۖ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْيَمُوكِّذِينَ ۖ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۖ ۝١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۖ ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المدثر].

• **مجالس الغيبة والنميمة والكذب والزور والبهتان.** لأن جلوسك فيها إقرار منك على نفسك بمشاركتهم فيما هم عليه. فإما أن تمتثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم القائل فيه: (من ذبَّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يُعْتَقَهُ من النَّارِ) [أخرجه أحمد]. أو تفارق ذلك المجلس؛ قال الإمام النووي: «اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردّها ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان، فارق ذلك المجلس، فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممّن له عليه حقّ، أو كان من أهل الفضل والصّلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر».

• **مجالس الفسق والفجور بكل أشكالها.** كتلك المجالس التي فيها إشاعة المنكرات وكشف العورات والتعدّي على المحرمات. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام].

رابعاً: البديل.

البديل؛ إما أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعقبة بن عامر لمّا قال: (قلتُ يا رسول الله ما النّجاةُ قال أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسَعَكْ بِيَتِّكَ، وابكِ على خطيئَتِكَ) [أخرجه الترمذي]. وإما أن يكون باستبدالها بالمجالس النافعة؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَرُسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) [أخرجه مسلم].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]. فلا خير إلا في هذه. وما سواه فهو على الإنسان. وليس له.

وهذا هو البديل لمن أراد السبيل .. والله أعلم.

المحافظون على الصلاة

العناصر:

أولاً: منزلة الصلاة من الدين.

ثانياً: في المحافظة عليها.

ثالثاً: استهانة الناس بها.

رابعاً: حكم تاركها.

(الموضوع)

المقدمة:

من أبرز صفات وارثي جنات النعيم؛ أنهم يُحافظون على صلواتهم فلا يُضيعونها؛ بل ولا يُؤخرونها عن أوقاتها، فهي الصلّة التي تربطهم بمعبودهم، وهي اللقاء الذي يُعدّون له العدة للقاء محبوبهم، وهي التي يستروحون فيها ويستظلون بها في أسفار غربتهم في تلك الحياة.

وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على دخول المصلّين الجنة وأنهم أهلها؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صلّى البردين دخل الجنة) [أخرجه البخاري]، وقال أيضاً: (من غدا إلى المسجد وراح، أعد الله له نُزُلَهُ من الجنة كلّما غدا أو راح) [أخرجه البخاري]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يكون رفيقه في الجنة: (فأعني على نفسك بكثرة السجود) [أخرجه مسلم]. وقال أيضاً: (خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهنّ، ولم يضيع منهنّ شيئاً استخفافاً بحقهنّ؛ كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهنّ، فليس له عند الله عهد؛ إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة) [أخرجه أبو داود].

فهذه النصوص وغيرها الكثير .. والكثير؛ تدل على أن الصلاة من أعظم الأسباب الموجبة لدخول الجنة، وهذا يجعلنا في حاجة ماسة إلى بيان منزلتها وأهمية المحافظة عليها وخطورة الاستهانة بها، وحكم تاركها. فأقول مُستعينا بالله:

أولاً: منزلة الصلاة من الدين.

للصلاة في ديننا منزلة عظيمة؛ فلقد افتتح الله تعالى أعمال الفالحين وختمها بالصلاة؛ فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون] وجعلها كذلك من أوصاف الراسخين في العلم؛ فقال جلّ ذكره: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]. فالصلاة:

أ - ركنٌ من أركان الإسلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) [أخرجه البخاري].

ب - عمود الإسلام. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنهما: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَدُرَّةِ سَنَامِهِ؟) قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: (رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَدُرَّةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ) [أخرجه الترمذي].

ج - أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ، قَالَ: يَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: انظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَةً، وَإِنْ كَانَ انتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالَ: انظُرُوا، هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَتَمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ. ثُمَّ تَوَخَّذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكِمٍ) [أخرجه أبو داود].

هـ - آخر عرى الإسلام نقضاً. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، فَكَلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالتِّي تَلِيهَا، فَأُولَهُنَّ نَقَضَ الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ) [أخرجه أحمد].

و - أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ فقد قال عبد الله بن مسعود: (سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: بَرُّ الْوَالِدَيْنِ قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَرَدَّيْنِي لَرَأَيْتَنِي) [أخرجه البخاري].

ز - ولعلو منزلتها ورفعة شأنها؛ جعل الله تعالى لها من الفضائل والآثار ما يكون سببا قويا ودافعا للمحافظة عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ) [أخرجه مسلم]. وقال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا) [أخرجه مسلم]. وقال معدان بن أبي طلحة اليعمرى: (لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ، فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ النَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ) [أخرجه مسلم]. وفيه أيضاً: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ) [صحيح مسلم]. ومن ذلك؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ صَلَّى اللَّهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ، يَدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى، كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ) [أخرجه الترمذي].

ثانياً: في المحافظة عليها.

من الأوصاف التي أثنى الله تعالى بها على عباده وارثي جنات النعيم؛ وصف المحافظة على الصلاة - إضافة على ما سبق -؛ فقال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة]

فالأمر بالمحافظة عليها عموماً؛ ثم الوسطى خصوصاً، حتى وإن كان في وقت حرب وخوف!! فكيف نكون محافظين عليها أو كيف نحقق هذا الوصف الشريف؟.

بداية .. لابد من استحضار بعض الأمور التي تُعين على ذلك؛ مثل:

- استحضار الوعيد الشديد لمن تهاون بها فأخراها عن أوقاتها؛ فقال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٢) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لقد هممتُ أن أمر بحطِّبٍ، فيُحطَّب، ثُمَّ أمر بالصلاة، فيؤذَّن لها، ثُمَّ أمر رجلاً فيؤمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أخالف إلى رجالٍ، فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدُهم، أنه يجد عرقاً سميئاً، أو مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لشَهِدَ العِشاءَ) [أخرجه البخاري]. وهذا لأنهم لا يشهدون الصلاة ولا يحافظون عليها؛ وفي رواية البخاري الأخرى: (ثُمَّ أخالف إلى منازل قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم).

- وصف النفاق ملازمٌ للمتكاسلين عن إقامتها في أوقاتها: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء]، وقال عبد الله بن مسعود: (لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عَلِمَ نِفَاقَهُ، أَوْ مَرِيضٌ، إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةَ، وَقَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَنَا سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنْ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤذَّنُ فِيهِ) [أخرجه مسلم].

أما عن كيفية تحقيق المحافظة عليها؛ فذلك أمور وخطوات تُتَّبَع:

- اشتغال القلب بالهمم الأخروي؛ وتعلُّقه بالمساجد وكأنه قنديلٌ من قناديلها الذي يستمدُّ وقوده منها، فهو المُنتفع بها وليست هي.
- التعاون على البرِّ والتقوى؛ ومن ذلك الاستعانة بالأتقياء الأنقياء الذين اتخذوا المساجد بيوتاً يأوون إليها ويأمنون بها. فبأي صورة من صور التعاون على أداء الصلاة في أوقاتها (كالهاتف مثلاً).
- استخدام الوسائل الحديثة في الاستيقاظ؛ كالمنبّهات التي لا يخلو منها بيت.
- النوم على طهارة؛ والمحافظة على أذكار النوم.

3 - استهانة الناس بها:

لهذه الاستهانة صورٌ كثيرة عند الناس؛ منها: تأخيرها عن أوقاتها، جمعها مع بعضها بغير سبب، وكتضييع بعضها فيمُر عليه اليوم أو الأيام ولا يُصلى بعض الفرائض، وكادِّعاء الكثير بأن المصلِّين هم الذين لا يقومون بالأعمال من أصحاب المعاشات أو كبار السنِّ وأما غيرهم فلا حرج عليهم إذ هم أصحاب المهام! .. ومن صورها كذلك: خلّوها من الشباب وممن هم دون الخمسين من أعمارهم.

وهذه صورةٌ من الصور التي يجب استحضارها في هذا المكان؛ وهي ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة]. فعن جابر رضي الله عنه قال: (أَقْبَلْتُ عِيرٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَّارَ النَّاسِ إِلَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: "وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا")، (أخرجه البخاري). فيجب على العبد أن يوقن بقضية الرزق وأنها من عند الله، الذي هو خير الرازقين. فلا ينشغلن أحد عن الصلاة بتحصيل رزقه.

ومن كتاب "لماذا نصلي؟": «قال حاتم الأصم: مصيبة الدين أعظم من مصيبة الدنيا، ولقد ماتت لي بنت فعزاني أكثر من عشرة آلاف، وفاتتني صلاة الجماعة فلم يُعزني أحد!».

فهو ينقِمُ على الناس قلةَ اعترافهم بالصلاة، وكان منهم من يبكي عندما تفوته تكبيرة الإحرام مع الجماعة. ومنهم: من كان يمرض إذا فاتته الصلاة مع الجماعة، ومنهم: من قارب التسعين من عمره ولم يصل الفريضة منفرداً إلا مرتين، ويقول: وكأني لم أصلهما. ومنهم: من لم تفته صلاة الجماعة أربعين سنة إلا مرة واحدة حين ماتت والدته واشتغل بتجهيزها.

وهذا سعيد بن المسيب يقول فيه تلميذه أبو وداعة: لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد. وهذا سليمان بن مهران الأعمش يقول فيه وكيع بن الجراح: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى».

4 - حكم تاركها:

تارك الصلاة إما أن يتركها جاحداً وجوبها وفرضيتها فهذا كافر مرتد بإجماع المسلمين.

أما التارك لها كسلاً فهو على خلاف بين العلماء؛ إما: (إنه فاسقٌ عاص مرتكبٌ لكبيرة من الكبائر وليس بكافر)، وإما أنه: (كافر خارج عن ملة الإسلام).

ولا أحب أن نخوض التفاصيل التي خاضها العلماء لترجيح قول على آخر؛ وإنما أقول لتارك الصلاة بعض الأحاديث التي تكلم بها النبي صلى الله عليه وسلم لعلها أن تحرك في نفسه ساكناً؛ فلقد عليه الصلاة والسلام:

- (إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرَكَ الصَّلَاةِ) [أخرجه مسلم].

- (العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) [أخرجه الترمذي].

- (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ) [أخرجه البخاري].

فهذه مقومات وعلامات للمسلم؛ فمن لم يأت بها فليس من أهل الإسلام. وقد علق الله سبحانه وتعالى أخوة الدين على أمور؛ وهي في قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة].

وأختم بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩) فِي جَنَّتِ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر]. فما سلكوا سقر إلا بأمور منها (لم نك من المصلين)

فاللهم اجعلنا من المحافظين عليها، القائمين بها وعليها .. اللهم آمين.

والحمد لله رب العالمين

الخشعون في الصلاة

العناصر:

أولاً: الخشوع: (ماهيته، وآلاته، وأوصاف الخاشعين).

ثانياً: أهمية الخشوع في الصلاة.

ثالثاً: الأسباب المعينة على الخشوع.

رابعاً: نماذج للخاشعين في صلاتهم.

الموضوع

أولاً - الخشوع: (ماهيته، وآلاته، وأوصاف الخاشعين).

قد وصف الله تعالى الذين يستحقون الإرث الأخروي بدخول الجنة؛ بأنهم في صلاتهم خاشعون؛ فقال جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢... أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝٣﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون]، وجعل سبحانه وتعالى أمر الصبر والصلاة كبيراً إلا على الخاشعين فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة] والخاشعون كذلك لا يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۝١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران]، ووصف الخشوع كذلك من أوصاف الأنبياء: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء]. وكذلك فالخشعون أعداء الله لهم مغفرة وأجر عظيم: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

وَالْخُشَعَتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿الأحزاب﴾.

فالشعور .. وصف من الأوصاف التي ينبغي على المسلم أن يسعى في تحقيقها والاتصاف بها؛
فهو وصف للأنبياء وأتباعهم. وعلى ذلك فما هو؟

قال ابن جزي في التفسير: «الشعور حالة في القلب من الخوف والمراقبة والتذلل لعظمة المولى
جل جلاله، ثم يظهر أثر ذلك على الجوارح بالسكون، والإقبال على الصلاة، وعدم الالتفات والبكاء
والتضرع... والصواب: أنه أمر زائد على حضور القلب، فقد يحضر القلب ولا يخشع». كمن يحضر
الصلاة بجسده وينشغل عنها بعقله وقلبه؛ فكذا قد يحضر القلب ولا يخشع.

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم يرى أن الشعور له آلات وأعضاء يقوم بها ويظهر عليها؛ فالقلب
هو المحل الذي يسكنه الشعور فإذا سكنه ظهرت آثاره على الجوارح كما مرَّ في التعريف؛ وقد قال
الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد]، وإذا خشع
القلب تبعته الجوارح كلها؛ وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِذَا رَكَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ،
وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي وَعَصْبِي) [أخرجه مسلم].

وإذا كان الشعور ينتج عنه حالة من الخوف والهلع والتذلل؛ فليس هناك مقام هو أولى بهذه
الأوصاف من مقام القيامة وعرصاتها، فقد قال تعالى عن حالة القلوب يومئذ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ
أَبْصَرُهَا خَشَعَةٌ﴾ [النازعات] وأما عن خشوع الصوت فيها: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ^ص
وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه]. ويكون كذلك في البصر: ﴿خَشَعَتِ أَبْصَارُهُمْ
تَرَهْقُهُمْ ذُلًّا وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم] ويكون كذلك في الوجوه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
خَشَعَةٌ﴾ [الغاشية] وفي الحالة العامة كلها؛ قال جل ذكره عن قوم: ﴿وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

خَشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿الشورى﴾.

وأريدك أن تستحضر معي خشوع الجوارح وانكسارها وتذلّلها في عرصات القيامة؛ فلا تنظر هذه الأعين إلى عورة من العورات المُنكشفة بل ولا تُهمهم في نفوسها بالحديث عن ذلك؛ فالأمر جلّ، والخطب عظيم. ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْءَدَتْهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم].

وإذا كان الخشوع بهذه المثابة؛ من حيث المعنى والآلة؛ فما هو الخشوع الذي نريده في الصلاة وما أهميته.

ثانياً - أهمية الخشوع في الصلاة.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما من امرئٍ مُسلمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُوْتِ كَبِيرَةً وذلك الدَّهْرُ كُلُّهُ). [أخرجه مسلم]. وقال رسول الله أيضاً: (إنَّ الرجلَ لَيَنْصَرِفُ وما كُتِبَ له إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدْسُهَا، خُمُسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا) [أخرجه أبو داود].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لجبير بن نفيّر: (إن شئت لأحدثتك بأوّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؛ الْخُشُوعُ: يَوْشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا) [أخرجه الترمذي]. وليس في هذه الرؤية إشكال؛ فإذا ما خشع القلبُ سكنتِ الجوارحُ واطمأنت فيظهر أثر خشوعه على جوارحه فيصيحُ ساعتها أن نصف رجلاً بالخشوع، وقد جاء عن الصحابة أنهم وصفوا رجلاً بقولهم (فَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ الْخُشُوعِ، فَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ..) [أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن سلام]

ولأهمية الخشوع في الصلاة واستحضار معانيها كانت هناك أوصاف وأفعال نهى عنها الشارع الحكيم وندّم فاعليها؛ أمثال:

- التكاثر في أداء الصلاة وإقامتها وعدم الإقبال عليها إقبال المحب؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء].

- زخرفة المساجد وتشبيدها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ)، وقال ابن عباس: لَتَزَخَرِفُنَّهَا كَمَا زَخَرِفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى [أخرجه أبو داود]. وقد (قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي خَمِيصَةٍ ذَاتِ أَعْلَامٍ، فَنَظَرَ إِلَى عِلْمِهَا، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ: اذْهَبُوا بِهِذِهِ الْخَمِيصَةِ إِلَى أَبِي جَهْمِ بْنِ حُدَيْفَةَ، وَاتُّنُونِي بِأَنْبِجَانِيٍّ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي أَنَا فِي صَلَاتِي) [أخرجه مسلم]. فهي سبب للإلهاء في الصلاة.

- التشويش بالقراءة على المصلين. وعن أبي سعيد قال اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال: (أَلَا إِنَّ كَلَّكُمْ مُنَاجِ رَبِّهِ فَلَا يُوْذِنَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَلَا يَرْفَعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ أَوْ قَالَ فِي الصَّلَاةِ) [أخرجه أبو داود].

- عدم الاطمئنان في أدائها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَفْرَةِ الْغُرَابِ، وَافْتِرَاشِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوطَّنُ الْبَعِيرُ) [أخرجه أبو داود]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْفُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَقَرَّهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) [أخرجه مسلم].

- عند حضور الطعام وانشغال القلب بالأمر الضروري. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ) [أخرجه مسلم].

ثالثاً - الأسباب المعينة على الخشوع.

الأسباب المعينة على تحقيق الخشوع في الصلاة كثيرة؛ منها على سبيل المثال:

- استحضر معنى (لا يُكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) وقد سبق الحديث.
- استشعار الحوار الإلهي في سورة الفاتحة؛ فقد: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ) [أخرجه مسلم]. وكذلك استحضر: (إقبال الله عز وجل عليك؛ فلا تصرفن وجهك ووجهتك عنه سبحانه وتعالى)
- تنوع الآيات المقرؤة في الصلاة؛ فلا يقتصر على سور بعينها يكررها كل صلاة، ومحاولة التفهيم لمعانيها.
- المحافظة على السنن الرواتب؛ لا سيما السنن القبلية للصلوات فإنها تؤهلك لاستحضار الخشوع في الصلاة.
- الدعاء؛ فهو الباب الذي لا يُغلق. فعلينا بدعاء الله تعالى. وأن يجعلنا من الخاشعين في صلواتهم ونُكرر ونُلح على الله تعالى بذلك؛ فنسأله الخشوع في الصلاة ونستعيز به من قلب لا يخشع، وكذلك نستعيز به من خشوع المنافقين؛ وقد قال ابن القيم: «وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو حذيفة، يقول: إياكم وخشوع النفاق، فقليل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع، ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب، ورأت عائشة رضي الله عنها شبابا يمشون ويتمارون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطمع أشبع، وكان هو الناسك حقا، وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه، وقال حذيفة رضي الله عنه: أول ما

تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً، وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان».

رابعاً - نماذج للخاشعين في صلاتهم.

للصالحين مع الصلاة في صلواتهم أحوال ينبغي علينا أن نقف معها وقفات طوال؛ فذكر أخبارهم وعباداتهم يُعطي النفس وقوداً يستعين به بعد الله تعالى على تغيير أحواله من السيء إلى الحسن ومنه إلى الأحسن:

— فهذا عروة بن الزبير قد دبَّ المرض في رجله: «فأجمعوا على أن العلاج الوحيد هو قطعها قبل أن يسري المرض إلى الرجل كلها حتى الورك، وربما أكلت الجسم كله، فوافق عروة بعد لأيٍ على أن تُنشر رجله، وعرض عليه الأطباء إسقائه مُرَقِّداً؛ حتى يغيب عن وعيه فلا يشعر بالألم، فرفض عروة ذلك بشدة قائلاً: لا والله، ما كنت أظن أحداً يشرب شراباً، أو يأكل شيئاً يذهب عقله، ولكن إن كنتم لا بُدَّ فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة؛ فإني لا أحس بذلك ولا أشعر به، فقطعوا رجله من فوق الأكلة من المكان الحي؛ احتياطاً أن لا يبقى منها شيء، وهو قائم يصلي، فما تضرَّ ولا اختلج»

- وهذا أخوه عبد الله بن الزبير: «وقال عمر بن عبد العزيز يوماً لابن أبي مليكة: صف لنا عبد الله بن الزبير. فقال: والله ما رأيت جلداً قط رُكب على لحم، ولا لحماً على عصب، ولا عصباً على عظم مثله، ولا رأيت نفساً ركبت بين جنبيين مثل نفسه، ولقد مرت آجرة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره، فو الله ما جشع ولا قطع لها قراءته، ولا ركع دون ما كان يركع، وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها، ولقد كان يركع فيكاد يقع الرخم على ظهره، ويسجد فكأنه ثوب مطروح .. وروي أن ابن الزبير كان يوماً يصلي فسقطت حية من السقف تطوقت على بطن

ابنه هاشم، فصرخ النسوة، وانزعج أهل المنزل، واجتمعوا على قتل تلك الحية، فقتلوا وسَلِمَ الولدُ. فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت، ولا درى بما جرى لابنه حتى سَلِمَ».

وهذا مُسلم بن يسار رحمه الله تعالى: «قال عنه ابنه عبد الله بن مسلم: كان إذا صَلَّى كأنه ودٌّ [أي: وتد] لا يميل لا هكذا، ولا هكذا.

وقيل عنه: كان مسلم بن يسار إذا صَلَّى كأنه ثوب مُلقى، وكان يقول لأهله إذا دخل في الصلاة: **تَحَدَّثُوا فَلَسْتُ أَسْمَعُ حَدِيثَكُمْ**، وذُكر أنه وقع حريق في داره وهو يصلي، فلما ذُكِرَ له قال: ما شعرتُ».

وهذه النماذج قليلة والخاشعون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرون.

وهنا أقول: أين نحن من هذه النماذج؟. أين مَنْ: «يعبثون بثيابهم في الصلاة، ويعبثون بأصابعهم وأيديهم وأرجلهم، وهواتفهم، أين من ينشغلون بكل شيء في الصلاة ولا يُشغلون بالصلاة عن كل شيء؟ أين هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء...»

أحبابي: أول ما يحاسبُ به العبدُ يومَ القيامةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ، صَلَحَ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا.

آمين.

المؤدّون الزكاة

العناصر:

مُقدّمة.

أولاً: منزلة الزكاة من الدين.

ثانياً: من فضائل الزكاة.

ثالثاً: عقوبات مانعي الزكاة.

(الموضوع)

تعددت نصوص الكتاب والسنة في بيان وصفٍ من أوصاف أهل الجنة؛ وهو: (أداؤهم للحق الواجب عليهم في أموالهم من الزكوات وكذلك الصدقات)؛ فمن هذه النصوص:

قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون]. وفي وصف المصلّين يقول جلّ ذكره: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ ٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج]. وفي وصف المتّقين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّةٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٥ ءَاخِذِينَ مَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿[الذاريات]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خمسٌ مَن جاءَ بهنَّ مع إيمانٍ؛ دخل الجنة: من حافظَ على الصَّلواتِ الخمسِ: على وضوئهنَّ وركوعهنَّ وسجودهنَّ ومواقيتهنَّ، وصامَ رمضان، وحجَّ البيتَ إن استطاعَ إليه سبيلاً، وأعطى الزَّكاةَ طيبةً بها نفسه) [أخرجه أبو داود]. فلا بد في تحقيق هذا الثواب من العمل الذي يجيء مع الإيمان.

2 - منزلة الزكاة من الدين:

أ - هي من الوصايا الربانية للأنبياء والمرسلين؛ فقد قال الله تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم] وعن عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم].

ب - من مقتضيات أخوة الدين؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة]. ولأجل هذه الأخوة الدينية كان مانعها معرضاً نفسه للقتال من الإمام وولي الأمر؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) [أخرجه مسلم].

وقد طبّق هذا الأمر الخليفة الأول والصدّيق الأكبر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضي الله عنه في حروب المرتدين مانعي الزكاة فذ: (لَمَّا تُوفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤْثِرُونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا قَالَ عُمَرُ: فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ) [أخرجه البخاري].

ج - ركن من أركان الإسلام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ). [أخرجه البخاري].

د - أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْعَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهَا؛ فَقَالَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ: (بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ). [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ].

3 - من فضائل الزكاة:

- كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَتَهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ لِأَهْلِهَا؛ فَقَالَ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف].

- أَنْ اللَّهُ يُطَهِّرَ بِهَا صَاحِبَهَا؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَلِّلاً تَحْرِيمَ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّهَا لَا تَجِلُ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ].

- دَلِيلٌ وَبِرْهَانٌ عَلَى صَدَقِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعَ نَفْسِهِ فَمَعْنَقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ].

- تُسَاهِمُ فِي عِلَاجِ الْأَمْرَاضِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ كَالسَّرِقَةِ وَالزَّانَا وَالرَّشْوَةِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ؛ فَهَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي رَاوَدَهَا ابْنُ عَمِّهَا عَلَى شَرْفِهَا وَعَقْفَتِهَا فَاِمْتَنَعَتْ؛ فَلَمَّا وَقَعَتْ فِي سَجْنِ الْحَاجَةِ وَالْعَوَزِ سَاوَمَهَا عَلَى الَّذِي اِمْتَنَعَتْ مِنْهُ أَوَّلًا فَرَضِيَتْ. (وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَاِمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أَجِلُ لَكَ أَنْ تُفْضَ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَأَنْصَرَفْتُ

عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطِيتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَأَفْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ) [أخرجه البخاري].

وهذا الرجل الذي قال: (لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِي زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِي غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأَتَيْتِي فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ). [أخرجه البخاري]. ولستُ بذلك مُبرراً لكل لأصحاب المعاصي معاصيهم التي كان سببها الفقر؛ ولكنها قد تكون، وبخاصة: إذا قلَّ الإيمانُ في القلوب، وضعفت النفوس عن تحمل الابتلاءات؛ فجزعت ولم تصبر.

- أن الله تعالى يُظِلُّ صاحبها في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: .. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) [أخرجه البخاري].

- أن الله يُرَبِّيها لصاحبها ويُنمِّيها؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَصَدَّقَ بَعْدَ تَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بيمينه، ثُمَّ يُرَبِّيها لصاحبها، كما يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ) [أخرجه البخاري]. وقال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة] وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة].

- وكذلك فهي لا تُنقص المال بل تزيده: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وما زادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ) (أخرجه مسلم).

وغير ذلك من الفوائد الكثير والكثير...

4 - عقوبات مانعي الزكاة.

الناظر في نصوص الشريعة يجد عقوبات في الدنيا والآخرة لمن لم يؤدّ زكاة ماله؛ فمن ذلك:

- **المجاعة في الدنيا.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منع قوم الزكاة؛ إلا ابتلاهم الله بالسنين) [أخرجه الطبراني]. فالعقاب بنقيض قصدهم.

- **والعذاب الشديد في الآخرة؛** قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٨١ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ رَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: (لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) (الآية) [أخرجه البخاري]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من صاحب كنز لا يؤدّي زكاته، إلا أُحْمِيَ عليه في نار جهنم، فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه، وجبیه حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله، إمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدّي زكاتها، إلا بُطِحَ لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت، تستنّ عليه، كلما مضى عليه أخرها ردت عليه أولها، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار، وما من صاحب غنم، لا يؤدّي زكاتها إلا بُطِحَ لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت فتطوّه بأظلافها وتتطّحه بقرونها، ليس فيها عقصاء ولا جُلحاء، كلما مضى عليه أخرها ردت عليه أولها، حتى يحكم الله بين عباده في

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ).
[أخرجه مسلم].

أخي .. ما معك من الأموال إنما هو فضلٌ من الله وإحسانٌ عليك، وأنت مُستخلف فيه، فلا تبخل ولا تكن منوعاً وأحسن كما أحسن الله إليك. فقد قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد]. وإياك أن تكون ممن وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج]

الصائمون **.

العناصر:

أولاً: الصوم .. فضائل ومنازل.

ثانياً: عبادات للصائمين (الصيام، والقرآن، والصدقات والجهاد).

ثالثاً: من ربيع الصائمين (ساعة الفطر، وساعة السَّحَر، وليلة القدر).

رابعاً: للصوم غايات وأهداف.

خامساً: عوائق في طريق الصائمين .. فاحذروها.

(الموضوع)

هذا الموسم من أعظم المواسم التي تمرُّ على العبد؛ لما فيها من الخيرات والبركات التي جعلها الله سبحانه وتعالى فيه، وسوف يظهر من ثنايا هذا الموضوع ما يدل على عظمته؛ والتي منها قول أبي هريرة رضي الله عنه: (ما أتى على المسلمين شهرٌ خيرٌ لهم من رمضان، ولا أتى على المنافقين شهرٌ شرٌّ من رمضان؛ وذلك لما يُعدُّ المؤمنون فيه من القوة للعبادة، وما يُعدُّ فيه المنافقون من غفلات الناس وعوراتهم، هو غنم [المؤمنين] يَغْتَنِمُهُ الفاجرُ) [أخرجه أحمد في مسنده وفيه ضعف]. وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضوان الله تعالى عنهم فيه حالٌ شديدة؛ وفي عَشْرِهِ الأخير خاصة، مما يدل على كبير اعتنائهم به.

ولأهمية هذا الشهر وعظيم أمره؛ أن الله تعالى قد جعله مَجَلًّا زمانياً لنزول كتابه القرآن الكريم العظيم المُعْجِز، وجعل فريضة الصيام التي هي من أحب الأعمال إليه سبحانه وتعالى فيه؛ فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفٌ فِيمَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) [أخرجه البخاري]. فإذا كان أمر الصيام

كذلك، فينبغي علينا أن نغتم كلَّ ساعة من ساعاته بل كل لحظة من لحظاته؛ وللوصول إلى هذه الغاية نقف تلك الوقفات والتي أسأل الله تعالى أن تكون مباركات؛ وهي:

فقبل دخول هذا الشهر الكريم: لابد من الاستعداد له استعدادا مهيبا يليق به وبما فيه من المنح والعطايا الربانية؛ وذلك الاستعداد يكون بهذه الأعمال التالية:

العمل الأول: التخلية قبل التحلية. فلا بد للمسلم من أن يُطهر قلبه من الأمراض والضغائن، ومن مُفسدات الأعمال كالرياء والسُّمعة والعُجب، حتى إذا ما تَمَّتْ له نظافة قلبه انتفع بما يُنلَى عليه من آيات الله تعالى وبما هو مُقيم عليه من العبادات التي جعلها الله تعالى زكاةً وطهارةً للقلوب؛ وإلا كان مثال هذا الذي أدخل هذه العبادات على قلبه الذي لم يُطهره من أمراضه ودخائنه كالذي وضع عسلاً أبيض صافياً في كوبٍ ممتلئ بالقاذورات والأوساخ، فلا هو انتفع بالعسل ولا هو قد أزال وسخ قلبه بما وضعه فيه من الطيبات!.

فكان من الواجبات عليه قبل دخول هذا الشهر عليه أن يُحدث توبة خالصة لله عز وجل؛ يُقلع فيها عن ذنوبه، ويندم عليها، ويعزم من خلالها أن لا يعود إلى هذه الذنوب مرة أخرى؛ وكذلك يردُّ المظالم إلى أهلها؛ وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم].

العمل الثاني: العلم قبل العمل. وهذا من الأمور الضرورية التي لا بد من التنبُّه إليها؛ فلا يليق بالمسلم أن يدخل عليه هذا الشهر - وكذلك كل عمل من الأعمال - حتى يعلم حلاله وحرامه وسننه ونواقضه وآدابه، فيكون على بصيرة من أمره في عبادته أو معاملته؛ وقد قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد]، وقد استبطن منها الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه

ترجمة قال فيها: (باب: العلم قبل العمل)، فليكني يكون المسلم في عبادته عالماً لا مُقلّداً؛ عليه أن يعلم ما به يرفع عنه وصف التقليد، الذي هو مأخوذ من القِلادة وهي التي توضع في رقبة البعير أو ما شابه!!.

ومن الأمور التي لابد من إذاعتها وتحديث الناس بها في مطلع هذا الشهر الكريم: بعض من الأحكام الفقهية المتعلقة به⁽¹⁾؛ سيعاً من الدعاة والعاملين في المجال الوعظي في رفع الجهل الذي خيم بظلاله على عقول الكثيرين، ومن هذه الأحكام:

مُفطّرات الصيام (سبعة): الأكل والشرب عمداً، والجماع عمداً في نهر رمضان (وعلى فاعله أمورٌ ستّة: الإثم، وفساد ذلك اليوم، وإمساك بقيته وجوباً لحرمة الشهر، والكفارة: على الترتيب - عتق رقبة، فصيام شهرين متتابعين، فإطعام ستين مسكيناً -، وقضاء ذلك اليوم، والتوبة)، والقيء عمداً، والاستمناء، والعزم على الفطر، والحيض والنفاس، والرّدة.

تحريم إفطار يوم من رمضان بدون عذر. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بيننا أنا نائمٌ أتاني رجلان فأخذ بضبعي فأتيا بي جبلاً وعراً فقالا اصعدْ فقلتُ إنّي لا أُطيعُهما فقال إنّنا سنُسَهِّلُه لك فصعدتُ حتّى إذا كنتُ في سواءِ الجبلِ إذا بأصواتٍ شديدةٍ قلتُ ما هذه الأصواتُ قالوا هذا عوّاءُ أهلِ النَّارِ ثمّ انطلق بي فإذا أنا بقومٍ معلّقين بعراقيبيهم مشقّةً أشداقُهم تسيلُ أشداقُهم دماً قال قلتُ من هؤلاء قال الذين يُفطرون قبل تحلّة صومهم) [أخرجه النسائي].

(1) ليس من المعيب في المجال الوعظي أن يُذكر على المنبر بالأحكام الفقهية الضرورية على سبيل الإجمال؛ وذلك لأن جمهور الخطبة أكثر جمعاً وأوسع انتشاراً من الفروض الأخرى. وإن كان من عيبٍ فهو في طريقة العرض التي قد تُخرج المعلومة من عرضها للعمل بها إلى عرضها بصورة فقهية مقارنة بين المذاهب وكأن الداعية في مُدرج للجامعات!! ثم لا بأس أن يخرج من هذه التفاصيل بقوله في خطبته بعد ذكرها: (على تفاصيل تُذكر في مواضعها ليس المقام مقامها أو مناسباً لها). وهذه الأحكام الواردة في شأن الصيام مُنتقاة من كتاب: (بداية المتفقه للشيخ وحيد عبد السلام بالي) وشرحه للشيخ إبراهيم بن فتحي بن عبد المقتدر.

وكذلك شروط وجوبه الأربعة؛ وهي: (الإسلام)، و (البلوغ)، و (العقل)، و (القدرة عليه) ويُستثنى من الأخير أصناف جاءت الرخصة لهم من الله عز وجل؛ وهم: (المريض الذي لا يُرحى برؤه) وهذا يُطعمُ عن كل يوم مسكينا، و (المريض الذي يُرجى زوال مرضه، والحائض والنفساء، والمسافر، والحامل والمرضع) فهؤلاء جميعا يُفطرون ثم يُقضون إذا تمكنوا من القضاء بزوال عذرهم.

ثم الوصية بالسنن الواردة في شأن الصيام؛ أمثال: (تعجيل الفطر، وتأخير السحور، والزيادة في أعمال البر، والدعاء عند الفطر،...).

العمل الثالث: التحذير من الانصراف عن آيات الله تعالى. فإذا كان الصيام وهذا الشهر الكريم بهذه المثابة وهذه المكانة الشريفة، - والتي سوف يظهر إن شاء الله تعالى بعض صورها -؛ فلا بد من التحذير من هؤلاء الذين صرف الله تعالى قلوبهم وأبصارهم عن آياته فلم ينتفعوا بها في أنفسهم، وعملوا على صرف المؤمنين عنها كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف]. وقال جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء]. فالذين يتبعون الشهوات يعملون على اكتساب مزيد من ضحايا الشهوات والشبهات معهم، ولا يقنعون بأي نوع من أنواع الميل؛ بل يريدون منهم ميلاً عظيماً!! ويوضح هذا المعنى أكثر ما مرّ في الحديث: (وما يُعدُّ فيه المنافقون من غفلات الناس وعوراتهم، هو غنم [المؤمنين] يَغْتَنِمُهُ الفاجرُ) فالمنافق والفاجر كل منهما يُعدُّ العدة لتحصيل غنيمته التي بها يُثقل موازين سيئاته.

وما شغل الناس بالمسلسلات والأفلام والمباريات والمسارح ومباريات كرة القدم ومظاهر اللهو واللعب والسهر والترفيه الزائد من المآكل والمشارب والملابس .. وغير ذلك؛ إلا لصرف الناس عن هذه التجارة الرباحة إلى تجارة كلها بوار وخسران وحسرات وزفريات.

ومن النصوص المهمة في بيان هذا المعنى قول الغزالي رحمه الله تعالى: «إن الله إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسوء الأعمال ليكون ذلك أوجع في عقابه» [قاله في إحيائه]. فإذا ما كان الوقت فاضلاً فأقبل على من فتح لك أبواب الرجاء؛ لا أن تتشغل عنه بالملذات والشهوات، أو تشغل نفسك بالمعاصي والسيئات.

ثم إلى عناصر اللقاء.

أولاً: الصوم؛ فضائل ومنازل.

للصوم فضائل كثيرة؛ منها:

- **غفران الذنوب.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) [صحيح البخاري]. وقال أيضاً: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) [صحيح البخاري]. وقال صلى الله عليه وسلم: (الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ) [صحيح مسلم]. ولما كان أمر مغفرة الذنوب في رمضان غاية من الغايات العظيمة السهلة المنال للمسلم بهذه الأسباب؛ كان من خرج منه بغيرها مستحقاً لهذا الدعاء الذي جاء في هذا الحديث: (ارْتَقَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَنبَرِ دَرَجَةً فَقَالَ: آمِينَ، ثُمَّ ارْتَقَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: آمِينَ، ثُمَّ ارْتَقَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ: آمِينَ ثُمَّ اسْتَوَى فَجَلَسَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: عَلَى مَا أَمَّنْتَ؟ قَالَ: أَتَانِي جَبْرِيلُ فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ آمِينَ، فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ، آمِينَ) [أخرجه البزار وهو صحيح بشواهده]. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿[الأحزاب].

• **رفعة الدرجات.** فروي: (أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَلِيٍّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ إِسْلَامُهُمَا جَمِيعًا فَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنَ الْآخَرِ فَعَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتَشْهَدَ ثُمَّ مَكَثَ الْآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً ثُمَّ تُوَفِّيَ قَالَ طَلْحَةُ فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ بَيْنَا أَنَا عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِهِمَا فَخَرَجَ خَارِجَ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوَفِّيَ الْآخِرَ مِنْهُمَا ثُمَّ خَرَجَ فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتَشْهَدَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ فَقَالَ ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ فَعَجِبُوا لِذَلِكَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ فَقَالَ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا ثُمَّ اسْتَشْهَدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الْجَنَّةَ قَبْلَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً قَالُوا بَلَى قَالَ وَأَذْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَ وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِي السَّنَةِ قَالُوا بَلَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا بَيْنَهُمَا أْبَعْدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [ابن ماجة في السنن].

• **شفاعة للعبد يوم القيامة.** وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفَعْنِي فِيهِ، يَقُولُ الْقُرْآنُ رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفَعْنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ) [أحمد في مسنده].

• **الصوم جنة من الشهوات والشبهات.** وفي ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: (ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يُطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل) [سنن الترمذي]. وقال عبد الله بن مسعود: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) [صحيح البخاري].

- للصائمين باب من أبواب الجنة لا يدخل منه أحد غيرهم: (إن في الجنة باباً يُقال له: الرِّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أحدٌ غيرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ منه أحدٌ غيرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ منه أحدٌ) [صحيح البخاري].
- شهر العتق من النيران: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لِلَّهِ عندَ كُلِّ فِطْرِ عِتْقَاءَ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ) [ابن ماجة في السنن]، وقال أيضاً: (مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا) [صحيح البخاري]. وقال: (من صام يوماً في سبيلِ الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض) [سنن الترمذي].
- قال الله تعالى عن الصيام: (كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلِخُلُوفٍ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) [صحيح البخاري]. وإخفاء الجزاء وإبهامه دليل على عظمته؛ يدلُّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلِخُلُوفٍ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) [صحيح مسلم]. فليست هي سبع مائة بل أضعافٌ وأضعاف. وأكرم به من أثر: أن تكون رائحةً فيه التي قد يستنكف منها مَنْ لم يذوق طعم الإيمان؛ هي عند الله تعالى أطيب من ريح المسك.
- فرحة الصائمين. ما أعظمها من فرحة بهذه الطاعة التي لا يعدلها شيء، فقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ)، وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: (أنَّه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَا عَدْلَ لَهُ) [سنن النسائي]. أي لا يُساويه عمل!.
- نزل فيه القرآن. وما أعلاها من فضيلة؛ إذ يكون هذا الكتابُ الخاتمُ والمهيمنُ على الكتب التي سبقته مُنزلاً في هذا الشهر الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة]. بل كان شهراً لنزول الكتب الإلهية السابقة - والحديث فيه ضعيف -: (أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ،

وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضِيِّينَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ
الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ) [أخرجه أحمد في مسنده]

• وغير ذلك من الفضائل.

ثانياً: عبادات للصائمين.

من عبادات الصائمين في هذا الشهر الكريم؛ الصوم وهو فريضة الوقت - أي: فريضة شهر رمضان - وقد سبقت فضائله. وكذلك من العبادات: (قراءة القرآن الكريم ومُدارسته). لرمضان مع القرآن حالٌ عظيم؛ وكيف لا يكون كذلك وقد نزل القرآن في أعظم لياليه؛ ليلة القدر فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾ [القدر]. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُدارس القرآن مع جبريل عليه السلام في رمضان من كل عام؛ حتى إذا كان العام الذي تُوفي فيه صلى الله عليه وسلم عارضه عليه مرتين؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أَقْبَلْتُ فَاطِمَةَ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَرْحَبًا بَابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكْتُ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّىٰ قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْتُهَا، فَقَالَتْ: أَسَرَّ إِلَيَّ: إِنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي، وَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي. فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ - أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَضَحِكْتُ لَذَلِكَ) [صحيح البخاري].

ولأجل هذا المعنى فقد انكبَّ علماؤنا على المصاحف في رمضان فلم ينشغلوا في معظم أوقاتهم إلا بالقرآن وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى في لطائفه بعضاً من أخبارهم؛ فقال: «وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، كان الأسود: يقرأ في كل ليلتين في رمضان، وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة وفي بقية الشهر في ثلاث،

وكان قتادة: يختم في كل سبع دائماً، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة. وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة، وعن أبي حنيفة نحوه، وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام.

قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف قال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري: إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان فإذا طلعت الشمس نامت ... وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناماً للزمان والمكان؛ وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره. ..» وقد سبق حديث لشفاعة الصيام والقرآن يوم القيامة للعبد.

ومن العبادات: (الصدقات). ففي الحديث الصحيح: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) [صحيح البخاري]. وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام. فينبغي الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب. وكيف لا يكون حال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اللقاء وفي وهذا الشهر كذلك؟ فهو لقاء جمع بين عظيمين؛ عظيم في أهل السماء وعظيم في أهل الأرض؛ إنهما: (محمد صلى الله عليه وسلم، وجبريل عليه السلام)، وموضوع اجتماعهما: هو القرآن العظيم. فما الظنُّ باجتماع كهذا الذي اكتتفته العظمة من كل جانب؟. فلا شك أن الجود سيكون مُناسباً لهذه العظمة.

وفي إطعام الطعام وبذل الصدقات من العطايا والفضائل ما يجعل النفس تُؤثر ما يبقى على ما يفنى، وتسعى في إدخال السرور والفرح على أصحاب الحاجات .. وما أكثرهم!.

ومن هذه العبادات: (الجهاد). من أجل العبادات التي ينبغي على العبد أن يتلمسها في هذا الشهر الكريم؛ عبادة الجهاد، ولكن مع من؟ وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدَتِ الشياطينُ ومردةُ الجنِّ وغلقتُ أبوابُ النارِ فلم يُفْتَحَ منها بابٌ وفتحتُ أبوابُ الجنةِ فلم يُغلقْ منها بابٌ وينادي منادٍ يا باغي الخيرِ: أقبلْ، ويا باغي الشرِّ: أقصِرْ. واللهُ عُنُقَاءُ من النارِ وذلك كلَّ ليلةٍ) [أخرجه الترمذي وابن ماجة وفي تصحيحه مقال]. إنه جهاد مع النفس؛ التي أمرنا بنهيها عن الهوى والتي لا بد وأن نكبح جماحها، فقد قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف]، وطالما أنها أمارة بالسوء ففي مخالفتها النجاة؛ وقد قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

وكذلك جهاد أعداء الله ورسوله؛ أعداء الإسلام والمسلمين من الكافرين والمنافقين - لا كثر الله سوادهم - وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة والتحريم]. فلم يمنع المسلمين الصيام عن جهاد هؤلاء؛ فقد كانت الغزوات والمعارك المشهودة المشهورة في تاريخ المسلمين؛ منارات في هذا الشهر الكريم، فها هي غزوة بدر، وفتح مكة، ومن بعدهما عين جالوت..؛ وغيرها من المعارك التي خاضها المسلمون في شهرهم هذا، فلم يحبسهم الصوم عن جهادهم ضد عدوهم، وأعظم وسائل هذا الجهاد هو القرآن الكريم فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان].

ومن العبادات: صلاة التراويح. وقد جاء في فضائلها؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَلَّى مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ حَسِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ) [سنن النسائي]. وإياك أن تستطيل القيام بها مع الجماعة فالأجر على قدر النَّصب؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: (من قامَ بعشرِ آياتٍ لم يُكُتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ ومن قامَ بمائةِ آيةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ ومن قامَ بألفِ آيةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطَرِينَ) [سنن أبي داود]. واعلم أنه بقيامه كاملا قد أحرزت سببا من الأسباب الموجبة للمغفرة الذنوب وقد سبق حديثها.

ثالثاً: من ربيع الصائمين.

للصائمين ربيعٌ يرتعون فيه بين أفيائه وأغصانه؛ وهذا الربيع هو جنّتهم التي بها يتلذذون ويُقبلون فيه على محبوبهم وخالقهم سبحانه وتعالى. وهذا الربيع له في كل لحظة من لحظات هذا الشهر مظهرٌ يتجلى فيه ويتحلى، ومن أعظم صور هذا التجلي:

ساعة الفطر. ساعة هي من أعظم الساعات التي يصل العبد فيها إلى حالة من التضرع والاستكانة والخضوع والجوع؛ ما يجعل في القلب إقبالاً على الله تعالى لا يستطيع المرء أن يصفه بوصف أو يحده بحد، وذلك مما يجعل دعاء الصائم أرجى قبولاً عند فطره، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين) وفي رواية (الصائم حتى يفطر) [سنن الترمذي]. فأين هم المقبلون على الله تعالى؟ أين من ألهب الجوع أمعاءهم؟ وأين من ضيق على الشيطان مسالكه في نفوسهم؟ أين هم الملحون على الله في الدعاء؟ وأين من رفعوا حوائجهم إلى من بيده ملكوت كل شيء سبحانه وتعالى؟ أين هؤلاء وهؤلاء .. فهذا ربيعهم الذي منه يتزودون؟.

وساعة السحر. ومن أعظم صور هذا الربيع أيضاً هذه الساعة، والتي قال الله تعالى عنها مع أوصاف أهل الجنة: ﴿الصَّادِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِاتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران] وقال في موضع آخر عن المتقين: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات]، وفي شأنها مع قوم لوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذْنا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالُ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [نعمه من عندنا كذلك نجزي من شكر] [القمر] فهي ساعة نجاة ومناجاة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يَنْتَزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ) [صحيح البخاري]، ومما يدل على أهمية هذا الوقت أن النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كُلَّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَأَوْسَطِهِ، وَآخِرِهِ، فَأَنْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحَرِ) [صحيح البخاري].

فساعةٌ هذا شأنها .. ينبغي أن لا تضيع في أكل أو شرب أو لهو أو في مباحٍ من المباحات التي أرهاقنا بها حياتنا. بل ينبغي علينا أن نتزود منها بما يليق بها؛ فأبواب خزائنه تعالى مفتوحة.

وليلةُ القدر: فهذه الليلة .. دُرّة هي من أثمن الدُرر؛ فقد عظمَ الله تعالى شأنها، وعظمَ أجرها، وعظمَ الكتاب الذي أنزله فيها؛ فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ٣ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان]، « في هذه الليلة يفصل كل أمر محكم يتعلق بالأرزاق والآجال وغيرهما، مما يحدثه الله تلك السنة » وقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ٢ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ٣ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ٤ ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ ٥ [القدر] فليلة خير من ألف شهر، ليلة .. تتنزل فيها الملائكة ومعهم أمين وحي السماء (الروح = جبريل عليه السلام)، وهي سلامٌ لا شرٍّ فيها، فلا عجب حينئذ أن يكون ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عنها: (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، ..) [صحيح البخاري]. ولعظيم ما تفضل الله تعالى به علينا فيها اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر بالاعتكاف راجياً إصابة فضل الله عز وجل وما أعده لعباده؛ فاعتكف في المسجد مُنقطعاً لربه، قاطعاً كل العلائق والعوائق التي تحول بينه وبين مُرادِه.

فليلةٌ هذا شأنها.. أيعجز المسلم عن اغتنامها؟، إذ هي ساعاتٌ قلائل عليها هذا الجزاء العظيم والثواب الجزيل، ومن عظيم لطف الله تعالى بنا أن كانت محصورةً في عشر ليالٍ فقط!!.. ولم يأت الأمر النبوي بالتماسها في الشهر الفضيل كله أو في العام، ولو كان الأمر كذلك لهان أمرُها علينا واستكثرنا الاشتغال بالطاعة من أجلها. ولأصابنا الملل والكسل، فسبحانك ربي ما أرحمك وأرأفك وأحلمك.

أحبابي.. هذا ربيع الصالحين قد أينعت ثمرته وتدلّت .. فلعلّ مَنْ يجني الثمار يمدُّ يديه فيظفر بما لم يظفر بها الآخرون. فهلّموا وشمّروا واجتهدوا وسلوا الله تعالى فيها العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة؛ فقد فتح الكريم سبحانه أبوابه مُسرعة. وتمتّلوا وامتثلوا هذا الدعاء العظيم الذي ناسب في عظمتِه عظمة ليلة القدر؛ فعن أمّا المؤمنين عائشة رضي الله عنه: (يا نبيّ الله،

أَرَأَيْتَ إِنْ وَاَفَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي [أخرجه أحمد في المسند].

رابعاً: للصوم غايات وأهداف⁽¹⁾.

- **التغيير وليس التأثير.** التغيير لا بد وأن يكون للصائمين منهجاً للحياة؛ فليس المقصود أن يتأثروا ساعة أو ساعتين أو يوماً أو يومين أو شهراً .. لا . بل المقصود: التغيير. الذي يقود صاحبه إلى التخلي عن العادات القبيحة التي كان مقيماً عليها، أو إلى استكمال النقص الذي كان يُلازمه في عباداته وأخلاقه طوال العام، أو إلى استدراك ما فاتته من علاقته مع الله تعالى.

- **الاستهداءُ بهدايات القرآن الكريم.** الهداية مطلبٌ كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يسأل ربه إياه، وكثيراً ما علّمه أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، والمتتبع لآيات الصيام في سورة البقرة يجد الهداية مع القرآن والصيام في تلازم وتكامل ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وقوله: ﴿وَلَشَكَّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ﴾ [البقرة] ومن دعاء الوتر الذي يُدعى به في كل ليلة من رمضان ما جاء عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (علّمني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلماتٍ أقولهنَّ في الوتر .. اللهم اهْدِنِي فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولّني فيمن تولّيت وبارك لي فيما أعطيت وقني شرَّ ما قضيت إنك تقضي ولا يُقضَى عليك وإنه لا يذلُّ من واليت ولا يعزُّ من عاديت تباركت ربُّنا وتعاليت) [أخرجه أصحاب السنن وأحمد في مسنده]. وكم هي هذه الدعوات التي يقرأها المصلون في صلواتهم ويؤمنون عليها خلف إمامهم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة].

- **الصبر والمصابرة.** من غايات الصيام أنّه شهر الصبر؛ فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (شهرُ الصبرِ، وثلاثةُ أيامٍ من كلّ شهرٍ، صومُ الدهرِ) [أخرجه النسائي وأحمد].

(1) سبق في الجزء الأول من هذه الكنانة موضوع عن فرائض الإسلام وغايتها؛ ص: (342) والتي منها: (التقوى،

والسمو الأخلاقي، والرشد العقلي، والتكافل الاجتماعي، وتركية النفس)، والصوم عبادة من تلك العبادات؛

فاستكمالاً للموضوع السابق عن هذه المقاصد كانت هذه الغايات في هذا الموضوع.

والصبر: هو حبس النفس على ما تكره؛ إذ في منع النفس من شهواتها وملذاتها مشقة عليها. فيجب على المسلم أن يكون في صومه صبوراً فرحاً بامتثاله طاعة الله عز وجل. والصابرون أجرهم لا يعلمه إلا الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر].

- **شكر الله تعالى على هذه الفريضة.** ﴿وَلَشُكِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة] فالشكر غاية من الغايات التي ينبغي أن تكون على السنة الصائمين وفي أفئدتهم. وقد جاء الأمر بالشكر كذلك في آية الوضوء؛ فقال جل ذكره: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة]. فلا بد من شكر الله تعالى على تشريعاته وعبادته.

خامساً: عوائق وأعداء في طريق الصائمين .. فاحذروها.

- **النفس والاستعاذة من شرها.** النفس الإنسانية؛ نفس لها طبيعة خاصة ينبغي التفتُّن لها،

فقد قال الله تعالى عنها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس] فهي نفس فيها مادة الفجور ومادة التقوى، فإذا ما أرسلتها في مُستتقع الشهوات استرسلت، وإذا ما أحجمتها وأجمتها بلجام من الخوف وأرهبته بسياط من أنواع التأديب والتأنيب؛ احتجمت، كالطفل في مهده إذا شبَّ على حُبِّ الرضاع لم يزل رضيعاً وإذا فُطم عنه ولو قبل الحولين ينفطم. ولذلك كانت الجنة جزاءً لمن خالف نفسه وهواها، فقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات] وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالاستعاذة من شرها؛ فقد: (قال أبو بكر يا رسول الله مُزني بشيءٍ أقولُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيْتُ قال قل اللهمَّ عالمُ الغيبِ والشهادةِ فاطرَ السمواتِ والأرضِ ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنتَ أعوذُ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ الشيطانِ وشركه قال قلُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيْتُ وإذا أخذتَ مضجَعَكَ) [الترمذي في السنن]. وقد قال الله تعالى عنها في قصة يوسف عليه السلام قولاً عاماً: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهي أمارة - صيغة مبالغة - بالسوء إلا ما رحم ربي - فنسأل الله تعالى

أن نكون منهم - . فهذه النفس تنفر من الطاعة؛ فلا تُحبُّ الوقوف بين يدي خالقها وبارئها في الصلوات، ولا في مواطن الجهاد، ولا في مواطن البذل والعطاء، ولا في مواطن الشجاعة والتضحية، فدائماً تنفر من كل ما يؤدي إلى إجهادها وإرهاقها وتعبها، وفي كل شيء فرّت منه عزّها وشرفها ونجائتها في الدنيا والآخرة. **فينبغي حملها على التراويح، وعلى الصيام، وعلى القرآن، وعلى إطعام الطعام، وعلى ضبط الأخلاق، وعلى معالي الأمور والبعد عن سفاسفها.**

- فتنة الأموال والأولاد والزوجات. قال الله تعالى: ﴿الْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر] وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٤﴾ [التغابن]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ آلِهَوٍ وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون].

فالأولاد والزوجات والأحفاد والأموال وجميع من في الأرض كلهم إلى نفاذ وما عند الله تعالى باقٍ فلا يوترن عاقل ما يفنى على ما يبقى. وما أكثر هؤلاء الذين ينشغلون في رمضان وفي عشره الأخير بل وفي لياليه الوترية بالملذات والشهوات بل وبالمعاصي!!، وكذلك وفي غيره من مواسم الطاعات بهذه الملذات وبهذه النعم، والتي قد صرّح الله تعالى عن بعضها ووصفه بالعداوة. وليس هذا فحسب بل وأمرنا بالحدز منهم كالمنافقين تماماً الذين قال الله عنهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤَفَّكُونَ﴾ [المنافقون].

- طول الأمل والتسويق. وهذا عدوٌّ؛ خطير الشأن. فينبغي أن تُسارع الحياة وأن تغتتم الفرص لا أن تمهلها؛ فاجعل من رمضان فرصة لا تعود، وقل لنفسك (**لعلى لا ألقى رمضان بعد هذا ..** عش هذا الشهر بهذه الروح: (**صم صيام مُودّع**) .

- المنافقون. وقد سبق ذكر شيء من استعداداتهم في هذا الشهر الفضيل؛ ويجمعهم قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

أخي .. قد طَوَّفْتُ بك في ضلال هذا الشهر الكريم راجياً من الله تعالى أن نكون فيه من الغانمين الفائزين المقبولين فهذه بين يديك أفكار وأخبار وآثارٌ لعلها تجدُ قلباً واعياً. وإلا فقد جاء عن سلفنا الصالح هذه الآثار: « قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يُنَادَى في آخر ليلة من رمضان: لَيْتَ شعري من المقبول فَنُهِئَهِ، ومن المحروم فَنَعِزَهِ ». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: "مَنْ هذا المقبول منا فَنُهِئَهِ، ومن هذا المحروم منا فَنَعِزَهِ».

فهنئاً لكم أيها المقبولون

والحمد لله رب العالمين

الحُجَّاج

العناصر:

أولاً: رُكنية الحج وفضائله.

ثانياً: في رحاب الزمان والمكان.

ثالثاً: من دروس الحج ومعانيه.

رابعاً: دروس من خطبة عرفات.

(الموضوع)

صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (العُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ) [البخاري ومسلم]. فهناك سبيل من السُّبُل التي جعلها الله تعالى مُوصِلةً إلى الجنة؛ ولكن ما هو الحج المبرور؟ قيل هو: «الذي لا يُخَالِطُهُ إِثْمٌ، أَوْ هُوَ الْمُتَقَبَّلُ الْخَالِصُ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ فِيهِ أَرْكَانُهُ وَوَاجِبَاتُهُ، وَهَذَا الْحَجُّ جَزَاؤُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْجَنَّةُ». وفي قصة إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه ما يدل على عَظِيم مكانته عند الله تعالى؛ ففيها: (فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟) [صحيح مسلم]. فكان بُنيان الإِثْمِ والخطيئة وهيكلها قد هدمه الحج، فما أعظمه من معولٍ!. ولكن لماذا كان الحج بهذه المنزلة وبهذه المكانة عند الله تعالى؟.

على هذا يدور اللقاء؛ فأسأل الله تعالى السداد. اللهم آمين.

أولاً: رُكنية الحج وفضائله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) فِيهِ ءَايَةُ بَيِّنَتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ [آل عمران].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ) [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) [صحيح البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) [صحيح البخاري] وظاهره كما قال ابن حجر رحمه الله تعالى غفران الذنوب والصغائر والكبائر والتبعات. فهو يهدم ما كان قبله!.

ومن فضائله: أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْغِنَى وَنَفْيُ الْفَقْرِ!!؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذَّنْبَ، كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ) [أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد].

ومن فضائله؛ أَنَّهُ عَدِيلٌ لِلْجِهَادِ. فَقَدْ جَاءَ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ) [صحيح البخاري] وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى

الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلَا تُجَاهِدُ؟ قَالَ: لَا، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ [صحيح البخاري]. وفي رواية أخرى عنها قالت: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ جِهَادٍ قَالَ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالٌ فِيهِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ) [الترغيب والترهيب للمنذري]. فهو من أفضل الأعمال التي عَوَّضَ اللَّهُ تعالى بها النساء عن الجهاد فكان عديلاً للجهاد بالنسبة لهنَّ.

ومن فضائله كذلك: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ فِي ضَمَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ خَرَجَ حَاجًّا) [صحيح الجامع الألباني].

ومن أعظم فضائله ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟) [صحيح مسلم].

وفي حديث مرسل ضعيف: (مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَدْحَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا يَرَى فِيهِ مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلَّا مَا رُئِيَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزْعُ الْمَلَائِكَةَ) [أخرجه مالك] وكيف لا يكون كذلك والحاسد الحاقده يزيده حقدا وحسدا ومكرًا وغيظًا نعم الله تعالى على عباده المتوالية!!.. وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

فما أعظم هذا الركن وما أعظم فضائله؛ وكيف لا يكون كذلك وقد هدم لصاحبه ما قدَّمه من الذنوب والخطايا، وقد رجع من حجِّه كيوم ولدته أمه، وقد تكفل الله تعالى لصاحبه بالغنى ونفي الفقر والإخلاف عليه. وهو في ضمان الله تعالى وهو عديل الجهاد. فعَمَلٌ هذا شأنه لا شك أنَّه عظيم القدر والمنزلة عند الله تعالى. فالحاج أخرج ماله في سبيله طيبةً به نفسه، ترك أهله وملاذه

ومُتَّعَهُ وعرض نفسه للمخاطر ومشاق السفر والحل والترحال ابتغاء مرضات الله تعالى. فما أعظم مُباهاة الله تعالى بأهل الموقف أهل السماء...!!..

ولذلك كان المُتَهاونون فيه والبخلاء بالأموال عن إنفاقها في سبيله؛ لهم من الله عذابٌ أليم. فإن كانوا مُستَخِفِّينَ به جاحدين له؛ فهم كفار، فقد قال الله تعالى في الآية السابقة: (ومن كفر فإن الله غنيٌّ عن العالمين).

وللخسالى والبخلاء: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُبْعَثَ رِجَالًا إِلَى هَذِهِ الْأَمْصَارِ فَيَنْظُرُوا كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ جِدَّةٌ - سعة من المال - فَلَمْ يَحْجْ، فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ. مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ) وقال ابنه عبد الله بن عمر: (من وجد إلى الحج سبيلاً سنة ثم سنة، ثم مات ولم يحج؛ لم يُصَلَّ عليه؛ لا يُدْرَى مات يهودياً أو نصرانياً)، وقال سعيد بن جبیر: (لو كان لي جار مُوسِر، ثم مات ولم يحج، لم أُصَلَّ عليه). وفي سنن الترمذي: (من ملك زاداً وراحلةً تَبْلُغُهُ إلى بيتِ الله ولم يحجَّ فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك أَنَّ الله يقول في كتابه: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا).

ثانياً: في رحاب الزمان والمكان.

فالحجَّ يقع في زمان ومكان لهما في النفوس مكانة أي مكانة.

فالزمان في الأشهر الحرم، بل وفي أفضل أيامها كذلك؛ العشر الأول من ذي الحجة. وقد قال الله تعالى: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ﴾ [البقرة] وهي كما قال المفسرون: «شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة» وذو القعدة وذو الحجة من الأشهر الحرم التي قال الله عنها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة]. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عن أيام العشر الأول هذه: (ما العملُ في أيامٍ أفضلَ منها في هذه، قالوا: ولا الجهادُ؟ قال: ولا الجهادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ) [صحيح البخاري]. فلأجل

مَا تَقَرَّرَ فِي نَفُوسِ الصَّاحِبَةِ عَنْ لُجْهَادٍ وَمَا لَهُ مِنْ فَضْلٍ وَمِزْيَةٍ؛ سَأَلُوا هَذَا السُّؤَالَ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ زَمَانَ مُبَارَكٍ وَكَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر]، وَاللَّيَالِي الْعَشْرُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ هِيَ هَذِهِ. وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُقْسِمُ إِلَّا بِالْشَيْءِ الْعَظِيمِ.

وَأَمَّا الْمَكَانُ: فِي أَحَبِّ الْبَقَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَكْرِيمًا وَتَشْرِيفًا وَمَهَابَةً وَأَمْنًا، وَفِي بَيْتِ اللَّهِ الْمُبَارَكِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَفِي الْمَنَاسِكِ وَالْمَشَاعِرِ: كَالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَالسَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى عُرْفَاتٍ وَالْمَبِيتِ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَالْمَبِيتِ بَمَنَى وَرَمِي الْجُمَرَاتِ الَّتِي يُدَحَّرُ بِهَا عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسَ، وَمَاءُ زَمْزَمَ وَالْمَقَامِ؛ وَكُلُّ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ: تَرْبِطُ أَذْهَانَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَاضِيِ التَّلِيدِ الْأَصِيلِ الْقَدِيمِ، مَاضٍ يَرْبِطُ بَيْنَ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَلَدِهِ وَزَوْجِهِ وَهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُبَارَكَةِ. وَكَذَلِكَ الْخَلِيلُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا وَاجَهُهُ فِي دَعْوَتِهِ مِنْ بَدَايَتِهَا وَحَتَّى نَهَايَتِهَا. فَأَقْدَامُ الْحَجَّاجِ تَسِيرُ عَلَى مَوَاطِئِ أَقْدَامِ السَّابِقِينَ. وَلَيْسَ هَذَا وَفَقَطُ فَالْصَّلَوَاتُ فِي بَيْتِ اللَّهِ مَضَاعِفَاتٌ إِلَى مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ .. فَهَنِيئًا لِمَنْ بَاعُوا الدُّنْيَا وَخَلَّفُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ فِي مَرْضَاتِ اللَّهِ تَعَالَى .. دَعُ عَنْكَ هَذَا كُلَّهُ فَأَنْتَ فِي ضِيَاةِ الرَّحْمَنِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ الرَّزَّاقِ وَنَزِيلِ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ؛ فَهَلْ يَأْتُرِي سَيَكُونُ بَخِيلًا مَعَكَ (حَاشَاهُ .. سُبْحَانَهُ)!. فَ(كُلُّهَا ذِكْرِيَّاتٌ يَحُنُّ لَهَا الْفُؤَادُ). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إِبْرَاهِيمَ]. فَكَأَنَّ الْفُؤَادَ هَوًى سَاقِطًا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّهُ عَنْ مَبْتَغَاهِ.

ثَالِثًا: مِنْ دُرُوسِ الْحَجِّ وَمَعَانِيهِ.

– رَحْلَةٌ إِلَى الْآخِرَةِ؛ فَلَيْسَ لِلدُّنْيَا فِيهَا مَكَانٌ. هَؤُلَاءِ الْحَجَّاجُ بِهَذَا اللَّبَاسِ وَبِهَذِهِ الْحَالَةِ وَبِهَذَا الْمَقَامِ الْمَشْهُودِ؛ يُذَكِّرُونَ بِالْمَشْهَدِ الْآخِرِيِّ الْمَوْعُودِ، فَكُلُّهُمْ تَجَرَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا؛ وَكَأَنَّهُمْ قَدْ لَبَسُوا أَكْفَانَهُمْ ثُمَّ حُشِرُوا إِلَى عُرْصَاتِ الْقِيَامَةِ لِلْعُرْضِ عَلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ تَجَرَّدَ مِنْ مَنَاصِبِهِ وَأَمْوَالِهِ وَشَارَاتِهِ وَأَلْقَابِهِ وَمِنْ أَوْلَادِهِ وَزَوْجَاتِهِ غَالِبًا. وَهَكَذَا كُلُّ مَقَامٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ الْمَحْمُودَةِ. فَكَمَا كَانَتْ حَيَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهِيَ مَقَامٌ عَظِيمٌ – لَيْسَ فِيهَا لِلدُّنْيَا مَقَامٌ

فكلها حياةً أخروية؛ فكَذلك ينبغي للمسلم إذا ما أراد المقام المحمود عند الله أن يتجرّد عن كثير من دنياه ولا يهتم إلا بما يُبلّغه منها كزاد الراكب؛ وقد قال الله تعالى في قصة قارون: ﴿وَأَبْغَعْنَا آلَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص].

- المساواة الإيمانية. من أعظم مظاهر المساواة الإيمانية هذا الحج؛ فأصحاب المليارات وأصحاب الملايين وأصحاب الآلاف؛ بل ومن يقومون على خدمتهم ممن لا يملكون مثل ما ملكوا ويؤدّون معهم المناسك .. كلهم سواسية في هذه الفريضة الإيمانية. فليس أمر الحج كالصلاة مثلاً؛ فقد يتميز الرجل عن جاره بلباسه وهندامه برائحته بمظهره الخارجي. أمّا هنا فلا!! الكل سواء في التلبية والمناسك والعبادات وفي سائر الأعمال.

- الحج .. ومظهر التوحيد. فالعبادة كلها جاءت لتحقيق توحيد الله تعالى، ومن أكثر هذه العبادات ظهوراً لأثر التوحيد هذه الفريضة. فقبل حجة النبي صلى الله عليه وسلم جاء الإعلان النبوي إلى أهل مكة؛ كما قال أبو هريرة (بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي مُؤَدِّينَ يَوْمَ النَّحْرِ، نُؤَدِّنُ بِمَنَى: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ثُمَّ أُرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَدِّنَ بَبْرَاءَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَدَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ: لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.) [صحيح البخاري] ثم في حجة النبي صلى الله عليه وسلم؛ من أوّل أعمالها: (فَأَهْلَ بِالتَّوْحِيدِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ) [حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم]، وفي هذا إعلان للإقامة على طاعة الله تعالى ولزومها، وأنّ الحمد والنّعمة والملك له سبحانه وتعالى لا شريك له في ذلك، ودعاء يوم عرفة: (أَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ خَيْرُ الدَّعَاءِ دَعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [سنن الترمذي وغيره]، بل والأيام العشر كلها محل لذلك؛ فقد جاء: (ما من أيّام أفضل عند الله ولا أحبُّ إليه العملُ فيهنَّ من أيّام العشر فأكثروا فيهنَّ من التَّسْبِيحِ والتَّهْلِيلِ والتَّحْمِيدِ) [أخرجه أحمد].

- الحج ورابطة الأنبياء. قد جاءت الآثار دالة على أن كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجوا البيت الحرام؛ ففي الأثر: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «لقد سلك فجّ الرّوحاء سبعون نبياً حجاجاً عليهم ثياب الصّوف، ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً»).

[الحاكم في المستدرک]، وقد أذن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الناس بالحج؛ كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج]. وسينزل عيسى ابن مريم ويحجّ هذا البيت أيضاً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِيُهْلَنَ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ، حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لِيَتَشَيَّهُمَا) [صحيح مسلم].

- إياكم والغلو. فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو واقف على راحلته: (هَاتِ الْقُطْلِي) فَلَقِطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ وَهِيَ حَصَى الْخَذْفِ فَلَمَّا وَضَعَتْهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: (نَعَمْ بِأَمثالِ هؤلاءِ بِأَمثالِ هؤلاءِ وإياكم والغلو في الدينِ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدينِ) [النسائي وابن ماجة وأحمد] فالغلو في الدين إفراطاً وتفریطاً مُهلك للأُمم ومُخرج لها عن الصراط المُستقيم.

- افعل ولا حرج. فما أعظم التيسير ورفع الحرج عن الناس؛ إذا لم يكن فيه إبطال لحقٍّ أو إحقاق لباطل؛ فقد جاء: (أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيئما هو يخطُبُ يومَ النّحرِ، إذ قامَ إليه رَجُلٌ فقالَ: كُنْتُ أَحسِبُ - يا رَسولَ اللهِ - كَذَا وَكَذَا قَبْلَ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ قامَ آخِرُ، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، كُنْتُ أَحسِبُ كَذَا وَكَذَا، لِهؤلاءِ الثَّلاثِ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ لَهِنَّ كُلُّهُنَّ يَوْمَئِذٍ، فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عن شيءٍ إِلَّا قالَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ) [صحيح البخاري]

رابعاً: دروس من خطبة عرفات وغيرها.

وعظ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بمواعظ في هذا المنسك العظيم وقد اشتملت على دروس كثيرة ومعانٍ عظيمة؛ وإذا أحبب المرء أن يقف معها - على قلة بضاعتها - كما ينبغي لطال الحديث عنها كثيراً فهي من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم؛ وقد زادها أهمية قوله صلى الله

عليه وسلم فيها: (فإني لا أدري لعلّي لا ألقاهم بعد عامي هذا) [أحمد في المسند]؛ فهذا الإعلام يؤكد أهمية تلك المواعظ التي يُدّع بها النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمة!! ومما اشتملت عليه من الدروس والمواعظ ما يلي:

1 - حرمة الدماء والأعراض والأموال⁽¹⁾. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة يوم النحر: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا) [صحيح البخاري] وفي حديث جابر رضي الله عنه، الذي ساق فيه حجة النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفات؛ وفيه خطبته عليه الصلاة والسلام. وقد قال فيها: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا) [صحيح مسلم]. فحرمة الدماء في الإسلام معروفة معلومة لا يجهلها أحد. فقد جعل الله تعالى من تعدّي على نفس واحدة كأنما تعدّي على الناس جميعا ومن أحيّاها فكأنما أحيّا الناس: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا حَرَامًا) [صحيح البخاري]. وأمّا الأعراض ففي الإسلام تشريعات وحدود زواج لمن تعدّي عليها أو تهاون بها؛ ففيه حد القذف وفيه حد الزنا. وفيه تشريعات وسياجات كلّها لحفظ الأعراض. وأمّا الأموال؛ فمن تعدّي على مال أخيه المسلم بالسرقة فقد أوجب الله تعالى عليه قطع يده عقوبة ونكالا له بما فعل.

2 - خذوا عني مناسككم. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ) [صحيح مسلم]. فينبغي على المسلم إذا ما أراد نسكاً من المناسك أن ينظر في هدي النبي صلى الله عليه وسلم ويفعل مثل ما فعل؛ حتى يكون عمله مقبولا. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) [صحيح

(1) قد اشتملت عليها هذه الكنانة على مواضيع تحدثت عن الضروريات الخمس؛ وفيها حديث عن (النفس العرض والنسل). وهي من المواضيع التي تخدم هذا الموضوع لذلك لا أرى داعيا لتكرارها.

البخاري]. وهكذا شأن العبادات كلها حجا وصلاة وصياما وزكاة .. وإلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ) [صحيح البخاري].

3 - إكمال الدين وإتمام النعمة والرضا بالإسلام ديننا. فقد نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في يوم عرفات آية هي من أعظم الآيات؛ حتى تمنى أحد يهود أن تكون هذه الآية نزلت عليهم لما فيها من البشارات؛ فقد (قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3]، لَا تَتَّخِذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ) [صحيح البخاري]. ولا يعلم قدر النعمة إلا من فقدوها؛ فديئهم لا كمال فيه ولا تمام، ولم ولن يرضى الله عنه.

4 - الوصية بالنساء. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرَحٍ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوْطِئَنَّ فَرْشَكُمْ مِنْ تَكْرَهُونَ وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بَيْوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ) [سنن الترمذي من حديث عمرو ابن الأحوص]. فهذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بالزوجات، ويدخل في الوصية بهن كذلك كل من: (أُمَّكَ، وَابْنَتُكَ وَعَمَّتُكَ وَخَالَتُكَ وَجَدَّتُكَ ..).

5 - كل أمر من أمور الجاهلية موضوع. فبعد أن فتح الله تعالى عليه - صلى الله عليه وسلم - مكة؛ ومنَّ عليه بالتمكين والعزة والنصرة، وضع هذا القانون فقال في خطبته هذه: (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنَ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ) [حديث جابر عند مسلم] فكلُّ أمور الجاهلية التي كانت قبل الإسلام أبطلها الإسلام، وهي موضوعة تحت الأقدام؛ ومعنى الحديث: «أَيُّ الَّذِي أَحْدَثُوهُ، وَالشَّرَائِعَ الَّتِي شَرَعَوْهَا فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَالْجَاهِلِيَّةُ: هِيَ الْمَدَّةُ الَّتِي كَانَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى الشِّرْكِ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، وَسُمِّيَتْ بِهَا لِكَثْرَةِ جَهَالَتِهِمْ. «تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ»، أَيُّ: بَاطِلٌ

وَمُهَذَّرٌ، وَلَا يُؤْخَذُ بِهِ» فالربا والتبرج والشرك والأوثان وما كان من الجهالات وغيرها.. كل هذا موضوع الأقدام ولا أثر له في الإسلام.

وأخيراً:

يوم عرفات: ذاك اليوم الذي تتسكب فيه العبرات وتُرفع فيه الدعوات إلى رب الأرض والسموات يُندب صيامه. فإن النبي صلى الله عليه وسلم: (سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَقَالَ: يُكْفَرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ. قَالَ: وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: يُكْفَرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ) [صحيح مسلم].

فهنيئاً لمن صامه .. ولهج فيه لسانه بالذكر والتهليل والدعاء.

والحمد لله رب العالمين

الراعون الأمانة

العناصر:

الأول: تعريف الأمانة.

الثاني: أهميتها وشموليتها.

الثالث: الأمانة والموصوفون بها.

(الموضوع)

قد جعل الله تعالى من صفات وارثي جنّات النعيم أنهم لآماناتهم وعهدهم راعون؛ فقال جلّ ذكره وتقدست أسماؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ .. وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ .. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿المؤمنون﴾.

أولاً: تعريف الأمانة. قيل في تعريفها: (كلُّ حقٍّ لزمك أدائه وحفظه)، وقيل: (كل ما افترض على العباد فهو أمانة؛ كصلاة وزكاة وصوم وأداء دين، وأوكدها ردُّ الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار). فالفروض والحقوق اللازمة عليك: هي أمانة، كذلك العبادات بأنواعها، كذلك ما استأمنك عليه الناس من الأموال والودائع والأسرار. وهذا يؤدي بنا إلى الحديث عن شموليتها:

ثانياً: أهميتها وشمولها.

الأمانة في الإسلام لها أهمية عظمى ومكانة سامية؛ فلأهميتها هذه كلف الله تعالى بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، فذلك المخلوق الضعيف هو الذي تولّى حملها؛ بينما رفضت وأبت الجبال الراسيات والسماوات والأرض؛ وهذا المعنى الشمولي السابق ذكره؛ يؤكده قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ

اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال] وكذلك كان: (النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) [أخرجه البخاري].

وعن حذيفة بن اليمان قال: (حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ؛ حَدَّثَنَا: أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ. وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظِلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ، فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَحْرَجَتْهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَفِطُ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيَقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيَقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ! وما أَظْرَفَهُ! وما أَجْلَدَهُ! وما فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ؛ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايِعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا) [أخرجه البخاري]. فنسأل الله تعالى أن يحفظ علينا ديننا وأن لا نكون ممن قُبِضَتِ الْأَمَانَةُ مِنْ قُلُوبِهِمْ.

ومما يدل على أهميتها كذلك:

أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري بعد أن ذكر جملةً من أقوال المفسرين: «فتأويل الكلام إذن: يا أيها الذين آمنوا، لا تتقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه، ولا رسوله من واجب طاعته عليكم، ولكن أطيعوهما فيما أمركم به ونهياكم عنه، لا تتقصوهما "وتخونوا أماناتكم"، وتتقصوا أديانكم،

وواجب أعمالكم، ولازمها لكم "وأنتم تعلمون"، أنها لازمة عليكم، وواجبة بالحجج التي قد ثبتت لله عليكم».

ومما يدل على أهميتها: أنها من الصفات اللازمة للنبي - أي نبي -.. ففي قصة هرقل مع أبي سفيان: (أخبرني أبو سفيان، أن هرقل قال له: سألْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَرَعَمْتَ: أَنَّهُ أَمَرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَقَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ) [أخرجه البخاري].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا .. وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَّتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا ..) [أخرجه مسلم] وقيامهما لمطالبة كل من يمرُّ على الصراط بحقهما.

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: (أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا ائْتُمَنَّ خَانَ، وإذا حَدَّثَ كَذِبًا، وإذا عَاهَدَ غَدْرًا، وإذا خَاصَمَ فَجْرًا) (أخرجه البخاري).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصَدَقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةٌ طُعْمَةٍ) [أخرجه أحمد].

(لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكَفْرُ فِي قَلْبٍ امْرِيٍّ، وَلَا يَجْتَمِعُ الصَّدَقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا، وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا) [أخرجه أحمد].

وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من ضدها فقال: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَوْرِ؛ فَإِنَّهُ بئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بئْسَتِ الْبِطَانَةُ) [أخرجه أبو داود وغيره].

وعلى ذلك .. فالظاهر الواضح من هذه النصوص؛ أن الأمانة هنا لا تتعلق بالأموال فحسب بقدر ما هي تشمل كثيرا من الأمور الدينية والدنيوية غير الأموال وحفظها، وقد قال الطبري بعد ذكر أقوال التابعين في الآية: «إنه عني بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في

الدين وأمانات الناس وذلك أن الله لم يخص بقوله ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ بعض معاني الأمانات لما وصفنا» فهناك من أنواع الأمانات:

(الأمانة في الدين وفرائضه، والأمانة في العلاقات الزوجية، والأمانة في المسئولية والقيادة، والأمانة في حفظ الجوارح، والأمانة في حفظ الودائع، والأمانة في المجالس، والأمانة في الكلمة..).

• ففي العلاقة الزوجية أمانة؛ بل هي من أعظم صورها. ففي حجة الوداع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (.. فَأَتَقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ..)[أخرجه مسلم]. هذا عموماً في الزواج، وفي العلاقة الزوجية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) [أخرجه مسلم].

• أمانة المجالس وأسرارها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ نَقَتَ فِيهِ أَمَانَةً) [أخرجه أبو داود].

• وفي سياسية الناس وقيادتهم. ففي الصحيح أن أبا ذرٍّ قال : (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) [أخرجه مسلم].

• والأمانة في حفظ الودائع وردّها إلى أصحابها: وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء]، وقول الله تعالى في آيات أحكام الدين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَهُ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ۚ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ﴾ [البقرة] وكذلك في حديث جابر بن عبد الله بن حرام وقد كان على والده دين؛ فلما كان وقت جداد النخل وأراد أن يرى الغرماء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ شفاعاً به عندهم - وكانوا يهوداً ... ففي الحديث.. (فَمَا زَالَ يَكِيلُ لَهُمْ حَتَّىٰ آدَى اللَّهُ أَمَانَةَ

والدي [صحيح البخاري]. وقد ذكر الله تعالى فضيلة لبعض من أهل الكتاب إذا أمنهم إنسان على قنطار أداه إليه، وإن أمن بعضا منهم على دينار لم يؤده إليهم؛ فقال جل ذكره: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فسبحان من كان بالعدل موصوفاً!!.

- **أمانة الكلمة (نصحا، وشهادة، ومشورة ..)** فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَانِئٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المستشار مؤتمن) [أخرجه الترمذي]، وقال أيضا: (مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْتًا فِي جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَقْتَى بغيرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَقْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ) [أخرجه أبو داود] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تَحَدَّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مَصَدَّقٌ، وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ) [أخرجه أبو داود .. وهو ضعيف]. ومن أكبر أنواع الخيانة في الكلمة ما جاء في قصة حاطب وكتابه إلى قريش: (فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ حاطبٌ: وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعَنِي فَلَاضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ فَدَمَعْتُ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) [أخرجه البخاري] وهذه لأهل بدر؛ وأما سواهم فهي خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين.

- **أمانة الجوارح .. فهي وديعة ومستنطقة.** وسوف تُسأل عنها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء] فسوف تؤدي هذه الجوارح أمانات

يجدُها صاحبُها؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور] وقال تبارك اسمه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت].

• الأمانة في التجارة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (التاجر الأمين الصدوق المسلم: مع النبيين، والصديقين، والشهداء يوم القيامة) [ابن ماجه في سننه].

ثالثاً: الأمانة والموصوفون بها.

- الله .. هو مَنْ تُحْفَظ عنده الودائع: فقد: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ودَّع رجلاً أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو يدع يد النبي صلى الله عليه وسلم ويقول "أستودع الله دينك وأمانتك وآخر عملك وفي رواية "وخواتيم عملك") [أخرجه أبو داود].

- وصف الله تعالى بها الأنبياء؛ فقال جل ذكره وتقدست أسماؤه عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم جميعا الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٍ﴾ [الشعراء]. وعن موسى عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَتِ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص]، وعن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف] ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان معروفاً عند قومه بالصادق الأمين "وقال عن نفسه: (أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً) [أخرجه البخاري].

- جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء].

- **المؤمنون:** فقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ .. وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون] (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمانه الناس على دمائهم وأموالهم) [أخرجه الترمذي في سننه]. و(عن مصعب بن سعد قال: المؤمن يطبع على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب) [الإيمان لابن أبي شيبة].

- **المصلون:** فقد ذكر الله تعالى من أوصاف المصلين أنهم يحافظون عليها: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ .. وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج].

فالواجب علينا أن نوسع مفهوم الأمانة كما رأينا، وأن نفتدي بأنبياء الله تعالى عليهم الصلوات والسلام الموصوفين بالأمانة، ونسأله سبحانه وتعالى أن يُثَبِّتَهَا فِي قُلُوبِنَا.

والحمد لله رب العالمين

الراعون العهود

العناصر:

الأول: التعريف بالعهد (والوعد).

الثاني: أنواع العهود (عهدٌ بيننا وبين الله تعالى، وعهد مع العباد).

الثالث: من أوصاف أهل الإيمان (الوفاء بالعهد).

الرابع: من أوصاف أهل المعصية (نقض العهود).

الموضوع:

يُعرف معنى العهد: بـ (الوصية)، و(الأمان)، (الحفاظ ورعاية الحرمة) و(الذمة). وهو حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وعهد فلان إلى فلان أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه.

أنواع العهود:

العهد الذي بين الله وبين عباده:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس] وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَىءِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف] وقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام]. فالعهد الذي بين الله تعالى وبين عباده أنه سبحانه وتعالى: أمرهم بعبادته ووصاهم بها ونهاهم عن عبادة غيره؛ فكلُّ مظهرٍ من مظاهر عبادة غير

الله تعالى إنما هو عبادة للشيطان، وبذلك يكون العابدون غير الله تعالى ناقضون للعهد الذي أخذه الله تعالى عليهم وهم في ظهر أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان هذا هو عهده إلى العباد؛ فكذلك هو حقه عليهم كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه قال: (كُنْتُ رَدَفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، قَالَ: فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ، قَالَ: لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَنْكِلُوا) [صحيح البخاري]. فهو عهدٌ بينه سبحانه وتعالى وبين عباده، وهو حقه كذلك عليهم؛ بل وما خلقهم إلا له؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

وهناك عهدٌ بالإمامة في الدين؛ وقد جعله الله تعالى لصنف من الناس لا ينال غيرهم: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]. فالإمامة في الدين ليست للظالمين؛ بل هي لعباد الرحمن الذين قالوا في دعائهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان].

العهد الذي بيننا وبين العباد:

لا تخلوا معاملات الإنسان من العهود أو العقود التي يقيمها بينه وبين إخوانه المسلمين وغيرهم؛ وهو مأمور فيها بالوفاء. فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة] وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء]. وقد قال سبحانه في ردِّ زعم الزاعمين من أهل الكتاب أنه ليس عليهم في الأميين (العرب) سبيل إي: إثم أو جناح: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران].

حتى ولو كان هذا العهد مع غيرنا ممن خالفونا في ديننا وأخلاقنا؛ فقد قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (ما مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بِذُرٍّ إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذْنَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ) [أخرجه مسلم]. صلى الله عليه وسلم.

من أوصاف أهل الإيمان (الوفاء بالعهد):

وهذه الصفة قد امتدح الله تعالى بها عباده المؤمنين في غير ما موضع من كتابه؛ فقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد] وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة] وقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب] وقال تعالى في وصف أهل الإيمان وأهل الصلاة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ في موضعي "المؤمنون والمعارج".

وفي خبر أبي سفيان - قبل إسلامه - مع هرقل عظيم الروم: عندما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وفيه: (أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ، أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَرَعَمْتُ: أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَقَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ) [أخرجه البخاري].

من أوصاف أهل المعصية (نقض العهود).

وإذا كان الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين؛ فنقض العهود والعقود وعدم مراعاتها من أوصاف المنافقين والفاسقين والكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۚ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَل وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿البقرة﴾ وقال عن أهل الكتاب: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا تَبَدَّهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة]، وقال عن أكثر الأمم التي أرسلت إليها الرسل: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف] وقال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنَ عَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا عَاتَلَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة] وقال أيضا: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة]. وفي الحديث: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) [أخرجه البخاري].

أثر الوفاء بالعهود في الدنيا والآخرة: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة] ومن الآثار المترتبة على الوفاء بالعهود لا سيما العهد الإلهي؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور] وليس بين الوعد أو العهد كبير فرق.

وأثر نقضها في الدنيا والآخرة: قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد]، وقال تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال] وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَاءٍ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ) [أخرجه مسلم]. فنسأل الله تعالى السَّتْرَ في الدنيا والآخرة.

ونسأله الله تعالى أن يجعلنا من الموفين بعهدهم إذا عاهدوا .. آمين

الحافظون فروجهم

العناصر:

المقدمة.

أولاً: آيات وأحاديث في حفظ الفروج.

ثانياً: من أي شيء نحفظها؟.

ثالثاً: من فضائل حفظ الفروج.

رابعاً: تشريعات لحفظ الفروج.

(الموضوع)

من الصفات التي امتدح الله بها المؤمنين والمؤمنات والتي رتب عليها الثواب العظيم والأجر الحسن الجزيل؛ حفظ الفروج. وهي صفة تحرص عليها النفوس الحرة؛ بل وترى في إزهاق النفوس والأرواح دونها منقبة عظيمة ومكانة سامية. فلا تفرط فيها بأي نوع من التفريط. وكيف لا يكون أمرها كذلك وهي عنوان الحرية والطهر والعفاف والشرف والرفعة. وفوق هذا وذاك من صفات وارثي جنات النعيم. فمن النصوص التي توضح ذلك:

أولاً: آيات وأحاديث في حفظ الفروج:

جاء في كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ما يجلي هذه المكانة ويظهرها: فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون] ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً

وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب] ولمّا كانت هذه الصفةُ هي الأبرز والأوضح؛ في قصة مريم عليها السلام؛ ذكرها الله عنها فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] وفي موضع آخر قال عنها: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ﴾ [التحریم]. وكان من قال عليها غير ذلك فقد جاء بالبهتان العظيم؛ فقد قال سبحانه عن اليهود أهل الإفك؛ فقد اتهموها بالبغاء؛ فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۝ [النساء] بل وجاء الأمر بحفظها وبالأسباب المؤدية إلى ذلك؛ فقال جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور]. فغضُّ البصر سبب من الأسباب الرئيسة المؤدية إلى حفظ الفروج.

وأما من سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

فقد قال عليه الصلاة والسلام: (أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفرج والفم، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق) [أخرجه الترمذي وأحمد]، وجاء: (أن غلاماً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قَرَّبُوهُ، اذْنُ فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أتحبُّه لأُمَّكَ فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يُحبُّونه لأُمَّهاتهم، أتحبُّه لابنتِكَ؟ قال: لا، جعلني الله فداك قال: كذلك الناس لا يُحبُّونه لبناتِهِمْ، أتحبُّه لأَخْتِكَ؟ وزاد ابنُ عوفٍ حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقولُ في كلِّ واحدٍ لا، جعلني

الله فداك، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ كذلك الناسُ لا يُحِبُّونَهُ: فوضع رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على صدره وقال: **اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبَهُ وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ** فلم يكن شيءٌ أبغضَ إليه منه) [أخرجه أحمد]، وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) [أخرجه البخاري]، وقال شكلُ بنُ حميد: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ عَلَّمَنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ قَالَ فَأَخَذَ بَكَفِّي فَقَالَ قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي وَمِنْ شَرِّ مَنِيٍّ يَعْنِي فَرْجَهُ) [أخرجه الترمذي في سننه].

ثانياً: من أي شيء نحفظها؟.

يُقال: "الاستثناء دليل العموم"، فإذا ما أمرنا بحفظ الفروج عاماً ثم جاء الاستثناء من هذا العموم؛ فيكون حفظها من كل شيء واجباً إلا ما كان بين الرجل وزوجته، أو بينه وبين ملك يمينه؛ وليس هذا فقط: بل إن زوجتك وملك يمينك أنت مقيّدٌ معهما بقيود لا تتعداها. وعلى كلِّ حال فمن أفراد هذا العموم؛ أمور ينبغي أن نحفظ فروجنا منها، وهي:

- **النظر إليها:** (عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال قلتُ يا رسولَ الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك. قال قلتُ يا رسولَ الله إذا كان القوم بعضهم في بعضٍ قال إن استطعت أن لا يرينّها أحدٌ فلا يرينّها قال قلتُ يا رسولَ الله إذا كان أحدنا خالياً. قال الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناسِ) [أخرجه الترمذي في سننه] وعن جرهد: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه كشف عن فخذه، فقال: غط فخذك، فإن الفخذ من العورة) [سنن الترمذي].

- **الزنا وكل وسيلة تؤدّي إليه:** قال الله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان] وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء]، بل وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم

البيعة على النساء وكان مما بايعهن عليه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة].

- **فعل قوم لوط (الشذوذ الجنسي عموماً):** تلك الجريمة التي جمع الله لأهلها من العذاب والهلاك ما لم يجمعه لأمة كافرة قبلها ولا بعدها؛ فطمس عيونهم وأرسل عليهم حجارة من سجيل، وخسف بقراهم فجعل عاليها سافلها؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَبَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت] ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنضُودٍ ﴿٣٠﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود] وقال أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴿٣٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالُ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾ [القمر] فهذه الفعلة الشنيعة والقيحة؛ تدنست فيها الفطرة فذهبت مذهباً غير الذي هداها الله تعالى إليه.

ثالثاً: من فضائل حفظ الفروج:

- **دخول الجنة:** قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ... أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿٦﴾﴾ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ) [أخرجه

أحمد]، وجاء في وصف أهل الجنة: (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُفْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَفِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ) [أخرجه مسلم].

- **تفريح الكربات:** في قصة سارة عليها السلام: (فَقَامَتْ تَوَضُّاً وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَخْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ) [أخرجه البخاري في صحيحه]، وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة؛ وفيهم: (وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَحَبُّ امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ، فَقَالَتْ: لَا تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِئَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَقْضِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً، قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثَّلَاثِينَ) [أخرجه البخاري في صحيحه].
- **في ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: .. ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا، قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ) [أخرجه البخاري].

- **مغفرة الذنوب.** قال الله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

رابعاً: تشريعات لحفظ الفروج.

إن المتدبر في نصوص الشريعة يجد حفظ الفروج مُحاطاً بسياج متينٍ من الشرائع والأحكام؛ وهذا لأنه يتعلق بضرورة من الضروريات الخمس؛ والتي هي: (النَّسْل). فالنَّسْل: وما يتعلق به من إلحاق الأبناء بأبائهم، وانتساب الفروع إلى الأصول والحفاظ على فراش الزوجية من التدنُّس، وما يترتب على عدم الحفاظ عليه من إلحاق العار والمسبة بالأهل والعشيرة؛ كل هذه أمور تُبين أهمية التشريعات التي وُضِعَتْ لأجله والتي منها: (حدُّ الزنى، وحدُّ القذف، وتشريع اللعان، حفظ البصر،

والاستئذان، وعدم الخلوة بالنساء أو الدخول عليهن بغير محرم، وتحريم سفر المرأة بغير محرم، وتحريم مُصافحة المرأة الأجنبية) وأدلة هذه التشريعات معروفة معلومة لمن أراد.

وأخيراً .. دعاء:

دعاءً في قصة الفتى الذي أراد أن يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الزنا: (اللَّهُمَّ اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصّن فرجَه، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء).

(فاللهم اغفر ذنوبنا وحصّن فروجنا وطهر قلوبنا)

النفس المسلمة

العناصر:

المقدمة.

أولاً: تعريف الإسلام وآلات الاستسلام.

ثانياً: الإسلام دين الأنبياء جميعاً.

ثالثاً: فضل الإسلام.

رابعاً: أوصاف المسلمين.

(الموضوع)

الجنة .. دار جعلها الله تعالى لعباده المسلمين فلا يدخلها غيرهم؛ وهذا ما جاء مُصرّحاً به في آيات الذكر الحكيم وعلى لسان سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم. فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١﴾ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [البقرة]. وكذلك جاء الخُسران في الآخرة مُترتباً على من ابتغى ديناً غير الإسلام؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٨٤﴾ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخسرين [آل عمران]. وقد جاء تحريم الجنة كذلك على غير المسلمين فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ٧٢﴾ [المائدة].

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم - والحديث له قصة -: (تُثَمَّرُ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ) [أخرجه مسلم].

وفي سؤال مُنكَرٍ وَنَكِيرٍ: (وَبِأَتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ فَيَقُولَانِ لَهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا يُدْرِيكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ آمَنْتُ وَصَدَّقْتُ) [أخرجه أحمد وأبو داود]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) [أخرجه مسلم].

أولاً: تعريف الإسلام وآلات الاستسلام:

لن يكون هناك تعريف هو أبلغ من تعريف النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام؛ فإذا نظرنا في سُنَنِهِ صلى الله عليه وسلم وجدنا؛ أنه قد: (جاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا الْإِسْلَامُ؟ فَقَالَ: تَعَبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنَا مُسْلِمٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: صَدَقْتَ..) [أخرجه أبو داود وأحمد]. وكذلك: (جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرِ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْهَمُ مَا يَقُولُ؛ حَتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ. وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ. فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ) [أخرجه مسلم].

وحديث: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، وَفِي حَدِيثٍ أُبَيُّ أَسَامَةَ غَيْرِكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ) [أخرجه مسلم].

وحديث: (إِنَّ لِلْإِسْلَامِ صَوِيَّ وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، مِنْهَا أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحُجُّ الْبَيْتِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ إِذَا مَرَرْتَ بِهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا [فَقَدْ تَرَكَ سَهْمًا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَرَكَهِنَّ] فَقَدْ وَلَّى الْإِسْلَامَ ظَهْرَهُ) [الإيمان لأبي عبيد].

وحديث معاوية بن حيدة القشيري: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أَوْلَاءٍ إِلَّا أَتَيْتَكَ وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَقَدْ جِئْتُ أَمْرًا لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ: بِمَ بَعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: بِالْإِسْلَامِ، قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَتَخْلِيَتْ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ) [أخرجه أحمد في المسند]. فانظر إلى إسلام الوجه والتخلي وإلى قول: آمنت بالله وإلى أعمال الجوارح فكلها أمور توضح وتحقق معنى الإسلام.

ثانياً: وأما آيات الاستسلام.

فعلى المسلم أن يستسلم بوجهه وقلبه وجوارحه كلها لله تعالى؛ فقد قال سبحانه: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ {النساء}. «ولا أحد أحسن ديناً ممن استسلم لله ظاهراً وباطناً وأخلص نيته له وأحسن في عمله باتباع ما شرع ..».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْإِيمَانَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يُسَلِّمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسَلِّمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بِوَأَثْقِهِ) [أخرجه أحمد وهو ضعيف].

فلا بد من إسلام القلب واستسلامه بين يدي مولاه. وكذلك الجوارح من اليد واللسان ظاهرا وباطنا. وذلك حتى لا يتشبه المسلم بمن كان الإسلام على ظواهرهم والنفاق والكفر في بواطنهم.

ثالثاً: الإسلام دين الأنبياء جميعاً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران] فهو دين الأنبياء جميعاً: فنوح عليه السلام قال الله عنه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس] وقال الله عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبي الأنبياء: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٢١٧] إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران] وعن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس] وكذلك عن عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] وقال عن سليمان عليه السلام وعن ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل].

فالأنبياء كلهم عليهم صلوات الله وسلامه؛ دينهم هو الإسلام، وإن كان ثمت فرق فهو في الشرائع والعبادات وأما في الأصول فقد قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى]. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوة لعلات: دينهم واحد، وأمّهاتهم شتى) [أخرجه البخاري]. فهم كأبناء الرجل الواحد الذين تعددت أمهاتهم.

رابعاً: من فضائل الإسلام ومميزاته؛ ما يلي:

- عِصْمَةُ النَّفْسِ وَالدِّمِ وَالْمَالِ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه) [أخرجه مسلم]، وقال: (لا يحلُّ دم امرئٍ مسلمٍ، يشهدُ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِذْنِ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّيْبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ [صحيح البخاري]؛ فمن فضائل الإسلام: أَنْ مَنْ ثَبَتَ لَهُ عَقْدُ الْإِسْلَامِ فَقَدْ عَصَمَ نَفْسَهُ وَدَمَهُ وَمَالَهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ يُنَاقِضُ هَذَا الْعَقْدَ أَوْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ يُسْتَحِلُّ بِسَبَبِهِ نَفْسَهُ أَوْ دَمَهُ أَوْ مَالَهُ.

• (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا) [البخاري في الصحيح]، فَمَنْ كَانَ إِسْلَامُهُ حَسَنًا لَيْسَ كإِسْلَامِ الْمُنَافِقِينَ اسْتَحَقَّ هَذَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ؛ فَالْخِطَابُ فِي الْحَدِيثِ لِلْمُخَاطَبِينَ وَلِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

• (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهَا يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ) [البخاري في الصحيح].

• (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيَدَ أَنَّهُمْ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأَوْتَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ، قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى) [أخرجه مسلم في الصحيح].

• أَنْ الْإِسْلَامَ دِينَنَا قَدْ امْتَنَزَ عَنْ غَيْرِهِ بِأُمُورٍ مَجْمُوعَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة] فهذا الدين

الذي هو النعمة العظمى والمِنَّة الكبرى: قد أكمله الله تعالى لا غيره، وقد أتمه سبحانه لا غيره، وقد رضىه سبحانه وتعالى لنا دينا فلم ولن نرضى بغيره.

وإن أردت أن تعلم قدر النعمة هذه؛ فسوف يحدثك عنها مَنْ فقدها. فقد: (جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا نزلت، معشر اليهود، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال: {اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً}، فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم الجمعة) [صحيح مسلم]. ومن علم حال اليهود وما هم عليه: من حيث الاختلاف في عدد أسفارهم المقدسة، وتحريفهم لها بأيديهم، وإخفاؤهم لها كذلك، ومن علم ما ألصقوه من العيوب والنقائص والمستتبشات بالذات الإلهية وبأنبياء الله عز وجل علم يقينا أنه دين لم يرض الله عنه. وهذا عند اليهود. أما عند النصارى فما من سيئة أو قبيحة عند اليهود إلا ومثلها عند النصارى أو أشد.

- ومن مميزاته: (كل حلال فيه طيب، وكل حرام فيه خبيث). فقد وصف الله تعالى نبيه في الكتب السابقة بقوله: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف] وقال عن اليهود: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء] وقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام]. فليس عندنا حلالٌ حرمه الله تعالى؛ بخلاف غيرنا فقد حرم عليهم طيبات وكان تحريمه إياها عليهم عقوبة لهم.

• ومن مميزاته: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء]. فلم ولن نجد في كتابنا ولا ديننا اختلافاً؛ لأنه من لدن حكيم خبير، ولأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو تنزيل من حكيم حميد سبحانه وتعالى. فليس هناك اختلاف بين أول ما نزل وآخر ما نزل، ولا بين شريعة وشريعة من العبادات أو من المعاملات، ولا بين القرآن الكريم وبين وشرحه وتفسيره؛ وهو السنة النبوية. وإن كان ثم تناقض أو اختلاف فإنما هو في نظر الناظر وفهمه لا في حقيقة الأمر؛ فإما أن يكون تقييداً لمطلق أو مخصصاً لعام أو بياناً لمجمل.

إخواني: مميزات الإسلام كثيرة جداً، فهناك مميزات في عقائده وشرائعه ومعاملاته، ومميزات لكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ومميزات لأحكامه: إذ كل قاعدة من قواعد الفقه - العامة أو الكلية بل والجزئية - تصلح لأن تكون مزية من المميزات.

أوصاف المسلمين:

وقد جعلتها قسمين:

الأوصاف العامة⁽¹⁾: ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنَّ للإسلام صُوىَ ومَنَارًا كمنار الطريق، منها أن تؤمن بالله ولا تشرك به شيئاً وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تسلم على أهلِكَ إذا دخلت عليهم وأن تسلم على القوم إذا مررت بهم، فمن ترك من ذلك شيئاً، فقد ترك سهماً من الإسلام ومن تركهن كلهن فقد ولَّى الإسلام ظهره) [الإيمان لأبي عبيد]؛ ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ لِكُلِّ دين خُلُقًا، وإنَّ خُلُقَ الإسلام الحياءُ) [ابن ماجة في السنن]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (المسلمون

(1) وقد قصدت بها: تلك الأوصاف التي إذا نظر الناظر إلى المجتمع كمجتمع: حكم عليه للوهلة الأولى بأنه مجتمع مغاير للمجتمعات الأخرى، وهذا لأجل الأوصاف العامة التي هي للمجتمع وليس للأشخاص بأفرادهم؛ وإن كان الأفراد هم القائمون بها، أو بعبارة أوضح: يُنظر في هذه الأوصاف إلى الأفعال بغض النظر عن فاعليها (كقضية الفروض الكفائية؛ فالشارع ينظر فيها إلى الفعل لا إلى الفاعل).

عند شروطهم، إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً) [الترمذي في السنن] ومما يؤكد وصف العمومية هذا؛ وأنه ينبغي أن يكون ظاهراً واضحاً للعيان ما جاء في قول هند بنت عتبة رضي الله عنها واصفة حالة من الحالات المهيبة في نفوس الصحابة رضي الله عنهم والتي أثرت عليها فذهبت بعدها مُعلنة إسلامها؛ في فتح مكة: (إني والله، والله ما رأيتُ الله عبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة. والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً)⁽¹⁾.

فلا بد من صناعة رأي عام للمسلمين في مجتمعهم؛ فهذه (منارات ظاهرة، وصوى - وهي: الأحجار والهضاب البارزة في الطريق - وهذه الصلوات الجماعية، وهذه الأخلاق: كالحياء، والوفاء بالشروط..) لابد من وجودها في المجتمع بصورته العامة كي يكون الدين في النفوس وفي الأعين ظاهراً واضحاً؛ فالله قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[التوبة] فهو نور لا ينطفئ، ودين حق سيظهر.

الأوصاف الخاصة:

فالمسلم من أوصافه أنه لا يتسبب في إلحاق الشرور بالآخرين؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: في الدعاء الذي علّمه لأبي بكر رضي الله عنه: (يا أبا بكر!.. أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم) [الترمذي وأحمد] وقال عن القرين الذي وكّل به صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد، إلا وقد وكّل به قرينه من الجنّ، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإيائي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير) فالمسلم لا يأمر إلا بخير؛ ولا يجرّ الشر إلى الغير. وقال صلى الله عليه وسلم لمّا سئل: (أيّ الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام، على من عرفت ومن لم تعرف) [البخاري في الصحيح]، ولمّا: (سئل: أيّ المسلمين أفضل؟ قال من سلّم المسلمون من لسانه ويده)

(1) يُنظر ترجمتها في الإصابة في تمييز الصحابة رقم الترجمة (11996) ط: مركز هجر للبحوث والدراسات.

[مُسلم في الصحيح]، وقال: (مثلُ المؤمنين في تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ. مثلُ الجسدِ إذا اشتكى مِنْهُ عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) [مُسلم صحيحه]، وقال: (مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) [أخرجه مسلم]، وقال: (المسلمونَ تتكافأُ دماؤُهُم ويسعى بذمتِهِمْ أدناهُم، ويردُّ عليهم أقصاهُم، وهم يدُّ على من سواهم، ولا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ ولا ذو عهدٍ في عَهْدِهِ) [أبو داود في السنن]، وقال: (ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البذيءِ) [الترمذي في السنن].

وأخيراً: .. الدعاء بالثبات والحياة على الإسلام والوفاء عليه مشهور متواتر؛ فلا بد من اللهج به والاستكثار منه، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] وقال يوسف عليه السلام في دعائه: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف] بل هذه وصية أبيه وجده عليهما السلام: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة]. و: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى على جنازة قال: اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدينَا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان [زاد بعضهم] اللهم لا تحرمنَا أجره ولا تضلَّنَا بعده) [أبو داود والترمذي]، وحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه عليه: ف(كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ طَعَامِهِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ) [الترمذي وابن ماجه وفيه ضعف].

فالحمد لله على الإسلام.

المُحسنون

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

العناصر:

أولاً: تعريف الإحسان، ومقوماته، وفضائله.

ثانياً: أوصاف المحسنين.

ثالثاً: كيف نحقق الإحسان؟.

رابعاً: مجالات الإحسان.

خامساً: جزاء المحسنين.

(الموضوع)

قد جعل الله تبارك وتعالى جعل جزاء المحسنين عظيماً؛ فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس] والحُسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى في جنّات النعيم؛ ففي [صحيح مسلم] عن صهيب بن سنان الرومي: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. وفي رواية: وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. وقال تبارك وتعالى عن الذين أسلموا من أهل الكتاب وكانوا مؤمنين بنبيهم ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة] فهؤلاء آمنوا بالحق واتبعوه في أيِّ مكان كانوا أو كان هذا الحق، وآمنوا به لأنه الحق لا لأنه مع

هذا أو ذاك؛ فلأجل هذا وذاك استحقوا هذا الوصف (المحسنون)، فما هو هذا الإحسان الذي استحقوا لأجله هذا الثناء العظيم وهذا الجزاء الجزيل.

أولاً: تعريف الإحسان، ومقوماته، وفضائله.

ليس بعد تعريف النبي صلى الله عليه وسلم للإحسان تعريف؛ فهو عليه الصلاة والسلام يكشف الحقائق الشرعية ويُجَلِّبها أعظم جلاء لأنه لا ينطق عن الهوى؛ إن هو إلا وحيُّ يُوحى؛ فلما سئل عن الإحسان قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [أخرجه البخاري ومسلم]. فهما مقامان؛ أولهما - وهو الأعلى - : مقام **المُشاهدة**. فالعبد إذا استحضر هذا المقام لا شك بأنه سيحسن العمل ويجتهد في تحسينه وإخراجه على أكمل الوجوه. **ثانيهما: مقام المراقبة**. وإذا استحضر العبد هذا المعنى قذف في نفسه الخوف من الجليل فاجتهد؛ ومن ثمَّ أحسن العمل.

ولنضرب لذلك مثلاً مادياً يوضح هذا المعنى ويكشفه؛ تلك الكاميرات "كاميرات المراقبة" التي توضع في المحلات أو الشركات أو في محلِّ للعمل أو على الطُرقات؛ فمن أيقن بمراقبتها وتسجيل أفعاله وحركاته لن ولم يُقَصِّر في المطلوب منه. وهناك أشخاص: **سواءٌ عليهم المراقبة من عدمها؛ لأنهم يعملون لله تعالى فقط.**

ومن الأمثلة القرآنية التي تُذكر في هذا المقام؛ قول الله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء] فنادى ربّه سبحانه مُستخدماً في نداءه ضمير المخاطب؛ فكأن الله تعالى ماثلاً أمام عينيه ويخاطبه بحاجته. ومن الآيات الدالة عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) **الَّذِي يَرْنُكَ حِينَ تَقُومُ** (٢١٨) **وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ** (٢١٩) **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** [الشعراء] فالله تبارك وتعالى يراك لا يخفى عليه شيء من أمرك؛ بل ولا تحجب هذه السماوات وهذه المسافات الشاسعة أمر خلقه عنه؛ ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون]؛ فليست هذه الطرائق السبع الشداد حاجبةً لعلم الله تعالى عن خلقه. بل إن العبد إذا شرع في عمل من الأعمال فالله

سبحانه وتعالى شاهدٌ عليه قبل أن يُفيض فيه، وحال فعله له؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس]. فمقام المشاهدة ومقام المراقبة عليهما مدار الإحسان؛ الذي هو أعلى مقامات الإسلام.

ومن فضائل الإحسان بالإضافة إلى ما تقدم ذكره:

أن الله تعالى جعل أهله في أمنٍ؛ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

وأن الحسنات الماضية قبل إسلامهم تُكْتَب، والتي بعد ذلك تتضاعف، والسيئات تُمَحَى: (إذا أسلم العبدُ فحسن إسلامه كتب الله له كل حسنةٍ كان أزلها، ومُحيت عنه كل سيئةٍ كان أزلها، ثم كان بعد ذلك القصاصُ الحسنَةُ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، والسيئةُ بمثلها إلا أن يتجاوز الله عز وجل عنها) [أخرجه النسائي]؛ وهذا إذا كان الإسلامُ صحيحاً حسناً بريئاً من الشكوك. وقد قال صلى الله عليه وسلم أيضاً: (العبدُ إذا نصح سيده، وأحسن عبادَةَ ربه، كان له أجرُهُ مَرَّتَيْنِ) [أخرجه البخاري]. فأجرٌ على إحسانه لربه وأجرٌ على إحسانه لسيده.

ولهم جزاءٌ في الدنيا مع ما يُدْخِرُ لهم في الآخرة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل] فلهم في الدنيا حسنة؛ هي: الزوجة الصالحة، وطمانينة القلب، والرزق الطيب المبارك فيه، والنصر، والأولاد الصالحون، ولهم فيها كذلك نعيم لا يعلم قدره ولا وصفه إلا مَنْ ذاق طعمه وهو نعيم المعرفة والأنس بالله تعالى، فهذه هي جنة الدنيا وهي لهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل]. فهو لأجلهم: (النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة، والجنة، ولا

خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتكفير ما سلف من الذنوب، ومضاعفة الحسنات، ولهم في الدنيا حسنة لا يعلم شأنها إلا الصالحون)!!.

ثانيا: أوصاف المحسنين.

ومما لا شك فيه أن هذا الصنف من أهل الإسلام لهم صفات شريفة وخصال منيفة؛ وذلك أن لهم عند الله تعالى أعلى جزاء وأجل ثواباً، فمن أوصافهم:

• **تحقيق الإسلام والإيمان.** قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة]؛ فهؤلاء الذين شربوا الخمر قبل تحريمها، ثم ماتوا؛ ليس عليهم جناح إذا ما حققوا الإيمان المشفوع بعمل الصالحات، ثم تقربوا إلى الله تعالى بالتقوى وزادوا بعد ذلك كله فعبدوا الله تعالى كأنهم يرونه - والله تعالى يحب من هذا وصفه - وهم المحسنون. فمقام الإحسان لا بد فيه من تحقيق مقام الإسلام وهو الأعمال الظاهرة، وبعده مقام الإيمان وهو الأعمال الباطنة ثم يأتي الإحسان.

• **العفو والصفح وكظم الغيظ عن المسيء.** وهذا من أبرز خصائصه؛ فهم مُحسنون مُتفضلون على غيرهم، فقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة].

• **بذل المعروف إلى الخلق.** فالمحسنون هم أهل البذل والسخاء والخير، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة]. ومن أمر النساء ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن بعضهن: (أُرِيتِ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ قِيلَ: أَيْكُفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتِ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) [أخرجه

البخاري]. وقد قال الله تعالى في قصة قارون وقول قومه له: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ^ط وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص].

• **التواضع للحق وللخلق، ورقة قلوبهم.** وفي ذلك قوله تعالى عن أقرب الناس إلينا مودة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^{٨٢} وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا فَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة] ثم قال عنهم: ﴿فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يستكبرون عن اتباع الحق ولم تتحجر قلوبهم ولا عيونهم ففاضت من الدمع خشية لله تعالى.

ثالثا: كيف نحقق الإحسان؟

إن تحقيق الإحسان في نفوس المسلمين لابد وأن يكون هدفاً يسعى إليه؛ فالله تبارك وتعالى أمرنا به فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل] ومن السبل التي نعين على تحقيقه؛ ما يلي:

- **تعظيم مقام المراقبة في النفوس.** فالله تبارك وتعالى الرقيب والشهيد، وفي هذا يقول الله تعالى على لسان عيسى عبده وكلمته ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ^ط فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة]، والله تعالى يقول: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف] فالله تعالى لا يغيب عن عباده.

- **حث النفوس على المجاهدة.** وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت].

- **إحسانك .. لنفسك أنت لا لغيرك.** قال الله عز وجل: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ^ط وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء]. وقال الله تعالى أيضاً: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن].

رابعاً: مجالات الإحسان.

ليس للإحسان مجالاتٌ محدّدة؛ ففي حديث عمرو بن شداد رضي الله عنه قال: (ثَنَتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) [أخرجه مسلم]. وأذكرُ شيئاً من هذه المجالات فأقول:

الإحسان في عبادة الله تعالى. بأن يؤدي العبدُ العبادةَ على الوجه الأكمل الذي يُحبه الله تعالى ويرضاه؛ فيكون في ظاهره وباطنه على حالة حسنة.

الإحسان إلى الخلق. ببذل الإنعام والمعروف إليهم؛ فيُعَلِّمهم ما ينفعهم ويعطيهم من أمواله وجاهه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيدفع عنهم الأذى في أعراضهم وأبدانهم وأموالهم؛ بل وعن طُرُقهم كذلك.

الإحسان إلى الحيوانات. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) [أخرجه مسلم] فإذا ما وصل الإحسان مع هذا الحيوان البهيم إلى هذه الحالة - الذبح - فما قبلها من الحالات رعايةً وقياماً على شؤونه أولى. والأحاديث في ذلك معروفة كالذي دخل الجنة بسبب سقاية كلب عطشان، وكذلك المرأة التي دخلت النار بسبب هرة حبستها.

خامساً: جزاء المحسنين.

تضافرت النصوصُ القرآنيةُ والأحاديثُ النبويةُ وتكاثرت على عِظم جزاء المحسنين؛ فقال جلّ ذكره مؤكداً محبته لهم: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة]، وقال نافياً عنهم الإثم والحرَج والجناح: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة]، وقد ذكر سبحانه قُرب رحمته منهم فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف]، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن

يُبَشِّرُهُم بِعَظِيمِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَالْقَبُولِ لِأَعْمَالِهِمْ؛ وَذَلِكَ بَعْدَمَا سَمَحَتْ نَفُوسُهُمْ وَطَابَتْ بِالْإِنْفَاقِ وَالبَذْلِ فَنَحَرُوا بُدْنَهُمْ وَأَطْعَمُوا الْفَقِيرَ الْمَتَعَفِّ وَالْمَتَعَرِّضَ بِالسُّؤَالِ فَقَالَ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج] وَذَلِكَ أَنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْنَ هُوَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذَاكِرًا مَعِيَّتَهُ لَهُمْ وَكَفَى بِهَا ثَوَابًا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت]، وَلَمَّا كَانَ وَصْفُهُمُ الْإِحْسَانَ وَالْعَطَاءَ وَالزِّيَادَةَ عَنْ مَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ؛ كَافَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالزِّيَادَةِ فَقَالَ: ﴿وَسَزِيدَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة] فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنَ اللَّهِ شَبِيرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا كَمَا فِي الْحَدِيثِ، وَجَزَاءُ الْإِحْسَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى الْإِحْسَانُ وَهُوَ أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمِنْهُ يُطْلَبُ الْمَزِيدُ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس] فَلَهُمُ الْجَنَّةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَضلاً وَكَذَلِكَ لَهُمُ الزِّيَادَةُ وَهِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى تَفَضُّلاً وَمِنَّةً وَرِضًا.

فَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّهُمْ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ أَعْمَالِهِمْ، وَكَافَّهُمْ بِزِيَادَةٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَوَعَدَهُمْ بِهَدَايَتِهِمْ، وَأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْهُمْ، وَبَشَّرَهُمُ بِالْخَيْرَاتِ وَأَعْلَاهَا الْجَنَّةَ وَأَعْلَى مِنْهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى .. رَزَقَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكُمْ.. آمِينَ

وَخِتَاماً .. ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فَاَلْمُحْسِنُ يَسْعَى لِنَفْسِهِ لَا لِغَيْرِهِ.

والحمد لله رب العالمين

الصادقون

العناصر:

أولاً: تعريف الصدق وأهميته وفضائله.

ثانياً: مجالات الصدق.

ثالثاً: الموصوفون بالصدق.

رابعاً: جزاء الصادقين.

(الموضوع)

وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصَّادِقِينَ بَجَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَرِضْوَانٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ فَقَالَ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة] وقال سبحانه أيضاً بعد أن ذَكَرَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ١٥ قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا عَامِتُونَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران].

فما هذا الذي كان سببا في هذا الجزاء: (الجنة .. وخالدون فيها) (أزواج مطهرة) و(رضوان من الله؛ وهو أكبر) وكذلك: (هم عن الله راضون!!) ولأجل هذا وغيره .. كان الوقوف مع هذه الفئة الموصوفة بهذا الوصف الشريف المنيف له أهمية كبيرة؛ نُوضِّح فيها حدّه، والموصوفين به، وأوصافهم، وجزاءهم في الدنيا والآخرة .. وغير ذلك مما سيظهر من خلال هذا اللقاء.

أولاً: تعريف الصدق وأهميته وفضائله.

أما تعريفه؛ فقد قيل فيه هو: «الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب».

وأما أهميته وفضائله فتظهر من خلال هذه النصوص:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب]. وقد ثبت: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ، قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: يَا مُعَاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا، قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: إِذَا يَتَكَلَّمُوا وَأُخْبِرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتُمًا) [أخرجه البخاري].

وقد جعله الله تعالى سببا من الأسباب الموصلة إلى الجنة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا) [أخرجه البخاري ومسلم]. وكيف لا يكون كذلك؟ والبر الذي يهدي الصدق إليه؛ قد شمل أعمال الدين كلها ظاهرة وباطنة فقال جل ذكره: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ (مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) (وَعَاَى أَلْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ) (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ) (وَعَاَى الزَّكَاةَ) (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) (وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة].

وكان من جزاء المُطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا في رُفقة حسنة؛ وهي: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء].

ومن فضائله (أن فيه النجاة): فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن ثلاثة نفر أواهم المبيت إلى غار فدخلوه؛ ثم انطبقت عليهم الصخرة؛ فسدت عليهم الغار، فلم يستطيعوا دفعها؛ فقالوا: (فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ، لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصَّدَقُ، فَلِيدِعْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ) [أخرجه البخاري]. وهذا صدق في نواياهم

وكذلك ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار عندما فاجأه الوحي في غار حراء: (قَالَتْ خَدِجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) [أخرجه البخاري].

وكذلك ما حدث في قصة كعب بن مالك عندما تخلف عن غزوة تبوك؛ وجاء فيها: (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَتْ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي..) [أخرجه البخاري].

فإياك ثم إياك أن تتخذ بنجاة ساعة تأسست على الكذب .. فبعد هذه الكذبة تأتي كذبات أخرى، وتجدر نفسك غارقا في بحار من الخوف والقلق والحيرة والتهيه .. وسبب ذلك كله هو: (الكذب الذي ظننته نجاة).

ثانياً: مجالات الصدق.

لا ينحصر الصدق فقط في الجانب اللفظي؛ بل هناك (صدق في القول) و(صدق في الفعل) و(صدق في النية).

فَأَمَّا صَدَقَ النِّيَّة - وهو أهمها -؛ فقد قال الله تعالى عن المنافقين كاشفاً كذبَ نواياهم وعهودهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون]، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنِ عَاقِبَتِنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا عَاقَبَهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعَقَبَهُمُ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة]. فقد قالوا بالسنتهم الشهادة وكذبهم الله فيها إذ خالفت مكنون قلوبهم، وكذلك في عهدهم مع الله تعالى إن آتاهم من فضله سيتصدقوا؛ فلما أعطاهم بخلوا وخالفوا العهد والميثاق فكانوا كاذبين. ولما كان المنافقون بهذا الوصف؛ كان المهاجرون والأنصار من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موصوفين بما يخالف وصف النفاق: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر]. وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح].

وَأَمَّا صَدَقَ الفعل: فهو ينبي على صدق النوايا؛ يقول ابن القيم رحمه الله: «والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد». فصدق الفعل يكون على حسب اتباع الأمر الإلهي؛ لذلك كان من الأوصاف الذميمة قول الله تعالى عن قوم يهود: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف]، وقد كان أناس يحلفون بالله إنهم على الهدى والاستقامة فيجري المسلمون عليهم الأحكام الظاهرة، ويظنون ذلك نافعهم في الآخرة؛ ولكن الله كذبهم بهذا الفعل فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ءَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة].

مرَّ معنا حديثُ الثلاثةِ الذين دخلوا الغار؛ وكيف كان أثرُ صدقِ الأفعال سببا في نجاتهم. وهاك هذا الأثر عن سفيان بن عيينة: «مَنْ تَرَيَنَّ لِلنَّاسِ بِشْيَاءَ يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ شَأْنَهُ اللهُ؛ فَيَاكَ مِنَ الأَعْمَالِ وَلِبَاسِ الزُّورِ، ف: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسَ ثَوْبِي زُورٍ) [أخرجه البخاري].

وأما صدق اللسان. فهو المعروف عندنا جميعا وله آحاديث توضح أمره فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك في الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة) [أخرجه أحمد]. وقال عليه الصلاة والسلام: (اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْثُمْتُمْ، واحفظوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) [البیهقي في شعب الإيمان]. وفي قصة هرقل عظيم الروم قال هرقل: فماذا يأمركم - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - قال أبو سفيان قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، وتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والصدقة، والعفاف، والصلة) [أخرجه البخاري].

ثالثاً: الموصوفون بالصدق. ومنهم:

- الله تعالى. فقال تعالى عن نفسه: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام] وقال عن كلماته: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام] وقال عن حديثه وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء] وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء] بل وأمرنا أن نقول: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران]. فأقواله وأخباره سبحانه وتعالى كلها صدق؛ فلا تُخالف الواقع ولا حقيقة الأمر في نفسه.

- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. بل يستحيل عليهم أن يُصوفوا بغير الصدق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقد قال الله عن إبراهيم، وإدريس: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم] وعن إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم] وقال عن جمعٍ من ذرية إبراهيم:

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم] وهذا وصف المشركين لرسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم: (ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا) [أخرجه البخاري]

- اللسان. وفيه سؤال إبراهيم عليه السلام ربّه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء]

- المقعد، والمُخرج، والمُدخل. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء]، وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [الدخان]. أن يكون مجلسنا ومخرجنا ومدخلنا بوصف الصدق؛ للإصلاح والتقوى ولعمل الخيرات وترك المنكرات لا رياء فيها ولا سُمعة.

وأخيراً .. قد أمرنا الله تعالى أن نكون مع الصادقين؛ بعد آيات ظهرت فيها آثار الصدق على أهله في الدنيا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. كما أنهم ينتفعون به في الآخرة وقد سبق دليل ذلك.

فاللهم إنا نسألك أن نكون معهم دنيا وأخرى .. والحمد لله رب العالمين.

الشهداء

العناصر:

أولاً: من هم الشهداء؟.

ثانياً: ما هي فضائلهم وما الذي أعدّه الله تعالى لهم؟.

ثالثاً: منزلة الشهادة وسعتها.

رابعاً: تنبيهات مهمّات.

(الموضوع)

الشهادة في سبيل الله من أعظم الأعمال التي رتبَ الله تعالى عليها أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، ولن يجد العبدُ لها مثلاً يكافئها؛ فقد: (جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دُلّني على عملٍ يعدلُ الجهادَ، قال: لا أجدهُ، قال: هل تستطيعُ إذا خرجَ المُجاهدُ أن تدخلَ مسجداً فتقومَ ولا تقُترَ، وتُصومَ ولا تُفطرَ؟ قال: ومن يستطيعُ ذلك؟! قال أبو هريرة: إن فرسَ المُجاهدِ لَيَسْتَنُّ في طوله، فيُكتبُ له حسناتٌ) [أخرجه البخاري]، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر فقال: (ما أحدٌ يدخلُ الجنةَ يُحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا وله ما على الأرضِ من شيءٍ إلا الشهيدُ، يَتَمَنَّى أن يرجعَ إلى الدنيا، فيقتلَ عشرَ مرّاتٍ لما يرى من الكرامةِ) [أخرجه البخاري]. وقد وعد الله تعالى المجاهدين بالجنة فقال جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة]. وهذا الوعد الحقُّ، جعله الله تعالى على نفسه تفضلاً منه وكرماً، وهو مذكورٌ في التوراة والإنجيل كذلك، وليس هناك أحدٌ أوفى بعهده من الله تعالى.

أولاً: من هم الشهداء؟.

الشهداء درجات بعضها فوق بعض؛ فأعلاها وهم الذين قُتلوا في سبيل الله تعالى؛ وقد بيّنهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله عندما: (قَالَ لَهُ أَعْرَابِيٌّ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذَكَّرَ، وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، مَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [أخرجه البخاري]. فهذه أعلى المنازل؛ وكيف لا تكون تلك المنزلة بأعلى المنازل وقد بذلوا أرواحهم ودماءهم وأفندتهم لله عز وجل طيبةً بذلك نفوسهم ومطمئنةً بها قلوبهم. فهُم الذين قاتلوا في سبيل الله وقُتلوا؛ فلم يخرجوا رياءً ولا سمعةً ولم يخرجوا للأجل المغنم وإنما كان هدفهم: (أن تكون كلمة الله هي العليا)، وليس أمراً آخر.

ثم تأتي بعد ذلك درجات أخرى للشهادة؛ فقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري: «وقد اجتمع لنا - في أسباب الشهادة - من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة». منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [أخرجه البخاري]. وعند النسائي: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سَوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ الْحَرَقِ شَهِيدٌ وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجَمْعٍ شَهِيدَةٌ).

وقال أيضاً: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) [سنن الترمذي]. وغير ذلك من الخصال التي تُوجب لصاحبها أجر الشهادة .. والله أعلم.

وعلى ذلك فالشهيد له ثلاثة أحوال: (شهيد في الدنيا والآخرة)، و(شهيد في الدنيا دون الآخرة) وهو الذي قاتل وقُتل ولكنه خرج لا لله ولكن لشيءٍ آخر سواه. و(شهيد في الآخرة دون الدنيا) - وهو من يُشارك شهداء المعركة في بعض فضائلهم - وهم الأسباب الباقية التي ذُكر بعضها آنفاً.

ثانياً: منزلة الشهادة.

هذه المنزلة من أعلى منازل الإسلام، فهي التجارة التي ربحها: مغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب الأليم، ودخول جنات النعيم ذات الأنهار الجارية والمساكن الطيبة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف].

وهي كذلك ذروة سنام الإسلام؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟). قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد) [أخرجه الترمذي].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً؛ وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) [أخرجه مسلم].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن أمّ الربيع بنت البراء وهي أمّ حارثة بن سراقَة أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك، اجتهدت عليه في البكاء، قال: يا أمّ حارثة إنَّها جنات في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) [أخرجه البخاري].

ومن فضيلة هذه المنزلة أن رباط يوم في سبيل الله أو غدوة أو روحه خير من الدنيا وما فيها؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط

أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) [أخرجه البخاري].

وقال لمن أراد أن يعتزل في بيته لشيء أعجبه: (لا تفعل). فإنَّ مقامَ أحدكم في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيته سبعينَ عاماً، ألا تحبُّون أن يغفرَ اللهَ لكم، ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيلِ الله، من قاتلَ في سبيلِ اللهِ فُوقَ نَاقَةٍ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ) [أخرجه الترمذي في سننه].

ثالثاً: ما هي فضائلهم وما الذي أعدّه الله تعالى لهم؟. منها:

أن الله تبارك وتعالى أنعمَ عليهم، وجعلهم رفيقاً حسناً لمن أطاعه وأطاع ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقال جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء].

ومنها: أنهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ١٦٩ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٧٠ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

ومنها: أن لهم أجراً ونوراً؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد] فهؤلاء لهم ثواب عظيم، ولهم نور عظيم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

ومنها: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ) [متفق عليه].

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر: (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) [أخرجه مسلم].

ومنها: أن الله تعالى خفف عليه ألمَ القتل؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما يجدُ الشهيدُ من مسِّ القتلِ إلا كما يجدُ أحدكم من مسِّ القرصةِ) [الترمذي في سننه].

رابعاً: تنبيهات مهمّات.

التحدّث بالغزو. فلا بد للمسلم أن يُحدّث نفسه بالغزو والجهاد في سبيل الله تعالى: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ) [أخرجه مسلم]، وكذلك ينبغي عليه أن يسأل الله تعالى الشهادة في سبيله ويكون صادقاً في سؤاله فقد قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ) [أخرجه مسلم].

تجهيز الغزاة: وهذا من الواجبات على الجميع فلا بد من تجهيزهم وأن تُخلفهم في أهليهم بالخير؛ ففي ذلك أجرٌ عظيم، فقد قال الله تعالى: (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا) [أخرجه البخاري ومسلم].

لا يُقال فلان شهيد إلا بنصّ. ترجم البخاري في كتابه الصحيح لقصة رجل كان يقاتل في سبيل الله ولا يدع شاذة ولا فاذة إلا اتبعها بسيفه؛ حتى قال الصحابة عنه (ما أجزأ أحد منا اليوم مثلُ فلان ..) قال البخاري في ترجمته باب: (لا يُقال فلان شهيد)، وكان هذا الرجل في خاتمة أمره أنه استعجل الموتَ فقتل نفسه بسيفه.

وكذلك جاء أنه: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ، أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا، أَوْ عَبَاءَةٍ) [أخرجه مسلم]. والعلّة في عدم إطلاق هذا القول: أنه تزكية وحكم له بالجنة؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده)

بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ
الدَّمِّ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ [أخرجه البخاري].

(والحمد لله رب العالمين)

سادساً: من يُحبهم الله تعالى؟⁽¹⁾.

المقدمة. في (إثبات الصفة ومعناها)

أولاً: ثمرات المحبة.

ثانياً: من يحبهم الله تعالى؟.

(الموضوع)

من صفات الله تعالى الثابتة له بالكتاب والسنة ف: «قد أجمع سلف الامة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام» فأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الحب والمحبة لله عز وجل، ويقولون: هي صفة حقيقية لله عز وجل، على ما يليق به سبحانه وتعالى، وليست كصفات المخلوقين. فأسماء الله تعالى وأوصافه ليست كأوصاف المخلوقين وأسمائهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات] وغيرها من الآيات.

وقد جاء في فضائل علي رضي الله عنه؛ في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (ثَلَاثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَنْ أَسْبَهُ؛ لِأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةً مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَهُ خَلْفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَلَفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا تَرْضَى

(1) قصدتُ في هذا الموضوع؛ الحديث عن الوصف الشامل لهم جميعاً وهو (محبة الله تعالى). ولذلك لم أسهب في الاستدلال لهم؛ فكل صنف من هؤلاء يستدعي مقاماً بمفرده. ومع ذلك فهناك أصناف في هذا الموضوع قد ذكرت لهم موضوعات مفردة في هذه السلسلة أمثال: (المتقون - المحسنون ..).

أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نُبُوَّةَ بَعْدِي. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: لَا أُعْطِينَ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَتَطَاوَلْنَا لَهَا، فَقَالَ: ادْعُوا لِي عَلِيًّا! فَأَتَيْ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران] دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي. [صحيح مسلم].

فهو رجل يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وقد تطاول الصحابة رضي الله عنهم لها كلهم يريدونها لنفسه؛ ليس حباً في الرياسة أو القيادة أو في أن يكون صاحب الراية.. لا! بل للمحبة التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنها.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ) [صحيح مسلم]. فهنيئاً لِمَنْ أَحَبَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى واختارهم واصطفاهم.

لهذه المحبة ثمرات تعود على صاحبها؛ منها:

ما جاء في الحديث القدسي؛ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) [صحيح البخاري].

وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ) [صحيح البخاري ومسلم].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم]

«فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد .. وإذا أحب الله عبدا قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل»؛ ووفقه وسدده في سمعه وبصره واستجاب له الدعاء وحقق له الرجاء.

ثم إن الناظر في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم يجد أصنافاً كثيرة قد أحبهم الله تعالى؛ فتنفّل عليهم بهذه النعمة واجتباهم لها. من هؤلاء:

أولاً: المُقسطون. أي: العادلون الذين لا يجورون في أحكامهم ولا في أقوالهم ولا في أعمالهم. وقد جاء التصريح بهذه المحبة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع؛ وهي: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة] وقوله عن الطائفتين اللتين اقتتلا من المؤمنين: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات] وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ المُقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) [صحيح مسلم]، وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الجنة: (وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال) [صحيح مسلم]. وقد أشهد الله تعالى أجل مخلوقاته وهم الملائكة وأولو العلم على أعظم مشهود عليه وهو: وحدانيته تعالى وقيامه سبحانه بالعدل في خلقه وشرعه فقال جل ذكره: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران]. ولما قال ذو الخويصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم الغنائم: (فقال: يا رسول الله، اعدل، فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل) [صحيح البخاري ومسلم] ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يشهد على جور؛ كما في حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنهما: (سألت أمي أبي

بَعْضَ الْمَوْهَبَةِ لِي مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فَوَهَبَهَا لِي، فَقَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَنَا غُلَامٌ، فَأَتَى بِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّهُ بِنْتُ رَوَاحَةَ سَأَلَتْنِي بَعْضَ الْمَوْهَبَةِ لِهَذَا، قَالَ: أَلَيْكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَرَاهُ، قَالَ: لَا تُشْهَدْنِي عَلَى جَوْرِ - وفي رواية - لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرِ [صحيح البخاري] .. فالقسطُ القسطُ فيما ولَّانا الله تعالى.

ثانياً وثالثاً: التَّوَابُونَ وَالْمُتَطَهِّرُونَ. وقد جاء التصريح بمحبَّة الله تعالى لهؤلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة]؛ وسِرُّ الجمع بينهما كما يقول أهل التفسير: أنه تعالى قد جمع بين الطهارة الحسيَّة: (الطهارة من الحيض..) والطهارة الباطنة: (التوبة من الذنوب والخطايا)؛ وكذلك جمع النبي صلى الله عليه وسلم بينهما في الدعاء بعد الوضوء؛ فقال عليه السلام: (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فَتَحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) [سنن الترمذي]. فالحمد لله تعالى وتعالى يُحِبُّ هؤلاء.

فالتائب التَّوَّابُ؛ لما كان كثير الرجوع إلى ربِّه طارقاً أبواب الرجاء مُناجياً مُنادياً مُستغفراً مُتوسلاً مُتذللاً مُفتقراً معترفاً لربه تبارك وتعالى بما اكتسبت يداه؛ أحبه وغفر له.

وكيف لا يكون كذلك؟ والله تبارك وتعالى يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه في الحديث: (لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ، وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَيَّ مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامَ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ) [صحيح مسلم]. وقد قال الله تعالى في التوبة وشأنها وأهميتها: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور]. وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات].

والمتطهر: فقد أثنى الله تعالى عليهم كذلك؛ فقال: ﴿لَمَسَّحِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة]؛ فحالهم في الوضوء أنهم كانوا يُشْبِعُونَ الحجارة بالماء أو كانوا يغسلون أديبارهم وفروجهم بالماء؛ فأثنى الله تعالى عليهم لذلك. ثم إن في هذا العمل تكميلاً وتسهيلاً وإتماماً للعبادة فعن: (شبيب أبي روح، مِنْ ذِي الْكَلَاعِ، أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّبْحَ فَقَرَأَ بِالرُّومِ، فَتَرَدَّدَ فِي آيَةٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: "إِنَّهُ يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ، أَنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ) [مسند أحمد]. فعندما كان المسلم على هيئة أو حالة يُحِبُّهَا الله تعالى؛ أحبه الله عز وجل وفي الصحيح عند مسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ) ف: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ) [سنن الترمذي وهو ضعيف].

وقد أثنى الله تعالى على أنواع كثيرة من الطهارات إذا قام بها المسلم؛ كسنن الفطرة: (خلق العانة ونتف الإبط وقص الشارب وغسل البراجم..) وكالوضوء والمحافظة عليه، والسواك، بل كانت الطهارة شطر الإيمان كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ) [صحيح مسلم]. وحديث بلال رضي الله عنه من أعظم الأدلة على عظيم شأن الطهارة في الإسلام؛ فقد جاء: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبَلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: يَا بَلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا، فِي سَاعَةٍ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ) [صحيح البخاري].

رابعاً: الصابرون. وردت آيات القرآن الكريم مُصَرِّحَةً بفضل الصبر وعظيم جزائه عند الله تعالى؛ ومنه: محبة الله تعالى لأهله؛ فقال جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران]؛ بل إن

الله تعالى قد بيّن أن من أسباب دخول الجنة لقوم قد اتصفوا صفات حميدة منيفة شريفة : ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد] فلماذا أحبَّ الله الصابرين؟ ولماذا أعطاهم هذا الجزاء؟ لأن الصبر: «الإمساكُ في ضيق.. وهو: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه» وقيل هو: «حبس النفس عن الشهوات وعلى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات» ولذلك:

عندما حبس المسلم نفسه على طاعة الله تعالى مؤثراً مراضيه على شهوات نفسه وحظوظها؛ كان جزاؤه محبةً من ترك هذه الأمور إليه. وكذلك عندما حبس نفسه عن المعصية؛ فلم يُقحم نفسه في برائتها أحبه الله تعالى ورضي عنه. بل عندما حبس نفسه عن التَّسَخُّطِ والضجر فرضي بما أمضاه الله عليه من الأقدار المؤلمة وصابر نفسه على ذلك أحبه الله تعالى وأرضاه بل وأعطاه أجره بغير حساب فقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر]. فكيف لا يُحبُّ الله تعالى الصابرين! وقد وقفوا عاكفين لله خاضعين، وحبسوا أنفسهم على الله تعالى راضين. وللصبر فضائل كثيرة؛ فعلى المسلم أن يتعلّمها ويدعوا ربه بها فمن رزقها فقد حاز خيراً.

خامساً: المتوكلون. كذلك صرحت نصوص القرآن الكريم بمحبة الله تعالى لهؤلاء؛ فقال جلّ ثناؤه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران] وقد: «أجمع القوم على أن التوكل لا يُنافي القيام بالأسباب، بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلاّ فهو بطالة، وتوكلٌ فاسد. قال سهل: من طعن في الحركة فقد طعن في السنّة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان. فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم، والكسب سنّة، فمن عمل على حاله فلا يترك سنّته..». فقد علّق المتوكلون قلوبهم بالله تعالى، واعتمدوا عليه، واسترسلوا معه إلى حيث أراد بهم ولهم، ومع ذلك لم يقعدوا عن مباشرة الأسباب التي شرعها لهم؛ مُتبعين في ذلك سنّة النبي وأحواله عليه الصلاة والسلام.

وقد ضرب النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلاً عن التَّوَكُّلِ فقال: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا) [سنن الترمذي ومسنَد أحمد]. فلم تقعد الطيور عن السعي لكسب أسباب الحياة؛ وقد تكفل الله تعالى بأرزاقها فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. فالله تعالى يكفي من توكل عليه، وفوق ذلك يُحِبُّهُ وَيَرْضِيهِ سبحانه وتعالى.

سادساً: الْمُحْسِنُونَ. ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران] وقال كذلك: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة] وغيرها من الآيات الدالة على محبة الله تعالى لعباده المُحْسِنِينَ.

فلماذا أحبَّ الله هذا الصَّنْفَ من الناس؟ وبأي شيءٍ استحقُّوا هذا الثناء العظيم من الله تعالى؟ تظهر إجابة هذا التساؤل من معرفة معنى الإحسان الذي قال عنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل عليه السلام: (قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [صحيح البخاري]. فكانوا في إحسانهم وعفوهم وصفحهم مراقبين لله تعالى يروونه لا يغيب عن عقولهم ولا عن أذهانهم طرفة عين. وكذلك لم يقتصر إحسانهم على شيءٍ دون شيءٍ بل كان لكل شيءٍ كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِيُجِدَّ أَعْنَاقُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُخْرِجْ دَبِيحَتَهُ) [صحيح مسلم].

استحقُّوا هذا الثناء العظيم وهذا الثواب الجزيل؛ لأنهم آثروا محبة الله تعالى على محبة ما جُبِلوا عليه من محبة المال فأنفقوه طوعاً لله تعالى؛ فلقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦١ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ ٦٢ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات]، والخير هنا "المال"؛ فمحببتهم له

شديدة طبعاً وجبلةً ومع ذلك: فالمحسنون أخرجوه من قلوبهم قبل أيديهم ابتغاء مرضات الله تعالى فأحبهم.

سابعاً: المتبعون للنبي صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء كذلك إنما أحبهم الله تعالى لأنهم اتبعوا خليله عليه الصلاة والسلام؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم هو خليل الرحمن. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ). [صحيح مسلم] والخلة كما يقول أهل التفسير «أعلى مقامات المحبة والاصطفاء» فالله تبارك وتعالى قد أحبه واصطفاه؛ فكيف لا يحبُّ الله تبارك وتعالى من أحبَّ خليله واتبعه وسلك سبيله وسار على هديه ونهجه. وليس هذا فقط؛ بل إن عائشة رضي الله عنها قالت عندما نزل قول الله تعالى: ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُعْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب] قالت رضي الله عنها: (مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكِ!) [صحيح البخاري]، وفي حادث تحويل القبلة قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة]، وقال كذلك له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى]، فالله سبحانه وتعالى قد اتخذ خليلًا، وسارع في هواه، وولاه قبله يرضاها، ووعد بالعتاء حتى يرضى.

ولذلك ما أعظمها من آية؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران] فمن ادعى محبة الله تعالى؛ فهذه علامة صدقه في دعواه، فلا بد للمسلم من أن يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وتقريراته وأخلاقه وفي كل شيء؛ إن كان يريد محبة الله تعالى.

ثامناً: المتقون. وهؤلاء كذلك قد صرحت نصوص القرآن الكريم بمحبة الله تعالى لهم؛ فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]، وقال أيضاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» [التوبة] وقال كذلك: ﴿فَمَا اسْتَقْلِمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة] فلماذا أحبهم الله تعالى؟. لأنهم قد بالغوا في اجتناب المحرمات والمكروهات؛ حتى تركوا شيئاً من المباح خشية الوقوع في الحرام أو المكروه، وقد علموا كذلك أن الله حَرَّمَ أشياءً لَتُجْتَنَّبَ، وحدَّ حدوداً حتى لا تُنتهك، وكره أموراً فلا يُحبُّ من عباده أن يراها في مواطنها أو على أحوالها، وفرض فرائض فلا يُحبُّ أن تُضيَع. فهؤلاء المتقون قد نزلوا بساحة مولاهم وليس لهم فيها إلا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة]. فتقبل منهم، وغفر لهم، وكان معهم، وتولى أمرهم، وأحبهم، وأرضاهم فلم يسخط عليهم.

تاسعاً: الأخفياء الأتقياء الأغنياء. جاء في صحيح مسلم؛ أنه: (كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَأَاهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّكِيبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنْزِلْتِ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ النَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ) وفي معنى هذا الحديث يقول العلماء عن تعليل موقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أنه كان زمنَ الفتنة والتنازع على أمر الخلافة، وكان رضي الله عنه ممن قعد عن الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولزم بيته، وأمر أهله ألا يخبروه من أخبار الناس بشيءٍ حتى تجتمع الأمة على إمام، وكان ابنه عمر ممن اشتغل بأمر الفتنة وقاتل فيها» وكان اعتزاله رضي الله عنه لأن الحق - في هذه الفتنة - لم يتبين عنده؛ فأثر الخمول والانعزال و«الخفي»: هو الخامل المنقطع إلى العبادة والاشتغال بأمر نفسه، ولا يريد العلو ولا الظهور في مناصب الدنيا، فيبقى خاملاً، والإشارة بالخفي إلى خمول الذكر والشهرة عند الناس، فالغالب على الخامل السلامة».

ومن هؤلاء الأخفياء الأتقياء - وهم كثر -؛ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم قوماً فقال: (طوبى لعبدٍ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع

لَمْ يُشَفَّعْ) [البخاري]. ومنهم: (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) [صحيح البخاري].

فهؤلاء مجهولون عند الناس معروفون عند الله تعالى .. وكفى بها، لم يشغلوا أنفسهم إلا بما اختارهم الله تعالى له فإن كانوا في مقدمة الجيش أو في مؤخرته، أو في ميمنته أو ميسرته، أمراء أو وزراء أم جنود أو قادة.. المهم عندهم: هو أن يراهم الله تعالى على الحالة التي أرادها منهم.

وأما العبد الغني الذي أحبه الله تعالى فليس هو ذا المال الكثير والجاه والسلطان وإنما هو الذي امتلأت نفسه قناعة ورضى؛ فكان غنيا بما في قلبه لا بالذي بين يديه؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) [صحيح البخاري] وإن لم تكن النفس غنية فلن يكفيها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) [سنن الترمذي].

عاشراً: الذليل على المؤمنين العزيز على الكافرين. كذلك من الأصناف التي أحبها الله تعالى؛ هذا الصنف الذي كان ذليلاً على إخوانه، مُقَادراً لهم، لا يتكبر عليهم ولا يتعالى، يخفض لهم الجناح، يبذل النصيحة لإخوانه المسلمين إذا استنصحوه، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة]. وكذلك قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، وَحَادُّوا بَيْنَ مَنَاكِبِكُمْ، وَلِيْنُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِيْمَا بَيْنَكُمْ، بِمَنْزِلَةِ الْحَدَفِ) [أخرجه أحمد]. وقال أيضاً:

(فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد) [السلسلة الصحيحة للألباني]. فالمسلم ينبغي عليه أن يتحلّى بالتواضع وكريم الخصال مع إخوانه المسلمين.

كذلك ينبغي عليه أن يكون عزيزاً على الكافرين؛ فلا يتودد إليهم ولا يُخاللهم، ولا يُخادئهم؛ بل يكون عليهم عزيزاً في غير إثم ولا بغي. وكذلك لا يُفضلُ هديهم ولا طريقتهم ولا سننهم على إخوانه المسلمين. وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه الآية: «هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكُمَّلِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ: "الضُّحُوكُ الْقَتْلُ" فَهُوَ ضَحُوكٌ لِأَوْلِيَائِهِ قَتَالٌ لِأَعْدَائِهِ».

هذه بعض الأصناف التي جاءت النصوص مُصرِّحةً بمحبَّة الله تعالى لأهلها؛ وكذلك هناك أعمال وأوقات وأحوال: الله تبارك وتعالى يُحبُّها. فينبغي على المسلم أن يبحث عنها ابتغاء مرضات الله تعالى وطلباً لمحبتِّه.

والحمد لله رب العالمين

التَّوَابُونَ

العناصر:

أولاً: ماهية التوبة وأهميتها.

ثانياً: شروطها وما يترتب عليها.

ثالثاً: التوبة في خطاب الأنبياء والصالحين.

(الموضوع)

من الأمور التي صرّحت النصوص الشرعية بشيءٍ من طبيعة الإنسان وبما خُلق عليه؛ قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ) [صحيح البخاري] وقوله أيضاً - والحديث ضعيف -: (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، فَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ، وَلَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مَالٍ، لَابْتَغَى لِهَمَا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ) [أحمد في مسنده] وقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل؛ يقول سبحانه: (يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ) [صحيح مسلم] وفيه أيضاً: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ) [صحيح مسلم]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَالِكُ) [صحيح مسلم] وقيل في معناه: «لا يملك نفسه في كفها عن الشهوات، وفي دفع الوسواس والغضب ونحوه؛ لأنَّ الجوف يقلبه ويذهب به هنا وهناك».

فهذه الآثار .. تؤكدُ أَنَّ جِبِلَّةَ الإنسان وطبيعته قد رُكِّبت فيها دوافع المعصية، ومع ذلك قد فتح الله تعالى له أبواب التوبة والمغفرة؛ فلم يُكَلِّفه الله عز وجل بما يُخالف طبيعته - بأن يكون معصوما!! -، وكذلك لم يُغلق الباب أمام عينيه ويجعله في حضيض المعاصي وبراثن الشهوات؛ بل فتح له باب الرجوع والإنابة إليه سبحانه عز وجل. وفي ذلك الفتح لأبواب المغفرة والرحمة والتوبة والإنابة؛ ظهور أثر أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى؛ فلو لم يكن ثمَّ مخطئٍ عاصٍ لَمَا كان هناك أثرٌ لاسم الله تعالى: (الغفور الرحيم الودود التواب المنتقم الجبار المتكبر) .. وغير ذلك من أسماء سبحانه وما تضمنته من الصفات.

لأجل ذلك وغيره .. كان الحديث عن التوبة وما يترتب عليها من آثار له أهمية كبرى؛ وسوف أتناول الحديث عنها في النقاط التالية:

أولاً: ماهية التوبة وأهميتها ووقتها.

فأما ماهيتها؛ فذ: «هي الرجوع عما يكرهه الله تعالى ظاهراً وباطناً إلى ما يُحِبُّه سبحانه ظاهراً وباطناً؛ ويدخل في مُسمَّاهَا الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كلِّ مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته» فيدور معناها على: الرجوع والعودة والنَّدَم.

ومما يدل على أهميتها؛ أمور، منها:

- أن الله سبحانه وتعالى علَّق الفلاح عليها؛ فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور]، وجعل سبحانه وتعالى ظالماً من لم يتب؛ فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات].

- أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بها؛ فقال جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ» [التحريم]. قال القرطبي في تفسيرها: «وَهِيَ قَرْضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَكُلِّ الْأَزْمَانِ».

- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيَفْرَحُ بِتَوْبَتِهِمْ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة]. وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ) [صحيح مُسلم].

- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمَّى نَفْسَهُ "التَّوَّابَ الرَّحِيمَ" - أي: كثير التوبة والرحمة - في غير ما آية من كتابه سبحانه وتعالى؛ فقال سبحانه عن آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] وعن بني إسرائيل: ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].

- مما يدل على أهميتها كذلك أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ أَمَانَةَ الدِّينِ وَالتَّكَالِيفِ حِمْلًا عَلَى الْإِنْسَانِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُ التَّوْبَةِ عَلَى التَّائِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَأَثَرُ الْعَذَابِ عَلَى غَيْرِهِمْ. فقال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٦ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب].

- اليوم الذي يتوب الله تعالى فيه على العبد .. هو خير الأيام وأعظمها. فقد جاء في حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن عزوة تبوك؛ حيث:

(قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) [صحيح البخاري].

أَمَّا وَقْتُهَا:

فقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة؛ ما يُبين وقتها والزمان التي تُقبل فيه أو تُرد، وقد جاء في ذلك ما يلي:

— وعد الله سبحانه وتعالى بقبول التوبة من عباده إذا تابوا من قريب؛ فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء] ومعنى قوله سبحانه: "من قريب" أي: «ثم يرجعون مُنيبين إلى ربهم قبل مُعاينة الموت» وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغِرْ) [مسند أحمد وغيره]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) [صحيح مسلم]. فعلى العبد أن يستدرك ما فات وما قصر فيه بل يُسرع الأوبة والرجوع إلى الله عز وجل فأمامه الليل إذا قصر في النهار وأمامه النهار إذا قصر في الليل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان] وفي معناها يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: «أَيُّ: جَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ، تَوْقِيتًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ». «

فيا أخي .. هذا العُمُرُ أمامك، ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً .. إن جنئت إلى خالقك بتوبة نصوح وكانت قبل مُعاينة الموت وقبل الغرغرة؛ فأبشر بقبولها. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَا يَبْتَغِي ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ

عَلَى مَنْ تَابَ) [صحيح البخاري]. وقال سبحانه عن نفسه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر].

وأما إذا جئت بها بعد ذلك - بعد الغرغرة أو بعد معاينة الموت - فهذه توبة لا تنفع صاحبها شيئاً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء]. وفي مثلها يقول الله تعالى عَمَّنْ آمَنَ بعد وقوع العلامات الكبرى للساعة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام]. وقد قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ) [صحيح مسلم].

ثانياً: شروطها وما يترتب عليها.

قد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى شروطاً للتوبة لا بد منها حتى يقبلها الله سبحانه وتعالى، ومما ذكره:

- **النَّدَمُ.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ) [أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه]. ويكون الندم: «باعتقاد قبح ما ندم عليه، وبغضه وكرهته، وألم يلحقه عليه».
- **الإقلاع عن الذنب وعن مسبباته ودوافعه.** وفي ذلك يأتي حديثُ تحريم الخمر وكيف كان إقلاع الصحابة عنها عندما حرِّمَتْ؛ فقد جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ سَاقِي الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ» [صحيح البخاري]. وقد قال الصحابة رضي الله عنهم عندما سمعوا قول الله تعالى في آية التحريم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (فَقَالُوا: انْتَهَيْنَا

رَبَّنَا) [مسند أحمد] وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال عقبها: (انْتَهَيْنَا، انْتَهَيْنَا) [مسند أحمد]. وقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء]، وفي الأثر الذي يقص قصة الرجل الذي قتل مائة نفس كان من شروط توبته أن أمره العالم بمغادرة تلك البقعة التي لم تكفه عن جرمه هذا؛ وفيه: (إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ) [صحيح مسلم]. وليحذر العبد كل الحذر من التسويف وتأخير التوبة.

- العزم على أن لا يعود. وإلا فكيف يتوب من شيء ولم يفكر أو يحدث نفسه بتركه!!.
- رد المظالم إلى أهلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) [صحيح البخاري] (لَتَوَدَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرَنَاءِ) [صحيح مسلم]، وحقوق العباد: إما أن تكون في أموالهم أو أعراضهم أو نفوسهم؛ وقد قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «وَالْتَوْبَةُ مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ فِي أَعْرَاضِهِمْ وَأَبْشَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِرَدِّ أَمْوَالِهِمْ إِلَيْهِمْ، وَرَدِّ كُلِّ مَا تَوَلَّدَ مِنْهَا مَعَهَا أَوْ مِثْلِ ذَلِكَ إِنْ قَاتَ، فَإِنْ جَهِلُوا فِي الْمَسَاكِينِ وَوُجُوهِ الْبَرِّ⁽¹⁾ مَعَ النَّدَمِ وَالْإِفْلَاحِ

(1) وهنا مسألة مهمة؛ صورتها: من غصب مالا أو حقاً مادياً من أناس؛ ثم لم يجد هؤلاء الناس حتى يُوفَّيهم حقهم - بأن ماتوا أو هاجروا أو نحو من هذا -؛ فماذا يصنع؟ قولان لأهل العلم: أولاً: قال فريق بأنه لا توبة له لأن أصحاب الحق قد غابوا ولا سبيل إلى الوصول إليهم. ثانياً: له توبة ولكنه يتصدق بهذه الأموال عن أصحابها ثم إذا جاؤوا يوم القيامة فأصحاب الحق مخيرون بين ثواب الصدقة وأخذ أموالهم ممن أخذهم منهم في الدنيا ويكون ثواب الصدقة لمن تصدق بها؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه: «اشترى جارية، فذهب صاحبها، فتصدق بثمنها، وقال: (اللهم عن صاحبها، فإن كره فلي، وعليَّ الغرم)» [البيهقي في السنن وقال ابن حجر في الفتح إسناده جيد]. والرأي الثاني هذا هو الصواب وبه قال معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً وجماعة من أهل العلم. انظر: أعمال القلوب، ج2 خالد بن عثمان السبب ص: (563)

وَالِاسْتِغْفَارِ، وَتَحْلِيلِهِمْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ وَأَبْشَارِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَأَلَامَرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا بُدَّ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الْإِنْتِصَافِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يُقْتَصَصُ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ. وَالتَّوْبَةُ مِنَ الْقَتْلِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بِالْقِصَاصِ فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ فَلْيُكْثِرْ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ لِيُرْجَحَ مِيزَانُ الْحَسَنَاتِ» وأما إذا كانت التوبة متعلقة بحق من حقوق الله عز وجل كأن يكون مُقَصِّرًا في الصلاة أو الصيام أو الحج أو في العبادات عموماً فالأولى أن يُقال: «إذا كان ما تركه يُمكنه قضاؤه بغير مشقة تلحقه فإنه يقضي؛ كمن ترك صلوات بتفريط أو أفطر بغير عذر فهذا يؤمر بالقضاء احتياطاً لدينه مع التوبة النصوح وكثرة الاستغفار .. وإن كان ما تركه لا يمكنه قضاؤه في العادة إلا بمشقة كبيرة كمن ترك الصلاة والصيام سنين عدداً فهذا لا ننفره من التوبة بمطالبته بالقضاء .. بل نُرْغِبه فيها ونقول له كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ) [سنن ابن ماجه] ثم نأمره بالإكثار من النوافل لتعويض الناقص من فرائضه»

- أن تكون خالصة لله عز وجل. لأن التوبة من أعظم الحسنات، وشُروط فيها جميعاً أن تكون لله تعالى خالصة. فلا يُقْلَعُ عن ذنب لأجل الناس، أو لأجل القيل والقال، أو خوفاً من الذمِّ أو طلباً للمدح. وأما ما يترتب عليها من آثار.

فخير كثير وثواب عظيم؛ ومنه ما يلي:

أولاً: محو الذنب. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ) [سنن الترمذي].

ثانياً: تبديل السيئات إلى حسنات. وهذا ثابت بالكتاب والسنة؛ ولكن الخلاف بين العلماء في معنى التبديل. فقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان]. وجاء في تفسيرها: «لكن من تاب إلى الله وآمن وعمل عملاً صالحاً يدل على صدق توبته؛ فأولئك يبذل الله ما عملوه من السيئات

حسنات وكان غفورا لذنوب من تاب من عباده رحيمًا بهم». يدل على هذا التبديل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي لَا أَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) [صحيح مسلم] وعلى كل حال فالعلماء مختلفون في معنى التبديل؛ هل هو كما مرَّ؟ أم أنهم بعدما كانوا يعملون السيئات قد أبدلهم الله مكانها عمل الحسنات .. فالله أعلم.

ثالثاً: رجوع الحسنات إليه برجوعه إلى الله عز وجل. فقد قال عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ، كُنْتُ أَتَحَنَّنُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، وَصِلَةٍ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَسَلَّمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ) [صحيح البخاري]. فقد جمع الله تعالى للعبد بين الحسنات التي عملها في الجاهلية وبين الحسنات التي عملها في الإسلام؛ وكأنَّ الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة وصارت كأنها لم تكن، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا.

رابعاً: التائبون .. لهم الجنة. فقد قال الله تعالى عن الجنة ونعيمها: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۚ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ۖ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۖ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۚ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق] فالأواب الحفيظ الذي يرجع إلى الله تعالى في جميع الأوقات. ثم إنه - كما يقول مجاهد - «الأواب الحفيظ الذي يُذنبُ الذَّنْبَ سِرًّا، ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ سِرًّا». فلم تقتصر توبته على الذنوب التي ظهرت على الناس بل شملت ذنوبا لم يعلمها إلا الله عز وجل فكان حفيظا لمقام ربه سرا وجهرا. وكذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ

أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣١﴾ التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّائِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿التوبة﴾ فكأن سائلاً سأل من هؤلاء الذين يستحقون هذه البُشرى بهذا البيع وبهذا الفوز العظيم؟ .. فقل لهم: التائبون العابدون ... والله أعلم.

ثالثاً: التوبة في خطاب الأنبياء والصالحين.

الأنبياء هم صفة خلق الله سبحانه وتعالى، وقد اصطفاهم لحمل رسالته، ولهم من المكانة والمنزلة ما يجعلهم في المحل الأسمى والمنزلة العظمى في الإسلام، وقد عصمهم الله تعالى من الذنوب والآثام. ومع ذلك فقد جاءت النصوص مُصرحة بتوبتهم، أو بقبول توبتهم، أو بسؤالهم التوبة من الله عز وجل عليهم. ومن ذلك:

قوله سبحانه وتعالى عن آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].

قوله سبحانه وتعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]. فلا شيء يطلب إبراهيم الخليل وولده توبة الله عليهما. وقد كانا بينان البيت الحرام!!.

قوله سبحانه وتعالى عن موسى صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف]

وعن محمد صلى الله عليه وسلم؛ نبي التوبة. أَنَّهُ قَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ) [مسند أحمد]. وكان عليه الصلاة والسلام كثير الاستغفار؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ

مِائَةً مَرَّةً) [صحيح مسلم]. وللعلماء في ذلك توجيهات حسان؛ منها أن ما صدر عنهم عليهم الصلاة والسلام وسألوا ربهم لأجله التوبة إنما هو من باب: (حسنات الأبرار .. سيئات المقربين). أو كان الأولى بهم أن لم يفعلوا مثل هذا العمل. فهي أولوية وليست: (حراما أو مكروها) فهم عليهم الصلاة والسلام معصومون.

رابعاً: دعاء وتضرع.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه متضرعاً إذا استفتح الصلاة قائلاً: (اللَّهُمَّ! أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ. لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ. وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا. لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ. لَبَّيْكَ! وَسَعْدَيْكَ! وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ. وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ. أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ. تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ. أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) [صحيح مسلم]. وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ، - قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ - (سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ. أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) [صحيح مسلم].

والحمد لله رب العالمين

في الفضاء المجتمعي

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادةً ...

ولكنْ تفيضُ الكأسُ عند امتلائها

"أبو تمام"

أهمية الرأي العام

العناصر:

مقدمة وتوطئة.

أولاً: أهمية الرأي العام (المعنى والأدلة).

ثانياً: خطورة إهماله والتأثير السلبي عليه.

ثالثاً: كيفية صنع الرأي العام الصالح.

(الموضوع)

حادثة تحريم الخمر؛ والتي جاء فيها قول أنس بن مالك رضي الله عنه: (كُنْتُ سَاقِي الْقَوْمِ يَوْمَ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ، وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخُ: الْبُسْرُ وَالْتَّمْرُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي، فَقَالَ: أَخْرُجْ فَأَنْظُرْ، فَخَرَجْتُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، قَالَ: فَجَرْتُ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ) [أخرجه البخاري ومسلم]، وكذلك قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك؛ وكان من أمر توبتهم مقاطعة المجتمع المدني كله لهم مدة خمسين يوماً [والقصة أخرجها البخاري وغيره] وغيرها من القصص التي يظهر فيها صورة المجتمع ككل ومقدار تماسكه بأوامر دنيه وشريعته؛ فيؤمرون بمقاطعة أصحابهم فيقاطعوهم جميعاً حتى نساؤهم!! ويؤمرون بترك مشروب ألفوه دهرًا طويلاً فتجري سِكَكِ المدينة منه.

فكيف لنا الحصول على صورة من صور صنع هذا الرأي العام؛ الذي يجعل صورة المسلمين الظاهرة - أمام الناظرين - صورةً نظيفة نقية بيضاء طاهرة، لا يؤثر على طهارتها ونقاها خطأ فرد من أفرادها؛ وهو موضوع اللقاء:

أولاً: أهمية الرأي العام (المعنى والأدلة).

أما المعنى ف: «هو تصوّر معلن، إزاء مسألة أو مشكلة هامة وعامة، يترتب عليه موقف عملي إزاء المسألة موضوع الرأي».

فما هو رأي الجماعة المسلمة المعلن عن: دينها، وشرائعها، وغاياتها، وأخلاقها، ونظامها، ووسائلها.. وغير ذلك من الأمور التي تُشكّل السّمَتَ العامَ والهدي الظاهر ويُشبه ذلك في المجال

الفقهي ما اعتمدته بعض المذاهب الفقهية من القاعدة الفقهية المعروفة بـ: (عمل أهل المدينة) في المذهب المالكي.

وأما الأدلة الموضحة لأهميته فكثيرة جداً؛ ومن أبرزها ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء] فهذه العقوبة لأحد الأمرين فمن شاق الرسول صلى الله عليه وسلم، أو اتبع غير سبيل المؤمنين له هذا العقاب الأليم.

وينبغي كذلك لفت النظر إلى أن الله تعالى جعله في (سبيل المؤمنين) لا الفاسقين الفاسدين الصادقين الناس عن دين الله عز وجل؛ فلا عبرة بسبيلهم ولو كانوا كثرة كاثرة.

قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهدٍ بشرِك، لهدمت الكعبة، فالزقناها بالأرض، وجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قُرئنا اقتصرناها حيث بنت الكعبة) [أخرجه مسلم].

وعندما قال عبد الله بن أبي بن سلول: "والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعرُ منها الأذل". قال عمر - رضي الله عنه -: «دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) [أخرجه مسلم].

فمن هذين الحادثتين يتبين من خلالهما أهمية مراعاة العرف العام أو الرأي العام في الشريعة الإسلامية.

ولأهميته جعل النبي صلى الله عليه وسلم كل أمتة معافى؛ إلا من يؤثر على الرأي العام أو يتسبب في إيذائه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي معافاة، إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه) [أخرجه مسلم] فتحديته بفعله هذا إنما هو خدش في ستر هذا الرأي العام.

وإذا كان من يؤذي الناس بقاذورات بدنه وفضلاته قد عرض نفسه للعن كما في الحديث: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اتقوا اللعائن قالوا: وما اللعائن يا رسول الله؟ قال: الذي

يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ]؛ فَلَاشْكُ أَنْ مَنْ يُؤْذِي النَّاسَ بِأَرَائِهِ الْفَاسِدَةِ وَيُغَيِّرُ عَقِيدَتَهُمْ وَيُوَثِّرُ فِي فِطْرَتِهِمْ أَحَقُّ بِالْعَنْ مِنْ هَذَا الَّذِي يُؤْذِيهِمْ بِنَجَاسَتِهِ.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ) [أخرجه أحمد]. ولن يُفارق الجماعة إلا رجلٌ هانت عليه نفسه فاستهان بحدود الله تعالى ومحارمه وأصبح مُرتكباً لها جهرة دون مُراعاة لآداب الإسلام الخاصة في نفسه أو العامة في تعاملاته؛ فكان رأيُ العامّة عنه ممن حوله؛ له عند الله تعالى أثر في نجاته وهلاكه يوم القيامة؛ فقد جاء في الحديث: (مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُنْتِي عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُنْتِي عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، قَالَ عُمَرُ: فِدَى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُنْتِي عَلَيْهَا خَيْرٌ، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُنْتِي عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) [أخرجه مسلم].

ثانياً: خطورة إهماله والتأثير السلبي عليه.

يوضح خطورة إهماله والتأثير السلبي بشيوع المنكرات والخبائث؛ حتى تكون عامة مُكوّنة ما يُسمّى في اصطلاح الأصوليين بالعرف الفاسد؛ ما جاء من أنه قد: (اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّوْمِ مُحَمَّرًا وَجْهَهُ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُلِّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتُحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِئَةً قِيلَ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ) [أخرجه البخاري ومسلم].

فإذا ما أهملنا هذا الأمر؛ فأصبح مجتمعنا يعجُّ بالمنكرات الظاهرة ويُكوِّنُ رأياً عاماً فاسداً وتوجهاً جارفاً حول ثوابتنا وثقافتنا فالهلاك آتٍ آتٍ لا محالة، فمثلاً:

ما هو التصوُّر المعلنُ إزاء مسألة: (الحجاب والتبرج، والخمر والمسكرات والمخدرات..)؟.

ما هو التصوُّر المعلنُ إزاء مسألة: (الربا والقمار والرشوة، والحيل في أكل أموال الناس بالباطل..)؟.

ما هو التصور المعلن إزاء مسألة: (التمثيل والمسلسلات والأفلام والأغاني والموسيقى..)؟.
ما هو التصور المعلن إزاء مسألة: (علاقات الرجال بالنساء: زواجاً وطلاقاً وخلعاً واختلاطاً..)؟.

ما هو التصور المعلن إزاء مسألة: (المرأة والأسرة وحقوقهما - الإرث والوظيفة والتعدد..)؟.
ما هو التصور المعلن إزاء مسألة الأطفال والشباب - والمراهقين منهم على الخصوص -،
مُشكلاتهم، ونفاهاتهم، وسلوكياتهم، وتعليمهم، ..؟
ما هو التصور المعلن إزاء مسألة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبعها من
الوظائف الدينية؟.

ما هو التصور المعلن حول مسألة الأخوة الدينية بين المسلمين؟. وما التصور المعلن كذلك
حول ما يحلُّ بهم من الأزمات والنكبات؟.

كلُّ هذه التصورات يتبعها تصرفات ظاهرة، هذه التصرفات تُشكل الصبغة العامة للمجتمع
والتي من خلالها يستطيع الناظر إليه أن يُعطيهِ حُكماً للوهلة الأولى؛ هل مُجتمع مُتماسك مترابط
أم متقاطع متهلل، هل هو مجتمع ذو قيم وأخلاق أم بلا قيم..؟!.

ولننظر في هذا الحديث الذي يوضِّحُ بجلاء هذا المعنى؛ والذي يجعل الآراء العامة المُشكَّلة
للمجتمع الظاهري مناراتٍ كمنارات المساجد وعلامات كالنجوم في المجتمع تدل عليه ويُعرف بها؛
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِلْإِسْلَامِ صَوِيَّ وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، مِنْهَا أَنْ تُؤْمِنَ
بِالله وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحُجُّ الْبَيْتِ، وَالْأَمْرُ
بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ إِذَا
مَرَرْتَ بِهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَقَدْ تَرَكَ سَهْمًا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَرَكَهُنَّ فَقَدْ وَلَّى الْإِسْلَامَ
ظَهْرَهُ) [الإيمان لأبي عبيد]. والمنارة والصوَّة هي مُرتفعات من الأرض يُعرف بها المكان.

ثالثاً: كيف نصنع رأياً عاماً صالحاً؟.

للحصول على هذا الرأي العام الصالح؛ لابد لنا من وسائل وطُرق نسلُكها؛ وهي:

- **الخطاب الإيماني ..** والحديث فيه يكون عن أركان الإيمان وواجباته ومستحباته؛ فهذا هو السبب الأساس الذي جعل المجتمع النبوي والرعيل الأول يخضع للأوامر الإلهية والنبوية.
- **خُلِقَ الحياء ..** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) [أخرجه البخاري] وقال: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ) [أخرجه ابن ماجة وغيره] وعليه فلا بد من إشاعة هذا الخلق؛ ففقدانه كان من الأسباب الرئيسة في انحرافات الشباب والفتيات وظهور المنكرات ونحوها.
- **لا يكن أحدكم إمعة ..** جاء في الأثر - وهو ضعيف :- (لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أسأؤوا أسأت، ولكن واطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أسأؤوا ألا تظلموا) [الترمذي]. فالمسلم لا ينساق وراء المفسدين بحجة أنه لا يستطيع دفعهم أو تغييرهم أو إزالتهم، بل عليه أن يوطن نفسه على فعل الخير؛ ولا يضره بعد ذلك غيره؛ وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة]. ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشُنَذِرَ بِهِ، وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فكيف يليق بأصحاب الحق أن يخلوا من إظهاره في حين أن أصحاب الباطل لا يخلون من إبداء باطلهم؛ وكما يروى: (اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة).
- **الأخذ على يد الظالم،** فلكي لا يظهر ظلمه هذا وكأنه إقرار من المجتمع؛ فلا بد من رده، وحديث الذي أراد خرق السفينة؛ كي يشرب منها دليل على ذلك. فقال فيه عليه الصلاة والسلام: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا) [أخرجه البخاري].

هذا بعض ما تيسر والحمد لله رب العالمين

في ترك الفضول

العناصر:

المقدمة؛ وفيها: «تعدد مداخل الشيطان».

من أنواع الفضول.

(الموضوع)

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في مدارجه؛ فقال:

«الشيطانُ اللَّعين؛ يريد أن يظفر بالعبد في عقبة من عقبات سبع؛ ولا ينتقل من العقبة الكبرى إلى التي دونها إلا إذا عجز عن التي قبلها، وهي: «الكفر...، والبدعة...، والكبائر...، الصغائر...، والمباحات التي لا حرج على فاعلها...، والأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات؛ ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم ربحاً،..» ثم إن نجا العبد من هذه العقبات لجأ اللعين إلى: «عقبة تسليط جُنْدِه عليه بأنواع الأذى باليد واللِّسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما علَّتْ مرتبته أجبَّ عليه بخيله ورَجْله، وظاهر عليه بجنده، وسلَّط عليه حزبه وأهله بأنواع التَّسْلِيط». نعوذ بالله العظيم من همزه ونفخه ونفته.

وقال عن العقبة الخامسة؛ وهي المباحات التي لا حرج على فاعلها: «فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزوُّد لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات. وأقلُّ ما ينال منه تفويته الأرباح العظيمة والمنازل العالية، ولو عَرَفَ السَّعَر لما فَوَّت على نفسه شيئاً من القربات، ولكنه جاهلٌ بالسَّعَر».

وفي هذه الجزئية سيكون حديثنا مُنصباً على بعض المُباحات التي توسَّع فيها الكثيرون؛ حتى أرهقهم وضِيعَت عليهم الكثير والكثير من الخيرات والدرجات العاليات، فكان من الواجب علينا أن نترك الفاضل الزائد الذي لا حاجة لنا به منها، وهي:

أولاً: فضول الطعام.

الأصل في هذا الأمر قول الله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلاتٍ يُقْمَنَ صُلْبُهُ، فإن كان لا محالة: فنُلْتُ لطعامه، ونُلْتُ لشرابه ونُلْتُ لنفسه) [أخرجه الترمذي]. وجاء عن عابس بن ربيعة النخعي؛ قال: (قُلْتُ لِعائِشَةَ: أُنْهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُؤْكَلَ لُحُومُ الْأَضَاجِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ؟ قَالَتْ: مَا فَعَلَهُ إِلَّا فِي عَامٍ جَاعَ النَّاسُ فِيهِ، فَأَرَادَ أَنْ يُطْعِمَ الْغَنِيِّ الْفَقِيرَ، وَإِنْ كُنَّا لَنَرْفَعُ الْكُرَاعَ، فَتَأْكُلُهُ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ. قِيلَ: مَا اضْطَرَّكُمْ إِلَيْهِ؟ فَضَحِكْتُ، قَالَتْ: مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خُبْزٍ بُرٍّ مَادُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ) [أخرجه البخاري]، ومعناه: أي أنهم كانوا «يَدَّخِرُونَ مَا يَدِيقُ وَيَصْغُرُ مِنْ سِيقَانِ الْغَنَمِ وَغَيْرِهَا فِي الْبَيْتِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ دَبْحِ الْأَضْحِيَّةِ» وكذلك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها: (ابْنُ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ؛ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةَ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَاجِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا) [أخرجه البخاري]. فهذه الآثار توضح ما هو الوزن الذي يُوزن به هذا الأمر (الطعام)؛ ويظهر من خلالها أن الطعام هو وسيلة من الوسائل التي تُقَرِّبُ إِلَى مَرْضَاتِ اللَّهِ وليس هو الغاية من وجودنا في الحياة.

وكذلك ينبغي استحضار هذه المعاني من هذه الأقوال؛ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله:

«الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتتكسر سورة الشهوة والغضب؛ ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم الصوم وجاءاً لقطعه عن شهوة النكاح» وعن إبراهيم بن أدهم: «من

ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان، والشبع يميت القلب، ومنه يكون الفرح، والمرح والضحك».

فأين نحن من هذه النصوص ومن تلك المعاني؛ فالحديث عن الأكل والشرب أصبح هو شغل الناس الشاغل، وأصبحت الشكوى ظاهرة واضحة من قلة رفاهيات الطعام وتحسينياته، فالحديث عن الفواكه واللحوم والوجبات الجاهزة والمطاعم والفنادق والضيافات والولائم .. أصبح له وزن كبير في بيوتنا بخلاف الميزان الذي كان يُوزن به قبل.

وطبعاً: إياك أن تظن بالكاتب أنه يريد من الناس العيش على الحشن الجاف الغليظ من الطعام والثياب!! ولكن المراد: أن يكون الاهتمام في حياتنا بالغايات أولى من الوسائل.

ثانياً: فضول الكلام.

ومعناه: «أن الإنسان قد يتكلم بالكلام الذي لو سكت عنه لم يَأْثَم ولم يلحقه الضرر»؛ مثل كلامه عن أسفاره ورحلاته وزواجه وتجارته وطعامه وشرابه؛ فكل هذا الكلام - إذا كان مجرداً عن غير قصد - ليس بمحرّم وإن كان السكوت عنه أفضل بل أوجب؛ والأصل في ذلك:

قول الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]. وفي حديث - لا يصح - عن وصف النبي صلى الله عليه وسلم: (قال الحسن: سألت خالي، قلت: صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: مُتَوَاصِلُ الْأَحْزَانِ، دَائِمُ الْفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلُ السَّكْتِ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتَتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَصْلٌ، لَا فَضُولٌ وَلَا تَقْصِيرٌ). وفي رواية أخرى لهذا الوصف: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْزُنُ لِسَانَهُ إِلَّا عَمَّا يَعْنِيهِ) [مجمع الزوائد].

والحديث الجامع في ذلك حديث بلال بن الحارث؛ هو: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُئِبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُئِبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ) [أخرجه النسائي في الكبرى] وقال "علقمة" وهو أحد رواة الحديث: «كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث».

قال عطاء بن أبي رباح: «إِنْ مَنْ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَعْتُونُ فَضُولَ الْكَلَامِ مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ، أَوْ أَمْرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيَ عَنْ مَنكَرٍ، أَوْ أَنْ تَنْتَقِ فِي مَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بَدَ لَكَ مِنْهَا، أَتُكْرَهُونَ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الأنفطار]، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]، أَمَا يَسْتَحْيِي أَحَدَكُمْ لَوْ نُشِرَتْ صَحِيفَتُهُ الَّتِي أَمْلَى صَدْرَ نَهَارِهِ كَانَ أَكْثَرَ مَا فِيهَا لَيْسَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَلَا دُنْيَاهُ!!» [أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان].

ثالثاً: فضول مخالطة الناس.

ومعناه: أَنْ تُخَالِطَ مَنْ لَا حَاجَةَ لَكَ بِهِ. والناس من هذا المعنى على أنواع: من كانت مخالطتهم كالغذاء لَا غِنَى عَنْهُمْ كَالْعُلَمَاءِ، وَمَنْ النَّاسُ مَنْ مَخَالَطَتُهُمْ مِثْلُ الدَّوَاءِ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِمْ إِلَّا عِنْدَ الْمَرَضِ كَالتُّجَّارِ وَأَصْحَابِ الصَّنَاعَاتِ؛ فَلَيْسَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَمَنْ النَّاسُ مَنْ مَخَالَطَتُهُمْ كَالدَّاءِ وَهُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَانُوا غَافِلِينَ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَنِ طَاعَتِهِ، وَمَنْ النَّاسُ مَنْ مَخَالَطَتُهُمْ فِيهَا الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ الْمُبِينُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالنَّفَاقِ وَالضَّلَالَاتِ .. مِنْ كَلَامِ لَابِنِ الْقِيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ قَالَ فِيهِ: «وَالضَّابِطُ النَّافِعُ فِي أَمْرِ الْخَلِطَةِ: أَنْ يَخَالِطَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ كَالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَالْأَعْيَادِ وَالْحَجِّ، وَتَعْلِيمِ الْعِلْمِ، وَالْجِهَادِ وَالنَّصِيحَةِ. وَيَعْتَزِّلُهُمْ فِي الشَّرِّ وَفُضُولِ الْمَبَاهَاتِ».

فينبغي على العبد أن يكون خائفاً على نفسه من مخالطة من لا تنفع مخالطتهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَظِيَّةِ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٧﴾ [الكهف]، فلا بد من حبس النفس مع صنفٍ، وحبسها عن صنف. وقد قال الله تعالى أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيَّتَنِ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يَوَيْلَ لِّى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣٠﴾ [الفرقان] وقال أيضاً: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف] فإذا أردت أن تُخالل فلا تتخذ خليلاً لك إلا من المتقين، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي) [أخرجه أبو داود].

وكذلك فليكن العبد في انتقاء أصحابه وأصدقائه مُستحضراً هذا الحديث وهذا المثل: (مثلُ الجَالِسِ الصَّالِحِ وَالْجَالِسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ؛ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِذَا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً) [أخرجه البخاري].

فإياك ثم إياك من هؤلاء الذين يتلذذون بإضاعة الأوقات، ويعيشون في اللهو والتفاهة وينشغلون بأنواع المباحات والمسلّيات؛ فتراهم على المقاهي والمسارح والطرقات، وكذلك قد شغلوا مجالسهم بأنواع من السموم؛ فما حديثهم إلا غيبة أو نسيمة، أو عن بطونهم وفُروجهم، أو حديث عن المال والجاه والسلطان .. فإياك وأن تخالط هؤلاء.

رابعاً وخامساً: فضول النظر والاستماع.

وهذان "أصلان لكل بلاء"؛ فكثير من الناس من يُقلب عينيه فيما حوله من النعيم الذي منّ الله به الآخرين مُتسَخِّطاً على أقدار الله عز وجل عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٣١﴾﴾ [طه]. ومن الناس من يتسمّع لحديث قوم؛ بل أقوام وهم له كارهون؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء].

وعلى المرء أن يُحاول جاهداً في حماية سمعه وبصره مُستحضراً هذه الرواية؛ وفيها: عن زينب بنت جحش رضي الله عنها في حادثة الإفك؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم: (قَالَ: يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتَ؟ مَا رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ) [أخرجه البخاري].

وكذلك ينبغي على المسلم أن يكون حريصاً على سماع الخير ونشره، لا حريصاً على سماع الشر؛ فضلاً عن نشره، وحريصاً كذلك على النظر الذي ينفعه لا الذي يضره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة] وجاء في تفسيرها: «ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام، ويقولون: إنه يستمع لكل ما يقال له فيصدق، قل لهم - أيها النبي -: إن محمداً هو أذن تستمع لكل خير»

وإذا ما حَدَّثْتَ أو استمعتَ لقول أنت لم تُردِ سماعه - فلا يستطيع المرء غلق أذنيه كبصره - فلا تُخبر بذلك إلا إذا علمت فيه المصلحة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) [أخرجه مُسلم]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: (ما رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ). [أخرجه البخاري]

فمن فضول النظر: النظر إلى أحوال الناس؛ «قال رجل لداود الطائي: لو أمرت بما في سقف البيت من نسج العنكبوت، فَنُظِّفَ؟ فقال له: أما علمت أنه كان يكره فضول النظر؟!».

وَلِتَكُنْ هَذِهِ الْآلَاتُ (السمع والبصر ..) دليلاً هادياً إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَا إِلَى سَخَطِهِ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ عَطَّلُوهَا عَنْ وَظِيفَتِهَا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف].

سادساً: فضول النوم.

من النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني آدم؛ نعمة النوم فقد قال الله تعالى عنها ممتناً علينا بها مع غيرها من النعم: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبا] وقد جاء في تفسيرها: «وجعلنا نومكم انقطاعاً عن النشاط لتستريحوا»؛ فالنوم إذا وسيلة لقطع التعب؛ فتهدأ فيه النفس وتستريح كي تعاود نشاطها وحركتها.

وقد مدح الله تعالى قوما بقلّة نومهم؛ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات]، وقال عن آخرين: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۖ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة] فهؤلاء كانوا قليلي النوم، والذي حملهم على ذلك؛ معرفتهم بعلّة وجودهم في هذه الحياة فليس النوم أو الأكل أو الشرب أو الراحة أو.. هذه المتع المباحات هي غايتهم فيها؛ بل هي وسيلة إلى غاية عظمى هي التقوي على الطاعة.

وقد: (ذَكَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، قَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أَذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ) [أخرجه البخاري]؛ فلو لم يكن في ذمّ فضول النوم أو التحذير من كثرتة إلا هذا الأثر؛ لكفى.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِّن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق] وفي تفسيرها: «وأعتصم بالله من الشرور التي تظهر في الليل من دواب ولبصوص». فالليل محلّ لنزول العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْأَرْضِ أَنَّ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف]؛ فهل يليق مع هذا البيان أن يغطّ الإنسان في نوم عميق لا يستفيق معه لأداء فرض، أو يُسارع إلى مرضاة ربّه تبارك وتعالى. وقد: «قال الفضيل بن عياض رحمه الله: خصلتان تُفسّيان القلب: كثرة النوم وكثرة الأكل» وهذا آخر: «قال أسد بن وداعة: كان شداد بن

أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على قلبي فيقول: اللهم إن ذكر جهنم لا يدعني أنام فيقوم إلى مصلاه ليصلي».

أخي بإمكانك:

أن تُضيف إلى عُمرِكَ أعماراً، أو أن تُضيف إلى الحياة حياةً أخرى، أو أن تجعل لك بعد موتك أعمالاً شاهدةً لك عند الله تعالى لا عليك .. وما هذا إلا بساعة واحدة تستقطعها من ساعات نومك الزائد.

والحمد لله رب العالمين

خطورة الشائعات

العناصر:

المقدمة.

الأول: تحذير الإسلام من الشائعات.

الثاني: وسائل نشر الشائعات (قديمًا وحديثًا) وخطورتها.

الثالث: من منهج الإسلام في التصدي للشائعات.

(الموضوع)

الكلمة في الإسلام لها منزلة؛ وأي منزلة!، ولها أهمية كبرى كذلك؛ فبكلمة واحدة تُحفظ الدماء أو تُراق، وبأخرى تُبنى البيوت أو تُهدم، وبأخرى تُنتهك الحُرُمات أو تُصان، .. فالكلمة لها عند المسلمين مكانة جسيمة؛ فينبغي على المسلم أن يحتاط لدينه ويُمسك عن كثير من الكلمات التي لا يعلم عاقبة أمرها أو ما تؤول إليه؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) [أخرجه البخاري]. وقد قال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ) [السلسلة الصحيحة للألباني]. بل جاء النص القرآني في النهي عن تتبع ما ليس له به علم لأنه مسؤل عن ذلك؛ فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء].

وإذا ما استحضر الإنسان في ذهنه أمثال هذه النصوص؛ والتي منها كذلك: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَرَكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ) [أخرجه الترمذي وابن ماجه]. وكذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: (.. ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله، قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسانه، قال: كف عليك هذا.

فَقُلْتُ: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا مُعَاذٍ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم) [أخرجه الترمذي في السنن]. هذه النصوص وغير تجعل العبد مُحَجِّماً عن كثير من الكلام ..

وإن مما ابْتُلِينَا به في حياتنا العامة أو الخاصة تلك الشائعات؛ والتي أساسها قوم لم يعلموا قدر الكلمات التي تخرج من أفواههم؛ فحاضوا في الأعراض والدماء والأموال بغير حق؛ ولم يتفكروا فيما آل إليه أمرها. وفي هذه الكلمات أذكر شيئاً مما يتعلق بالشائعات وضررها وخطورتها على البلاد والعباد.

الأول: تحذير الإسلام من الشائعات.

تعددت النصوص الشرعية ذات الدلالة على التحذير من الشائعات؛ فمما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا) [أخرجه أبو داود وأحمد]. فلقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ لم يَتَّبِعْ من الخبر واتخذ مركبه في نقلها وبنَّها قوله (زعم الناس كذا وكذا) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بَحْسَبِ الْمَرْءِ مِنَ الْكَذِبِ أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) [مسلم في صحيحه]. وقال أيضاً: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمِّهَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتٍ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) [أخرجه البخاري] وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله، ومن خاصم في باطلٍ وهو يعلمه، لم يَزَلْ في سَخَطِ اللَّهِ حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمنٍ ما ليس فيه أسكنه الله رَدْعَةَ الْخَبَالِ حتى يخرج ممَّا قال) [أخرجه أبو داود وأحمد] وردغة الخبال: عصارة أهل النار وصديدهم. وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (إِنَّ مِنْ أَفْرَى الْفَرَى أَنْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَ) [أخرجه البخاري] فمن أعظم أبواب الكذب أن تُرِي عَيْنَيْكَ - في المنام - ما لم تر، وكذلك مَنْ يُخْبِر عن شيء سمعته أذناه ولم تسمعه كذلك - قياساً ..

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن رؤيا رآها وكان مما رآه فيها؛ هذا الذي يكذب كذبة فتشيع في الآفاق ب: (فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقْيَيْ وَجْهِهِ فَيُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ .. - ثم قال عنه - وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ، يُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ) [أخرجه البخاري].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب] وفي معناها يقول المفسرون: «يعني: الذين يقولون: "جاء الأعداء" و"جاءت الحروب"، وهو كذبٌ وأفتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحقِّ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: أي: لنسلطنك عليهم. وقيل: لنحرشنك بهم. وقيل: لنعلمنك بهم». وقيل: «والمُرجِفُونَ في المدينة قومٌ كانوا يُخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوهم، فيقولون إذا خربت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم قد قُتلوا أو هُزموا، وإنَّ العدوَّ قد أتاكم». وقيل كانوا يقولون: أصحابُ الصِّفةِ قومٌ عِزَّابٌ، فهم الذين يتعرَّضون للنِّساءِ. وقيل: هم قومٌ من المسلمين ينطفون بالأخبار الكاذبة حُبًّا للفتنة. وقد كان في أصحابِ الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حبا للفتنة. وقال ابنُ عباسٍ: الإرجافُ التماسُ الفتنة، والإرجافُ: إشاعةُ الكذبِ والباطلِ لِإِغْتِمَامٍ» فالذين يقولون: (جاء الأعداء، جاءت الحروب)، (يُخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوهم)، يقولون: (أصحابُ الصِّفةِ - أو أهل الدين - قومٌ عِزَّابٌ، فهم الذين يتعرَّضون للنِّساءِ)، (يقولون الكذب حُبًّا للفتنة). وعلى منوالها وغرارها: ستموت جوعاً، خربت البلاد، ساءت الأحوال، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ) [أخرجه مُسلم].

الثاني: وسائل نشر الشائعات (قديمًا وحديثًا) وخطورتها.

تتعدد وسائل نشر الشائعات في المجتمع "قديمًا وحديثًا" ولكنها لا تخرج في غالب الأحوال عن أمثال هذه الوسائل: المقروء؛ ك(كتاب أو مقالة أو مجلة أو صحيفة أو ..) أو مسموع؛ ك:(إذاعة أو تلفاز أو شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت" ..) أو التجمُّعات البشرية؛ ك (الأسواق، والنوادي، والملاهي ..). وأكبر هذه الوسائل التي تكمن في كثير منّا (حبُّ الفضول ومعرفة أحوال الآخرين ..) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ؟) [أخرجه الترمذي].

وهذه الشائعات تعمل على انقسام المسلمين، وشق صفوفهم، وإشاعة الشحناء والبغضاء بينهم. وهي كذلك تعمل على إرباك وتوتر صانعي القرار في البلاد، وكذلك تجعل الجبهة الداخلية للمسلمين ضعيفةً مهزوزةً أمام أعدائها ومن يتربصون بها الدوائر. فالأعداء ينتهزون أمثال هذه الحالات التي قد تظهر فيها آثار الضعف على أفراد المجتمع فيقعون فريسة لأعدائهم؛ وانظر إلى كعب بن مالك رضي الله عنه وقصته معروفة في تخلفه عن غزوة تبوك وفي خبرها الذي وصل إلى خارج الدولة حتى وصل إلى ملك غسان؛ فقال كعب رضي الله عنه عن نفسه: (فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبْطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأَمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّوَرَّ فَسَجَرْتُهَ بِهَا، ..) [البخاري في صحيحه]. فهذا أمرٌ ليس شائعة من الشائعات التي لا حقيقة لها .. ومع ذلك استخدمه الأعداء في استقطاب الأفراد. فما بالنا إذا كانت هذه الشائعة تكررت حتى تقررت في المجتمع؛ فأصبحوا موقنين بها ويبنون عليها آراءهم واعتقاداتهم. فلا شك بأن الجبهة الداخلية ستكون مهلهلة سهلة لكي يخرقها أعداؤها.

الثالث: من منهج الإسلام في التصدي للشائعات.

بما أن الإسلام لا يرضى بالشائعات؛ بل ويُحاربها مُحاربة شديدة، ويتخذ كافة السُّبل في اقتلاع جذورها؛ وما هذا إلا للحفاظ على المجتمعات والأفراد من كل ما يؤدي إلى تقطيع أواصلها وإضعاف قوتها وكان من منهجه هذا:

- **وجوب التثبت من الأخبار.** قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء]، وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات] وفي سبب نزول هذه الآية قصة؛ فقد ذكر المفسرون فيها أن: «رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أُرْسِلَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَىٰ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لِيُصَدِّقَهُمْ، فَتَلَقَّوهُ بِالصَّدَقَةِ، فَرَجَعَ فَقَالَ: إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ جَمَعَتْ لَكَ لِنُقَاتِكَ - زَادَ قِتَادَةً: وَإِنَّهُمْ قَدْ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ - فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَنَبَّأَ وَلَا يَعْجَلَ. فَأَنْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ لَيْلًا فَبَعَثَ عُيُونُهُ، فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَسَمِعُوا أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَتَاهُمْ خَالِدٌ فَرَأَى الَّذِي يُعْجِبُهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ» من تفسير ابن كثير. فلابد من التثبت والتبيين من الأخبار؛ حتى لا تُبنى الآراء والمواقف على ظلم وبغي ويقع الندم بعدها. وهذا التثبت في كل المجالات. فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يتبرأ من أبيه بعد ما تبين له كفره؛ فقال الله تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة]، وهناك لون من ألوان التثبت والتبيين جاء في القرآن الكريم وهو في شأن المهاجرات التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنقض عهده مع قريش في شأنهن حتى يتبين من إيمانهن؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة]،

وكان الذي يتولى امتحانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد: (سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَيْفَ كَانَ امْتِحَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّسَاءُ؟ قَالَ: كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِاللَّهِ مَا خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ زَوْجٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجْتُ رَغْبَةً عَنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجْتُ التَّمَّاسَ دُنْيَا، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجْتُ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) وقيل: كان الذي يتولى ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكذلك سيدنا سليمان عليه السلام عندما جاءه الهدهد بخبر ملكة سبأ قال الله عنه: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لقومها حينما جاءها كتاب سليمان عليه السلام؛ وأرسلت إليه هديتها قالت: إن قبلها فهو ملك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه. ولما أشيع أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق نساءه ذهب عمر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فسأله: (أَطَلَقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ آلَيْتُ مِنْهُنَّ شَهْرًا فَمَكَتْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ) [أخرجه البخاري]. فقد تبين من الأمر وتثبت بنفسه رضي الله عنه.

- **عدم ترديد الشائعات.** فترديد الشائعات هو أول وسيلة إلى إقرارها في المجتمع وجعلها حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل وما هي إلا محض افتراء وكذب!! ومن ثم يترتب عليها آثاراً عظيمة من الفتن والبلاء؛ فقد قال الله تعالى في آيات حادثة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور]. ولبیان خطورة هذه الشائعة على المجتمع؛ انظر إلى هذا المقطع من هذا الحديث الشريف الذي يحكي قصة الإفك؛ فإن عائشة رضي الله عنها: (قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْدَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيٍّ، وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرْنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا

خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي. قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتِنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتُ عَمِّهِ مِنْ فَخْذِهِ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُבَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلْتُهُ الْحَمِيَّةَ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّكَ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ، وَالْخَزْرَجُ؛ حَتَّى هُمَا أَنْ يَفْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمَنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْفَضُهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ] وَقَدْ أَرَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِرْشَادًا عَظِيمًا فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ [النور]. فالواجب على المسلم أن يُحْجِمَ لِسَانَهُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْافْتِرَاءَاتِ وَلَا يَكُنْ ثَرِثَارَةً يَقْذِفُ بِالْكَلِمَاتِ تَلُو الْكَلِمَاتِ مِنْ غَيْرِ تَمَعُّنٍ أَوْ رَوِيَّةٍ. فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة].

- **ضرورة التماسك والترابط بين أفراد المجتمع الواحد.** ففي مثل هذه الأحوال؛ يجب على أفراد المجتمع المسلم أن يتماسكوا وأن يكونوا كالجسد الواحد؛ فالواجب الأعظم أن يُحسنوا الظنَّ بأنفسهم، فقد قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور]، فَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات].
- **الاستعانة بأهل الخبرة.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِٓ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء] قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه

الآية: «إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحَقُّقِهَا، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُفْشِيهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ» فالواجب إذا: التحقق والتثبت؛ ومرجع ذلك العلماء العاملون الذين يعلمون الكتاب والسنة ويستنبطون منهما أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وقد قال الله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٦٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[النحل].

والحمد لله رب العالمين

الرجولة والشباب

العناصر:

المقدمة.

الأول: الرجولة والشباب في القرآن والسنة.

الثاني: الشباب وأوصاف الرجال.

الثالث: بين الماضي والواقع والمأمول.

الموضوع

الإنسان في هذه الحياة يمرُّ بمراحل عُمريةٍ مختلفة، كل مرحلة منها لها طبائعها وخصائصها وتكاليفها، فليس الجنين، والرضيع، والصبي، والشاب، والكهل والعجوز والهرم؛ سواءً، أضف إلى ذلك فليس الذكر كالأنثى، وغير ذلك من الاختلافات المعروفة بداهة؛ والتي لا تستقيم معها المساواة في التكليف والواجبات. وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم]؛ فهناك ضعف وقوة وشيبة. ولكلٍّ منها أوصافها وأحكامها.

وأهمُّ مرحلة يواجهها الإنسان في هذه الحياة هي مرحلة الشباب وبالأخص إذا انضمَّ إليها وصف الرجولة. ولذلك كان محور اللقاء في هذه المرحلة العمرية المُصاحبة لهذا الوصف الشريف وصف الرجولة.

ولكن .. بداية وقبل كل شيء: الشاب: هو من سنِّ البلوغ إلى ما دون الأربعين، والرجل هو وصف يُطلق على من استكمل صفات الذكورة فكان بالغاً قوياً حكيماً خلاف الأنثى. وقد يُطلق على من جاوز الأربعين كذلك ففي حديث الهجرة: (أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ

مُرْدِفٌ أبا بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعْرَفُ، وَنَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَابٌّ لَا يُعْرَفُ،) [أخرجه البخاري]. وكذلك له أوصاف تأتي في هذا اللقاء. فمرحلة الشباب مرحلة عُمرِيَّة بينما الرجولة وصف يتميز به الإنسان ويصير معه إلى ما بعد بلوغه الأربعين؛ بل وإلى الموت.

الأول: الرجولة والشباب في القرآن والسنة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسألَ عن خمسٍ: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم) [أخرجه الترمذي في سننه]. وفي الحديث الآخر: (إِنَّ رَبَّكَ لَيُعْجِبُ للشَّابَّ لَا صَبَوَةً لَهُ) [أخرجه أحمد]، كما أَنَّ الشاب الذي نشأ في عبادة ربه تبارك وتعالى قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عِبَادَةِ رَبِّهِ..). [أخرجه البخاري]. بل إن أهل الجنة قد أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ) [أخرجه مسلم] فهم في نعيم لا يُكدره شيخوخة أو رذالة عُمرٍ. ولأجل هذا كلُّه فقد وصَّى النبي صلى الله عليه وسلم الشباب خصوصاً والمسلم عموماً فقال: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) [صحيح الترغيب والترهيب الألباني]. ففيها اغتنامُ الأوقات بالحسنات ورفعةُ الدرجات بالقربات.

وفي مرحلة الشباب تكمن نصرة الدين وعزُّ المسلمين؛ فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام عندما كسر أصنام قومه وجعلها جذاذا فتحدثوا عنه؛ وكان قد عابها قبل: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُوَ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء]، وكذلك قوله تعالى عن أصحاب الكهف؛ الذين وصفهم بقوله: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف].

وأما الرجولة؛ فذاك وصف شريف قد جاء ذكره في القرآن الكريم في مواطن يعزُّ وجودها في كثير ممن اتصف بها كذبا وزورا؛ فمثلاً؛ قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَيُسَبِّحَ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۚ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور] فكم هم الذين وصفوا أنفسهم بالرجولة ولم يرفعوا الله ذكراً لاشتغالهم بالتجارة والبيع وكذلك لم تكن الآخرة على خواطرهم؟ هم كثير لا كثر الله سوادهم. وكذلك قوله تعالى عن رجلين امتلأ قلبهما بعقيدة راسخة عن أمر قدره الله تعالى (وهو: دخول الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى لبني إسرائيل)، وكانا ممن أنعم الله تعالى عليهما، فلم يدخل الرعب قلوبهما من القوم الجبارين؛ وكان قد دخل قلوب بني إسرائيل: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة]، وكذلك قوله جل ثناؤه عن رجل آخر وقف يجهر بكلمة حق يدفع بها أذى عن مؤمن: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر]. وقليل هؤلاء؛ بل نادرون في أزماننا. وكذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. فحدث نفسك؛ أين رجال المساجد؟ أين رجال النصرة للمستضعفين؟ أين الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؟ أين الرجال الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان فتحركوا به؟ ..أين؟!!

الثاني: الشباب وأوصاف الرجال.

الذي جعلني أضع الرجولة والشباب في موضوع واحد؛ هو: أن الكثيرين يفصلون بينهما؛ فيجعلونهما لمرحلتين من عُمر الإنسان إحداها تسبق الأخرى؛ ولكن وجدت من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ما تقرُّ به العين في وصف الشباب - كمرحلة عمرية - بوصف الرجولة؛ ومنها

قوله عليه الصلاة والسلام عن الذي يفتح الله تعالى على يديه حصون خبير: (لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ، أَوْ لِيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ، غَدًا رَجُلًا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ قَالَ: يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِذَا نَحْنُ بِعَلِيِّ ..) [أخرجه البخاري] فكم كان سنُّه رضي الله عنه ساعتها؟ تقريباً سبعة وعشرين عاماً!.

وقد قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه للذي تولى جمع القرآن الكريم "زيد بن ثابت رضي الله عنه: (قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَإِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لَا نَتَّهِمُكَ قَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَتَّبِعِ الْقُرْآنَ، فَاجْمَعْهُ، قَالَ زَيْدٌ: فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ بَأْتَقَلَ عَلَيَّ مِمَّا كَلَّفَنِي مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ) [أخرجه البخاري]؛ فأوصافه هي: رَجُلٌ، شَابٌّ، عَاقِلٌ، لَا يُتَّهِمُ، يَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهو شابٌ رَجُلٌ. ومن أوصافه أيضاً أن تعلم لغة اليهود في 15 ليلة؛ إذ انتدب النبي صلى الله عليه وسلم لها أصحابه فنهض هو بذاك؛ إذ قال: (لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أُتِيَ بي إليه فقرأت عليه فقال لي: تَعَلَّمَ كِتَابَ الْيَهُودِ فَإِنِّي لَا أَمْنُهُمْ عَلَى كِتَابِنَا قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ فَكُنْتُ أَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقْرَأُ كِتَابَهُمْ إِلَيْهِ) [السلسلة الصحيحة للألباني].

فإذا كان الشباب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم الرجال؛ دونوا كتاب الله وتولوا جمعه فمن جاء بعدهم كذلك شباب رجالٍ دونوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ودافعوا عنها دفاعاً مُستميتاً وهو الإمام البخاري أستاذ الأستاذين وطبيب الحديث في علله، والذي ملأ ذكره الآفاق وأطبقت الأُمَّة على تقديم صحيحه على كل الكتب عدا كتاب الله تعالى، وقبله كذلك الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ناصر السنة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم جميعاً. فقد برز نجمهم وهم في مرحلة الشباب.

وإذا كان الرجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فكان منهم البطولات النادرة يوم بدر وخيبر والخنق؛ فمنهم كذلك السلطان محمد الفاتح الذي حقق الله تعالى على يديه فتح القسطنطينية وهو ابن الثانية والعشرين من عمره، وقبل ذلك محمد بن القاسم الثقفي - رحمه الله تعالى - فاتح الهند والسند وعمره سبعة عشر عاماً.

وإذا كان الرجال من أوصافهم أنه لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى فمنهم هذا الشاب الذي لم يشغله عن طاعة الله تعالى سلطان ولا رياسة ولا دنيا فكان إذا صلى كأنه خشبة منصوبة وهو عبد الله بن الزبير المُحَنِّك بريق النبوة وكان لا يُنازع في ثلاثة - كما قيل -: (شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة)؛ وقد قتل ملكاً من ملوك إفريقية وهو في السادسة والعشرين من عمره.

وإذا كان الرجال من أوصافهم أنهم يُدافعون عن حرَمات المُسلمين ويغارون عليها وعلى حُرَمات إخوانهم فمنهم بل وفي مقدمة شبابهم قتلة أبي جهل مُعَاذ ومُعُوذ ابنا عفراء غلامين حديثه أسنانهما؛ فعن عبد الرحمن بن عوف (بيننا أنا واقفٌ في الصَّفِّ يومَ بدرٍ، فنظرتُ عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغَلامين من الأنصارِ حديثه أسنانُهُما، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعِ مِنْهُمَا، فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمَّ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أَخْبَرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي نفسي بيده، لئن رأيتهُ لا يفارقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لَذَلِكَ، فَعَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَتَشَبَّ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَأَبْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ) [أخرجه البخاري].

فهؤلاء رجال - وغيرهم كثير - أناروا صفحات التاريخ ودَوَّنوها بمداد من دمائهم؛ وليس هؤلاء فحسب بل القائمة في تاريخ الإسلام تطول؛ فانظر إليها تجد فيها غير هؤلاء كثيراً؛ أمثال: (الأرقم بن أبي الأرقم 16 سنة يجعل بيته مقراً للنبي صلى الله عليه وسلم)، و(أسامة بن زيد يقود جيشاً للمسلمين على حادثة سنة 17 سنة وفي هذا الجيش كبار الصحابة ويواجه به أقوى جيوش الأرض حينها)، و(الزبير بن العوام 15 سنة وهو أول من سلَّ سيفه في سبيل الله تعالى)، (طلحة بن عبيد الله 16 سنة يُبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الموت ويدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى شَلَّتْ يده وذاك يوم أحد)، رضي الله عنهم جميعاً. وكذلك: (عبد الرحمن الناصر - في دولة الأندلس - وكان عصره هو أقوى عصورها؛ كان عمره 21 سنة) (يُرجع في هذه النماذج وغيرها كتاب ترطيب الأفواه بذكر مَنْ يُظْلَهُمُ اللَّهُ - د/ سيد حسين العفاني) وغيره من المصادر.

الثالث: بين الماضي والواقع والمأمول.

هذا هو الماضي ونُورُه الساطع في سماء الإسلام، وأما الواقع فما على المرء إذا ما أراد أن يصفه إلا أن يَغْضُ الطرفَ خجلاً وحياءً وانكساراً ودُلاً؛ فأين هُم أولادنا في مثل هذه الأعمار: في (النوادي والملاهي والمسارح والشواطئ) لا هَمَّ لكثير منهم إلا أن يبحث عن الطعام الجيد، والملبس الحسن، والهاتف الجوّال ذي الإمكانيات العالية

فليس في عقولهم وقلوبهم غايات الإسلام أو قضايا الكبرى، ولم يرد على عقولهم علّة وجودهم في هذه الحياة، أو أين سيذهبون بعدها؟ فعقولهم فارغة خاوية لا شيء فيها يُذكر.

زهّدوا في التعليم؛ فلم يرفعوا له رأساً. وآثروا الراحة والكسل؛ فما زال الواحد منهم ينتظر فُتات أسْرته حتى يُنْفَق عليه منه؛ وقد بلغ الواحد منهم مبلغ الرجال!! يُحسنون الصراخ والعويل إذ لم تأت لهم الدنيا بما يريدون؛ فلم يسعوا فيها جادّين مُشْمَرّين؛ تحقيقاً لأمر الله تعالى وإعزازاً لأنفسهم وحفاظاً على ماء وجوههم، وإنما آثروا البكاء والصريخ والعويل على واقع صنعوه بأيديهم!! فهذا هو الواقع وأنت به خبير.

والمأمول:

المأمول من شبابنا - حفظهم الله تعالى - كثير؛ لأنهم له أهلٌ، فالشمس لا تملأ النهار نورا في أوله وآخره كما تملأه في وسطه. فإنهم منبع القوّة والنشاط والشهوة، وحجر الزاوية في بنيان الإسلام وسمائه، وهم حُماة الدّين والوطن والعرض والشرف.

وحتى يصل شبابنا إلى هذا ويقتنعوا به لابد وأن:

1. يعرفوا أهمّيّتهم في الإسلام. فلهم في الإسلام أهميّة كُبرى. وقد سبق دليل ذلك.
2. يعلموا أن أعداءنا يسعون بكل سبيل لإفسادهم وتدميرهم؛ فيجتهدون بكل سبيل لإغراقهم في الشهوات والشبهات.

3. يقتنعوا بماضيهم ويعتقدوا فيه اعتقاداً جازماً؛ فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فمطالعة سير السابقين والسير على منهاجهم فيه الفلاح والنجاح.
4. يتعامل القائمون على أمورهم؛ ك (الحاكم - أو من يقوم مقامه -، وولي أمرهم أو أيُّ مسئول عنهم) تعاملًا خاصاً ينطلق من هذه العقلية أو هذه الخلفية، فليسوا كالأطفال أو الشيوخ أو العجائز؛ وإنما هم قوّة تتحرك إذا لم نُحسن استخدامها وترويضها ستدمر من حولها قبل أن تُدمر نفسها.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور].

والحمد لله رب العالمين

النُّبلاء

العناصر .

المقدمة .

أولاً: من أوصاف النبلاء

(الموضوع)

النُّبْلُ صفة من الصفات التي لا يتصف بها إلا الأفاض، الذين هم في الناس: «الشرفاء العظماء، الكرماء في حسبهم، وأخلاقهم» وكيف لا يكونون كذلك؟! وقد قيل عن النُّبْل: «وما ظنُّك بشيء المروءة خصلة من خصاله، وبُعْدُ الهمة خُلة من خِلاله، وبهاء المنظر سبب من أسبابه، وجَزالة اللَّفْظ شُعْبة من شُعْبه، والمقاماتُ الكريمة طريق من طرقه» وقيل: «النَّبِيل: مجمع لجميع الفضائل الخُلقية والجسمية والاجتماعية». وقيل عنه: «سرور النَّفس بالأفعال العظام». فهؤلاء النُّبلاء قد سادوا غيرهم وقادوا بما لديهم خصال وخال.. فلم يسودوا بالمال ولا بالسلطان ولا بالجاه بل بما وضعه الله تعالى فيهم من حميد الأخلاق والفعال؛ ومنها أنهم:

- لا ينتهزون الفرص للتشفي والانتقام؛ بل يعفون ولا يستقصون.

فليس من شأن النبيل ولا من صفاته تحيُّن الفرص للانتقام؛ بل العفو والصفح والمُجازاة بالتّي هي أحسن، فالنبي صلى الله عليه وسلم: (ما انتقم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيءٍ يؤتى إليه حتّى يُنتَهَكَ من حُرْمَاتِ الله، فينتقم لله) [صحيح البخاري]. وانظر كذلك إلى هذا الموقف الذي ينبعث منه كلُّ معاني النُّبْل والشرف والرِّفعة على حظوظ النفس ما كان من أمر دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف وإعراضهم عنه وإيذاؤهم له عليه الصلاة والسلام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (.. فأنطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ على وجهي، فلم أستَقِ إِلَّا وأنا بقرنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بِسَحَابَةٍ قد أَظْلَلْتَنِي، فَتَنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْرِيلُ، فناداني فقال: إِنَّ اللَّهَ قد سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقد بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فيما شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ

اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) [صحيح البخاري]. وهذا موقف آخر يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ، مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بَعْطَاءً) [صحيح مسلم]. وكذلك هذا الموقف الذي يظهر فيه النبيل في أعلى صورته وإشراقاته؛ فهذا الرجل الذي تسلل إلى النبي صلى الله عليه وسلم على حين غفلة من أصحابه رضوان الله عليهم؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَدْرَكْتُهُمُ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ يَسْتَنْظِلُونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، ثُمَّ نَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٍ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ) [صحيح البخاري].

ولم يكن هذا هو شان الرسول صلى الله عليه وسلم وحده؛ بل ومعه في ذلك صحابته الكرام؛ فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: (وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يَغْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى) [صحيح البخاري] وذلك لأن الله تعالى أمرهم بالعفو والصفح والصبر على الأذى فقال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران]. وليس في هذا المقام - مقام النبيل - يُفَاضِلُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالْعُقُوبَةِ؛ فَمَتَى يُقَدَّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ؟. أو هل العفو أفضل أم الأخذ ومن يستحق العفو ومن لا يستحق.

— لا يبحثون عن الملك أو السيادة؛ بل يُرْزُقُونَهَا عَلَى الْقُلُوبِ قَبْلَ الْأَبْدَانِ.

كثيرون .. هم أولئك الذي كتب الله تعالى لأقوالهم وكلماتهم وآرائهم القبول والشهرة والاتباع. وليس في هذا عجبٌ!، بل العجب في المؤهلات التي جعلت لهم هذا الملك وهذه

السيادة؛ فليسوا من أهل الجاه أو السلطان أو الثروة بل على العكس تماماً. فليس معهم أي سبب من الأسباب المادية التي تجعل لأقوالهم هذا الذبوع وهذا القبول. والأعجب من ذلك: أنه إذا عُرِضَتْ عليهم أسباب السلطان أو الجاه فرُّوا منها فراراً عجبياً؛ فكان منهم مَنْ يُراود على تولي منصب القضاء فيهرب.

كثيرون .. هم أولئك الذين تتمايل الآذان والقلوب وتهفو طرباً وشوقاً لاستماع حديثهم. والأخذ بمشورتهم، واستماع نصائحهم. والإسراع إلى امتثال فتاويهم وأحكامهم.

كثيرون .. هم أولئك الذين يأمرُون وينهون ويمتثل الناس ما يؤمَرُون به ويُنهون عنه بغير إمارة ولا سلطان. فإذا ما سألت أحداً: لماذا تفعل هذا الأمر أو لماذا لم تفعله؟. ستكون الإجابة: فلانٌ أمرني به أو نهاني عنه. إذا: فلماذا لا تُخالفه وهو لا يملك لك ضراً أو نفعاً؟.

كثيرون .. هم أولئك الذين يخجل المرء من أن يروِّنه على معصية أو على هيئة سيئة، والعجب أنهم ليسوا من آبائه أو مُعلِّميه؛ إنما هو الخجل أو الحياء ومن ثمَّ الفرار. فلماذا؟ وليسوا من أهل الجاه أو السلطان.

كثيرون .. هم أولئك الذي تتحرَّك الألسنة بالثناء عليهم في حضورهم، وفي غيبتهم، بل وبعد مماتهم. بل إذا وقع أحدٌ بكلمةٍ في حقِّ أحدهم ثارت الألسنة والأقلام بل والسيوف أحياناً دفاعاً عن هؤلاء!.. فلماذا؟ وليسوا من ذوي السلطان والمُلْك!.

وما هذه الآثار - وغيرها كثير - إلا ثمرة من ثمرات القبول الذي وضعه الله تبارك وتعالى

لهم في الأرض. فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً وُدًّا﴾ [مريم]. وقيل في هذه الآية: «عن هرم بن حيان. قال: ما أقبل العبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين عليه حتى يرزقه مودتهم، فقد وعد الله عز وجل عباده ... بهذه المودة» وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ

أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ) [صحيح البخاري]. «والمراد بالقبول: قبول القلوب له بالمحبة والميل إليه والرضا عنه، ..»

- معروفون بتاريخ من الأخلاق عظيم. وتلك خصلة من الخصال التي يُعرف بها النبلاء، فلم يكن نُبلهم وليد اللحظة وإنما تاريخهم حافل بالمروءات وكريم الخصال والفعال. فإذا ذُكِرُوا ذكر الناس أخلاقهم وماضيهم المشرق والحافل بكل ما فيه من مظاهر النُّبل الأخلاقي، ومن ذلك ما أثير عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه مع خديجة رضي الله عنها بعدما نزل عليه الوحي فقد قال لها: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) [صحيح البخاري] وكذلك عندما: (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهُ فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا..) [صحيح البخاري]. وكان من جملة هؤلاء النبلاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته؛ هذا العالم الجليل عبد الله بن المبارك الذي قيل فيه: «ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك. ولقد حدثني - القائل: إسماعيل بن عياش - أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص، وهو الدهر صائم»

- والنبلاء: يعرفون الفضل لأهله ولا يجحدونه. وهذا أيضا من لوازم شكرهم الله تعالى ومن لوازم نُبلهم؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (لا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ) [سنن أبي داود]. فلم يكن تنُّبلهم أو ظهورهم ومعرفة الناس لهم أو إجماع الخلق عليهم وصدورهم عن أمرهم؛ لم يكن هذا كله طاغيا لهم وصادا لهم عن اعترافهم بما أسدي إليهم قبل من المعروف. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في أسارى بدر يقول: (لو كَانَ الْمُطْعَمُ بِنُ عَدِي حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَّى، لَنَرَكُنَّهُمْ لَهُ) [صحيح البخاري] وقد: «كَانَ الْمُطْعَمُ بِنُ عَدِي هُوَ الَّذِي سَعَى فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي عَلَّقَتْهَا قُرَيْشٌ عَلَى الْكَعْبَةِ، وَفِيهَا مُقَاطَعَةُ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي

المُطَلِّب، فكان صَلَّى الله عليه وسلَّم يحفظُ له هذا الجميلَ» وكذلك: «لأنَّه صَلَّى الله عليه وسلَّم لما رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ لِمَكَّةَ، رَجَعَ فِي جِوَارِهِ». حتى وإن كان هذا الفضل لامرأة فلا يستنكف النبي صلى الله عليه وسلم أن يحفظه لها؛ فهذا قوله في خديجة رضي الله عنها كما تقول عائشة رضي الله عنها: (ما غُرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم، ما غُرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَغْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةً إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ) [صحيح البخاري] وكذلك: (كان النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم إذا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَتَتْهُ عَلَيْهَا، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ: فَغُرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشُّدُقِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ: مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسَّنْتَنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادُ النِّسَاءِ) [مسند أحمد]. ويقول صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر رضي الله عنه؛ في حادثة هي من أعظم الحوادث اعترافا بالفضل وحفظا له؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَنْتُمْ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُودِيَ بَعْدَهَا) [صحيح البخاري]. فلا يعرف الفضل لأهله إلا أهل الفضل.

والنبلاء: لم يسألوا مالاً .. ولم يدخروا عن الخلق خيراً.

فالنبي: لم يسع يوماً لجمع المال أو لم يكن كلاً أو عالة على أحد؛ بل يرتفع بنفسه عن هذا الحطام الفاني؛ وفي مثل ذلك يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنرى منه:

- لم يقبل الناقة من أبي بكر رضي الله عنه في الهجرة إلا بالثمن.

- لم يقبل الحائط الذي بنى عليه مسجده صلى الله عليه وسلم في المدينة إلا بالثمن.

- لم يقبل الصدقة على نفسه وآله؛ بل جعلها عليهم مُحَرَّمَةً؛ إِذْ (إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا

هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ) [صحيح مسلم].

- عن عبد الله مسعود رضي الله عنه. قال: كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو

لُبَابَةَ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَا نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: (مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى

عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا!) [مسند أحمد].

بل تُؤَفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ

شَعِيرٍ [صحيح البخاري].

وهو صلى الله عليه وسلم في كل هذا يمتثل أمر الله تعالى له: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص]. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ

أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَقَى﴾ [طه].

ومع ذلك .. لم يدخروا عن الخلق خيراً.

فليست معاملتهم للناس بالمثل أو بالعدل وإنما بالإحسان والفضل. فكثير من معاملات

الناس قائم على أن الإحسان يُقابل بالإحسان. وأمّا هؤلاء النبلاء فلا يريدون من الناس إحساناً

أو منفعة أو شيئاً من حطام الدنيا. وإنما يريدون جلب المصالح ودفع المضار عن الناس وبلا

مقابل. فهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ

عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ

يُصْبِرُهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) [صحيح البخاري]. وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه: (أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَةً أَيْ: وَهُوَ رَاجِعٌ - مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمَرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعْمًا لَقَسَمْتُهِ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِخِيَلًا، وَلَا كَذُوبًا، وَلَا جَبَانًا) [صحيح البخاري] وانظر كذلك إلى هذه الشملة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم - مُحْتَاجًا إِلَيْهَا - وقد نسجتها له امرأة؛ فقالت: (يا رسولَ الله، أكسوك هذه، فأخذها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَلَبِسَهَا، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ! فَاكْسُنِيهَا، فَقَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَامَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فِيمَنْعُهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا) [صحيح البخاري]. هذا في أمور الدنيا، وفي أمور الآخرة كذلك: (لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ) [الهيثمى في مجمع الزوائد].

والنبلاء: هم في الناس رحمة وبركة.

كثير هم أولئك الذين ارتبطت البركة بأسمائهم!. فتأتي على أيديهم السَّعة واليسر والرحمة والمنفعة والخير. وقد جعلهم الله تعالى مناطا للخيرات والمنفعة ودوامها؛ إذ البركة هي: «البركة هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء» فقد قال سبحانه وتعالى عن نبيه عيسى صلى الله عليه وسلم: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم] أي: «جعلني مُعَلِّمًا للخير نَفَاعًا»، «وَقِيلَ: مَا بَرَكَتُهُ؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَيْنَمَا كَانَ».

وانظر كذلك إلى نوع من أنواع هذه البركة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يُكْرِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِالنَّبُوءَةِ - وهو في الخامسة والثلاثين من عُمرِهِ - في قصة وضع الحجر الأسود عند بُنْيَانِ الكعبة بعد هدمها؛ وفيها أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم بعدما وصلوا إلى مكان

الحجر وتشاجروا فيمن يضعه، وقد اقترح أحدهم أن يكون واضعُه أولَ داخلٍ عليهم؛ فكان هو صلى الله عليه وسلم فقال لهم: (هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا، فَأَتِي بِهِ، فَأَخِذِ الرُّكْنَ فَوَضِعْهُ فِيهِ بِيَدِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ أَرْفَعُوهُ جَمِيعًا، فَفَعَلُوا: حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ)، فَبَعْدَ مَا كَادُوا يَقْتَتِلُونَ وَيُفْنِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّرَاعَ بِحُكْمَتِهِ، وَحَازَ الشَّرَفَ كُلَّهُ بِوَضْعِ الْحَجَرِ فِي مَكَانِهِ. وَهَذِهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ عَلَى قَوْمِهِ قَبْلَ بَعَثَتِهِ. فَالْغِبَاءُ وَجُودُهُمْ عَاصِمٌ لِلنَّاسِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْفِتَنِ وَالشَّرُورِ وَذَلِكَ بِحُكْمَتِهِمْ وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الرَّأْيِ السَّيِّدِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَفِيهَا قَوْلُهَا: (خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عَقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّمَاسِيهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَقَالُوا: أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعُ رَأْسِهِ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخِذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمِمِ فَتَيَمَّمُوا، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَأَصْبْنَا الْعَقْدَ تَحْتَهُ) [صحيح البخاري]. فليست آية التيمم أو حكم التيمم الذي كان سببه هو عقد عائشة رضي الله عنه هو أو بركاتهم على المسلمين. بل لهم بركات أخرى كثيرة معروفون بها.

وكذلك في صلح الحديبية. وكان من شأنه ما كان؛ وكان فيه من الشروط الجائرة على المسلمين، وقد أُحِيلَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَبَعْدَ انْقِضَاءِ الصَّلْحِ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ فَمَا قَامُوا لِأَمْرِهِ! وَهُوَ أَنْ يَنْحَرُوا هَدْيَهُمْ وَيُحْلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ؛ فَلَمْ

يستجيبوا! تقول الرواية: (فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل على أم سلمة، فقال: يا أم سلمة! ألا ترين إلى الناس، أي أمرهم بالأمر لا يفعلونه، فقالت: يا رسول الله! لا تلمهم، فإن الناس قد دخلهم أمر عظيم مما رأوك حملت على نفسك في الصلح، ورجعتك ولم يفتح عليك، فاخرج يا رسول الله، ولا تكلم أحدا من الناس، حتى تأتي هديك فتنحر، وتحل، فإن الناس إذا رأوك فعلت ذلك، فعلوا كالذي فعلت، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها، فلم يكلم أحدا، حتى أتى هديه، فنحر، وحلق، فلما رأى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك، قاموا ففعلوا، ونحروا، وحلق بعضهم، وقصر بعض) [دلائل النبوة للبيهقي والاستذكار لابن عبد البر]. فوجودها رضي الله عنها في المسلمين بركة عليهم.

ويوضح هذا المعنى ويُجَلِّيه خبر: (إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ) [صحيح مسلم] «وهذا في حق مَنْ سَأَلَ عَبَثًا وَتَكَلَّفًا فِيمَا لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهِ؛ كَمَسْأَلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي شَأْنِ الْبَقَرَةِ، أَمَّا الَّذِي يَسْأَلُ سُؤَالَ حَاجَةٍ وَضَرُورَةٍ فَهُوَ مُطَالِبٌ بِهِ .. وَأَيْضًا فَإِنَّ التَّحْذِيرَ وَالتَّرْهيبَ يَخْتَصُّ بَرَزَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكِنْ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا بَأْسَ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسُ الْعُلَمَاءَ عَنْ أُمُورٍ دِينِهِمْ».

والنبلاء: معروفون بالنجدة وإغاثة الملهوف. فلم يؤثروا الراحة على التعب والنصب، أو يتأخروا عن مواطن الإقدام؛ وإنما كانوا الأوائل في ساحات الوغى والقتال. ومن هذا ما يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه بقوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ: وَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً سَمِعُوا صَوْتًا، قَالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عَزِيٍّ، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَدْتُهُ بَحْرًا يَعْنِي الْفَرَسَ) [صحيح البخاري]. فهذه شجاعته وإقدامه صلى الله عليه وسلم. وكذلك ما روي: (لَمَّا حَضَرَ الْبَاسُ يَوْمَ بَدْرٍ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مَا كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ) [مسند الإمام أحمد] والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

القُدوة

المقدمة.

أولاً: أهمية القدوة والافتداء.

ثانياً: سمات القدوة وشروطها.

ثالثاً: بمن نقفدي؟.

رابعاً: أثر القدوة في الإصلاح والإصلاح.

(الموضوع)

من أكبر وسائل الإصلاح في المجتمع؛ صناعةُ النماذج الصالحة التي يُراد لأفراد المجتمع أن يسيروا على منهاجها. ثم تصدير هذه النماذج للمجتمع كي يحتذى حذوها ويسير الأفراد على خطاها، ولعلّ هذا المعنى ظاهرٌ من قول الله تعالى للمنافقين: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامِنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [كلاهما بالبقرة]، فلا يُطلب منكم إلا الاقتداء بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه". فهذه النماذج موجودة أمام الناس، يرونها بأعينهم، ولهم القدرة على التأسي بهم إن أرادوا الهداية والرشاد.

وأما أن تكون هذه النماذج بمواصفات وإمكانات خارجة عن قدرة الأفراد؛ فلا يصح حينئذ أن يُطلب منهم الاقتداء بهم؛ ولذلك عندما طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وسلم أمورا خارجة عن بشريته - آيات الاقتراح -؛ اعتذر ببشريته وقال كما أمره الله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ٩٣ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ٩٤ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ

مَلَكًا رَسُولًا ﴿[الإسراء]﴾، فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل الله تعالى عليهم من السماء ما يُناسبهم في خلقتهم وطبيعتهم؛ كي يكون الاقتداء.

فكان إرسال الرسل المصلحين لأممهم بأوصاف بشرية تُناسب أوقامهم في طبيعتهم وجبلتهم؛ أمراً ضرورياً لا تتفك عنه طبيعة الرسالة. وحتى يصحّ من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أن يقول لقومه بعدها (اتبعوني) أو يقول الله تعالى للأمم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِ ۖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

وحتى تكون النماذج الصالحة حجةً على تقصير مَنْ لم يلتزم بهذا المنهج الإلهي؛ فقد سبقك أناسٌ كثيرون؛ وكان معهم من القدرات والطاقات والإمكانات مثل الذي معك!!.

فهذه القدوة من أهمّ الأمور التي ينبغي الاهتمام بها في سبيل تعليم الأبناء والآباء والكبار والصغار والنساء والرجال؛ فليس الجميع ممن تاهل لطلب العلم والبحث عن الحقائق العلمية الشرعية والتعبدية، وإنما الكثيرون يكتفون بتقليد عالمٍ من العلماء؛ ارتضوا أخلاقه ودينه فجعلوه حجةً بينهم وبين الله عز وجل، يصدرون عن أمره وينتهون عن نهيه.

ولأجل ذلك كانت عناصر اللقاء:

أولاً: أهمية القدوة والاقتداء.

لقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الأمر لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر، إذ الاقتداء به سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فقال جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب]. وقد قال الله تعالى عن أزوجه صلى الله عليه وسلم إمّهات المؤمنين: ﴿يٰۤاَيُّهَا النِّبِيُّ مَنِ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضْلَعْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ هٰذَا مِنكُنَّ فَلَهُ وِجْرَةٌ مِّمَّنْ يَفْعَلُهَا وَلَا يَنصُرُ وَلَا يَنصَرُ ۚ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ عَذَابُهُمْ شَدِيدًا﴾ [النساء]. وفي هذه الآية:

«بيان أن سيئة العالم الشريف أسوأ من سيئة الجاهل الوضيع. ولذا قالوا حسنات الأبرار سيئات المقربين كمثل من الأمثال السائرة للعظة والاعتبار» فلأجل مقامهن الشريف وخطورة أمرهن وكونهن قدوة لمن بعدهن كان أجرهم مضاعفا وكذلك وزرهم.

وهاك نموذج آخر؛ يوضح ما للقدوة من أهمية في ترسيخ الأفعال الحسنة والأفعال القبيحة كذلك؛ وهو ما قصه الله تبارك وتعالى علينا في قصة ابني آدم - المذكورة في سورة المائدة - وما كان من شأن هابيل وقابيل، فقد قال عليه الصلاة والسلام في شأن المقتول: (إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني، قال: كن كابن آدم) [سنن الترمذي] وفي رواية عند ابن ماجه: (فإن دخل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم). وخيرهما هو المقتول.

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن القاتل وما ترتب على تعليمه للناس القتل: (لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل) [صحيح البخاري]. فانظر إلى هذه الأوزار؛ مع أنه لم يكن قاصدا أن يقتدى به فيها. ولكنه هو السبب الذي به أدخلها على بني آدم، فهو لم يفعلها لأجل أن يقتدى به وإنما الذين جاؤوا بعده هم الذين اقتدوا به فيها. ثم إنه لم يتب من ذنبه هذا. وهذا موافق لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء) [صحيح مسلم]. يؤكد هذا المعنى ويقويه كذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه) [صحيح البخاري ومسلم]؛ ولأن في المجاهرة من الاستخفاف بالمعصية والإلف لها؛ أن يصير العاصي قدوة لغيره فيها.

ثانياً: سمات القدوة وشروطها.

إنَّ من يُقْتَدَى به لا بد وأن يكون قد استجمع صفاتٍ نستطيع من خلالها أن نقول للناس (اتبعوه، فإنه صالح للتأسي..). وكذلك نقول عمَّن فقدوها: (احذروه.. فلا تقلدوه ولا تسيروا خلفه). وهذه الصفات صفاتٌ كثيرة، من أهمِّها وأبرزها:

أولاً: أخلاقه حسنةٌ وسيرته طيبة. وهذه الخصلة أو هذه الصفة من الصفات الأصيلة في باب القدوة والافتداء؛ إذ كيف يُؤمِّر الناس باتِّباع الفُسَّاق أو المجاهرين بالمعاصي أو مَنْ كانوا في أخلاقهم على أسوأ حالٍ من الكذب والخديعة والمكر والغش وسوء الطويَّة!.

ولأجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في أخلاقه قبل البعثة وبعدها مثلاً للكمال الخُلقي؛ والأحاديث والآثار في ذلك مشهورة معلومة بل ومُستفيضة وأكبر مثال على ذلك سيرته، فقد كان (خلقه القرآن) و(كان أشد حياءً من العذراء في خدرها) وقد قال المشركون عنه: (ما جربنا عليك كذباً قط) وقالوا: (الصادق الأمين)؛ وما أجمل ما زكَّى الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم]، كيف بهذا الرجل الذي قبل أن يُلقى عليه النور والوحي معروفًا؛ ب: (إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) [صحيح البخاري]. فصاحب هذه الأخلاق وهذه السيرة؛ هو الذي يُقْتَدَى به ويُتَّبَع. وقد جمع الله تعالى في وصف أئمة المتقين وصفين من أعالي الأخلاق والخصال، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة] فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

ثانياً: علمه نافعٌ وأصيلٌ. لا بد لهذه القدوة أن تكون في معارفها متَّصِفةً بهذين الوصفين؛ العلم النافع، والعلم الأصيل وليس الضارَّ الدخيل. ولأجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم مُبلغاً عن ربِّه وفقط فكان صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا عن الوحي الإلهي؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ﴾ [النجم]؛

فليس في علمه ولا معارفه ولا في أقواله ممن يعتمد على الظنون والتخمينات والقياس والقال وإنما كلامه أصيل متين مبين مصدره عن الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الحيثية تبعث الثقة في النفوس إذا ما سمعت من صاحبها حديثاً أو حُكما. وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيز به الله من علم لا ينفع (أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْآرْبَعِ) [مسند أحمد]، وكان كذلك يقول في دبر صلاة الفجر: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَرِزْقاً طَيِّباً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً) [مسند أحمد]. فإذا ما كان مصدر العلم النافع أصيلاً فقد كملت النعمة وتمت المنة؛ وأصبح صاحبها محلاً للاقتداء.

ثالثاً: عمله لا يخالف قوله. فمن الصفات التي هي من لوازم القدوات الصالحة؛ أن أقوالهم تتوافق وتتسجم مع أفعالهم؛ فليس هناك تنافر بينهما، إذ كيف يليق بالقدوة أن يكون في منأ عن ما يأمر الناس به أو يدعوهم إليه. وقد قال الله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود]. وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن رجلٍ أنه انسلخ من آيات الله تعالى بعدما آتاه إياها وضرب له مثلاً بنس المثل فقال جلّ ذكره وثناؤه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف]. وهذا الصنيع من أكبر أسباب المقت والغضب عند الله تعالى؛ فقد سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلانا ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية) [صحيح البخاري]

رابعاً: حرصه على مدعوّيه ومتّبعيه. وهذا الوصف إذا تحلّى به الداعية؛ فسيؤثّر كلامه قبل فعله على مدعوّيه، فتراهم يتسارعون إليه ويقبلون عليه إذ قد رأوا منه شفقةً ورحمةً وعظماً وحباً في جلب الخيرات إليهم ودفع المنكرات عنهم. وقد وصف الله تعالى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]، فإذا كان القدوة حريصاً على هداية الخلق ونفعهم؛ فلا شك أنه سيؤثّر ذلك في بيانه وبلاغه وتحركاته بل وفي سكناته. وهذه علامة صدق على صفاء نفسه وطهارة روحه. وانظر إلى هذا الحرص الشديد من رجل مؤمن من آل فرعون يقول لقومه: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر].

ثالثاً: بمن نقتدي؟

بعد معرفة هذه الأوصاف التي تميّزت بها تلك القدوة الصالحة؛ فقد أصبح من اليسير أن نحدد الأشخاص الذين قد جمعوها فأصبحوا مثالا يُقتدى به ونُموذجاً يُحتذى؛ فمنهم:

- الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام. فقد ذكر الله تبارك وتعالى جملة من الأنبياء في سورة الأنعام - ثمانية عشر نبياً - ثم قال بعدهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَفْتَدِ﴾ وقال سبحانه كذلك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة]، وكذلك قوله عنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة] وقد أمرنا الله تعالى باتباع نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم إن أردنا الهداية، فقال سبحانه: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف]. فأول القدوات الصالحة لنا إنما هي في أنبياء الله تعالى؛

فقد جمعوا كل الصفات التي تجعلهم في المكان الأعلى لتطبيق مُراد الله تعالى من خلقه.

• **الصحابة الكرام رضي الله عنهم.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي لَا أُدْرِي مَا قَدَرُ بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي"، وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ) [مسند أحمد وغيره وفي سنده مقال]، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ) [مسند أحمد].

• **أتباع الأنبياء والمرسلين.** وقد قال الله تعالى عن رجلٍ مؤمن من آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة] وقال سبحانه وتعالى عن عباد الرحمن وتضرعهم إليه سبحانه بهذا الدعاء: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان]. فلو لم يكن هذا الدعاء مُستساغاً لما سألوه ربهم سبحانه وتعالى. وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ الْمُتَّقِينَ) [موطأ مالك].

• **العلماء الأعلام المصلحون.** فالعلماء المخلصون المصلحون قد جعلهم الله تبارك وتعالى في ديننا بالمحلِّ الأمثل والنموذج الأفضل لمن أراد السير على طريق الأنبياء والمرسلين؛ فهُم الذين علموا مُراد الله تعالى وعملوا به، ثم قاموا ببلاغه أتم قيام، فليس لهم رأيٌ يصدُر عن هوى نفوسهم وإنَّما هم مُتَّبِعُونَ مُبَلِّغُونَ عن الله تعالى ما جاءهم عن رُسل الله الكرام؛ لذلك كانوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ) [سنن أبي داود والترمذي وغيرهما] وليس هذا فقط؛ فإن الله تعالى جعل وجودهم بعثاً

للدين من جديد في نفوس المسلمين فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) [سنن أبي داود] وقد جاء عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَثَلَاثَةَ: زَلَّةَ عَالِمٍ، وَجِدَالَ الْمُنَافِقِ بِالْقُرْآنِ، وَدُنْيَا تُقَطَّعُ أَعْنَاقُكُمْ، فَأَمَّا زَلَّةُ الْعَالِمِ فَلَا تُقْلَدُوهُ دِينَكُمْ، وَإِنْ زَلَّ فَلَا تَقْطَعُوا عَنْهُ أَنْتَكُمْ، وَأَمَّا جِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ لِلْقُرْآنِ مَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، فَمَا عَرَفْتُمْ فَخُذُوهُ، وَمَا أَنْكَرْتُمْ فَارْذُوهُ إِلَى عَالِمِهِ، وَأَمَّا دُنْيَا تُقَطَّعُ أَعْنَاقُكُمْ فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الْغِنَى فَهُوَ الْغَنِيُّ) [شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي]. فالحذر الحذر من تقليده في زلة من زلاته، وعلى كل حال فإن بقاء العالم العامل الصالح الناصح صلاح للناس؛ وقد سئل سعيد بن جبير رحمه الله تعالى ما علامة هلاك الناس قال: «إذا ذهب علماؤهم». وهاك وصية من الوصايا التي أدركتها أم الإمام مالك رحمها الله فقد كانت تُعممه وتقول له: «اذهب إلى ربيعة فتعلم من من أدبه قبل علمه!!». فأين هو الأستاذ أو الشيخ الذي يفي بالمقصود أدبا وعِلْماً؟!

رابعاً: أثر القدوة في الصلاح والإصلاح.

إنَّ للقدوة أثراً كبيراً ظاهراً في الصلاح والإصلاح، فالكثير من الناس تَسْتَهْوِيهِمْ أَخْلَاقُ الْكِبَارِ من القادة والمُصلِحين؛ بل ويتغنَّون بها، إذ هي من أكبر أسباب الثبات في أزمنة المحن والشدائد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا تَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود] فيكون لذكر أخلاقهم الأثر البارز في حياة الشعوب والأفراد، وقد قيل: «حالُ رجلٍ في ألف رجلٍ خير من قول ألف رجلٍ لرجلٍ».

وقد نقل ابن كثير رحمه الله تعالى في البداية والنهاية خبر هند بنت عتبة - رضي الله عنها - وقد فتح الله تعالى قلبها للإسلام، وفيه أنها: «لَمَّا أَرَادَتِ الذَّهَابَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتُبَايِعَهُ اسْتَأْذَنَتْ أَبَا سَفْيَانَ، فَقَالَ لَهَا: قَدْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ مُكْذِبَةً بِهَذَا الْأَمْرِ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ اللَّهَ عَبْدَ حَقِّ عِبَادَتِهِ بِهَذَا الْمَسْجِدِ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَاللَّهِ لَقَدْ بَاتُوا لِيْلَهُمْ كُلُّهُمْ يُصَلُّونَ فِيهِ. فَقَالَ لَهَا: إِنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ فَلَا تَذْهَبِي وَحْدَكَ..».

إِنَّ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ جُرْماً مَنْ صَدَّرَ لِلنَّاسِ أَنْاساً يُقْتَدَى بِهِمْ؛ وَلَيْسُوا عَلَى دِينٍ أَوْ عَلَى خُلُقٍ أَوْ عَلَى عِلْمٍ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٍ، يُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذِّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّؤْيِيضَةُ "قِيلَ: وَمَا الرُّؤْيِيضَةُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ) [مسند الإمام أحمد] وفي بعض روايات المسند كذلك: (الْفُؤَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ). وفي رواية ابن ماجه: (الرَّجُلُ التَّافَهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ) [سنن ابن ماجه]. فانظر إلى هذه الأوصاف (السفيه والتافه والفاسيق والفويسق)؛ وسوف تعلم من خلالها حجم ما يُعانيه شبابنا من هؤلاء الذين سُلِّطوا بقصدٍ أو بغيره كي يُعلِّموا الناس من فسقهم وسفاهتهم وتفاهتهم.

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
والحمد لله رب العالمين.

الوطن

العناصر:

المقدمة.

أولاً: أهمية الأوطان في ديننا.

ثانياً: الأوطان .. بين الحق والواجب.

ثالثاً: الدفاع عن الأوطان.

(الموضوع)

وهذا من المواضيع التي ينبغي أن تطرق أسماعنا؛ وذلك لأهميتها ولخطورة أمرها وشأنها، لا سيما ونحن في هذا العصر الحديث. والذي أصبح من سماته ومن أساسياته البحث عن مُتَع الحياة وملذاتها، واتباع رغباتها وشهواتها. وهذا الأمر - أو غيره - قد أدّى بالكثيرين إلى احتقار أوطانهم؛ بل والسعي في إفسادها وذلك لأنها لم تحقق لهم مطلوباتهم من الشهوات والرغبات والمتع والملذات.

إضافة إلى أننا نعلم يقيناً بأنّ عدوّنا يتربّص بنا وبأوطاننا الدوائر؛ فيريدون إسقاطها والاستحواذ عليها، إمّا بأيديهم أو بأيدي أبنائها؛ فيشعلون بينهم الفتن والثورات. وكذلك يُضخّمون في عيونهم أمر الرفاهية والتقدّم وما وصلوا إليه في أوطانهم التي لم تعرف طعم الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فيقع شبائبنا ساعتها في أمر مريع!. فيقولون: أين نحن من هؤلاء؟ وما هو سبب تأخرنا وتخلّفنا؟ ولماذا نحن في هذا المحلّ الأدون؟ فلا يجد الشاب إجابة لهذه الأسئلة، ومن ثمّ يتحرّك نحو الفساد والإفساد لوطنه؛ ظانّاً منه أنّه هو السبب، أو أنّه الحجرُ العثرة أمام تحقيق أهدافه طموحاته.

فما هو مقدار الوطن وماهي متطلبات الانتماء إليه وما هي الصورة التي ينبغي أن يكون المسلم عليها تجاه وطنه الذي يعبد فيه ربّه ويُقيم عليه شعائر دينه؟. هذا هو موضوع اللقاء وأسأل الله تعالى السداد والتوفيق.

أولاً: أهمية الأوطان في ديننا.

إذا أردنا أن نتكلم عن أهمية الأوطان في ديننا؛ فلا بد و حتى تظهر الصورة واضحة - من عقد مقارنة بين أحوال المسلمين في مكة قبل الهجرة وأحوالهم بعدها في المدينة، وما ترتب على كل حالة منهما.

فلم تكن هناك - أي في مكة - الجمع والجماعات، ولم تكن هناك دروس العلم في المساجد والحلقات؛ ولم يكن كذلك أمرُ المعروف أو النهي عن المنكر ظاهراً بل في الخفاء أو في جنح الليل. ولم تكن هناك للمسلمين شوكة ولا سلطان يُدافعون بها عن دينهم وعقيدتهم؛ فلم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم جيش يستطيع من خلاله أن ينشر دينه أو أن يُدافع به عن دينه أو أصحابه أو وطنه، بل كان عليه الصلاة والسلام يؤذى ويُضطهد هو وأصابه أشد الإيذاء. وفي كل ذلك لا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يُدافعوا عن أنفسهم بل ولم يؤذن لهم في ذلك.

أمّا في المدينة فالأمر على النقيض من ذلك تماماً. فهناك شعائر الدين ظاهرة؛ من الأذان والجمع والجماعات والأعياد، وهناك الجهاد وتجهيز الجيوش للنشر الدعوة والدفاع عن حياض الإسلام والمسلمين، وهناك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك الدولة وقائدها ومؤسساتها، وهناك المساجد وحلق العلم ودروسه وفيها كل شيء.

وفيها الأمن والأمان .. الذي في ظلاله وتحت أرواقته .. يعيش المسلمون؛ ساعين جادين مُجتهدين مُنتجين في كل مناحي الحياة. وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد قال الله تعالى مُظهراً نعمته على قريش: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ۖ إِلَّا لَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾ [قريش] ولكنهم سلبوا هذه النعمة بكفرهم وطغيانهم وتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل].

وقد جاءت هذه المقارنة بين الحالتين في مكة والمدينة في قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال].

ومما يدل على أهمية الأوطان في ديننا كذلك:

- أن البعد عنها نوع من العذاب. فقد جاء في الشرع الشريف الحنيف أنواع من العقوبات تضمنت النفي من الأرض أو من الوطن الذي نشأ فيه الإنسان وترعرع. فقد قال سبحانه وتعالى عن الذين يُحاربون الله ورسوله - قطاع الطريق -: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة]. وجاء في عقوبة الزاني غير المحصن؛ ف: (عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ أَمَرَ فِيمَنْ رَزَى، وَلَمْ يُحْصَنْ بِجِلْدٍ مِئَةً، وَتَغْرِيبٍ عَامٍ) [صحيح البخاري].

- السفر الذي هو الضرب في الأرض. قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَثَوْبَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ) [صحيح البخاري]. وهذا السفر في كثير من الأحيان؛ يكون المرء فيه مُختاراً لا مُكرهاً ومع ذلك هو قطعة من العذاب!.

- الاقتران بين القتل والخروج من الديار. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دَيْرِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء].

- ومما يدل على أهميته كذلك؛ أَنَّ الله تعالى عاب على قوم تمسكهم بالأرض التي لا يستطيعون فيها عبادة الله وتركهم ما يُمكنهم فيها عبادة الله عز وجل. فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء]. «فنقول

لهم الملائكة توبيخاً لهم: ألم تكن بلاد الله واسعة فتخرجوا إليها لتأمنوا على دينكم وأنفسكم من الإذلال والقهر؟! فأولئك الذين لم يهاجروا ميثاهم الذي يستقرون فيه هو النار، وساءت مرجعاً ومآباً لهم».

- ومما يدل على أهميته كذلك ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه واصفاً رجوع النبي صلى الله عليه وسلم إلى وطنه: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا؛ مِنْ حُبِّهَا) [صحيح البخاري] وكيف لا يُحِبُّها صلى الله عليه وسلم؛ وهي: «مُهاجره ووطنه، وفيها أهله وولده وأنصاره من المؤمنين الذين هم أحبُّ النَّاسِ إليه، وقد جَبَلَ اللهُ النَّفُوسَ عَلَى حُبِّ الْأَوْطَانِ وَالْحَنِينِ إِلَيْهَا» ويقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفي الحديث دلالة على مشروعية حب الوطن والحنين إليه».

- ومما يدل أهمية الأوطان كذلك ما جاء في هذه الأحداث من السيرة النبوية ما يدل على وجود هذا المعنى وتمكُّنه من قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد الهجرة بسنوات:

- **ففي قصة غنائم حنين** وتقسيمها على مُسلمة الفتح؛ فلم يُعطِ النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار منها شيئاً، فوجد الأنصار من ذلك شيئاً في نفوسهم فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم مُبرِّراً فعله: (يا معشر الأنصار، قد بلغني من حديثكم في هذه المغام التي آثرت بها أناساً أتألفهم على الإسلام، لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم وقد أدخل الله قلوبهم الإسلام) ثم قال لهم: ("أما والله لو أجبتهموني بغير هذا القول، لقلت: صدقتم، لو قلت: ألم تأتينا طريداً فأويناك، ومكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك؟ لو قلت هذا لصدقتم"، فقالت الأنصار: بل لله ولرسوله المنّ، والفضل علينا، وعلى غيرنا، ثم بكوا، فكثر بكاءهم، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم معهم، ورضي عنهم، فكانوا بالذي قال لهم أشدَّ اغتباطاً وأفضل عندهم من كل مال) [معجم الطبراني الكبير].

- وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم؛ يوم بدر حينما أمر بوضع صناديد قريش القلبيب قلبيب بدر بعدما قُتلوا وصاروا جيفاً: (يا أهل القلبيب بنس عشيرة النبي كنتم لنبيكم

كذبتُموني وصدقني الناس وأخرجتُموني وآواني الناس وقاتلتُموني ونصرني الناس) [تاريخ الطبري] وفي رواية عند أحمد: (لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَوْلَئِكَ الرَّهْطِ فَأَلْقَوْا فِي الطَّوِيِّ: عُتْبَةُ، وَأَبُو جَهْلٍ، وَأَصْحَابُهُ، وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: جَزَاكُمْ اللَّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيِّ، مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ! وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْهُمْ. أَوْ: لَهُمْ أَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْكُمْ) [المُسْنَد].

• **كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحب وطنه.** وما مرَّ من الأحاديث والأحداث شاهد على ذلك فقد قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: «وكان يُحبُّ عائشة، ويُحبُّ أباهَا، ويُحبُّ أسامة، ويُحبُّ سبطيه، ويُحبُّ الحلوَاء والعسل، ويُحبُّ جبل أحد، ويُحبُّ وطنه، ويُحبُّ الأنصار».

ثانياً: الأوطان .. بين الحق والواجب.

من الأمور التي ينبغي علينا جميعاً أن نعيها ونفهمها جيداً؛ هي فكرة التلازم بين الواجبات والحقوق، وقد عبّر عنها أحد المعاصرين "بأنها شرعة السماء": «فالحقُّ ليس هدية تُعطى ولا غنيمة تُكتسب وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما مُتلازمان والشعب لا يُنشئ دستور حقوقه إلا إذا عدّل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي. وإنها لشرعة السماء "غير نفسك تُغيّر التاريخ"». بل يزداد الأمر وضوحاً عن تلك الكلمات فيقول: «ينبغي ألا يغيب عن نظرنا أن الواجب ينبغي أن يتفوق على الحق في كل تطور صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا محصول وافر، أو بلغة الاقتصاد السياسي "فائض قيمة" هذا الواجب الفائض هو أمانة التقدم الخلقي والمادي في كل مُجتمع يشق طريقه إلى المجد.. وبعبارة أدق: ليس الشعب بحاجة إلى أن نتكلم له عن حقوقه وحرّيته، بل أن نُحدّد له الوسائل التي بها يحصل عليها، وهذه الوسائل لا يُمكن إلا أن تكون تعبيراً عن "واجباته"». ونفسه يقول عليه الرحمة: «ألم نقل: إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً

مُجرداً»⁽¹⁾. بل أقول: إنَّ صاحبَ الحقِّ إذا قصَّر في الواجب الذي عليه لا يَعْنِي أنْ نقصر في الحقَّ الواجب له علينا.

ودعني أضرب لك مثالا يوضح المضمون والمقصود.

الوالد .. واجب عليه أن يُنفق على أولاده وليس اختيارا. وله حق على أولاده الاحترام والتقدير. فهل إذا قصَّر الوالد في النفقة - على فرض تقصيره - يُقصَّر الأولاد في الحق الذي له عليهم من الاحترام والتوقير؟! لا يقول بذلك قائل؛ وكذلك لا يجوز أن يقول قائل باستبدال الوالد بوالد آخر!⁽²⁾.

وبعد هذا .. يجدر بنا أن نقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سَتَكُونُ أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُتَكْرَمُهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ) [صحيح البخاري]. فالواجب أن تؤدي ما عليك وأن تسأل الله الذي لك. وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي وَمَوْعِدُكُمْ الْحَوْضُ) [صحيح البخاري]. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه سترون بعدي أثره أي: «مِنَ الْمُلُوكِ إِثَارًا وَتَقْضِيلاً لِنَفْسِهِمْ عَلَيْكُمْ بِالدُّنْيَا، وَيُفَضِّلُونَ غَيْرَكُمْ عَلَيْكُمْ، وَلَا يَجْعَلُونَ لَكُمْ فِي الْأَمْرِ مِنْ نَصِيبٍ؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»، فتنالوا الثَّوَابَ الْكَبِيرَ».

فعليك أخي وحبيبي في وطنك المسلم الذي تعيش فيه بين ظلاله؛ أن تبذل كل ما عليك من الواجبات مُحَسِّنًا لها ومَجُودًا؛ مُسْتَشْعِرًا في ذلك مسئوليتك الفردية أمام الله تعالى يوم لقائه. وإياك ثم إياك أن تقصر في واجباتك لأن الآخرين قصَّروا في حقك؛ فربما لهم يوم القيامة عند الله تعالى حُجَجٌ تُنجِّيهم مما وقعوا فيه من التقصير.. ولكن: ما هي حُجَّتُكَ أنت فيما قصَّرت فيه بعد التزامك به؟!.

(1) هذه النصوص كلها من كتاب الماخرجات لـ إبراهيم السكران. وقد نقلها عن "مالك بن نبي" من كتبه: (وجهة

العالم الإسلامي - ترجمة عبد الصبور شاهين) وكتابه (شروط النهضة)

(2) وهذا مثال للحق والواجب فقط. فقد يقول قائل نأتي برئيس آخر بدلا من هذا. وإن كنا غير واثقين بما عليه هذا

الثاني أو بما سيكون على يديه، أو هل ستجتمع عليه القلوب أم تتنافر .. والله أعلم.

ثالثاً: الدفاع عن الأوطان.

من القواعد المقررة في الشريعة الإسلامية؛ أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وبعد علمنا بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة وبعدها؛ يتبين لنا أهمية الوطن في إقامة الدين وإظهار شعائره. ومن ثم كان الحفاظ على الأوطان وسيلة عظمى في تبليغ الدين وإقامته وتعبيد الناس لرب الناس سبحانه وتعالى.

وقد أخذ الدفاع عن الأوطان صوراً متعددة؛ منها:

- **الفرض العيني.** فإذا داهمنا العدو في ديارنا؛ فقد أصبح أمر الدفاع عنها واجباً عينياً على كلٍّ أحد صغير وكبير ذكر وأنثى حرٍ وعبد؛ فهو فرض عينٍ على كل المقيمين فيها. باذلين في ذلك كل ما يمكن من إعداد العدد والعدد والوسائل والآلات التي تدفع عنا ذاك العدو. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة فقد حفروا الخندق حول المدينة لذلك وحصنوها تحصيناً بالغاً في مواجهة الأحزاب.

- **إعداد العدة إرهاباً وتخويفاً للأعداء ولِمَن وراءهم.** وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال]. فإعداد العدة له فوائد: (إرهاب وتخويف العدو الظاهر) و(آخرين يُرهبون؛ لا تعلمونهم ولكن الله يعلمهم ويُلقي في قلوبهم الرعب منكم).

- **أمر بالدفاع عنها جزاءً.** وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] والمعنى: «أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يخرجوا أولئك الكفار من مكة إن أقاموا على شركهم إن تمكّنوا منه، لكنّه كان في المعلوم أنهم يتمكّنون منه فيما بعد، ولهذا السبب أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشرك من الحرم، ثم أجلاهم أيضاً من المدينة، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» وقيل معناها: «وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه، وهو مكة». هذا

إذا كان العدو خارجا عن ديارنا وأما إذا كان في ديارنا ومن بيننا ويتجسس علينا ويتربص بنا الدوائر فقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ٨ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة]. فالأمر بمعاداة هؤلاء واجب أمر الله تعالى به. حفظا للدين وصيانة للمؤمنين وتطهيرا لأوطاننا من العابثين الحاقدين الماكرين.

والله تعالى من وراء القصد.

حفظ الله تعالى بلادنا وبلاد المسلمين .. آمين.

المصلحة العامة والخاصة

العناصر:

أولاً: في تحديد المعنى والأهميّة.

ثانياً: من صور المحافظة على المصلحة العامة.

ثالثاً: تقديم المصلحة العامة على الخاصّة.

(الموضوع)

المصلحة هي - كما يقول علماؤنا -: «المحافظة على مقصود الشرع .. ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة». ولذلك كان من المواضيع الكبرى في الشأن الإسلامي العام؛ والتي لها أهمية عظمى: "المحافظة على المصلحة العامة وتقديمها على المصلحة الخاصة".

وذلك لأنها: «المصلحة التي تتعلق بحق الخلق كافة؛ مثل حماية الدين، وحفظ القرآن من التلاشي العام» أو هي: «المصلحة المتعلقة بحق جماعة من الأمة» بخلاف المصلحة الخاصة؛ التي تتعلق بحق شخص معين. من بيع شيءٍ أو طلاق امرأة أو فسخ عقد أو بناء منزل أو نحو هذه الأمور.

«من مآرس الشريعة وفهم مقاصد الكتاب والسنة علم أن جميع ما أمر به لجلب مصلحة أو مصالح، أو لدرء مفسدة أو مفسد، أو للأمرين، وأن جميع ما نهى عنه إنّما نهى عنه لدفع مفسدة أو مفسد، أو جلب مصلحة أو مصالح، أو للأمرين، والشريعة طافحةٌ بذلك». ومما يدل على أهميتها في الشأن العام وأنّ مراعاتها من أكد الواجبات؛ نصوص كثيرة، منها:

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا) [صحيح البخاري].
فالسفينة: هي المجتمع الذي ينبغي أن يأخذ على أيدي المفسدين فيه - حتى وإن كان ظاهر الأمر أنه حقهم - لأنهم بذلك يتسببون في إهلاكه كله.

وكذلك هذا المِثَالُ التاريخي للواقعة التي كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؛ والتي امتنع فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل شخصا استحقَّ القتل بذنبه؛ وذلك لأجل الحفاظ على مصلحة المسلمين العامة ودينهم. وكان هذا في قوله عن عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق في المدينة؛ حيث قال كما تقول الرواية: (لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا تَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْخَبِيثَ؟ لِعَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) [صحيح البخاري]. يقصد بنفسه: العزيز، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم الذليل!. فحتى لا يتحدث الناس بمثل هذا الحديث ويكون بسببه صدُّ الداخلين في الإسلام عن الإسلام.

وكذلك من النصوص الظاهرة في مراعاة المصلحة العامة على حساب المصلحة الشخصية؛ ما جاء في نهيه صلى الله عليه وسلم عن ادخار لحوم الأضاحي وذلك في قول عائشة رضي الله عنها: (دَفَّ أَهْلُ أَبِيَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَضْرَةَ الْأَضْحَى زَمَنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادْخَرُوا ثَلَاثًا، ثُمَّ تَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ يَتَخَذُونَ الْأَسْفِيَةَ مِنْ ضَحَايَاهُمْ، وَيَجْمَلُونَ مِنْهَا الْوَدَّكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: نَهَيْتَ أَنْ تُؤْكَلَ لُحُومُ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَقَالَ: إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَةِ الَّتِي دَفَّتْ؛ فَكُلُوا وَادْخَرُوا وَتَصَدَّقُوا) [صحيح مسلم].
وفي الحديث كما يقول العلماء: «الحدُّ والمنعُ من بعضِ المباحات؛ للضرورةِ وللمصلحة العامةِ

إذا رآها الحاكم المؤتمن» ويُقاس بلحوم الأضاحي - الواردة في هذا الحديث - كل سِلعة يؤدي التحكم فيها واحتكارها إلى التضيق على الناس.

وكذلك حديث الأشعريين؛ وفيه أن: (الأشعريين إذا أزمَلُوا في الغزو، أو قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ؛ جَمَعُوا ما كانَ عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ واحدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ في إِنْاءٍ واحدٍ بالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وأنا منهم) [صحيح البخاري]. فبهذا الفعل الذي حافظوا فيه على جماعتهم؛ كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة.

وكذلك الأحاديث الدالة على وحدة الجسد المسلم وأن تداعي عضو منه يؤثر عليه كله: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ) [صحيح البخاري]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) [صحيح مسلم]. فلا بُدَّ من المحافظة على الجسد كله إذ إنَّه إذا اشتكى منه عضو فهذا مؤذنٌ بمرضى المرض في كافة أطرافه وزواياه.

ثانياً: من صور المحافظة على المصلحة العامة.

من الصور التي ينبغي فيها على أفراد المجتمع أو على الدعاة أو على المسؤولين مراعاة هذا الباب؛ ما يلي:

- المجاهرة بالمعاصي وخطورتها على الشأن العام. فالذي يُجاهر بالمعصية؛ ليست خطورته على نفسه فقط وإنما على المجتمع؛ إذ إنَّه يُسهِّل ارتكاب الفاحشة أمام الناس ويجعلها مألوفةً لديهم، ولذلك كان إثمُه وذنبه عظيم إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ) [صحيح البخاري]. وهذا يدخل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور].

- التكاليف الدينية والقُدوة فيها. وهذا يظهر واضحا من فعل النبي صلى الله عليه وسلم

في ترك بعض المحبوبات لديه؛ خشية أن يظنَّ الناس وجوبها عليهم بمواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أمثال: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا) [صحيح البخاري] وكذلك ما جاء في صلاة التراويح: (أنه صلى الله عليه وسلم قام بأصحابه في رمضان ثم ترك ذلك خشية أن تُفْرَضَ على الناس فيعجزوا عنها). ولم يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم صيام داود؛ وقد قال عنه: (أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا) [صحيح البخاري] وقال عن الجهاد في سبيل الله تعالى ومحبته له: (والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ، لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي، وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَقْعُدُوا بَعْدِي) [صحيح مسلم].

ومما يدل على مُراعاة هذا المعنى ما نُقِلَ عن أبي بكر وعمر وأبي مسعود الأنصاري رضي الله عنهم جميعا؛ أنهم كانوا يتركون الأضحية في بعض الأعوام - مع سعتهم - والحامل لهم على هذا الفعل حتى لا يتوهم الناس أنها واجبة. فقد روى البيهقي: عن (حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، قال: "أدركت أبا بكر أو رأيت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا لا يضحيان". كراهية أن يُقْتَدَى بهما) وأيضا روى عن أبي مسعود الأنصاري: (إني لأدعُ الأضحية وإني لموسر، مخافة أن يرى جيرانني أنه حتم عليّ).

- مناقشة القضايا العامة أو المصيرية أمام الجماهير. كذلك من الأمور التي ينبغي أن

تُراعى فيها المصالح العامة وتقديرها حقَّ التقدير. مناقشة الأمور المصيرية أو الجماهيرية

المتعلقة بالعوام: أمام الناس أو على الشاشات أو على وسائل التواصل العامة. فهذا فيه مفسدة لنظامهم واجتماع أمرهم. ويدل على ذلك الحديث الذي فيه قول القائل عن بيعة أبي بكر بأنها فلتة: (قَالَ اللَّهُ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فُلْتَةً فَتَمَّتْ، فَغَضِبَ عُمَرُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَقَائِمُ الْعَشِيَّةِ فِي النَّاسِ، فَمَحَذَّرُهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رِعَاعَ النَّاسِ وَغَوَاةَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِكَ حِينَ تَقُومُ فِي النَّاسِ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطِيرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطِيرٍ، وَأَنْ لَا يَعُوهَا، وَأَنْ لَا يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا، فَأَمْهَلَ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ؛ فَإِنَّهَا دَارُ الْهَجْرَةِ وَالسُّنَّةِ، فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ، فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا، فَيَعِيَ أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَتَكَ، وَيَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا. فَقَالَ عُمَرُ: أَمَّا وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَأَقُومَنَّ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ .. الحديث بطوله.. ثم لما قدم المدينة قص على الناس رضي الله عنه ما كان من أمر بيعة أبي بكر) [صحيح البخاري] المهمُّ أنَّه لم يتكلم في هذا الأمر إلا مع أهل الفقه والعلم الذي يفقهون الكلام ويحملون على محمله. لا مع الغوغاء والدهماء!!.

- وكذلك منع المبتدعة وأصحاب الأهواء المضلَّة أو الرويضة؛ من الكلام في شأن العامة. لأنهم في ذلك يُفسدون أكثر مما يُصلحون.

ثالثاً: تقديم المصلحة العامة على الخاصة.

وهناك أمثلة كثيرة لهذا الأمر؛ فالعلماء الفقهاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كانوا يُقدِّمون مصلحة المسلمين العامة على المصلحة الشخصية؛ ومن ذلك هذه الأمثلة:

- فهذا خبر ثمامة بن أثال رضي الله عنه عندما أسلم: (وله قصة معلومة مشهورة)؛ لما أسلم؛ وقدم مكة وهو يُريد العُمرة؛ فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: (وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ

قَائِلٌ: صَبَّوْتُ! قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا وَاللَّهِ، لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [صحيح البخاري].

فليست القضية قضية حنطة؛ وإنما مصلحة المسلمين العامة تستوجب أن لا أدفع ما يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين في دينهم أو بلادهم، أو ما يكون أداةً لأعداء الله ورسوله في محاربة دين الله سبحانه وتعالى.

- وكذلك موقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في الفتنة - فتنة خلق القرآن - .
فقد جاء فيها ما فيها من الأحداث الدالة على حرص الإمام أحمد على عقيدة الأمة في القرآن الكريم؛ وأنه لم يترخص كما ترخص من معه من العلماء الكبار وإنما صمد أمام المعتزلة رضي الله عنه؛ وفي أحداثها: «قال المروزي: قلت وأبو عبد الله بين الهنبازين: يا أستاذ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: يا مروزي، اخرج وانظر. فخرجت إلى رحبة دار الخلافة، فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله، والصحف في أيديهم، والأقلام والمحابر. فقال لهم المروزي: ماذا تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد، فنكتبه. فدخل فأخبره. فقال: يا مروزي، أضل هؤلاء كلهم؟!». وإن كانت القصة فيها كلام من حيث السند. فالله أعلم.

فالمصلحة العامة لها مكانها وقدرها وينبغي بل ويجب مراعاتها وتقديمها على سائر المصالح. لأن بها بقاء الكيان الإسلامي شامخاً عالٍ.

والحمد لله رب العالمين

صلة الرحم

العناصر:

أولاً: ماهيتها وأهميتها.

ثانياً: فضائل وآثار في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: حدودها .. كيف تكون؟.

(الموضوع)

ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قوله عن أولى الأرحام: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال]. فأنت - لا غيرك - أولى الناس بأرحامك. وهذا مما يُعزّز أواصر القرابة ويُديم الألفة المودة بين الأهل وجميع أفراد العائلة. لا سيما وأنّ هناك نوعين من الأسر في العملية التربوية لها نتائج بالغة الأثر على الأولاد، الأولى: الأسرة الممتدة؛ وهي تلك الأسرة المتشعبة، والتي فيها آباء وأمهات وأجداد وأعمام وعمّات وأخوال وخالات .. فالولد أو النشء مرتبط بهذا كله. والثانية: الأسرة النواة التي فيها يرتبط الولد أو النشء بالوالدين أو أحدهما فقط. فيتربى منعزلاً عن عائلته وعشيرته لا يعلمهم ولا يعلمونه، وإذا ما تعثر أو أصيب بسوء لا يسألون عنه ولا يهتمون به. والإسلام يُشجّع النموذج الممتد من الأسر؛ ولكن الحياة الاجتماعية الآن بما فيها من متطلبات تُشجّع الثاني. ولذلك كان من الضروري الحديث عن صلة الرحم وبيان أهميتها وآثارها.

أولاً: ماهيتها وأهميتها.

أمّا معناها. فقد قال ابن الأثير: «تكرر في الحديث ذكر صلة الرحم: وهي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب، والأصهار، والتعطف عليهم، والرفق بهم، والرعاية لأحوالهم، وكذلك إن بُعدوا أو أساءوا، وقطع الرحم ضد ذلك كله، يقال: وصل رحمه يصلها وصلًا

وَصِلَّةٌ، والهاء فيها عوض من الواو المحذوفة، فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم: من علاقة القرابة والصَّهر»⁽¹⁾.

وأما أهميتها؛ فتظهر من خلال النصوص والأحوال المختلفة والمتضافرة على مكانتها عندنا أهل الإسلام. ومنها:

أمر الله تعالى الناس بالاهتمام بها وعدم التهاون في شأنها؛ إذ أنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] «واتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به بأن يقول: أسألك بالله أن تفعل كذا، واتقوا قُطْعَ الأرحام التي تربط بينكم، إن الله كان عليكم رقيباً» وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقرأ هذه الآية - مع آيتين أخيرتين - على الصحابة رضي الله عنهم في خطبة الحاجة - أي: التي تُقال عند افتتاح الكلام لقضاء الحاجة في النكاح وغيره من سائر الحاجات -؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (عَلَّمَنَا خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَغِيثُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ يقرأ ثلاث آيات ..) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (.. [سنن النسائي وغيره]. فكثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرر هذه الآية على أسماعهم.

ومما يدلُّ على أهميتها كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما وطئت قدمه المدينة؛ كان من أوائل ما أمر به أصحابه؛ ما جاء في أثر عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ قَبْلَهُ، وَقِيلَ: قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ

(1) كتاب صلة الرحم (سعيد بن وهف القحطاني). المكتبة الشاملة

قَدَمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدَ قَدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثًا، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ، لِأَنْظَرَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ، أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ [سنن ابن ماجه].

وقد كانت علامة بارزة في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ قال أبو سفيان بن حرب - قبل أن يُسلم - لهرقل عظيم الروم عن النبي صلى الله عليه وسلم وما يأمرهم به: (قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَقَابِ وَالصَّلَاةِ) [صحيح البخاري].

ومن دلائل أهميتها؛ أن لها عند الله تعالى منزلةً عاليةً ومكانةً رفيعةً؛ فقد اشتق لها سبحانه وتعالى اسماً من اسمه (إِنَّ الرَّحْمَ شَجَنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ) [صحيح البخاري]، وفي الحديث القدسي: (قَالَ اللَّهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحْمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي) [سنن أبي داود] واستعازت هذه الرحمة بالله من القطيعة فقالت: (خَلَقَ اللَّهُ الْخُلُقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحْمُ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ) [صحيح البخاري].

كما أن لها مقاما في الآخرة من أصعب المقامات على الصراط فوق متن جنة؛ ففي الحديث: (وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَتِي الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا) [صحيح مسلم]. «أي: إِنَّ الْأَمَانَةَ وَالرَّحْمَ - لِعِظَمِ شَأْنِهِمَا، وَفَخَامَةِ مَا يَلْزَمُ الْعِبَادَ مِنْ رِعَايَةِ حَقِّهِمَا - يُوقَفَانِ هُنَاكَ لِلْأَمِينِ وَالْخَائِنِ، وَالْمُؤَاصِلِ وَالْقَاطِعِ، وَتَقُومَانِ لِيُطَالِبَا بِحَقِّهِمَا مِنْ كُلِّ مَنْ يُرِيدُ الْمُرُورَ، فَيُحَاجَّانِ عَنِ الْمُحَقِّ، وَيَشْهَدَانِ عَلَى الْمُبْطِلِ».

ومن دلائل أهميتها حتى عند الكافرين؛ ما جاء في خبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِذْبَارًا، قَالَ: اللَّهُمَّ سَبِّعْ كَسْبِعَ يُوسُفَ، فَأَخَذَتْهُمْ

سَنَةً حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجَيْفَ، وَيَنْظُرُ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرَى الدُّخَانَ مِنَ الْجُوعِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ) [صحيح البخاري].

ومن دلائل أهميتها كذلك أن الله تعالى أمر في القرآن الكريم في كثير من الآيات برعاية ذوي القربى؛ أمثال قوله تعالى: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء]، بل وجعل من سبب الإنفاق التي يُنفق فيها العبد أمواله إنفاقه عليهم كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]. بل وكان الإنفاق على اليتيم القريب من وسائل نجاة العبد من العقبة التي أمر باقتحامها حيث قال تعالى: ﴿فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُ رَقَبَةً ۚ أَوْ إِطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ﴾ [البلد] فلا شك بأن لهم حقاً عظيماً.

ثانياً: فضائل وآثار في الدنيا والآخرة.

تعددت فضائل صلة الرحم في الشريعة الإسلامية؛ ومنها:

- سبب رئيس من أسباب دخول الجنة. وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال: (أخبرني بعملٍ يُدخلني الجنة، قال: ما له ما له. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أرب ما له، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ) [صحيح البخاري] فقد قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: (لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، انجفل النَّاسُ قَبْلَهُ، وَقِيلَ: قَدِ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدِ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثًا، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ، لَأَنْظُرَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ، أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) [سنن بن ماجه]. ولهذا المعنى قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ) [صحيح

البخاري ومسلم]. وقد قال الله تعالى عن الذين يصلون ما أمر الله تعالى بوصله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ [الرعد].

- وهي سبب لوصل الله عز وجل للعبد. فقد قال صلى الله عليه وسلم: (خَلَقَ اللَّهُ الْخُلُقَ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ..) [صحيح البخاري]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ) [صحيح البخاري].

- علامة على إيمان العبد بالله تعالى واليوم الآخر. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ) [صحيح البخاري].

- سبب لتفريج الكربات وكشف الملمات وعدم الخزي في الدنيا والآخرة. فقد قالت خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم لما فاجأه جبريل عليه السلام بالوحي وقد خشي على نفسه وطمأنته بقولها: (كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) [صحيح البخاري].

- سبب لزيادة الأرزاق وطول الأعمار وحسن الأثر في العالمين. فقد قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) [صحيح البخاري].

- سبب لزيادة الثواب والأجور عند الله عز وجل. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنْ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ) [الترمذي والنسائي].

- ثم إن قاطع الرحم قد عرض نفسه لللعن والطرده من رحمة الله عز وجل. فقد قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ

فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ» [محمد] «أولئك المتصِفون بالإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام هم الذين أبعدهم الله عن رحمته، وأصم آذانهم عن سماع الحق سماع قبول وإذعان، وأعمى أبصارهم عن إبصاره إِبصار اعتبار».

ثالثاً: حدودها .. كيف تكون؟.

قد اختلف العلماء في ضبط أحوال الأرحام من حيث وجوب الزيارة وعدم وجوبها. أو من حيث من هم الواجب على الإنسان صلتهم ومن دونهم في المرتبة من الاستحباب؟. على أقوال:

«الأول: أن الصلة خاصة بالرحم المحرم دون غيره، وهو قول للحنفية، وغير المشهور عند المالكية، وهو قول أبي الخطاب من الحنابلة. قالوا: لأنها لو وجبت لجميع الأقارب لوجب صلة جميع بني آدم، وذلك متعذر، فلم يكن بد من ضبط ذلك بقربة تجب صلتها وإكرامها ويحرم قطعها، وتلك قرابة الرحم المحرم. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تتكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على بنت أخيها وأختها، فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم. الثاني: أن الصلة تطلب لكل قريب، محرماً كان أو غيره، وهو قول للحنفية، والمشهور عند المالكية، وهو نص أحمد، وهو ما يفهم من إطلاق الشافعية، فلم يخصها أحد منهم بالرحم المحرم» [انتهى من الموسوعة الفقهية الكويتية].

أمّا كيفيتها؛ فقبل بيانها أقول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الواصل بالمكافيء ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمته وصلها) [صحيح البخاري]. فحتى ينال المرء هذا الجزاء العظيم الذي أعدّه الله تعالى لواصلي أرحامهم لا بد وأن يتعامل معه بهذا المفهوم الذي صححه النبي صلى الله عليه وسلم عن صلة الرحم. وقد قال عليه الصلاة والسلام أيضاً لرجل اشتكى أقرباءه؛ فقال: (يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ) [صحيح مسلم]. وفي معناه: «تطعمهم في أفواههم "الملّ" وهو: الرَّمَادُ الحارُّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من

الإثم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم .. ولا يزال معك من عند الله "ظهير عليهم"، أي: معين لك عليهم ودافع عنك أذاهم ما دُمت على ما ذكرت من إحسانك إليهم وظلُّوا هم على إساءتهم».

وكذلك: (لَمَّا أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبْلُهَا بِبِلَالِهَا) [صحيح مسلم]. «ومعنى الحديث: سأصلها، شبهت قطعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه (بلوا أرحامكم) أي: صلوها» ولعلَّ فيها معنى: أن النبي صلى الله عليه وسلم لن يقطع صلة رحمهم ولن يُبالغ فيها مع كفرهم وإنما ستكون كالبلل الذي يبقى بعد أثر الماء؛ فلن يغمُرهم بها ولن يقطعهم منها والله أعلم.

إذا .. فكيف تكون؟. قال العلماء: «فِعْلُكَ مع قريبك ما تُعَدُّ به واصلًا .. مأمورٌ بها .. وتحصل بالمال وقضاء الحوائج والزيارة والمكاتبة والمراسلة بالسلام ونحو ذلك». فمُشاركة الأقرباء في أفراحهم وأحزانهم ومُساندتهم في المُلَمَّات، وتقديم النصيحة لهم ومشورتهم، ومُساعدتهم بالمال أو الجاه أو السلطان وتقديم أي نوع من أنواع النفع المادي أو المعنوي.. المُهمُّ: أن لا يكون عُرْفًا معدودًا من قاطعي الأرحام.

وليكن أَمَامَكَ دائما: .. قول الرسول صلى الله عليه وسلم (سأبلها ببِلَالِها). وقوله: (وَتُرْسَلُ الأمانةُ والرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا)

ثم إياك إياك .. أن تكون بسبب هذه الصلة جازًا سوءًا لمن تصله، أو واقعا في شبهة خلوة مع إحدى النساء اللاتي يحل لك نكاحهن .. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

حِرَاسَةُ الْفَضِيلَةِ

العناصر:

المقدمة.

أولاً: أسس حِرَاسَةِ الْفَضِيلَةِ.

ثانياً: وسائل الحِرَاسَةِ الْفَضِيلَةِ ومقوماتها.

ثالثاً: ثمرات حِرَاسَةِ الْفَضِيلَةِ.

(الموضوع)

الفضيلة: «الدرجة الرفيعة في حُسْن الخُلُق» وقيل: «الدرجة الرفيعة في الفضل»، وفي حديث الدعاء بعد الأذان: (اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتٍ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ). الْفَضِيلَةُ: هِيَ الْمَرْتَبَةُ الرَّائِدَةُ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقِينَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَضِيلَةُ مَنْزِلَةً أُخْرَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل في قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة]. «مَيَّزْنَا». وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَعَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء]، «بِالْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْمَزَايَا الْقُدْسِيَّةِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ لَا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْإِتْبَاعِ» فنفضيله حينئذ لكونه أوتي الزبور لا لكون ملكاً.

فالفضيلة التي نريد أن نحرسها حينئذ؛ هي في منشئها تتعلق بالنفوس؛ التي اتصفت وتميّزت بالأخلاق القدسية الطاهرة الحسنة وبلغت في ذلك درجة رفيعة في الفضل والزيادة على الخلق. ويُقال أمهات الفضائل: «الحكمة والعفة والشجاعة والعدل».

ومن هذه الأمهات الأربع: فضيلة (العفة). والتي نسعى جميعاً في المحافظة عليها وفي صيانتها؛ حتى يكون مجتمعنا مجتمعاً نظيفاً طاهراً. وفي هذه الكلمات⁽¹⁾ أتعرض للحديث عنها؛ مبيناً ما يلزم تجاهها وما يترتب عليها، كالتالي:

(1) استقيت مادة هذه الخطبة كتاب الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد وهو بعنوان: (حراسة الفضيلة) وغيره.

أولاً: أسس حِراسة الفضيلة.

- وجوب الإيمان بالفوارق التي بين الرجل والمرأة (حسًا وشرعاً). فقد خلق الله سبحانه وتعالى كلاً منهما بمواصفات تخصّه؛ فلا يتناسب هذا في خِلقته وجبلته مع ما خُلق عليه الآخر، بل إن المرأة جزءٌ من الرجل فقد خُلقت من ضِلعه. فقد قال سبحانه ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران]، ولأجل هذا أُنيطت بالرجال أعمالٌ ليست للنساء؛ فمثلاً: فالرجال قَوّامون على النساء بالإنفاق والرعاية والحفظ، وفيهم النبوة والرسالة، والجهاد والجمع والجماعات والولاية العامة والقضاء والنيابة وكذلك ولايات النكاح. والطلاق بيد الرجل لا المرأة والأولاد يُنسبون إليه، وهو ضعيفا في الميراث، والدية، والشهادة والعِتق والعقبة .. وغيره. وقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة]. وقال كذلك: ﴿الرِّجَالُ قَوّٰمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء]. وقال سبحانه عن زوجتي لوط ونوح: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحريم]؛ فالمرأة تحت الرجال؛ ولا تُساويه أبداً فضلاً عن أن تكون فوقه. فتلك هي شريعة الله تعالى. ومما يَخُصُّها دون الرجل أحكام كثيرة معلومة في أبواب العبادات؛ ومنها: حفاظها وحراستها لفضيلتها وحجابها. ولأجل هذه الفوارق القدريّة الشرعية لا يجوز لأحد من الجانبين أن يتمنى ما فضل الله به غيره عليه. فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء]. وقيل في تفسيرها: «ولا تشتهوا ما فضل الله به بعضكم على بعض». وذكر أن ذلك نزل في نساءٍ تمنين منازل الرجال، وأن يكون لهم ما لهم، فنهى الله عباده عن الأمانى الباطلة، وأمرهم أن يسألوه من فضله، إذ كانت الأمانى تورث أهلها الحسد والبغى بغير الحق».

- الحجاب العام. أي: «المنع والستر فرض على كل مسلم من رجل أو امرأة، الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة، وأحدهما مع الآخر كلُّ بما يُناسب فطرته وجبلته ووظائفه

الحياتية التي شرعت له» فالتفريق بين الصبيان في المضاجع، والنهي عن الصلاة وليس على العاتق شيء، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يتعري أحد ولو كان خاليا فإله أحق أن يستحي منه من الناس، ونهي الرجال عن الزينة المخلّة بالرجولة مما فيه التشبه بالنساء. فهذا كله يورث حالة الإيمان في القلوب.

- **الحجاب الخاص:** وهو الواجب شرعاً على نساء جميع المؤمنين، بالتزام الحجاب الشرعي الساتر لجميع البدن؛ بما يمنع الأجانب عنها من رؤية شيء من بدنّها أو زينتها؛ بأن تكون الملابس: «كثيفة لا شفافة رقيقة، وأن لا يكون لها خاصية الالتصاق، وأن تكون واسعة لا تُبدي تقاطيع الجسم، وأن تكون مفتوحة من الأمام فقط وتكون فتحة الأكمام ضيقة وأن يكون لباسها من أعلى الرأس لا على الكتفين» وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ٣٣﴾ [الأحزاب]؛ فقرارها في بيتها وعدم خروجها منه - إلا للضرورة -، وعدم خضوعها بالقول فيه من الاحتشام والصيانة والعِفَّة ما فيه، وهذا دليل على فرض الحجاب من باب أولى. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ٣٤﴾ [النور]؛ وهي الزينة التي لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدنّها. وعن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَلَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ٣٥﴾ [الأحزاب] وكذلك قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٣٦﴾ [الأحزاب]. قال السيوطي رحمه الله تعالى: «هذه آية الحجاب في حق سائر النساء، ففيها وجوب ستر الوجه والرأس عليهن». وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: (المرأة عورة، وإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وإنها لا تكون أقرب إلى الله منها في قعر بيتها) [التوحيد لابن خزيمة وأصله في الترمذي مختصراً]. وفي معنى

هذا الحديث: «النساء حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ وَأَوْثَقُ مَصَائِدِهِ، فَإِذَا خَرَجْنَ نَصَبَهُنَّ شَبَكَةً يَصِيدُ بِهَا الرِّجَالُ؛ فَيُغْرِيهِمْ لِيُوقِعَهُمْ فِي الزَّنا، فَأَمْرُنَ بَعْدَ الخُرُوجِ إِغْلَاقًا لِإِغْوَاءِ الشَّيْطَانِ وَأَفْسَادِهِ». ولذلك جاء الوعيد الشديد للتبرج الذي يقع فيه كثير من النساء إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم عن صِنْفٍ منهن: (صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، .. ونِسَاءُ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ مُّمِيلَاتٍ مَائِلَاتٍ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا) [صحيح مسلم].

- **تحريم الأسباب المفضية إلى الفاحشة.** فكل وسيلة من الوسائل التي تؤدي إلى الوصول إليها جاء التحريم لها سداً للذريعة. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء] وَمَنْ تَأَمَّلَ سورة النور من القرآن الكريم وجد فيها سُبُلًا وقائية - أربع عشرة وسيلة - كُلُّهَا صيانةٌ للمجتمع أَنْ يُهْدَمَ فيه بُنيانُ الفضيلة.
- **وجوب الغيرة على المحارم.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ) [صحيح مسلم]. وفي الحديث الآخر: (مَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) [سنن النسائي]. وليحذر المسلم على نفسه كلَّ الحذر من هذا الوصف؛ وهو: (الديوث) وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ أَبَدًا الدِّيُوثُ وَالرَّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ وَمَدْمُنُ الخَمْرِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا مَدْمُنُ الخَمْرِ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الدِّيُوثُ قَالَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِمَنْ دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ قُلْنَا فَمَا الرَّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ قَالَ الَّتِي تُشَبَّهُ بِالرِّجَالِ) [الترغيب والترهيب].

ثانياً: وسائل الحراسة الفضيلة ومقوماتها.

وهناك وسائل جعلها الشرع الشريف صيانةً للفضيلة وحمايةً لها منها:

- **تحريم الاختلاط.** فاختلاط الرجال بالنساء له أضرار جسيمة تؤدي إلى هتك ستار الفضيلة والحشمة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ) [صحيح البخاري] وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر

عنهن: (وهو خارج من المسجد، فاختلط النساء مع الرجال في الطريق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء: ليس لكم أن تحففن بالطريق. عليكم حافات الطريق، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالشيء في الجدار من لصوقها به) [البيهقي في الآداب] وكذلك جاء التحذير الشديد من الدخول على النساء في غير وجود محرم منها: (يَاكُمْ وَالْدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: الْحَمُو الْمَوْتُ) [صحيح البخاري].

- **تحريم مصافحة المرأة الأجنبية.**
- وكذلك تحريم النظر إليهن أو منهن إلى الرجال بنص القرآن الكريم.
- صلاتها في بيتها وما فيه من الفضل عن صلاتها في مسجد قومها.
- صفوف النساء خلف صفوف الرجال في الصلاة.
- لها باب تدخل منه أو تخرج عندما تذهب إلى الصلاة في المسجد.
- **إباحة الزواج - وهو تاج الفضيلة -.** فهو سنة الأنبياء والمرسلين وسبيل المؤمنين. وقد: (قال عبد الله: كُنَّا مع النبي صلى الله عليه وسلم شَبَابًا لَا تَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) [صحيح البخاري]. ففي الزواج حفظ العرض وصيانة الفرج وتحصيل الإحصان والتحلي بفضيلة العفاف عن الفواحش والآثام.
- ومن الوسائل المهمة كذلك: **صيانة الأولاد عن البدايات المضلّة.** وهذه من أوجب الواجبات على أولياء الأمور؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم] وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه الآية: (علموهم وأدبوهم) [ابن أبي الدنيا في كتاب العيال] وهذه الصيانة من سنن الصالحين؛ ففي وصية لقمان عليه السلام ما يُرشد إلى أمّهات ذلك وأساسياته. وجاء أيضا عن حميد الضبي قال: «كنّا نسمع أن أقواما سحبوهم عيالاتهم إلى المهالك». فالحذر

الحذر من أن يكون ولدك جازاً لك إلى المهلكة وإلى دركات الجحيم. إذ من أوجب الواجبات على المسلم الساعي إلى فكاك نفسه من الجحيم أن يُرَبِّي ولدا صالحاً؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) [صحيح مسلم].

ثالثاً: ثمرات حِرَاسَةِ الْفُضِيلَةِ.

لِحِرَاسَةِ الْفُضِيلَةِ ثَمَرَاتٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا. وقبل البدء في ذكر شيءٍ منها أقول؛ جاء في بروتوكولات حكماء صهيون قولهم: «علينا أن نكسب المرأة؛ ففي أي يوم مدَّت إلينا يدها ربنا القضية» وقال أحد يهود: «إن مكسبنا في الشرق لا يمكن أن يتحقق إلا إذا خلعت الفتاة المسلمة حجابها، فإذا خلعت الفتاة المسلمة حجابها كسبنا القضية واستطعنا أن نستولي على الشرق». وذلك لأن غيرنا يُريد أن يُغرقنا في بحار من الشهوات والشبهات؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء]. ولذلك كان من الضروري أن نقف حاجزاً منيعاً في حِرَاسَةِ الْفُضِيلَةِ؛ لأنها سوف تعود علينا بثمار يانعة وظلال شاملة؛ ومن تلك الثمرات:

- أن يكون المجتمع مجتمعاً طاهراً مُتميّزاً عن غيره معروفاً بذلك.

- **وقاية للمجتمع من الأمراض الفتّانة.** فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لم تظهر الفاحشة في قومٍ حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم) [ابن ماجة في سننه].

- **وقاية من الهزيمة أمام الأعداء.** وقد قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور]. وما التبرج والسفور والاختلاط المحرم إلا من مخالفات أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يخفى ما في قصة الجيش الإسرائيلي الذي قُتل منه سبعون ألفاً بسبب إشاعة الزنا بين أفرادهم. وقد جاء هذا في كتب التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

[الأعراف]. وهذا في قصة: بلعام، الذي قال لقومه عندما استعصى عليهم شأن موسى وجيشه: «ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم، إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا».

- صيانةً لأنفسنا عن خسيس الأوصاف ومرذول الخلال ألا وهو وصف الدياثة.

والحمد لله رب العالمين.

الأخلاق

المقدمة.

أولاً: أهمية الأخلاق في الإسلام.

ثانياً: فوائد حسن الخلق في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: القانون العام للأخلاق.

رابعاً: الأخلاق في رحاب الدعاء النبوي.

(الموضوع)

نجاه العبد في الدنيا والآخرة مقرونة بحقّين؛ وهما: أداء الحق الذي افترضه الله تعالى عليه بعبادته سبحانه وتعالى. وأداء الحق الإنساني تجاه جماعته وإخوانه المسلمين. وقد ذكر الله تعالى هذين الحقّين في غير ما آية من كتابه، أمثال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ ﴿[المدثر] فكان من جملة أسباب وجودهم في سقر أنّهم تركوا الصلاة - وهو حق الله تعالى -، ولم يُطعموا المسكين - وهو حق الإخوة الإيمانية - .. وكذلك قد صرّحت نصوص السنة النبوية بجملة من الحقوق بين المسلمين مع بعضهم البعض؛ أمثال: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ ..) [البخاري].

إذا .. فلا بد من تحقيق الأمرين معاً، وقضية الأخلاق تتعلق تعلقاً جوهرياً بالحق الثاني (حق الأخوة والجماعة الإنسانية). فحسُّ الأخلاق ليست قضية من القضايا الهامشية التي لا يُعتنى بها أو التي لا يُلتفت إليها؛ بل هي قضية من القضايا الأساسية في بُنيان الدين

الإسلامي، سواءً كان ذلك في التكوين العام للدين أو التكوين الشخصي للأشخاص كما سيظهر من خلال محاور هذا اللقاء؛ وهي:

أولاً: أهمية الأخلاق في الإسلام.

مما لا شك فيه .. أنَّ للأخلاق أهميةً كُبرى عندنا أهل الإسلام؛ وهذه الأهمية تظهر من خلال هذه النقاط التالية:

• **أنّها من العلامات البارزة في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.** فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) [أخرجه أحمد وغيره]، وكذلك في قصة إسلام أبي ذرّ ففي الرواية: (لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَأَعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ انْتَبِ، فَاَنْطَلَقَ الْأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَلامًا مَا هُوَ بِالشَّعْرِ،...) [صحيح البخاري] وفي خبر أبي سفيان بن حرب، وكان بالشام قبل أن يُسلم، وقد سأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: (قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ) [صحيح البخاري].

• **علامة على كمال الإيمان وزيادته عند صاحبها.** فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) [سنن أبي داود]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) [صحيح البخاري] فكمال الإسلام والإيمان بالأخلاق الحسنة. وقد علّق النبي صلى الله عليه وسلم كمال الإيمان بكثير من الأخلاق؛ أمثال: (فليقل خيراً أو ليصمت) (فلا يؤذي جاره) (فليكرم ضيفه) وفي حديث عمرو بن عبسة بسند

ضعيف: (قلت: أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده قلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: خلق حسن) [أخرجه أحمد].

• **الأخلاق الحسنة خير عطاء للمرء.** فقد قال أسامة بن شريك: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنده كائنا على رؤوسهم الطير، فسلمت وقعدت، فجاء أعراب يسألونه عن أشياء حتى قالوا: أئندأوى؟ قال: «تداووا؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء». فسألوه عن أشياء، فقال: «عباد الله، وضع الله الحرج، إلا امرأ اقترض امرأ ظلمًا، فذلك حرج وهلك». قالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الناس؟ قال: «خلق حسن») [المستدرک على الصحيحين للحاكم]، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في الصبر قوله: (وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر) [صحيح البخاري]. فهي خير عطية يعطاها المرء!.

• **أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بها.** فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (يا رسول الله! إنني أريد سفرًا فأوصني، قال: اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) [أخرجه الترمذي وأحمد].

• **هم - أي: أصحاب الأخلاق الحسنة - الخيار من الناس.** فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا) [صحيح البخاري].

• **أنهم أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقًا) [صحيح البخاري].

• **البر = حسن الخلق:** فعن النواس بن سمعان قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق..) [صحيح مسلم] والبر اسم جامع لكل خصال الخير، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ

وَالسَّابِقِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴿البقرة﴾.

ثانياً: فوائد حسن الخلق في الدنيا والآخرة.

بعدما ظهرت أهمية الأخلاق في البنيان الإسلامي؛ يحسن بنا أن نقف على بعض

فوائدها في الدنيا والآخرة؛ فأقول:

1 - أما في الدنيا؛ فمن فوائدها ما يلي:

• دعوة إلى الإسلام بغير سلاح. فكثير من البلدان والأشخاص قد كان سبب دخولهم في الإسلام رؤيتهم لإخلاق حملته. ف: «من آثار الأخلاق الإسلامية المباركة على الدعوة، انتشارها في نواحي الأرض، وقبول الناس لها، لما يرون من أخلاق المسلمين الحسنة التي يتحلون بها في تعاملهم مع غيرهم، سواء أكانوا تجاراً، أم طلبة علم، أم مجاهدين في سبيل الله، وذلك حين كان المسلمون مثلاً تتحرك، وقيماً إيمانية تسعى في الأرض، ويسعى نورها بين أيديها وبأيمانها»

• استجلاب محبة الناس لك - ولا يكون ذلك غاية؛ بل ثمرة -⁽¹⁾. وإذا أحببك الناس أثنوا عليك خيراً؛ وتناوهم ينفعك يوم مماتك أمام الله عز وجل فقد جاء أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم: (مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَبَتْ ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) [صحيح البخاري].

• من لم يجد مالا يبذله للناس فلا يبخل بأخلاقه. ففي الحديث - وهو ضعيف -: (إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسطُ الوجه، وحسنُ الخلق) [ضعيف الجامع

(1) وليس هذا مما يُعاب عليه المرء؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ارْهَدْ فِي الدُّنْيَا يَحْبُكَ اللَّهُ، وَارْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يَحْبُوكَ) [ابن ماجة في سننه وفي سنده مقال]. وقد جاء في أسباب استجلاب المحبة (الهدية وإفشاء السلام). فالمسلم يتخلق بالأخلاق الحسنة لله تعالى فقط؛ جاء بعد ذلك حبُّ الناس أو لم يأت .. فلا يؤثر عليه.

للألباني] وقد قال أبو هريرة: (إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخَلَ بِالسَّلَامِ، وَأَعَجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ) [صحيح موقوف]. وكذلك: (الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ) [البخاري].

- **صاحب الخلق الحسن يُزوّجه الناس ويتزوجون منه.** فقد قال صلى الله عليه وسلم: (تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ) [صحيح البخاري] وإذا كان هذا في المرأة ففي الرجل أولى، وهو خطاب للأولياء أن يُحسنوا تربية بناتهم. وإلا .. فكيف يسعى الناس في مُصاهرة أصحاب الأخلاق السيئة؟! فلا شك أن الناس سينفرون منه ومن ابنته أو منه ومن ابنه!. والواقع خير شاهد على ذلك. أو أن أصحاب الأخلاق السيئة سيتتاكحون فيما بينهم؛ وحدث بما شئت عن مثل هذا الزواج!!.

2 - فوائد الأخلاق الحسنة في الآخرة. للأخلاق الحسنة في الآخرة فوائد كثيرة؛ منها:

- **قُرْبُ الْمَنْزِلَةِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.** ففي الحديث: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثَّرَاوِينَ وَالْمُتَشَدِّقِينَ فما المتفهيون؟ قال: المتكبرون) [الترمذي في السنن].
- **الميزان الثقيل يوم القيامة.** وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفَقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَنْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الرَّفَقِ ؛ فَقَدْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الْخَيْرِ. أَثْقَلَ شَيْءٍ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ) [البخاري في الأدب المفرد].
- **أن الله يتجاوز عن صاحب الخلق الحسن.** (كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ) [صحيح البخاري].

• **ثواب أعماله الصالحة محفوظ له.** (أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) [أخرجه مسلم]. وهذه جناية أخلاقه السيئة عليه!.

ثالثاً: القانون العام للأخلاق.

إذا كان هناك قانون عامٌ للأخلاق الحسنة؛ فهذا القانون لا يخرج عن هذه الآثار؛ قوله صلى الله عليه وسلم: (فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ) [صحيح مسلم] فانظر ما الذي تُحبه من الناس أن يأتوا به إليك قدّمه أنت إليهم أولاً. وكذلك من القوانين العامة في هذا الموضوع؛ قول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت: (ما كان خُلُقُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) [البخاري في الأدب المفرد].

وكذلك الذي يضبط العلاقة بين الناس مع بعضهم البعض (العدل والإحسان)⁽¹⁾، فالإحسان وهو باب الفضل مع الناس لا يخرج عن الأخلاق الحسنة. وأمّا العدل وهو باب المجازاة بالمثل؛ فقد أذن الله بها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل] وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى].

رابعاً: الأخلاق في رحاب الدعاء النبوي.

لأخلاق الحسنة - كما مرّ - مكانةٌ عالية في البنيان الإسلامي؛ وذلك للأشخاص أو للجماعات أو البلدان. لذلك حرص عليها النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه كل ليلة؛ فكان

(1) وقد سبق الكلام عن ذلك في موضوع: (علاقات للمسلم) في الجزء الأول.

من جملة أدعيته: (أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ) [صحيح مُسلم].

وكذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم: (اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَنكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْأَدْوَاءِ) [صحيح الجامع للألباني].

فحريٌّ بالمسلم أن يدعو ربَّه تبارك وتعالى في كل وقت وحين بالهداية إلى أحسن الأخلاق وأن يُجَنِّبَه سبْحَانَه وتعالى مُنْكَرَاتَهَا.

والحمد لله رب العالمين

سفاسف الأمور ومعاليها (علو الهمة)⁽¹⁾

العناصر:

أولاً: المعنى والأهميّة.

ثانياً: علو الهمة في القرآن والسنة.

ثالثاً: مجالات علو الهمة.

رابعاً: الاهتمام بسفاسف الأمور وأضراره.

(الموضوع)

الهمة؛ هي: «الباعث على الفعل. وتوصف بعلو أو سفول». وقيل «استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور» وقيل: «خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل» وقيل **عن أهمّتها** - من كلام ابن القيم -: «وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من أثر الراحة، فانتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً، استراح طويلاً، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قادته لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله».

ثانياً: علو الهمة في القرآن والسنة.

تعددت إشارات القرآن والسنة إلى هذا الموضوع؛ تارة بمدح أصحاب الهمم العالية وتارة أخرى بذم من سواهم. تارة أخرى نجد النصوص الشرعية تحث المؤمنين إلى ارتياد معالي الأمور وتحذره من السقوط في سفاسفها. فمثلاً:

قال الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ

(1) هذه الخطبة مستقاة من كتاب: د/ محمد إسماعيل المقدم (علو الهمة) وغيره.

تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف]. وقال سبحانه وتعالى في شأن اليهود أيضاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الجمعة] وهذا لأنهم علّموا فلم يعملوا بما تعلموا؛ فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام] والمعنى: علّمتم فلم تعملوا فما ذلکم بعلم.

وكذلك عاب الله تعالى قوما بأنهم رضوا بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة. فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة]. وفي هؤلاء وأشباههم يقول الله تعالى ذامًا لهم ومُحَذِّرًا؛ ومُنَبِّها لَنَا عَنْ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٤٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة].

ومن ذلك: أنه تعالى أثنى على أصحاب الهمم العالية، وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون، وفي مقدمة هؤلاء جميعاً أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم خاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف]. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم نصوص كثيرة من شأنها أن تُوقِدَ شعلة الحماس والجد والاجتهاد في نفوس الصالحين منها قوله عليه الصلاة والسلام: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا) [متفق عليه] وكذلك قوله: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارق، ورتل، كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها) [أخرجه أحمد وأبو داود].

وقد قال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مَعَاليِ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَافَهَا) [السلسلة الصحيحة للألباني].

ثالثاً: مجالات علو الهمة.

ينبغي على العبد أن يكون عالي الهمة في كل شيء يرفعه عند الله تعالى وعند الخلق؛ أو في كل شيء يجعله محبوباً عند الله تعالى ومحبوباً كذلك عند الناس. فإن هذا من الأدلة الواضحة على علو نفسه ورفعة شأنه وكريم خلقه وطيب سجاياه. ومن أبرز هذه الأمور:

1 - المطالب الدينية والأخروية.

وقد جاء في ذلك آثار كثيرة؛ منها ما جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَقْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) [صحيح البخاري] منها ما جاء: (عَنْ رَبِيعَةَ بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَلْنِي أُعْطِكَ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْظِرْنِي أَنْظُرَ فِي أَمْرِي، قَالَ: "فَأَنْظُرْ فِي أَمْرِكَ"، قَالَ: فَتَنْظَرْتُ فَقُلْتُ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا يَنْقَطِعُ فَلَا أَرَى شَيْئًا خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ آخِذُهُ لِنَفْسِي لِأَخْرَتِي، فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَا حَاجَتُكَ؟"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْفَعْ لِي إِلَى رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيُعْتِفْنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: "مَنْ أَمْرُكَ بِهِذَا؟"، قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنِّي تَنْظَرْتُ فِي أَمْرِي فَرَأَيْتُ أَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ مِنْ أَهْلِهَا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ آخِذَ لِأَخْرَتِي، قَالَ: "فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ" [مسند أحمد] وفي صحيح مسلم بلفظ: (كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: سَلْ. قُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ! قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَلِكَ. قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ). فالعاقل ينظر في أمر الآخرة الباقية. ولا يهتم بأمر الفانية.

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه؛ يقول: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَسْأَلْنِي مِنْ هَذِهِ الْغَنَائِمِ الَّتِي يَسْأَلُنِي أَصْحَابُكَ؟"، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَعَلِّمَنِي مِمَّا عِلْمُكَ اللَّهُ"، قَالَ: فَتَزَعْتَ نَمْرَةً عَلَى ظَهْرِي، فَبَسَطْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْقَمَلِ يَدِبُ عَلَيْهَا،

فحدثني، حتى إذا استوعبت حديثه، قال: "اجمعها، فصرها إليك"، فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني) [أبو نعيم في الحلية]. فنعمت المسألة ونعم العطاء.

وكذلك خبر عجز بني إسرائيل؛ فقد جاء: (عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغْرَابِيًّا فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: "اِنْتَنَا"، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَلْ حَاجَتَكَ"، قَالَ: نَاقَةٌ نَرْكَبُهَا، وَأَعَنْزُ يَحْلِبُهَا أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: "إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْتِئاً مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ؟ قَالَ: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَنْتَهُ، فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُونُسَ، قَالَتْ: حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ أَعْطِيَهَا حُكْمَهَا، فَاِنْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةِ مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوهُ، فَقَالَتْ: احْتَقِرُوا، فَاحْتَقَرُوا، فَاسْتَخْرَجُوا عِظَامَ يُونُسَ، فَلَمَّا أَقْلَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَإِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ") [صحيح ابن حبان - وهو في السلسلة الصحيحة للألباني] وقد أخرجه ابن حبان تحت باب: «ذَكَرُ الْخَبَرِ الدَّالُّ عَلَى أَنَّ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَعْتَاضَ عَنْ أَسْبَابِ الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ مِنْ حُطَامِ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ عِنْدَ حُدُوثِ حَالَةٍ بِهِ»⁽¹⁾. فالمسلم لا يقنع بالدون من المنازل بل يسعى جهده في اقتناص أعلاها.

فينبغي أن يكون هذا هو شأن المسلم في العبادة وطلب العلم الشرعي والدعوة إلى الله تعالى وتعبيد الناس لرب الناس، والبذل والسخاء والجود والكرم وغير من المقامات الشريفة؛ فقد جاء من أخبار الماضين: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحر»، وقال آخر: «إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل»، وقال آخر: «ما بلغني عن أحد

(1) وقد جاء هذا الخبر كذلك في العهد القديم في الإصحاح الخمسين من سفر التكوين (الكتاب المقدس)

من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبدت نظيرها وزدت عليه». وقال أحد العباد: «لو أن رجلاً سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غمًا، ما كان ذلك بكثير».

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ) [صحيح البخاري].

ولكنَّ العناية كلَّ العناية ينبغي أن تكون بأمر الآخرة ثم بعدها الدنيا بشروطها فقد قال سليمان عليه الصلاة والسلام كما ذكر ذلك ربُّه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَعَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص] قال المفسرون: «قدَّم الاستغفار على طلب الملك؛ لأنَّ أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا، فقدَّم الأولى والأهم». ومن مליح ما يُذكر في ذلك أنَّه قد: «اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: "تمنَّوا"، فقالوا: "ابدأ أنت"، فقال: "ولاية العراق، وتزُوج سَكينة ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله"، فقال ذلك، وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم، وجَهَّزها بمثلها، وتمنى عروة بن الزبير **الفقه**، وأنَّ يُحمل عنه الحديث، فقال ذلك، وتمنى عبد الملك **الخلافة**، فقالها"، وتمنى عبد الله بن عمر **الجنة**».

2 - المطالبُ الدُّنيوية.

قد جاء الأمر النبوي بالحرص على ما فيه المنفعة؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ

قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ [صحيح مُسلم] فالحرص على ما فيه المنفعة عنوان صلاح المرء في عقله ونفسه.

فالمُسلم؛ يحرص على منفعة نفسه بأن:

- يدفع رديء الأخلاق وسيء الفعل عنها.

- يدفع الفقر عنها. فيسعى ويجتهد في تحصيل الأموال من الحلال.

- يدفع الأمراض عنها.

- يدفع الجهل عنها.

- يصونها ولا يعرضها للإذلال ولا للمهانة بأي صورة من الصور. فقد استعاذ النبي

صلى الله عليه وسلم من كثير من الأسقام والأوجاع والفقر ومن المذلة وغيرها.

يدُلُّنا على أهمّية هذا الباب وخطورة التواني فيه؛ أن غيرنا عندما دفعوا عن أنفسهم تلك

الأوبئة وسعوا سعيا ملحوظا ومُشاهدا في تحقيقها أصبح يقود غيره ويتحكم فيه.

نعم؛ قد يقول قائل: هذا حظهم فليس لهم في الآخرة من نصيب فقد قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم عنهم في حديث عمر رضي الله عنه عندما قال: (ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛

فإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: أَوْفِي شَكِّ

أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [صحيح البخاري]. أمّا

نحن فليس الأمر كذلك. هذا الأمر صحيح ونسأل الله تعالى أن يجعل الآخرة لنا؛ ومع ذلك فقد

أمرنا الله تعالى بأن لا ننسى نصيبنا من الدنيا، وأن نسعى في مناكبها طالبين الرزق الحلال.

دافعين عن أنفسنا ذل السؤال. ففي الأثر: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى

الْمِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ، وَالتَّعَفُّفَ، وَالْمَسْأَلَةَ: الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، فَالْيَدُ الْعُلْيَا: هِيَ

الْمُنْفَقَةُ، وَالسُّفْلَى: هِيَ السَّائِلَةُ) [صحيح البخاري]. فانظر حولك: كم هي الأمور التي يسألها

المُسلم غيره - أيّا كان - حتى تستقيم حياته؟! وعندها سنعلم مَنْ هو صاحب اليد العليا

وَمَنْ هو صاحب اليد السفلى فنسأل الله تعالى أن يرزقنا العِزَّةَ إنه هو العزيز الحكيم.

رابعاً: الاهتمام بسفاسف الأمور وأضراره.

لا شك أنَّ اهتمام النفس وتعويدها على القليل من الأمور سيورثها التأخر والتدنّي؛ فمن عوّد نفسه على التقدّم تقدّمت والعكس بالعكس. حتى في العبادات فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احضروا الذكر، وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخّر في الجنة، وإن دخلها) [سنن أبي داود].

وقد سبق حديث: (إنَّ الله يحبُّ معالي الأمورِ وأشرفها، ويكرهُ سفاسفها). وقد قال المناوي رحمه الله تعالى: « ويكرهُ سفاسفها - أي رديئها وحقيرها وفاسدها - ، فمن اتّصف بالأخلاق الزكية أحبه الله، ومن تحلى بالأوصاف الرديئة كرهه، والإنسان يضارع الملك بقوة الفكر والتمييز، ويضارع البهيمة بالشهوة والدناءة، فمن صرف همّته إلى اكتساب معالي الأخلاق أحبه الله، فحقيق أن يلتحق بالملائكة لطهارة أخلاقه، ومن صرفها إلى السفاسف ورذائل الأخلاق التحق بالبهائم» فلا بد للمسلم من أن يسمو بروحه وأخلاقه عن دركة البهيمية إلى درجات الكمال فلا يكن همّه الأول والأخير البحث عن نعيم جسده وطيب مأكله ومشربه وملبسه فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيُسْوَا بالمتنعمين) [أحمد في مسنده وغيره].

وانظر كذلك إلى وصف الله تعالى لقوم؛ بقوله: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة] وقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولَئِ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة]. «والسبب الذي يجعل كثيراً من الناس يطلبون الأدنى من الأمور، ويقصدون ما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً: فساد العلم، وكثرة الجهل، وضعف الهمة، فكلاً ما صحَّ العلم، وانتفى الجهل، وصحّت العزيمة، وعظمت الهمة؛ طلب الإنسان معالي الأمور». يقول ابن تيمية: «العامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن، والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب». (قيمتك = مطلوبك)

فاللهم اجعلنا من المقدّمين لديك .. المقدّمين ما ينفعهم؛ زلفى وقربى إليك.

الوقت والفراغ في الأجازات.

العناصر:

المقدمة.

أولاً: الأحاديث والآثار عن الفراغ وأهميته.

ثانياً: الفراغ وأبنائنا ومحاضن التربية.

ثالثاً: مهام الراعي.

(الموضوع)

الله تبارك وتعالى جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً؛ فمن قصر في ليله كان أمامه النهار يتدارك فيه التقصير، ومن قصر في نهاره كان أمامه الليل يتدارك فيه ما قصر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) [صحيح مسلم]، ولهذه الآيات وغيرها كان العمر حجة على العباد؛ وهذا ما استنبطه بعض العلماء من قول الله تعالى عن الكافرين وهم في النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر]. فقد عمرهم الله تعالى في الدنيا أعواماً عديدة؛ ما قطع به عذرهم وأبطل به حجتهم. فكان تعميرهم في الدنيا وإصرارهم على المعصية وعدم الرجوع إلى الله حجة عليهم. فالعاقل من اغتتم عمره في طاعة الله تعالى.

ومن الأوقات والأعمار الضائعة التي لا يلتفت لها إلا العقلاء الفطناء (وقت الفراغ)؛ خاصة في أيام الأجازات السنوية أو الأسبوعية أو الأعياد أو ما شابه.

فيضيعون أوقاتهم؛ في اللهو واللعب، والقليل والقال، والأفلام، والمسلسلات، والمباريات والتنزهات، والمصايف، والرحلات، والنوادي؛ ولهم في ذلك حُجَجٌ ومُبرراتٌ يتكئون عليها. فيقولون مثلاً: قد أنهينا أعمالنا، وما هو مطلوب منا؛ فأصبحنا فارغين. وكذلك قد يقولوا؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة حنظلة مع أبي بكر رضي الله عنها: (فَقَالَ: يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذَّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ، حَتَّى تُسَلَّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطَّرِيقِ) [صحيح مسلم]. فهل هذا المفهوم وهذا الكلام يستقيم مع ما تقرره النصوص الشرعية؟.

أولاً: الأحاديث والآثار عن الفراغ وأهميته.

— قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح]، والمقصود من الآيتين أن يكون المسلم فارغاً في يومه ليله ونهاره: «فَيَكُونُ وَقْتُهِ كُلُّهُ مَشْغُولًا، إِمَّا لِلدُّنْيَا وَإِمَّا لِلدِّينِ» كما قاله الشنقيطي في أضوائه.

— وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك) (صحيح الجامع). فإذا كانت هذه النعمة - الفراغ - لديك؛ فاغتنمها بما ينفع؛ فلعلك أن لا تجدها ثانية.

— وكذلك من النعم المركبة التي لا يلتفت إليها الكثيرون (الصحة والفراغ)؛ فقد يكون الرجل صحيحا في بدنه ومعافا، وجمع مع ذلك سعة الرزق؛ فلم ينشغل بتحصيله أو جبايته فكان في صحة لم يقعه المرض وكان في غنى فلم يحتج إلى كد أو تعب لتحصيله ومع ذلك كله لم يغتنم هذه النعم فكان في خسارة فادحة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نِعْمَتَانِ مَغْبُورٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) [صحيح البخاري].

- وقد يكون طول العُمْر سببا في خَيْرِيَّةِ إنسان أو سببا في كونه شر الناس؛ وهذا إذا انضم إليه العمل الصالح أو الفاسد؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيرُ الناس مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّ الناسِ، مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَ سَاءَ عَمَلُهُ) [صحيح الجامع الألباني].

- وكذلك ينبغي على المسلم أن تكون حياته كلها لله تعالى؛ فليس في المفهوم الإسلامي ساعة تكون لله تعالى وساعة تكون لغيره، وإنما الحياة كلها لله عز وجل؛ فقد الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام] فالحياة كلها بساعتها لله؛ فالساعة التي حدثهم النبي صلى الله عليه وسلم يكونون فيها على الحالة التي في الحديث لله، والساعة التي يكونون فيها مع أبنائهم وذرائعهم ونسائهم كذلك لله وهي من الله المباح.

- وقد أقسم الله تعالى بالعصر وبالليل والضحى؛ والتي هي أزمان، والله عز وجل لا يقسم إلا بالشيء العظيم كي يلفت الانتباه إليه؛ فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٢﴾ [العصر].

- وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عندما مرَّ بجلين يتصارعان؛ فقال لهما: (ما بهذا أمرنا). فلم نؤمر بقضاء الأوقات في اللعب ك: المصارعة أو الكرة بأنواعها أو الشطرنج، أو ألعاب الهواتف الزكية أو .. غيرها من الألعاب. قديما قرأت: أن امرأة قالت لزوجها دع ولدنا يلعب؛ فقال لها - وكان صالحاً فقيهاً - يا عدوة نفسك؛ ما رأيت الله ذكر اللعب في القرآن إلا مذموماً!!.

- وكذلك جاء عن عُمر - وقيل ابن مسعود - رضي الله عنهما؛ أنه قال: (إني لأكره أن أرى أحداً فارغاً سَبَهلاً لا في أمرٍ دنيا ولا في أمرٍ آخرة). ففعود الرجل فارغاً من غير شغلٍ أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه؛ من سفه العقل أو سخافة الرأي واستيلاء الغفلة.

ثانياً: الفراغ وأبنائنا ومحاضن التربية.

"وهذا بيت القصيد"؛ فكثير من أبنائنا يريد من أبويه بعد انتهائه من العملية التعليمية في عامه هذا؛ أن يُرفقه أو أن يكون في لهو ولعب لا ينقطع = فهذه هي طبيعة الأطفال؛ لا يريدون شيئاً إلا ما أشبع رغباتهم وما تميل إليه أهواؤهم.

وهنا يأتي دور الوالدين؛ بالتوجيه والمراقبة، فلا يمنعون الأولاد من طبيعتهم، وكذلك لا يسرفون في تلبية رغباتهم وملذاتهم. فقد يكون الأولاد آله من آلات الشيطان التي يستخدمها في تحقيق مطالبه ومفاسده وذلك لضعف نفوسهم وخفة عقولهم؛ وفي هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا) [صحيح مسلم]؛ فقد يكون الغلام أو الجارية وسيلة من وسائل الشيطان في استحلال الأموال أو الأوقات أو البيوت أو الأعمال .. كي يحقق أهدافه منها.

ولذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يد الجارية ومنعها من الطعام!! وفيه الأخذ على يد المخطئ حتى وإن كان صغيراً أو مجنوناً؛ إذا ما أثر بخطئه على الآخرين.

وهناك بعض النقاط التي نساعدنا في الحفاظ على أبنائنا في هذه الأجازه.

- التربية .. عملية شاقة وليست هيئة. فلا يحسن أمرؤ أن التربية عملية سهلة؛ بل عملية تتمثل في: «نقل الحضارة من جيل إلى جيل حتى يظل الإنسان في المستوى الرفيع الذي وصل إليه؛ ويتمثل هذا المستوى في الآداب والعلوم والفنون والصناعات» فالآباء والمربون

عموما ينقلون إلى أبنائهم حضارة كاملة؛ (آداباً وعلومًا وفنونًا وصناعاتٍ وأخلاقًا). وبالأخص هذا الجيل الصغير الذي يتلهف ويتشوق وينتظر ويحلم بمثل هذه الأجازات؛ وهذا الجيل هو مقياس التقدم والرقى في بناء الأمم: فـ« لست مبالغاً إن قلت: إن مستقبل أيّ أمة يتحدد إلى حدّ بعيد بالظروف التربوية التي يتعرض لها أطفالها. من هنا كان الاهتمام بالطفولة اهتماماً بمستقبل الأمة كلها؛ وفي هذا الصدد يصدق ما قاله أفلاطون: طالما كان الجيل الصغير حسن التربية ويستمر كذلك فإن سفينة دولتنا ستحظى بسفرة طيبة .. وإلا فمن الخير عدم التحدّث عن النتائج». فالمقياس التي تُقاس به الأمم .. أطفالها؛ رجال الغد - كما قيل ..

- إذا لم يُشغل بالحق .. سينشغل بالباطل. من هنا كان لزاماً على الآباء شغل أوقات أبنائهم؛ لأنهم إذا لم يُشغلوا بالحق سينشغلوا بالباطل؛ فنفسهم إليه تَوَاقَة. فإن لم ينشغلوا بالحق؛ سيُشغلوا بالتلفاز أو الموبايلات أو المباريات أو الفيس أو الواتس أو .. .

فإمّا أن ندفعهم إلى حلقة من حلقات المساجد لتعليم القرآن الكريم أو لتعليم سنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؛ فيتعلمون الآداب والأخلاق الإسلامية؛ أو في دار من الدُور المُعدّة لذلك .. وإذا لم يُحصَلْ ولدك من هذه الجلسات إلا البُعد عن أضادها فحسبك ربّحاً!!.

وإما إلى تعلّم علم من العلوم النافعة لهم في دراساتهم؛ كعلوم: (الحاسب الآلي، واللغة الأجنبية التي يحتاجون إليها فيما بعد، ..) أو إلى تقويتهم في مادّة من المواد الدراسية التي يصعب عليهم فهمها وتحصيلها في العام الدراسي.

- ترفيه الأولاد يكون بالنافع والمفيد؛ وتحت أعيننا. إذ من الصعب عليهم أن يكونوا طوال اليوم في التحصيل والدرس والحفظ والمذاكرة؛ فلا بأس بالترفيه ولكن بالنافع المفيد؛ فيسمعون قصص الأنبياء مثلاً أو الصحابة الكرام رضوان الله عليه أو قصص القرآن أو غزوات النبي صلى الله عليه وسلم أو بعض الألعاب المفيدة جسمانياً .. وأهمُّ شيء في هذا أن يكون ترفيههم مُراقباً من آبائهم ومع رفقة طيبة صالحة، وبأوقات محددة.

فلا ينفرد الولد بالتليفون ولا باللاب ولا بالكمبيوتر في غرفة مغلقة عليه؛ بل أمام الجميع يُشاهد ما يشاهده، ولا يكون مع رفقاء غير صالحين لأن ذلك سيؤثر سلباً عليهم كما هو معلوم ومشاهد. ولا يستغرق الترفيه جميع الوقت فليس المسلم مخلوقاً لذلك.

— الأولاد: فلذات الأكباد .. ومُستقبل الأوطان. وضع هذه المعاني في نفوسنا وعقولنا سيجعلنا ننطلق باحثين عن كل خير حتى نُحصِّله لهم. وباحثين عن كل شر حتى نُعرِّفهم عليه ونُحذِّرهم منه.

وأما **محاضن التربية**؛ فهي الأماكن التي تتولى تشكيل عقول أبنائنا وبناتنا. فقد تكون هذه **المحاضن ملموسة**؛ ك: (مسجد، حضانة، مدرسة، معهد، كلية، جامعة، شارع، مكان للدروس الخصوصية، نادٍ رياضي أو ثقافي فكري، مقهى من المقاهي،..) أو تكون **محاضن معنوية**؛ كإلزامه إلى مجموعة على: (الواتس أو الفيس أو الماسينجر أو التليجرام أو اليوتيوب، أو لعبة من الألعاب الإلكترونية ..) فهو معهم بعقله وقلبه وإن لم يجلس معهم ببدنه. فلا بد من اختيار **المحاضن** الذي سيتولى تربية أولادك؛ فسوف يؤثر على ولدك أكثر منك.

ثالثاً: مهام الراعي.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم المسلم بوصف هو من أخص خصائص التربية وهي قوله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالأَمِيرُ الذي على النَّاسِ رَاعٍ وهو مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وهو مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، والمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وهي مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، والعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وهو مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [صحيح البخاري].

فما هي مهامك في رعايتك تلك:

(تنتقي لهم أفضل بيئة يرعون فيها)، (تطرد عنهم كل ذنب أو عدو يريد إضرارهم)، (لا تدخل على دوابك ومواشيك أي حيوان فيه جرب خشية أن يُعديهم)، (تسهر عليهم ولا تفرط في

حفظهم)، (توفر لهم ما لابد منه من أمر الرعاية - كالمأوى، والسراح، والمراح، والحارس،
والحالب..)؛ فعلى الراعي أن يستشعر هذه الوظائف مع أبنائه.

وكما قيل (مَنْ أدَّب ولده صغيراً .. سُرَّ به كبيراً)، وقيل كذلك: (مَنْ أبغض أهله الله ..
أرضاه الله وأرضاهم).

والحمد لله رب العالمين

السخرية والاستهزاء بالآخرين.

العناصر:

المقدمة.

أولاً: دلائل تحريم السخرية والاستهزاء بالآخرين.

ثانياً: نماذج من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ثالثاً: الآثار المترتبة عليها.

رابعاً: الواجب. (الإعراض عن الجاهلين - الدعاء بالهداية لأحسن الأخلاق - وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ..).

(الموضوع)

للأخلاق في الإسلام منزلة هي من أعظم المنازل؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) [أخرجه أحمد في مسنده]، وقال أيضاً: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) [أخرجه الترمذي وأحمد]، وقال أيضاً: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا) [أخرجه الترمذي].. وغير ذلك من الآثار الدالة على عظيم منزلة الأخلاق في الإسلام.

وكما قال أهل الأصول - أصول الفقه - «الأمر بالشيء نهْي عن ضده»؛ هذا إذا لم يأت نص صريح قاطع في النهي، أما وقد جاءت الشريعة الإسلامية بالتحذير الشديد من مساوئ الإخلاق. ومن هذه المساوئ التي يجب الابتعاد عنها لما لها من آثار سيئة على المرء في دينه ودنياه وفي حياته وأخراه (الاستهزاء والسخرية بالآخرين)؛ وسوف أقف إن شاء الله تعالى مع هذا الموضوع في هذه النقاط:

أولاً: دلائل تحريم السخرية والاستهزاء بالآخرين. أدلة التحريم لهذا الأمر كثيرة معلومة لا تُجهل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۖ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ ۖ مَّنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۖ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم] وقال أيضاً: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة]

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) [صحيح مسلم]. ومعنى غمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: (حَسْبُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقُرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) [صحيح مسلم] أي: يكفيه شراً أن يحتقر أخاه المسلم.

ثانياً: نماذج من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وقد ذكر القرآن الكريم وكذلك السنة المطهرة نماذج من الاستهزاء والسخرية بالآخرين؛ وكان في ثناياها بعض العقوبات التي كانت سبباً لأفعالهم القبيحة. ومنها:

قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ حَقَّ مَوْزِنُهُ فَاُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ١٣
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ١٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْزِلُ عَلَيْكُمْ فَاكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٥
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ١٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ١٧

قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٧٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٨٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١٨١﴾ [المؤمنون]؛ فكان الصارف لهم عن طاعة الله تعالى: (تكذيبهم بآيات الله تعالى) (وكانوا أشقياء ضالين) (وكانوا يسخرون من عباد الله تعالى حتى نسوا ذكر الله تعالى بسبب ذلك)؛ وكان جزاء عباد الله تعالى الذين سخر منهم هؤلاء الفُوز؛ إذ كانوا من الصابرين فلم يُقابلوا استهزاءهم وسُخريتهم بمثل صنيعهم بل صبروا.

ومن الأمثلة القرآنية كذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٤﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٥﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٦﴾ عَلَى الْأَرَابِكِ يُنْظَرُونَ ﴿٧﴾ هَلْ ثُوبٌ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المطففين] فكان المجرمون يضحكون ويتغامزون، وينقلبون فكهين مسرورين بأفعالهم القبيحة هذه مع المؤمنين، وكانوا يصفون المؤمنين بالضلال!.. سبحان الله.

فكان الردُّ الإلهي عليهم مُفحماً؛ إذ ما شأكم بهؤلاء؟ فهل كنتم عليهم حافظين وكلاء سنكافئونهم على أعمالهم أم ماذا؟ وعلى كلِّ فالجزاء من جنس العمل وستقلب الموازين: فالمؤمنون يوم القيامة سيضحكون من الكفار وهم على الإرائك مُتكنون في هيئة تريح القلوب والنفوس. وشبيه بتلك الحالة كذلك ذاك الذي تنذر وسخر من عقيدة صاحبه المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر فقال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فقد كذب بيوم الدين، فلم يعتقد بالجزاء الأخروي. وتذكر هذا المؤمن ذاك الشقي فأطلعه الله تبارك وتعالى عليه ورأى مصيره؛ فحمد ربَّه تعالى إذ كان من الفائزين بعقيدته التي لم تنزعزع أمام تشكيك المشككين: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُمْ مَّظْلَعُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَظْلَعَ فَرَّاءَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْلَا

نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[الصافات].

وكذلك من الأمثلة القرآنية على ذلك ما ذكره الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]؛ فكانوا إذا أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا كإيمان الصحابة رضي الله عنهم قالوا (أنؤمن كما آمن السفهاء!!). فكان الردُّ الإلهي عليهم بل أنتم بالسفه أليق وبه الصق؛ فلن يرغب عن الإسلام إلا من سفه نفسه ولن يسخر بشعائر الإسلام إلا السفهاء. ومن فعال المنافين القبيحة كذلك استهزاءهم ولمزهم المؤمنين في صدقاتهم: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة] فيعيبون المؤمنين ويتهمونهم بالرياء والسمعة، ويعيبون الذين لا يجدون إلا القليل من أموالهم قائلين: (ما تُغني هذه الصدقة لن تُجدي شيئاً!!) والأمر والشأن عند الله تعالى بما في القلوب؛ وربَّ درهم سبق ألف درهم. وكذلك من مواقف المنافقين التي تُظهر ما في نفوسهم من الحقد والضغائن: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَءُوا إِنَّا لِلَّهِ حُجْرٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿١١﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَعَايَنَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعَفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فكانوا يستهزئون بالمؤمنين وبعقيدتهم ويخوضون ويلعبون ولا يُبالون بمصيرهم ولا بما هم عليه قادمون.

ومن الأمثلة كذلك؛ في قوم نوح عليه السلام عندما أمره الله تعالى بصنع السفينة: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود] «إن تسخروا منا اليوم

لجهلكم بصدق وعد الله، فإننا نسخر منكم غداً عند الغرق كما تسخرون منا» وإضافة السخرية إلى الأنبياء من قبيل المقابلة - فلا يليق هذا بالأنبياء - كما قال الله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ [الشورى]. وكذلك قد قالوا من قبل على أتباعه؛ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنِكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود].

ومن الأمثلة التي جاءت في السنة النبوية على هذه القضية ما نقله المعرور بن سويد رحمه الله تعالى قال: (مَرَرْنَا بِأَبِي ذَرٍّ بِالرَّيْدَةِ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهُ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ حُلَةً، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ سَبَّ الرِّجَالَ سَبَّوْا أَبَاهُ وَأُمَّهُ، قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَالْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ) [صحيح مسلم].

ثالثاً: الآثار المترتبة على ذلك.

- الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى الدفاع عن أوليائه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج]، وهذا ما ظهر من خلال النصوص السابقة؛ أمثال: (الله يستهزئ بهم) (فيسخرون منهم سخر الله منهم) (إن الله مخرج ما تحذرون).
- الجزء من جنس العمل. فكما ضحكوا منهم فسوف يضحك المؤمنون منهم، وكذلك كما سخروا سيسخرون منهم .. وهكذا.

• جزاء المؤمنين وفوزهم بما صبروا؛ ولأنهم كانوا عباداً للرحمن وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان].

• ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فالذي كانوا يستهزئون به قد «أحاط على جهة الإخراق والعظم بأمور لا يدري وجه المخلص منها».

• أن هذه الفعال من خصال الجاهلية.

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات]. فلا يدري المرء حال المسخور منه عند الله تعالى؛ وكثيراً ما يكون له عند الله تعالى المنزلة العظيمة؛ ففي الحديث (ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار: كل جواظ عثل مستكبر) [صحيح البخاري]، و(رُبَّ أشعث، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) [صحيح مسلم].

وعلى المسلم أن يحمد الله تعالى على إنعامه؛ فالعافية في الدين والدنيا من أكبر النعم، فمن ابتلي بمن عافاك الله تعالى منه؛ لا تسخر منه ولا تستهزئ به ولا تلمزه؛ فالذي أعطاك ومنعه قادر على منعك وعطائه.

والحمد لله رب العالمين

وصيةٌ بحق الطريق.

العناصر:

المقدمة.

أولاً: نصُّ الوصية.

ثانياً: ما تضمّنته من الحقوق.

(الموضوع)

اهتمَّ الإسلام اهتماماً بالغاً بكل شيءٍ من شأنه أن يؤثر على الرأي العام أو المظهر العام، أو بما شأنه أن يعود على مجموع المسلمين في جُمْلَتهم وجماعتهم؛ فتراه - أي الإسلام - يُعَظِّم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُعَظِّم خُطورة المجاهرة بالمعاصي، ويُعَظِّم شأن الاجتماع ونبذ الفرقة .. وما شابهه من هذا القبيل.

ومن جملة هذه الأمور العامة (حقوق الطريق)؛ وقد خصها النبي صلى الله عليه وسلم بوصية هي من أعظم الوصايا، وسوف نقف معها وقفةً تدبّر وتفكّر. مُستخرجين منها ومن غيرها بعض ما يجب على المسلمين تجاه طرقهم وشوارعهم؛ فأقول وبالله تعالى التوفيق:

أولاً: نصُّ الوصية.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا بِدُّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ) [صحيح البخاري]. وفي رواية (وإرشاد السبيل) [سنن أبي داود].

وجاء كذلك عن أبي طلحة الأنصاري زيد بن سهل رضي الله عنه: (كُنَّا قُعُودًا بِالْأُفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعَدَاتِ؟! اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعَدَاتِ، فَقُلْنَا: إِنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَاسٍ؛ قَعَدْنَا نَتَذَكَّرُ وَنَتَحَدَّثُ، قَالَ: إِمَّا لَا فَأُدُّوا حَقَّهَا: غَضُّ الْبَصَرِ، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ) [صحيح مسلم]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (نهى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عن أن تجلسوا بأفنية الصُّعَدَاتِ قالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع ذلك ولا نُطِيقُهُ قَالَ: (إِمَّا لَا فَأُدُّوا حَقَّهَا) قالوا: وما حَقُّهَا يا رسول الله؟ قال: (رُدُّ النَّحِيَّةِ وَتَشْمِيْتُ الْعَاطِسِ إِذَا حَمِدَ اللَّهُ وَغَضُّ الْبَصَرِ وَإِرْشَادُ السَّبِيلِ) [ابن حبان في صحيحه]. والصعدات: «جمع صعيد، وهو المكان الواسع».

هذه هي وصية النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر العظيم؛ وقد تضمنت حقوقا كثيرة، ومعاني عظيمة نقف مع كل منها بما يُناسب المقام. فنقول مُستعينين بالله تعالى:

- **إياكم والجلوس على الطرقات (اجتنبوا مجالس الصُّعَدَاتِ).** أول ما يُطالعنا في هذه الوصية هو هذا التحذير (إياكم .. اجتنبوا) وقد ذكر العلماء - كالنووي رحمه الله تعالى - أن: «الْمَقْصُودُ مِنْهُ أَنَّهُ يُكْرَهُ الْجُلُوسُ عَلَى الطَّرِيقَاتِ لِلْحَدِيثِ وَنَحْوِهِ وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عِلَّةِ النَّهْيِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْفِتَنِ وَالْإِثْمِ». فالأصل أن المسلم يحذر من هذا الجلوس؛ إن لم تكن هناك مصلحة. فإن كانت فله الجلوس ولكن بمراعاة هذه الحقوق. وإلا فالأولى أن يبتعد عن مثل هذه المجالس التي لا تعود على المرء بنفع في الدين أو في الدنيا بل تعود على صاحبها بالضرر. وقد قال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْجَالِسِ الصَّالِحِ وَالْجَالِسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ؛ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً) [صحيح البخاري]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «نعم صومعة المرء المسلم بيئته؛ يكف لسانه، وفرجه، وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق؛ فإنها تُلْهي وتُلْغي» فإن لم تكن هناك فائدة في دين أو في دنيا؛ فالابتعاد عن هذه المجالس.

• **غض البصر.** وهو من الحقوق التي نصَّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ فالمرء إذا جلس في طريق من الطرق لا شك بأنه سيمُرُّ أمامه امرأة (متزوجة أو غير متزوجة) (جميلة أو غيرها) (متبرجة أو غيرها) .. فهو مُطالب على كل حال بأن يغض طرفه عنها. وقد أمر الله تعالى كلاً من الرجال والنساء بهذا الأمر العظيم؛ فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لبريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه: (لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى، وليست لك الآخِرَةُ) [أحمد في مسنده]. فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا، وعن جرير بن عبد الله البجلي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ نَظْرَةِ الْفَجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي [أخرجه مُسلم] وقد قيل: من مَن حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته. وليتق الله امرؤ فلا يتصيد عورات المؤمنات ولا يتتبعهن فإن الله لا تخفى عليه خافية

• **كف الأذى.** وهذا من أعظم حقوق هذا الباب، وقد جاء التصريح به في مواطن أخرى؛ حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أو بضْعٌ وستون، شُعْبَةً، فأفضَلُها قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأدناها إمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) [صحيح مُسلم]، وقال أيضا: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنًا شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَذَهُ، فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ) [صحيح البخاري]، وقال أيضا: (انْقُوا اللَّعَانَيْنِ قَالُوا: وَمَا اللَّعَانَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ) [صحيح مُسلم] فإذا كان هذا في القضاء الحاجة فما بالنا بالتضييق عليهم في طرقهم بالبناء أو غرس الأشجار أو التعدي عليها بالدكاكين أو بالحوانيت أو بالميازيب أو بوضع السيارات والدرجات لا شك أن الأمر أصعب وإثمه أعظم. وقال أيضا: (أَرْبَعُونَ خَصْلَةً، أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصَدِيقَ مَوْعُودِهَا؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ. قَالَ حَسَّانُ: فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ، مِنْ رَدِّ

السَّلام، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ؛ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً [صحيح البخاري] فهذه الأخبار كلها تؤدي إلى حرمة إيذاء المسلمين في طرقهم بأي نوع من الإيذاء، فإذا كان إماطة غصن شجرة عن الطريق قد ترتب عليه هذا الجزاء، وكذلك كان علامة من علامات الإيمان وشعبه. ومما يدلُّ على خطورة هذا الأمر وبشاعته وأَنَّهُ من المنكرات التي يجب إزالتها أَنَّ الله تعالى ذكره من جملة المعاصي التي كانت فاشية في قوم لوط عليه السلام؛ فقد قال سبحانه: ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ۖ﴾ [العنكبوت]. «أإنكم لتأتون الذكران في أدبارهم لقضاء شهوتكم، وتقطعون الطريق على المسافرين فلا يمرُّون بكم خشية ما ترتكبونه من الفاحشة، وتأتون في مجالسكم الأفعال المنكرة كالعري وإيذاء من يمرُّ بكم بالقول والفعل؟». ومن هذا القبيل أيضاً كان عندنا في شريعتنا حدٌّ من الحدود بترويع الآمنين في طرقهم وهو حدُّ الحِرابة - أو قطاع الطريق - وفيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة]

- **رد السلام.** وهذا من لوازم الجلوس على الطرقات وفي الأبنية؛ إذ أَنَّ المارة سيلقي أحدهم على الجالسين السلام؛ وحينها يجب عليه رده وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ﴾ [النساء] وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (كنت رديفَ أبي بكرٍ رضي الله عنه، فيمرُّ على القوم فيقول: السلام عليكم، فيقولون: السلام عليكم ورحمةُ الله، ويقول: السلام عليكم ورحمةُ الله، فيقولون: السلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فقال أبو بكرٍ: فضلنا الناسَ اليومَ بزيادةٍ كثيرةٍ) [الأدب المفرد للبخاري] وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تدخلون الجنةَ حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أولاً أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم) [صحيح مسلم]. وينبغي التنبيه

والتحذير في مثل هذه المجالس أو هذه الطرقات على سلام الخاصة؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ، وَفُشُّوْهُ التَّجَارَةُ حَتَّى تُعَيِّنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التَّجَارَةِ، وَقَطْعُ الْأَرْحَامِ، وَفُشُّوْهُ الْقَلَمِ، وَظُهُورُ الشَّهَادَةِ بِالزُّورِ، وَكَيْثَمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ) [صحيح الأدب المفرد]. «تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ، أَي: يُسَلِّمُ الْمَرْءُ عَلَى خَاصَّتِهِ، وَمَنْ يَعْرِفُهُ دُونَ السَّلَامِ عَلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا مَرَّ بِهِمْ»

• **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.** وهذا من لوازم الجلوس كذلك؛ فلن يخلو طريق من طرق المسلمين اليوم من المنكرات، والواجب على الجالس حينئذٍ أَنْ يُغَيِّرَ الْمُنْكَرَ؛ إِمَّا بِالْيَدِ أَوْ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلْبِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) [صحيح مسلم]. وَلْيَعْلَمْ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يُحَافِظُ عَلَى خَيْرِيَةِ الْأُمَّةِ بِإِقَامَتِهِ هَذَا الشَّعَارَ الْعَظِيمَ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران]. وَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ مِنْ سَكَوتِهِ وَصَمْتِهِ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ اسْتِعْجَالًا لِنَزُولِ الْعَذَابِ وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعْصِيَهُمْ بِعِقَابِهِ) [مسند أحمد]. وفيه كذلك سبب لنزول اللعنة وكثرة الخبث وإشاعة المنكرات وقد قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة]، وفي الحديث عن زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ) [صحيح البخاري]. فعليه في هذه الطرق أَنْ يَأْمُرَ بِالصَّلَاةِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْقَبَائِحِ وَلِيَكُنْ مَبَارَكًا حَيْثُ كَانَ.

• **حسن الكلام.** وهذه الوصية كذلك من لوازم الجلوس بالطرقات؛ فلا بد وأنَّ الجالس سيتكلم مع الناس أو يُكَلِّمُهُ النَّاسَ، فلا يليق به والحالة هذه أَنْ يَكُونَ سَبَّابًا أَوْ لَعَانًا أَوْ صَخَابًا

ولكن عليه أن يمتثل أمر الله تعالى إذ قال لبني إسرائيل: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء] وليعلم كذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم يكن فاحشاً ولا مُتَفَحِّشاً ولا صَخَّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح) [سنن الترمذي ومسند أحمد]. وعليه أن يكون في هذه الطُّرُقَات كذلك ممتثلاً وصية لقمان الحكيم لولده: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان] وعليه كذلك بلين الكلام فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام وصلى والناس نيام) [مسند أحمد] فهنيئاً لمن كان كلامه طيباً.

● **تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى.** وهذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض، ومن لوازم الأخوة، وفيه دعاء بعضهم لبعض بالرحمة والهداية وصلاح البال ونحوها؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه - أو صاحبه -: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فإذا قال له: يَرْحَمَكَ اللَّهُ، فليقل: يَهْدِيْكُمْ اللَّهُ وَيُصْلِحْ بِالْكُمْ) [صحيح البخاري]، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (حقُّ المسلم على المسلم ستُّ قيل: ما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: إذا لقيتهُ فسلم عليه، وإذا دعاكَ فأجبه، وإذا استنصَحَكَ فانصَحْ له، وإذا عطسَ فحمد اللهَ فشمتهُ، وإذا مرضَ فعدهُ وإذا مات فاتَّبِعْهُ) [صحيح مسلم].

● **إرشاد السبيل.** وهي من الأعمال المهمة التي تضمنتها هذه الوصية، فالمسلم إذا ما وجد تائها فعليه أن يُرشدَه إلى مقصده ولا يُضلَّهُ. فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من كمه الأعمى عن السبيل) [أخرجه أحمد وهو في السلسلة الصحيحة للألباني].

وعلى كل حال: فينبغي أن لا يخلو حال المسلم من مكارم الأخلاق عموماً. فعليه معاملة الناس بالحسنى .. فيُغيث ملهواً أو يُعين ذا حاجة أو ما شابهه من عمل أهل المروءات.

والحمد لله رب العالمين

حق الجوار.

العناصر:

أولاً: في تحديد المعنى، والمراد.

ثانياً: أهمية هذا الحق.

ثالثاً: حقوق الجوار.

رابعاً: خطورة التعدي عليه.

(الموضوع)

الإنسان عموماً والمسلم خصوصاً؛ لا يستطيع العيش في هذه الحياة بمفرده؛ فهو كما يُقال: "مدني بطبعه" ولعلَّ الاشتقاق الأكثر تلاءماً مع مادة الإنسان من ناحية اللغة هو "الأنس" وليس النسيان كما هو مشهور على الألسنة؛ فالإنسان يأنس بالآخرين ويأنس الآخرون به. وقد جعل الله تعالى بين الإنسان وأخيه حقوقاً وواجبات على سبيل الابتلاء والاختبار، ومن أعظم هذه الحقوق: "حق الجوار" وسوف يكون حديثنا عن هذه الحق من خلال هذه العناصر التالية:

أولاً: في تحديد المعنى، والمراد بهم.

مادة (جار يجور جوراً) في اللغة تحمل معنى الميل؛ فإذا قيل إن فلاناً قد جار في الحكم، فالمعنى: مال عن الصواب في حكمه، ولعلَّ الجار سُمِّي بذلك لأنه يميل إلى جاره عند الحاجة إليه أو يحتمي به؛ فيدفع عنه الضرَّ والأذى، يُقيل عثرته ويُشاركه أفراحه وأحزانه، ومنه أو من بابه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة]، وقوله تعالى عن الشيطان: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَّكُمْ﴾ [الأنفال]، وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ

إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿[الجن] وقال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون]. ولذلك جاء في الثناء النبوي على الله تعالى قوله صلى الله عليه وسلم: (عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) [سنن الترمذي وفي سنده مقال]. وفي الحديث الآخر: (أَلَمْ يَبْيَضْ وَجُوهُنَا وَيَثْقُلْ مَوَازِينُنَا وَيُدْخِلُنَا الْجَنَّةَ وَيُجْزِنَا مِنَ النَّارِ) [أخرجه ابن ماجه وأحمد]، فَمَنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى جَارَهُ فَهُوَ الْعَزِيزُ وَهُوَ الْمَحْفُوظُ وَهُوَ الَّذِي لَا خَوْفَ عَلَيْهِ وَلَا حُزْنَ. وَمَنْ أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِسُوءٍ أَوْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَذَابَهُ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ دَفْعَ الْعَذَابِ عَنْهُ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿[الزمر].

إذا كان هذا هو أصل المعنى اللغوي لهذه الكلمة العظيمة؛ فَمَنْ هم الجيران الذين ينطبق عليهم هذا الوصف - (الحدود المكانية والجغرافية لهم) -؛ حتى يتسنى للشخص أن يعلم من هم الأشخاص الذي يستحقون هذا الوصف:

قيل في حدودهم أقوال كثيرة؛ فمنها: (أربعون داراً من كل جانب!!)، وقيل: (مَنْ يَسْمَعُونَ الْأَذَانَ فَيَجْمَعُهُمْ مَسْجِدٌ وَاحِدٌ كَبِيرٌ) وقيل: (أهل المحلة أو البلدة الواحدة!!؛ استناداً لقول الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب]) وقيل: (يُرجع في تحديدهم إلى العُرف). وقيل غير ذلك.

وقد ذكر العلماء أنواعاً ثلاثة للجيران ينبغي أن يُتَقَطَّنَ لها، فلكل واحد منهم درجة ينبغي أن لا يُهْمَلَ حَقُّه فيها: ف(جَارٌ له ثلاثة حقوق وهو المسلم القريب ذو الرحم؛ فله حقُّ الجوار، وحقُّ الإسلام، وحقُّ الرحم) - و(جَارٌ له حقَّان وهو المسلم؛ فله حقُّ الجوار وحقُّ الإسلام) - (جَارٌ له حقٌّ واحد وهو غير المسلم فله حقُّ الجوار) وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (أَنَّهُ ذَبَحَ شَاةً فَقَالَ: أَهْذَيْتُمْ لَجَارِي الْيَهُودِيِّ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وعلى آله وسلم يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه) [أخرجه: الترمذي وأحمد].

ثانياً: أهمية هذا الحق.

تظهر أهمية هذا الحق في النصوص التالية:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه) [أخرجه البخاري ومسلم]. وقال أيضاً: (أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن السوء) [الألباني صحيح الجامع].

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول) [أخرجه الحاكم في المستدرک]. فجار البادية؛ له خيمة يرتحل بها ولا يقيم؛ ومن ثم يتحول. أما صاحب دار الإقامة الذي استوطن المكان وشيد فيه مسكنه؛ فلا يرتحل. فلا خلاص منه إلا الاستعاذة بالله تعالى العظيم منه ومن شره وأذاه.

وتظهر أهمية هذا الحق في ربط درجة الإيمان وكمالها بهذا الحق؛ فكمال الإيمان عند العبد مرهون بعلامات كثيرة منها الإحسان إلى الجوار؛ وهاك بعض النصوص الدالة على ذلك:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ) [أخرجه البخاري ومسلم]، وقال أيضاً: (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَاقِهِ) [أخرجه البخاري - والبوائق: الدواهي والمهلكات

والشرور الصادرة منه]، وقال أيضا: (اتَّقِ المحارمَ تكنَ أعبدَ الناسَ، وارْضَ بما قسمَ اللهُ لك تكنَ أغنى الناسِ وأحسِنِ إلى جارِكَ تكنَ مؤمناً) [الألباني في السلسلة الصحيحة]، وقال: (ليس المؤمنُ الَّذي يشبَعُ وجارُه جائعٌ) [البخاري في الأدب المفرد]. فهذه النصوص كلها قد ربطت كمال الإيمان بالإحسان إليه؛ فمن لم يكن في جواره مع الخلق مُحسناً إليهم فهذا دليل على نقص إيمانه؛ بل وفي نصٍّ من النصوص الجامعة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ (أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) [أخرجه مُسلم].

ومما يدل على أهمية هذا الحق؛ أَنَّ شهادةَ الجيران مؤثِّرة عند الله تعالى؛ فقد قال رجلٌ للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف لي أنْ أَعْلَمَ إذا أَحْسَنْتُ وإذا أَسَأْتُ ؟ قال: (إذا سَمِعْتَ جيرانَكَ يقولون: قد أَحْسَنْتَ فقد أَحْسَنْتَ وإذا سَمِعْتَهُمْ يقولون: قد أَسَأْتُ فقد أَسَأْتُ) [أخرجه ابن ماجه في السنن]، وفي الحديث الآخر: (ما مِنْ مسلمٍ يموتُ فتشهُدُ له أَهْلُ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ مِنْ جيرانِهِ الْأَدْنَى إِلَّا قالَ اللهُ قَبِلْتُ عِلْمَكُمْ فِيهِ وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [أخرجه أحمد]، وما هذا إلا لأنهم يعلمون مُدْخَلَهُ ومُخْرَجَهُ وأَخْلَاقَهُ وأَدَبَهُ وتَرْبِيَّتَهُ لأَوْلَادِهِ ؛ فشهادتهم عن علم وعن قُرْبٍ. فليس من رأى كَمَنْ سَمِعَ.

ثالثاً: حقوق الجوار.

ظهر من النصوص السابقة أهمية هذا الحق؛ وقد ترتَّب على ذلك حقوق كثيرة؛ منها:

— محبةُ الخير لهم كمحبته لِنَفْسِنَا.

— مواساته بالطعام والنفقة إن احتاج إلى ذلك؛ فقد قال تعالى عن قوم جعل لهم الوليل يوم القيامة لأنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۖ﴾ [فهلأء: «يمنعون إعارة ما لا تضر إعارته من الآنية وغيرها، فلا هم أحسنوا عبادة ربهم، ولا هم أحسنوا إلى خلقه» وقد قال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذَرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ ماءَهَا، وتَعَاهَدْ جيرانَكَ) [صحيح مسلم].

- تمكينه من بعض حقوقنا إقامة لحياته ومعاشه؛ فقد صحَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشْبَهُ فِي جِدَارِهِ. ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ؟! وَاللَّهِ لَأَرْمِينَ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ) [صحيح مسلم].

- لا نحتقر معروفه؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ) [أخرجه البخاري]. فلا يُحتقر معروفه ولو كان شيئاً يسيراً كظلف الشاة - الحافر - الذي ليس عليه شيء من اللحم.

- الإهداء إليه. كما في الخبر السابق؛ وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن تُذبح شاةٌ فيقسمها بين الجيران؛ وقد أدّخرت عائشة رضي الله عنها من الشاة ذراعاً للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يُعجبه. ففي الخبر: (أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قُلْتُ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا. قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) [سنن الترمذي]. فالذي يبقى هو الصدقة والذي يفنى هو الذي أكلوه وهو الذراع!!.

- مُعاهدة أمره؛ (نعوده إذا مرض، نفرح له إذا فرح، نحزن لحزنه إذا حزن، نتبّع جنازته إذا مات، ننصح له إذا ما طلب النصيحة ..).

- كف الأذى عنه. ففي إيذائه والتعدي عليه أضرار في الدنيا والآخرة؛ منها:

رابعاً: خطورة التعدي عليه.

- المخاصمة يوم القيام. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ) [أحمد في المسند].

- ذهاب الحسنات وأثر الأعمال الصالحات. فقد: (قال رجلٌ يا رسول الله إنَّ فلانةً تُكثِرُ من صلاتِها وصدقَتِها وصيامِها غيرَ أنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها قال هي في النَّارِ قال يا رسول

الله فَإِنَّ فَلَانَةً يَذْكُرُ مِنْ قَلَّةٍ صِيَامِهَا وَصَلَاتِهَا وَأَنَّهَا تَتصدقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقْطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ [أحمد في مسنده].

- **التعرض لللعن والطرده من رحمة الله تعالى.** فقد (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو جاره ، فقال: اذهب فاصبر فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال: اذهب فاطرح متاعك في الطريق فطرَح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيُخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به، وفعل، فجاء إليه جاره فقال له: ارجع لا ترى مني شيئاً تكرهه) [أبو داود في السنن].

- **عدم كمال الإيمان:** وقد سبقت النصوص في ذلك.

- **مضاعفة الذنوب لعظم حقه.** فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً، وهو خالقك، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تزني بحليلة جارك) [أخرجه البخاري]. وفي الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: (ما تقولون في الزنا؟ قالوا: حرام حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال: لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره. ما تقولون في السرقة؟ قالوا: حرام حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال: لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره) [أحمد في مسنده].

أختم هذه الكلمات بهذه الحكمة السائرة بين الناس - ولعلها أثر يروى -: (اختر الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق) وقد استنبط أحد العلماء من قول الله تعالى عن امرأة فرعون: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم].

والحمد لله رب العالمين

الموسيقى والغناء⁽¹⁾.

العناصر:

أولاً: الحكم الشرعي وأدلة التحريم.

ثانياً: أسماء الغناء (السماع الشيطاني).

ثالثاً: الآثار والتبّعات.

(الموضوع)

من النعم التي ينبغي على العبد أن يشكره عليها؛ نعمة الأذن والسمع. «فإن السمع يدرك به أجل شيء وأفضله وهو كلام الله الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه. وأيضاً إنما تتال العلوم بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع، ومدرّك السمع أعم من مدرّك البصر، فإنه يدرك الكلّيات والجزئيات، والشاهد والغائب، والموجود والمعدوم، بخلاف البصر فإنه إنما يدرك بعض المشاهدات، والسمع يسمع كل علم، فأين أحدهما من الآخر». فمن الواجب على العبد استعمالها في طاعة الله عز وجل، لأنه سوف يُسأل عنها، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء]. وكذلك على العبد أن يحذر قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت]. فهذا السمع سيقوم يوم القيامة شاهداً عليك ويُخبر بذنوبك وما قترفته من السيئات عن طريقه. ولذلك كان هناك سماعان؛ سماعٌ للرحمن وسماع للشيطان. فالأول: لسماع القرآن والحديث والموعظة الحسنة والكلام الطيب وكل كلام يُحبّه الرحمن جل جلاله.

(1) ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى للغناء بضعة عشر اسماً في كتابه إغاثة اللهفان، وكلها من كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو من كلام السلف الصالحين. فلتراجع لمن أراد الزيادة. ثم إن هذا الموضوع عموماً مُستمدٌّ من كلام ابن القيم من كتابه هذا عموماً.

والثاني على الضد من ذلك مما يُحِبُّه الشيطان؛ كالكذب وشهادة الزور والغيبة والنميمة والفحش والتفحش .. ومنه الغناء الذي عليه مدار هذا اللقاء. وسوف يكون الحديث فيه من خلال هذه العناصر:

أولاً: الحكم الشرعي وأدلة التحريم.

لا شك بأن هذا الفعل من الأفعال المُحرَّمة شرعاً لما تشتمل عليها من المفسد والمضار؛ وفي ذلك جاءت النصوص الشرعية مُدَلِّلة على هذا الأمر والتي منها:

- عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ وَالْحَرِيرَ، وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ) [صحيح البخاري] قال ابن القيم: «ووجه الدلالة منه: أن المعازف هي آلات اللهو كُلُّها، لا خلاف بين أهل اللغة في ذلك، ولو كانت حلالاً لما دُمِّمَ على استحلالها، ولما قَرَنَ استحلالها باستحلال الخمر والحِرِّ، فإن كان بالحاء والراء المهملتين فهو استحلال الفروج الحرام، وإن كان بالخاء والزاي المعجمتين فهو نوع من الحرير غير الذي صحَّ عن الصحابة لبسه».

- عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعَرِّفُ عَلَى رَعْسِهِم بِالْمَعَازِفِ، وَالْمَغْنِيَّاتِ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ) [سنن ابن ماجه].

- وعن ثلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيكون في آخر الزمان خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَمَسْخٌ، إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَازِفُ وَالْقَيْنَاتُ، وَاسْتَحِلَّتِ الْخَمْرُ) [صحيح الجامع للألباني].

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ، وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ، وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَتَمْنَهُنَّ حَرَامٌ) [سنن الترمذي] والقينات: المغنيات.

- وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ الْأَذْنَيْنِ زَنَاهُمَا السَّمَاعُ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زَنَاهُمَا السَّمَاعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زَنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ) [صحيح مسلم] «وعلى هذا فَإِنَّ الزَّانَا لَا يَخْتَصُّ بِالْفَرْجِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَوَاعَانٍ: زِنَا الْفَرْجِ، وَزِنَا الْجَوَارِحِ، فَالْجَوَارِحُ كُلُّهَا تَزْنِي زَنًا يَأْتُمُّ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَلَكِنَّهُ أَقَلُّ إِيَّامًا مِنْ زِنَا الْفَرْجِ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِشَهْوَةٍ، وَزِنَا اللِّسَانِ التَّحَدُّثُ إِلَيْهَا بِشَهْوَةٍ، وَيُقَاسُ عَلَى ذَلِكَ بَقِيَّةُ الْجَوَارِحِ».

وقد كتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى عمر بن الوليد كتابا فيه: «.. وإظهارك المعازف، والمزمار بدعة الإسلام، ولقد هممت أن أبعث إليك من يجر جمتك جمّة سوء» [أخرجه النسائي وأبو نعيم بسند صحيح].

قال الإمام مالك عن الغناء: «إنما يفعله عندنا الفسّاق».

قال الشافعي رحمه الله: «وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُردُّ شهادته، وَغَلَطَ القول فيه، وقال: هو دِيَاثَةٌ، فمن فعل ذلك كَانَ دِيُوثًا» وقال القاضي أبو الطيّب: وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كَانَ سفيهاً فاسقاً.

ثانياً: أسماء الغناء (السماع الشيطاني).

- اللهو ولهو الحديث. وهذا هو المقصود - على قول أكثر المفسرين - من قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان] فعند ابن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما من الأئمة أَنَّ لهو الحديث هو الغناء.

- **الزور واللغو.** وفي ذلك قول الله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان] قال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: «الزور ههنا الغناء» وتامل هنا؛ فقد مدحهم الله تعالى على ترك مجالس الزور فما بالنا بالتكلم به لا شك أن تركه عليهم أوجب ومدحهم عليه أولى وأعظم.

- **المكاء والتصدية.** وقد كانت هذه هي صلاتهم عند البيت كما قال ربنا تبارك وتعالى عن الكفار من قريش: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال] أي: كانت صلاتهم التصفير والصفيق حول البيت. «والمقصود أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبهة من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الدم، بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم»

- **رقية الزنا.** وفي ذلك يقول الفضيل بن عياض: «الغناء رقية الزنى» وقال يزيد بن الوليد: «يا بني أمية! إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لابد فاعلين؛ فجنبوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنى». ومما يشهد لهذا المعنى أنه: «من الأمر المعلوم عند القوم: أن المرأة إذا استعصت على الرجل اجتهد على أن يُسمعها صوت الغناء، فحينئذ تُعطي الليان. وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًّا، فإذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين: من جهة الصوت، ومن جهة معناه، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنجشة حاديه: (يا أنجشة! رويدًا رويدًا بالقوارير) [صحيح البخاري ومسلم]. يعني: النساء»

- **منبت النفاق.** فقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه: (الغناء يُنبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء الزرع) وقد روي مرفوعا ولا يصح.

- **قرآن الشيطان وصوته ومزماره.** وأمَّا كونه صوته فما رُوي موقوفا على قتادة رضي الله عنه: (لما أهيط إبليس قال: يا رب لعنتني فما عملي؟ قال: السحر، قال: فما قرآني؟ قال:

الشَّعْرُ، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: فما طعامي؟ قال: كُلُّ مَيْتَةٍ وما لم يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عليه، قال: فما شرابي؟ قال: كُلُّ مُسْكِرٍ، قال: فأين مسكني؟ قال: الأسواق، قال: فما صوتي؟ قال: المزاميرُ، قال: فما مصايدي؟ قال: النَّسَاءُ، وأما كونه صوته فما جاء عن مجاهد رضي الله عنه في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء] قال صوته: «صوته هو المزامير» وقال: «الغناء والباطل»، وأما كونه مِزمار الشيطان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، دَخَلَ عَلَيْهَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهَا يَوْمَ فِطْرِ أَوْ أَضْحَى، وَعِنْدَهَا قَيْنَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاذَفَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مِزْمَارُ الشَّيْطَانِ؟ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَإِنَّ عِيدَنَا هَذَا الْيَوْمَ) [صحيح البخاري].

- الصوت الأحمق والصوت الفاجر. وقد جاء في ذلك (عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَتَبْكِي؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنِ الْبُكَاءِ؟ قَالَ: "لَا، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، خَمَشٍ وَجُوهٍ، وَشَقٍّ جُيُوبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ) [أخرجه الترمذي وحسنه] وفي رواية عند الحاكم في المستدرک: (إني لم أنه عن البكاء ولكنني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة لطم وجوه وشق جيوب).

- السمود. وذلك في أحد التفاسير الواردة عن السلف في قول الله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۖ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۖ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ [النجم] فقد جاء عن عكرمة رضي الله عنه: (كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية) وقال ابن عباس رضي الله عنه: (السمود الغناء في لغة حمير)؛ يُقال: اسمدي لنا أي غني لنا.

ثالثاً: الآثار والتبّعات.

- "مفسدة للقلب مسخطة للرب" قالها الضحاك. وكفى بذلك مفسدة؛ ففساد القلب ليس بعده صلاح يُرجى للجسد. وسخط الرب ليس بعده رضى.
- يُنبِت النفاق في القلب.
- يصدُّ صاحبه عن القرآن. قال ابن القيم: «الغناء من مكاييد الشيطان ومصايدته التي يكيد بها مَنْ قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدين، ويفسد بها قلوب الجاهلين والمبطلين. يُبعد به القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. هو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن».
- المكاسب التي تنشأ من هذا الغناء وهذه الآلات حرام كما سبقت الإشارة إلى النهي عن ثمن القينات والتجارة فيهنَّ.
- ردُّ شهادة من يقوم على هذا الأمر. وقد حكم عليهم العلماء بأنهم "الفُساق".
- وقوع المسخ والخسف المتوعّد بهما في كثير من الأحاديث والأخبار النبوية التي حذّرت من الغناء وآلات اللهو والمعارف. قال ابن القيم رحمه تعالى: «وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة، وهو مقيد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء وشاربي الخمر وفي بعضها مطلق»
- وقبل أن أغادر هذا المقام؛ أُحيل ناظرِيك إلى من ابتلي بهذا الأمر؛ فلن تجد فيه إلا مَنْ تخلى عن مظهر من مظاهر رجولته؛ فأصبح مُخَنَّثاً أو كالمخنّث، وقد فقد كذلك جزءاً من عقله الذي كرمه الله تعالى به فأصبح يضرب برجليه الأرض ويطلق بأصابعه ويمشي مِشْيَةَ السُكْرَى، وبل وقد أدى به إلى أن أصبح من الدياثة بالمكان الذي يرضى لأهله أو فيهم السوء. ولا أملك إلا أن أقول كما قال لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء].

عافانا الله تعالى والمسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الرِّبَا

المقدمة.

أولاً: ماهيته (وتعدد مظاهره) وحُكمه والتحذير منه.

ثانياً: عقوبات آكل الربا.

ثالثاً: آثار مُهلكات .. للأمم والمجتمعات.

(الموضوع)

للمال في الإسلام منزلة مهمة؛ فهو من الضروريات الخمس، وبه قوام الحياة، وهو وسيلة من الوسائل التي تُقَرِّبُ العبد من ربه، وتُعَلِّي درجته في الدارين، وكذلك جعل الله تعالى له أحكاماً وشرائع وحدوداً للحفاظ عليه؛ فكان منها: حدُّ السرقة، ومنها: النَّهي عن كثير من التعاملات التي بها غبن فاحش، وكذلك التي بها جهالة وغرر في أحد أطراف العقود المالية، وكذلك النَّهي عن القمار والميسر والسُّحت والرِّشا .. وقد جمع الله تبارك وتعالى كثيراً من هذه الصور في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] «وَلَا يَأْكُلْ بَعْضُكُم مَّالَ بَعْضٍ بِالسُّبْحِ بَاطِلٍ كَالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ، وَالْغَصْبِ، وَالسَّرِقَةِ، وَالرِّشْوَةِ، وَالرِّبَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا تَلْقُوا إِلَى الْحُكَّامِ بِالْحُجَجِ الْبَاطِلَةِ؛ لِتَأْكُلُوا عَنْ طَرِيقِ التَّخَاصُمِ أَمْوَالَ طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ تَحْرِيمَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ» وفي بيان خطورة التعدي على الأموال كذلك فقد قرن الله تعالى بينها وبين قتل النفس بل وقدمها عليه؛ فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء].

ومن هذه الأمور التي تتعلق بالمال والتي تُعدُّ من أخطر صور التعدي عليه؛ أكل الربا. وقد جاء في القرآن الكريم وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم بيان خطره وعقوبته. وسوف يدور اللقاء في هذا الموضوع من خلال هذه العناصر التالية.

أولاً: ماهيته وحكمه والتحذير منه.

الربا: «الزيادة في أشياء مخصوصة، والزيادة على الدين مُقابل الأجل مطلقاً» وقيل: «هو الزيادة في بيع شيئين يجري فيهما الربا»

وقد: «أجمع المسلمون على تحريم الربا في الجملة، وإن اختلفوا في ضابطه وتعريفه».

قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة]. وقد نهى الله تبارك وتعالى عنه الأمم السابقة فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء] فقد عاقبهم بعاقب من أشدَّ العقوبات (حرَّم عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم)!!.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قال: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، والسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) [صحيح البخاري].

وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم آكل الربا؛ فعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: (لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ وَآكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ، وَنَهَى عَنِ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَكَسْبِ الْبَغِيِّ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ). [صحيح البخاري].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا في حجة الوداع: (أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبَاٍّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ غَيْرَ رِبَاِّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ) [سنن الترمذي].

ومن الآثار الموقوفة على كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: (لَأَنْ أَرْنِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُلَ دِرْهَمَ رِبَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنِّي أَكَلْتُهُ حِينَ أَكَلْتُهُ رِبَاً) وفي رواية أخرى عنه: (دِرْهَمَ رِبَاً يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ، أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً) [مسند أحمد].

وقد كانوا في الجاهلية يتعاملون بصور شتى مؤدّاها كلها إلى الربا؛ ومنها: «أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخر عني دينك وأزيدك على مالك. فيفعلان ذلك. فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة"، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه».

ومنها كذلك ما جاء أن: (أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ بِلَالٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مِنْ أَيْنَ هَذَا). قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٍّ، فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ، لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: (أَوْهَ أَوْهَ، عَيْنُ الرَّبَا عَيْنُ الرَّبَا، لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِ بِهِ) [صحيح البخاري]. وكذلك هذه الأصناف التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم: (الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، مِثْلٌ بِمِثْلٍ، مَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرَبَى، الْآخِذُ وَالْمُعْطِي سَوَاءٌ) [مسند أحمد].

ولعلّ من صورهِ المُنْتَشِرَةِ كَذَلِكَ: (كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفْعًا فَهُوَ رِبَا). وقد أورد الذهبى في كِبَائِرِهِ؛ مَا يَلِي: «عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ إِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ دِينَ فَأَهْدِ لَكَ شَيْئًا فَلَا تَأْخُذْهُ فَإِنَّهُ رِبَاً، وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ دِينَ فَمَا أَكَلْتَ مِنْ بَيْتِهِ فَهُوَ سُحْتٌ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفْعًا فَهُوَ رِبَاً، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَيْضًا مَنْ شَفَعَ لِرَجُلٍ شَفَاعَةً فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً فَهِيَ سُحْتٌ وَتَصَدِيقُهُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ شَفَعَ لِرَجُلٍ شَفَاعَةً فَأَهْدَى لَهُ عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَدْ أَتَى بَابَا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرَّبَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ».

ثانياً: عقوبات أكل الربا.

لأكل الربا عقوبات كثيرة قد وردت بها النصوص الشرعية؛ ومنها:

1 - قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة]. «لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلا مثل ما يقوم الذي به مس من الشيطان، فيقوم من قبره يخط كما يخط من به صرع في قيامه وسقوطه، ذلك بسبب أنهم استحلوا أكل الربا، ولم يفرقوا بين الربا وبين ما أحل الله من مكاسب البيع».

2 - حرب من الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة]. ومعنى هذا أن الله تعالى أعلم أكل الربا بحرب؛ أي: «فإن لم ترتدعوا عما نهاكم الله عنه فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله». ومن الأدلة على أن الإيمان قد ارتفع عنه نتيجة عمله هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) [صحيح البخاري] «النهب: هو أخذ الرجل ما ليس له جهارا وقهرا» وقد قال الحافظ ابن حجر: «وأشار برفع البصر إلى حالة المنهوب: فإنهم ينظرون إلى من ينهبهم ولا يقدرين على دفعه ولو تضرعوا إليه». وهذا هو حال المُقْتَرَضِ الذي لا يستطيع التخلص من رِق مَنْ أَقْرَضَهُ لا سيما وقد وثَّق هذا العقد الربوي بكاتب وشهود .. ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولذلك جاءت الآية مُعَلِّقَةً هذا الحكم بـ (إن كنتم مؤمنين).

3 - اللعن والطرْد من رحمة الله تعالى. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ) [صحيح مسلم] وهي علامة على أن الإيمان في قلبه راسخ لأنه أثر مرضات الرحمن على حبِّ الأموال.. وفي

رواية أخرى عند أحمد: (لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وشَاهِدَيْهِ، وكَاتِبَهُ"، قال: وقال: "ما ظَهَرَ في قَوْمِ الرِّبَا وَالرِّزَا، إِلَّا أَحَلُّوا بَأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ").

4 - يَسْبَحُ فِي نَهْرٍ مِنْ دَمٍ!. ما جاء في الرؤيا التي قصَّها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه بعد صلاة الفجر من حديث سمرة بن جندب؛ وفيه أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسْطِ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلُّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ آكِلُ الرِّبَا) [صحيح البخاري].

5 - المحقُّ للمال الذي جمعه. وفي هذا عقوبةٌ له بنقيض قصده. فقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ؛ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ) [الحاكم في المستدرک] وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوًّا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم] أي: «وما دفعتم من أموال إلى أحد من الناس بغية أن يردّها إليكم بزيادة فلا ينمو أجره عند الله». وأمّا الزكاة فإن الله تعالى يُنمِّيها ويُضاعفها لصاحبها.

فقد رَغِبَ الله تبارك وتعالى في الصدقات، وبَيَّنَّ أَنَّها هي التي تستحق الإرباء والزيادة والنمو والبركة؛ فهو سبحانه وتعالى يُربِّيها لصاحبها ويُنمِّيها له كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَصَدَّقَ بَعْدَ ثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرْبِّيها لِصَاحِبِها، كما يُرْبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ) [صحيح البخاري].

ثالثاً: آثارُ مُهلكاتٍ .. للأُمم والمجتمعات (1).

أحبابي في الله:

- لو لم يكن في الربا إلا أنه معصية لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لكفى بذلك تدميرٌ للمجتمعات؛ وقد قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور].

- وكذلك فيه: قسوةٌ للقلب، وقتلٌ لمشاعر الرأفة والرحمة بين المؤمنين. وتمزيقٌ وتقطيعٌ لأواصر المحبة بين المسلمين. فأين هي القلوب الرقيقة ومشاعر الرحمة والأخوة التي تميز بها المسلم إذ كان - كما وصفه الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة]، أين هي المودة والرحمة والألفة والتآلف بين القلوب؟ أين هذه الأمور وقد آثر عليها المرابي أخذ هذه الأموال بالباطل، فقد جرد أخاه المسلم من كل شيء! وقد قال صلى الله عليه وسلم: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ) [سنن الترمذي]. ومن أدلة شقاوة هذا المرابي والحالة هذه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا تُتْرَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ) [سنن أبي داود والترمذي].

- وكذلك لا يُستجاب لآكل الربا الدعاء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم: (ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ. أَشَعَتْ أَغْبَرَ. يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ. يَا رَبَّ! يَا رَبَّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ. فَأَنَّى يَسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟) [صحيح مسلم].

- لا يقبل الله تعالى صدقته إن كانت من الربا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا) [صحيح مسلم].

(1) يُنظر في بعض هذه المفاصد: (الربا.. أضراره وآثاره في ضوء الكتاب والسنة) د/ سعيد بن وهف القحطاني.

- وكذلك القروض الربوية هذه من أكبر وسائل تدمير الشعوب؛ وقد عمل على ذلك أعداؤنا؛ ففي بروتوكولات حكما صهيون: «القرض: هو إصدار أوراق حكومية توجب التزام دفع فائدة تبلغ نسبة مئوية من المبلغ الكلي للمال المقترض. فإذا كان القرض بفائدة قدرها خمسة من مائة، ففي عشرين سنة ستكون الحكومة قد دفعت بلا ضرورة مبلغاً يعادل القرض لكي تغطي النسبة المئوية. وفي أربعين سنة ستكون قد دفعت ضعفين، وفي ستين سنة ثلاثة أضعاف المقدار، ولكن القرض سيبقى ثابتاً كأنه دين لم يسدد».

والحمد لله رب العالمين.

الأعداء في القرآن والسنة

المقدمة.

أولاً: الأعداء.

وهم: (الشیطان وأولیاءه، الكافرون، المنافقون، المعبود من دون الله تعالى، من أزواجكم وأولادكم، النار)

وأخيراً.

(الموضوع)

الله سبحانه وتعالى الرؤوف الرحيم الكريم المنان؛ ومن رحمته بنا أن بين لنا ما فيه الخير وما فيه الشر، حتى يكون المرء على بينة من دينه، وحتى لا يكون له عند الله تعالى عذر يوم القيامة؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه] وقال أيضاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء]. ولأجل هذا فقد بين الله تعالى لنا أعداءنا وأعداءه حتى لا نخدع بأفعالهم أو أقوالهم أو تزيينهم.

أولاً: الشيطان وأولياؤه.

قد أخبرنا الله تعالى بعبادة الشيطان لنا في غير ما آية من كتابه سبحانه وتعالى؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة] وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام] وكذلك قوله سبحانه

وتعالى مُنادياً أَبَوَيْنَا آدَمَ وَحَوَاءَ عِنْدَمَا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف]، بل وقال سبحانه وتعالى مُخْبِراً وَآمِراً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر] فأخبر بعداوته، وأمر باتخاذها عدواً.

ولابد من أمور لمواجهة هذا العدو؛ منها:

— **ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ وَمِنْ شَرِّهِ.** ففي حديث الحارث بن الحارث الأشعري: (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ .. وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْزَرَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحَرِّزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ) [الترمذي والنسائي وابن حبان] وجاء في القرآن السُّنَّةُ كَثِيرًا الْأَمْرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَنَفْثِهِ، وَهَمْزَاتِهِ، وَعِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ الدُّخُولِ لِلْخَلَاءِ، وَعِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ، وَعِنْدَ سَمَاعِ نَهْيِ الْحِمَارِ، وَعِنْدَ وَسْوَستِهِ لِلْمُسْلِمِ فِي عَقِيدَتِهِ .. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاطِنِ.

— **الِابْتِعَادُ عَنْ طُرُقِهِ وَوَسَائِلِهِ فِي تَزْيِينِ الْفَحْشَاءِ وَالْمَعَاصِي.** طُرُقُهُ كَثِيرَةٌ جَدًّا؛ وَلِذَلِكَ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ الْإِعَانَةَ وَالْبَصِيرَةَ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي حَبَائِلِهِ؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَزْيِينَهُ لِمَنْ عَبَدُوا الشَّمْسَ فَقَالَ: ﴿وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل]. وقال عن بعض أعماله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة] وعن القتل الذي وقع من موسى عليه السلام - ولم يكن عمداً بل خطأ - قال الله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) [صحيح البخاري]؛ فكل هذه المعاصي وغيرها من إغواء الشيطان لبني آدم؛ وقد

قال الشيطان: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ ١٦ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنِي إِلَّا سَاجِدًا وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ أَفْقَهُمُ فَكُنْتُ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا دَعْوَةُ الْإِبْلِيسَ لَكُنْتُ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْلَا دَعْوَةُ الْإِبْلِيسَ لَكُنْتُ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ وَلَوْلَا دَعْوَةُ الْإِبْلِيسَ لَكُنْتُ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٢﴾

— **الحذر والابتعاد عن أوليائه وأعدائه.** فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَقِّمُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّهِمْ لَكَاوُنٌ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام]. فالشيطان أولياء وأنصار وأعوان من الجن والإنس يستعملهم في إضلال بني آدم؛ فإثم: «الذين يتولونه ويطيعون أمره، في خلاف طاعة الله، والتكذيب به، وينصرون الشيطان ولا ينصرون الله ورسوله؛ ويكيدون المؤمنين بالله تعالى، بل ويحزبون أولياء الشيطان من الكفار بالله على رسوله وأوليائه أهل الإيمان به». وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرِيَاءَهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزِلَةً أَكْثَرَهُمْ فِتْنَةً ..) [صحيح مسلم]

ثانياً: الكافرون. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء]. فالكافرون بكل أشكالهم وأنواعهم من أعدائنا؛ فينبغي الحذر منهم أشد الحذر؛ وذلك لأنهم:

— **كفروا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم.**

— **لا يريدون لنا الخير؛** فقد قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة]. وقال سبحانه أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ

كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة﴾

- يحسدوننا على ما آتانا الله تعالى من فضله. فقد قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة]. وقد جاء: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْيَهُودُ فَقَالَ إِنَّهُمْ لَمْ يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا حَسَدُونَا عَلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ آمِينَ) [أخرجه أحمد في المسند]

- يترَبَّصون بنا الدوائر. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة].

- ومن أخبث طرائقهم ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران] ومعناه كما قال المفسرون: «وقالت جماعة من علماء اليهود: آمنوا في الظاهر بالقرآن الذي أنزل على المؤمنين أول النهار، واكفروا به آخره، لعلهم يشككون في دينهم بسبب كفركم به بعد إيمانكم فيرجعون عنه قائلين: هم أعلم منا بكتب الله وقد رجعوا عنه». فلا ينخدعن المؤمنون بموافقة الكافرين لهم على شيء من الحق الذي أعطاه الله لهم فهذا من مكائدهم ومن تشكيكهم لإضعاف النفوس.

وقد وصفهم الله تعالى الكافرين: بالظلم، والخسران، والغرور، والاستكبار والبطر، والصد عن سبيل الله تعالى. وأنه لا يهديهم، ولا يحبهم، ويمحقهم، وأنه طبع على قلوبهم، وأن دابرهم مقطوع، وأنه سيخزيهم، ومهما توجهوا إلى الله بالدعاء فهو في ضلال، وأنهم ملعونون مطرودون من رحمة الله تعالى، وأنه لا مولى لهم ولا ناصر، وكذلك لا مجير لهم من عذاب الله سبحانه وتعالى. وهم في تعاسة وأعمالهم كلها في ضلال لا ينتفعون بها يوم القيامة أمام الله تعالى.

ولذلك ينبغي على المسلم؛ أن لا يتودد إليهم ولا يحبهم ولا يطيعهم؛ فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة]، وكذلك قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب].

ثالثاً: المنافقون. وأمّا هؤلاء فقد صرّح الله تعالى بعداوتهم في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسَدَّدٌ يَّحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَىٰ يَوْمُكُونَ﴾ [المنافقون]. وحتى يكون المسلم على بيّنة من أمر هؤلاء فقد كشف الله تعالى أستارهم وأفعالهم وفضح مكنون قلوبهم في سورة التوبة؛ حتى قال حبر الأمة عبد الله بن عباس: (التَّوْبَةُ: هي الفَاضِحَةُ، ما زَالَتْ تَنْزِلُ: وَمِنْهُمْ .. وَمِنْهُمْ .. حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذَكَرَ فِيهَا) [صحيح البخاري]. وكذلك سورة المنافقون، فيجب على المسلم أن يحذرهم أشدّ الحذر كما أمر الله تعالى. وذلك لأنّ البلاء منهم أشدّ؛ فهم معدودون في صفوف المسلمين، ومن أحوالهم وأفعالهم الخبيثة التي تقتضي الحذر منهم:

- **مُعاوَنَةُ المُشْرِكِينَ على المؤمنين.** فقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر].

ولأن من أوصافهم: الكذب في الحديث، والخيانة للأمانات، وعدم الوفاء بالعهود، والفجور في الخصام، والتقرب والمُسارعة إلى أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك يأمرهم بالمنكر وينهون عن المعروف، وإذا قاموا إلى العبادة والطاعة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً.. .

رابعاً: المعبودات من دون الله تعالى. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَةً ۖ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنفَعُونَكُم

أَوْ يَضْرُوبَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء﴾.

- يجب على المسلم أن يكفر بها؛ بل وهذا من علامة إيمانه فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]. وأن يتبرأ منها؛ فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة]. وقال كذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف] وأن يذكر عيوبها وأن لا يرفع بها رأساً وأن يحتقرها؛ فقد قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء]. وقد جاء في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش قالوا لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم: «إن ابن أخيك قد سب آلَهتنا، وعاب ديننا، وسفه أعلامنا، وضلل آباءنا»

خامساً: من أزواجكم وأولادكم. وكذلك من الآيات التي صرحت بعبادة هؤلاء للإنسان ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن] وقد جاء في تفسيرها عن السلف ما يدلُّ صور هذه العداوة؛ ف: «منهم من لا يأمر بطاعة، ولا ينهى عن معصية، وكفى بذلك عداوة للمرء؛ أن يكون صاحبه لا يأمر بطاعة، ولا ينهى عن معصية، وكانوا يُنَبِّطُونَ عن الجهاد والهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم»، جاء أيضاً: «يحمل أحدكم حبُّ ولده وزوجته على قطيعة الرِّحم، أو على معصية ربه، ولا يستطيع مع حبه إلا أن يطيعه، فنهى الله عن طاعتهم في ذلك» وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت: (في قوم من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم

أَنْ يَدْعُوهُمْ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَفَّهُوا فِي الدِّينِ؛ هُمُومًا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (فعلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْعَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَتَخَلَفَ عَنْهَا طَلِبًا لِمَرْضَاتِ زَوْجِهِ أَوْ وَلَدِهِ).

سادساً: النَّارُ. فَقَدْ: اخْتَرَقَ بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَحُدَّتْ بِشَأْنِهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأُطْفِئُوهَا عَنْكُمْ) [صحيح البخاري]. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ النَّارُ مِنْ أَعْدَائِنَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْحَذَرِ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ قِيَاسًا عَلَيْهَا: كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ الْهَلَاكُ مَعَ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّخْلِي عَنْهُ كَالْكَهْرِبَاءِ وَالْمِيَاهِ وَالْآلَاتِ الْحَادَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ النِّفْعُ وَالضَّرَرُ.

وأخيراً: عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَعِيزَ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ ذِي شَرٍّ؛ فَقَدْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا أَحَدُنَا مَضْجَعَهُ أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَرَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمَنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ..) [سنن الترمذي].

- أَعْدَاءُ اللَّهِ تَعَالَى أَعْدَاءُ لَكَ؛ فَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَتَوَدَّدَ إِلَى مَنْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِدَاوَتِهِ لَهُ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿يَا خُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ﴾ [طه]. وَقَالَ أَيْضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ثُلُثُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة]

- لَا يَسْتَبْدِلُ الْمُسْلِمُ وِلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمُؤْمِنِينَ وَالصَّالِحِينَ بِوِلَايَةِ الشَّيْطَانِ وَحِزْبِهِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الْبَدِيلُ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف].
والحمد لله رب العالمين

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ

المقدمة

أولاً: الإعداد الداخلي.

ثانياً: الإعداد الخارجي.

ثالثاً: ثم يأتي المدد من الله تعالى.

(الموضوع)

اقتضت حكمة الله تعالى البالغة أن يكون الناس في صراع دائم بين الحق والباطل؛ فأهل الحق ينشرون حقهم ويدافعون عنه بكل سبيل، وأهل الباطل يُزيّنون باطلهم ويُلَبِّسونه على الناس، بل ويدفعون الحق الذي مع غيرهم. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة] وكذلك قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج] وهذا الصراع له حكم وغايات ودلالات؛ تظهر فيها آثار أسماء الله الحسنى وصفاته، ويُعرف أهل الجنة من أهل النار وقد قال الله تعالى في سورة القتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد].

فعلى المسلم أن يكون على استعداد دائم لهذا الصراع؛ لأنه لا يفتر، ولا يثبت على صورة واحدة بل يتقلب ويتشكّل بأشكال مختلفة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء]. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ﴾ [الأنفال] وقد بيّنت قبل ذلك الأعداء الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم؛ من: (الشيطان، والكافرين، والمنافقين، ..) (1).

(1) في هذه الكِنَانَةِ خطبة عن الأعداء في القرآن والسنة - وهي السابقة لها -

فلا بد للمسلم من إعداد العدة اللازمة في مواجهة هؤلاء؛ وهذا موضوعنا، كما يلي:

أولاً: الإعداد الداخلي.

أقصد بهذا الإعداد؛ ما يكون مكنونا في النفوس من العقيدة والإيمان بالله تعالى وبشرعه الشريف الحنيف المنيف، فهذا الإعداد هو الذي يدفع بصاحبه إلى ساحات الوعى.

هذا الإعداد هو الذي يجعل المسلم مُستعلياً على كل الشبهات والشهوات التي يلقيها أعداء الله تعالى أمامه. فلا يندفع بزخرف زائل من زخارف الدنيا. فيكون كالذين أوتوا العلم من قوم موسى - عليه السلام - عندما سمعوا من ضعاف النفوس قولهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [٧٩] وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص] ويكون حاله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه كما في هذه القصة؛ قال عمر رضي الله عنه: (ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَ اللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهْبَةِ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَيَّ أَمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: أَوْفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟! أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي) [صحيح البخاري]؛ فالمسلم لا يندفع بحالتهم وبعيشتهم وبما هم عليه من الرفاهية وزخرف الحياة.. فإنما هي جنتهم؛ وليس لهم في الآخرة من نصيب: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف].

وهذا الإعداد .. يجعل المسلم غير مُندفع بما يراه من كثرة كاثرة لأهل الباطل؛ فيكون على يقين ببطلانها وضلالها ولو كانت ما كانت من الجموع الحاشدة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف] وقال كذلك عن عباده

الصالحين: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ]، وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص]. فالمرء: عليه أن لا يندفع الآن بما وصل إليه عددهم في هذا العالم، فمن المسلمين من يتسمّى باسم الإسلام وليس من الإسلام في شيء!! نسال الله تعالى العافية.

ومن هذا الإعداد الداخلي كذلك .. عبادة الله عز وجل. فالمسلم في أمس الحاجة إلى عبادة الله تعالى؛ فيها يستحق التمكين في الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور]. وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف] وفي سورة الأنفال؛ تلك السورة التي نزلت في غزوة بدر قد بين الله تعالى فيها سبب ما أصاب المشركين فيها من العذاب والهزيمة والدلة والهوان بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال] وقد بوب بوب الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الجهاد من صحيحه: "بَابُ: عَمَلُ صَالِحٍ قَبْلَ الْقِتَالِ"، وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: "إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ"، وفي الأثر - وليس له سند - عن عمر رضي الله عنه: «وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله؛ ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا لم ننصر عليهم بفضلنا، ولم نغلبهم بقوتنا». فعبادة الله تعالى والبعد عن المعاصي من أقوى وسائل الإعداد الذي ينبغي على المسلمين أن يتسلحوا بها.

وهذا الإعداد الداخلي يجعل المسلم على تمييز وتفریق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ فيوالي من والاه الله تعالى ويُعادي من عاداه. وأمّا أن يكون المسلم ودوداً بشوشاً حلماً رحيماً بالكافرين وغليظاً على إخوانه المسلمين!! فقد انتكست عنده الموازين فلم يدر من وليه من عدوه. فأنى لمثل هذا أن ينتصر في حرب لم يرها بل ولم يقتنع بوجودها أصلاً!!.

وإن شئت أن تجعل مثلاً لهذا الإعداد الداخلي؛ فخذ من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً يعد أصحابه إعداداً داخلياً، فلم يؤمروا بالقتال إلا في المدينة بعدما تأهلوا وتأهبوا لملاقاة أعدائهم.

ثانياً: الإعداد الخارجي.

بدايةً .. لابد من وقفة مُتأنّية مع الآية الآمرة بإعداد العدة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال]. فقد كلفنا الله تعالى بالاستطاعة وببذل الوسع ولم يكلفنا بما فوق ذلك. فلم يأت الخطاب الإلهي بوجوب إعداد العدة التي تتكافئ مع قوة العدو أو عدته؛ فلو كانت استطاعة المسلمين تُساوي عُشْرَ ما عند عدوهم فيجب عليهم إعداد هذا العُشْر لا غير!. ففي غالب المعارك الإسلامية لم يكن جيشُ المسلم مُساوياً لجيش عدوهم فضلاً عن أن يكون أكثر منه؛ بل كانوا غالباً أقلّ منهم؛ ولكنهم مع قلتهم قد بذلوا ما في وسعهم وما في طاقتهم. لأن المسلمين يعتقدون بأن الله تعالى سيُمدّهم بمدد من عنده ولن يخذلهم. وانظر لذلك معارك: (بدر، وموُتة، والزلاقة، ...) وغيرها.

من مظاهر هذا الإعداد الخارجي:

أ - المال. المال قِوام الحياة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء] وفي الحكمة السائرة: «ومن افتقر.. احتقر» (واليد العليا خير من اليد السفلى). فالأمة إذا كانت فقيرة ذليلة تعتمد في غذائها ودوائها على عدوها؛ فأتى لها أن تنتصر عليه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) [صحيح البخاري] وقال أيضاً عن المال: (وإنَّ هذا المَالَ خَصِرَةٌ خُلُوءٌ، وَنِعَمٌ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ، فَهُوَ كَالْأَكْلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [صحيح البخاري]

ب - العلم. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (لما قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ أَتَى بي إليه فقرأتُ عليه فقال لي: **تَعَلَّمْ كِتَابَ الْيَهُودِ فَإِنِّي لَا آمَنُهُمْ عَلَى كِتَابِنَا** قال: فما مرَّ بي خمسَ عشرةَ حتى تَعَلَّمْتُهُ فَكُنْتُ أَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقْرَأُ كِتَابَهُمْ إِلَيْهِ) [السلسلة الصحيحة للألباني]. فلا بد من العلم في مواجهة الأعداء؛ كي نأمن مكرهم، ونتفطن لما يُدبرونه.

وقد بيَّن الله تعالى لبني إسرائيل سببَ اصطفائه لطالوت - أول ملوك بني إسرائيل - بقوله: ﴿قَالُوا أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة]. فالعلم والجسم الصحيح من مؤهلات التمكين على الأعداء؛ وإلا فكيف يكون الظفر على الأعداء حليفاً للضعفاء؟!.

(بالعلم والمال يبنّي الناس ملكهم .. لم يُبْنِ ملك على جهل وإقلال).

ج - الجسد الصحيح. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ) [صحيح مسلم]. وقد وضع الله تبارك وتعالى التكليف عن الضعفاء فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح] وقد سبقت الإشارة إلى قصة طالوت مع بني إسرائيل.

د - ألا إن القوة الرمي. بهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة الواردة في الآية القرآنية؛ فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) [الأنفال: 60]، **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ** [صحيح مسلم]. وكذلك: «أعدوا - يا معشر المسلمين - لمواجهة أعدائكم كل ما تقدرون عليه من عُدَدٍ وَعُدَّةٍ، لَتُدْخِلُوا بِذَلِكَ الرّهبةَ في قلوب أعداء الله وأعدائكم المتربصين بكم، وتخيفوا آخرين لا تظهر لكم عداوتهم الآن، لكن الله يعلمهم ويعلم ما يضمرونه» وقد خصت الآية: «الرَّمْيَ بِالسَّهَامِ وَالرَّمَا حَ، مع أَنَّ الْجِهَادَ يَحْتَاجُ إِلَى إِعْدَادِ أُمُورٍ أُخْرَى، مِثْلَ: السِّيفِ وَالرُّمْحِ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُمَارَسَةٍ دَائِمَةٍ وَتَدْرِيبٍ مُسْتَمِرٍّ حَتَّى لَا يُنْسَى، وَلَأنَّهُ أَكْثَرُ

نِكايةً في العدوِّ من غيره؛ فهو أسرعُ وُصولًا للعدوِّ، وأكثرُ إصابةً لهم مع حفظه للمسلمين والدِّفاع عنهم من بعيدٍ».

فالمقصود هو إعدادُ العدةِ اللازمةِ لذلك والتي تُحقق هذه الغاية "إرهاب أعداء الله عز وجل" والتي تُحقق النصر عليهم وتحقق إعلاء كلمة الله تعالى. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثالثاً: ثم يأتي المدد من الله تعالى.

الله سبحانه وتعالى قال في مُحكم كتابه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر] وقال سبحانه أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج] فالله ينصر من نصره فهذا وعده والله تعالى لا يُخلف وعده. فإذا ما بذل المؤمنون الأسباب المتاحة عندهم واطلع الله تعالى على صدق نواياهم جاءهم من الله تعالى المدد؛ ومن أمثلة ذلك ما حدث في غزوة بدر، فقد بذلوا ما في وسعهم إذ فُرض عليهم القتال؛ فكانوا أدلة وقد وصفهم الله بذلك: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران] فقد قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وهذه من أرجى أحوال الدعاء استجابةً. ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وقد قال المفسرون: «أن الله وعدهم بألف من الملائكة وأطعمهم بالزيادة بقوله (مردفين) أي مردفين بعدد آخر، ودل كلامه هنا على أنهم لم يزلوا وجلين من كثرة عدد العدو، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين أراد الله بذلك زيادة تثبتهم ثم زادهم ألفين إن صبروا واتقوا»؛ فقال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٤٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران] وهؤلاء الملائكة جاءت تثبيتاً للمؤمنين: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْتُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ وفي هذا النعاس: (الأمن) فالخائف لا ينام. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وفي هذا الماء النازل من السماء: (طهارة لمن به حدث) (وإذهاب لوساوس الشيطان) وتثبيت للأقدام فلا تخور في الرمال لأن القلوب قد ربط الله عليها وثبتتها وطمأنها).

﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأُضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأُضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، ..) [صحيح البخاري]. فما يعلم جنود ربك إلا هو (الملائكة - النوم - الرعب - الريح؛ كما في غزوة الأحزاب -) ثم بين الله تعالى سبب نزول العذاب الدنيوي والأخروي بالكافرين؛ فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ وفي هذا تحذير للمؤمنين كذلك؛ فكما أن المعصية هي سبب العذاب، فكذلك الطاعة هي سبب النصر وليس العدة والعدد.

وقد قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال].

فنسأل الله تعالى النصر على الأعداء

إنه سميع قريب مجيب الدعوات

والحمد لله رب العالمين.

أسباب زيادة الرزق**

العناصر:

المقدمة.

الأسباب.

(الموضوع)

قضية الرزق من القضايا المحورية في حياة المسلمين؛ فهي قضية شغلت أذهان الكثيرين؛ فأرقت مضاجعهم، وشغلت نفوسهم، أقلقّت عقولهم. فكثير هم الذين يشتكون من ضيق الرزق وعدم سعته، وكثير هؤلاء الذين يبحثون عن ملذات الدنيا وشهواتها ومع ذلك لم يحصلوها. فأصبحوا في نكد من العيش، وكثير هؤلاء الذين يتسخطون على أقدار الله تعالى في أرزاقهم .. فإلى هؤلاء وغيرهم هذا الموضوع لعله يسعى في تسكين تلك النفوس التائهة الحائرة الساخطة ويبعث فيها الطمأنينة؛ بذكر الأسباب التي جاء في الشرع الشريف أنها سبب في زيادة الرزق.

ولكن قبل البدء في ذكر تلك الأسباب التي تستمطر بها الأرزاق وتستجلب بها البركات أقدم لها بمقدمتين؛ في كل واحدة منها فوائد جدير بنا أن نشير إليها.

أما الأولى؛ فقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَتَقَوَّمُ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مَّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة].

الله تعالى قال عن هؤلاء مظهرًا منته عليهم (جعل فيكم أنبياء) - وهذه معروفة معلومة لنا -، أما (وجعلكم ملوكًا) فقد جعلهم ولم يجعل فيهم!!.. فهل بنوا إسرائيل كانوا ملوكًا أم ما هو معنى الآية؟ وهذا هو مقصدي من إيراد الآية والاستدلال بها في هذا السياق.

المُفسرون من أهل العلم - كابن كثير وغيره - نصوا على أن المقصود بكونهم ملوكاً: أن الواحد منهم كان إذا ملك داراً وامرأة وخادماً ويُسْتَأْذَنُ عليه يُكْتَبُ ملكاً. وبشهد لهذا المعنى ما ذكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلَكِ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَلَكِ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ. فَقَالَ: إِنَّ لِي خَادِمًا. قَالَ فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ) [تفسير الطبري]. وقد قال الحسن البصري: «هَلِ الْمُلْكُ إِلَّا مَرْكَبٌ وَخَادِمٌ وَدَارٌ؟».

وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا) [الترمذي في السنن].

فكثيرون هم الذين يملكون البيت والدار والخادم والأولاد والزوجة والزوجات؛ بل وقبل ذلك يملكون الصحة والعافية ويرفلون في نعيم لا يُشاهدونه ببصيرتهم!! يحسبون أنفسهم فقراء وهم في عداد الأغنياء بل الملوك والسادة.

تنبيه .. وليس معنى هذا الكلام أن مَنْ ملك مثل هذه الأمور لا يحلُّ له أن يسأل الصدقة إذا ما احتاج إلى الطعام والشراب والدواء واللباس تلك الأمور التي هي من ضروريات الحياة .. لا. ولكن المقصود هو إبراز حجم النعيم الذي نعيشه ونتمتع به ومع ذلك لا نشكر ربنا عليه، وكذلك إبراز ما كان عليه الأولون من فهمهم لهذه القضية.

وأما الثانية فقله جل ذكره: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ قَوْلَ رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات]. فهذه القضية خبرٌ أخبر الله تعالى به؛ وليس أحدٌ أصدق من الله قبيلاً، وزاد الأمر تأكيداً بقسمه على خبره سبحانه وتعالى فكان كما جاء في قصة الأعرابي الذي سمع هذه الآيات كما يحكي القصة الأصمعي وهي في تفسير القرطبي: «قال فصاح الأعرابي وَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! مَنْ الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّى حَلَفَ! أَلَمْ يُصَدِّقْهُ فِي قَوْلِهِ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْيَمِينِ؟ فَقَالَهَا ثَلَاثًا وَخَرَجَتْ بِهَا نَفْسُهُ». وقد جاء عن الحسن البصري

قوله: (قَاتَلَ اللَّهُ أَفْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوا) [أخرجه ابن جرير مرسلاً]. فقد أكد هذا الخبر الإلهي بمؤكدات (بالتقديم والتأخير بين طرفي الجملة، وبإِنَّ المؤكدة، وباللام المرحقة وهي للتوكيد كذلك، وبالتمثيل بالحاسة التي لا يُشكُّ فيها)

فهذه الآية تعني أن الأرزاق مُقدَّرةٌ محفوظة؛ وهذه قضية ينبغي أن تكون بمنزلة يقيننا بأننا نتكلم وننطق؛ فإذا لم يكن شكٌ في كلامك ونُطقك فكذاك ينبغي أن يكون إيمانك بقضية الرزق؛ والتشبيه بحاسة الكلام دون باقيها من الحواس؛ إذ من الإمكان أن يعترِبها بعض الضعف، فالعين - مثلاً - قد ترى السراب وتظنه ماءً وليس كذلك، وقد تسمع الأذن بعض الألفاظ ولا تستطيع فهم ما سمعت. أما النُّطق فلا يشك المرء في حديث نفسه أو نُطقه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ملك الأرحام الموكل بالأجنة ونفخ الروح فيها: (ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتِبَ رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ، أَوْ سَعِيدٌ) [صحيح مسلم]. وفي الحديث الآخر: (لو أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ الْمَوْتِ، لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ) [أبو نُعَيْمٍ فِي الْحَلِيَّةِ - وَالْأَلْبَانِي فِي السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ].

فالرزق: ينبغي أن يكون يقيننا فيه يقيناً راسخاً كالجبال؛ فهو مضمون مكتوب محفوظ لا خوف عليه ولا حزن؛ وما علينا إلا أن نأخذ بأسباب السعي في تحصيله، وأن نرضي بما معنا من النعيم فقد يكون الإنسان معدوداً من الأغنياء ولسان حاله ومقاله أنه مع الفقراء بله المساكين.. ثم إلى موضوعنا.

فعلى كلِّ حالٍ: الأسباب التي جعلها الشارع وسيلة لزيادة الأرزاق؛ موجودة في الكتاب والسنة ودونك هي:

1. **الاستقامة.** هي لزوم الصراط المستقيم الذي ندعوا الله تعالى بالهداية إليه في كل ركعة من ركعات صلواتنا؛ فنقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة] ومن لزم هذا الصراط وسار عليه دون ميل أو

حيف أو جور كان في رغد من العيش وفي سعة من الرزق؛ فقد قال جلّ ثناؤه: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن] ويكون هذا نظير قول الله عز وجل عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة]. فعلينا بلزوم الاستقامة كما أمرنا الله عز وجل إذا أردنا سعة العيش وبركة الرزق.

2. **التقوى.** لا تبتعد التقوى كثيرا عن المعنى الذي سبق بيانه في معنى الاستقامة؛ إلا أنها تظهر بوضوح في جانب الوقاية من المعاصي والشبهات والشهوات، فالتقوى من الوقاية فينبغي أن يجعل العبد بينه وبين المعصية حواجز تحجزه عن الوقوع فيها. وإذا ما كان الأمر كذلك فإن الجزاء يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] فالله تبارك وتعالى يجعل لكل من اتقاه مخرجًا من كل ضيق، ويبسر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسابه. وفي هذا المعنى أيضا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف] فبركات السماء والأرض مرهونة بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته.

3. **الشكر.** وهنا لابد من وقفة مع هؤلاء الذين يعدّون نعم الله تعالى عليهم قليلة؛ إذ كيف يشكر الإنسان نعمة يراها قليلة؟ ومن لا يرضى بالقليل لن يشكره؛ فمن لا يرضى بصحته ولا بأولاده ولا بزوجته ولا بعمله ولا بلباسه ولا بمطعمه ولا بمسكنه ولا بمركبه ولا برزقه.. فكيف يشكر ربه على هذه النعم. وهو بذلك قد أغلق على نفسه باب الزيادة الذي هو مقرون بشكر النعم فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم] وحقيقة الشكر كما قال القرطبي: «الإِعْتِرَافُ بِالنِّعْمَةِ لِلْمُنْعِمِ. وَالْأَلَّا يَصْرِفَهَا فِي غَيْرِ طَاعَتِهِ». ومما يؤدي إلى شكر النعم هذه الوصية التي قلّ من الناس من يتقن لها: (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ

إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ] وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ]. فَهَذِهِ النُّظْرَةُ - أَعْنِي النُّظْرَةَ الْمَادِيَّةَ الَّتِي تَسْتَقِلُّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهَا - لَا تَعْرِفُ طَرِيقًا لِلشُّكْرِ وَلَا تَعْتَرِفُ بِنِعْمَةِ أَصْلًا؛ بَلْ وَتَحْتَقِرُهَا!.

4. **التَّوَكُّلُ.** الَّذِي هُوَ قَطْعُ الْقَلْبِ عَنِ الْخَلْقِ مَعَ اشْتِغَالِ الْجَوَارِحِ بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ؛ مَنْ حَقَّقَهُ حَقَّ التَّحْقِيقِ كَانَ فِي كِفَايَةِ مَنْ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَنْ يَنْزَعَجَ بِقِلَّةِ رِزْقٍ - وَلَنْ يَعْذَّه قَلِيلًا - وَلَنْ يُلْهِيه عَنِ طَاعَةِ رَبِّهِ إِذَا كَانَ كَثِيرًا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَوْ أَنْكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) [سَنَنُ التِّرْمِذِيِّ]. فَهَذَا حَالُ الطَّيْرِ فِي أَوْ كَارِهَا وَفِي أَعْشَاشِهَا؛ لَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَرْحَلَ مُغَادِرَةً مَكَانَهَا سَائِلَةً رَبِّهَا بِلِسَانِ حَالِهَا الرِّزْقِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا فَتَعُودُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي مَخْصَصَةٍ مِنَ الْجُوعِ بِطَانًا.

5. **الدُّعَاءُ.** مِنْ أَقْوَى أَسَالِيبِ اسْتِجْلَابِ الْأَرْزَاقِ؛ فَقَدْ جَاءَ عَنِ نَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ط وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الْمَائِدَةُ]، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يَسْلُمُ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مَتَّقِبًا) [سَنَنُ ابْنِ مَاجَةَ]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعَمْتُكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسَكْتُكُمْ) [صَحِيحُ مُسْلِمٍ] وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نَسْأَلَهُ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَقَدْ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النِّسَاءُ]. وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى) [صَحِيحُ مُسْلِمٍ] وَأَيْمًا كَانَ الْغِنَى فِي الْحَدِيثِ؛ سِوَاءَ كَانَ (غِنَى النَّفْسِ أَوْ غِنَى الْعَرَضِ) فِيهِ يَرْفَعُ الْمَرْءُ عَنْ نَفْسِهِ ذَلَّ الْمَسْأَلَةِ.

6. **برُّ الوالدين وصلة الأرحام.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) [صحيح البخاري ومسلم]؛ وصلة الرحم هي: «فعلُك مع قريبك ما تُعدُّ به واصلاً؛ مأمور بها ... وتحصل بالمال وقضاء الحوائج والزيارة والمكاتبة والمراسلة بالسلام ونحو ذلك». "قاله الخطيب الشربيني في الإقناع". فليست صلة الرحم من الأمور التي يتكلف المرء لأجلها - حتى وإن تكلف فله أجر أخروي وديني - وإنما تحصل بكل يجعل المرء واصلاً لرحمه حتى ولو كان سلاماً ترسله!.

7. **الصدقات والإنفاق في سبيل الله.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق] فمن ضيق عليه في الرزق فلينفق!! فالجزاء بعد العسر يسراً. وكذلك جاء في القرآن الكريم علاج لضيق الرزق وذكر لأسبابه في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿١٠﴾ [الفجر] فهذه الأمور هي التي تسببت في ضيق رزقه وإهانته؛ فعلى مَنْ أراد سعة الرزق والإكرام عند الله تعالى (أن يكرم اليتيم، وأن يحض على طعام المسكين، وأن لا يأكل الميراث، وأن لا يحب المال محبة تُسيء حقوق الله تعالى في أمواله). وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحُلُقُومَ، قلتَ لِفُلَانٍ كَذَا، ولفُلَانٍ كَذَا وقد كان لِفُلَانٍ). [صحيح البخاري].

8. **الاستغفار والتوبة.** فالاستغفار والتوبة من السبل التي يُستمر بها الرزق ويُبارك فيه بسببهما؛ وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على ذلك فقد قال جل ثناؤه في قصة نبيه هود عليه السلام وقوله لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود]، وقال تعالى في

قصة قوم نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾﴾ [نوح]. ومن الدلائل الواضحة على هذا المعنى ما جاء في قوله جل ذكره قال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة] فإذا حث الشيطان على الفقر وخوفنا منه وأمرنا بالبخل وأمرنا بالمعاصي فالله تعالى وعدنا مغفرة منه - والاستغفار من وسائلها - وفضلاً لأنه تعالى واسع الفضل والعطاء. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بينهما في يومه وليلته مرّات كثيرة فقد صحّ عنه: (وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) [صحيح البخاري] وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِئَةَ مَرَّةٍ "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [سنن أبي داود وغيره]. فينبغي على المسلم أن يكون دوماً في لهج بهذين الأمرين (التوبة والاستغفار).

9. الزواج لأجل العفاف. فالله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور] وقد جاء عن جمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ كأبي بكر وعمر وعبد الله بن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم أن الغنى في هذه الآية مرتبط بالزواج. حتى روي عن عمر رضي الله عنه قوله: (ما رأيت أعجز ممّن لم يلتمس الغناء في الباءة، يعني: النساء) وقال ابن الجوزي في زاد المسير: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ النِّكَاحَ سَبَبٌ لِنَفْيِ الْفَقْرِ».

10. الاستغناء بالله عز وجل. فقد صحّ: (أَنْ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، قَالَ: مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ، فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ، وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ) [صحيح مسلم]. ومعنى

يستعفف: يطلب العفة، وكذلك يطلب الغنى من الله عز وجل، وكذلك يطلب الصبر فإن الله عز وجل يُعطيهِ هذه الأمور التي هي ظاهر حاله وإن كان باطنه على خلاف ظاهره. ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ [البقرة]. ولكن حاله كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم: (لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ: الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ) [صحيح البخاري]. فهذا المسكين الذي لا يجد الغني الذي يُغنيه ولا يُفطن له ولا يسأل الناس فذلُّ المسألة على النفوس العزيزة أشقُّ من حمل الجبال؛ وتحمل الفقر أهون عليها منه. هذا قد استغنى بالله تعالى ولن يُضيعه الله تعالى.

هذه بعض الأسباب التي قد جاء الشرع الشريف بأنها أبواب يأتي من خلالها رزق الله تعالى والبركة فيه. فحريٌّ بالمسلم أن لا يُغلق على نفسه باباً منها. والحمد لله رب العالمين

مختاراتٌ ومُلَحٌ

موازنة .. بين الدنيا والآخرة

العناصر:

مقدمة وتمهيد.

أولاً: نصوص في الموازنة.

ثانياً: أمثال للدنيا والآخرة.

ثالثاً: الآخرة خير وأبقى.

(الموضوع)

الدور التي يمرُّ بها العبد في حياته ثلاثة؛ هي: (الحياة الدنيوية، والحياة البرزخية، والحياة الآخروية)، ولكل واحدة من هذه الدور طبيعة تخصُّها، وينبغي على العبد أن يتعرف على كلٍّ منها حتى يعمل لكل واحدة بما يُناسب طبيعتها؛ ومما لا شك فيه عند المؤمنين أن المستقرَّ الأخير هو الدار الآخروية، ومع ذلك قلَّ من الناس من هذا مُستقرِّ عنده في عقيدته ووجدانه، فتراهم يُقدِّمون ما حقُّه التأخير أو يؤخرون ما حقُّه التقديم فينشغلون بالدنيا عن الآخرة، يقدمون الفاني على الباقي. وفي هذا الموضوع أذكر موازنةً بين الدارين لعلَّها أن تفي بالمقصود؛ وأن تُذكِّر بما انعقد عليه الإيمان في القلوب.

أولاً: نصوص في الموازنة.

جاءت النصوص في كتاب الله تعالى توضِّح أمر الدارين في موازنة أو مقارنة أو مقابلة حتى يتخير الإنسان شيئاً من شيئين مائلين أمام عينيَّه، فليست هناك إحالة على موطن آخر في سورة أخرى من سور القرآن؛ وإنما جاء النصُّ حاملاً للصورتين معا في آنٍ واحد.. وهاك بعض النصوص.

قال الله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ٥٤﴾ قُلْ أُوْنِبُّكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٥﴾ [آل عمران]. فهذه هي الدنيا بشهواتها وهذا هو المآب الحسن بل الأحسن عند الله تعالى في جنّات النعيم.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة]. فهذا الذي رضيتم به من الدنيا وكان سببا في تفاقلكم وعدم التفور والخروج في سبيل الله تعالى هذا المتاع الفاني في الآخرة قليل لا وزن له.

وقال جل ذكره: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت]؛ فدارٌ هي لهو ولعب ولم يأت اللعِبُ في القرآن إلا مذموما؛ فليست للحقيقة والجد والاجتهاد منزلاً وإنما كانت الآخرة هي الدار الباقية الحقيقية (لهي الحيوان: الحياة الدائمة الكاملة والحيوان هنا صيغة مصدر).

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد]. وقال أيضا: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ٣٨﴾ يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ [الزخرف] فمن لطف الله تعالى بعباده أن لم يجعل بيوت الكافرين بهذه الحال حتى لا يغتر ضعاف الإيمان بهم فيكفرون كما كفروا فيكونوا أمة في الكفر سواء فالدنيا عند الله تعالى لا تُساوي جناح بعوضة وأما الآخرة فهي عند ربك للمتقين.

ثانياً: أمثال للدنيا والآخرة.

وهذه الأمثال لتقريب المعاني الإيمانية إلى الأذهان، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد] وقد وُصفت الدنيا في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بأنها متاع؛ والمتاع هو: «كل شيء يُنْتَفَع به وَيُتَبَلَّغ به والفناء يأتي عليه» ومنه سُمي زواج المتعة ومنه التمتع بين أعمال الحج والعمرة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۖ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ۚ﴾ [الشعراء]، فإذا كان طبيعة المتاع أن الفناء يأتي عليه؛ فكيف إذا أضفنا إلى هذه الطبيعة الأوصاف التي وصف الله تعالى بها متاع الدنيا: (حين) (قليل) (الغرور).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتُهُ، فَمَرَّ بِجَدِي أَسْكَ مَيْتٍ، فَتَنَّاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدْرُهُمْ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟! قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسْكَ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيْتٌ؟! فَقَالَ: قَوْلَ اللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ. [وفي رواية]: فلو كان حياً كان هذا السكك به عيباً) [أخرجه مسلم].

وقال عليه الصلاة والسلام: (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ) [أخرجه مسلم]. وعنده أيضاً: (ما مثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ)، وعن عبد الله

بن مسعود: (نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصيرٍ فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً فقال ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ، ثم راح وتركها) [أخرجه الترمذي].

ثالثاً: الآخرة خيرٌ وأبقى.

قال الله تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى] وقال: ﴿قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء] وقا أيضاً: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام]. وقال كذلك: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَعِمَّ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل] وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل] وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل] وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى] ولذلك لما خيره ربه اختار ما عنده؛ فعن أبي سعيد الخدري: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فدنياك بآبائنا وأمّهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ؛ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فدنياك بآبائنا وأمّهاتنا! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من آمن الناس عليّ في صحبتي وماله أبا بكرٍ، ولو كنتُ متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذتُ أبا بكرٍ، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكرٍ) [أخرجه البخاري]؛ وقال كذلك وهو على فراش الموت: (عن عائشة، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما أسمعُه يقول: إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره، قالت: فلما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمةٍ سمعناها منه وهو يقول: بل الرفيق الأعلى

مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَتْ: قُلْتُ: إِذَنْ - وَاللَّهِ - لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الَّذِي كَانَ يَقُولُ لَنَا: إِنَّ نَبِيًّا لَا يُقْبَضُ حَتَّى يُخَيَّرَهُ) [البخاري وأحمد واللفظ له].

وانظر كذلك إلى هذه الخيرية التي غفل عنه الكثير في تلك النصوص النبوية؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (لِرَوْحَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ غَدَوَةٍ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطُهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاعَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) [أخرجه البخاري]، وقال أيضا: (رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) [أخرجه مسلم].

وقال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [١٦] أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص].

وإذا كانت الآخرة خيرٌ وأبقى فأياك ثم إياك أن يصدك عنها صاداً، أو يصرفك عنها وعن العمل لها صارفاً؛ فلقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [١٦] إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ [١٥] فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ [طه]. فالذي لا يؤمن بها لا شك أنه لن يتخلق بخلق أهلها ولن يعمل بعملهم كذلك؛ وسيسعى في صددهم عنها؛ بتحريف عقائدهم وزعزعة إيمانهم، وتشويه عباداتهم، واستجلاب الشياطين عليهم.

وإذا كانت الآخرة خيراً فاجهد نفسك لها فلقد قال جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [٦] فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة] وتخيل نفسك في هذا اليوم بعد عمالك الصالح وأنت تقول: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ [١٩] إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ [٢٠] فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ [٢١] فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [٢٢] قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ [٢٣] كُلُوا وَشَرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ جعلني الله وإياكم من أهلها ... آمين. (والحمد لله رب العالمين)

ماذا قَدَّمنا لديننا؟

(من دروس الهجرة)

العناصر:

الأول: أهمية الدين في نفوسنا.

الثاني: ولنا في النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم المثل والأسوة.

الثالث: واقع نَحْيَاه!.

الرابع: وسائل نخدم بها ديننا.

الموضوع

مما لا شك فيه: أن الناس في هذه الحياة يعملون وأعمالهم مُختلفة. فأعمالهم وأقوالهم بل ووجهتهم كذلك؛ تختلف بحسب اختلاف ما في قلوبهم ونفوسهم وعقولهم. فمن عاملٍ للدنيا ليَّله نهاره، أو عاملٍ للآخرة جاهدًا ومجاهدًا ومُشمرًا فلا تغيب عن ذهنه أو فكره طرفة عينٍ فأصبحت في نومه وبقظته وحياته ومماته ..، وكذلك مَنْ يعمل في حياته لدينه ودُنْيَاه خلط بينهما؛ فكانت حياته لِمَنْ غلب عليها من دينه أو دنياه.

وقد أقسم الله تعالى على ذلك؛ فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل] وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۚ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ فأعمال الناس مُختلفة: في الخير والشر، في الصلاح والفساد، في مُوجبها من الجنان أو النيران.

والسعيد كل السعادة مَنْ جعل همَّه وفكره وخاطرَه وشُغلَه الشاغل لدينه وآخرته؛ ففي ذلك الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، إذ فيه كفاية أمر الدنيا وفيه كذلك الفوز في الآخرة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان همُّه الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فَرَّقَ الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له) [أخرجه أحمد في مسنده].

وفي هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم؛ أكبر دليل على عِظَم ما قَدَّموه لأجل دينهم وآخرتهم، وما ذاك إلا لأهميَّة الدين وعظيم مكانته في نفوسهم.

وكيف لا يكون الدين كذلك في نفوسهم؟!! وقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]، وكذلك سيُسأل الإنسان في قبره؛ عن ربه ودينه ونبيه؛ ففي الحديث: (.. فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: رَبِّي الله. فيقولان: وما دينُكَ؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجلُ الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ) [سنن أبي داود].

وكيف لا يكون أمر الدين كذلك؟ وقد حكم الله تعالى على الذين لم يهاجروا مُستمسكين ببلدتهم - التي هي مكة!! - بأنهم ظالموا أنفسهم؛ وكان لهم عذابا أليماً! فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّعُوا الْمَلَأِيكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء].

وفي حادث الهجرة أكبر دليل على علو ومكانة الدين في نفوس الصحابة؛ فقد هاجروا تاركين وراءهم كل شيء يكون سببا في إعاقة تمسكهم بالدين، فتركوا الأموال والديار والأهل والأولاد، تركوا جميع محبوباتهم وما ألفوه؛ إثارا لدينهم على دنياهم. فلم يخرجوا وراء الأموال ولا الناء ولا الرياسات والا ولا .. وإنما خرجوا لدينهم فقط.

فانظر إلى هذه الأخبار التي نعلم منها؛ حال الصحابة مع دينهم ومكانته في نفوسهم من خلال هذا الحادث العظيم؛ حادث الهجرة.

• أبو بكر رضي الله تعالى عنه: هذا الصحابي الجليل الذي صرح الله تعالى في القرآن الكريم بصحبته في حادث الهجرة؛ فقال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة]؛ هذا الرجل الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم عندما غضب على من أغضبه: (.. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا) [صحيح البخاري، والحديث له قصة ماثلة!!]. فأبو بكر رضي الله عنه له منزلة عالية في الإسلام، وكذلك لم يقتصر دوره في الهجرة على نفسه وماله فحسب؛ بل وأهله كذلك ومواليه.

• أمّا هو رضي الله عنه: فكان له دور بماله؛ وصحبته ورُفْقته فقد جهز راحلتين لهذه الرحلة المباركة عندما حبس نفسه رجاء الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطاه ثمنها؛ فقد قال له كما في الرواية: (فَإِنِّي قَدْ أُدِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ" قَالَ: فَالْصُّحْبَةُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بِالْثَّمَنِ").

• وابنه عبد الله رضي الله عنه: فكان دوره من الأهمية بمكان إذ كان: (وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ لَقِنٌ نَقِيفٌ، فَيَرْحَلُ مِنْ عِنْدِهِمَا سَحَرًا، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ)؛ فكان عيناً للنبي صلى الله عليه وسلم على قريش ينظر أخبارها وينقلها إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

• وابنتاه؛ أسماء وعائشة رضي الله عنهما: وكان من دورهما رضي الله عنهما: (فَجَهَّزَتْاهُمَا أَحْتَّ الْجِهَازِ، وَضَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَأَوْكَاتَ بِهِ الْجِرَابَ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ تُسَمَّى ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ) فقد جهزا راحلتي الهجرة، وكذلك ما

كان من أمر هذا اللقب الشريف المنيف: (ذات النطاقين). وأضف إلى ذلك؛ أنه: «لمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لكمة طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا..»

• ومولاه عامر بن فهيره رضي الله عنه: فكان يُشارك في تقديم الطعام لهما وهما في الغار؛ وكان يُعَمِّي بأغنامه أثر الأقدام حول الغار؛ فقد جاءت الرواية؛ أنه: (أمره أبو بكر أن يروح بغنم أبي بكر عليهما، وكان يرعاها، فكان عامر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلباها، وإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعقّي عليه).

• صهيب الرومي رضي الله عنه: ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره أنه؛ قد جاء عن «ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فعل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فللقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب» والآية هي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة]

• أم سلمة رضي الله عنها: هذه المرأة الجليلة التي ضربت أروع الأمثلة في الصبر والتضحية لأجل دينها؛ - فكما تقول الروايات - عزم زوجها على الهجرة وهي معه، فرآها قومها فأخذوها منه؛ وغضب قومها هم الآخرون وتنازعوا الولد بينهما حتى خلعوا يده!. وقالوا: (هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه عند ذلك غضب بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، وقالوا: والله عندها إذ

نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى **خلعوا يده**، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق أبو سلمة إلى المدينة) وظلت تبكي سنةً لأجل ذلك حتى رحموها وهاجرت هي وولدها بعد ذلك إلى المدينة في **صُحبة عثمان بن أبي طلحة** - ولم يكن قد أسلم ساعتها؛ وإنما تأخر إسلامه إلى ما قبل الفتح هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهم جميعاً.

• **عياش بن ربيعة وهشام بن العاص وغيرهما رضي الله عنهم**: فقد قامت قريش بمنعهم من الهجرة وحبستهم - ويُقال أنهم محبوسون في بيت لا سقف له زيادة في عذابهم - وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم؛ يقنت لأجلهم في صلاته؛ فيقول: (اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ) [صحيح البخاري].

فانظر إلى هذه النماذج وما قدّموه خدمةً لدينهم؛ فليس عندهم شيءٌ يؤثرونه عليه؛ بل الأنفس والأولاد والأموال، والموالي، والحبس والتعذيب بشتى أنواعه وصوره كلُّ هذا؛ لا يساوي عندهم شيئاً في ذات الله تعالى. ولأنهم كذلك ما تحركوا إلا ابتغاء مرضات الله تعالى وما تركوا هذه الملاذ إلا حسبة الله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات]؛ فالذي حرّكهم، وحرّره من عبودية المال والأرض، وخلّص قلوبهم من عبودية محبة الأولاد والزوجات والشهوات؛ إنما هو الله عز وجل. (ابتغاء مرضاته ونصر له سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم).

وإذا ما تركنا حياض هذا الحادث - حادث الهجرة - وتلمّسنا مقدار ما قدّمه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم لدينهم في النواحي الأخرى لوجدنا عجباً عجيباً؛ ففي **الجهاد** ونشر الإسلام قدموا أرواحهم وأموالهم وأبناءهم لله تعالى طيبةً بذلك نفوسهم، وفي **نشر العلم** أو الدعوة أو التحرك والعمل لخدمة الإسلام والمسلمين بين العرب وغيرهم كذلك؛ فقد ذهبوا إلى جميع

أقطار الأرض قريبة كانت؛ كـ(اليمن العراق والشام ومصر ...) أو بعيدة؛ كـ (إيران وأفغانستان وما حواليهما؛ بل وإلى حدود الصين). كل هذا خدمة لدينهم.

وإذا ما نظرنا إلى مجال الإنفاق في سبيل الله عز وجل لوجدت ما يعجز المرء عن وصفه وبيانه؛ إذ كان إنفاقهم للأحياء ولمن يأتي بعدهم كذلك وانظر لذلك - إن شئت - إلى مجال الأوقاف والصدقات الجاريات، وهذا من فرائد النظام الإسلامي⁽¹⁾.

الثالث: واقع نحياء...!

هل الواقع الذي نحياء .. يُنبئ عن أهمية الدين في نفوسنا أم لا؟
إن النظرة العجلى .. تدلنا دلالة واضحة على عدم اهتمام الكثيرين بأمر دينهم؛ فالكثيرون - إلا من رحم الله تعالى وعصم - يُقدّمون محبة الأولاد والزوجات، والأموال والتجارات، على أمر دينهم، بل إن أحدهم لا يستطيع أن يُعرض نفسه لأدنى نوع من أنواع التكاليف الشاقة - والتي هي من الوُسع - محبة للراحة أو محبة للمال أو بخلاً به؛ فلا يصوم ولا يحج ولا يُزكي ولا يُجاهد، بل ولا يُكفون أنفسهم الاستيقاظ للفجر حتى يُدركوه جماعة!.

بل وكثيرون هم الذين لا يفتنعون من أوقات فراغهم - على كثرتها - وقتاً يتعلمون فيه ما يُصلح عبادتهم: كتعلم الفاتحة أو شيئاً من أحكام الصلاة أو الزكاة أو الأسرة! فيظنون في عبادتهم على دين آبائهم تقليداً لهم فحسب!.

بل لا أكون مبالغاً؛ إذا ما قُلت إن كثيرا من المسلمين بأخلاقه ومعاملاته أصبح عبئاً على إخوانه؛ فأصبح صاداً للناس عن دين الإسلام؛ فهذا لم يُقدّم له بل أصبح ساعياً بمعاول الهدم في بُنيانه؛! حتى إن: «كاتبة يهودية يمنية تستنكر على المسلمين دعوتهم لغيرهم للدخول في الإسلام، معللة ذلك بأن المسلمين اليوم ليس لهم ما يقدمونه للعالم حتى يقبلوا بالدخول في دينهم؛ فهم يسفكون دماء بعضهم البعض بلا رحمة، وقد تفرّقوا طرائق قِدداً، كلٌّ منهم يكفر الآخر، وكلُّ فرقة تدّعي لنفسها النجاة وتحكّم على الأخرى بدخول النار، فمن يرغب في الدخول للإسلام سيحتار من

(1) انظر في ذلك كتاب: (ماذا قدم المسلمون للعالم؟). د/ راغب السرجاني.

مِنَ الفرق سيختار، كما أن العالم الإسلامي يعيش حالةً من انعدام الأخلاق، وسيادة الظلم والاستبداد، وغلبة كل قيم الغش والفساد واللامبالاة بالمصالح العامة، وهذه أسبابٌ كافية لجعل الآخر ينفِرُ منهم ومن دينهم، واستطردت قائلة بأن الخلل ليس في الدين، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان له جارٌ يهوديٌّ أسلم بفضل أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل أن يقرأ القرآن أو يطلع عليه»

الرابع: وسائل نخدم بها ديننا.

قبل أن نتكلم عن شيءٍ من هذه الوسائل؛ ينبغي التنبيه أولاً إلى أمرٍ هو من الأسس التي ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا؛ وهو: هذه الخدمة إنما هي لنا، لأنفسنا، لنجاتنا، لفلاحنا؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت] وكذلك قال الله تعالى في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً) [صحيح مسلم]. فنحن نُجاهد لأنفسنا، نسعى في فكاكها، (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعَ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) [صحيح مسلم] ولو كان كلُّ الإنس والجن أنقياء لما زاد ذلك في ملك الله شيئاً ولو كانوا على عكس ذلك ما نقص ملكه سبحانه وتعالى.

من هذه الوسائل التي نخدم بها ديننا (أنفسنا):

1 - لزوم طريقته واتباع أمره: على المرء أن يعيش بالإسلام وعلى الإسلام وللإسلام؛ فينظر في طريقته ومنهجه وشريعته. فيكون عباداته كما أمره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومجتنباً نواهيه كذلك: فيكون في المكان الذي أمره الله أن يكون فيه ولا يكون في المكان الذي أمره أن لا يكون فيه؛ فإذا ما تكلم أو تعامل أو باع أو اشترى أو وعد أو عاهد أو سافر أو حل في مكان أو بنى بيتاً أو هدم آخر أو تعلم علماً أو نكح امرأة أو طلق أخرى أو .. كل هذا ينبغي أن يُحرَّكه في الإسلام لا غيره. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام]، وما أصدق وصف

عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قالت عندما سألها سعد بن هشام بن عامر قائلاً: (يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ). [صحيح مسلم].

2 - لا يوت الإسلام من قبلك: اجعل الإسلام في ذهنك أو اعتقادك كأنه بستان كبير له أبواب بعدد أفرادها وأنت واحد منهم؛ وعلى كل باب من هذه الأبواب حارسٌ يحرس هذا الدين من عدوٍ يترصص به الدوائر. فإياك ثم إياك أن يدخل العدو إلى هذا البستان من بابك الذي تحرسه. فاجعل بيتك وأولادك (البنين والبنات) وأسرتك كلها، ووظيفتك، وعملك، وحقاك ومصنعك وأرضك وأموالك وكل شيء تحت يدك؛ في رعايتك وتحت مراقبتك فلا يدخل العدو منها إلى الإسلام؛ فإياك أن تخون في هذه الأمور الأمانة التي ائتمنتك الله عليها. فأحسن تربية الأولاد، وأد حق الله في عملك، .. وإلا فأنت تفتح للشيطان باباً إلى الإسلام يدخل إليه من خلاك. واعلم أنه: بمعصية بعض الأفراد في غزوة أحد كانت الهزيمة للمسلمين بعد النصر. وكان فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرة أصحابه أبو بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً!

3 - لا تحرم نفسك من الخير. فالله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج]؛ فالدال على الخير كفاعله. ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، وما نالت الأمة الإسلامية الخيرية على الأمم إلا بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر. فإن استطعت أن تشارك في الدعوة إلى الله بسنةٍ تنشرها أو بفضيلة تدعو إليها أو كلمة تلقوها أو مطوية تبثها، أو بمصحف تُعطيه طفلاً يتعلم فيه أو تُساهم في بناء مسجد أو مدرسة أو إطعام مسكين أو مداواة مريض أو كفالة أرملة.. المهم أن لا تحرم نفسك من عمل من أعمال الخير.. وإن عجزت عن شيء من ذلك فارفع يديك بالدعاء أن يقضي الله حوائج المحتاجين وأن يُفرج كرب المكروبين وأن ينصر المستضعفين المجاهدين في كل مكان يُحارب فيه هذا الدين؛ وليكن في ذلك حالك كحال النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعا للمستضعفين المحبوسين بمكة (وقد سبق خبرهم) والحمد لله رب العالمين.

الدعاء

العناصر:

مقدمة في تنوع العبادات.

أولاً: أهمية الدعاء ومركزيته في حياة المسلم.

ثانياً: الدعاء.. آداب وأوقات.

ثالثاً: لماذا ندعوا.. فلا يُستجاب لنا؟.

رابعاً: صور من أدعية الأنبياء.

الموضوع

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة والبراءة مما يُنافي ذلك ويُضاده.

ولذلك تعددت العبادات وتنوعت؛ فهناك عبادات تعلقت بالقلوب، وأخرى باللسان، وأخرى بالأبدان، وأخرى بالأموال، .. ومن أجل أنواع العبادة: (عبادة الدعاء).

قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ [مريم] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ) ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾ [أخرجه أبو داود]. فواضح من الآيتين أن الدعاء هو العبادة، وأن من يستكبر عن عبادة ربه وهي هنا دعاؤه؛ سيكون من الداخلين جهنم، وكذلك من اعتزل قوما يدعون غير الله تعالى ستتوالى عليه الهبات والعطايا الربانية. ولذلك:

ثانياً: أهمية الدعاء ومركزيته في حياة المسلم.

المسلم لا يستغني عن دعاء الله تعالى طرفة عين؛ وذلك لأن كل معنى من معاني النقص؛ يتصف بها الإنسان، وكل معنى من معاني الكمال؛ بل غاية الكمالات يتصف الله تعالى بها. ولذلك ينبغي على المسلم أن يسأل الله تعالى في تكميل نقائصه؛ فالله تعالى هو الذي يملك الكمالات؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي: كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عبادي: كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ، يا عبادي: كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسَكُمْ، يا عبادي: إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ) [أخرجه مسلم]. وإن استكبر الإنسان واعتمد على عقه وإنسانيته التي هي محط النقص والعيور غضب الله تعالى عليه؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ) [أخرجه الترمذي]. والآية السابقة أدل وأصرح في العقاب.

وينبغي على المسلم أن يكون على علم بأن دعاءه مُستجابٌ وهذه الاستجابة تتعدد صورها: فقد قال عليه الصلاة والسلام: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها، قالوا: إذا نكثرت يا رسول الله! قال الله أكثر) [أحمد في مسنده]، وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: (إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين) [الترمذي في سننه]. وقال أيضاً: (ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء) [أخرجه الترمذي]. ولكن لابد للدعاء من آداب حتى يكون بالمحل الأرجى عند الله تعالى:

ثالثاً: الدعاء .. آداب وأوقات.

للدعاء آداب لابد من مراعاتها:

1 - **اليقين في قرب الله تعالى وكرمه وعطائه وجوده:** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه) [الترمذي في سننه]. وقال أيضاً: (إذا دعوتكم الله فاعزموا في الدعاء، ولا تقولن أحدكم إن شئت فأعطيني، فإن الله لا مستكبر له) [أخرجه البخاري]، وقال أيضاً: (لا تقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن

شِئْتُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتُ، لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ) (أخرجه البخاري) وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة].

2 - **عدم الاستعجال.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ) [أخرجه مسلم].

أخي: لا تتعجل .. فالله يحب أن يرى فقرك ومسكنتك وتضرعك ورغبتك وضعفك بين يديه.

3 - **الإلحاح على الله في الدعاء.** فكان من وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَكَانَ

إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ) [أخرجه مسلم].

وفي أحداث غزوة بدر: (فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِرْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا نَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ) [أخرجه مسلم].

4 - ومن آداب الدعاء ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف]. (إخفاء الدعاء، التضرع والمسكنة والتذلل والانكسار بين يدي الله عز وجل، عدم الاعتداء في الدعاء، رحمة الله قريب من المحسنين.. فلا بد من الإحسان؛ إذ الإحسان جزاؤه الإحسان)؛ فقد جمعت الآية أنواعاً من الآداب ينبغي مراعاتها. ودعاء زكريا عليه السلام في مطلع سورة مريم فيه نماذج من هذه الآداب وتطبيقها.

وللدعاء أوقات: فعلى العبد أن يتحررها حتى يستجيب الله تعالى دعاءه؛ ومنها: (الثالث

الأخير من الليل، والساعة التي في يوم الجمعة، وعند الفطر من الصيام، وبين الأذان والإقامة، وفي السجود بين يدي ربك ومولاك، وعند المطر، وبعد التشهد دُبر الصلوات، ويوم عرفة، والعشر الأول

من ذي الحجة، والليالي العشر الأخيرة من رمضان.. وغيرها) فهذه الأوقات جاء النصوص مُصرّحة بأفضيلتها على غيرها.

رابعاً: لماذا ندعوا فلا يُستجاب لنا؟.

لأن كثيراً من المسلمين اقتصر دعاؤه على تحريك الألسن والشفاه؛ وغفل عن أمرين هما المؤثران بعد الله تعالى في استجابة الدعاء؛ وهما:

الأول: طيبُ المطعم والمشرب والملبس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: 51]، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبَّ، يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!} [أخرجه مسلم].

والثاني: فعلُ العبادات (البدنية والقلبية والمالية ... وغيرها).

قال الله تعالى بعد أن ذكر بعض الأدعية التي قالها الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران] فلا بد من العمل؛ وإلا كيف يستجيب الله تعالى دعاء عبده لا يُصل ولا يصوم ولا يحج ولا يفعل من العبادات إلا ما اضطر إليه.. كيف؟! وإن حدث فهو استدراج من الله تعالى للعاصي.

فلا بد من هذين الأمرين معاً .. وإلا فكيف نرجوا عطاءً ولم نُقدِّم له سبباً.

خامساً: نماذج من أدعية الأنبياء.

- نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ [القمر].

- إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ

الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم].

- يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء] فليست له خالصة وإنما للمؤمنين كذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له) [أخرجه الترمذي].

- زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَرَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ الْيَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء]؛ مع قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَنِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ [مريم] سبحان الله .. لم يمنعه: كبر السن، وهن العظم، وعقر زوجته؛ عن دعاء ربه أن يهبه ولياً؛ فأصلح الله له وزوجه وورثه الولد فكان يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ وما أكثر الدعاء في حياته صلى الله عليه وسلم: فمن دعائه: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) و(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت). وكذلك أدعيته صلى الله عليه وسلم في الصباح والمساء والليل والنهار والصلوات والحج والعمرة والصيام في سائر أحواله عليه الصلاة والسلام؛ خير دعاء وأجمعه للخير.

والحمد لله رب العالمين .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾

العناصر:

المقدمة.

أولاً: ما ورد في الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الفوائد والثمرات

ثالثاً: مواطن يُصلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(الموضوع)

رُدُّ الجميل وحِفظ المعروف من أخلاق الكرام، وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم ما يشفي في ذلك ويكفي. وكذلك المُجازاة بالإحسان من سيما أهل الإسلام والإيمان.

فكيف يكون الشأن إذا ما تعلّق الجميل أو الإحسان برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ الذي ما عرّفنا طريق الخير ولا اجتنبنا طريق الشرِّ إلا على يديه، والذي بسببه عرّفنا مرضي ربنا سبحانه وتعالى، وعرّفنا طريق الجنة، وعرّفنا ما ينفعنا في ديننا ودنيانا. فما أعظمه من مئة امتنَّ الله تعالى بها علينا. فقد قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران]. فلو لم يكن من مُجازاة إحسانه صلى الله عليه وسلم وحِفظ جميله إلا كثرة ذكره والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لكان هذا قليلاً. كيف وقد أفاء الله تعالى علينا بثمرات وعطايا وهبات ومنح تفضّل بها علينا سبحانه وتعالى عند ذكره صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه الكلمات سنُجلي ما يتعلق بهذا الموضوع من المعاني والمنازل والفوائد والثمرات؛ فأقول وبالله تعالى التوفيق:

في معنى الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم: معناها يا الله ولا تُستعمل إلا في الطلب؛ والميم في "اللهم": علماً على الجمع. أي أن العرب جعلت - مثلاً: أنت

(1) مُستفادة من (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام) لابن قيم الجوزية.

للمفرد؛ فإذا جاوزنا المفرد قلنا أنتم. و"هو" للمفرد؛ ثم هم للجمع .. وهكذا. ويكون المعنى إذا أُضيفت الميم إلى الاسم الأعظم في هذا السؤال؛ كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحُسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته. فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه وصفاته كلها. وقد قال الحسن البصري: "اللهم مجمع الدعاء" وقال غيره "مَنْ قال اللهم فقد دعا بجميع أسمائه. وأما الصلاة: فمعناها في اللغة: "الدعاء والتبريك والعبادة" وصلاةُ الله على رسوله: ثناءه عليه عند الملائكة". وأما معنى "محمد": فتسميته صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مُسمَّاه وهو الحمْدُ، فإنه صلى الله عليه وسلم محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمودٌ عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم؛ فإنَّ ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحودًا، أو عنادًا، أو جهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده بها؛ فإنه يُحمد من اتصف بصفات الكمال، ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له. وأما الآل. فمعناها: نفسه. وقيل: أهله وأقاربه، ويُقال: لمن اتبعه. والمقصود بهم في هذا الدعاء: الآل مَنْ تحرم عليهم الصدقة. وقد ورد ذكرهم في حديث الصحيح: (إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ) [صحيح مسلم].

المعنى والتوجيه والأفضلية في قوله "كما صليت على آل إبراهيم": آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي صلى الله عليه وسلم ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء حصل لآل النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ما يليق بهم، فإنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد صلى الله عليه وسلم، فيحصل له بذلك من المزية ما لم يحصل لغيره. فيبقى قسم النبي صلى الله عليه وسلم والزيادة المتوفرة التي لم يستحقها آله مختصة به صلى الله عليه وسلم، فيصير الحاصل له من مجموع ذلك أعظم وأفضل من الحاصل لإبراهيم، وهذا من أحسن ما قيل في توجيه ذلك.

أحسن منه أن يقال: محمد صلى الله عليه وسلم هو من آل إبراهيم، بل هو خير آل إبراهيم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ عَادَمَ وَنُوحًا وَعَآلَ

إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ [آل عمران: 33]، قال ابن عباس: محمد من آل إبراهيم صلى الله عليه وسلم. وهذا نص، فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم في آل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى، فيكون قولنا: "كما صليت على آل إبراهيم" متداولاً للصلاة عليه، وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم. ثم قد أمرنا الله أن نصلي عليه وعلى آل خصوصاً بقدر ما صلينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموماً، وهو فيهم، ويحصل لآله من ذلك ما يليق بهم، ويبقى الباقي كله له صلى الله عليه وسلم. فليس معنى التشبيه ب: كما صليت .. أن إبراهيم أفضل من محمد صلى الله عليهما وسلم.

أولاً: ما ورد في الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قد ورد في الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم نصوص كثيرة، وكلها يدل على مكانتها وعظيم قدرها في الإسلام. ومن ذلك:

1 - قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب] و: «وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِأَنَّهُ يُنْتَبِى عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ، لِيَجْتَمَعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا». وكذلك: «هَذِهِ الْآيَةُ شَرَّفَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيَاتِهِ وَمَوْتَهُ، وَذَكَرَ مَنْزِلَتَهُ مِنْهُ، وَطَهَّرَ بِهَا سُوءَ فِعْلٍ مَنِ اسْتَصَحَبَ فِي جِهَتِهِ فِكْرَةً سُوءٍ، أَوْ فِي أَمْرِ زَوْجَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتُهُ وَرِضْوَانُهُ، وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغْفَارُ، وَمِنَ الْأُمَمِ الدُّعَاءُ وَالتَّعْظِيمُ لِأَمْرِهِ .. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّاهَا هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ، وَسَائِرُ الْعِبَادَاتِ لَيْسَ كَذَلِكَ».

إذا فالله تعالى أمرنا بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فما هي كيفية هذه الصلاة؟ جاءت الإجابة في قول أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه: (أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى

أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ) [صحيح مسلم].

2 - ومما جاء في فضل الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقِيَ الْمُنْبَرَ، فَقَالَ: آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ، قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كُنْتَ تَصْنَعُ هَذَا؟! فَقَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيلُ: رَغِمَ أَنْفُ عَبْدٍ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ عَبْدٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ لَمْ يُعْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: آمِينَ) [البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند]. «والمُرَادُ: خَابَ وَخَسِرَ وَذَلَّ وَعَجَزَ وَلَصِقَ أَنْفُهُ بِالتُّرَابِ كُلُّ مَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ بِأَيِّ صِيغَةٍ مَأْثُورَةٍ».

3 - وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تَرَةٌ) [أحمد في مسنده وغيره]. وفي رواية صحيحة: (إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلثَّوَابِ) [عند ابن حبان وغيره] «ومعنى قوله: ترة: يعني حسرة وندامة». وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ، فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، وَصَلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَامُوا عَنْ أَتْنِ مِنْ جِيْفَةٍ) [صحيح الجامع للألباني].

4 - وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) [أبو داود في سننه وأحمد في مسنده].

5 - وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أُرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ) [أبو داود في سننه وأحمد في مسنده].

6 - وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ) [أخرجه النسائي سنن وأحمد في مسنده].

7 - وكذلك ما جاء أنه قد: (سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعُو في صلاته فلم يُصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم عَجَلَ هذا ثُمَّ دعاه فقال له أو لغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثُمَّ ليُصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ثُمَّ ليدعُ بعدُ بما شاء) [أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي].

ثانياً: الفوائد والثمرات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

يتحصل المرء على فوائد كثيرة وثمرات عظيمة بسبب صلاته وسلامه على النبي صلى

الله عليه وآله وسلم؛ ومنها:

- امتثاله أمر الله تعالى.

- صلاة الله تعالى على من يُصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أضعافاً مضاعفة.

وتكفير خطيئاته ورفعته درجاته. فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثُمَّ صلُّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثُمَّ سلُّوا اللهَ لي الوسيلةَ، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) [صحيح مسلم] وعند النسائي: (من صلى عليّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه عشر صلوات، وحُطَّت عنه عشر خطيئات، ورُفِعَتْ له عشر درجات) [سنن النسائي]. «وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل، فصلاة الله تعالى على المصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم جزاءً لصلاته هو عليه، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست هي رحمة من العبد لتكون صلاة الله تعالى عليه من جنسها، وإنما هي ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم وإرادة من الله تعالى أن يُعلي ذكره ويزيده تعظيماً وتشريفاً، والجزاء من جنس العمل، فمن أثنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم - جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه. فَصَحَّ ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له»

- الملائكة تُصَلِّي على مَنْ يُصَلِّي على النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (ما مِنْ مُسْلِمٍ يَصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ فَلْيُقَلِّ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ) [أخرجه ابن ماجة في سننه وأحمد في مسنده].

- كِفَايَةُ الْهَمِّ وَمَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ. فعن أبي بن كعب قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثُلُثَا اللَّيْلِ قام فقال يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جاء الموتُ بما فيه جاء الموتُ بما فيه، قال أُبَيٌّ: قُلْتُ يا رسولَ الله إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ. فكم أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فقال ما شِئْتَ قال قُلْتُ الرَّبْع؟ قال ما شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فهو خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ النِّصْفَ قال ما شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فهو خَيْرٌ لَكَ قال قُلْتُ فَالثَّلَاثِينَ قال ما شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فهو خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قال: إِذَا تُكْفِيَ هَمَّكَ وَيَغْفِرَ لَكَ ذَنْبَكَ) [أخرجه الترمذي في سننه]. وفي رواية: (إِذَا يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ) [المعجم الكبير للطبراني].

- فِيهَا بَرَاءَةٌ مِنْ وَصْفِ الْبَخْلِ. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْبَخِيلَ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْده فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) [أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه].

- سَبَبُ لِسْفَاعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وذلك: إِذَا سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْوَسِيلَةَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ الْأَذَانِ.

- تَعَرُّضُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتِنَا عَلَيْهِ. - كما في حديث يوم الجمعة - وفي الحديث الآخر: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ) [ابن حبان في صحيحة].

وغيرها من الفوائد الكثير والكثير. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ثالثاً: مواظنُ وأوقاتُ يُصَلَّى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- خَلْفَ الْأَذَانِ لِلصَّلَاةِ. وقد سبق الحديث وفيه: ((إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ) [صحيح مسلم].

- **يوم الجمعة.** فقد قال أوس بن أوس الثقفي: (قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ؛ فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قالوا: وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ) [الحاكم في مُستدركه]. وقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يستحبون كثرة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة.

- **في الصلاة من أركانها.** وقد أجمع المسلمون على مشروعيتها فيها، واختلفوا في وجوبها هذا في التشهد الثاني. وأما التشهد الأول فهو على الاستحباب.

- **في دعاء الوتر.** كما في حديث عبد الرحمن بن عبد القاري؛ إذ يقول: (وَكَانُوا يَلْعَنُونَ الْكُفْرَةَ فِي النَّصْفِ: اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ وَيُكَذِّبُونَ رُسْلَكَ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِوَعْدِكَ، وَخَالَفَ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ رَجْزَكَ وَعَذَابَكَ، إِلَهَ الْحَقِّ، ثُمَّ يَصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَدْعُو لِلْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ خَيْرٍ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ..) [صحيح بن خزيمة].

- **في صلاة الجنازة.** عن أبي أمامة سهل بن حنيف قال: (السُّنَّةُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجِنَازَةِ أَنْ يُكَبَّرَ ثُمَّ يَقْرَأَ بِأَمِّ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يُخْلِصَ الدُّعَاءَ لِلْمَيِّتِ، وَلَا يَقْرَأَ إِلَّا فِي الْأُولَى) [البيهقي في السنن الكبرى].

- **في الخطب؛** كخطبة الجمعة والعيدين والاستسقاء والكسوف وغيرها. وقد اختلف في اشتراطها لصحة الخطبة.

- **حين يُصْبِحُ وحين يُمَسِي.** فقد قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِينَ يُصْبِحُ عَشْرًا، وَحِينَ يُمَسِي عَشْرًا أَدْرَكَتْهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [الجامع الصغير للسيوطي].

- **في الدعاء.** فيُصَلِّي على النبي صلى الله عليه وسلم في أول دعائه ووسطه وآخره. فهذا حريٌّ أن يستجيب الله تعالى دعاءه.

- عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم. كتابة أو قراءة أو وعظاً أو سماعاً، أو عند كتابة

أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

المساجد آداب وأحكام.

العناصر:

المقدمة.

أولاً: أهميتها في الإسلام.

ثانياً: من فضائلها.

ثالثاً: آداب وأحكام.

(الموضوع)

لم يكن اتفاقاً فعل النبي صلى الله عليه وسلم لبناء المسجد عندما قدم المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم -؛ فليس هذا اتفاقاً ولا صدفةً وإنما ليوضح لنا النبي عليه الصلاة والسلام أهمية المسجد في الإسلام، وكيف لا يكون كذلك وسوف تظهر أهميته وما ترتب عليه من أحكام. الأمر الذي جعله من أوائل الأعمال التي قام بها في المدينة؛ بل وقبل قدومه المدينة في طريقه إليها قد أسس مسجداً آخر وهو مسجد قُباء.

وهذه الأولوية التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم - أولية بناء المسجد في المجتمع المدني - لها دلالاتها في الإسلام؛ فلم تكن بمكة جُمع ولا جماعات، ولم تكن هناك أعياد للمسلمين يجتمعون فيها ولا جنازات ولم يكن فيها كذلك آذان يُرفع، كذلك ولا حلق للتعليم والتعلم .. بل كانت هناك الأمور على الخفاء قائمة، وأما عندما أسس المسجد فكان ما كان من شأن المسلمين وإظهار الشعائر التي لم يتمكنوا منها في مكة مما يدل على أهمية المسجد للجماعة المسلمة وعظيم شأنه. يدل كذلك على أهميته قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة]. فليس هناك أحدٌ أعظم ظلماً من الذين منعوا مساجد الله تعالى من أن تؤدى فيها الطاعات والقربات من الصلاة والمواعظ وقراءة القرآن وتعليم العلم النافع بل قاموا على تخريبها وهؤلاء لا يدخلونها إلا خائفين والجزاء من جنس عملهم؛ فكما أخافوا المؤمنين من دخولها ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب كذلك جزاءً وفاقاً؛ وهذا الخزي لهم في الدنيا مع العذاب الأخروي.

ومما يدل على أهميتها كذلك: أن الله تعالى جعلها محالاً لذكره سبحانه وتعالى؛ فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَ يُسَبِّحَ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور] فهذه البيوت يُرفع فيها ذكر الله تعالى بالصلاة والأذان وتلاوة القرآن وغير ذلك. وقد جعل الله تعالى المساجد له سبحانه؛ لذلك فلا يُدعى غيره فيها، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن].

ومما يدل على أهميتها كذلك: أن مُشركي مكة كانوا يفتخرون بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وكانوا كذلك يتكبرون به؛ فقد قال تعالى عنهم: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلِيمًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون] فكانوا يستكبرون به ويزعمون أنهم أهل الحرم ومع ذلك يسمرون حوله ولا يُعَمِّرُونَهُ بِالْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، فقال تعالى مُبيناً من هم الذين يُعَمِّرُونَ المساجد وأن ما فعلوه عمارة المسجد لا ينفعهم في الآخرة لأنهم مشركون فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۖ﴾ [٧] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهَدِّينَ ﴿٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة]. ولهؤلاء شبهة في أزماننا هذه بأولئك الذين يُزخرفون المساجد ويُزينونها ويُنفقون عليها الأموال الطائلة؛ ثم ها هم يصرفون الناس عنها إما بالتهديد أم الحبس أو بأي نوع من أنواع الصد عنها وعن ما بُنيت له تلك المساجد؛ فالمؤمن الذي آمن بالله تعالى وآمن باليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوي معه أيُّ إنسان حتى ولو كان هذا الإنسان ممن يقوم على رعاية بيت الله الحرام ويسقى الحبيب وهو كافر .. شتان!!

ومما يدل على أهميتها كذلك:

أن النبي صلى الله عليه وسلم: (كَانَ لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا فِي الضُّحَى، فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَصَلَّى فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ) [أخرجه مسلم].

بل وقد أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بالفرع إليها؛ فقال: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، أَلَا وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لَمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا كَذَلِكَ فَافْزِعُوا إِلَى الْمَسَاجِدِ) [أخرجه أحمد]. فلابد من الفرع إلى المساجد عند نزول الحوادث والمستجدات لا أن نفرع منها. ومما يدل على أهمية بيوت الله تعالى عند السابقين؛ ما جاء في قصة امرأة عمران، فقد قال الله عنها: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران] أي: "أوجبتُ على نفسي أن أجعل ما في بطني من حمل خالصاً لوجهك ليعلمك ويخدم بيتك". فخدمة بيوت الله تعالى لها شأن عند الله عظيم.

ثانياً: الفضائل.

تظهر فضائل المسجد في صور منها:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا، كُلَّمَا غَدَا، أَوْ رَاحَ) [صحيح مسلم].

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلَائِكَةُ، يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَأَلَّوْلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَّأَ الصُّحُفَ، وَجَاوُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ) [صحيح البخاري]. وإذا دخل المسجد بعد أن كتبت الملائكة اسمه في صحائفهم؛ فحاله:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ، لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ) [صحيح البخاري].

- وقد: (خَلَّتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا بَنِي سَلَمَةَ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ) [صحيح مسلم].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ) [صحيح مسلم].
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: .. وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ..) [صحيح البخاري].
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا) [صحيح مسلم].
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ دَخَلَ مَسْجِدَنَا هَذَا لِيَتَعَلَّمَ خَيْرًا، أَوْ لِيَعْلَمَهُ، كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ دَخَلَهُ لغيرِ ذَلِكَ، كَانَ كَالنَّاظِرِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ) [أخرجه أحمد في مسنده].
- في المشي إليها الصدقات ورفعة الدرجات ومحو الذنوب والآثام؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ سُلَامَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) [صحيح البخاري]. وعن: (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادِي بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مَن سُنَنَ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ) [صحيح مسلم] فانظر إلى عظيم الأجر وإلى رفعة الدرجات.

- وفيها أبواب الرحمة؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ) [صحيح مسلم].
- ثالثاً: آداب وأحكام.

للمساجد آداب وأحكام كثيرة؛ منها:

- التزيين لها؛ مراعاة لحق الله تعالى وحقوق الادميين والملائكة. قال الله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ [الأعراف]. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ، وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ فَلَا يَقْرَنَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ) [صحيح مسلم].
- لا يخرج من المسجد بعد الأذان. (ف) عَنْ أَبِي الشَّعَثَاءِ، قَالَ: كُنَّا فُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ يَمْشِي فَأَتْبَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَمَّا هَذَا، فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [صحيح مسلم].
- لا يجلس حتى يُصلي ركعتين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ) [صحيح البخاري].
- تنظيف المساجد. فإن النبي صلى الله عليه وسلم: (فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُخَامَةً فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟ قَالَ: فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟ قَالَ: فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟ قُلْنَا: لَا أَتَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبَلَ وَجْهَهُ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى، فَإِنْ عَجَلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بَنُوهُ هَكَذَا، ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ) [صحيح مسلم]. وفي

الحديث الآخر: (في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة، قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: النخامة في المسجد تدفنها، والشئ تُحْيِيهِ عن الطريق، فإن لم تقدر، فركعتا الضحى تجزئ عنك) [أخرجه أبو داود وأحمد]. والمرأة السوداء التي كانت تقم المسجد: (أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، أو شاباً، ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عنها، أو عنه، فقالوا: مات، قال: أفلا كنتم أدنتموني قال: فكانهم صغروا أمرها، أو أمره، فقال: دلوني على قبره فدلوه، فصلّى عليها، ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم) [صحيح مسلم]. والرجل الأعرابي الذي بال في المسجد وذكر قصته قائلاً بعد أن فقه الإسلام: (فقام إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يؤنبني ولم يسبني وقال: إنما بُني هذا المسجد لذكر الله والصلاة وإنه لا يُبال فيه ثم دعا بسجل من ماء فأفرغه عليه) [صحيح ابن حبان].

• ومن آدابه: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ تُسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء]. فلا يقرب أحد من المسجد وبه أثر سُكْرٍ أو تدخين، وكذلك الجنب والحائض.

• ومن الأمور المحرمة معها: اتخاذها قبوراً. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مريضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبوراً أنبيائهم مسجداً، قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً) [صحيح البخاري].

• لا يجوز نشد الضالة في المسجد أو التجارة فيه. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن رجلاً نشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا وجدت، إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له) [صحيح مسلم]. وقال: (إذا

رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرِيحَ اللَّهَ تِجَارَتَكَ. وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ
ضَالَةً فَقُولُوا: لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي السُّنَنِ].
وغيرها من الآداب التي لا يتسع المقام لذكرها.
وأخيراً:

وظيفة المسجد هي التوجيه والإرشاد ومن ثمَّ الانقياد له ولما يُتلى فيه من الآيات والمواعظ؛
فليس المقصود من المسجد أن يكون بُنياناً لا رُوح فيه ولا حِرَاك، وإنما المقصود أن يكون كما كان
قبل ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

برُّ الوالدين

العناصر:

مقدمة.

الأول: الأمر ببر الوالدين.

الثاني: من فضائل برِّ الوالدين.

الثالث: عقوق الآباء وآثاره.

الرابع: تنبيهات.

الموضوع

جزاء الإحسان الإحسان؛ فمن أسدى إليك معروفاً فلا بد وأن يكافء بالمعروف، وليس هناك معروفٌ قُدِّم إليك كإيجادك بعد العدم، وكذلك ليس هناك مِنَّةٌ أعظم من وجودك بين أبوين يدينان بالإسلام؛ فتنشأت على ما يدينان عليه، كذلك ليست هناك حالة يكون المرء فيها رذيلًا ومردولاً لا يُعبء به مثل حالة الطفولة؛ فلا يستطيع القيام بأمر نفسه من قضاء حاجته وإعداد طعامه وملابسه بل والسعي عليه في علاجه وتعليمه .. وغير ذلك. فيقوم بهذا وغيره الوالدان، ولهذا المعنى ذكر فرعون موسى عليه السلام بهذا الملمح يريد به أن يظهر مِنِّته عليه فقال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء] ولأجل هذا وغيره .. ذكرها الله تعالى في آية الأمر ببر الوالدين فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء] فينبغي أن يلهج لسانك بالدعاء لهما ولو على سبيل المكافئة لما كان منهما معك في حالة الصغر .. وكفى بها فأنت بها كالأسير إلى برهما وإحسانهما. والقاعدة التربوية تقول: (أحسن إلى من شئت فأنت أميره .. واحتج إلى من شئت فأنت أسيره، واستغن عن من شئت فأنت قريبه)، بل إن رعاية الأم للولد في حالة الطفل هذه جعلتها أحق بحضانتها ما لم تتكح زوجا آخر؛ ففي الحديث: (أن امرأة قالت يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت أحق به ما لم تتكحي) [أخرجه أبو داود]. فانظر إلى حالة الصغر هذه وما ترتب عليها من آثار.

فلا بد من الإحسان إليهما: مصاحبة ورعاية وإنفاقاً وقياماً بشئونهما جبراً لخطرهما، ودعاءً لهما في الحياة وبعد الممات .. وغير ذلك.

ولأجل هذا .. كان هذا الموضوع في هذه النقاط التالية:

أولاً: الأمر ببر الوالدين.

قد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم في كثير من الآيات ببرهما وكذلك في سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

ففي القرآن قول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا﴾ [النساء]. وقال أيضاً: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء] وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف] وغير ذلك من الآيات.

فلا بد من: (المصاحبة بالمعروف، والإحسان إليهما، وخفض الجناح إليهما - كطائر ذليل كسير الجناح أسير عند من أوقع به -، والقول الكريم لهما، والدعاء لهما، ..)

ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله قال: حدثني بهن، ولو استزدت لزدني) [أخرجه البخاري]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، قيل: من؟ يا رسول الله، قال: من أدرك أبويه عند الكبر - أحدهما أو كليهما - فلم يدخل الجنة) [أخرجه مسلم]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال:

ثُمَّ أُمِّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمِّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ) [أخرجه البخاري]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُونَ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيرٌ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ) [أخرجه البخاري]. وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم للولد حداً إذا وصل إليه برُّه بأبيه فقد كافأه؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ. وفي رواية: وَلَدٌ وَالِدَهُ) [أخرجه مسلم]. وما أبعدَه من حدٍّ!!

ثانياً: من فضائل برِّ الوالدين.

من هذه الفضائل: **تفريج الكربات**؛ وفي ذلك حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فأغلقت عليهم باب الغار فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم: (فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شِخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ آتِيَهُمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بَلْبَنٍ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاعَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدْعَهُمَا، فَيَسْتَكِنَّا لِشَرِّتَيْهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ) [أخرجه البخاري].

ومن الفضائل: أن باباً من أبواب الجنة وهو أوسطها يدخل منه البارئون بأبائهم؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ) [أخرجه الترمذي].

ومن الفضائل أن الله تعالى قرن بين حقِّهما وعبادته، وبين شكرهما وشكره. فقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء] وقال أيضاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي غَامٍ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان].

ومن الفضائل: أن النبي صلى الله عليه وسلم شبّه رحمة الله تعالى بعباده برحمة الأمِّ بولدها بل أرحم، وضرب مثلاً له مع أمته بالوالد مع أولاده فقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ، فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْغَائِطِ، فَلَا يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ، وَلَا يَسْتَدْبِرُهَا لَغَائِطٍ، وَلَا بَوْلٍ، وَلَيْسَتْ بِثَلَاثَةِ

أحجارٍ، ونهى عن الروث والرِّمَّة، وأن يستجى الرجلُ بيمينه) [سنن أبي داود]. وقد: (قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ نَذْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَحَدْتُهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا) [أخرجه البخاري].

ومن فضائلهما أن برَّهما مُقَدَّمٌ على فروض الكفايات كالجهاد مثلاً؛ فقد: (جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: جِئْتُ أَبَايُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ، وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ بَيْكِيَانِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأُضَحِّكُهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا) [أبو داود في السنن] وأما إِذَا تَعَيَّنَتِ الْهَجْرَةُ أَوْ الْجِهَادُ فَأُصْبَحَ فَرَضُ الْكِفَايَةِ فَرَضَ عَيْنٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِذْنِهَا وَإِنْ مَنَعَاهُ.

الثالث: عقوق الآباء وآثاره.

من الأفعال الدالة على جحود المعروف، وتكران الجميل هذا العقوق؛ الذي هو ذُبْحُ للوالدين بغير سكين، وكيف لا يكون كذلك؟! وقد انتظر صاحبُ الإحسانِ مكافئةَ برِّه وإحسانه فلم يجد إلا الجحود والتكران. ولذلك كان من الكبائرِ كبائرُ الذنوب.

ومن النصوص الدالة على تحريم هذا الأمر:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ثَلَاثًا، وَنَهَى عَنْ ثَلَاثٍ، حَرَّمَ عُقُوقَ الْوَالِدِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَلَا وَهَاتِ، وَنَهَى عَنْ ثَلَاثٍ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ) [أخرجه مسلم]. وفي رواية عند البخاري: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمّهَاتِ، ..).

وقد (جاء أعرابيٌّ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ. قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ) [أخرجه البخاري].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ) [أخرجه مسلم]، وقد يكون اللعن مباشرة أو بالتسبب كما في حديث: (إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ

يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ [أخرجه البخاري].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ وَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمَتْرَجِلَةُ الْمُتَشَبِّهُةُ بِالرِّجَالِ وَالِدِيوْتُ وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَاقُ بِوَالِدَيْهِ وَالْمَدْمَنُ الْخَمْرَ وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ) [أخرجه أحمد]. وقد قال عليه الصلاة والسلام أيضا: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ) [أخرجه مسلم].

الرابع: تنبيهات.

الأول: (عند الكبير). لابد من مُراعاة أحوال الوالدين في كلِّ حالة، فكل حالة من الأحوال ما يُناسبها، وتستدعي من البر والإكرام ما لا تستدعي حالة أخرى، فإذا كانا - أي الوالدان - في حالة الأشد وبصحة جيدة وفي فُسحة من المال وسعة من الرزق...، فليست هذه الحالة كحالة ضعفهما ومرضهما وحاجتهما وفقيرهما ولعل هذا هو المعنى المُراد من ذِكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: (مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ - أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا -) وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾، وكذلك فحالة وجودهما معاً وتخفيف كل واحدٍ منهما عن الآخر ما يُلاقيه ليست كحالة وجود أحدهما بعيداً عن الآخر ففي الآية الكريمة هذه ما يدل عليه أيضاً. والبر والإكرام في كلتا الحالتين مطلوب.

الثاني: (إنما الطاعة في المعروف). من أعظم صور البر الطاعة للوالدين؛ ولكنها لا تكون إلا في معروف فقد قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٣١﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان] وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف) [أخرجه البخاري وله قصة].

الثالث: وإن كانا غير مسلمين. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ) [أخرجه البخاري].

فإذا كانت الصلة مع الوالدين هذا شأنها مع كفرهما، فما هو الحال مع أي معصية يقوم عليها الوالد أو الوالدة وهي دون الشرك والكفر؟ فلا شك أن الأمر أهون!!.

من فهم السلف وأحوالهم مع بر الوالدين:

• **قال محمد بن المنكدر:** "بات أخي عمر يصلي، وبتُّ أغمز رجلي أمي، وما أحب أن ليلتي بليته" فهذا يُقدم فعله مع أمه - يُدلك لها رجليها - على فعل أخيه لصلاة النافلة بالليل.

• **عن عبدالله بن عون:** «أنه نادته أمه فأجابها، فعلا صوته، فأعتق رقبتين».

• **عن عمرو بن ميمون بن مهران، قال:** «خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة فمررت بجدول فلم يستطع الشيخ يتخطاه ، فاضطجعت له فمر على ظهري».

جعلني الله وإياكم بارين بالآباء والأمهات.. آمين.

والحمد لله رب العالمين.

الطهارة والنظافة .. (دُنْيا ودين)

العناصر:

مقدمة.

الأول: الطهارة والنظافة "حسية ومعنوية"

الثاني: الطهارة والنظافة الشخصية.

الثالث: الطهارة والنظافة العامة في المجتمع.

(الموضوع)

الناظر في تعاليم ديننا الحنيف يرى أنه دينٌ يسعى إلى اكتساب كل جميل، وإلى اكتساب وتحقيق كل ما يتناسب مع الفطرة التي جبل الله تعالى الخلق عليها، فالمظهر الحسن والجمال والنظافة أمور دعا الإسلام إليها؛ فقد امتنَّ الله تعالى علينا بـ: ﴿وَلَا تُعَمِّمُوا وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل]. وعند الإمام مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ) [أخرجه مسلم]، فليس حُسن الثياب وحُسن النعال من الأمور التي تُعدُّ كِبَرًا بل هي جمالٌ يحبه الله تعالى لأنه جميل سبحانه وتعالى.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجَوْدَ فَنَظَّفُوا أَرَاهُ قَالَ - أَفْنَيْتُكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ) [أخرجه الترمذي وفيه ضعف]. وعن أبي موسى الأشعري أنه قال: (إن أمير المؤمنين بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم وسنة نبيكم وأنظف لكم طرقكم) [الهيثمي في مجمع الزوائد].

ويزيد هذا المعنى إيضاحاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ من كآبة المنظر وسوء المنقلب، فقال في دعاء السفر: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ) [أخرجه مسلم]. ولأجل هذا المعنى سوف ينعقد هذا اللقاء حول هذه القيمة الإسلامية من هذه العناصر التالية:

الأول: الطهارة والنظافة "حسية ومعنوية".

الطهارة والنظافة أمران لهما حالتان؛ الأولى منهما وهي الأساس: (المعنوية)، والثانية وهي: (حسية).

فالطهارة المعنوية: وهي التي تُدرك بالبصائر الإيمانية؛ هي أساس الجمال الظاهري والنظافة، فطهارة القلب ونظافته من الشرك والكفر أو البدعة والنفاق أو أي اعتقاد لا يرضاه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم هذه هي الطهارة التي من حصلها فقد نقى نفسه من كل غبش يُنازع في تسليم القلب لله تعالى.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة] فإذا ما كنّا نتحدّث عن الطهارة المعنوية وأهميتها للقلب والنفس البشرية جأعتنا هذه الآية مُستخدمة لفظة من الألفاظ الحسيّة عن الطهارة المعنوية وهو النجس: (المستقذر الذي يمنع من صحة الصلاة حيث لا مرخص) إذ ليس هناك مستقذر أخبث من الشرك والكفر ينبغي أن تُطهر منه القلوب والنفوس.

وفي نفس المعنى يأتينا قول أبي هريرة رضي الله عنه: (أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا) [أخرجه البخاري] وهو مثال للطهارة المعنوية من الذنوب والخطايا.

وعن الزكاة وتطهيرها للنفوس من أوساخها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ) [أخرجه مسلم]. وقال الله تعالى عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وعن الحج وتطهيره للنفوس من الذنوب قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) [أخرجه البخاري]. وكذلك الصيام له في تطهير النفوس وقطع منافذ الشهوات عنها الأثر الكبير. فالطهارة والنظافة المعنوية .. أساس الدين وركنهُ العظيم الذي إذا صلح صحت الأعضاء تبعاً له.

ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن النظافة والطهارة والجمال الحسي؛ وسوف يكون في شقين، وهما العنصران التاليان:

الثاني: الطهارة الحسية والنظافة الشخصية.

وهذا الأمر من الأمور البيئية والواضحة في الإسلام وضوحاً جلياً؛ فنراها في العبادات شرطاً لصحتها فلا تصح الصلاة بغير طهور؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ) [أخرجه البخاري]. ففي أحكام الصلاة يذكر الفقهاء أنواعاً من الطهارات؛ كالوضوء، والغسل، والتيمم، والدباغ، ويذكرون موجبات الغسل، وأحكام النجاسات، ودخول الخلاء وآدابه، وكذلك الأحكام المتعلقة بالدماء الطبيعية للمرأة، وأحكام المياه والأواني، وأموراً كثيرة يذكرها الفقهاء تتعلق بهذا الأمر العظيم الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ) [أخرجه مسلم]. فلا بد من أن يكون المسلم طاهراً في بدنه؛ فقد مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على قبرين يعذبان فقال عن أحدهما: (وَكَانَ الْآخَرُ لَا يَسْتَنْزِلُ عَنْ الْبَوْلِ، أَوْ مِنْ الْبَوْلِ) [أخرجه مسلم]، وأن يكون طاهراً في ثوبه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وأن يكون طاهراً في المكان الذي يُصلي عليه؛ فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مرايض الإبل وأمر بالصلاة في مرايض الغنم: (أَنْ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومٍ

الْعَنَم؟ قَالَ: إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ قَالَ أَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَتَوَضَّأْ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ قَالَ: أَصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْعَنَمِ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: أَصَلِّي فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: لَا [أخرجه مسلم]. وفي أمر عام من أوامر الزينة والجمال عند العبادة قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف].

بل قد وصل الأمر إلى غايته في شأن النظافة والطهارة بإلحاق الخطأ والتلبس على الإمام في قراءته إلى عدم نظافة المأمومين فقد جاء: (عن رجلٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى الصُّبحَ، فقرأَ فيها بالثُّرُومِ فأوهمَ فيها، .. إنكم لستم بمتنظِّفينَ) [أحمد في مسنده].

ونرى هذه النظافة وهذا الجمال وهذا المظهر الحسن في التعاملات الحياتية واليومية ظاهراً عندنا في الإسلام.

فمثلاً: إذا ما خرج المسلم من بيته قادماً على إخوانه فلا بد وأن يكون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رجالكم، وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأئكم شامةً في الناس) [أخرجه أبو داود في السنن].

وأصرح من هذا ما جاء: (أَخَذَ عُمَرُ جُبَّةً مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ثُبَاعُ فِي السُّوقِ، فَأَخَذَهَا، فَأَتَى بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْتَغْ هَذِهِ تَجَمَّلْ بِهَا لِلْعِيدِ وَالْوُفُودِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسٌ مِّنْ لَا خَلْقَ لَهُ ..) [أخرجه البخاري]. فلم يُنكر النبي صلى الله عليه وسلم عليه أصل التجميل وإنما أنكر عليه كونها من الحرير؛ ولا يلبسه إلا من لا خلق له.

ولمراعاة هذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ، وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ والثُّومَ وَالْكُرَاتَ فَلَا يَفْرِيَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ) [أخرجه مسلم]. وكذلك: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرَّيْحُ)

[أخرجه البخاري] فكان يكره أن يُشَمَّ منه رائحة كريهة. وكذلك: (كَانَ النَّاسُ يَنْتَابُونَ الْجُمُعَةَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْعَوَالِي، فَيَأْتُونَ فِي الْعَبَاءِ، وَيُصِيبُهُمُ الْغُبَارُ، فَتَخْرُجُ مِنْهُمْ الرِّيحُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَنَّكُمْ تَطَهَّرْتُمْ لَيَوْمِكُمْ هَذَا) [أخرجه مسلم]. وقد أخذ العلماء من هذا المعنى استحباب الغسل لأيّ اجتماع؛ كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وكذلك الوقوف بعرفة .. وغيرها.

ويزداد أمر النظافة أهميّة أخرى إذا ما تعلقت بالشخص نفسه في خاصّة أمره؛ فمثلاً:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أَنَّ رَجُلًا جَمِيلًا أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: حُبِّبَ إِلَيَّ الْجَمَالَ، وَأَعْطَيْتُ مَا تَرَى، حَتَّى مَا أَحِبُّ أَنْ يَفُوقَنِي أَحَدٌ) (مَا قَالَ: بِشْرَاكِ نَعْلٍ، وَإِمَا قَالَ: بِشَسْعٍ) الْكِبَرُ ذَاكَ؟ قَالَ: لَا؛ وَلَكِنَّ الْكِبَرَ مِنْ بَطَرِ الْحَقِّ وَغَمَطِ النَّاسِ) [البخاري في الأدب المفرد].

وهذه خصال الفطرة وكلّها صورة حيّة من صور النظافة والجمال الشخصي؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من الفطرة المضمضة والاستنشاق، والسّواك، وقصّ الشارب، وتقليم الأظفار، ونفّ الإبط، والاستحداً، وغسل البراجم، والانتضاح، والاختتان) [ابن ماجة في سننه]. وفي الباب أحاديث كثيرة أصح وأوضح من هذا ولكني نقلت النص الأجمع لخصالها؛ وإلا ففي صحيح البخاري: (الْفِطْرَةُ خَمْسٌ - أَوْ خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرِ -: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَنَفْثُ الْإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ). والمُدّة التي لا ينبغي للإنسان أن يترك هذه الأمور زيادةً عليها جاءت في السنن عن أنس بن مالك: (وَقَتَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَقَ الْعَانَةِ، وَتَقْلِيمَ الْأَظْفَارِ، وَقَصَّ الشَّارِبِ، وَنَفْثَ الْإِبْطِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مَرَّةً) [أخرجه أبو داود].

وهذا أبو زيد الأنصاري يدعو له النبي صلى الله عليه وسلم دعاءً؛ وله قصة هي: (اسْتَسْقَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاءً، فَأَتَيْتُهُ بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ، فَكَانَتْ فِيهِ شَعْرَةٌ، فَأَخَذْتُهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ جَمِّلْهُ، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لَيْسَ فِي لِحْيَتِهِ شَعْرَةٌ بَيَضاءُ) [أخرجه أحمد في المسند]

الثالث: الطهارة والنظافة العامة في المجتمع.

وكذلك الشأن في النظافة العامة للمجتمع وفي الصورة الظاهرة لأحيائه ومُدنه؛ فنجد مثلاً في النصوص الشرعية ما يدل على هذا الأمر؛ مثل: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يَحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يَحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يَحِبُّ الْكَرَمَ جَوَادٌ يَحِبُّ الْجُودَ فَنَظَّفُوا أَرَاهُ قَالَ أَفْنَيْتُكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ) [أخرجه الترمذي وفيه ضعف]. نظافة الفناء.

وكذلك: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اتَّقُوا اللَّعَّائِينَ قَالُوا: وَمَا اللَّعَّائَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ) [أخرجه مسلم]. وكذلك تنظيف الطُّرُقَات من أنواع الأذى الذي قد يؤدي إلى هلاك الناس؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَذَهُ، فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ) [أخرجه مسلم]. بل إن هذا الفعل من شُعَب الإيمان؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ، شُعْبَةٌ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) [أخرجه مسلم].

وكذلك من الطهارات العامة والنظافة الصحية والعلاجية؛ النهي التشريعي عن التبول أو قضاء الحاجة عموماً في الماء الراكد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ) [أخرجه مسلم].

فالجَمال والزينة من الأمور التي امتنَّ الله سبحانه وتعالى بها على عباده؛ فجعلهما في أشكال الحيوانات؛ كالخيل والبغال والحمير، وكذلك في الجمادات كالجبال التي منها الحُمْر والبيض والغرابيب السود، والبحار والأنهار وباقي المُسطحات المائية التي تألفها العيونُ والنفوس فلا تنفر منها؛ بل تأوي إليها، وكذلك الطيور وما أودع الله تعالى فيها من صور الزينة والجمال .. وهذا وغيره يجعل المسلم مدفوعاً إلى هذه الميزة وتلك الفضيلة التي حضَّنا عليها الإسلام.

والحمد لله رب العالمين.

خطورة الإدمان والمخدرات والتدخين

على الفرد والمجتمع

العناصر:

الأول: أسباب الإدمان والمخدرات.

الثاني: أضرار الإدمان والمخدرات

الثالث: حكم الشرع في هذه الظاهرة.

الرابع: نداء للعقل .. وقصص من الواقع.

(الموضوع)

هناك أمور ضرورية؛ تضافرت كل الشرائع على اعتبارها، والمحافظة عليها، بل وتشريع الشرائع التي تؤدي إلى صيانتها ووضعها في سياق منيع؛ وهي الضروريات الخمس: (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)⁽¹⁾.

فقد شرّع الإسلام شرائع كثيرة للمحافظة عليها؛ فمثلاً الحدود كُلُّها لأجل ذلك: (فحدُّ الزنا، والقذف، وشرب الخمر، والرَّدة، وحد قاطع الطريق) وكذلك القصاص والدية لأجل المحافظة على النفوس، وغيرها من التشريعات والزواجر التي تزجر العصاة عن الاعتداء على أي واحدة من تلك الضروريات.

وموضوعنا هذا يتعلق بالدرجة الأولى بآفة من الآفات التي تؤثر على كافة هذه الضروريات لا سيما العقل؛ فهي تعمل على تدميره وتخريبه. وهي آفة التدخين والإدمان والمخدرات وما شابه. هذه الآفة التي هي الداء العضال؛ فهي السلاح الذي يهدم البنيان الذي كرمه الله تعالى، وما تركت

(1) وقد سبق في هذه الكِنانة مواضيعُ تتعلق بها.

بيتاً من البيوت إلا وقد اشتكى منها، إما بمباشرة هذه الآفة لأحد أفرادها أو بالسببية فنسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.. اللهم آمين.

وسوف يكون اللقاء فيها حول هذه النقاط:

الأول: أسباب الإدمان والمخدرات.

هذه الظاهرة لها أسباب كباقي الظواهر الاجتماعية التي نشأت في مجتمع من المجتمعات؛ وأرى من أسبابها والله أعلم:

• انعدام التربية الإسلامية الصحيحة في بيوت المسلمين. فلم ينشأ الولد في بيئة تهتم بتعاليم

الإسلام؛ بل وليس للإسلام فيها إلا الاسم أو الرسم، فلم يسمعوا كلمة: الحرام أو الحلال، أو هذا يجوز أو لا يجوز، أو هذا منهى عنه، فلم تطرق أسماع الأولاد تلك الكلمات أو هذه العبارات، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ) [أخرجه البخاري في صحيحه]، فلا بد وأن يكون الوالدان مسلمين قلباً وقالماً أمام أولادهما. وأن يكونا فُدَوَتَيْنِ صالحتين لأولادهما؛ وإلا فكيف ينهى الوالدان أبناءهما عن خُلُقٍ وهما يأتياه!!.

• ضعف الوازع الديني عندنا إلا من رحم الله تعالى. ولعل هذا يكمن في الخطاب القرآني

وندائه بالوصف الإيماني في آيات تتعلق بهذا الموضوع؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة]. فإذا ما استقر الإيمان في القلوب هانت التكاليف على النفوس.

• الفراغ الديني والنفسي عند الشباب. فواقع كثير من الشباب إلا من رحم الله تعالى عندهم

هذا الفراغ الديني؛ ومن ثمَّ يُحاولون ملء هذا الفراغ بأي شيءٍ آخر؛ فتأتي هذه العادة المدمرة مُصاحبة لهذا الفراغ الديني الذي كان قبله ضعف الوازع الديني أيضاً، وقيل عن النفس: «إن

لم تشغلها بالحق شغلنك بالباطل» وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) [أخرجه البخاري في صحيحه].

• **النزاع بين الآباء والأمهات، والكوارث والأزمات المادية والحياتية.** كثير هم هؤلاء الشباب الذين وقعوا في براثن هذه الآفة الخطيرة يُحيل أسبابها إلى هذه الظروف التي لم يستطع تقبلها؛ فهرب إلى واقع افتراضي خيالي لجأ إليه، وفي هذا الواقع تكون النفس من الضعف والاستكانة التي لا يستطيع معها مواجهة هذه الأسباب فيُملئ عليه شيطانه - من الإنس أو الجن - التخلُّص من هذا الواقع بتلك الآفة.

• **الرفقة السيئة.** وهو من الأسباب الرئيسة عند الكثيرين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ﴾ (٢٧) يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان]. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ؛ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِلَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً) [أخرجه البخاري].

• **الإعلام.** تلك الآلة التي علّمت الكثيرين سوء الأخلاق والفعال القبيحة ووسائل الإجرام. فلا بد من الحذر منه أشد الحذر فهو فتنة لأولادنا "بين وبنات" نسأل الله تعالى السلامة منه.

الثاني: حكم الشرع في هذه الظاهرة.

قبل ذكر أضرار هذه الآفة؛ لابد من بيان حكمها أولاً، فالمسلم وقبل كل شيء يُسلم لله تعالى عند الأمر والنهي، علم علة الأمر أو النهي أو لم يعلمها؛ فالحكم عنده سواء.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحُمُرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضْذَكِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى

اللَّهِ يَسِيرًا»، [النساء] وقال أيضا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة]، وفي الحديث: (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا) [أخرجه البخاري ومسلم]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: (لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ، مَنْ ضَارَّ؛ ضَارَّهُ اللهُ، وَمَنْ شَاقَّ؛ شَاقَّ اللهُ عَلَيْهِ) [المستدرك على الصحيحين]، وقال: (لُعِنَتِ الْخَمْرُ على عشرة أَوْجُهٍ: بعينها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومُبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها، وشاربها، وساقها) [ابن ماجه في السنن] وقال: (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ) [أخرجه مسلم].

فإذا كان الله تعالى قد حرم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام لما فيها من الصدِّ عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، ولما فيها من البغضاء والعداوة، ومن المعلوم بداهة أن هذه الأمور ثبت ضررها على النفس الإنسانية من الناحية الصحية والعقلية والمالية، ففيها الضرر وفيها الضرر، وكذلك الذي تعاطى مثل هذه الأمور لا شك أنه كمن يقتل نفسه بحديدة أو بشربة سُمٍّ أو يتردَّى من شاهق فهو يُعَذَّبُ بتلك الأمور التي قتل نفسه بها إلى يوم القيامة. وحتى تُنْفَرِ النفوس عنها لَعْنِ كل من ساهم فيها، وليست شريعتنا من الشرائع التي تحمل ألفاظا بلا معان فإن الخمر حرام وكل ما أسكر وإن لم يكن خمرا فله حكم الخمر. وإلا فقد: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَنِّرٍ) [أخرجه أبو داود وهو ضعيف].

فالإدمان والتدخين والمخدرات وكلُّ مُسْكِرٍ وَمُفَنِّرٍ حرام حرم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الثالث: أضرار الإدمان والمخدرات.

لا شك من وجود الأضرار التي لا يمكن لذي عقلٍ سليم أن يستسيغها لنفسه أو أن يتقبلها لغيره؛ فهي أضرار في الناحية:

الدينية: فلا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ففيها الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

المالية: ولا شك بأن المسلم منهى عن إضاعة المال؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ) [أخرجه البخاري].

الصحية: وهذه أصبحت الآن من المسلمات العقلية الضرورية؛ فلا أدل على ذلك من أن صانعيها يكتبون عليها - التدخين مثلاً وهو أخفها ضرراً - (التدخين ضار جداً ويُسبب للوفاة)!!.

الخلقية: فالمرء على دين خليله؛ فإذا كان خليلك ممن تحكمت فيه تلك البلية، فكان بلا عقل إذ تناول ما فيه هلاكه، وقد قلت مروءته وقلّ حياؤه؛ فأصبح يُجاهر بالمعصية بلا رقيب أو حسيب، وإذا ذهب الحياء فلا رادع حينئذ عن أي خلقٍ نميم.

الاجتماعية: فلقد جلبت هذه الأمور على المجتمعات الإسلامية مفاصد لا حصر لها؛ فلقد تسببت في التفريق بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات، وساهمت في إفساد الذوق العام للمجتمع وبصورة مباشرة.

الرابع: نداء للعقل .. وقصص من الواقع.

وإذا كان الله تعالى قد أمرنا بأن نتقي النار التي أعدت للكافرين؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم]. فكيف يليق بالمسلم وهو على قيد الحياة أن يتناول ناراً من الدنيا؛ يضعها في فمه ويخرج من جوارح ذلك هذا الدخان الذي يؤذي غيره فضلاً عن إيذائه لنفسه.

أين هذا العقل الذي كرمه الله تعالى وفضله على العالمين واعتباره من أمثال هذه القصص:

فمن عثمان بن عفان رضي الله عنه: (اجتنبوا أمّ الخبائث؛ فإنه كان رجلاً ممن قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة، فأرسلت إليه خادماً؛ فقالت: إننا ندعوك لشهادة، فدخل، فطفت كلما

يدخلُ بابًا أغلقته دونه، حتَّى أفضى إلى امرأةٍ وضيئةٍ جالسةٍ؛ وعندها غلامٌ، وباطيةٌ فيها خمرٌ، فقالت: إنَّا لم ندعُك لشهادةٍ، ولكن دعوتُك لنقتلَ هذا الغلامَ، أو تقعَ عليَّ، أو تشربَ كأسًا من هذا الخمرِ، فإن أُبَيِّتَ؛ صَحْتُ بك وفضحتُك، قال: فلمَّا رأى أَنَّهُ لا بدَّ له من ذلك؛ قال: اسقيني كأسًا من هذا الخمرِ، فسقته كأسًا من الخمرِ، فقال: زبديني، فلم يزل حتَّى وقعَ عليها، وقتل النَّفسَ، فاجتنبوا الخمرَ؛ فإنَّه - واللهِ - لا يجتمعُ الإيمانُ وإِدْمانُ الخمرِ في صدرِ رجلٍ أبدًا، ليوشكنَّ أحدهما يُخرِجُ صاحبه) [صحيح موقوفا ضعيف مرفوعا، أخرجه النسائي].

جاء في ترجمة عروة بن الزبير: في تهذيب الكمال في ترجمته أنه وقعت الأكلة في رجله، «ف قيل له: ألا ندعو لك طبيبًا، قال: إن شئتم، فجاء الطبيب، فقال: أسقيك شرابا يزول فيه عقلك، فقال: امض لشأنك، ما ظننت أن خلقا يشرب شرابا ويزول فيه عقله حتّى لا يعرف ربه، قال: فوضع المنشار على ركبته اليسرى ونحن حوله فما سمعنا له حساء، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت. وما ترك حزيه من القراءة تلك الليلة». فهل يرضى المسلم أن يتناول شيئًا يفقد فيه الخاصة التي ميّزه الله بها على الحيوانات.

والحمد لله رب العالمين.

ضوابط وآداب في الأسواق والتجارة

العناصر:

مقدمة.

الضابط الأول: إيجابيات لابد منها.

الضابط الثاني: سلبيات يُنهى عنها.

الضابط الثالث: الإخوة الإسلامية قبل الروابط المادية.

وأخيراً .. في فضائل التاجر الأمين.

(الموضوع)

من حكمة الله تعالى أن جعل للناس وسائل يتبادلون بها منافعهم؛ فهذا البيع الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة] من أعظم الوسائل التي يتم بها هذا التبادل، وهذا البيع يكون في الأسواق وكذلك التجارة وما يترتب عليها من وسائل ومقاصد؛ هي أمور لها في الإسلام آداب وأحكام لابد من مراعاتها.

الضابط الأول: إيجابيات لابد منها. ومن هذه الأمور الإيجابية ما يلي:

توصيف الشريعة الإسلامية للأسواق: بما أن السوق عندنا وعند غيرنا ما هو إلا وسيلة فقط وليس غاية في نفسه؛ فلا بد من أخذه أو التعامل معه على هذا الوصف؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا) [أخرجه مسلم]. وقال أيضاً: (لِيَلْنِي مِنْكُمْ، أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثَلَاثًا، وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ) [أخرجه مسلم]. وعن سلمان الفارسي: (لَا تَكُونَنَّ - إِنْ اسْتَطَعْتَ - أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصَبُ رَأْيَتُهُ) [أخرجه مسلم]، وقد جاء وصف النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة بـ: (.. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر..) [الأدب المفرد للبخاري] فإذا كان السوق بهذا الوصف فلا بد من استغلاله الاستغلال الأمثل للوسائل فلا يُقيم فيه كثيرا، ولا يكون فيه من الصخابين، ولا يُكثر فيه المنازعات.. وغير ذلك مما تضمنته هذه الآثار.

الصدق والأمانة والتراضي والسماحة: لابد من مراعاة هذه الأمور؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (البَّيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لهما فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) [أخرجه البخاري]. وقال أيضا: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى) [أخرجه البخاري]. والسماحة هي: «التَّسْهِيلُ وَالتَّنَازُلُ وَالتَّغَاضِي فِي الْأُمُورِ، وَعَدَمُ الشَّدَّةِ وَالتَّصَلُّبِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ) [أخرجه ابن ماجه] وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء]. فلا إكراه في البيع وإنما الرضا الذي يتمثل كما قال الفقهاء في الإيجاب والقبول، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا) [أخرجه أبو داود وهو ضعيف]، ومعلوم أن الخيانة ضدُّ الأمانة، والنهي عن الشيء أمرٌ بضدِّه كما قال أهل الأصول.

النصيحة: من الأمور التي ينبغي على المسلم مراعاتها في الأسواق بذل النصيحة لمن أَرادها؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ) [أخرجه مسلم]. وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) [أخرجه البخاري]. وهذه الأماكن أعني الأسواق؛ هي محالٌّ لهذا الأمر فكثيرٌ هؤلاء الذين يستجلبون النصيحة من الآخرين.

الضابط الثاني: سلبيات يُنهي عنها. ومنها:

الغش وكتمان عيوب السلعة: قال صلى الله عليه وسلم: (خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السُّوقِ فَرَأَى طَعَامًا مُصَبَّرًا فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَأَخْرَجَ طَعَامًا رَطْبًا قَدْ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ فَقَالَ لِمُصَاحِبِهَا مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّهُ لَطَعَامٌ وَاحِدٌ. قَالَ أَفَلَا عَزَلْتَ الرُّطْبَ عَلَى حِدَّتِهِ وَالْيَابِسَ عَلَى حِدَّتِهِ فَتَتَبَاعُونَ مَا تَعْرِفُونَ؟ مِنْ غَشْنَا فَلَيْسَ مِنَّا) [الترغيب والترهيب للمنزري]. فالذي يكتُم عيب سلعته غشاشٌ، وقد توعَّده النبي صلى الله عليه وسلم بمحق البركة من هذه الصفقة.

الحلف والأيمان الفاجرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ) [أخرجه مسلم]. وقال: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ، يَفْتَتِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ) [أخرجه مسلم]، وعن أبي هريرة قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْحَلْفُ مُنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ، مُمَحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ) [أخرجه البخاري]. وبكفي في هذا كله قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم].

تطفيف الكيل والميزان. وقد قال الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝۱ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝۲ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين]. وقال أيضا عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝۳ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود] «بَقِيَّةُ اللَّهِ التي يبقیها لكم من الحلال بعد إيفاء حقوق الناس بالعدل، أكثر نفعًا وبركة من الزيادة الحاصلة بالتطفيف والإفساد في الأرض، إن كنتم مؤمنين حقًا فارضوا بتلك البقية» وقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء].

الاحتكار. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ) [أخرجه مسلم]. وهو: «إِمْسَاكُ السَّلْعَةِ وَمَنْعُهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ وَادِّخَارُهَا حَتَّى يَزِيدَ عَلَيْهَا الطَّلَبُ وَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا، وَحِينَئِذٍ يَبِيعُهَا بِأَضْعَافٍ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَفَتْ شِرَائِهَا؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الْاِحْتِكَارَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَا يَضُرُّ بِالنَّاسِ حَبْسُهُ، وَأَمَّا مُجَرَّدُ ادِّخَارِ الطَّعَامِ لِلنَّفْسِ وَالْعِيَالِ، أَوْ شِرَاؤُهُ لِيَبِيعَهُ فِي وَقْتِهِ، فَلَيْسَ هُوَ بِالْاِحْتِكَارِ الْمَذْمُومِ». فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبس نفقة أهله سنةً.

البيع على بيع بعض والنجش. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلَا تَتَاجَشُوا، وَلَا يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ، وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِنِكَاحٍ مَا فِي إِنْثَائِهَا) [أخرجه البخاري]. فالحديث نص في

أنه لا يجوز للمرء أن يبيع على بيع أخيه أو يخطب على خطبة أخيه أو يزيد في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها وذلك حتى يزيد في ثمنها على أخيه المسلم = (النجش). وفي هذا كله من المعاني التربوية المهمة للحفاظ على حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليها.

الغرر. فقد: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ، وَعَنْ بَيْعِ الْغَرْرِ) [أخرجه مُسلم في صحيحه]. وهو: «ومعنى الغرر: الخطر والغرور والخداع، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص، فهو شاملٌ لكلِّ بيعٍ اشتمَلَ على أيِّ نوعٍ من أنواع الخداع، أو كان مجهولاً أو معجوزاً عنه». **الضابط الثالث:** الإخوة الإسلامية قبل الروابط المادية.

فلا بد للمسلم الذي يريد التجارة - بيعاً أو شراءً - أن يضع نصب عينيه هذه الأخوة ولا يستبدل بها الأدنى من حطام الدنيا وزخرفها فالبقيّة الصالحة عند الله خيرٌ وأبقى.

وعليه أن يستحضر جملة من المعاني التي تُعينه على تحقيق ذلك؛ والتي منها:

- **تجارتك - ببيعك أو شرائك - مع نفسك لا غيرك.** كيف؟. قد جاء التعبير القرآني في آية النساء التي فيها النهي عن أكل أموال الناس بالباطل قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: «يعني بذلك جل ثناؤه: "ولا تقتلوا أنفسكم"، ولا يقتل بعضكم بعضاً، وأنتم أهل ملة واحدة، ودعوة واحدة، ودين واحد. فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض. وجعل القاتل منهم قتيلاً في قتله إياه منهم بمنزلة قتله نفسه، إذ كان القاتل والمقتول أهل يد واحدة على من خالف ملتئهما» فأنت تتعامل مع نفسك لا مع غيرك. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) [أخرجه البخاري].

- **نموذج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.** والذي كان من تطبيقاته المؤاخاة بين سعد بن

الربيع وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما؛ وفيها قول عبد الرحمن بن عوف: (لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالاً، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتُهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ) [أخرجه البخاري].

- ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فلا تخلو

الحياة المالية من دائنٍ ومُستدين، فإذا ما تعرَّسَ مَنْ عليه الدينُ وحلَّ وقتُ السداد فإمهالٌ إلى ميسرة ففي ذلك فضل كبير وتيسير عظيم وحفاظٌ على الإخوة الإسلامية ورباطها المتين.

وفي الختام: إذا كانت الأسواق كما وُصِفَتْ: (فإنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصَبُ رَأْيَتَهُ)؛

فليتنق الله كلُّ من الرجال والنساء حتى لا يقعوا أسرى في تلك المعركة، وحتى لا يكونوا تحت راية الشيطان وجنده وحزبه، وعلى المرأة إذا خرجت إلى تلك الأماكن فلا تكن فريسة وضعها الشيطان أمام من يُريد إغواءه؛ فلتخرج بلباسها الكامل وبالشروط الشرعية التي قيدت الشريعة خروجها بها... والله المُستعان.

والحمد لله رب العالمين

خير أمة أخرجت للناس

العناصر:

مقدمة

الأول: مؤهلات وخصائص.

الثاني: ما للمسلمين في الآخرة؟.

(الموضوع)

لله تبارك وتعالى في خلقه شئون وحكم لا يعلمها إلا هو سبحانه جلّ وعزّ، يُفضل بعض مخلوقاته على بعض، يجعل أسبابا لمسيّبات، ومُقَدِّماتٍ لنتائج، وحوادثٍ في كونه وخلقهِ ليتعظّ بها مَنْ يتعظّ ويتفكر فيها من يتفكّر ويعتبر بها من يعتبر.

فهو سبحانه وتعالى فضّل بعض النبيين على بعض، وفضّل بعض الأماكن على بعض، وفضّل بعض الأيام والليالي على بعض، وفضّل بعض الشهور على بعض، وكذلك فضل بعض الأمم على بعض؛ فجعل أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس، وكان لها كذلك يوم القيامة المقام المشهود الذي يغبطها عليه الأولون والآخرين؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: (أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قَالَ إِنَّكُمْ تَتَمَوَّنَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ) [أخرجه الترمذي في سننه]. فلماذا هذه المكانة وهذه الخيرية؟ وما الذي لهم في الآخرة؟.

الأول: مؤهلات الخيرية.

قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران]

فمؤهلات الخيرية كثيرة منها:

- نبيّها محمد صلى الله عليه وسلم. إذ هو أفضل رسل الله عز وجل على الإطلاق؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي

النَّبِيُّونَ) [أخرجه مُسلم]، وقال: (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ) [أخرجه مُسلم]. وكلُّ الرسل يوم القيامة تتأخر عن الشفاعة العظمى ويتقدم لها نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم - كما هو معلوم -.. وهو أكثر الأنبياء تابعا يوم القيامة؛ إذ قال عليه السلام: (ما من الأنبياء نبيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ ما مثله آمنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أوحاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فأرجو أن أكونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أخرجه البخاري]. ولأجل ذلك وغيره كانت مِنَّةُ الله تعالى علينا عظيمةً ببعثته صلى الله عليه وسلم؛ فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران] فالحمد لله تعالى على مِنَّته.

● **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.** من هذه المؤهلات التي ميَّز الله تعالى بها هذه الأمة أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ لأنها تُحِبُّ للناس الخير، ولأنها تسعى في نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ولذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسيره لآية آل عمران: (قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ) وفي رواية أخرى عنه: (عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ) [أخرجه البخاري]، فليس عند المسلمين ما عند غيرهم من الدعوات العنصرية المرتبطة بجنس أو دَم؛ كما عند اليهود من ادعائهم بأنهم "شعب الله المختار"، وإنما كان هدفهم دعوة كلِّ الخلق إلى الإسلام حتى تدين الأرض كلها لله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال]. حتى إذا ما دخل الداخل في دين الله تعالى أصبح هو ومن نزلت عليهم الرسالة أصالة - أي: العرب - سواءً، لا فضل لأحدهم على الآخر حينئذٍ إلا بالتقوى. وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضائل كثيرة؛ ولكن أذكر منها ما يفي بمقصود الموضوع حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِلْإِسْلَامِ صَوِيَّ وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، مِنْهَا: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وإِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحُجُّ الْبَيْتِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،...) [الإيمان لأبي عبيد القاسم]

بن سلام] والصَّوَّةُ والمنارة: ما ارتفع من الأرض وبرز كالعلامة. فهو من العلامات التي يُعرف بها الإسلام.

• **الإيمان بالله تعالى.** إيماننا بالله تعالى من المميزات التي كانت سببَ خيرتنا على باقي الأمم؛ وفي ثنايا ذلك تزكيةً لما نحن عليه من عقيدة في الله عز وجل، فليس في هذا الإيمان تثليثٌ؛ فلا نقول بقول النصارى "الأب والأبن والروح القدس"، ولا نقول بقول اليهود واصفين ربنا "بالعجز والضعف وتشريع الفواحش أو أنه اتخذ ولداً وسمَّاه عزيزاً تعالى الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. بل نصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى ألسنة رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تمثيل ولا تكيف.

• **شريعتهَا كاملةٌ تامَّةٌ؛ لا يصلح الزمان والمكان إلا بها.** أَسْتَحْضِرُ في هذا المؤهِّل أُمْنِيَّةً في صورة حسرة؛ إِنَّهَا حَسْرَةٌ مَنْ فَقَدَ تَمَامَ دِينِهِ وَكَمَالَهُ؛ وَهُمْ الْيَهُودُ وَكُلٌّ مِنْ تَدَيَّنَ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ الْخَاتِمِ؛ فَقَدْ قَالَ أَحَدُ يَهُودٍ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقَرُّوْنَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ) [أخرجه البخاري]. وذلك لأنه عِلْمٌ مِنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالتَّفَرُّقِ وَالْخُلَلِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ مِثْلَهُ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ فَقَالَ مَقَالَتَهُ تِلْكَ. وَلِكَمَالِهَا وَتَمَامِهَا لَا يَصْلَحُ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ إِلَّا بِهَا؛ حَتَّى وَإِنْ بَدَأَ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ بِغَيْرِهَا جَمِيلَانِ فَإِنَّمَا هُوَ جَمَالٌ أَشْبَهَ بِالْوَرَمِ الَّذِي يَحْسِبُهُ الرَّائِي شَحْمًا وَمَا هُوَ إِلَّا دَاءٌ عَضَالٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى صَاحِبِهِ فَيَطْرَحُهُ صَرِيحًا.

• **كتابها محفوظ من النقص أو الزيادة.** وهذا المؤهل من أعظم المؤهلات؛ فقد تولى الله تعالى حفظ كتابه وسنة نبيه عليه السلام فهو القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر] وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى: (وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَّكَ وَأَبْتَلِيَّ بَكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقُظَانِ) [أخرجه مسلم]. ومن

وسائل حفظ الله تعالى له؛ أنه تعالى جعله مُيسراً للذكر فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر]؛ ومن وسائل حفظ الله تعالى له كذلك أنه أمرنا بإبدائه وتعليمه وتعلُّمه لمن أراد الهداية وجعل على ذلك الأجر العظيم في الدنيا والآخرة؛ أمّا غيرُنا فأخفوا كتابهم حتى على أبناء ملَّتْهم فجعلوه حِكْراً على نفرٍ قليلٍ منهم حتى ضيعوه؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة].

• **شريعته لا إصرَ فيها ولا انحلال.** فالأمة الإسلامية ذات شريعة سمحة ليس فيها أغلال تُكَبِّل أصحابها فلقد قال الله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، فهذا وصفه فما أحله صلى الله عليه وسلم فيها فهو **الحلال الطيب**، وما حرَّمه فيها فهو **الحرام الخبيث**، والآصار والأغلال التي كانت على السابقين قد وَضَعَهَا عَنَّا. وفي شريعتنا نسمع هذه القواعد: (لا ضررَ ولا ضرارَ)، ونسمع: (إذا ضاق الأمرُ اتَّسع)، ونسمع: (المشقةُ تجلب التيسيرَ). ونسمع أفصحَ من هذا كله كلامَ ربنا تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة]، وليس فيها كذلك انحلال بل فيها قواعدُ وأحكامٌ وعقوباتٌ وزواجرٌ وتعزيراتٌ؛ فالعاصي فيها له عقوبةٌ بقدر ذنبه وعقوبةٌ يتحمَّلها بدنه أو ماله. وهذا كله سعيًّا لأن يكون المجتمع المسلمُ مكاناً للطُّهرِ والعفافِ.

• **أقلُّ عملاً وأكثرُ عطاءً.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجْرَاءً، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدُوَّةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ

الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقْلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقْصُتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَلِكَ، فَضَلِّي أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءُ) [أخرجه البخاري] فذلك فضل الله تعالى!!.

فأمة هذه مؤهلاتها: نبيها أفضل الأنبياء وخاتمهم، وإيمانها بالله تعالى أفضل من إيمان غيرها؛ فلا إفراط ولا تفريط. وشريعته كاملة لا إصر فيها ولا انحلال، وكتابها محفوظ لا تبديل فيه ولا تحريف، شأنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، .. فكيف لا تكون أمة بمثل هذه المؤهلات خير الأمم.

الثاني: ما للمسلمين في الآخرة.

هذه الخيرية السابقة جعلت للمسلمين في الآخرة مكانة عالية؛ وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم أكرم الأمم على الله تعالى، مما جعل لهم عند الله تعالى في الدار الآخرة هذا الجزاء والذي منه:

✓ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضِيفٌ ظَهْرَهُ إِلَى قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ يَمَانٍ، إِذْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَفَلَمْ تَرْضَوْا أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) [أخرجه البخاري]. وجاء في رواية أخرى عند ابن ماجه أنهم أكثر من النصف؛ ففيها أنهم: ثلثاها: (أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةً صَفًّا، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ) [ابن ماجه في السنن].

✓ الآخرون الأولون يوم القيامة. وأول الناس دخولا الجنة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ، قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى) [أخرجه مسلم].

✓ الشهادة على الأمم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فيقول: هَلْ بَلَغْتَ؟ فيقول: نَعَمْ، فيقال: لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فيقولون: ما

أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ: {وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: والوسط: العدل] [أخرجه البخاري].

✓ **لهم فداء من النار.** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ اللَّهُ عَرْجَ وَجَلًّا إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَائِكَ مِنَ النَّارِ) [أخرجه مسلم]، وفي رواية: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ مُؤْمِنٌ إِلَّا أَتَى بِيَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ حَتَّى يُدْفَعَ إِلَيْهِ، يُقَالُ لَهُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ، قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَاسْتَحْلَفَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: أَسَمِعْتَ أَبَا مُوسَى يَذْكُرُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، فَسَرَّ بِذَلِكَ عُمَرُ) [أخرجه أحمد] وفي أخرى أنه يُدْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ أَوْ الْمَلَلِ الْآخَرِ [وهي عند أحمد في المسند].

وأخيرا .. قال ابن كثير: «فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. فَمَنْ انْتَصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْمَدْحِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغْنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا رَأَى مِنَ النَّاسِ سُرْعَةً فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ».

والحمد لله رب العالمين.

الحياء كله خير⁽¹⁾

المقدمة.

أولاً: في تعريفه وماهيته.

ثانياً: فضائل الحياء وثمراته.

ثالثاً: من سير الصالحين مع الحياء.

رابعاً: حق الحياء.

(الموضوع)

لقد تميّز ديننا بمميزات كثيرة، ومن هذه المميزات دعوته إلى مكارم الأخلاق ومعاليها؛ ونبذه لمساوئها وسفاسفها، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) [أخرجه أحمد في مسنده]. ومن الأخلاق التي تميّز بها ديننا والتي كانت علامة ظاهرة في دعوته وفي سمائه دعوته إلى الحياء حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ) [أخرجه ابن ماجه وهو ضعيف]. فما هو الحياء وما هي فضائله وما هو شأنه عند السابقين. وسوف يدور اللقاء حول هذه الموضوع في النقاط التالية:

أولاً: في تعريفه وماهيته وشيء من أنواعه.

قيل في تعريف الحياء تعاريف كثيرة؛ منها: «تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به ويُذمُّ» وقيل: «هو خلق يبعث على اجتناب القبيح من الأفعال والأقوال ويمنع من التقصير في حقّ ذي الحق» وغيرها. فإذا ما أخطأ الإنسان أو ارتكب إثماً أو قصّر في حقّ ذي حقّ عليه

(1) من المراجع الأساسية في هذا الموضوع كتاب (فقه الحياء). للدكتور محمد بن إسماعيل المقدّم نفع الله بعلمه.

من أبٍّ أو أمٍّ أو مُعلِّمٍ أو شيخٍ أو أي إنسان له عليه حقٌّ من الحقوق؛ تَعْلُو وجهَهُ حُمْرَةٌ من الخجل وتتكسّر عَيْنَاهُ فلا تستطيع تحليقاً في شأنٍ من قصرٍ فيها ..

وهذا الخلق من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام وحضَّ عليها أتباعه، وذلك لما له من الثمرات النافعة والمنازل العالية والفضائل الجامعة؛ ومنها:

ثانياً: فضائل الحياء وثمراته.

1 - أَنَّهُ خَاصَّةُ الْإِنْسَانِيَةِ وَتَاجُ وَقَارِهَا. فالإنسان بدون الحياء تجده كالبهائم أو أشد بهيميةً منها. فهو الخُلُق الذي يبعث في الإنسان سترَ عورته والتحلّي والتزيُّن وانتقاءَ الجميل من الكلمات والفعال واللباس. وقد قال بعض العقلاء: «عليك بالحياء والأنفة؛ فإنك إن استحييت من الفضاحة اجتنبت الخساسة وإن أنفت من الغلبة لم يتقدّمك أحدٌ في مرتبة» وما أحسن قول النبي صلى الله عليه وسلم في بيان هذا المعنى: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فافْعَلْ مَا شِئْتَ) [صحيح البخاري]؛ فالإنسان إذا لم يستح فلا رقيب عليه ولا حسيب وحدث بما شئت عن سوء خلقه وقلة دينه وسوء أدبه وكلاحة وجهه بما شئت فلن تجده إلا مقيتاً مُمَقْتاً.

2 - أَنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ..). [صحيح البخاري] وعند مُسلم في رواية أخرى: (الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ. قَالَ: أَوْ قَالَ: الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ) [صحيح مُسلم]. ولأجل ذلك استدل العلماء على نجابة الصبي ونباهته ونبوغه وإشراق عقله بأمارات؛ منها: الحياء. حتى قال أحدهم: «أول حُسْنِ المراقبة ظهور الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الأفعال؛ فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض، فصار يستحيي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق، وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهمل، بل يُستعان على تأديبه بحيائه».

3 - الحياء إيمان. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أحاديث؛ منها: (الإيمانُ بضَعٍّ وسَبْعُونَ، أو بضَعٍّ وستُونَ، شُعْبَةٌ، فأفضَلُها قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) [صحيح مسلم] وقال أيضاً: (الحياءُ والإيمانُ قُرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ) [المُستدرِك للحاكم]. وفي الصحيح: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ) [صحيح البخاري] ويوضح هذا المعنى ويُجَلِّيه قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه وقد كان عنده قوم فذكروا الحياء، فقالوا الحياء من الدين، فقال هو رضي الله عنه: «بل هو الدين كله».

4 - الحياء أبهى زينة. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما كان الفُحْشُ في شيءٍ إِلَّا شَانَهُ، وما كانَ الحياءُ في شيءٍ إِلَّا زَانَهُ) [سنن الترمذي وأحمد في المسند]. فَنِعْمَ ما يَتَزَيَّنُ به المرءُ هو الحياء. ومن ثَمَّ قِيلَ: «الإيمان عُريَان، ولباسُهُ التقوى، وزِينَتُهُ الحياء».

5 - الحياء من صفات الله عز وجل وهو سبحانه يُحِبُّ الحياء. وهو حياء يليق به سبحانه وتعالى وليس تغيرا وانكسارا لخوف ما يُعَاب عليه كما في الإنسان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل هو من قبيل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فسمِعُ الله تعالى وبصره ليس كالآدميين وكذلك حياؤه وجميع صفاته التي قد يُفهم منها اتفاق في الاسم. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرَدَّاهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ) [الترمذي في السنن والحاكم في المُستدرِك]. وقد رُوِيَ: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِلأَشْجِّ الْعَصْرِيِّ: إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يَحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْحَيَاءُ) [سنن ابن ماجة واللفظ له].

6 - الحياء من صفات المرسلين. وكيف لا يكونوا كذلك؟! وهم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أكمل الناس حياةً. فهذا موسى صلى الله عليه وسلم: (كَانَ رَجُلًا حَيًّا سِتِيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتُرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بَجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أَدْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ

ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69] [صحيح البخاري].

وكذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي زكاه ربه في خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم] كان من أعظم الأنبياء وأكلمهم حياءً صلى الله عليه وسلم؛ فهو القائل في حديث الإسراء والمعراج عند سؤال التخفيف على أمته أمر الصلاة عندما قال له أخوه الحيي الآخر موسى صلى الله عليهما وسلم: (فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ) [صحيح البخاري] فاللهم نسألك الرضا والتسليم. وكذلك: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِذْرِهَا. وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ) [صحيح البخاري]. ومما يدل على توارد جميع الأنبياء على هذا الخلق ما سبق في الحديث: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فافْعَلْ مَا شِئْتَ).

فانظر إلى الحياء وما عاد به على أصحابه من الثمرات؛ فهذه محبة الله تعالى لأهله، وهذا الإيمان الذي قد ازداد، وهذه الزينة التي تحلوا بها، وهذه القدوة التي ساروا وراءها مع ركب النبيين والصالحين.

ثالثاً: من سير الصالحين مع الحياء.

وهذه صور من سير الصحابة والتابعين والصالحين؛ من أتباع الأنبياء والمرسلين، فهم القدوة والأسوة التي يُؤتسى ويُقتدى بهم بعد رسل الله عز وجل الكرام.

فهذا **عثمان بن عفان** رضي الله عنه؛ وقد بيّن شدة حيائه هذا الموقف الذي تحكيه عائشة رضي الله عنها إذ قالت: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخْذَيْهِ - أَوْ سَاقِيهِ - فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَوَّى ثِيَابَهُ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسَتْ وَسَوَّيْتُ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ!) [صحيح مسلم] وفي رواية: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيٍّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ أَذْنُتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ). وقيل في شدة حيائه أنه كان يكون في البيت خاليا والباب عليه مغلق فما يضع عنه الثياب ليُفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يُقيم صُلبه. وقد ورد هذا الفعل عن غيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أمثال: (أبي موسى الأشعري) رضي الله عنه.

وهذه عائشة رضي الله عنه أنها كانت تستحي من عمر رضي الله عنه بعد مماته؛ فما كانت تدخل حُجرة القبر الشريف بعد دفنه فيها إلا مشدودة عليها ثيابها كاملة. وكانت قبل ذلك لأنها تدخل على أبيها أبي بكر وزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتأمل ما رُوي عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر: أن فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت: يا أسماء، إني قد استقبحت ما يُصنع بالنساء، أن يُطرح على المرأة الثوب فيصفها؛ فقالت أسماء يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أريك شيئاً رأيته بالحبشة؛ فدعت بجرائد رطبة فحنّتها ثم طرحت عليها ثوبا فقالت يا فاطمة ما أحسن هذا وأجمله تُعرف به المرأة من

الرجل فإذا مِتُّ فاغسليني أنت وعليّ، ولا يدخل عليّ أحدٌ فلمّا توفيت غسلها عليّ وأسماء رضي الله عنهما. [أخرجه البيهقي. وفي سنده من يحتاج إلى كشف].

ومن صور الحياء التي ذكرها القرآن الكريم؛ هاتان الفتاتان التي ذكر الله عز وجل قصتهما مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم وفيها: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي لَهْمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴿٢٥﴾ [القصص] فليست هذه المرأة خراجة ولا جة بل قد وضعت كمّ درعها على وجهها استحياءً!! وكذلك كان موسى عليه الصلاة والسلام حيياً فلم يسترسل معهما في الخطاب ولم يسألهما عن مكانهما ولا بلدهما ولا قبيلتهما ولم يستأنس بالحديث معهما، وإنما سقى لهما ثم ثولى إلى الظل داعياً ربه.

رابعاً: حق الحياء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استحيوا من الله حق الحياء، فقلنا: يا نبي الله إنّنا لنستحيي، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، ومن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) [المستدرک للحاکم]. وعن معاوية القشيري قال يا رسول الله: (عورائنا ما تأتي منها وما نذر؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن استطعت أن لا يراها أحدٌ فافعل، فقال: الرجل يكون خالياً؟ قال: الله أحق أن يستحي منه من الناس) [أخرجه أصحاب السنن وأحمد في المسند] فمن علم أن الله تعالى عالمٌ بأحواله رقيب عليه لا تخفى عليه خافية كان حياؤه من الله تعالى أشد من حيائه من الناس. وكان حافظاً لرأسه وبطنه وجوارحه ذاكراً للموت مُتقللاً من الدنيا وزينتها وزخارفها.

ومن حق الحياء كذلك: أن يستحي المرء من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى به لا سيما الكرام الكاتبين؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٧٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٧١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار].

وعلى العبد أن ينظر في:

أسماء الله تعالى وصفاته ويتدبر فيها.

النعم التي أفاض الله تعالى بها عليه.

وإلى الذنوب التي سترها الله عز وجل عليه فلم يفضحه به بين خلقه؛ بل وإلى الذنوب التي غفرها الله تعالى له يوم العرض عليه وما أحسن قول القائل: «وَأَسْأَلُكَ مِنْكَ إِذَا عَفَوْتَ»؛ فتخيل مُذْنِبًا مُقْصِرًا غَافِلًا مُتَكَاسِلًا فِي حَقِّ سَيِّدِهِ .. ثُمَّ يَغْمُرُهُ سَيِّدُهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْغُفْرَانِ!!.

فكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ: سَتَوْقِظُ فِي نَفْسِهِ الْحَيَاءَ. بَلْ وَسَتَجْعَلُهُ فِي رُكْبِ الصَّالِحِينَ.

والحمد لله رب العالمين

المسئولية

العناصر:

مقدمة.

الأول: نصوص في المسئولية؛ وعموميّتها.

الثاني: مسئولية عامة وخاصة.

الثالث: أثر المسئولية في الآخرة.

(الموضوع)

الإنسان .. مخلوق كَرَّمَهُ الله تعالى على سائر الخلق؛ فقد قال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء]، وقال جل ذكره: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين] فهو مخلوق مُكْرَّمٌ؛ فقد جعل الله تعالى له عقلاً؛ وجعله مناط تكليفه، وجعله في أحسن تقويم وهيئة، وليس هذا فقط؛ بل وسخر له جميع المخلوقات من حوله تيسيراً لأداء مهمته في هذه الحياة.

وقضية التكریم هذه لها لازمٌ لابد من لفت الانتباه إليه؛ وهذا اللازم هو "المسئولية". فقد جاءت الإشارة إلى هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿يَنَّايُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝١ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار]، وقوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة].

فالربُّ الكريم الذي خلق فسوّى وعدل لا يُعْتَرَّ به، فيومُ الدين آتٍ لا محالة؛ وسيُسأل العباد فيه على ما قدّموا؛ إنَّ خيراً فخير وإنَّ شراً فشرُّ. وكما أنَّك أيها الإنسان كنت نطفة من مني يُمنى؛ من ماء مهين، وبعدها علقه ثمَّ إلى أن كان منك الزوجان؛ الذكر والأنثى؛ .. فهل بعد هذا تظنُّ أنك في هذه الحياة سُدَى هملاً بلا أمر أو نهى!!.. فلا بد من إعداد إجابات وافية لكل ما يُتوقَّع عنه السؤال .. وهذه والله قاصمة الظهر فنسأل الله العفو... آمين.

وحتى يتضح الأمر أكثر عن هذه المسؤولية فسوف تكون في هذه النقاط التالية:

الأول: نصوص في المسؤولية وعموميتها.

تعددت النصوص الدالة على بداهة هذا الأمر وضرورته؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَاتَّهَوْا لَذِكْرُ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف] وقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَنَقُورَ رِجْلِكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ) [أخرجه البخاري]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ: - وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [أخرجه البخاري].

فهذه النصوص تُجَلِّي تلك القضية جلاء حسناً مُحْتَمّاً؛ فلا فكاك منه ولا مناص، فالرسل ومن أرسلوا إليهم سيُسألون.

وكُلِّمَّا ازدَدَّتْ من مظاهر التكريم؛ كلما ازدادت مسؤوليتُك. فأنت بغير رعية لن تُسأل عنها، وبغير مال لن تُسأل عنه، وبغير علم لن تُسأل عنه، وبغير ذرية لن تُسأل عنها، فإذا ما اجتمع لك

من مظاهر التكريم هذه أو من غيرها فسوف تسأل عنها؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ) [أخرجه أبو داود في السنن]. فكلما حصلت واحدة من هذه الكمالات - (المال أو الذرية أو المنصب أو الرعية..)- وُضِعَ عَلَيْكَ فِيهَا الْقَلَمُ. وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسألَ عن خمسٍ: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم) [أخرجه الترمذي في السنن].

الثاني: مسئولية عامة وخاصة.

من الناس من تكون مسئوليته فردية شخصية تتعلق بذاته فقط؛ وقليل هؤلاء بل نادرون. فهل يوجد شخص يعيش في هذه الحياة بلا والد أو ولد، يعيش بلا أسرة أو يعيش بلا عمل أو لا يتعامل مع الناس ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: (كلُّكم راعٍ .. الحديث).

فالمسئولية الخاصة إذا: أقصد بها النواة الأولى في المجتمع (الأسرة)؛ فسيُسأل المرء عن أولاده وعن زوجته وعن تربيتهم وتعليمهم وعن أخلاقهم وأعمالهم؛ فقد وصَّى الله تعالى الآباء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم].

والمسئولية العامة وهي ذات التأثير العام على الأفراد والمجتمعات؛ ومن صورها:

العالم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَيَتَنَدَّلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) [أخرجه البخاري]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِنْ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ،

وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) [أخرجه مسلم].

فالعالم يُسأل من جهاتٍ متعددة: (عن علمه وعمله وقصده بهذا العلم، وعن مُتبعيه على هذا العلم إن كانت سنةً حسنةً أو سيئةً).

الإمام (الراعي). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من رجلٍ يلي أمرَ عشرةٍ فما فوق ذلك إلا أتى الله مغللاً يومَ القيامةِ يدهُ إلى عنقه فكَّه برُّه أو أوثقه إثمُه؛ أولُّها مَلَامَةٌ وأوسطُها نَدَامَةٌ وآخرُها خِزْيٌ يومَ القيامةِ) [أخرجه أحمد]. فإذا كان هذا وصف من يلي أمرَ عشرةٍ فما فوق يومَ القيامةِ!! فما بالنا بمن يلي أمرَ بلدٍ من البلدان، أو أمرَ إقليم، أو محافظة، أو مدينة، أو قرية، أو إن شئتَ فقل: أمرَ جامعة، أو كلية، أو مدرسة، أو معهد، أو ما شابه هؤلاء كلهم بالملايين أو الآلاف أو المئات .. وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ) [سنن الترمذي].

العامل: وهذه الكلمة كلمةٌ عامةٌ واسعةٌ؛ فالعامل هو كلُّ مَنْ كُلفَ بعملٍ من الأعمال، فهو مطالب بإحسان عمله فانه تعالى قال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة] فإن الله تعالى يرى هذا العمل ويُجازي صاحبه عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) [أخرجه مسلم].

فالذين يعملون: في الوعظ والإرشاد الديني، وفي التربية والتعليم، وفي الصحة، وفي الطرق والمواصلات، وفي الزراعة والصناعة .. وفي أيِّ مجالٍ من مجالات العمل؛ لهؤلاء جميعاً أقول: الله ينظر إلى أعمالكم يراها لا تغيب عنه فأزوا الله تعالى من أنفسكم وأعمالكم خيراً. لا سيَّما هؤلاء الذين يتقاضون أجراً على أعمالهم؛ سواءً كان هذا الأجر من الدولة أو من الأفراد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ رَجُلًا لَا يَخَوِّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بَغِيرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أخرجه

البخاري]. وهذا لأن العمل الذي أنت مُقيم عليه يتعلق بحقوق الآخرين؛ فيزداد الأمر أهمية إذ يتعلق صاحب الحق بحقه الذي استخلفك الله عليه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من ولّاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلّته وفقره) [أخرجه أبو داود].

القاضي (والمفتي): القاضي والمفتي لهما عند الله تعالى مقام عظيم؛ فكلّ منهما يُسأل؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سَكِّينٍ) [أبو داود في السنن]. وقال أيضاً: (القضاء ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق ف قضى به. ورجل عرف الحق، فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار) [أبو داود في السنن]. وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو يعلم الناس ما في القضاء ما قضاوا في ثمن بكرة! ولكن لا بد للناس من القضاء، ومن إمرة؛ برّة أو فاجرة». وكذلك المفتي: الذي يُفتي الناس في دينهم وأعراضهم وأموالهم. كيف حال هؤلاء أمام الله عز وجل إذا ما سألهم عن فتاويهم وأقضيّاتهم.

وكل من تصدّى لأمر هو فيه قدوةٌ لغيره سيسأل عن من أضلهم؛ وقد قال الله تعالى لأُمّهات المؤمنين: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا [الأحزاب] فلما كانت مكانتهن رفيعّة كانت عقوبتهن مناسبة لتلك المكانة؛ فهنّ قدوة لغيرهنّ من النساء. ومن هذا القبيل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْثِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ) [أخرجه البخاري] فلو قاحت جُرّاته وقلة حيايه وإشاعته المنكر بين الناس كان هذا جزاءه. وقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿الأعراف﴾ فكان هذا الضَّعْفُ نظيرَ الاقتداء بهم في الإضلال.

الثالث: أثر المسؤولية في الآخرة.

مما لا شك فيه .. أن للمسئولية شأنًا عظيمًا في الآخرة، فإذا ما حافظ الإنسان على مظاهر التكريم التي استخلفه الله تعالى عليها تنبؤًا؛ المكانة العظمى عند الله تعالى يوم القيامة، فالعامل والعالم، والقاضي والمفتي، والوالد، والمرأة والخادم في مال سيده .. وكلُّ مسئولٍ أدَّى ما عليه أخذ الأجر العظيم؛ والذي منه:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: (العَبْدُ إِذَا نَصَحَ سَيِّدَهُ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ) [أخرجه البخاري]، ومنه قوله: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَرْجٌ وَجَلٌّ - وَكُلُّتا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) [أخرجه مسلم]؛ ومنه قوله: (..) وَإِنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَأُورِثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ) [أخرجه أبو داود]. ويكفي عن هذا كُلُّهُ مضاعفةُ الله تبارك وتعالى الحسنات التي يعملها هؤلاء؛ في الحديث: (إِذَا أَسْلَمَ الْكَافِرُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ كُلَّ حَسَنَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَمَحَى عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ عَمَلُهُ بَعْدَ الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ) [أخرجه النسائي]. وانظر في هذه الرواية وإلى اشتراط حسن الإسلام فيها.

والحمد لله رب العالمين.

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر

المقدمة.

أولاً: النصوص العامة.

ثانياً: اليسر في العبادات.

ثالثاً: اليسر في المعاملات والعبادات.

رابعاً: وماذا في العسر؟!.

(الموضوع)

الشرعية الإسلامية؛ شريعة لا يصلح الزمان ولا المكان إلا بها، فهي من لدن حكيمٍ عليمٍ لطيفٍ خبير. وهذه الشريعة - أعني: ما جاء بها محمدٌ صلى الله عليه وسلم - خاتمة الشرائع والرسالات السماوية؛ الأمر الذي لأجله كانت أحكامها مُيسرةً في مقدور البشر وفي استطاعتهم، فليس بعدها تيسير أو تخفيف. وقد بين الله تعالى إرادته لخلقه فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء]. فكلُّ أحكامه وتشريعاته سبحانه وتعالى؛ لا تخرج عن هذا التخفيف أو تتجاوز به إلى العسر والتشديد.

وفي هذه الموضوع أتناول - إن شاء الله تعالى - علامة بارزة من علامات الشريعة الإسلامية؛ وهي: أنها جاءت باليسر والسعة نابذةً للتشديد والتضييق على عباد الله تعالى. وهي في هذه النقاط:

أولاً: النصوص العامة.

تنوعت النصوص الشرعية في دلالتها على هذا الأمر العظيم؛ فمنها نصوص تدل على نفي الحرج والضيق في العبادة؛ مثل قوله جلَّ ذكره: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴿[الحج] وفي آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة]. فإذا كان الأمر في الدين أو شريعة من شرائعه فقد نفى الله تعالى عنه هذا الأمر.

وكذلك من أنواع الدلالات: ما ذكر الله تعالى في كتابه من نفي التكليف بما لا يُطاق أو بما هو فوق الوسع والقدرة؛ فقد قال جل ثناؤه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة] ومما يؤيد هذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم؛ قوله: (دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [صحيح البخاري].

وكذلك من الدلالات العامة: الآيات الدالة على إرادة التخفيف والتيسير؛ أمثال قوله تعالى في آيات الصيام: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة]؛ ومع أن إرادة اليسر تقتضي نفي العسر؛ إلا أن الله تعالى قد ذكر الحكيم معاً للدلالة على هذا الأمر العظيم. وكذلك قوله عن الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة]، وكذلك قوله عن القرآن الكريم والرسالة عموماً: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس]؛ فهل تتناسب هذه الأوصاف التي وُصِفَ بها النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به؛ مع الحرج والضيق والغنت والمشقة؟ أم أن الفرح الذي يفرح به المؤمن يكون فرحاً بما هو عاجز عنه أو فرحاً بما شاق عليه؟!.

وكذلك جاءت نصوص القرآن الكريم مُصرِّحة بنفي الإصر والحرج والضيق عن المسلمين بل كانت علامة بارزة على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة عن اليهود والنصارى؛ فقد قال تعالى عنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الْحَبَّاثِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٠١﴾ [الأعراف]. وقال تعالى أيضا في خواتيم سورة البقرة في دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة] وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي عن هذا الدعاء: (قد فعلت) [صحيح مسلم].

ومن أقول النبي صلى الله عليه وسلم الدالة على هذا المعنى العظيم؛ معنى التيسير ورفع الحرج عن العباد؛ قوله عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ) [صحيح البخاري]. وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث بول الأعرابي؛ وفيه: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقْعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) [صحيح البخاري].

وإذا كان هذا هو التأصيل العلمي لهذه القاعدة العظيمة ولهذا المعنى الجليل، ففي العبادات والمعاملات الإسلامية ما يشهد لها ويظهرها ويجليها تجلية؛ أمثال:

ثانياً: اليسر في العبادات.

قد جاءت صور كثيرة في العبادات؛ لهذا التيسر ورفع الحرج عن الناس، أمثال:

- في العقيدة: من أكره على كلمة الكفر وكان قلبه مطمئن بالإيمان؛ فلا حرج عليه ولا إثم، وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل]. وكذلك من تكلم بها غالطاً غير قاصد كأن يسبق لسانه إلى كلمة لا يريدها بقلبه مثل من قال: (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ) [صحيح مسلم]. وغيرها..

- وفي الصلاة: تأتي صور كثيرة للتخفيف والتيسير على العباد؛ فعندنا المسح على الخفين

بشروطه للمسافر والمقيم، وكذلك المسح على الجبائر، وكذلك التيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله، وكذلك إيقاع الصلوات بوضوء واحد أو الوضوء لكل صلاة، والجمع والقصر للصلوات أو قصرها في السفر، وكذلك جواز صلاة النافلة على الراحة في السفر، وكذلك التخفيف على الناس في الصلاة وعدم التشديد عليهم بكثرة القراءة والتطويل فيها، وكذلك إباحة الصلاة أثناء المشي أو الركوب في صلاة شدة الخوف (في القتال)، وكذلك إباحة بعض الحركات أو التنقلات التي يحتاج إليها المصلي ليدفع عنه مؤذياً أو مُهلكاً .. وغير ذلك الكثير من تخفيات في الصلاة.

- في الزكاة. ويأتي في الزكاة تشريع يتناسب مع محبوبية المال لدى الإنسان؛ فإذا أمر

الإنسان بإخراج جزء كبير من ماله يظهر بخله وشحّه؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣١) **إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّصْكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ** [محمد]. فهو سبحانه وتعالى: «إن يطلب منكم جميع أموالكم ويلحّ في طلبها منكم، تبخلوا بها، ويخرج ما في قلوبكم من كراهية الإنفاق في سبيله، فترك طلبها منكم رفقاً بكم».

ولذلك: فإننا نجد المطلوب من هذا المال في فرض الزكاة؛ يتفاوت قدره بالنسبة لهذا المال؛

فمثلاً: زكاة النقدين وما شابهها من الأموال النقدية (ربع العشر = 2.5%) إذا بلغ المال نصاباً وحال عليه الحول، وكذلك في المواشي (النعم = الإبل والبقر والغنم) إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول وكانت سائمة = (لا يتكلف لها صاحبها نفقة) وفي الزرع عند حصاده: (نصف العشر أو العشر كله) إذا بلغ خمسة أوسق، إذا كان يُسقى بآلة أو لا يُسقى كلُّ له نصيبه من الزكاة على حسب حاله. وهذا الذي يُخرج في الزكاة كل عام، إلا في الزرع فعند الحصاد فقط.

ومن يُسر الشريعة أنّها لا تأمر تابعيها بالكسب حتى يُحصلوا النصاب ثم يُخرجوا الزكاة

عليه؛ بل حبّبت إليهم الكسب دفعا للمسكنة والفقير وبذلاً للصدقات.

— وأما في الصيام. فالمرضى والمُسافر والمرضع والحامل لا يُكَلَّف أحدٌ منهم بالصيام؛ توسعة عليهم ورفقا بهم، ثم إذا تمكنوا بعد ذلك من القضاء قضوا ما عليهم من الأيام التي أفطروا فيها بعذرهم. ومن مظاهر تيسيره على العباد أنه شهر في العام، ومن الفجر إلى الغروب، وأنه فُرض علينا كما فُرض على الذين من قبلنا.

— وأما في الحج. فمرة واحدة في العمر وعلى المُستطيع؛ فقد سأل سائل النبي صلى الله عليه وسلم: (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ) [صحيح مُسلم]. وكذلك مَنْ تَتَبَعَ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في الحج وجد منهجه الأسمى وتخفيفه على المسلمين ما جاء في هذه الرواية عن عبد الله بن عمرو: (أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ يَوْمَ النَّحْرِ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَنْحَرَ، نَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ، لَهُنَّ كُلُّهُنَّ، فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا قَالَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ) [صحيح البخاري]. وكذلك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو واقفٌ على راحلته: (هَاتِ الْقُطَّ لِي) فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ وَهِيَ حَصَى الْخَذْفِ فَلَمَّا وَضَعْتُهِنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: (نَعَمْ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ) [أخرجه النسائي وأحمد].

ثالثاً: اليُسْرُ في المعاملات والعادات. فإذا كان الدِّينُ؛ الذي هو أساس السعادة في الدنيا والآخرة قد جاء مصحوباً باليسر والسهولة، لا حرج فيه ولا ضيق، فهل كانت دنيا الناس بما فيها من المعاملات والعادات بعيدة عن هذا المعنى أم أن الوسائل لها أحكام المقاصد؟! فلم تكن الدنيا في نظر الشرع الشريف بهذا المقدار الذي يستدعي اهتماماً بالغاً؛ بل كانت كما قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: (نام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على حَصِيرٍ فقام وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ فُقُلْنَا يا رسولَ الله لو اتَّخَذْنَا لك وِطَاءً فَقَالَ ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكِبٍ اسْتَبَلَّ تحتَ شجرةٍ، ثم راح وتركها) [سنن الترمذي] وكذلك الوصية النبوية لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) [صحيح البخاري]، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربةً ماءً) [سنن الترمذي].

فلهذا: كانت لا تستحق العناء ولا التعب ولا الضيق ولا الإرهاق. ولأجل هذا كانت تعاليمه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب مبنيةً على السماحة واليسر ونفي العسر؛ فمثلاً:

- في البيع والشراء وقضاء الديون. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى) [صحيح البخاري].

- في النكاح وتوابعه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيرُ الصداقِ أيسرُهُ) [صحيح الجامع للألباني] بل عندما علم النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل أنه أصدق امراته أربع أواق من الفضة قال مُنْكَرًا: (عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ؟ كَأَنَّمَا تَتَحَيَّثُونَ الْفِضَّةَ مِنْ غُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ، مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ، وَلَكِنْ عَسَى أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ، قَالَ: فَبَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي عَبَسٍ بَعَثَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فِيهِمْ) [صحيح مسلم]. وفي رواية: (أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَوْنَةً) [أخرجه أحمد وغيره، وفيه مقال]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ألا لا تغالوا صدقة النساء. فإنها لو كانت مكرمةً في الدنيا أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبي الله صلى الله عليه وسلم. ما علمتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نكحَ شيئاً من نسائه، ولا أنكحَ شيئاً من بناته، على أكثر من ثنتي عشرة أوقية) [سنن الترمذي وغيره]. وعن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ تَيْسِيرَ خِطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرَ رَحِمِهَا) [الألباني في صحيح الجامع] وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه: (إِنَّ مِنْ شَوْمِ الْمَرْأَةِ أَنْ يَكْثُرَ صَدَاقُهَا).

- في البناء والتعمير وزخارف الحياة. وأمّا هذا .. فما أكثر تضيق الناس على أنفسهم في هذه الأمور!. حتى إن الكثير من الناس قد يُتعب نفسه ويُتعب غيره السنين الطوال؛ ويُضيق على نفسه، بل ويُقصر في بعض المأمورات التي أمره الله تعالى بها: لأجل تشييد بيت أو شراء عربة أو إعمار مكان من الأماكن، أو تحصيل رحلة أو نُزهة من النُزه؛ وقد قال الله تعالى واصفاً أحوال المشركين وما هم فيه من النعيم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُونَ ﴿٣٣﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف]، حتى إن الكثيرين من أهل الدنيا يصدق فيهم وصفُ النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يَبغضُ كلَّ جَعظَرِيٍّ جَوَاطٍ، سَخَابٍ في الأسواقِ، جيفةٍ بالليلِ، حِمَارٍ بالنهارِ، عالمٍ بأمرِ الدنيا، جاهلٍ بأمرِ الآخرة) [وهو حديث ضعيف]. وقد أصبح سعي الكثيرين في هذا الشأن - إلا من رحم الله تعالى وعصم - إلى تحصيل الترف الزائد الذي لا يعود على صاحبه بالنفع، وما هذا إلا محبةً في الدنيا وتعظيمًا لشأنها وإيثارها على الباقية.

رابعاً: وماذا في التشديد والعُسْر؟. فإذا كان هذا هو أمر اليسر في الشريعة الإسلامية؛ فماذا إذا لم يراع المسلم هذه التعاليم؟. لا شك أنه:

- سيُضيع حقوق الكثيرين المتعلقة به. فقد: (آخَى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً ، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، قَالَ: فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ) [صحيح البخاري]

— سيُهلك نفسه. ففي الأثر: (إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ فأوغِلَ فيه برفقٍ، ولا تُكرِهْ عبادةَ اللهِ إلى عباده، فإنَّ المُنبِتَّ لا يقطعُ سفرًا، ولا يستبقي ظهراً) [مرسل صحيح عن عائشة عند البيهقي في الشعب] وما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (يا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَاجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا) [صحيح البخاري].

— سيكون مُخالفًا لهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولسنَّته. (جاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنِ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيُّنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [صحيح البخاري]

— سيُصيب نفسه بالملل. فقد جاء في الأثر وله قصة: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ) [صحيح البخاري].

والحمد لله رب العالمين.

حق المسلم على المسلم

العناصر:

المقدمة.

الأول: إيجابيات واجبة مع المسلمين.

الثاني: سلبيات لا تجوز مع المسلمين.

(الموضوع)

"المسلم أخو المسلم" هكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وقد قال الله تعالى في أفصح كلام وأوضحه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات]. وكذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام ممثلاً هذا الإخاء فقال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) [أخرجه البخاري]. وقال أيضاً: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) [أخرجه البخاري]. فهي أخوة إسلامية متينة أشبه ما تكون بعقد مُبرم بين أطراف متعددة؛ ومُحاطٌ بسياسٍ منيعٍ من دخل فيه أصبح له وعليه أمور لا بد من مراعاتها، وعقدُ الإخاء له متطلبات تتمثل في حقوقٍ للأفراد وواجباتٍ عليها ولها، وقد جعلت هذه المتطلبات في العناصر التالية:

الأول: إيجابيات واجبة مع المسلمين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ) [أخرجه البخاري]، وفي رواية: (وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ) [أخرجها مسلم]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) [أخرجه البخاري]. فقد اشتملت هذه الآثار على حقوق بين المسلمين واجبة لا يجوز التفريط فيها بأي سبيل.

وهذه الحقوق:

أولها: **رُدُّ السلام**. فالرُدُّ واجبٌ على المسلم إذا ما سلَّم عليه أخوه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أُولَئِكَ أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) [أخرجه مسلم]، وقال أيضاً: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) [أخرجه البخاري]. وليحذر المسلم من أن لا يكون مُفْشِيًا للسلام إلا مع إخوانه فقط؛ لا سيما والبلد بلدٌ مُسلم؛ فمن علامات الساعة الصغرى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ، وَفُشْوَى التَّجَارَةِ، حَتَّى تُعَيَّنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التَّجَارَةِ، وَقَطَعَ الْأَرْحَامُ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَكِتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهُورُ الْقَلَمِ) [أخرجه أحمد في المسند].

ثانيها: **عيادة المريض**. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ) [أخرجه مسلم]. ومعناه: أنه لم يزل يجني من ثمار الجنة مُدَّةَ دوامه عنده زائراً. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مُسْتَقْهَمًا: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. فَقَالَ: مَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. فَقَالَ: مَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جِنَازَةً؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: مَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ قَطُّ فِي رَجُلٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) [أخرجه مسلم]، فهذه الأعمال سبب لدخول الجنة شريطة أن تجتمع لأصحابها فيه. وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضٌ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي

فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ] فَمَنْ يَعُودُ مَرِيضًا يَجِدُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ وَالْأَجْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

ثَالِثُهَا: اتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ (وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ). فَمَنْ حَقَّ الْمُسْلِمُ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ أَنْ يَتَّبِعَ جَنَازَتَهُ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ، فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَ حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ، قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]. وَفِي رَوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: (كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ).

رَابِعُهَا: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَجِيبُوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ إِذَا دُعِيتُمْ لَهَا). "وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَأْتِي الدَّعْوَةَ فِي الْعُرْسِ وَغَيْرِ الْعُرْسِ وَهُوَ صَائِمٌ". [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ] وَقَالَ: (إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ] وَمَعْنَى فَلْيُصَلِّ: أَيِ "يَدْعُوا لَهُمْ"، وَقَوْلُهُ: (فُكُّوا الْعَانِي، يَغْنِي: الْأَسِيرَ، وَأَطْعَمُوا الْجَائِعَ، وَعَوَّدُوا الْمَرِيضَ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ].

خَامِسُهَا: تَشْمِيتُ الْعَاطِسِ. فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَّاسَ وَيَكْرَهُ التَّنَاقُوبَ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللَّهَ، كَانَ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَأَمَّا التَّنَاقُوبُ: فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَنَاقَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُرِدِّهِ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا تَنَاقَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ) [أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ]، وَإِذَا لَمْ يَحْمَدِ اللَّهُ تَعَالَى فَلَا تُشَمِّتْهُ؛ فَعَنْ أَبِي بَرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ فِي بَيْتِ بَنَاتِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَعَطَسْتُ فَلَمْ يُشَمِّتْنِي، وَعَطَسْتُ فَشَمَّتَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى أُمِّي فَأَخْبَرْتُهَا، فَلَمَّا جَاءَهَا قَالَتْ: عَطَسَ عِنْدَكَ ابْنِي فَلَمْ تُشَمِّتْهُ، وَعَطَسْتُ فَشَمَّتَهَا، فَقَالَ: إِنَّ ابْنَكَ عَطَسَ، فَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ، فَلَمْ أُشَمِّتْهُ، وَعَطَسْتُ، فَحَمِدَتِ اللَّهَ فَشَمَّتَهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ، فَشَمِّتُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ، فَلَا تُشَمِّتُوهُ) وَكَانَ لِأَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زَوْجَتَانِ. [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ]. وَلَأَجْلِ فَضْلِ الدَّعَاءِ

بالرحمة لمن حمد الله عند عطاسه: (كانت اليهود تعاطس عند النبي صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول لها: يرحمكم الله فكان يقول: يهديكم الله ويصلح بالكم) [أخرجه أبو داود].

سادسها: إذا استنصحتك فانصح له. النصيحة في الإسلام لها مقام عظيم، ولعظيمها كانت محل اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها تجسّد لهذا الأمر العظيم، فهو القائل: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ) [أخرجه مسلم]، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأخذ البيعة من أصحابه عليها؛ فهذا جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه يقول: (بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) [أخرجه البخاري].

وإذا كان هذا هو أمرها عموماً فكيف إذا ما طُلبت منك لأخيك وقت حاجته؛ فسألك إياها مُسترشداً أو مُستفهما فتكون حينئذ من أوجب الواجبات التي تؤدي إلى توثيق العلاقة الإيمانية والأخوة الإسلامية؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: .. وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ) [أخرجه مسلم].

ومما يُذكر في هذا المقام؛ أن الصحابي الجليل الذي روى حديث النصيحة هذا (والنصح لكل مُسلم): قد طبّق الحديث تطبيقاً بديعاً؛ إذ أنه: «وَقَفَ فِي نَاحِيَةِ السُّوقِ، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ تَمُرُّ عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِهِ فَرَسٌ فَأَعْجَبَهُ، فَقَالَ: لِمَوْلَاهُ انْطَلِقْ فَاشْتَرِ ذَلِكَ الْفَرَسَ، فَاَنْطَلَقَ مَوْلَاهُ، فَأَعْطَى صَاحِبَهُ بِهِ ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ، فَأَبَى صَاحِبُهُ أَنْ يَبِيعَهُ فَمَا كَسَهُ، فَأَبَى صَاحِبُهُ أَنْ يَبِيعَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى صَاحِبِ لَنَا نَاحِيَةِ السُّوقِ؟ قَالَ: لَا أَبَالِي فَاَنْطَلَقَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَنِّي أُعْطِيتُ هَذَا بِفَرَسِهِ ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ فَأَبَى، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ صَاحِبُ الْفَرَسِ: صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فَتَرَى ذَلِكَ ثَمَنًا، قَالَ: لَا فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ تَبِيعُهُ بِخَمْسِمِئَةٍ حَتَّى بَلَغَ سَبْعِمِائَةَ دِرْهَمٍ أَوْ ثَمَانِمِئَةٍ، فَلَمَّا أَنْ ذَهَبَ الرَّجُلُ أَقْبَلَ عَلَى مَوْلَاهُ، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ انْطَلَقْتَ لِتَبْتَاعَ لِي دَابَّةً، فَأَعْجَبْتَنِي دَابَّةُ رَجُلٍ، فَأَرْسَلْتُكَ تَشْتَرِيهَا، فَجِئْتَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُودُهُ وَهُوَ يَقُولُ: مَا تَرَى مَا تَرَى، وَقَدْ «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عَلَى النَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» (أخرجه الطبراني في المعجم الكبير). فقد استتصحه؛ فنصح له ولم يُبال بالخسارة المالية التي تلحق به. رضي الله عنه.

سابعها: وهو عام (يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) [أخرجه البخاري]. فالمُسلم من علامات كمال إيمانه أنه يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. وهذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم؛ فالمُسلم يُحِبُّ لِنَفْسِهِ جلب المنافع ويُحِبُّ كذلك دفع المفساد عنها وهكذا يجب أن يكون مع إخوانه⁽¹⁾.

وهذه الواجبات السبع؛ من شأنها أن تجعل الشأن العام للمسلمين شأنًا عاليًا مُتَّخِذاً مترابطاً لا غش فيه ولا دَخَل. إذ إن عيادة المريض وتشميت العاطس وإفشاء السلام واتباع الجائز.. أمورٌ عامَّة ظاهرة وشأنها في المجتمع أن تصنع رأياً عاماً يسرُّ الموحِّدين ويغيظ الظالمين.

الثاني: سلبيات لا تجوز مع المسلمين.

السلبيات التي لا تجوز بين المسلمين كثيرة جداً؛ ولكني أكتفي بذكر أمورٍ ظاهرة، من شأنها أن تُعكِّرَ صفو المجتمع المُسلم في صورته العامَّة ومنها:

(1) وقد اقتصرنا على ذكر هذه الواجبات السبع؛ ولا يعني هذا أن الواجبات المتعلقة بهذا الموضوع هي فقط بل هي أكثر من ذلك؛ فقد قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام: «.. وَمِنْهَا: حُسْنُ الصُّحْبَةِ وَكَرَمُ الْعِشْرَةِ، وَكَفُّ الْأَدَى وَبَذْلُ النَّدَى، وَإِكْرَامُ الضُّعْفَانِ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَبْرَانِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَمِنْهَا الْعَدْلُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْإِحْسَانُ وَالْإِجْمَالُ، وَمِنْهَا الْوَفَاءُ بِالْعُقُودِ وَالْعُهُودِ، وَإِنْجَازُ الْوُعُودِ، وَإِكْرَامُ الْوُفُودِ، وَمِنْهَا الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا اقْتَتَلُوا وَاخْتَلَفُوا وَامْتَنَعُوا مِنَ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ، أَوْ بَغَوْا عَلَى الْأَئِمَّةِ أَوْ اجْتَرَعُوا عَلَى الْأَئِمَّةِ. وَمِنْهَا إِرْشَادُ الْحَيَارَى، وَتَرْوِيجُ الْأَيَّامِ وَوُدُّ الْأَصْدِقَاءِ، وَإِكْرَامُ الْأَرْقَاءِ وَالْبَشَاشَةُ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَمِنْهَا أَنْ يُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَبَلَّغَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَصِلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَيُعْطِيَ مَنْ حَرَمَهُ، وَيَعْفُو عَنْ ظَلَمَةٍ، وَيُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، وَمِنْهَا أَنْ يُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ كَتَعْظِيمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِكْرَامِ الْأَتَقِيَاءِ، وَاحْتِرَامِ الْأَوْلِيَاءِ، وَتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ، وَرَحْمَةِ الضُّعَفَاءِ، وَمِنْهَا أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَأَنْ لَا يَبِيعَ عَلَى بَيْعِهِ ..» وعدّها بعض العلماء من كلامه رحمه الله تعالى فجاوزت السبعين حقاً بين المكلفين؛ يُنظر: عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان د: حكمت بشير ياسين. جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود. ص: (628). نقلاً عن قواعد الأحكام.

فمن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا. وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرِضُهُ) [أخرجه مسلم]. وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه: (.. ولا يُسْلِمُهُ ..) [أخرجه مسلم]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: (.. ولا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها) [أخرجه البخاري]⁽¹⁾. وقال أيضاً: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا). [أخرجه البخاري]. ومن هذه السليبيات الشائعة:

الأول: لا تحاسدوا. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا يجتمعان في قلب عبد الإيمان والحسد) [أخرجه النسائي]. وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم الحسد قتلاً؛ فقد: (مرَّ عامرُ بنُ ربيعةَ بسهلِ بنِ حنيفةٍ وهو يغتسلُ، فقال: لم أرَ كالْيَوْمِ ولا جِلْدَ مُحَبَّاةٍ. فما لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ، فَأَتَيْ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: أَدْرِكَ سَهْلًا صَرِيحًا. قال: مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟ قالوا: عامرُ بنُ ربيعةَ. قال: على ماذا يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟! إذا رأى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبِرْكَ. ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ، فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ، فغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمَرْفِقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمَرَ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ) [أخرجه أحمد وابن ماجه]. وقال معاوية رضي الله عنه: «كُلُّ النَّاسِ أَقْدَرُ عَلَى رِضَاهِ إِلَّا حَاسِدَ نِعْمَةٍ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالَهَا». وهناك فرق بين العين والحسد: إذ كلُّ منهما يوقع الضرر بالآخرين ولكن العائن تتكيف نفسه عند مُلاَقَاةٍ مَنْ يُرِيدُ إِضْرَارَهُ، أمَّا الحاسد فليس شرطاً أَنْ يَرَى مَنْ يَحْسِدُهُ فَقَدْ يَحْسِدُ إِنْسَانًا غَائِبًا عَنْهُ لَا يَرَاهُ؛ بخلاف العائن. فكلُّ عائنٍ حاسدٍ وليس كلُّ حاسدٍ عائن.

(1) قد ذكرتُ أمورا من هذه السليبيات وتركتُ أُخْرَ؛ والذي تركته قد تكلمت عنه قبل ذلك في مواضيع مُفْرَدَة.

الثاني: (لا تناجشوا)، (ولا يبيع بعضكم على بيع بعض). وهاتان الخصلتان المذمومتان هما في المعاملات المادية كالبيع والشراء.

فالنجش: أن يزيد في السلعة مَنْ لا يُريد شراءها. ولا يفعله إلا أنه يُريد إما نفع البائع أو ظلم المشتري.

وأما (ولا يبيع بعضكم على بيع بعض). وهذا صورته كثيرة جداً؛ فكم من صفقة تمت ثم انقصت عراها بإغراء البائع أو المشتري بثمن أعلى مما اشتراها أو باعها به، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يبيع حاضر لباد، دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللَّهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) [أخرجه مسلم].

الثالث: لا تباغضوا ولا تدابروا. وهذا نهْيٌ شديد عن هاتين الخصلتين؛ التباغض والتدابير، فالتباغض أمرٌ يسعى الشيطان لإيقاعه بين المسلمين بكل سبيل؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أُيسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ) [أخرجه مسلم]؛ فإن كان قد يئس من أن يكون معبوداً فلم ييأس من أن يوقع بينهم الخلافات والمشاحنات. وكذلك: (ولا تدابروا). فلا يؤلِّي أحدكم دُبره لصاحبه في المجالس، أو لا يختلفون في الأقوال والنقاشات التي تكون بينهم جдалاً ومراءً. وإلا ففي التقاطع والتدابير فساد ذات البين وما أخطرهما من بليّة يُصاب بها المجتمع.

الرابع: ولا يخذله ولا يُسلمه. فالمُسلم عليه أن ينصر أخاه المسلم؛ لا أن يخذله أو يُسلمه لعدوه، وكذلك لا يكون عوناً للشيطان أو الأعداء على أخيه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُرُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ) [أخرجه البخاري]. وقد جاء في الحديث الضعيف: (ما من امرئٍ يخذلُ امرأً مسلماً في موضعٍ تُنتهك فيه حرمةٌ ويُنتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطنٍ يحب فيه نصرته وما من امرئٍ ينصرُ مسلماً في موضعٍ

يُنْقَضُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حَرَمَتِهِ إِلَّا نَصْرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يَحِبُّ نَصْرَتَهُ) [أخرجه أبو داود]. **والجزء من جنس العمل.** ويزداد الأمر أهمية إذا ما استنصرك أخوك أي طلب منك النصرة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال].

الخامس: ولا يحقره (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم). فلا يليق بالمسلم أن يزدري أخاه أو ينتقصه أو يلمزه أو يهيمزه؛ فهذا من أخلاق الكافرين؛ وقد قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿مَا نَرٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ [هود] وقد قال نوح عليه السلام لهم ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود] قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات]، وهذا الازدرا والاحتقار من علامات الكبر التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس) [أخرجه مسلم]. وإلا فقد يكون الشخص الذي تزدريه أو تحقره خيرا عند الله تعالى من كثير ممن تراهم؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه المقارنات عن شخص لا يسمع لكلامه ولا تقبل شفاعته ولا ينكح إذا ما قورن بالآخرين في مكانتهم بين الناس: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) [أخرجه البخاري].

وانظر هذه الكلمة: (بحسب امرئ من الشر!! يكفيك شراً واثماً وذنبا احتقارك لأخيك !!..!!

السادس: (ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها). كم من البيوت هُدمت وقُطعت أوصل المحبة بين أفرادها بسبب هذا الأمر؛ فهذه امرأة تُريد لأختها المسلمة أن تفارق زوجها وأن تفارق بيتها!! لماذا؟ حسدا وبغضا وكرها. فلربما رأَتْ من حُسن العشرة

بين أفراد هذا البيت ما لم تجده عندها فأسرعت في التفريق بينهم!! وهذا رجل أراد أن يُفسد على أخيه خطبته فسعى في الإيقاع بين أفراد الأسرتين، أو تقدّم هو بجاهه وسلطانه ونفوذه كي يخطب امرأة مخطوبة لأخيه المسلم!!.

السابع: **ولا تحسسوا ولا تجسسوا**. قد ذكر ابن كثير في تفسيره؛ قول الأوزاعي: «التَّجَسُّسُ: الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ». وَالتَّحَسُّسُ: الْإِسْتِمَاعُ إِلَى حَدِيثِ الْقَوْمِ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَسْمَعُ عَلَى أَبْوَابِهِمْ. وَالتَّدَابُّرُ: الصَّرَمُ».

وقد: (صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوتٍ رفيعٍ فقال يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله) [أخرجه الترمذي]. وقد جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال فلان تقطر لحيته خمرا - وهذا دليل على شربها - فقال له رضي الله عنه: (إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به) [أخرجه أبو داود] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يقرؤن منه؛ صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة) [أخرجه البخاري] فالرصاص يُصب في أذنه جزاء وفاقا.

والحمد لله رب العالمين⁽¹⁾.

(1) - في كلّ خصلة من هذه الخصال (أيجابيات أو سلبيات) تكمن تفاصيل كثيرة؛ فكل واحدة منها تسع مقاما أو تصنيفا مفردا لها؛ ولكني آثرت إبرازها بهذه الصورة لأنه في كثير من الأحيان تذهب التفاصيل رونق الكلام وعذوبته، ومقام والوعظ ليس كمقام التصنيف أو المحاضرات العلمية الأكاديمية... والله أعلم.

ما تصلح به الدنيا

العناصر:

المقدمة.

الأول: بناء الدولة .. وسيلة وليس غاية.

الثاني: القواعد العامة للبناء.

الثالث: القواعد الخاصة والشخصية للأفراد.

الموضوع

من المواضيع التي لها أثر كبير في النقاشات والحوارات هذا الموضوع؛ إذ ما من مسلم لا يريد لبلده ووطنه الخير - لا سيما ونحن في هذه الأزمان -؛ ولكن كم من مُريد للخير لا يبلغه!! أو كم من مُريد للخير قد أخطأ طريقه فتاه في صحراء من التيه؛ شعر بذلك أو لم يشعر.

وقبل أن أدخل في خضم هذا الموضوع أذكر نقطتين أساسيتين؛ هما بمثابة توصيف لحال نعيشه ومدخل للقائنا كذلك.

الأولى: طبيعة الدين والمجتمع الذي نعيش فيه. فالناظر في الخطاب الإلهي يرى أمراً واضحاً؛ وهو التنبيه على خصوصية المنهج وخصوصية الانتماء إليه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۚ﴾ هَذَا بَصِيرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية] وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأُدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۖ﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج]؛ فديننا ومنهجنا وطريقتنا؛ كل هذه الأمور تختلف في

طبيعتها عن الآخرين مما يترتب عليه أحكامٌ وتفصيلٌ وقوانينٌ تتبثق من هذه الشريعة لأبنائها ولا تصلح لغيرهم إلا إذا انضموا تحت لوائها. وكذلك للعرب طبيعة تخصهم فما يصلح لغيرهم لا يصلح لهم؛ فقد وصفهم ابن خلدون بأوصاف منها: « العرب لا يحصل لهم الحكم والملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين ... والسبب أنهم أصعب الأمم انقياداً بسبب الغلظة والأنفة وبُعدُ الهمة والمنافسة في الرياسة وقلما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الحكم بالدين أو الولاية ذهب عنهم خلق الكبر والمنافسة فسهل انقيادهم واجتماعهم ... فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يدعوهم للقيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق يتم اجتماعهم ويحصل لهم الغلبة والملك» فلنا طبيعة مختلفة ديناً وجبلةً وخلقةً ومكاناً.

الثانية: تعدد قراءات النص المقدس لدى المسلمين أدّى إلى اختلاف تلك العوامل. وهذه النقطة أدت إلى تباين الرؤى واختلاف وجهات النظر؛ فهذا يقرأ القرآن والسنة وفي ظنه أنه يطبقها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، والآخر يقرأهما كذلك ويرى ما لا يراه الآخر ومع ذلك يدعي ما يدّعيه، وثالثٌ ورابع وخامس.. كلٌ له وجهته وطريقته التي يفهم بها كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا الاختلاف بين أشخاصٍ هدفهم ومرجعيتهم واحدة؛ ولكن اختلفت وسائلهم.

ناهيك عن تلك الأطياف التي ليس لها مرجعية دينية أصلاً؛ وجعلت الظروف المعاصرة لهم رأياً ومنزلةً ليست بالهينة بل لها ثقل وأيّ ثقل!! وترى هي الأخرى رؤيةً أو رؤى لا تتوافق مع تلك الرؤى المنبثقة من المرجعية الدينية. فلا شك حينئذٍ من الاختلافات الشديدة حول هذه الموضوع المحوري والمهم. وهذا مما يجعل الحديث عنه ضرورة ملحة. فأقول وبالله تعالى التوفيق.

الأول: بناء الدولة .. وسيلة وليس غاية.

تلك هي نقطة البدء .. فهل نسعى لبناء دولة قوية الأركان، شامخة البناء، عظيمة الجاه والسلطان، مرهوبة الجناح، .. وفقط؟ أم هل نسعى لبناء دولة فيها العلماء الأفذاذ في كل فن، وفيها الاختراعات والابتكارات، وفيها التقدم والرقي، وفيها التحضر والثقافة والفنون، وفيها ما يبهر العيون ويخطف القلوب الأبواب .. هل هذا ما نسعى إليه وفقط؟. هل نسعى في هذا البناء لكي يكون الإنسان مُسَخَّرًا لخدمة ما حوله بناءً وتشبيدًا أم نسعى لكي يكون هذا البناء كله مسخرًا لهذا الإنسان؟!.

فإذا كانت الدولة وسيلة .. فلأي غاية تكون؟، وإذا كانت غاية فماذا بعد هذه الغاية؟ فهل نحن فيها مخلصون أم هل نحن نُعَمَّرُ ونُعَمَّرُ ونُعَمَّرُ ونُعَمَّرُ ونُعَمَّرُ ونُعَمَّرُ .. وفقط؟ أم بعد الموت سنسأل عن تعمير وبناء وتشبيد خلا عن قصدٍ وغاية؛ فالنبي عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات)؟ .

فلننظر .. لماذا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من بلده؟ ولماذا جهّز الجيوش وخاض هو وأصحابه من بعده الغزوات والمعارك؟ هل لكي يُعَمَّرَ قطعة من الأرض يُقيم عليها الأبنية والقصور والأسوار كما كانت الدول المجاورة له أم ماذا؟ لا شك بأنه لم يفعل ذلك لأجل هذا، وإنما لأجل ما ذكره الله تعالى بقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج] فينبغي أن نضع هذا في حُسابنا أن بناء الدولة في الإسلام إنما هو وسيلة لإقامة دين الله عز وجل في الأرض.

ولعل في آية الأنفال التي يأمر الله تعالى فيها المؤمنين بإعداد العدة - وهي الوسيلة - ملحقاً إلى هذه الغاية التي تترتب عليها؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾. فليس المقصود هو العدة أو التعمير المجرد فحسب؛ بل لأجل إرهاب أعداء الله تعالى الذين هم أعداؤنا.

وإذا ما كان الأمر كذلك فهناك قواعد عامة للبناء وأخرى خاصة بالأشخاص والأفراد. وهاك

هي:

الثاني: القواعد العامة للبناء.

أبدأ هذه القواعد بِذِكْرِ مَقَالَةٍ لِلإمام الماورديّ الشافعي رحمه الله تعالى؛ إذ يقول فيها: «اعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ تَصْلُحُ الدُّنْيَا حَتَّى تَصِيرَ أَحْوَالُهَا مُنْتَظِمَةً، وَأُمُورُهَا مُلْتَمِةً، سِتَّةُ أَشْيَاءَ هِيَ قَوَاعِدُهَا، وَإِنْ تَفَرَّعَتْ، وَهِيَ: دِينٌ مُتَّبَعٌ وَسُلْطَانٌ قَاهِرٌ وَعَدْلٌ شَامِلٌ وَأَمْنٌ عَامٌّ وَخِصْبٌ دَائِمٌ وَأَمَلٌ فَسِيحٌ» فـ:

أولاً: دِينٌ مُتَّبَعٌ. فأبْنِ بِنَاءً لِلدَّيْنِ أَوْ يَقُومْ عَلَى إِقْصَاءِ الدِّينِ فَهُوَ إِلَى زَوَالٍ وَأَمْرِهِ إِلَى اضمحلال؛ فقد قال الله تعالى في مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٩١﴾﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٩٢﴾﴾ [النور] فالتمكين والاستخلاف في الأرض واستبدال الخوف بالأمن؛ هذا كُلُّهُ مشروطُ بأمور: (تحقيق الإيمان الذي يتبعه عملُ الصالحات؛ والذي يتمثل في العبودية وتوحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به). ولقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى كلاماً مُهِمًّا وفي آخره: «فَالصَّحَابَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَمَّا كَانُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَطَوْعَهُمْ لِلَّهِ - كَانَ نَصْرُهُمْ بِحَسَبِهِمْ، وَأَظْهَرُوا كَلِمَةَ اللَّهِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَيَّدَهُمْ تَأْيِيدًا عَظِيمًا، وَتَحَكَّمُوا فِي سَائِرِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ. وَلَمَّا قَصَرَ النَّاسُ بَعْدَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَوَامِرِ، نَقَصَ ظُهُورُهُمْ بِحَسَبِهِمْ». فما علينا إِلَّا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا أَمَرَنَا مُتَّخِذِينَ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْبَابِ الْمُتَاحَةِ لَنَا، وَلَا نَنْظُرُ الْكَافِرِينَ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ فَهَمَّا أَوْتُوا مِنْ قُوَّةٍ فَمَا لَهُمْ بِئْسَ الْمَالُ.

ولأجل ركنية هذا الأمر في بناء الدول؛ لم يُخلِ الله تعالى منه أمةً من الأمم فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر].

ثانياً: سُلْطَانٌ قَوِيٌّ⁽¹⁾. قال الماوردي عن هذه القاعدة: «سُلْطَانٌ قَاهِرٌ تَتَأَلَّفُ مِنْ رَهْبَتِهِ الْأَهْوَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَتَجْتَمِعُ لِهَيْبَتِهِ الْقُلُوبُ الْمُتَفَرِّقَةُ، وَتَكْفُ بِسَطْوَتِهِ الْأَيْدِي الْمُتَغَالِبَةُ، وَتَمْتَنِعُ مِنْ خَوْفِهِ النَّفُوسُ الْعَادِيَةُ؛ لِأَنَّ فِي طِبَاعِ النَّاسِ مِنْ حُبِّ الْمُغَالِبَةِ عَلَى مَا آثَرُوهُ وَالْقَهْرِ لِمَنْ عَانَدُوهُ، مَا لَا يَنْكَفُونَ عَنْهُ إِلَّا بِمَانِعٍ قَوِيٍّ، وَرَادِعٍ مَلِيٍّ».

فإذا ما كان السلطان قوياً مرهوباً الجناح؛ انضبطت به الأحوال واستقامت له الأمور، وهكذا كان المسلمون في دولهم القوية على مدى التاريخ، كان حُكَّامها فيها أقوياء فليسوا بالضعفاء وليسوا بالعجزة في اتخاذ القرارات.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه الحليم البكاء كانت قوته معروفة مشهورة؛ فيقف في خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وفي سقيفة بني ساعدة وفي بعث أسامة رضي الله عنه وفي حروب المرتدين وقبل ذلك في صلح الحديبية مواقف يعجز عنها أفذاذ الصحابة وأقويائهم أمثال عمر رضي الله تبارك وتعالى عن الجميع. وهكذا كان عمر وعثمان وعلي في خلافتهم رضي الله تعالى عنهم جميعاً. فقد جمعوا بين القوة والدين والسياسة الحسنة والأخلاق الفاضلة. وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرٍّ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي، فَلَا تَأْمَرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ) [أخرجه مسلم وأبو داود واللفظ له] فلا يليق بالإمارة والولاية إلا من كان قوياً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يولي خالد بن الوليد في معارك كثيرة لقوته وشدته ويُقدِّمه على كثير من الصحابة وفيهم من هو أفضل منه في أبواب أخر.

(1) أجد في لفظة القهر التي استخدمها الإمام الماوردي معنى من المعاني التي لا يجوز وصف الحاكم المسلم بها؛ لذلك عدلت عنه إلى لفظة "القوي" ولورودها في النصوص الشرعية.

وكذلك القوي ولو كان في بعض أخلاقه وعبادته ضعفًا: فقوته تكون للأمة وأما ضعفُ عبادته فيكون على نفسه؛ فقد سئل الإمام أحمد مسألة فيها: «من نولي القيادة، الفاجر القوي أم التقى الضعيف؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للأمة وفُجوره على نفسه، وأما التقى الضعيف فتقواه لنفسه وضعفه على الأمة»، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ) [أخرجه البخاري]،

ثالثًا: وَعَدْلٌ شَامِلٌ. فلا بد من العدل الشامل الظاهر الذي «يَدْعُو إِلَى الْأُلْفَةِ، وَيَبْعَثُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَتَتَعَمَّرُ بِهِ الْبِلَادُ، وَتَتَمُّو بِهِ الْأَمْوَالُ، وَيَكْثُرُ مَعَهُ النَّسْلُ، وَيَأْمَنُ بِهِ السُّلْطَانُ. فَقَدْ قَالَ الْمَرْزُبَانُ لِعَمْرٍ، حِينَ رَأَاهُ وَقَدْ نَامَ مُتَبَدِّلًا: عَدَلْتُ فَأَمِنْتُ فَمِنْتُ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعُ فِي خَرَابِ الْأَرْضِ وَلَا أَفْسَدُ لِضَمَائِرِ الْخَلْقِ مِنَ الْجَوْرِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَقِفُ عَلَى حَدٍّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ» قاله الماوردي.

وقد أمر الله تعالى بالعدل في كثير من المواطن من كتابه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، ..) [أخرجه البخاري] وقد جاء في سبب هلاك الأمم السابقة ما نصّه في قصة المرأة المخزومية التي سرقت: (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بَنَتْ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) [أخرجه البخاري]، وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في آخر زمانها: (النجوم، وتكذيبٌ بالقدر، وحيفُ السلطان) [صحيح الجامع الألباني]. وفي آخر حديثنا عن هذا الركن الركين الذي به صلاح الدنيا وقوامها أذكرُ دعاءَ النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ يقول فيه: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ؛ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ) [أخرجه مسلم]. و(بالعدل قامت السماوات والأرض) [أخرجه أحمد في المسند وله قصة].

رابعاً وخامساً: وَأَمْنٌ عَامٌّ وَخِصْبٌ دَائِمٌ. فلا بد في بناء الدول واستقرار أحولها من هذين الأمرين معاً الأمن العام والخصب الدائم؛ وإلا .. فكثير من الناس من إذا أصابهم الضرُّ والفرعُ والخوفُ وقلةُ الرزقِ وسوءُ المعيشة؛ تنهدم أحوالهم وتتقلب حياتهم وتنكس؛ فينتشر الجوع والفقر

والمرض ومن ثم يكون الجهل والكسل، فبعد البناء والعتمير يكون الخراب والتدمير وبعد الأمن يكون الخوف والفرع. وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى على قريش فقال: ﴿لَيْلَفٍ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش] وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل]. فالأمن والاطمئنان مع الرزق الوفير من أعظم المظاهر الدالة على الاستقرار.

وقد قال الماوردي رحمه الله تعالى: «وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: لَا تَسْتَقْضِينَ إِلَّا ذَا حَسَبٍ وَمَالٍ، فَإِنَّ ذَا الْحَسَبِ يَخَافُ الْعَوَاقِبَ وَذَا الْمَالِ لَا يَرْغَبُ فِي مَالٍ غَيْرِهِ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي وَجَدْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي النَّفَى وَالْغِنَى، وَشَرَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْفُجُورِ وَالْفَقْرِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغِنَى ... وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ»

سادساً: وَأَمَلٌ فَسِيحٌ. ذكر ابن حجر العسقلاني في الفتح معنى من المعاني اللطيفة في الأمل؛ فقال: «وقال ابن الجوزي: الأمل مذموم للناس إلا للعلماء فلولاً أملهم لما صنفوا ولا ألفوا، وقال غيره: الأمل مطبوع في جميع بني آدم كما سيأتي في الحديث الذي في الباب بعده (لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين حب الدنيا وطول الأمل)، وفي الأمل سرٌّ لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تهنَّى أحدٌ بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنَّما المذموم منه الاسترسال فيه وعدم الاستعداد لأمر الآخرة فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته له» فلولاً وجود الأمل لما طاب للإنسان أن يشرع في عملٍ من الأعمال. ومن الأمل المحمود العاقبة قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ... قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أَرْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخْلَفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ) [أخرجه البخاري]

فهذا يعمل ويكتسب؛ وقد فتح له النبي صلى الله عليه وسلم آفاقاً من الأمل وصل إلى وراثته حتى ينتفعون بما خلفه لهم من أسباب الحياة؛ وقد أحسن الماوردي في قوله عن هذه القاعدة؛ إذ يقول فيها: «أَمَلٌ فَسِيحٌ يَبْعَثُ عَلَى اقْتِنَاءِ مَا يَقْصُرُ الْعُمُرُ عَنْ اسْتِيعَابِهِ وَيَبْعَثُ عَلَى اقْتِنَاءِ مَا لَيْسَ يُؤْمَلُ فِي دَرَكِهِ بِحَيَاةِ أَرْبَابِهِ. وَلَوْلَا أَنَّ الثَّانِي يَرْتَفِقُ بِمَا أَنْشَأَهُ الْأَوَّلُ حَتَّى يَصِيرَ بِهِ مُسْتَغْنِيًا، لَأَفْتَقَرَ أَهْلُ كُلِّ عَصْرِ إِلَى إِنْشَاءِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَنَازِلِ السُّكْنَى وَأَرَاضِي الْحَرْثِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْإِعْوَازِ وَتَعَدُّرِ الْإِمْكَانِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ». فمن يبني بيتاً أو مدرسة أو معهداً أو جامعة أو .. ينبغي عليه أن لا يُراعي مدّة حياته فقط بل يتطلّع إلى نفع الأجيال التي ترتفق وتنتفع بما قام به وهكذا في كل عمل من الأعمال ومع كل جيل من الأجيال.

الثالث: القواعد الخاصة والشخصية للأفراد. ومنها:

أولاً: لا يُؤْتَى البناء من قبلك. فكل فرد من الأفراد ينبغي عليه أن يضع نُصب عينينه أنه فرد من مجموع، وأنه على ثغرٍ من ثغور هذا المجموع، فلا يفتح لأعداء الله ورسوله باباً هو عليه حارسٌ أو أمينٌ، وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه؛ وحديثه الذي فيه: (وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) [أخرجه البخاري] ما يدلُّ على هذا المعنى. فهو فرد من مجموع وفعله سيؤثر على جماعته بينما سينفعه هو !!

ثانياً: عدم تقديم المصلحة الشخصية على العامة. وحديث السفينة شاهدٌ على هذه القاعدة؛ وفيه: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا) [أخرجه البخاري]. فلا يليق بالمسلم أن يستمتع بشيء وفي هذا الشيء هلاكٌ لمجتمعه.

ثالثاً: الألفة والمودة والإخاء بين الأفراد. لأن بهذه الأشياء تتصهرُ الفوارق الشخصية بين الأفراد وتتلاشى؛ فلا يكون التعالي ولا الازدراء. فالكل في حاجة إلى الكل، ولن يستوفي أحدٌ حاجته من أخيه إلا بذلك.

وقبل أن أختم هذا الموضوع؛ أقول:

في نموذج الهجرة النبوية إلى المدينة أصدقُ تمثيلٍ لوسائلِ وأساسياتِ البناء، وأظهرُ توضيح لغاياته وأهدافه؛ فينبغي أن ننظر في مُقدّمات الهجرة وأسبابها وما أدّت إليه من نتائج. فهذا الموضوع بأسره يُعتبر درسٌ من دروسها.

نفني الله تعالى وإياكم بما نقول ونسمع

والحمد لله رب العالمين.

التوكل والأخذ بالأسباب⁽¹⁾.

العناصر:

أولاً: ماهيته وأهميته.

ثانياً: التوكل بين الأخذ بالأسباب والتوكل.

ثالثاً: آثار التوكل وثمراته.

(الموضوع)

أولاً: ماهيته وأهميته.

— أمّا الماهية؛ فهو كما قيل: «أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذلّ جهده في فعل الأسباب النافعة..» ومن الممكن أن يكون: أن يشتغل القلب بالله تعالى اعتماداً واستعانة وجاء.. وأن تشتغل الجوارح بما لديها من أسباب مُسَخَّرَة.

— وأمّا الأهمية؛ فقد جاءت النصوص الشرعية مُنْبِهَةً ومُوضِّحة لمقامه من الدين؛ والتي

منها:

أمره سبحانه وتعالى به؛ حيث قال جلّ ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان]. وكذلك من أمره سبحانه أيضاً: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا

(1) من المراجع المهمة في هذه الخطبة: (أعمال القلوب) د/ خالد بن عثمان السبت.

﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿المزمل﴾. بل ونهى كذلك عن اتخاذ غيره وكيلاً: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء]

ومما يُبين أهمية التوكل كذلك؛ أنه من أخص خصائص المؤمنين؛ حيث قال ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال].

وكذلك كان هذا التوكل هو حال الأنبياء والمرسلين. فعلى لسانهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين جاء حديث كثير في القرآن الكريم عن التوكل؛ والذي منه قوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّاتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَقْضَوْا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾ [يونس] أي: «إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم، وشق عليكم تذكيري بآيات الله ووعظي، وعزمت على قتلي، فعلى الله وحده اعتمدت في إحباط ما تكيدون، فأحكموا أمركم، واعزموا على إهلاكه، وادعوا آلهتكم لتستعينوا بها، ثم لا يكن كيدكم سرًّا مبهمًا، ثم بعد تدبيركم لقتلي امضوا إلي ما تُضمِّرون، ولا تؤخروني لحظة». وعن هود عليه السلام، جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَشَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٢﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود]. وعن محمد صلى الله عليه وسلم جاء قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة] وانظر كذلك إلى عظيم توكله صلى الله عليه وسلم في هذا الحدث: (غزوًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة نجد، فلما أدركته القائلة، وهو في وادٍ كثير العِضاه، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينما نحن كذلك إذ دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجنبنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط

سَيْفِي، فَاسْتَيْقِظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، مُخْتَرِطٌ صَلَاتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [صحيح البخاري]

وعن جمعٍ من الرسل قال الله تعالى في مواجهتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم إذا قام يتهجد من الليل: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) [صحيح البخاري]، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ - لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ) [صحيح مسلم]

ثانياً: التوكل بين الأخذ بالأسباب والتوكل.

من المعلوم أننا إذا حققنا التوكل على الله تعالى كما ينبغي؛ فإن هذا سيدفعنا إلى الجد والاجتهاد والأخذ بالأسباب المادية التي سخرها الله تبارك وتعالى لنا، ونحن بذلك لا نُوصَفُ بعدم توكلنا على الله تعالى. فإن التوكل - كما سبقت الإشارة إليه - هو: اشتغال القلب بالله واعتماده عليه سبحانه مع اشتغال الجوارح بالأسباب المادية المتاحة التي شرعها الله عز وجل. فالتوكل عملٌ للقلب يُقارنه عملٌ للجوارح. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بينهما؛ فقال: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا

تَعَجُّزُ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لو) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ [صحيح مُسلم] فالحرص على ما ينفع والاستعانة بالله عز وجل معا جنبا إلى جنب.

ولذلك فمن جاء بأحد العملين وترك الثاني؛ فلا يُعَدُّ من المتوكلين، وقد جاء عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قوله: (كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ..) فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة] وفي «جامع العلوم والحكم»: عن معاوية بن قرة، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي ناسا من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. فقال: "بل أنتم المتكّلون، إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض، ويتوكل على الله". وفي الخبر: (قال رجلٌ للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُرْسِلْ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلْ؟ قال: (اعقلها وتوكل)) [سنن الترمذي، وابن حبان في صحيحه وفيه كلام كثير].

ولأجل ذلك ترى نصوص الكتاب والسنة وأحوال النبيين والمرسلين شاهدة على علو مقامهم في هذين البابين معاً؛ فكانوا سادة للعالمين في التوكل وسادة للعالمين في الأخذ بالأسباب؛ ففي:

- **العبادة وطلب الرضوان الإلهي والفوز بالجنة**؛ يأخذ بالأسباب ولا يتكل على عفو الله تعالى ورضوانه. فالإيمان والأعمال الصالحة من الزكاة والجهاد والحج وصلة الأرحام وغيرها من الأسباب الموعود عليها صاحبها بالجنة. لا بد من الإيتيان بها وعدم الاتكال على سعة رحمة الله تعالى وعفوه.

- **طلب الرزق**؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات] وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - قَالَ: أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلَاقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَدِّنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ،..)

[صحيح البخاري]. فالرزق مضمون ومكتوب ومُقَدَّر ومع ذلك لا نتوكل على هذا المكتوب فنحن لا نعلمه؛ وإنما نأخذ بالأسباب التي أمرنا الله تعالى بها، ومنها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك] وغيرها من الآيات، ونرى رسولنا صلى الله عليه وسلم: (كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِمَّا لَمْ يُوجِبِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بَخِيلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سَنَّتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ، عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [صحيح البخاري].

— **الجهاد؛** مع قول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة]. إلا أننا نراه عليه الصلاة والسلام يُعِدُّ العُدَّةَ للجهاد ويلبسُ البيضةَ (الخوذة) في الحرب. بل ويأمر الله عز وجل المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم، وأن يُعِدُّوا لهم ما استطاعوا من العُدَّة والعتاد؛ فيقول جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَافِئَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَاْ خُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَافِئَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَاْ خُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿وَاعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال].

— **الهجرة وأحداثها:** نراه صلى الله عليه وسلم في أحداثها؛ يأخذ بكل الأسباب المُتاحة لديه؛ فيخرج ليلاً، ويتخذ دليلاً في طريقهم، ومعهما راحلتان، وكذلك قد كان لأبي بكر ولأبنائه ومواليه - عبد الله، وأسماء، وعامر بن فُهيرة - رضي الله عنهم جميعاً أدوارٌ مُهمّة في هذا الحدث العظيم. وكذلك يظل النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار مُدّة من الزمن اختفاءً من طلب قريش لهما. والله تعالى قادرٌ على أن يمنع نبيّه صلى الله عليه وسلم من قريش ومن أذاها بأدنى هذه الأسباب؛ بل وبلا سبب. ألم يكن قبل هذا الحدث بقليل حدثٌ آخر تجلّت فيه وظهرت قدرة الله تعالى الإلهية في انتقال النبي صلى الله عليه وسلم بجسده وروحه من مكّة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماوات العُلى وذاك في رحلة الإسراء والمعراج. وكان هذا في جزء من الليل!!.

- التداوي والاستشفاء؛ نرى هديه عليه الصلاة والسلام في الأمر بالتداوي واضحاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) [صحيح مسلم]، وقول أسامة بن شريك رضي الله عنه: (شَهِدْتُ الْأَعْرَابَ يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَيْنَا حَرْجٌ فِي كَذَا أَعْلَيْنَا حَرْجٌ فِي كَذَا فَقَالَ لَهُمْ عِبَادَ اللَّهِ وَضَعَ اللَّهُ الْحَرْجَ إِلَّا مَنْ اقْتَرَضَ مِنْ عَرَضِ أَخِيهِ شَيْئًا فِذَاكَ الَّذِي حُرِّجَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ عَلَيْنَا جَنَاحٌ أَنْ لَا نَتَدَاوَى قَالَ تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْهَرَمَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ قَالَ خُلُقٌ حَسَنٌ) [سنن الترمذي وابن ماجه] وهذا كله لا يُنافي تقدير الآجال والأعمار. فالتوكل على الله تعالى في الشفاء والعافية لا يُنافي الأخذ بالأسباب التي تدفع نزول البلاء أو ترفعه.

- الاستفادة مما عند الآخرين. فلم تمنع الشريعة أتباعها من الاستفادة مما عند الآخرين حتى وإن كانوا يُخالفوننا في المعتقد أو الشريعة؛ ولكن بضوابط معروفة منثورة في كلام العلماء⁽¹⁾؛ فيها هو النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بفكرة الفرس عندما حفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب، وكذلك همُّه صلى الله عليه وسلم أن يمنع رضاع الغيلة؛ و«هي أن يُجامع الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَهِيَ مُرْضِعٌ، أَوْ هِيَ حَمْلُ الْمَرْأَةِ وَهِيَ تُرْضِعُ، وَسَبَبُ عَزْمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّهْيِ عَنْهَا؛ أَنَّ الشَّائِعَ وَقَتْنَدِ أَنَّهُ يَتَضَرَّرُ الرَّضِيعُ مِنْ ذَلِكَ» ولكننا نراه صلى الله عليه وسلم يُعلل عدم النهي بـ: (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَقَارِسَ، فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ، فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا) [صحيح مسلم]. فالاستفادة مما عند الآخرين من التجارب والمعارف والعلوم النافعة. أمرٌ لا يُنافي التوكل ولا يُناقضه وهذه سنة النبي صلى الله عليه وسلم بين أيدينا.

(1) لقد كتبْتُ في ذلك بحثاً بعنوان: (قواعد في التواصل العلمي والحضاري بين الثقافات) جمعت فيه شيئاً من هذه الضوابط. فليراجعه مَنْ شاء، وهو منشور على الشبكة.

إن التواكل والاحتجاج بالقدر على تخلفنا؛ جعلنا نُشرعُ واقعاً نحن من صنعناه، إن المؤمن مأمور بالسعي، ومأمور بتحقيق العزة الإيمانية على هذه البسيطة، ومأمور كذلك أن تكون الدنيا كلها تحت سلطانه وفي يديه لا في قلبه، وأن يُعبدَها الله تعالى وحده دون سواه.

ثالثاً: آثار التوكل وثمراته.

للتوكل آثار وثمرات عظيمة يجدر بالمسلم علمها؛ كي تدفعه إلى أن يكون من المتوكلين؛
منها:

• سبب عظيم من أسباب دخول الجنة. حيث قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ۖ﴾ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[العنكبوت]. وقد سبق حديثُ السبعين ألفاً وعكاشة رضي الله عنه.

• سبب من الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل. فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران].

• سبب لتحصيل كفاية الله عز وجل وحمايته للعبد. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ﴾ [الطلاق]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران] [صحيح البخاري]

• سبب للحفظ من الشيطان. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۖ﴾ [٩٨] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[النحل]

• سبب للحفظ من العين والحسد. على قولٍ في تفسير الآية في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٌ إِلَّا إِلَهَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿يوسف﴾. فالتوكل يدفع الحسد.

• سبب عظيم لتحصيل الرزق وزيادته والبركة فيه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بَطَانًا) [الترمذي وابن ماجه].

• علامة على إيمان العبد. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس] وفي قصة موسى عليه السلام ودخول الأرض المقدسة جاء قوله تعالى عن الرجلين: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَننَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغَلِبُوا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة]. فهو علامة على تمكّن الإيمان من القلب. وغير ذلك من الآثار.

والله أعلم .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم

والحمد لله رب العالمين

الملعونون⁽¹⁾

العناصر:

أولاً: تعريف اللعن وتوصيفه وخطورته.

ثانياً: مَنْ هم الملعونون والمطرودون من رحمة الله تعالى؟.

ثالثاً: ما الذي يترتب على هذا الوصف؟.

(الموضوع)

كثيرة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ذكرت اللعن والملعونين واللاعنين؛ وما هذا إلا للتحذير والتفكير من أي سبب يؤدي إليه، وفي هذا الكلمات سوف أتناول هذا الموضوع من خلال هذه العناصر التالية.

أولاً: تعريفه وتوصيفه وخطورته.

جاء في تعريفه لغة: « اللعن: الإبعاد والطرْد من الخير، وقيل: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء، واللعنة الاسم، والجمع لعانٌ ولعناتٌ، ولعنه يلعنه لعناً طرده وأبعده» وقيل تعريفه اصطلاحاً: « الإبعاد عن الرحمة» وقيل: « عبارة عن الطرد والإبعاد عن الله تعالى».

ولأجل خطورته وما يترتب عليه من آثار؛ فقد جاء النهي الشديد عنه. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قيل: يا رسول الله، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) [صحيح مُسلم]، وجاء في الأثر عن عمران بن حصين رضي الله عنه: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجَرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ. قَالَ عِمْرَانُ:

(1) من مصادر هذه المادة: (موسوعة التفسير الموضوعي). الصادرة عن مركز تفسير للدراسات القرآنية.

فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْزِضُ لَهَا أَحَدٌ) [صحيح مسلم] «ومع أن لعن الدابة لا يُبعدُها عن رحمة الله؛ إذ لا ذنب لها فيما كان من مالكتها، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بذلك زَجْرًا وتأديبًا للمرأة؛ فقد نهى قبل ذلك عن لعن الدواب، فهي خلقة الله وصنعتُه، ولعنُ المصنوعِ إساءةٌ للصَّنعِ وإساءةٌ للصَّانعِ، فعادت العقوبة في ذلك والذمُّ على المرأة التي كانت منها اللَّعْنَةُ» ومنها حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن ليس باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء) [الترمذي في السنن]. وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، ولا بَعْضِهِ، ولا بالنار) [سنن الترمذي]. ويكفي في بيان خطورة اللعن على الذي تلفظ به؛ قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنَّ العبدَ إذا لعن شيئاً صعدتِ اللَّعْنَةُ إلى السماء فتغلق أبوابُ السماءِ دونها، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً فإذا لم تجد مساعاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان لذلك أهلاً وإلا رجعت إلى قائلها) [سنن أبي داود] ويوضح هذا الأمر كذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (مَنْ حَلَفَ عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وليس على ابنِ آدَمَ نَذْرٌ فيما لا يَمْلِكُ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُدَّ بِه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَدَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ) [صحيح البخاري].

ثانياً: مَنْ هُم الملعونون والمطرودون من رحمة الله تعالى؟.

إن الناظر في النصوص الشرعية يجد أن وصف اللعن قد لحق أشخاصاً، وأعمالاً، وذوات من غير المكلفين؛ قد ارتكبوا آثماً وأوزاراً استحقوا لأجلها أن يُوصفوا بهذا الوصف. ومنهم:

أشخاص وأعمال ملعونون:

- اليهود والنصارى. فقد قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء]. وقد لعنوا كذلك على اعتقادهم السيء في الذات الإلهية؛ فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ

اللَّهُ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٧٨﴾ [المائدة]. وقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٩﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) [صحيح البخاري].

- **الذين يؤذون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.** فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب]. مع التنبيه على أن الإيذاء والضرر لا يتلازمان؛ فالأذى أخف من الضرر. فالأذى للشيء الخفيف الذي أثره قليل، وقد لا يقع و يكون له أثر على من لحقه. وأمّا الضرر فهو للشيء الذي يحصل مع الأذى ويقع، وقد نفاه الله تعالى عنه في مواطن كثيرة منه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران] وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي) [صحيح مسلم].

- **قاطعوا الرحم.** فقد قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد].

- **المنافقون والمشركون والظاننون بالله ظن السوء.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح].

- **الظالمون.** فقد قال الله تعالى في محاورة أهل الجنة والنار: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف]. وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود].

ومن الأعمال ملعونة⁽¹⁾:

فقد وردت نصوص كثيرة حملت بين طياتها لعناتٍ على أعمال ينبغي أن نحذرهما؛ منها:

- الذين يكتُمون ما أنزل الله من البينات. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].

- - نقض الميثاق الإلهي. فقد قال الله تعالى مُعَدِّدًا عقوبات هذا الذنب العظيم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة]. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد].

- السرقة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ) قَالَ الْأَعْمَشُ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ بَيْضُ الْحَدِيدِ، وَالْحَبْلُ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْهَا مَا يَسُوى دِرَاهِمٍ [صحيح البخاري].

- من سب والديه ومن ذبح لغير الله ومن آوى مُحدثاً ومن غير حدود الأرض. فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (قَالَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسِرُّ إِلَى شَيْئًا يَكْتُمُهُ النَّاسُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ حَدَّثَنِي بِكَلِمَاتٍ أَرْبَعٍ، قَالَ: فَقَالَ: مَا هُنَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ

(1) أما الأشخاص فلا شك في كونهم من العصاة؛ وأنَّ لهم جزءاً من اللعن. ولكن هل يكون لعنهم مُساوياً للعن المشركين والكافرين ويكونون مُخلدين في النار فهذا أمرٌ زلَّت في الأفهام والأقدام. ولا ينبغي للمسلم أن يلعن أخاه المسلم لذنبٍ رآه عليه. فلعن المُعين من أهل المعاصي لا يجوز إلا بإقامة الحج وانتفاء الموانع.. والله أعلم.

غَيْرَ مَنَارِ الْأَرْضِ) [صحيح مسلم]. «وَالْمُرَادُ بِمَنَارِ الْأَرْضِ بِفَتْحِ الْمِيمِ عَلَامَاتُ حُدُودِهَا، وَأَمَّا الْمُحْدِثُ بِكَسْرِ الدَّالِ فَهُوَ مَنْ يَأْتِي بِفَسَادٍ فِي الْأَرْضِ»

- الربا. فعن جابر رضي الله عنه قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكِلَ الرَّبَا وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيَهُ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ) [صحيح مسلم].

- مَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا. فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

- من أشار على أخيه بحديدة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ لَعَنَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ) [سنن الترمذي].

- الذين يرمون المحصنات المؤمنات. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور].

- الذي يتخلى في الطريق أو في الظل. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اتَّقُوا اللَّعَّانِينَ قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ) [صحيح مسلم].

- صَبْرُ الْبَهَائِمِ - أي: حبسها - واتخاذها غرضًا. فعن سعيد بن جبير قال: (مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفَتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلِّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَقَرَّفُوا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا) [صحيح مسلم]. وعن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا) [صحيح مسلم].

- الذي يضل الناس في الطرقات. ففي الحديث: (وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّه الْأَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ) [أخرجه أحمد في المسند].

- ومع النساء. فقد جاء لعن أعمالٍ يقوم بها النساء ينبغي الحذر منها. ومن هذه الأعمال ما ورد عن عبد الله رضي الله عنه: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُتَقَلِّجَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) وفي رواية: (والواصلة والموصولة) [سنن النسائي]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهَاتِ بِالرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهِينَ بِالنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ) [سنن الترمذي]. وعنده أيضا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ رَوَازِيَ الْقُبُورِ). وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم عنهن: (إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضَبَانِ عَلَيْهَا، لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَصْبِحَ) [صحيح البخاري].

ثالثاً: آثار اللعن وما يترتب عليه.

- قلوبهم غلّف عليها ران بسبب اللعنة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة] «ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ السَّبَبَ فِي نُفُورِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُمْ لَعِنُوا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الذَّنْبِ بِأَعْظَمِ مِنْهُ»

- لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة. عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّعَانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شَفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [صحيح مسلم]. «لَا يَكُونُونَ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي يُسْتَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْأُمَّمِ الَّتِي كَذَبَتْ أَنْبِيَاءُهَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. لِأَنَّ مِنْ فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِالتَّبْلِيغِ إِذَا كَذَبَهُمْ قَوْمُهُمْ» وقال النووي رحمه الله في شرح مسلم: «معناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار. (ولا شهداء) فيه ثلاثة أقوال: أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء

يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات. والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا، أي: لا تقبل شهادتهم لفسقهم. والثالث: لا يرزقون الشهادة وهي القتل في سبيل الله»

- الملعونون يأكلون من الشجرة الملعونة شجرة الزقوم. فهي طعامهم: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء] قال الحسن رحمه الله: «إِنَّ أَكَلَتَهَا مَلْعُونُونَ فِي الْقُرْآنِ» وقد قال الله تعالى عن هذه الشجرة: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ۖ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان].

والحمد لله رب العالمين.

الأسرة (بيوتنا)

العناصر:

المقدمة.

أولاً: القوامة والمسئولية المشتركة.

ثانياً: حق الزوج على زوجته والزوجة على زوجها.

ثالثاً: مخاطر تهدد البيوت.

(الموضوع)

لله عز وجل في خلقه آيات، وهذه الآيات لها حكمٌ باهرات ودلائل بينات، ومن هذه الآيات آية النكاح الذي به تتكون الأسر؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ عَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل]، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء]؛ فهي آية من آياته الباهرات؛ فقد خلق آدم عليه السلام من تراب بغير أبٍ ولا أم، وخلق منه حواء فكانت من أبٍ بلا أم، وقد خلق عيسى ابن مريم من أمٍ بلا أب، وخلق سائر الخلق من أبٍ وأم، فالله تعالى على كل شيء قدير.

وقد جعل الله تعالى بعد آدم وحواء كل الخلق من هذه الأسرة البشرية فقال جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۚ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة].

وقد جعل الله تعالى لطرفي هذه الأسرة حقوقاً وواجبات؛ حتى يؤدي كل واحدٍ منهما مسؤوليته التي لا يُقبل منه التهاونُ فيها. فهناك حقوق للزوج وأخرى للزوجة؛ وقبل بيانها لابد من ذكر أمرٍ هو في غاية الأهمية. وهو العنصر الأول:

أولاً: القوامة والمسئولية المشتركة.

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد جعل للرجل حقَّ القوامة؛ إذ قال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء]، ولعلَّ هذه القوامة من مفردات الدرجة التي جعلها الله تعالى له على زوجته في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهَا دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة]. فإذا كان الرجل له على الأسرة هذه المنزلة؛ من أمر الإنفاق والتدبير والرعاية وعلى عاتقه كذلك تقع المسئولية المجتمعية تجاه أسرته ومنزله، فإذا كان هذا كله فلا يعني أن المرأة بلا مسئولية في هذا البيت أو هذه الأسرة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [أخرجه البخاري]، ولكن سؤال الرجل على أهله عامٌّ، وسؤال المرأة خاصٌّ، خاص بما يتناسب مع إمكانياتها التي وضعها الذي جعله الله تعالى فيها. ومثال ذلك رئيس الدولة يُسأل عن دولته بأفرادها ومؤسساتها عموماً؛ ولا يعني هذا عدم مسئولية الأفراد كلٌّ عن عمله وما أنيط به.

فالقوامة وإن كانت تكليفاً من الله تعالى للرجل ودرجةً زائدةً له على المرأة وصورةً من صور الكمال له؛ فهذا لا يعني أن المرأة بلا مسئولية. ولذلك كان عليها واجبات كما أن لها حقوقاً وهذا هو المراد من هذا اللقاء.

ثانياً: حق الزوج على زوجته والزوجة على زوجها⁽¹⁾.

مسألة الحقوق الزوجية من المسائل التي جاءت النصوص الشرعية مُصرّحة بوجودها وبأهميتها وعدم التهاؤن فيها؛ ومن هذه النصوص قول النبي صلى الله عليه وسلم: (فإني لو كنتُ أمراً أحداً أن يسجدَ لغيرِ اللهِ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها والذي نفسُ محمدٍ بيده لا تؤدّي المرأةُ حقَّ ربّها حتّى تؤدّي حقَّ زوجها) [أخرجه ابن ماجة في السنن]، وكذلك عن حُصَيْنِ بْنِ مُحِصَنٍ، قَالَ: (حَدَّثَنِي عَمَّتِي، قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ، فَقَالَ: أَيُّ هَذِهِ، أَذَاتُ بَعْلِ أَنْتِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟ قَالَتْ: مَا آلَوْهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكَ وَنَارُكَ؟) [المستدرک على الصحيحين]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: (فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا) [أخرجه البخاري]. فقد جاء ذكر الحق لأحدهما على الآخر مُصرحاً به.

أ - حق الزوج على زوجته. يظهر هذا الحق في أمور؛ منها:

- **الطاعة في المعروف.** فطاعة الزوج من موجبات الجنة؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إذا صلّت المرأةُ خمسَها، وصامت شهرَها، وحفظت فرجَها، وأطاعت زوجها قيلَ لها: ادخلي الجنةَ من أيّ أبوابِ الجنةِ شئتِ) [أخرجه أحمد] وقال أيضاً: (خَيْرُ النِّسَاءِ الَّتِي تَسْرُهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَلَا مَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ) [أخرجه النسائي] فإن أمرها أن لا تخرج من البيت إلا بإذنه فعلت؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾؛ فإن خرجت من البيت بغير إذنه فهي ناشزة عاصية لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومستحقّة للعقوبة، وكذلك إذا دعاها إلى الفراش امتثلت وإلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا دعا الرجلُ امرأته إلى فراشه، فأبت أن تَجِيءَ، لَعَنَتْهُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ) [أخرجه البخاري]، وإذا أمرها أن لا يدخل أحدُ البيت إلا بإذنه ممن لا يرضى دخولهم بيته أطاعته في أمره؛ فقد قال

(1) رجعت في غالب هذه الحقوق إلى كتاب: صحيح فقه السنة؛ لأبي مالك كمال بن السيد سالم ج3، ص: (192).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ) [أخرجه مسلم]. وقال أيضاً: (لا تأذن المرأة في بيت زوجها وهو شاهدٌ إلا بإذنه) [ابن حبان في صحيحه].

• أن تُعينه على أمر دينه. فهذا أفضل ما يكثره المرء في بيته؛ إذ أنه: (لما نزلت: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ. قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أي المال خير فنتخذه. فقال: أفضله لسان ذاكِر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تُعينه على إيمانه) [سنن الترمذي]

• أن تقوم بخدمته وخدمة أولاده. فقد كانت فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها تخدم زوجها حتى اشتكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقى في يدها من الرحي [أخرجه البخاري]، وكذلك كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تقوم بخدمة زوجها الزبير ابن العوام رضي الله عنه؛ وكان له فرسٌ تسوسه وكانت تحتش له وتثقل النوى على رأسها من أرضٍ له على بُعد ثلثي فرسخ (أكثر من ثلاثة آلاف متر)!! [الخبر أخرجه البخاري].

• أن لا تُنفق من ماله إلا بإذنه. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذن زوجها قيل: يا رسول الله ولا الطعام؟ قال: ذلك أفضل أموالنا) [سنن الترمذي].

• أن تشكر له ولا تجحد فضله. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَأَرَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بِكُفْرِهِنَّ قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لو أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) [أخرجه البخاري]. وفي الحديث الآخر: (لا ينظرُ الله إلى امرأةٍ لا تشكرُ لزوجها وهي لا تستغني عن زوجها) [أخرجه النسائي في الكبرى]. وكذلك عليها أن ترضى باليسير معه ولا تُكلفه فوق طاقته.

• أن تحفظه في عرضها وأولاده وماله. فقد قال الله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء]؛ قال الطبري عن هذه الآية: «حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن، في فروجهن وأموالهن، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره»؛ وقد سبق أن الصالح

هو القائم بحق الله تعالى وحق العباد عليه، وقد: (سُئِلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ خَيْرِ النِّسَاءِ، فَقَالَ: الَّتِي تُطِيعُ إِذَا أَمَرَ، وَتَسْرُ إِذَا نَظَرَ، تَحْفَظُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا) [أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ]، وقد قال عليه السلام: (خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءٍ قُرَيْشٍ، أَخْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ) [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ].

- وَأَنْ لَا تَمَنَّ عَلَى مَنْ أَنْفَقَتْ مِنْ مَالِهَا عَلَيْهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ، وَأَنْ لَا تَفْعَلَ مَا يُؤْذِيهِ أَوْ يُغْضِبُهُ؛ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلَكَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ، يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا) [إِسْنَنِ التِّرْمِذِيِّ].
وغير ذلك .. والله أعلم.

ب - حقُّ الزوجة على زوجها. وهذا الحق هو الآخر يظهر في أمور؛ منها:

- حُسْنُ الْعِشْرَةِ مَعَ الزَّوْجَةِ وَالتَّلَطُّفُ بِهَا، وَغَضُّ الطَّرْفِ عَنْ بَعْضِ أَخْطَائِهَا مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِخْلَالٌ بِشَرَعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاءِ] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ]، وَإِذَا مَا كَرِهَ الرَّجُلُ خُلْفًا مِنْ زَوْجَتِهِ فَلْيَصْبِرْ وَلَا يَكُنْ فِي مَعَاشِرَتِهِ لَهَا سَيِّئَ الْخُلُقِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلْفًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ]
- النِّفْقَةُ وَالْكِسْوَةُ وَالسَّكْنَى بِالْمَعْرُوفِ. وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ وَأَحَادِيثٌ وَأَثَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا؛ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَةِ حِجَةِ الْوَدَاعِ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوسَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ]. وَالنِّفْقَةُ بِالْمَعْرُوفِ وَبِمَا يُنَاسِبُ حَالَ الزَّوْجِ إِعْسَارًا وَبِسَارًا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطَّلَاقِ]. وَقِيلَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةٍ

أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أَوْ اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ) [أخرجه أبو داود].

• أن يسمر مع زوجته يحدثها ويستمع إلى حديثها. فقد استمع النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وهي تقص عليه حديثاً لإحدى عشرة امرأة تعاھدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً. [أخرجه البخاري ومسلم].

• يُعَلِّمُهَا أُمُورَ دِينِهَا. فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِ الْمَاءِ) [أخرجه أبو داود].

• أن لا يؤذيها بضربها ولا بهجرها إلا بالمعروف شرعاً؛ وإذا هجر فلا يكون إلا بالبيت. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن حق الزوجة على الزوج، فقال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت) [سبق]، وقال: (لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم) [أخرجه البخاري]. وقالت عائشة رضي الله عنها: (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً؛ إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه؛ إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل) [أخرجه مسلم]. وهذا لا ينافي الإذن في ضربهن إذا نشزن ولكنه بشروط. ليس هذا مجالها.

• أن يحسن الظن بها. فلا يتخونها ولا يتجسس عليها؛ فقد قال الله تعالى في شأن حادثة الإفك: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً)

[أخرجه البخاري]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: (أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ دَخَلُوا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - وَهِيَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ - فَرَأَهُمْ، فَكَرِهَ ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: لَمْ أَرِ إِلَّا خَيْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَرَّأَهَا مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: لَا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُغِيبَةٍ، إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ) [أخرجه مسلم]. ومع ذلك فليأخذ العبد من سُبُلِ الحِيطَةِ والحذر في حماية أهله والحفاظ عليهم ولا يُغالي أو يُقِرَّط في هذا الشأن فكما قيل: (كُلُّ فَضِيلَةٍ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ).

• وغيرها.

وختاماً لهذه الحقوق .. أقول: لا يُنظر إليها أو إلى مَنْ هو الأحقُّ بالشَّيء دون الآخر إلا عند التنازع - غالباً -؛ إذ الحياة الزوجية مبنية على التسامح والمودة والرحمة، فلو تراضيا على أمر ليست فيه مخالفة شرعية فالأمر لهما؛ كأن يُشاركها في عملها أو تُشاركه في عمله في حدود المعروف فلا بأس بذلك دون أن نقول هذا حقه أو هذا حقك!!.

ثالثاً: مخاطر تهدد البيوت.

إن الناظر في نصوص القرآن والسنة يجد اهتماماً بالغاً بالأسرة، ويجد الخوف عليها وعلى استمرارها ظاهراً واضحاً؛ فمثلاً:

1 - تسمية العقد الذي جمع بين أطراف هذه الأسرة بالميثاق الغليظ فقال جلّ ذكره: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء].

2 - وكذلك الخوف عليها من بداية التكوين وحتى الانفصال - إن قدر الله ذلك -. ففي أول الزواج يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء]، وبعد الزواج نجد الخوف من حالة النشوز وكيفية العلاج له؛ فمن الزوجة إذا نشزت قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا

إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴿١٠﴾ [النساء] وإذا نشز الزوج نجد: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء]، وعند التفريق بينهما يأتي الخوف كذلك عليها فيقول الله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَنِ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة]. فاستعمال مادة الخوف واضحاً جداً مع هذا الكيان العظيم.

3 - للسَّحَر آثار كبيرة وكثيرة - فهو يؤثر ولكنه بإذن الله تعالى -؛ ومع ذلك لم يُذكر من آثاره في آية سورة البقرة إلا التفريق بين الزوجين؛ وهذا دليل على خطورة أمره؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ويؤكد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرِيَاهُ، فَأُدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُذْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعَمَ أَنْتَ) [أخرجه مُسلم].

ولأجل هذا الاهتمام بهذه الأسرة وبهذه النواة التي يتكون المجتمع منها؛ كانت هناك أمور يُخاف على الأسرة من أن تُصاب بها أو يُمسَّ سياجُها بها لأن في تعرضها لهذه الأخطار تقويضاً لها وهدماً، من هذه الأمور؛ ما يلي:

- **الطلاق.** وإن كان الطلاق جائزاً لا محذور فيه، ولكنه لا بد وأن يكون بعد تروٍّ وتأنٍّ؛ إذ هو انقطاع حبلٍ لميثاقٍ غليظ ترتب عليه بنیان أسرة من الأسر، وكان الأولاد وكانت المودَّة والتواصل والتراحم بين العائلات .. هذا كُلُّهُ ينفض بهذا الطلاق. فلا يكون سببه على أهون الأسباب، ولا يكون كذلك بسبب الأوهام الظنون الكاذبة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأسٍ، فحرامٌ عليها رائحةُ الجنة) [أخرجه الترمذي في السنن]. فيجب على المرأة أن تحرص على الحياة معه.

- **المرأة المترجّلة (استبدال الأدوار).** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المترجّلات من النساء والمُخَنَّثين من الرجال وقال: أخرجوهم من بيوتكم قال: فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاناً وأخرج عمرُ فلاناً) [أحمد في مسنده]. فإذا ما تخلى الرجل عن رجولته والمرأة عن أنوثتها وأصبحت الأدوار في البيت مقلوبة؛ فهذا كفيل بخراب البيوت فالله تعالى قال في تعليل جعل القوامة للرجل: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وهناك كاتبة أمريكية (لورا دويل) أحبّت أن تخوض تجربةً تُخالف فيها فطرتها - كأنثى - فتقمّصت دور الرجال تماماً في بيتها؛ وفي ختام تجربتها خرجت بهذه النتيجة وهي عنوان لكتاب لها: "المرأة المستسلمة" فسُرّ سعادة المرأة في استسلامها لزوجها وانطوائها تحت سلطانه.

- **المعاصي والمنكرات.** فلا بد وأن يكون البيت محلاً لطاعة الله عز وجل؛ وليس محلاً للشيطان فلا يكون فيه (الأغاني والأفلام والمسلسلات، والموسيقى ..) فهذه الأمور وغيرها كفيلة بإفساد البيوت وجعل المعيشة فيها ضنكاً؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه].

- **الإرهاق المادي (التعلّق بالفردوس الأرضي).** كثيرات هنّ الزوجات اللاتي تستهوينّ زينة الحياة الدنيا، وتتعلّق قلوبهن بمطالبها الضروريات والحاجيات والتحسينات والرفاهيات..؛ وتريد بذلك أن تصنع لها فردوساً في الدنيا تعيش فيه، ولأجل ذلك يُرهقن أزواجهنّ بما يُردن منها، فيعيش الرجل في حياته تلك تعيساً حزيناً بائساً فلا راحة له بأهله ولا بماله بل ولا راحة لجسده كذلك، فلم يكف زوجته رغباتها ولم تقنع هي الأخرى بما أنعم الله عليهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن].

- **تخيبُ المرأة على زوجها.** فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس منّا من خيّب امرأة على زوجها) [أخرجه أبو داود]. ومعنى تخيب المرأة: «أفسدها وخدعها بحيث يُزيّن لها عداوة

الرَّوْجَ بِذِكْرِ مَسَاوِيهِ أَوْ يَذْكُرُ مَحَاسِنَ رَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهَا فَتُقَارِنُهُ بِرَوْجِهَا، أَوْ يُحَسِّنُ إِلَيْهَا الطَّلَاقَ؛ لِيَتَزَوَّجَهَا أَوْ يُزَوِّجَهَا لغيرِهِ». فلا يُذكر أمام الرجل أو المرأة محاسن الأجانب من الجانبين، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تُبَاشِرِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، فَتَنْتَعَتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا) [أخرجه البخاري]. وهذا الفعل ليس خاصا بالنساء بل والرجال كذلك. وقد يكون هذا التخييب من أم الزوجة أو خالتها أو عمتها أو أختها أو صديقاتها أو جاراتها، أو الإعلام الفاسد أو .. .

- **إفشاء الأسرار المنزلية.** فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) [أخرجه مسلم] وهو من الأمانات فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) [أخرجه مسلم].

وأخيراً:

وصف الله تعالى كلاً من الزوج والزوجة؛ فقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة]، وجعل من حكم الزواج تحقيق المودة والسكن فقال: ﴿وَمِنْ عَائِيَّتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم] فإذا ما فقد أحد الزوجين السكن أو المودة في أسرته بحث عنهما في مكان آخر، وإذا ما فقد أحدهما كذلك ما يستتر به عورته ويقيه حرّ الحياة ولهيبها أو يقيه برودة المشاعر بحث عن سكن آخر يقوم بتلك الوظائف التي فقدها في مسكنه...!!

والحمد لله رب العالمين

من نواقض الإيمان⁽¹⁾

العناصر:

مقدمة.

النواقض

(الموضوع)

كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ يسأل عن الشرِّ حتى لا يقع فيه؛ فعن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعَدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: وَهَلْ بَعَدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ قُلْتُ: فَهَلْ بَعَدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِاللِّسَانِ قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أُدْرِكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلَزُمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصِ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ) [أخرجه البخاري]، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: (لا يبيعُ في سوقنا هذا إِلَّا مَنْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ) [سنن الترمذي]. فالواجب على المسلم أن يعلم من أمور دينه ما يقويه الوقوع في الفتن - هذه واحدة؛ وأخرى: - وأن يكون على علم بالأخطاء والآثام التي قد تواجهه في هذه الحياة حتى لا يقع فيها؛ وبخاصة إذا ما علم أن الشيطان قد قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ

(1) هذه الخطبة مُستفادة من كُتُبٍ؛ أولها: (نواقض الإيمان القولية والعملية، د: عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف)،

ثانيها: (المسلك الرشيد شرح كتاب التوحيد د/ سلطان العميري)، وثالثها: (نواقض الإيمان الاعتقادية د/ محمد

بن عبد الله الوهيبي).

الْمُخْلِصِينَ ﴿[الحجر] فقد يُرِينَ لك الشيطان شراً وأنتَ تظنه خيراً والنصوص في هذا المعنى كثيرة؛ أمثال: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل] وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام] ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً: (إنما تُنْقَضُ عُرَى الإسلام عُرْوَةٌ عُرْوَةٌ؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية). وقيل "من يجهل القُبْح لا يستحسن الحسنًا".

ولأجل هذا أحببتُ أن أتكلم عن بعض نواقض الإيمان التي من شأنها أن تجعل المرء بعيداً كلَّ البُعد عن الدين وإن كان بين الناس معدوداً من أهله!!، أو ليعرف بها من هو من أهل الدين ومن ليس من أهله؛ فأقول وبالله تعالى التوفيق، منها:

الأول: الإشرak بالله تعالى في: (أسمائه وصفاته وألوهيته).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (سألتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ. قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ). [أخرجه البخاري]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، ..) [أخرجه البخاري] وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكِبَائِرُ؟ قَالَ: الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ عُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ. قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ) [أخرجه البخاري].

ولمَّا كان الإشرak بالله أكبر الكبائر كان عذابه أعظم العذاب؛ وعقوبته أشدَّ العقوبات؛ منها:

1 - لا يغفره الله تبارك وتعالى فقد قال جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء].

2 - هو سبب في حبوط الأعمال. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الحجرات].

3 - المنع من قبول أي عمل صالح: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان]. وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله في ابن جُدعان كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمَسْكِينِ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ). [أخرجه مُسلم].

4 - تحريم الزواج من المسلمة. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة].

5 - المنع من الأحكام المتعلقة بموتى المسلمين فلا يُدفن في قبورهم، ولا يُصلّى عليه، ولا يُدعى له بالمغفرة والرحمة، ولا يثبت التوارث بينه وبين أهله المسلمين، .. وغير ذلك.

6 - الخلود في النار. فقد قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة].

فإذا كان الإشراك بالله تعالى بهذه الشناعة، فما هو حتى نحذره أو نُحذّر منه؟، قيل هو: «جعل شيء من خصائص الله تعالى لغير الله تعالى، أو إشراك غيره في شيء من متعلقات خصائصه وأحكامها».

فالألوهية والعبودية لا تكون إلا لله تعالى وصرفها لغير الله تعالى شرك. فالدعاء والاستغاثة والذبح والخوف والمحبة والتوكل أمور لا يجوز صرفها لغير الله تعالى صرفاً يجعل المخلوق مساوياً للخالق جل وعلا.

وأسماءه وصفاته كذلك سبحانه وتعالى لا يُشاركه في كمالها أحد فهو سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]. فهو سبحانه لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ ولا تُغلّطه المسائل ولا يتبرّم بالحاح الملحين عليه في سؤاله سبحانه وتعالى. فليس كمثله شيء في سمعه ولا بصره ولا قوته ولا قدرته ولا كلامه ولا أوصافه سبحانه وتعالى. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]؛ فلا يجوز أن تُسمّى أحداً باسم من أسماءه تعالى، أو تُسمّى الله تعالى بما لا يليق به، أو نصفه تعالى بوصف لا يليق به تعالى كوصف أخبث الخلق - اليهود - ربهم بأنه فقير وهم أغنياء، ولا أن تُشبّه صفات المخلوقين بصفاته أو تُشبّه صفاته تعالى بصفات خلقه.

وربوبيته سبحانه وتعالى كذلك لا يُشاركه فيها أحد؛ فهو الذي يُدبّر الأمر، وهو الذي ينفع ويضر، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي ويميت لأنه الخالق وما سواه مخلوق، وهو الذي يُعزّز ويُذل، وهو الذي يُجبر ولا يُجار عليه، وهو الذي بيده مقاليد كل شيء سبحانه وتعالى. وغير ذلك من أفعاله جلّ وعلا. وهو سبحانه وتعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ لَّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن] وقد قال سبحانه عن تفرّده في التدبير والتصريف ونفي الشريك له والظهير؛ فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ]. فمن جعل شيئاً من هذه الأفعال ومن هذه الخصائص لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك.

ومن خصائصه كذلك أن التحاكم أو التحليل أو التحريم لا يكون إلا له تعالى؛ فقد قال جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس]، ومن ادّعى لشخص أن له الحق في التحليل والتحريم فهذا افتراء عليه سبحانه وتعالى. وهذا شرك بالله العظيم.

الثاني: الاستهزاء بالدين (وبغض وكراهية ما جاء به الشرع الشريف).

من الأمور التي تؤدي بصاحبها إلى الخروج من الدين الاستهزاء به أو بشيء من تعاليمه وتشريعاته أو بحملته لأجل أنهم يحملونه؛ لأن هذا دليل صريح على ما في القلب من العداوة والبغضاء والحق لهذا الدين. وقد قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجُ مَا تُحْذَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة].

وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد] وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد].

فالذين يخوضون في آيات الله تعالى ويستهزئون بها؛ هؤلاء قد حكم الله تعالى عليهم بالكفر، وكذلك الذين كرهوا ما أنزل الله تعالى وكرهوا رضوانه ومغفرته؛ فأحبط أعمالهم، وكذلك الذين قالوا طائعين منقادين لمن كره ما أنزل الله تعالى "سنطيعكم في بعض الأمر".

ولأجل ذلك كان من شروط الإسلام لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون التسليم تسليماً ظاهرياً وباطنياً فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فلا بد من التحاكم الظاهري مع انشراح الصدر بذلك الحكم، الذي يتبعه التسليم التام لهذا الحكم الإلهي.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء]، فالذي يستهزأ بآيات الله تعالى هو كافر بها، ومن يجلس معه ويرضى فعله إنما هو منافق، والله تعالى يجمع بينهم يوم القيامة في النار خالدين فيها؛ وهذا الحكم قد سبق في كتاب الله تعالى كما هو واضح في الآية وهذا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام].

فإياك ثم إياك أن تستهزأ؛ (همزاً أو لمزاً أو اشمئزاً، أو نفوراً أو تنفيراً أو تحقيراً...) بمن يستمسك بشعار من شعارات الدين؛ حتى وإن كان صغيراً عندك - فهو عند الله عظيم - فهذا مؤذناً، وآخر يستعمل السواك، وآخر قد شمر إزاره فلم يسبله، وآخر قد أطلق لحيته مُستمسكاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يطوف بالكعبة، أو يسعى بين الصفا والمروة، وهذا يتردد على المساجد مُحافظاً على صلواته، وهذا يمسك بيده مُصحفاً تالياً له متعلماً أو معلماً أو مُفسراً، أو مَنْ يُعَلِّمُ سُنَّةَ النبي صلى الله عليه وسلم فيُبَيِّنُ صَحِيحَهَا من ضَعِيفِهَا وسَقِيمَهَا، .. فإياك ثم إياك أن تسخر من هؤلاء، أو أن تُشارك من يقوم بذلك وإن كنت صامتاً!!.

ومن صور الاستهزاء أيضاً سبُّ الله تعالى أو سبُّ النبي صلى الله عليه وسلم أو سبُّ الدين. فإن أساس الدين قائم على تعظيم الله تعالى وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد قال

نوح عليه السلام لقومه مُنْكَرًا عليهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة) [أخرجه أبو داود - وفيه مقال].

ولذلك فقد أجمع المسلمون على أن من سبَّ الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كافر وإن كان مُقِرًّا بما أنزل الله تعالى!! سواء في ذلك من علم الحُرمة أو لم يعلمها، مُستحلاً لذلك أم لا، مازحاً أم جاداً، وهو بذلك حلال الدم.

فإن في هذا سُخرية واستهزاء بالله تعالى وتتقيص وانتقاص من قدره تبارك وتعالى، وهو إيذاء لله تعالى وصاحبه موعود بالعذاب المهيمن في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب]. ويكفي في ذلك أن الله تعالى نهى المسلمين أن يسبوا آلهة المُشركين؛ كي لا يقع المشكون في سبِّ الله تعالى فمحذور السبِّ أغلظ من محذور كفرهم؛ فقال جل ذكره: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

وقد قال الرازي: «إنَّ الاستهزاء بالدين - كيف كان - كُفْرٌ بالله؛ وذلك لأنَّ الاستهزاء يَدُلُّ على الاستخفاف، والعُمدَةُ الكبرى في الإيمانِ تعظيمُ الله تعالى بأقصى الإمكان، والجمعُ بينهما مُحالٌ»

الثالث: إنكار أو جحود ما عُلِمَ من الدين بالضرورة.

فهناك أمور قد استفاضت شهرتها وزاعت؛ حتى استوى في العلم بها الخاصة والعامة فأصبحت معلومة علماء ضرورياً لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهلها؛ مثل الصلوات الخمس ومثل صيام شهر رمضان وفرض الزكوات .. وتحريم الإشراف بالله تعالى، والقتل والخمر والزنا.

ويستوي كذلك مع هذه الأمور: إنكار أو جحود ما جاء الشرع الشريف بإثباته كالذين يُنكرون الغيبات التي جاء الشرع بإثباتها؛ أمثال: (الجنة والنار، والملائكة والجن، والقيامة وما يُلاقيه

المُسلم وغيره في القبور، ..) وكذلك ما أخبر به الوحي الشريف عن أنباء السابقين كموسى وعيسى وإبراهيم وباقي الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكذلك يدخل في هذا الأمر الأشخاص الذين يعلمون تحريم أو تحليل أمرٍ من الأمور ومع ذلك لا يعترفون بهذا الحكم؛ فيُصرِّحون أنهم لا يقبلونه؛ فيقولون لا نقبل بقوامة الرجل على المرأة، ولا نقبل بعدم المساواة بين الذكر والأنثى، وكالذين يقولون لا نقبل بقطع الأيدي في السرقة أو بالرجم لمن زنى أو الجلد أو هذه العقوبات التي جاءت صريحة في الوحي الشريف .. والقائمة تطول.

وهذا الأمر من أخطر الأمور؛ فقد يجحد الشخص شيئاً واحداً أو يردُّ شيئاً واحداً فقط من شرع الله عز وجل فيكون به كافراً بالله تعالى؛ حتى وإن كان مقيماً على باقي الشرائع مُحافظاً عليها!!.

«فلو أن رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرُّسلُ إلَّا شيئاً واحداً، كان برِّد ذلك الشَّيء كافراً عند جميع العلماء» فلو أن الرجل آمن بكل الأنبياء ولم يؤمن بنبيٍّ واحدٍ كان كافراً بالله العظيم. وهكذا في الإيمان بالكتب المنزلة، وبالملائكة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل].

الرابع: النفاق الاعتقادي.

النفاق هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد. والنفاق - عند أكثر أهل العلم - نفاقان: أولهما الاعتقادي وهو المُخرج من الملة، وثانيهما: العملي وهو دون الأول، والنفاق الاعتقادي؛ هو: أن يُظهر للمسلمين أو يُظهر الإيمان بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وهو يُبطن الكفر والانسلاخ من الدين؛ ويتنقَّص من المؤمنين ويُظاهر كذلك المُشركين على المُسلمين. وهذا هو النفاق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن الآيات الدالة على كفرهم؛ قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ
لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ
حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة] وقال: ﴿يَنَاقِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ
وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَكُونُ لَهُمْ دُونُ اللَّهِ عَزَازٌ لَّا يَنْصَرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنِ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا
لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
[التوبة]، وقال جل ثناؤه عنهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة]. ولأجل ذلك كذبهم
الله تعالى في قولهم ونطقهم الشهادة فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون].

وصور النفاق الاعتقادي كثيرة؛ منها: «تكذيب الرسول، أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول،
أو بغض الرسول، أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية
لانتصار دين الرسول. فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار». وكذلك
اعتقاد عدم وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم، أو عدم تصديقه فيما أخبر عليه الصلاة والسلام
كلها من علامات المنافقين الظاهرة.

وأكثر صور هذا النفاق ورودا في القرآن الكريم؛ في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، أمثال:

— الذين يلمزون النبي صلى الله عليه وسلم ويعيبونه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ
يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة].

— المَسْرَّة والفرح بانفخاض دين الرسول صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة]. فإذا أصابت النبي صلى الله عليه وسلم مُصِيبَةٌ فرحوا بذلك فرحاً شديداً. وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران].

وأما النفاق العملي الذي هو دون هذا الأكبر فممنه ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أَرَبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) [أخرجه البخاري] ومعنى قوله: (كان منافقاً خالصاً: أي فيه شبهة شديدة بالمنافقين فإن الذي يأتي مثل هذه الأعمال إنما شابههم في التناقض الحاصل بين بواطنهم وظواهرهم؛ وليس هو من الخالدين في النار بهذا النفاق العملي الذي هو دون النفاق العقدي) كما قال شراح الحديث.

الخامس: مظاهرة المشركين على المسلمين.

معاونة المشركين على المسلمين مظهر من مظاهر الكفر؛ ولو كان عنده إيمان بالله تعالى وبما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ما فعل ذلك ولا خطر بباله أصلاً، فقد قال الله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ٨٠ ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ أَلَمَلِكُهُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء]؛ قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه الآية: «عامة في كل من أقام بين ظهراني

الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْهَجْرَةِ، وَلَيْسَ مُتَمَكِّنًا مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ، فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُرْتَكِبٌ حَرَامًا بِالْإِجْمَاعِ» وهذه الآية نزلت في قوم جلسوا بمكة وفيها الكعبة وبيت الله الحرام!! ومع ذلك كان هذا حكمهم. وفي تفسيرها: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا، وَكَانُوا يَسْتَخْفُونَ بِالْإِسْلَامِ، فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَهُمْ، فَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ بِفِعْلِ بَعْضٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: كَانَ أَصْحَابُنَا هَؤُلَاءِ مُسْلِمِينَ وَأَكْرَهُوا، فَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُبَايِعُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أَبَايَعَكَ، وَاشْتَرِطْ عَلَيَّ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ. قَالَ: أَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبَدَ اللَّهَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَتَّصِحَ الْمُسْلِمِينَ، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ) [أخرجه النسائي] فلا بد للمسلم من مفارقة المشرك في كل شيء من خصائص دينه؛ فلا يُقيم بين أظهرهم (وهذه مفارقة حِسِّيَّة)، وكذلك لا يَتَجَنَّسَ بِجَنَسِيَّتِهِمْ، وَلَا يُفَضِّلُ هَدْيَهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ عَلَى هَدْيِ الْمُسْلِمِينَ، وكذلك لا يكون عوناً لهم على إخوانه المسلمين ففي هذا خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ وقد أقرَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ رضي الله عنه على قوله لحاطب بن أبي بلتعة قبل أن يستفصل من حاطب رضي الله عنه - حين أرسل كتاباً إلى قريش يُخبرهم بخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ خَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلَأُضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ حَاطِبٌ: وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا ..) [أخرجه البخاري] ولا بد كذلك من مفارقتهم معنوياً فلا يُحبهم ولا يتولاهم ولا يتودد إليهم ولا يمدحهم بما فيه مذمة للمسلمين وغير ذلك.

السادس: السّحر والشعوذة، وإيتيان الكهان والدّجالين.

وهذا من الأمور التي قد تكون سببا في خروج الإنسان من عقد الإيمان؛ أن يتعلم السّحر أو يُعلمه أو يعتقد في الدجالين والكهّان ويصدقهم في أقوالهم، وأن يعتقد فيهم النفع والضرر بغير إذن الله تعالى وغير ذلك من هذه المعاني الموجبة لصحبها كُفراً، فقد قال الله تعالى عن اليهود الذين ادّعوا أن سليمان عليه السلام كان يُثبّت ملكه بهذا السّحر؛ فنفى الله تعالى أن يكون كذلك وإنما كان رسولا نبيا ملكاً ولم يكن كافراً؛ فقال جلّ ذكره: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، فليسوا بمؤمنين وليس لهم في الآخرة من خلاق، وليس هذا فقط بل ولا يظفر الساحر بمطلوب أين كان!! فقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه]، وكذلك هو من المفسدين؛ وقد قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مَوْسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس]، وقد أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من شر النفاثات في العقد؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) [أخرجه البخاري].

وجاء عند النسائي - وفيه مقال - قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ عَفَدَ عُفْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ) [أخرجه النسائي]. وجاء عند البزار وغيره: (ليس منا من تطير أو تُطير له، ولا تكهن ولا تكهن له أو سحر أو سحر له)

وجاء أيضا: (عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً») [أخرجه مسلم] وإذا كان هذا فيمن أتى عرافاً ليسأله فما هو حال العراف نفسه الذي اتخذ هذه العرافة عملاً له!!.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: (ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقُ السَّحَرِ) [أخرجه أحمد]، و عنده أيضا - وفيه ضعف - (كان لداود نبي الله عليه السلام من الليل ساعة يُوقِظُ فيها أهله، فيقول: يا آل داود، قوموا فصلُّوا؛ فإنَّ هذه ساعةٌ يَسْتَجِيبُ اللهُ فيها الدُّعَاءَ، إِلَّا لِسَاحِرٍ أَوْ عَشَّارٍ).

ولمّا كان السّحر بهذه المثابة كان حدّه عند أكثر العلماء القتل؛ فقد جاء ذلك عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاء قتله عن: (عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وحفصة بنت عمر، وعبد الله بن عمر وجندب بن عبد الله ..) رضي الله عنهم جميعاً.

وحكم الساحر الكفر - على تفصيل في المسألة بين العلماء -؛ فإن كان في سحره ما يقتضي الكفر كفر كتعظيم الجن والكواكب، وإن كان فيه غير ذلك من التخييلات والاستعانة بخواص بعض المواد فهو حرام حرمة شديدة ولا يصل بصاحبه إلى الكفر .. وقد قيل نظماً:

وَالسَّحَرُ حَقٌّ وَلَهُ تَأْثِيرٌ ... لَكِنْ بِمَا قَدَّرَهُ الْقَدِيرُ

أَعْنِي بِذَا التَّقْدِيرِ مَا قَدْ قَدَّرَهُ ... فِي الْكَوْنِ لَا فِي الشَّرْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ

وَاحْكُمْ عَلَى السَّاحِرِ بِالتَّكْفِيرِ ... وَحَدُّهُ الْقَتْلُ بِلَا نَكِيرِ

كَمَا أَتَى فِي السُّنَّةِ الْمُصَرَّحَةِ ... مِمَّا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ

عَنْ جُنْدُبٍ وَهَكَذَا فِي أَثَرٍ ... أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ عِنْدَ مَالِكٍ ... مَا فِيهِ أَقْوَى مُرْشِدٍ لِّلسَّالِكِ.

وأخيراً.. أقول: كم من قَتِيلٍ قُتِلَ بسبب سِحْرِ، وكم من امرأة تركت زوجها بسببه، وكم من ولدٍ
فُرق بينه وبين أبويه بسبب ذلك .. وكم وكم وكم.

ونسأل الله العفو والعافية .. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والحمد لله رب العالمين

الشهود على العبيد

العناصر:

المقدمة.

من هم الشهود على العبيد يوم القيامة؟

(الموضوع)

مواقف يوم القيامة شأنها عظيم، ويكفي في وصفه ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنذَرُهم يَوْمَ الْحُسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم]؛ فهو يوم الحسرات والزفريات. وفي هذا اليوم نبأ عظيم؛ وهو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة]، فإذا ما تخيل المرء أعمالاً عملها وقد مضت عليها السنون ثم السنون ونسيها.. ولكن الله تبارك وتعالى لم ينسها فهو على كل شيء شهيد. إذا ما تخيل المرء ذلك وكان له قلب يعقل به؛ انفطر وتصدّع. ومن أهوال هذا اليوم قضية هي من أعظم القضايا؛ ألا وهي:

قضية الشهود على العبيد يوم القيامة؛ فهي من أخطر القضايا التي ينبغي أن يقف معها المسلم؛ لا سيما وأن من طبعه ومن جبلته وتركيبه النسيان، فهو مخلوق ينسى ويجحد ما قام به وما صدر عنه من أفعال وأقوال؛ ويشهد لذلك ما جاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: («لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ» مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالَقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ

يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنُكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيءُ آدَمَ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ [أخرجه الترمذي]. فالجحد والنسيان والخطيئة من شأن الإنسان. ولعلَّه ولأجل ذلك كان توثيق الديون عندنا في الشريعة خوف جحودها ونكرانها؛ فإما أن تكون بالكتابة أو بالشهود، أو بالضمان أو بالرهن؛ (وهي أبواب معروفة في الفقه الإسلامي ولها أحكامها).

وأما الشهود على الخلق يوم القيامة فقد جاء مُصرحاً بذكرهم في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر]، فهناك شهود يقومون يشهدون على العبد في هذه الحالات وفي هذه المواقف الصعبة.

وممن جاء التصريح بشهادتهم على العبد يوم القيامة:

• **الله تبارك وتعالى.** شهادة الله تبارك وتعالى على الخلق معلومة معروفة لا يُنكرها إلا مَنْ جَهِلَ عظمته سبحانه وتعالى وقيوميته على خلقه؛ فهو سبحانه وتعالى الشهيد على أعمال العباد وأقوالهم وقلوبهم بل وعلى سرائرهم لا يخفى عليه منها شيء سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء] بل وكفى بها: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء]، وقال أيضاً: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء] وكيف لا تكون كذلك!! فهي أكبر الشهادات؛ فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام]. وقد قال الله تعالى عن نفسه أيضاً: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس] فعندما يبدأ الإنسان في العمل ويفيض فيه؛ فإن الله تعالى

شَهِيدَ عَلَيْهِ. وَهَذَا لِأَنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْ خَلْقِهِ فَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ وَقَدْ قَالَ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف] وَقَدْ قَالَ نَافِيًا أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ حَاجِبًا لَهُ عَنْ خَلْقِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنْ آلْحَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون]، فَلَا تَحْجُبُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ الطَّبَاقُ خَلْقَهُ عَنْهُ وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ وَالْبَحَارُ وَالْأَنْهَارُ .. لَا تَحْجُبُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى مَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ.

• **الملائكة الكرام.** فالملائكة لهم شهادة على الخلق؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء]، وَمِمَّا يَدُلُّ كَذَلِكَ عَلَى شَهَادَتِهِمْ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق] ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق] فَمَلَكٌ يَسُوقُهُ وَآخَرٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِمَا عَمِلَ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾ [ق] وَالْقَرِينُ هُنَا هُوَ الْمَلِكُ الْكَاتِبُ الشَّهِيدُ. وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف]. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ].

• **شهادة الرسل على أقوامهم.** فالنبي صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النحل] وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج] وَقَالَ أَيْضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل] فَكُلُّ أُمَّةٍ يَشْهَدُ عَلَيْهَا رَسُولُهَا الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ. وَكَذَلِكَ رَسُولُنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالتَّبِيعِينَ وَالشَّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر] فالرسل تأتي يوم القيامة والشهداء يشهدون على العباد؛ فإن الله تعالى يسأل الأنبياء يوم القيامة عن تبليغهم وعن إجابة أقوامهم لهم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة].

• **شهادة الأعضاء على صاحبها.** قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَبَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت] وقال أيضا: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور] وقال سبحانه: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس] فأعضاء الإنسان وأركانه وجوارحه تشهد عليه يوم القيامة: (السمع والبصر والجلود والأيدي والأرجل)؛ فيختتم على فيه؛ وتتكلم هذه الأعضاء التي كان يجرح بها ويخدش بها دينه؛ وقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكَ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاءَ، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُخْفًا؛ فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنْضِلُ) [أخرجه مسلم]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبِيرَهُ فِي غُنْقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء].

• **شهادة الأرض.** قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة] ف: «في ذلك اليوم العظيم تخبر الأرض بما عمل عليها من خير وشر» وقد: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (يومئذ تحدث أخبارها) قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذا أخبارها، فهذا أمرها فهذه أخبارها) [أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح]؛ فالعاقل كل العقل من جعل من الأرض التي يمشي عليها شاهدا له يوم القيامة؛ يُقيم عليها الصلوات، ينهى ويأمر، يُعلم ويذكر، يمشي عليها في الطاعات، ويفرج عليها الكربات؛ وبالجمل: فليكن عليها مباركا أينما كان.

• **شهادة المال على صاحبه.** فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المال: (وإن هذا المال خضر خلوقة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل - أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم - وإنه من يأخذه بغير حقه، كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة) [أخرجه البخاري]؛ فتخيل معي .. هذا المال ستسأل عنه. وسيكون شاهدا عليك إن لم تؤد حق الله تعالى فيه!!.

• **شهادة الأمة الإسلامية على الأمم.** ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فيقولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ فيقول: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فيقولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيقول: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]. والوسط: العدل) [أخرجه البخاري]. وإذا كان هذا عن نوح عليه السلام فقد جاء عن غيره من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (يجيئ النبي ومعه الرجلان، ويجيئ النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك، وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه،

فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمَّتُهُ، فتُدعى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبيُّنا بذلك أن الرُّسُلَ قد بلغوا فصدَّقناه، قال: فذلكم قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [ابن ماجة في السنن].

● **شهداء في الدنيا ينفعون في الآخرة.** فعن: (أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَجِبَتْ". ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: "وَجِبَتْ" فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجِبَتْ؟ قَالَ: "هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ") [أخرجه البخاري]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْعَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ وَبَادِيَتِكَ، فَأَذْنَتَ بِالصَّلَاةِ، فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ حِينَ لَا إِنْسَ وَلَا شَيْءَ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أخرجه البخاري] وفي بعض الروايات (ولا حجر ولا شيء..).

فنسأل الله تعالى أن يسترنا في الدنيا والآخرة
والحمد لله رب العالمين.

ذكر الله تعالى

العناصر.

أولاً: أهمية ذكر الله تعالى.

ثانياً: عطايا ومنح للذاكرين.

ثالثاً: عقوبات المعرضين عن ذكر الله تعالى.

الموضوع

ذكر الله تعالى من أهم العبادات وأجل القربات؛ فهو نعم الزاد إلى يوم المعاد، وهو المعراج الذي يُصعد عليه إلى مرضاة رب العباد، وكذلك هو الوسيلة التي يُعان بها العبد على ما فرض عليه من الواجبات. فالذكر له عند الله تعالى المقام الأسمى والمكانة العظيمة⁽¹⁾. وسوف يظهر هذا وغيره في ثنايا هذا اللقاء:

أولاً: أهمية ذكر الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة] وقال تعالى عن أوصاف أولي العقول والألباب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران] وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب]. ثم إن الله تعالى أمرنا به؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب]، وهو سبيل لاطمئنان القلوب من خوفها وقلقها؛ فقد قال جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه

(1) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى عن الذكر أكثر من ستين فائدة؛ في كتابه الوابل الصيب من الكلم الطيب،

ص: (94) وما بعدها. طبعة المجمع.

وسلم عن المُكثَرين منه: (.. سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ، قالوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ) [أخرجه مُسلم]. فأصحابه هم السابقون.

كما أن الذكر يقوم مقام النوافل، ومقام الفرائض التي يعجز عنها الإنسان؛ فقد: (جاءَ الفقهاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحْجُونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُحَمِّدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلُّهُنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ) [أخرجه البخاري].

وكما أن المسلم في حاجة مُستمرة إلى الدعاء وفي حاجة أشد إلى استجابة دعائه كذلك؛ فباب الذكر هو أوسع الأبواب لتحقيق الدعاء فقد قال صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ: الذَّاكِرُ اللَّهَ كَثِيرًا، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ) [أخرجه أبو داود]. ففي ذكر الله تعالى فلاح في الدنيا والآخرة، وفيه استجابة لأمر الله تعالى، كما أن فيه براءة من النفاق، وكما أنه يُعَدُّ مُكَمَّلًا لما فات من الطاعات بسبب العجز المادي أو الجسدي عنها.. وغير ذلك مما ظهر في أهميته.

ثانيًا: عطايا ومنح للذاكرين.

1 - الله تعالى يَذْكُرُ من يذُكِّره ويُصلي عليه. فقد قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة]. وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِيرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) [أخرجه البخاري]، فالله تعالى مع مَنْ ذكره (وتلك معية خاصة)، وهو كذلك يَذْكُرُ من ذكره. في نفسه سبحانه وتعالى، أو في ملائكة خير من الملائكة الذي ذكره فيه على حسب حال الذاكر في ذكره، وقال الله تعالى أيضاً: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ

تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿١٠١﴾ [العنكبوت]، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها: (ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه)!! أي إذا ذكرتموه. - وهناك تفسير آخر .. وكيف لا يكون ذكر الله تعالى لك كذلك وهو الكبير المتعال مالك الملك.

2 - أن الله تعالى يباهي بالذاكرين ملائكته. فقد (خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلَقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي!!، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ) [أخرجه مسلم].

3 - الذاكر حي يعيش بين الأموات. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) [صحيح البخاري] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) [أخرجه مسلم] فهذا هو حال الأبدان وحال البيوت إذا ما خلت عن ذكر الله تعالى. فالذاكرون أحياء وغيرهم أموات. وانظر كذلك إلى أثر إقامة الذكر والعبادة على البيوت في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ) [أخرجه مسلم] وكذلك قوله: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) [أخرجه أبو داود]. وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا) [أخرجه البخاري]. والقبور هي مساكن الموتى.

4 - في حصن من الشيطان. فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا .. - وكان من هذه الكلمات الخمس - وأمركم أن تذكروا الله؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحَرِّزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ ..)

[أخرجه الترمذي في السنن]، وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْنُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زَفَعَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَصَّ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَافْقُرْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ) [أخرجه مسلم]. وعن أبي هريرة أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّائِدِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّوْبَةَ أَقْبَلَ، ..) [أخرجه البخاري]. فمن أراد أن يتحصن من الشيطان فعليه بهذا الباب؛ لا سيما الأذكار الموظفة في اليوم والليلة كأذكار الصباح والمساء، وعقب الصلوات والمساء والقيام من النوم .. وغيرها.

5 - أن الله تعالى يُعِينُ الذَّاكِرِينَ عَلَى عِبَادَتِهِمْ وَعَلَى أَعْمَالِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ. فقد روي: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَسَبَّتُ بِهِ قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) [سنن الترمذي]. ولعلَّ هذا هو السرُّ في جمع الله تعالى بين إقامة الصلاة وتلقاها على المنافقين وقلة ذكركم له تعالى؛ حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء] وقد قال صح؛ (أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنَ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ، فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بِسَبْيٍ، فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَلَمْ تُؤَافِقْهُ، فَذَكَرَتْ لِعَائِشَةَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ لَهُ، فَأَتَانَا، وَقَدْ دَخَلْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْنَا لِنَقُومَ، فَقَالَ: عَلَى مَكَانِكُمَا. حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، فَقَالَ: أَلَا أَدْلُكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ) [أخرجه البخاري]. فالذكر يعينه على أعماله الدنيوية والدنيوية.

6 - الله تعالى يُظِلُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: .. وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ..) [أخرجه البخاري]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾ [الأنفال] فالمؤمنون حقاً: هم الذين وجلت قلوبهم عند ذكر الله تعالى.

7 - أنه مُذْهَبٌ للسيئات ومُكَفِّرٌ لها؛ إذ الحسنات يُذهبن السيئات. فمن أراد أن يكون كثير الحسنات ماحياً لسيئاته فعليه أن يُكثر من ذكر الله تعالى إذ فيه زيادة الحسنات التي هي ماحية للسيئات، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود]. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً، فاعْمَلْ حَسَنَةً تَمْحُهَا) [أخرجه الترمذي] فقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.. وغير ذلك من أنواع الذكر التي وعد الله تعالى عليها بالحسنات الكثيرة والمضاعفة كلها تُكَفِّرُ السيئات؛ مثل: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ) [أخرجه البخاري] وفي الصحيح أيضاً: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرَ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِزْرًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمِيسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ) [أخرجه مسلم] وعنده أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيْعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةً، فَيُكْتُبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ). وغير ذلك.

8 - أن مجلس الذكر تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتتنزل عليه السكينة. فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) [أخرجه مسلم]، وجاء أيضاً عن البراء بن عازب

رضي الله عنه: (بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ وَفَرَسٌ لَهُ مَرْبُوطٌ فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، وَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ بِالْقُرْآنِ) [أخرجه البخاري] وفي شرحه: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ كَانَتْ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ نَزَلُوا يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ؛ وَقِيلَ: إِنَّ السَّكِينَةَ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ طُمَأْنِينَةٌ، وَرَحْمَةٌ، وَمَعَهُ مَلَائِكَةٌ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ؛ وَلِذَلِكَ نَفَرَتِ الدَّابَّةُ لَمَّا رَأَتْهُمْ». وجاء عند البيهقي: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يَصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَلْيَسْتَكْ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَرَأَ فِي صَلَاتِهِ، وَضَعَ مَلَكٌ فَاهُ عَلَى فِيهِ، وَ لَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا دَخَلَ فَمَ الْمَلَكِ) [البيهقي في شعب الإيمان].

9 - أنه غراس الجنة. وهذه من العطايا التي تجعل المسلم يسارع في تكثير غراسه في جنات تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ) [أخرجه الترمذي] وعنده أيضا: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأْ أَمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ) [أخرجه الترمذي] وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرَسًا فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا الَّذِي تَغْرِسُ قُلْتُ غِرَاسًا قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تُغْرِسُ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ) [أخرجه ابن ماجه في السنن].

10 - شُرِعَتِ الْعِبَادَاتُ تَحْقِيقًا لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ. فقد قال الله تعالى عن الصلاة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه]؛ بل إن الله تعالى سمى الصلاة في القرآن ذكرا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة] والمراد به صلاة الجمعة، وفي الحج جاء ذِكْرُ اللَّهِ تعالى في مواطن كثيرة من آياته في سورة [البقرة] حيث قال جلَّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ وقال أيضا: ﴿فَاذْكُرُوا

اللَّهُ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا» وبعدها قال في أيام منى: «وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ» وفي الصيام مرتع خصب لذكر الله تعالى فالصائم يتقلب في كل أحواله بين الذاكرين؛ فعند السحر نكّر وعند الفطر وعند التراويح كذلك بل وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وغير ذلك.

ثالثاً: عقوبات المعرضين عن الذكر.

1 - المعيشة الضنك. فالمعرضون عن ذكر الله تعالى هذا حالهم؛ وإن كانوا في رعد من العيش وكثرة الأموال إلا أنها معيشة لا تخلوا عن نكد وضيق؛ فقد قال الله تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى» [طه] ف«من تولّى عن ذكرى ولم يقبله، ولم يستجب له فإن له معيشة ضيقة في الدنيا وفي البرزخ، ونسوقه إلى المحشر يوم القيامة فاقد البصر والحجة». والمقصود بالذكر هنا كما قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أَيُّ دِينِي، وَتِلَاوَةِ كِتَابِي، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ».

2 - نسيان الله تعالى للعبد. فالذي ينسى ربه ولا يجعل ذكره ديدنه؛ فجزاؤه من جنس عمله إذ الله تعالى قال عن المنافين وهذا شأنهم: «الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فلما نسوا الله تعالى ولم يذكروه عاملهم سبحانه وتعالى معاملة من نسيهم فلم يوفقهم ولم يرشدهم إلى الخير، وليس هذا فقط بل أنساهم أنفسهم؛ فقال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» ومن نسي نفسه؛ غفل عن مصالحها فأهلكها وأرداها من حيث لا يشعر.

3 - موت القلوب. فحياة القلوب بذكر الله تعالى وقساوة القلوب بالغفلة عن ذكره تعالى؛ وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) [أخرجه مسلم]. وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جِلَاءً، وَإِنَّ جِلَاءَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [شعب الإيمان للبيهقي].

4 - علامة من علامات النفاق. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال كعب رضي الله عنه: (من أكثر ذكر الله برئ من النفاق). ولهذا والله أعلم ختم الله تعالى سورة المنافقين بالتحذير من الانشغال عن ذكر الله تعالى فقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون].

5 - أمره فُرطاً. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ ولن تجد وصفاً أبلغ في ضياع الإنسان وهلاكه من هذا (فُرطاً) - فكأنه عقد قد انفرط شمل خرزاته وحبّاته ولا سبيل إلى لمّ شملها -؛ فأمره وحاله في ضياع وسفه وسبب هذا كله؛ فإياك ثم إياك أن تطيع من كان حاله كذلك.

وفي آخر هذا الموضوع أحبُّ أن أقول؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب]، «ولا يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من كان يرجو اليوم الآخر، ويعمل له، وذكر الله ذكراً كثيراً، وأما الذي لا يرجو اليوم الآخر ولا يذكر الله كثيراً فإنه لا يتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم» فالأسوة الأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله وأفعاله لا أن نفعل هيئة للذكر أو أذكارا محددة أو شروطاً أو أعداداً؛ لم يأذن بها الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

فرائض الإسلام (غايات ومقاصد)

العناصر:

المقدمة.

الغاية الأولى: تحقيق التقوى.

الغاية الثانية: تزكية النفوس وإصلاحها.

الغاية الثالثة: تحقيق التكافل والتراحم.

الغاية الرابعة: تحقيق السُّمو الأخلاقي.

الغاية الخامسة: تحقيق الرُّشد العقلي.

(الموضوع)

مما لا شكَّ فيه أن الدين الإسلاميَّ العظيمَ له فرائض وحقوق وواجبات؛ وهذه الواجبات وتلك الفرائض شرَّعها الله تعالى وألَّزَمنا بها لتحقيق غايات نبيلة وأهداف سامية، ولا بدَّ للمُسلم حينئذٍ أن يسعى في تحقيقها، وإلا كانت عبادته التي يتنسَّك بها كالجسد الذي خرجت منه الروح فأصبح جُثَّةً هامدةً وإن كان في أعين الناظرين جميلاً سليماً!!.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أمثال هؤلاء ونَبَّهنا عليهم ففي الأثر الذي فيه خبر الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم "اتق الله"، فهو: (ناتئ العينين مُشْرِفُ الوجنتين ناشزُ الوجه كُتُّ اللحية مخلوقُ الرأسِ مشمَّرُ الإزارِ فقال: يا رسولَ الله اتَّقِ الله!! فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أولستُ بأحقَّ أهلِ الأرضِ أنْ أتَقِيَ اللهَ ثمَّ أدبرَ فقام إليه خالدٌ سيفُ الله فقال: يا رسولَ الله ألا أضربُ عنقه؟ فقال: لا، إنَّه لعلَّه يُصَلِّي. قال: إنَّه ربُّ مُصلٍّ يقولُ بلسانه ما ليس في قلبه قال: إنِّي لم أومرُ أنْ أشقَّ قلوبَ النَّاسِ ولا أشقَّ بطونهم) [أحمد في المسند] - وفي أثر آخر وهو ضعيف -: (إنَّ أوَّلَ ما يُرْفَعُ من النَّاسِ الأمانةُ، وآخرُ ما يَبْقَى الصلاةُ، ورُبُّ مُصلٍّ لا خَيْرَ فيه) [ضعيف الجامع - الألباني]. وقال عليه الصلاة والسلام عن الصيام والقيام: (ربُّ صائمٍ ليس له من صيامِهِ إلَّا الجوعُ، ورُبُّ قائمٍ ليس له من قيامِهِ إلَّا السَّهَرُ) [ابن ماجة في السنن]. وقال أيضاً: (لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ جبالٍ تهامةٍ بيضًا فيجعلُها اللهُ عزَّ وجلَّ

هَبَاءٌ مَنْثُورًا قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلَّهْمَ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَّا إِنْهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمَنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا [ابن ماجة في السنن] .. فهذه عبادات لم تُحقق أهدافها المرجوة منها ولا غاياتها المنشودة؛ فكانت كأن لم تكن وكانت هباءً.

لذلك كان من الضروري أن ننظر في مقاصد العبادة وغاياتها حتى نكون على بينة من الأمر؛ فلا نُخدع بمن يُكثرُونَ عبادتهم التي قد خلت عن تحقيق مقاصدها وغاياتها. من هذه الغايات والمقاصد:

الغاية الأولى: تحقيق التقوى. - سبق الحديث مُفصَّلًا عن التقوى⁽¹⁾ - وهي كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتن، فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: هي أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله رجاءَ رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله على نورٍ من الله مخافةَ عذاب الله» وقيل عن أبي هريرة رضي الله عنه في تعريفها حينما سأله رجلٌ عن التقوى فقال له: «هل أخذت طريقًا ذات شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف كنت تصنع إذا رأيت الشوك؟ قال: أَعْدِلُ عنها، أو جاوزتها، أو قَصُرْتُ عنها، قال: ذاك التقوى» فمن لم يترك معاصي الله تعالى ابتغاء مرضات الله عز وجل لم يحقق التقوى؛ وإن كان من العباد، ومن لم يعمل بطاعة الله تعالى على نورٍ من الله عز وجل لم يحققها كذلك، ومن لم يُشَمِّرْ عن الشبهات والشهوات حتى لا يقع فيها لم يحقق الغاية من عبادته وإن كان من أكثر الناس عبادةً. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الْحَلَالُ بَيْنٌ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَّاعٍ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ..) [أخرجه البخاري]

وهذه الغاية (تحقيق التقوى)؛ لا تقتصر على مكان أو زمان وإنما هي ملازمة للإنسان في كل أحواله؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) [أخرجه أحمد والترمذي] وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(1) - يُنظر موضوع: (المتقون - الوارثون جنان الخلد) في هذه الكنانة.

من قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» [النساء]. فهذه التقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين فهي وصية جامعة وفي كل زمان ومكان.

وقد قال الله تعالى عن الصلاة ومُلازمتها للتقوى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه] وعن الحج؛ قال الله تعالى في آياته: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة] وعن العبادة كلها قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة].

فلا بد من أثر يظهر على جوارح العابد إزاء عبادته؛ وإلا فكيف يكون عابداً ومُرتكباً للقبائح والردائل!! هذا في العقول غريبٌ.

الغاية الثانية: تزكية النفوس وإصلاحها. تزكية النفوس وتطهيرها من الغايات والمقاصد التي شرعت لأجلها العبادات والشرائع؛ بل إن الرُّسل عليهم الصلاة والسلام كلهم جاؤوا بذلك؛ فموسى عليه الصلاة والسلام قال الله عنه: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات] ومحمد صلى الله عليه وسلم قال ربه عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾ ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى﴾ [عبس] وقال عنه أيضاً: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران] ولأجل هذا كله قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى] وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَلَهَا﴾ ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَلَهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا﴾ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس]؛ فالعبادة إذا لم تؤثر في نفس صاحبها فتطهرها من الرياء والسمعة والحقد والحسد والضغينة والكبر وهذه الأمراض التي تُعشش في النفوس؛ فهذه عبادة لم تؤد الغاية المرجوة منها وصاحبها على خطر.

الغاية الثالثة: تحقيق التكافل والتراحم. وهذا أمر مهم جداً؛ إذ العبادات والفرائض الإسلامية

هذا من غاياتها ومقاصدها، فالأخوة الإيمانية تستلزم التكافل والتناصر والتعاون فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أخرجه مسلم]. يُوضِّحه كذلك: أن سبب نجاة العبد في الآخرة مرهون بأمرين أولهما: حق الله تعالى وثانيهما: حق إخوانه من المؤمنين؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون]؛ فإذا كان المصلون ساهين عن صلاتهم مُرائين بها مانعين عن الناس ما يُعينهم على أمر دنياهم ودينهم فويلٌ لهم. وقد تساءل أهل الجنة عن سبب سلوك المجرمين سقر؛ ف: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ﴾ [المذثر] فكان من أسبابه عدم إطعام المسكين، وكيف يكون التكافل إذا مُنعت الحقوق فلم تصل إلى مُستحقِّها؛ وقد جاء أن: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِي زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِي غَنِيِّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) [أخرجه البخاري]. فانظر إلى أثرها وقيمتها في تكافل المجتمع وعلاج أمراضه.

وأمرٌ آخر وهو أن اجتماع المسلمين في الجمع والجماعات والأعياد، واجتماعهم في فريضة الحج، ومُشاركتهم لبعض في الأفراح والأحزان .. وغيرها من صور اجتماع المسلمين؛ كلُّ هذا يؤدي إلى التكافل والتراحم وإصلاح ذات البين؛ التي عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ

البَيِّن هي الحالقة) [سنن الترمذي] وكذلك فيها إبعاد الشيطان عن التحريش بينهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) [سنن أبي داود].

الغاية الرابعة: تحقيق السمو الأخلاقي. هذه الغاية لها بالعبادة ارتباط وثيق جداً؛ لأن من لم

يكن على أخلاق طيبة سامية فقد عرض نفسه للهلاك وإن كان كثير العبادة!! كيف ذلك؟ قال الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت] فهذا شأن الصلاة، وهو شأن الحج كذلك حيث قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ وعن الصدقة وإبطالها باليمن والأذى يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة]، وعن الصيام يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه) [أخرجه البخاري] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار) [أخرجه مسلم]، وكذلك: (قال رجل يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقته وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال هي في النار قال يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأنوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها قال هي في الجنة) [أخرجه أحمد] فالمفالس في الآخرة معهم حسنات ولكنها لم تنفعهم إذ ذهبت إلى من تعدوا عليهم بأخلاقهم السيئة فكان منهم السب والقذف والضرب وسفك

الدعاء .. وكذلك المرأة التي كانت مُكثرةً للصلاة والصيام والصدقة لم تتفعها هذه العبادات إذ كانت تؤذي جيرانها بلسانها. فصاحب الأخلاق الحسنة السامية قد حافظ على حسناته أن تضيع وقد أحبه الناس لحسن خلقه.

فأين هؤلاء المكثرون للعبادة؛ صلاة وزكاة وصياما وحجا وعُمرة.. ومع ذلك أخلاقهم سيئة.. أين هم من تلك النصوص؟!.

الغاية الخامسة: تحقيق الرُّشد العقلي. إن تحقيق الرُّشد العقلي من العبادات أمرٌ من الأمور المهمة؛ لأن هذا الرُّشد يتبعه سدادٌ في الرأي وقوةٌ ورجاحةٌ في العقل وفي تدبير وتصريف الأمور، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة] فهي غاية من غايات الإيمان والاستجابة لله تعالى أن نكون راشدين، وقد قال الله تعالى عن القرآن: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن] وقال تعالى عن قوم وصفهم بمحبة الإيمان وكره الفسوق والعصيان: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ﴾ فالراشد: هو من أحب الإيمان وكره الكفر والفسوق والمعاصي. ومن لم يتصف بهذه الصفة فهو السفيه - ضد الراشد - كما وصف الله تعالى الذين اعترضوا على أحكامه بقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة]، وقبلها: ﴿وَمَن يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة]. وتحقيق الرشاد غاية من الغايات النبيلة التي ينبغي على المسلم أن يسعى في تحصيلها لا سيما؛ وقد كان من الدعوات الواردة على لسان أصحاب الكهف: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف]، ومن الدعوات الماثورة كذلك - وإن كان به ضعف - (إذا كنز الناس الذهبَ والفضةَ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، والعزيمة على الرُّشد، وأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ؛ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) [مسند أحمد].

ومما يدل على أن العبادة لها أثر كبير في الهداية إلى الرشاد والسداد في الأمور؛ أن صلاة الاستخارة من الأمور المشروعة عندنا وما هي إلا عبادة يُطلب فيها من الله تعالى هداية العبد إلى أقوم الطرق وأرشدتها؛ فقد قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ: إِذَا هَمَّ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أُمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أُمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ) [أخرجه البخاري].

فتلك غايات ينبغي على المسلم أن يستحضرها في عباداته ويسعى في تحقيقها؛ حتى تكون العبادة مقبولة عند الله تعالى.

تصحيح المفاهيم

المقدمة.

- من المفاهيم المُصححة.

(الموضوع)

من المعلوم: أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسله ربُّه تبارك وتعالى هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً، وكان عليه الصلاة والسلام مُعلِّماً وهو خير مُعلِّم صلى الله عليه وسلم، فقد علمنا كلَّ خير ودلَّنا عليه وبيَّن لنا كلَّ شرٍّ وحذرنا منه، وكان من هديه صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ يُغَيِّرُ أَشْيَاءَ تَسْتَحِقُّ التَّغْيِيرَ؛ ومنه تغيير الأسماء القبيحة أو الأسماء التي فيها تزكية لأصحابها، بل كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يشتد عليه الاسم القبيح ويكرهه، من مكان، أو قبيلة، أو جبل، أو شخص. وهديُّه في ذلك معروف معلوم. وعلى النقيض: فقد كان صلى الله عليه وسلم يُحذِّر من تغيير المُسمَّيات التي قد تؤثر على بعض الأحكام الشرعية كمن يُسمِّي الخمر أو الربا بغير اسمها ..

ومن جملة هذه الأمور التي اعتنى النبي صلى الله عليه وسلم بتغييرها؛ بعض المفاهيم التي علقت بأفهام الناس وعقولهم؛ إمَّا بسبب طغيان الحياة المادية عليهم أو بسبب ما ورثوه من آبائهم الأقدمين أو ما شابه، أو بسبب قلة عدم إدراكهم للمعاني المترتبة على تلك المفاهيم.

ومن جملة هذه المفاهيم التي غيَّرها النبي صلى الله عليه وسلم:

أولاً: مَنْ المفلِس والغنيُّ؟. ففي خِضمِّ هذه الحياة الماديَّة يأتي هذا التصحيح النبوي لهذا المعنى الذي يتعلق بالمال ونظرة المجتمع له ولأصحابه. فالكثيرون يعدُّون صاحب المال والثروات والعقارات غنياً، وكذلك يعدُّون مَنْ فقد هذه الأمور مُفلساً! ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يُلَفِّت أنظارنا إلى المعنى الحقيقي لتلك المطلحات في ميزان الشريعة الغراء؛ فيقول عليه الصلاة والسلام

فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُفْلِسُ مَنْ أَمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [أخرجه الترمذي وأحمد] فالإفلاس الحقيقي أن يأتي المرء يوم القيامة خاليا من الحسنات التي يعود نفعها عليه؛ فيأتي يوم القيامة وقد تعلق به ذوُّ الحقوق يأخذون حقوقهم التي اغتصبها منهم أو تعلقَتْ بهم. فالمفلس في ميزان الشرع هو هذا: (جاء بحسنات ولم تنفعه!) أو (الذي اكتسب سيئات لم يعملها!) وفي هذا المعنى: يأتينا حديث المرأة التي كان يُذكر عنها من كثرة العبادات ما يُذكر ومع ذلك هي في النار؛ وهو: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذَكَّرُ مِنْ كَثَرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: "هِيَ فِي النَّارِ"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذَكَّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقْطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: "هِيَ فِي الْجَنَّةِ") [أخرجه أحمد في المسند].

وإذا كان هذا هو الإفلاس الحقيقي؛ فالغنى الحقيقي كذلك عندنا في الإسلام قد بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) [صحيح البخاري ومسلم]؛ فليس الغنيُّ صاحبَ العرضِ الكثير الذي لم يشبع بما معه أو لم يقنع بما رُزق؛ وإنما نفسه مُتطلعة لما في أيدي الآخرين. وأمّا مَنْ كان ذا نفسٍ غنية قنوع؛ فإنَّ الله تعالى يُحِبُّه كما في الحديث: (إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي) [أخرجه مسلم] وحتى نعلم أهمية هذا المعنى؛ لابد من النظر في سير أصحاب الأموال التي لم ينتفعوا بها يوم القيامة؛ أمثال: قارون وقصته معروفة في سورة القصص، وكذلك الوليد بن المغيرة الذي قال الله في شأنه ما قال فقد أمده الله تعالى بالمال والبنين؛ وغيرهما ممن لم ينتفعوا بأموالهم في الآخرة. وذلك لقول الله تعالى:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ].

ثانياً: ليس الشديد بالصرعة. وكذلك من المفاهيم التي صححها النبي صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه أن الشديد القوي ليس هو الذي يصرع الناس ويغلبهم - وإن كان هذا من معانيه - ولكنه الذي يملك زمام نفسه ولا تستهويه شهواتها ولا يسير وراءها دون عقل أو تفكير وقد جاء في ذلك: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [صحيح البخاري ومسلم] فمن ملك نفسه في هذه الحال فقد أعانه الله تعالى على شيطانه وعلى تلك الجمرة التي تتفقد في جوفه؛ فلم يطغ على الآخرين بسببها وإنما ألجم نفسه بلجام من الشرع فضبطها وصرعها دون أن يصرع الآخرين؛ وفي الصحيح أنه: (اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ) [صحيح البخاري ومسلم] وجاء في السنن: (الغضب من الشيطان) [سنن أبي داود وهو ضعيف]. ولأجل هذا وغيره عندما استنصح النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال يار رسول الله: (أَوْصِنِي، قَالَ: (لَا تَغْضَبُ). فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: (لَا تَغْضَبُ) [صحيح البخاري] وقد قال الله تعالى في شأن الكاظمين للغضب: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

ثالثاً: في نصرة الظالم! قد يتعجب البعض من هذه اللفظة؛ إذ كيف يُنصر الظالم؟! وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: (تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ) [صحيح البخاري]. فعندما نأخذ على يد الظالم ونمنعه عن ممارسة ظلمه وطغيانه على الناس؛ فإننا بذلك قد نصرناه على نفسه وشيطانه، بل وأعناؤه على أن يتصدق على نفسه فقد جاء عن أبي

ذَرَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ" قَالَ قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا" قَالَ قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ" قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: "تَكْفُ شَرَكُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ" [صحيح مُسلم] وكذلك لو أننا لم ننصره - أخذنا على يديه - أُصِيبَ هو والمجتمع بالعنت والمشقة والجهد؛ وفي حديث السفينة ما يدل على ذلك؛ وهو: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَالِقِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا) [صحيح البخاري] فإن لم ننصره - نأخذ على يديه - سيهلك ويغرق مع مَنْ غرق وهلك.

رابعاً: ما تعدُّون الشهيد فيكم؟. وهذا تصحيح نبوي آخر يفتح أبواب الرجاء إلى الله تعالى، ويفتح أبواب الطمع في واسع رحمته سبحانه وتعالى؛ فقد يقصرُ الناسُ معنى الشهادة في سبيل الله تعالى على الذي يموت في ساحات الوغى. ولكن جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يوضح هذا المعنى ويُجَلِّيه فـ: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَعْدُونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيتُ. قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبُطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ» قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، أَنَّهُ قَالَ: وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ) [صحيح مُسلم] وقد قال ابن حجر في فتح الباري عندما شرح قول البخاري: في كتاب الجهاد "باب: الشهادة سبع سوى القتل": «وَقَدْ اجْتَمَعَ لَنَا مِنَ الطَّرِيقِ الْجَيِّدَةِ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ خَصْلَةً؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ مَا قَدَّمْتُهُ مِمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي ذَكَرْتُهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ خَصْلَةً وَتَقَدَّمَ فِي بَابِ مَنْ يُكَبَّرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَدِيثُ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ مَرْفُوعًا مَنْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ عَلَى أَيِّ حَنْفٍ شَاءَ

اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ شَهِيدٌ وَصَحَّحَ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ بْنِ عُمَرَ مَوْتُ الْغَرِيبِ شَهَادَةٌ وَلِابْنِ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا مَاتَ شَهِيدًا». وهذا فضل عظيم لمن مات بخصلة من هذه الخصال؛ ولكن لا يعني هذا أن هؤلاء يتساوون في الأجر والمنزلة تماما مع الذي مات مجاهدا في سبيل الله بسيفه في قتال الكفار، فقد جاء عند أحمد في مسنده: (عَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ إِنْ يُلْقَوْا فِي الصَّفِّ لَا يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا، أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الْغُرَفِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ») [أحمد في المسند]. كما أن شهيد المعركة له أحكام تخصه فلا يُغسَل ولا يُصَلَّى عليه؛ ويدفن في ملابسه التي مات فيها.

ولأجل ذلك ذكر العلماء أن للشهداء أنواع؛ شهيد في الدنيا لا في الآخرة، وشهيد في الآخرة لا في الدنيا. وشهيد في الدنيا والآخرة. أما الأول: فهو المنافق أو الذي قُتل أو مات لأجل غرض دنيوي، والثاني: ما سبق من أصحاب الخصال السابقة كالمبطون والغريق والمرأة تموت بجمع...، وأما الثالث: فهو صاحب الجزاء الكبرى والعطية العظمى شهيد معركة الكفار الذي مات مُقاتلاً غير مُديرٍ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

خامساً: ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس. وهذا مفهوم من المفاهيم التي كشف النبي صلى الله عليه وسلم غطاءها لأمته؛ فقد تكون صورة الفعل هي هي صورة الكذب؛ ولكنها لا تأخذ حكمه؛ فعن أُمِّ كُثَيْبٍ بِنْتِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولِ اللَّاتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثِ الْحَرْبِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا) [صحيح البخاري ومسلم]. وهذا المعنى يوضح أهمية الأثر المترتب عليه؛ فقد تكون العلاقة الزوجية في حالة الجفاف؛ فتجري ماء الحياة فيها بمثل هذه الكلمات وهذه الأحوال؛ ك: «إظهار الود والمحبة؛ لغرض دوام الألفة واستقرار الأسرة، كأن يقول لها: إنك غالية، أو لا أحد أحب إليّ

منك، أو أنت أجمل النساء في عيني، ونحو ذلك، وليس المراد بالكذب ما يؤدي إلى أكل الحقوق، أو الفرار من الواجبات ونحو ذلك. قال النووي رحمه الله في "شرح مسلم": "وَأَمَّا كَذِبُهُ لِرَوْجَتِهِ وَكَذِبُهَا لَهُ: فَالْمُرَادُ بِهِ فِي إِظْهَارِ الْوُدِّ، وَالْوَعْدُ بِمَا لَا يَلْزَمُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا الْمُخَادَعَةُ فِي مَنْعِ مَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا، أَوْ اخْذُ مَا لَيْسَ لَهُ أَوْ لَهَا: فَهُوَ حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ». وكذلك الكذب في الحروب؛ إذ لا يقول عاقل بأن من كذب على عدوه في الحروب يكون أثماً!! ومن قال بغير ذلك من العلماء فقد جعل لهذا الرجل التورية بدلاً من الكذب الصريح، المهم أنه لا يُجيز له صدق الحديث والحالة هذه. بل إما الكذب الصريح وإما التورية.

وَأَمَّا فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فإِباحةٌ مِثْلُ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي فِيهِ نَقَلَ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ (وهو معنى قوله في الحديث: فَيَنْمِي خَيْرًا) ومِثَالُهُ: «بِأَنَّ يَقُولَ لِأَحَدِهِمَا: إِنَّ صَاحِبَهُ يَمْدَحُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ - وَصَاحِبُهُ لَمْ يَفْعَلْ - وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلِمَاتِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بَأْسَ بِهِ، وَهَذِهِ أُمُورٌ قَدْ يُضْطَرُّ الْإِنْسَانُ فِيهَا إِلَى زِيَادَةِ الْقَوْلِ، وَمُجَاوَزَةِ الصَّدَقِ، عَلَى وَجْهِ الْإِصْلَاحِ وَطَلَبِ الْخَيْرِ» وكذلك يدل على أهمية هذا الترخيص قول الله تعالى في الإصلاح بين الناس: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة) [أبو داود في السنن]. فإذا كان أمر الإصلاح بين المتخاصمين كذلك فاحتماله لهذا الترخيص الذي قد يكون بصورة الكذب لا يكون صاحبه أثماً بل مأجوراً.

سادساً: تصحيح النظرة إلى الناس. فالكثيرون يقيسون الناس بالمقاييس المادية فحسب؛ فمن عنده مال أو جاه أو سلطان أو .. له شأنٌ وأيّ شأن!، ومن ليس عنده ذاك .. فلا شأن له!. وقد جاء في تصحيح هذه النظرة. أنه قد: (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنَّ خَطْبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنَّ خَطْبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ،

وإن شفع أن لا يُشفع، وإن قال أن لا يُستمتع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) [صحيح البخاري]، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: أقرؤوا {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: 105]) [صحيح البخاري] وعند الإمام أحمد وغيره: (أن عبد الله بن مسعود كان يحتز لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواكاً من أراك وكان في ساقيه دقة فضحك القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يضحكم من دقة ساقيه والذي نفسي بيده إنهما أثقل في الميزان من أحد) [أحمد في مسنده وغيره]. وهذه هي نظرة الرب سبحانه وتعالى لعباده فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [صحيح مسلم].

سابعاً: تصحيح معنى العبادة والإيمان. وهذا المفهوم من المفاهيم التي بين النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته وهديه معناها الصحيح الذي ينتفع به المرء في الدنيا والآخرة؛ فقد كان المشركون يعبدون الأصنام ويزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى زلفى؛ وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر] وعن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم جاء قول الله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت] فهذا إفك وكذب على الله عز وجل فليست عبادة يرتضيها سبحانه وتعالى. وفي قصة الحُصَيْن والدِ عِمْران رضي الله عنهما؛ ما يوضح ذلك ويُجلِّيه؛ فقد جاء: (أن فريشاً جاءت إلى الحُصَيْن وكانت تُعظمه، فقالوا له: كلّم لنا هذا الرجل؛ فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم، فجاءوا معه حتّى جلسوا قريباً من بابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخل الحُصَيْن، فلما رآه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أوسعوا للشيخ - وعمران وأصحابه متوافدون -، فقال حُصَيْن: ما هذا الذي

يبلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك جفنةً وخبزاً؟، فقال: يا حُصَيْنُ إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ. يا حُصَيْنُ: كم إلهًا تعبد؟ قال: سبعةً في الأرض، وإله في السماء، قال: فإذا أصابك ضرٌّ من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فإذا هلك المالُ من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فيستجيبُ لك وحده وتشرِكُهم معه [التوحيد لابن خزيمة]. وهذا يوضح إيمانهم: فقد كان إيماننا مشوباً بالشرك أو شركاً مشوباً بالإيمان. وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف] «فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده».

وعلى ذلك فالعبادة الصحيحة كلها لله عز وجل والإيمان الصحيح ليس كإيمانهم؛ بل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له مع الإخلاص والاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم والإيمان كإيمانهم كما قال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَتْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة].

ثامنا: تصحيح معنى البر. قد ذكر الله تعالى في أواخر الآيات التي تحدّثت عن حادث تحويل القبلة قوله تعالى مخاطباً المنكرين لهذا الحادث؛ من اليهود والمنافقين وكفار قريش: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة]. فليس هذا الحدث كبيراً عند المؤمنين؛ لأنهم لا يعبدون جهة ولا يعبدون بيتاً ولا يعبدون صنماً، وإنما يعبدون إلا الله تعالى وحده لا شريك له سبحانه وتعالى، وبالكيفية التي أَرادها سبحانه وتعالى منهم. فهو لا يعبد البيت ولكن يعبد ربَّ البيت، وكذلك لا يعبد جهة وإنما يعبد الذي وجهه نحوها. سبحانه وتعالى.

ثُمَّ إِنَّ الْآيَةَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى؛ كَانَتْهَا تُعَالِجُ فُهْمًا خَاطِئًا وَسُلُوكًا مُعْوجًا عِنْدَ الْمُخَالَفِينَ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ عَاتَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة]، وكذلك ذكر الله تعالى عنهم إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض؛ فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة]، وكذلك ذكر سبحانه عنهم عداوتهم لجبريل عليه السلام؛ فقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] وكذلك ذكر سبحانه وتعالى بغضهم للموت وحرصهم على الحياة بما كانوا يعملون: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

فَلَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ أَنْ تُنَاقَشُوا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَوْ أَنْ تَعْتَرِضُوا عَلَيْهَا؛ وَتَزْعُمُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّكُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، فَقَدْ نَسِيتُمْ أَنْفُسَكُمْ؛ فَلَمْ تَوْمِنُوا بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَلَا بِالْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا فَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمُحَمَّدٍ وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا بِالْمَلَائِكَةِ فَقَدْ كَفَرْتُمْ بِجِبْرِيلَ وَاتَّخَذْتُمُوهُ عَدُوًّا لَكُمْ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لِأَنَّكُمْ قَدَّمْتُمْ أَعْمَالًا سَيِّئَةً بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَكَذَلِكَ كَفَرْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَقَبْلَهُ الْإِنْجِيلَ، وَكَذَلِكَ كُنْتُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى الْحَيَاةِ وَعَبَدْتُمُ الْأَمْوَالَ فَلَمْ تَتَفَقَّهُوا فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ لَمْ تَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي عَاهَدَكُمْ إِيَّاهُ وَهُوَ الْعِبَادَةُ حَتَّى يُوَفِّيَ لَكُمْ بِعَهْدِهِ؛ إِذْ قَالَ: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٩٩﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة] وَقَالَ هُنَا فِي أَوْصَافِ أَهْلِ الْبِرِّ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة] وَكَذَلِكَ لَمْ تَصْبِرُوا فِي الْبُؤْسَاءِ وَلَا فِي الضَّرَاءِ بَلْ اخْتَلَطَ الْجَبِينُ فِي قُلُوبِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ اخْتِلَاطُ الْمَاءِ بِاللَّبَنِ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٠﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٠١﴾

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿الحشر﴾. ثم جاءت الآية بعد ذلك الموضع تصحح كذلك مفهومها خاطئا للبر عند كفار قريش؛ وهو ما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة] فـ «ليس البر والخير أن تأتوا البيوت من ظهورها عند إحرامكم بالحج أو العمرة - كما كنتم تزعمون في الجاهلية - ولكن البر حقيقة بر من اتقى الله في الظاهر والباطن، ولكن مجيئكم للبيوت من أبوابها، فهو أيسر لكم وأبعد عن المشقة». وقد قيل في سبب نزولها: «قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ سَفَرَهُ الَّذِي خَرَجَ لَهُ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ أَنْ يُقِيمَ وَيَدَعَ سَفَرَهُ، لَمْ يَدْخُلِ الْبَيْتَ مِنْ بَابِهِ، وَلَكِنْ يَتَسَوَّرُهُ مِنْ قِبَلِ ظَهْرِهِ» وقال: «عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَاحٍ: كَانَ أَهْلٌ يَتَرَبَّ إِذَا رَجَعُوا مِنْ عِيدِهِمْ دَخَلُوا مَنَازِلَهُمْ مِنْ ظُهُورِهَا وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ أَدْنَى إِلَى الْبِرِّ». ينظر: تفسير ابن كثير.

فليس البر في القبلة أو في الصلاة أو في دخول البيت من ظهره أو من أمامه أو في مظهر واحد من مظاهر الدين وإهمال مظاهره الأخرى، وإنما البر في الإيمان والتقوى ظاهرا وباطنا وفي أخذ الدين ككل لا يتجزأ. ولا عجب أن يأتي بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة]. فإياكم وإياكم من سلوك طريق أهل الكتاب. بل السلم للإسلام كافة.

أضف إلى ذلك المعنى العقدي والتعبدى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن البر والإثم في حديث النواس بن سمعان: (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) [صحيح مسلم]. فما أعظمها من صورة لو أخذناها بشمولها عن البر عقيدة وعبادة وخُلُقًا.

والحمد لله رب العالمين.

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

العناصر:

أولاً: في معنى الولاية وأهميتها.

ثانياً: أوصاف أولياء الرحمن.

ثالثاً: أوصاف أولياء الشيطان.

رابعاً: مَنْ هم أولياؤك؟ ولماذا؟.

(الموضوع)

من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم وكان لها استعمالان مختلفان؛ ولكل استعمال منهما أهلٌ وأنصار وحِزب؛ أولهما مع المؤمنين وثانيهما مع الكافرين، كلمة (الأولياء). وقبل الحديث عنها لا بد من بيان معناها ولو بشيء يسير؛ وهو: الناصر والحليف والصاحب والقريب في النسب، والمعين .. وغير ذلك من هذه المعاني.

قد ذكر الله تعالى أولياء للمؤمنين وأولياء للكافرين. فينبغي على المسلم أن ينظر في أوصاف أولياء المؤمنين وما أعدّه الله تعالى لهم من الثواب الجزيل؛ كي يعمل بعملهم ويقتفي أثرهم. وكذلك ينظر في أوصاف الكافرين وأولياء الشيطان وحِزبه حتى لا يقع في شركهم أو أن يكون فريسة لهم. فيُصيبه عذاب من الرحمن كما قال ربنا تبارك وتعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام عندما خاطب والده ودعاه إلى عبادة الرحمن وترك عبادة الشيطان: ﴿يَنَابِتَ إِلَيَّ أَحَافٌ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم].

فموضوع الأولياء له اهتمام كبير؛ لا سيما وأنه يتعلق بعقيدة المؤمن. فالمؤمن مأمور باتخاذ المؤمنين أولياء ومأمور باتخاذ الكافرين أعداءً لا أولياء، وإلا كان معهم وفي زميرهم عافانا الله

تعالى المؤمنين؛ فقد قال جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة]. ثم إن كثيرا من الناس قد حصر الولاية في طائفة معينة ونسل معين من أهل العلم والفضل، أو حصرها على صاحبِ ضريح أو مشهد من المشاهد التي يعكف أو يطوف حولها أهل البدع. وليس الأمر كما يزعم هؤلاء بل إن الولاية مرتبة عالية في الدين قد يصل إليها أقوام مغمورون لا يُعلم عنهم شيء من الصلاح ولم يُشتهروا به ولكنهم مع ذلك حققوا شروط الولاية بينهم وبين ربهم تبارك وتعالى فاستحقوا هذا الوصف وإن لم يُعرفوا به. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ) [صحيح مسلم] وقال أيضاً: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ النَّقِيَّ، الْغَنِيِّ، الْخَفِيَّ) [صحيح مسلم]. فكان من الضروري أن نُميز وأن نُبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما هم مذكرون في النصوص الشرعية. فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ثانياً: أوصاف أولياء الرحمن.

جاء في القرآن الكريم وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم أوصاف لهؤلاء الأولياء الذين اصطفاهم الله تعالى لولايته؛ من هذه الأوصاف:

— قول الله تعالى عنهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس]. «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا. هؤلاء الأولياء هم الذين كانوا يتصفون بالإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. لهم البشارة من ربهم في الدنيا بما يسرهم برؤيا صالحة أو ثناء الناس عليهم، ولهم البشارة من الملائكة عند قبض أرواحهم، وبعد الموت، وفي الحشر، لا تغيير لما وعدهم الله به، ذلك الجزاء هو النجاح العظيم، لما فيه من نيل المطلوب، والنجاة من المهووب».

- وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف].

فالصالحون الذين يقومون بحق الله تعالى وحق عباده المؤمنين هم من أولياء الرحمن: «إن نصيري ومُعيني الله الذي يحفظني، فلا أرجو غيره، ولا أخاف شيئاً من أصنامكم، فهو الذي نزل عليّ القرآن هدى للناس، وهو الذي يتولى الصالحين من عباده، فيحفظهم وينصرهم».

- وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

تَخْزَنُوا وَابْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت]. فهؤلاء قوم تكلموا بكلمة وعملوا بمقتضى هذه الكلمة فاستحقوا أن يكون الله تعالى وليهم؛ فقد قالوا "ربنا الله" ثم "استقاموا على ما تقتضيه هذه الربوبية فكانوا في أمن بلا خوف ولا حزن وبشرهم ربهم بالجنة وتنزلت عليهم الملائكة لتثبيتهم وكانوا في خير ما بعده خير؛ ف«نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا، فقد كنا نسددكم ونحفظكم، ونحن أولياؤكم في الآخرة، فولايئنا لكم مستمرة، ولكم في الجنة ما تشتهيه أنفسكم من الملذات والشهوات، ولكم فيها كل ما تطلبونه مما تشتهونه».

- وقد جاء في وصفهم؛ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة]. فمن أوصافهم المحافظة على الصلوات، وإيتاء الزكوات. فلم يُضيعوها ولم يقصروا في حق وجب عليهم في أموالهم.

- وقد جاء في أوصافهم؛ قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى في

الحديث القدسي. (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَتْهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَادَنِي لِأُعِذَّنَّهُ، ..) [صحيح البخاري]. فالمحافظة على الفرائض والزيادة

في التقرب إلى الله تعالى بالنوافل هذا من سماتهم ومن علاماتهم. وكذلك ما أعظم هذا الفضل الذي ترتب على تولي الله عز وجل لهؤلاء. فقد حفظهم في أسماعهم وأبصارهم وفي أيديهم وأرجلهم وأعازهم من الشرور بل وأعطاهم ما سألوه.

ومن أوصافهم كذلك يبحون لقاء الله تعالى. فأولياء الله تعالى يُحِبُّون لقاءه سبحانه؛ فإذا ما خُيروا اختاروا جواره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الأولياء وإمامهم: (إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُحْيَا - أَوْ يُخَيِّرُ - فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ، غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فَقُلْتُ: إِنْ لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَاحِبُ) [صحيح البخاري]. وقد قال الله تعالى عن الذين هادوا - اليهود - وقد زعموا أنهم أولياء الله: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦١ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة]. فلكونهم قدَّموا بأيديهم ما لا يرضاه الله تعالى فلا يتمنون الموت أبدا بل يريدون الخلود في الدنيا آلافا من السنين. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) [صحيح البخاري]. فالولي يُحِبُّ لقاء الله تعالى.

ثالثاً: أوصاف أولياء الشيطان.

للشيطان جنود وحِزب وأنصار وأعوان؛ وكلُّهم قد قال الله تعالى عنهم: ﴿أَفْتَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف]. فهؤلاء بئس البديل. الذي أدَّى به إلى الخسران المبين فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا

مُيِّنًا ﴿[النساء]. وقد ضرب الله تعالى مثلاً لِمَن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت] فمهما كان هذا الولي الشيطاني فهو ضعيفٌ ضعفَ بيوتِ العنكبوت؛ فكما أنها بيوت لا تتفع ولا تشفع ولا تحمي ولا تدفع عن صاحبها شيئاً؛ فكذلك الولي الشيطاني.

ولكن مَنْ هم أولياء الشيطان؟.

أولياؤه هم الكافرون، والمشركون، والمجرمون، والذين لا يُصلون ولا يزكون ولا يتقون ربهم تبارك وتعالى وهم الذين يرتكبون الفواحش؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف].

ومن أولياء الشيطان كذلك: الذين يُجادلون المؤمنين حتى يفتنونهم عن دينهم ويلقون إليهم الشبهات ويزينون لهم الشهوات قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام].

ومن أولياء الشيطان كذلك الذين يستهزئون بشعائر المسلمين ويتخذونها سخرية؛ فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة].

رابعاً: مَنْ هم أولياؤك؟ ولماذا؟.

فانظر أخي وحببي إلى أوصاف كلِّ من الفريقين واختر لنفسك أولياء.. ولكن قبل الخيرة؛
أذكرك بقول الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف]. فعليك بمولاة
مَنْ تنتفع بمولاتهم في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

الظَّنَّ

العناصر:

أولاً: تعريف وتوصيف.

ثانياً: أنواع الظن.

ثالثاً: التثبت والتبني في مواجهة الظنون.

(الموضوع)

الظن: «اسم لما يحصل عن أمانة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم». وقيل عنه: «درجة من درجات العلم، فهو فوق الشك، ودون اليقين، وبعبارة أخرى: هو اعتقاد وقوع الشيء اعتقاداً راجحاً. أو: هو العلم المستند إلى دليل راجح، مع احتمال الخطأ احتمالاً ضعيفاً»⁽¹⁾.

وقد أمرنا الله تعالى باجتناب كثير منه؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات]. وفي معناها: «يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً»

كذلك قد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم منه فقال: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) [صحيح البخاري].

(1) وهذه التعاريف كاشفة لماهيته وتوصيفه. ومعرفة حده وما يتعلق به من التفاريع مهم جداً، لأن معظم أحكام الشريعة قائمة على الظنات لا القطعيات.

والظنُّ منه ما هو ممدوح لا يجب اجتنابه، ومنه ما هو مذموم يجب اجتنابه؛ «وَالَّذِي يُمَيِّزُ الظُّنَّوْنَ الَّتِي يَجِبُ اجْتِنَابُهَا عَمَّا سِوَاهَا، أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ تُعْرِفْ لَهُ أَمَارَةً صَحِيحَةً وَسَبَبٌ ظَاهِرٌ كَانَ حَرَامًا وَاجِبَ الاجْتِنَابِ. وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمَظْنُونُ بِهِ مِمَّنْ شُوهِدَ مِنْهُ السُّرُّ وَالصَّلَاحُ، وَأُونِسَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فِي الظَّاهِرِ، فَظُنُّ الْفَسَادِ بِهِ وَالْخِيَانَةُ مُحَرَّمٌ، بِخِلَافِ مَنْ اشْتَهَرَهُ النَّاسُ بِتَعَاطِي الرَّيْبِ وَالْمَجَاهَرَةِ بِالْخَبَائِثِ». وفي هذه الكلمات سأقف مع هذا الموضوع وقفات كاشفات لأنواعه، وما يجب على المسلم تجاهه. وغير ذلك من الأمور الأخرى. فنقول وبالله تعالى التوفيق.

ثانياً: أنواع الظنِّ.

ذكرت النصوص الشرعية نوعين من الظنِّ من حيث هو في ذاته؛ فقد استعمل الظنُّ بمعنى اليقين في القرآن الكريم واستعمل بمعنى الشك أو ما هو دون اليقين من التصديق المخطئ أو الجهل المركب. فمن الأول قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة] وغيرهما كثير. ومن الاستعمال الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ).

هذا التقسيم إنما هو راجع إلى تقسيم الظنِّ من حيث هو في نفسه، وهناك تقسيم آخر راجع إلى المظنون فيه. وهو أنواع:

1- الظن بالله تعالى وبدينه ورسله.

وقد ذكر الله تعالى قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه مُستفهماً على سبيل التهديد والوعيد: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات] أي فماذا تظنون أنه فاعلٌ بكم وقد أشركتم بالله عز وجل؟!.

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هزولة) [صحيح البخاري]. فالصورة التي عليها ظنك بالله عز وجل يكون الله تعالى عندها.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل موته بثلاثة أيام يقول: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) [صحيح مسلم]. «لا ينبغي أن يموت المؤمن وهو قانط من رحمة الله، بل عليه أن يحسن الظن بالله ويرجو ذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفوه وما وعد به أهل التوحيد، وما سيبدلهم من الرحمة يوم القيامة؛ وذلك لئلا يغلب عليه الخوف حينئذ، فيغلب عليه اليأس والقنوط فيهلك، ومن حسن ظن المؤمن بالله تعالى أن يعمل الصالحات، ويجتنب السيئات، ويرجو الثواب والأجر من الله».

- ومن الناس من يظنون بالله تعالى وبدينه وبرسوله صلى الله عليه وسلم السوء كما قال ربنا تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَطَافَتْهُ قَدَ أَهْمَتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران]. وقد قال سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح]. «وبعذب المنافقين والمنافقات، وبعذب المشركين بالله والمشركات، الظانين بالله أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، فعادت دائرة العذاب عليهم، وغضب الله عليهم بسبب كفرهم وظنهم السيئ، وطردهم من رحمته، وأعد لهم في الآخرة جهنم يدخلونها خالدون فيها أبداً، وساءت جهنم مصيراً يرجعون إليه». وقد تعددت صور الظن السيء بالله عز وجل؛ والتي منها:

أ - الاعتقاد السيء في الله عز وجل وصفاته. ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۚ﴾ [فصلت] وقد قيل في سبب نزولها: أنه قد «اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي - أو ثقفيان وقرشي - كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترؤن أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهزنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهزنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [الآية] [صحيح البخاري] وقد قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۚ﴾ [النور]، فإني قلوبهم مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُونَ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[النور]، فالله عز وجل لا يحيف في حكمه ولا شرعه ولا في أحكامه سبحانه وتعالى. فسبحانه وتعالى وتقدس.

ب - الاعتقاد السيء في دينه وشريعته. فمن اعتقد في الإسلام غير ما أراده الله تعالى به؛ من أنه خير الأديان وأن شريعته أفضل الشرائع، وليس فيها جور، وليس فيها تكليف بما فوق الوسع، أو أنها جاءت على المرأة لحساب الرجل أو غير ذلك ... فقد أساء به الظن. وكيف لا؟ وقد اعتقد النقص في أمر كمله الله تعالى وأتمه ورضيه. فقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة]

ج - الاعتقاد السيء في رسوله صلى الله عليه وسلم. فمن يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول الحق، ولم يبلغ عن الله تعالى ما أمره به، ولم يبينه ولم يعلم الناس ما ينفعهم ويناهم عما يضرهم، فقد أساء الظن به صلى الله عليه وسلم، ومن هذا القبيل حديث ذي الخويصرة؛ وفيه: (بيننا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: وبلك، ومن يعدل إذا لم أعدل..) [صحيح البخاري]. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: .. ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [المائدة: 67]، قَالَتْ: وَمَنْ رَعِمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} [النمل: 65] [صحيح مسلم]. وفي حديثٍ آخر يوضح خطورة هذا الظن بالنبي صلى الله عليه وسلم: فقد (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ فَرَحَنَ، فَقَالَ لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ لَا تَعْجَلِي حَتَّى أَنْصَرِفَ مَعَكُمْ، وَكَانَ بَيْتُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَنَظَرَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَجَازَا، وَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعَالِيَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا) [صحيح البخاري]. «وظاهره أَنَّهُ قَدْ خَفِيََا عَلَيْهِمَا أَنَّهَا إِحْدَى زَوَاجَتِهِ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى رِسْلِكُمَا"، أَي: تَمَهَّلَا وَلَا تَتَعَجَّلَا، فَلَيْسَ شَيْءٌ تَكْرَهَانِيهِ، وَلِيُخْبِرَهُمَا أَنَّهَا صَفِيَّةُ امْرَأَتِهِ».

2 - الظنُّ بالمسلمين.

ينبغي أن يكون المسلم حسن الظنِّ بإخوانه؛ فلا يتخونهم ولا يتجسس عليهم ولا يتحسس، ولا يتتبع عوراتهم، ولا يُسيء ظنَّه بهم، بل يكون حسن السيرة والسريرة بينه وبين إخوانه وبينه وبين نفسه؛ وفي الحديث: (لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ) [سنن أبي داود وهو ضعيف].

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات]. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَعَمَلُوا بِمَا شَرَعَ، ابْتَعِدُوا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ التُّهَمِ الَّتِي لَا تَسْتَدُّ لَهَا يَوْجِبُهَا مِنْ أَسْبَابٍ وَقِرَائِنَ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ». وفي أحداثِ حادثة الإفك التي برأ الله تعالى فيها أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عائشة يقول الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور]؛ فعلى المؤمن أن يُقدِّم الظنَّ الحسن في إخوانه؛ لا أن يعصف عصفاً بتاريخ الأخوة الإيمانية التي تربيا عليها وتنشأ عليها. فليس لأقل شيء يُقال؛ تذهب الأخوة أدرج

الرياح!! بل على المؤمن أن يكون في مواجهة مثل هذه الظنون السيئة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور].

ومن هذا القبيل ما جاء في خبر جابر بن سمرة رضي الله عنه عندما اشتكى أهل الكوفة سعدا رضي الله عنه وقال: "رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ: (قَالَ سَعْدٌ: كُنْتُ أَصْلِي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلَاتِي الْعَشِيِّ لَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أَزْكُدُ فِي الْأَوَّلِينَ، وَأُخْذِفُ فِي الْآخِرِينَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَلِكَ الظَّنُّ بِكَ) [صحيح البخاري] وله قصة. فانظر إلى هذه اللفظة العمرية عن صاحبه: (ذلك الظن بك)؛ فليس لأدنى شكاية تذهب الصداقة والصحبة والشهادة النبوية بل وشهادة الوحي القرآني عن خيرية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد جاء عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: (وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا).

ولكن هذه الآثار التي ذُكرت لا تتناقض مع ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنها؛ إذ قال: (كُنَّا إِذَا فَقَدْنَا الْإِنْسَانَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ؛ أَسَانَا بِهِ الظَّنَّ) [السلسلة الصحيحة للألباني]. فالمسلم ينبغي عليه أن لا يضع نفسه في موضع الشبهات؛ ثم يأتي بعد ذلك ويُعاتب إخوانه على ظنهم فيه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن هاتين الصلاتين (لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُتَأَفِّقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا..). [صحيح البخاري]. ومن هذا القبيل أيضا الحديث السابق والذي فيه: (إِنَّهَا صَفِيَّةٌ بِنْتُ حَيْيٍّ، قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا) فالبعد عن الشبهات ومواقع التهم واجب على المسلم حتى لا يُساء الظن به.

3 - ظنُّ الإنسان بنفسه.

وهذا نوعٌ من الظنِّ ينبغي على المسلم أن يكون فيه بين جناحين؛ فيتَّهَمُ نفسه بالقصور والنقص في ذات الله تعالى شريطة أن لا يؤدي به هذا الاتهامُ إلى القنوط واليأس من رحمة الله تعالى، وقد جاء أخرج البخاري في صحيحه عن: «ابن أبي مليكة قال: "أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إيمانه كإيمان جبريل"» وقال عبد الله ابن المبارك: «أحب الصالحين ولستُ منهم، وأبغض الطالحين وأنا شر منهم» فهؤلاء من سادات التابعين وهذه هي نظرتهم لأنفسهم؛ ولم تكن نظرة تمنعهم من مداومة السير إلى الله عز وجل؛ وإنما كانت كالوقود الذي يُلْهَبُ نفوسهم فتتطلق شرارة الإيمان وبواعثه فيها فتدفعهم إلى الجد والاجتهاد في العمل. فلم يكونوا في أحوالهم كحال هذا الرجل الذي أخرج قصته البخاري رحمه الله تعالى وفيها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَفَعَلُوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ) [صحيح البخاري]

فالمسلم إذا ظن في نفسه كمالاً كان هذا هو عين النقص، وبادرة من بوادر الإرجاء وترك العمل، وإذا ظن في نفسه النقص؛ فدفعه ذلك إلى الجد والاجتهاد ما لم يكن مصحوباً بالقنوط واليأس من رحمة الله تعالى فهذا هو عين التوفيق والسداد.

والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

العدل (1)

المقدمة.

أولاً: أهمية العدل وضرورته.

ثانياً: من صور العدل.

(الموضوع)

من القيم التي ركبها الله تعالى في نفوسنا وفي فطرتنا وتكويننا؛ قيمة حبّ العدل وبغض الظلم. فالإنسان بفطرته وتركيبه الذي جبله الله تعالى عليه؛ إذا رأى صورةً من صور الظلم نفرت نفسه منها، ولم يحتج إلى من يُقيم له الأدلة الشرعية من القرآن والسنة على فُبح ذلك في عينيه، وكذلك محبة العدل وفرح النفوس به شيء هو من مركزات النفوس ومكوناتها.

فالواحد منّا إذا رأى طفلاً يُقتل أو امرأة تعذب أو بيتاً يُهدم أو رجلاً يُسجن أو يُضرب؛ لأوّل وهلة ستتفر نفسه من هذا المنظر وتستوحش، فإذا ما علم سبب هذه الأمور ربما زال عنه بعض العجب والنفور، وكذلك لو رأى حاكماً أو قاضياً أو أيّ إنسانٍ له ولايةٌ يقوم فيها بالعدل والقسط ستفرح نفسه وتبتهج وتتأس لما رأيته.

ولكننا في أزمان تشوهت فيها الفِطرُ وانحرفت عن طريققتها وطبيعتها؛ فاحتاج المرء فيها أن يُذكر بهذه المعاني الفِطرية؛ فكان الحديث في هذا الموضوع كالتالي:

(1) من المحاضرات المهمة في هذا الموضوع - وقد استفدتُ منها كثيراً - محاضرة بعنوان: (مفهوم العدل في التصور

الإسلامي) الشيخ: عبد الله العجيري

أولاً: أهمية العدل وضرورته.

قبل البدء في الحديث عن أهمية العدل، لابد من حديثٍ ولو قصيرٍ عن ماهيته؛ فهو: «ما قام في النفوس أنه مُستقيم، وهو ضد الجور» ويؤيد هذا المعنى اللغوي، قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار] «أَيَّ جَعَلَكَ مُعْتَدِلًا سَوِيَ الْخَلْقِ، كما يقال: هذا شيء مُعَدَّلٌ»، «جَعَلَكَ سَوِيًّا مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُنْتَصِبَهَا، فِي أَحْسَنِ الْهَيَّاتِ وَالْأَشْكَالِ».

عن جابر رضي الله عنه: (أَفَاءَ اللَّهُ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِهِ، فَأَقْرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمَرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، قَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَاهَا، قَالَ: فَاخْرُجُوا عَنَّا) [سنن الدارقطني]. «وَالْمَعْنَى: أَنْ قِسْمَتَكَ وَتَقْدِيرَكَ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ!». فقيام السماء والأرض إنما هو بالعدل لا غير

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعدل بين الناس؛ فقال جل ذكره: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى]. وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة]. بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قصة هذا الرجل الذي ظنَّ في قسمة النبي صلى الله عليه وسلم جوراً فقال هذا الرجل: (وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عَدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ..) [صحيح البخاري]. وقد أمر الله تعالى بالعدل أمراً عاماً فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[النحل]. «إن الله يأمر عباده بالعدل بأن يؤدي العبد حقوق الله وحقوق العباد، وألا يفضل أحداً على أحد في الحكم إلا بحق يوجب ذلك التفضيل».

وقد وُصِفَتْ كلماتُ الله تعالى أحكامه وقضاؤه بالعدل؛ ففي القرآن الكريم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام] وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سيد الاستغفار: (ما قال عبدٌ قطُّ إذا أصابه همٌّ وحُزنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وابنُ عبدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدِكَ، ماضٍ في حُكْمِكَ، عدلٌ في قضاؤِكَ ..) [أخرجه أحمد وغيره وفي تصحيحه مقال].

فينبغي أن يكون العدل قيمةً شائعةً في حياتنا؛ ليست في باب دون آخر، وإنما في أقوالنا وأفعالنا وأحكامنا وتعاملاتنا بيّعا وشراءً ونكاحاً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الْمُفْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ - وَكُنَّا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ) [صحيح مسلم].

فالعدل قيمةٌ من القيم الأساسية في الدين؛ بل هي القيمة الأساسية والعظمى التي أراد الله تعالى تحقيقها من إرسال الرسل، فقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد] ولذلك قال العلماء: «المقصود من شرع الأحكام تطبيق العدل» وقالوا: «لقد أرسلنا رسلنا بالحجج الواضحة والبراهين الجلية، وأنزلنا معهم الكتب، وأنزلنا معهم الميزان، ليقوم الناس بالعدل»

ولأجل ذلك وغيره قال العلماء: «إن الله تعالى يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الدولة الظالمة وإن كانت مُسلمة». فالظلم - كما قال ابن خلدون - مؤذن بفساد العمران المُفضي إلى فساد النوع الإنساني.. تكون صورُ العدل كثيرة؛ منها:

ثانياً: من صور العدل.

العدل في الكتابة. وقد جاء الأمر به في كتابة الدين؛ فقال جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة]. «وليكتب بينكم كاتب بالحق والإنصاف الموافق للشرع» ويوافق الكتابة في الدين أي نوع من أنواع الكتابات الأخرى؛ ككتابة العقود والمواثيق، وكتابة الحدود والمقادير، ولا يخرج عنها كذلك كتابة الرسائل والأبحاث والمواد العلمية، فينبغي أن يكون المرء عادلة إذا ما خطَّ بيده خطأ يتعلق به حقوق الآخرين أو ما شابه.

العدل في الإمارة والحكم. وقد جاء الأمر به في مواطن كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ فمن القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء] فهذه: (أداء الأمانات، والحكم بالعدل) نعم الموعظة التي يعظ الله تعالى بها عباده. وكذلك ينبغي أن يكون الحاكم صاحب عدل؛ فقد قال تعالى في حكم جزاء قتل الصيد في الحرم! ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة] أي: «يحكم به رجلان متصفان بالعدالة بين المسلمين» وفي الحكم بين الطائفتين المتنازعتين؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظلّه، يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: إمام عادل،...) [صحيح البخاري] وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: (إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجلّ - وكلنا يمين يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) [صحيح مسلم]. وكذلك من مظاهر العدل في الحكم؛ أنه قد: (جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتدّ عليه حتّى قال له أخرج عليك إلّا قضيتني فانتهره أصحابه وقالوا ويحك تدري من تكلم؟ قال إني أطلب حقّي فقال

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَ لَهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِينَا تَمْرُنَا فَفَقَضِيكَ فَقَالَتْ نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَقْرِضْتَهُ فَقَضَى الْأَعْرَابِيُّ وَأَطْعَمَهُ فَقَالَ أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهِ لَكَ فَقَالَ أَوْلَيْكَ خِيَارُ النَّاسِ إِنَّهُ لَا قُدْسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ [ابن ماجه في سننه]؛ فقد أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يكونوا مع صاحب الحق وإن كان الطرف الآخر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك من مشاهد العدل التي أخبرنا بها في قصة مُهاجرة الحبشة: (لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَاتُ الْبَحْرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَلَا تَحَدَّثُونَ بِأَعْجَبَ شَيْءٍ رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ فَقَالَ فَتِيَةٌ مِنْهُمْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ إِذْ مَرَّتْ عَلَيْنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِهِمْ تَحْمِلُ قَلَّةً مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قَلْبُهَا فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ النَّفْتَتِ فَقَالَتْ سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَتَعْلَمُ أَمْرِي وَأَمْرَكَ عِنْدَهُ غَدًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقْتَ كَيْفَ يَقْدُسُ اللَّهُ قَوْمًا لَا يُوْخَذُ لَضَعِيفِهِمْ مِنْ قَوِيَّهِمْ؟) [ابن ماجه في السنن].

العدل في معاملة الأعداء. فينبغي على المسلم كذلك أن يكون عادلاً مستقيماً حتى مع أعدائه؛ فلا تحملنه عداوةً على جور في حكمه معهم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَتَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة].

العدل في القول. وهذا من أعظم صور العدل أن يكون قوله عدلاً؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام]. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء].

العدل في الشهادة. قال الله تعالى في الإشهاد على الوصية حال السفر؛ لِمَنْ حَضَرْتَهُ الْوَفَاةُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ وقال سبحانه وتعالى في أحكام الطلاق: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق].

العدل في العطاء والمنع. فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: (أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أُعْطِيتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أُعْطِيتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَانْقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ، قَالَ: فَارْجِعْ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ) [صحيح البخاري]. فالعدل العدل؛ فعلى الراعي - ك(الوالد، والمدير، والحاكم، والقاضي، ..) - أن يكون عادلاً بين رعيته، وذلك حتى يكونوا له في البر واللطف والإحسان به سواء؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي النَّحْلِ، كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ فِي الْبِرِّ وَاللُّطْفِ) [في قصة النعمان بن بشير عند ابن حبان]. وصِفة العدل بين الأولاد فيها خلاف بين العلماء؛ هل هي كما ذكرها الله تعالى في كتابه للذكر مثل حظ الأنثيين كالميراث، أم أنها على التسوية بين الذكر والأنثى؟ وأختار القول الأول. ومنه العدل بين الزوجات فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان له امرأتان، يميل لإحداهما على الأخرى، جاء يوم القيامة، أحدُ شقيه مائلٌ) [سنن النسائي وغيره].

ومن الأمور الملفتة للنظر في استنباطات العلماء؛ وهي من صور العدل ما جاء في هذه الآثار: (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يقعد بين الظل والشمس) [ابن ماجة في السنن] وفي رواية: (إنه مجلس الشيطان)؛ فقالوا في ذلك: «فإنَّ الجَسَدَ عندما يكونُ على هَيْئَةٍ واحدةٍ إمَّا حرارةٌ أو بُرودةٌ، فإنَّه يكونُ مُتَوَازِنًا، وأمَّا إذا كان بعضُه في الظلِّ وبعضُه في الشَّمْسِ فإنَّه يتأثَّرُ

بعضه فيحصل له برودة، وبعضه يحصل له حرارة؛ وهذا مضر، والنوم بينهما أشد رداءة» وكذلك ما جاء: (لا يمشي أحدكم في النعل الواحدة؛ لينتعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً) [أبو داود في السنن]

ثالثاً: وسائل وضمانات تحقيق العدل.

وإذا كان العدل بهذه المثابة تقوم به السماوات والأرض، ولا تخلو صورة من حياة الناس اليومية إلا وهو ظاهر فيها؛ فكيف نُحقّقه؟.

وهناك وسائل لابد من مراعاتها لتحقيق العدل في حياتنا:

- **قضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عدل لا شك في ذلك ولا ارتياب.** فمن لم يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد سبق الحديث بذلك، وكلمات الله تعالى الشرعية والقدرية عدلٌ كلّها، وقضاؤه على عباده عدلٌ كذلك، فهذه عقيدة المسلم. فإذا كانت المرأة نصف الرجل في الميراث أو الشهادة فهذا عدلٌ من الله تعالى، وإذا كانت القوامة للرجل عليها فهذا عدلٌ وليس جوراً. وهكذا.
- **الرضا والتسليم بقضاء الله تعالى لك أو عليك.** وهذا مفتاح الفلاح والنجاح؛ فمن أيقن بذلك فقد علم أنه يتقلب إمّا في عدلٍ يستقيم مع أحواله؛ أو في فضلٍ من الله تعالى.
- **استشعار المسؤولية أمام الله عز وجل.** فمن ولي من أمر الناس شيئاً كولاية من الولايات؛ العامة أو الخاصة، وعلم بوقوفه أمام الله تعالى وأنه سيسأله عنهم تحت ولايته لا شك أنّ هذا سيجعله على حذر شديد؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من أميرٍ عشرةٍ إلا يؤتى به مغلولاً يوم القيامة؛ حتى يُفكَّه العدل، أو يُوبَّقه الجور) [أحمد في مسنده].
- **من الضمانات التي تُحقق العدل وجاء في أحكام الشريعة؛ عند مجلس القضاء:** لا يقضي القاضي وهو غضبان، وكذلك إذا تلبّس بأي شيء يؤدي إلى تشويش الفكر

كالجوع والعطش والحر الشديد أو البرد الشديد، وكذلك التسوية بين الخصمين في مجلس القضاء في كل ما من شأنه أن لا يجعل القاضي مُنحازاً إلى أيّ الخصمين على حساب الآخر. وقد ذكر العلماء لذلك صوراً وهيئات كثيرة ينبغي على القاضي تجنبها إذا ما أراد القضاء في أي قضية.

ثم في الختام.. لابد من بيانٍ للفرق بين المساواة والعدل. فالإسلام دين يدعو إلى العدل ولا يدعو إلى المساواة؛ فليس المؤمن مُساوياً للكافر وكذلك الصالح والفاقد، وكذلك المتقون والفجار، ولا العالم مُساوياً للجاهل، وكذلك المجاهدون في سبيل الله لا يستوون مع القاعدين فمن العدل التفريق بين هؤلاء وأما التسوية بينهم فلم يأت بها الشرع؛ وبهذا جاءت آيات القرآن الكريم .

والحمد لله رب العالمين

الظُّلم

المقدمة.

أولاً: ماهية الظلم وحكمه.

ثانياً: من هو الظالم؟.

ثالثاً: خطورة الظلم وضرره.

رابعاً: آثار الظلم في الدنيا والآخرة.

خامساً: كيف نتعامل مع الظالم؟.

(الموضوع)

أولاً: ماهية الظلم وحكمه.

الظلم «وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه،.. والظُّلم يُقال في مجاوزة الحقّ الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التّجاوز، ولهذا يستعمل في الذّنب الكبير، وفي الذّنب الصّغير، ولذلك قيل لآدم في تعدّيه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظُّلمين بونٌ بعيد. قال بعض الحكماء: الظُّلم ثلاثة:

الأوّل: ظُلم بين الإنسان وبين الله تعالى،.. والثاني: ظُلم بينه وبين الناس.. والثالث: ظُلم بينه وبين نفسه.. وكلّ هذه الثلاثة في الحقيقة ظُلمٌ للنفس،..»

وأما حكمه: فحرام حرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. فقد حرمه الله تعالى على نفسه وجعله بيننا مُحَرَّمًا؛ ففي الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا..) [صحيح مسلم]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [صحيح البخاري].

ثانيا: من هو الظالم؟.

من الضروري قبل بيان هذا الظالم وأعماله التي لأجلها استحق وصف الظلم؛ أن يُعلم أنه ظالم لنفسه قبل أن يكون ظالما لغيره؛ فجنايته بظلمه على نفسه أولا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعَجَلِ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة]؛ بل وفي آيات كثيرة من القرآن الكريم تأتي هذه الجملة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

والمتتبع للآيات والآثار التي تحدثت عن الظلم؛ يجدها قد ذكرت في مجملها نوعين للظلم، نوعاً هو ظلم أكبر يخلد بسببه صاحبه في جهنم، ونوعاً آخر صاحبه مُتَوَعَّد بالعذاب ولكنه دون الأول. وقد اصطلح العلماء على تسمية النوعين بـ (الظلم الأكبر، والظلم الأصغر). ويكون الظالم على هذا التقسيم إما (مُخَلَّدٌ في النار إن مات على حاله) وإما: (غير مُخَلَّد فيها إن عُدِّب). وقد ذكرت النصوص الشرعية من أنواع الظالمين؛ ما يلي:

- **المُشْرِك والكافر والذي يتولاها.** فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان] وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة] وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة]

وكذلك في الذي يدعو غير الله تعالى؛ يرجوه أو يخشاه، أو يستغيث به أو .. قال الله تعالى في النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس]

• **من يعتقد أنه يشارك الله تعالى في خاصية من خصائصه كالخلق والإحياء والإماتة والرزق.. وغير ذلك.** قال الله تعالى في حق النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة] وفي الصحيح: (عن أبي زرعة قال: دخلت مع أبي هريرة في دار مروان، فرأى فيها تصاوير. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً) [صحيح مسلم]. وكذلك من يدعي معرفة الغيب، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام] وكذلك من يدعي القدرة على ضرر إنسان أو نفعه دون قدر الله تعالى وقدرته!!.

• **ومن أظلم من هؤلاء؟!..** جاءت نصوص القرآن الكريم مُصرِّحة بأنه لا يوجد أظلم من أصحاب هذه الفعال التي بلغت مبلغاً عالياً في القبح والشناعة؛ أمثال: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة] وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة] وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف]. فلا شك بأن الذي يمنع المساجد من تأدية مهامها، والذين يكتمون

الشهادات، وكذلك هؤلاء الذين لا يتأثرون بالآيات إذا ما ذُكِّروا بها - مع ما قدموه من الإجمام والآثام - كأن في قلوبهم وقراً أو راناً حجب عنها نور الموعظة!. وكذلك الذي يكذب على الله عز وجل ويكذب بالصدق: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر]

• **الذي يتعدى حدود الله تعالى.** قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة] «تلك الأحكام الشرعية هي الفاصلة بين الحلال والحرام، فلا تتجاوزوها، ومن يتجاوز حدود الله بين الحلال والحرام، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بإيرادها موارد الهلاك، وتعريضها لغضب الله وعقابه» وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء].

• **ومن لم يحكم بما أنزل الظالمون.** وهؤلاء قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [ثلاثتها متواليات في سورة المائدة].

• **الذين يجحدون آيات الله تعالى أو يخوضون فيها.** وقد قال الله تعالى عن القرآن وعن المؤمنين به والجاحدين به المكذبين لآياته: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت]، وقال كذلك عن الذين يتكلمون باطلاً واستهزاءً بآيات الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأٰىتِ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام].

• **الذي يمنع حق الآخرين.** وكذلك هؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل أو يمنعونهم حقوقهم أو يعتدون على ممتلكاتهم أو أعراضهم. فقد قال الله تعالى في شأن المتخاصمين الذين تسورا على داود عليه السلام مكان عبادته؛ وقد طمع أحدهما - مع كثرة غنمه (99)

نعجة) - في نعمة أخيه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص] وقس على هذه القضية غيرها من قضايا الطمع والجشع. وكذلك المنع من الميراث؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [السَّاءِ]، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام - في قصة رجلين اختصما في أرضٍ -: (مَنِ اقْتَطَعَ أَرْضًا ظَالِمًا، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ) [صحيح مُسلم]. وقال عليه الصلاة والسلام: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، فَإِذَا أَتَبَعَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ) [صحيح البخاري]. «والمطل: هو التسويف والتأخير في قضاء الدين، فإذا ما طَلَّ الغنيُّ فهذا يُعَدُّ ظُلْمًا؛ لأنَّه قادرٌ على السدادِ وردِّ المالِ، فلَمَّا مَنَعَ المالَ وأَخَذَ يُمَاطِلُ كان ظالِمًا». ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى]

• ومن لم يَتُبْ فأُولَٰئِكَ هم الظالمون. فنحن مأمورون بالتوبة في كل وقت وحين؛ وذلك لأنَّا خطَّاءون، وخير الخطَّائين التَّوَّابون، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات]، وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف في هذه الباب؛ فكان كثيرا ما يسأل ربه التوبة والمغفرة.

• الذين يطردون أولياء الله تعالى ويُعادونهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام]، وكذلك قال الله تعالى عن نوح عليه السلام وقد طلب المأوى من قومه أن يطرد أتباعه المُستضعفين: ﴿وَيَقَوْمُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا

أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ
إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿هود﴾.

ثالثاً: خطورة الظلم وضرره على الفرد والمجتمع.

قرر علماء الاجتماع قاعدة عظمية في هذا الباب وهي: «أن الظلم مؤذن بخراب العمران» وقبلهم وأفصح من كلامهم قول الله تعالى؛ فبعد أن ذكر سبحانه هلاك الأمم المكذبة لرسلمهم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]. فإذا لم تحترم الأمم والشعوب والأفراد قواعد العدالة فلن تحترم العدالة قواعد الدولة.

فبسبب الظلم ستنشر أمراض: السرقة والرشاوى والقمار والربا، وأكل أموال الناس بالباطل وصوره متكررة ومنتشرة بين الناس، وسيكون الحقد والحسد والبغضاء وقالة السوء .. وغير ذلك.

رابعاً: آثار الظلم في الدنيا والآخرة.

للظلم آثار وخيمة وعقوبات جسيمة؛ فقد توعد الله تعالى الظالمين بما يلي:

• أنهم لا يفلحون. ففي مواطن أربعة من كتاب الله تعالى؛ يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام، ويوسف، والقصاص].

• الظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ولا شفيع ولا حميم. فليس لهم ناصر ينصرهم ولا ولي يتولى أمورهم؛ فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران] وقال أيضاً: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر].

• الله سبحانه وتعالى لا يهديهم. فقد قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران].

- **بعيدون عن عهد الله تعالى بإمامة الدين.** فعندما سأل إبراهيم الخليل عليه السلام ربه أن يجعل من ذريته أئمة في الدين؛ بين الله تعالى له أن هذا عهد لا يناله ظلم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]
- **والله لا يحب الظالمين.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران].
- **لعنة الله على الظالمين.** قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف] وكيف لا يستحقون اللعنة والطرده من رحمة الله تعالى؟! وهم الذين يصدون عن سبيل الله تعالى، ويريدون هذا السبيل مُعَوَّجَةً لا مستقيمةً، وجمعوا مع هذا كله الكفر بالآخرة.
- **لنهلكن الظالمين.** فهذا حكم الله تعالى وقضاؤه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم] وفيها بشارة لأهل الإيمان بإرثهم لأرضهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]) [صحيح البخاري].
- **عذابهم: (نارٌ تحيط بهم).** وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف] « إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلظَّالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ باختيار الكفر نارًا عظيمة أحاط بهم سورها، فلا يستطيعون فرارًا منها، وإن يطلبوا غوثًا بماء من شدة ما يلاقون من العطش يغاثوا بماء كالزيت العكر شديد الحرارة، يشوي وجوههم من شدة حره، ساء شرابًا هذا الشراب الذي

يُغاثون به، فهو لا يغني من عطش بل يزيده، ولا يطفى اللهب الذي يُلْفَح جلودهم، وساءت النار منزلاً ينزلونه، ومقاماً يقيمون فيه»

- **يُسَلِّبُونَ الْأَمْنَ فِي الدَّارَيْنِ.** فقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام] والمقصود بالظلم هنا: (الشرك) فعن: (عبد الله رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزَلَتْ: {وَلَمْ يَلْبِسُوا} إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ قَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَيْنَا لَمْ يَظْلَمْ؟ فَنَزَلَتْ: {إِنَّ الشِّرْكَ} لَظْلَمٌ عَظِيمٌ) [صحيح البخاري]، «فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها»
خامساً: كيف نتعامل مع الظالم؟.

عندما نتعامل مع الظالم؛ لابد من تحديد مُسَبِّق لمكانة كلٍّ من الطرفين؛ فهناك ظالم لا نملك معه إلا الدعاء عليه، وآخر نستطيع الأخذ على يديه.. فليس كلُّ ظالم يُتَعَامَل معه بنفس التعامل مع الآخرين. وقد جاء في النصوص الشرعية ما يُرشد إلى بعض النقاط في التعامل معه؛ ومنها:

- الدعاء. وهو سلاح لا يخيب من استمسك به. فقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: (اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) [صحيح البخاري] بل كان صلى الله عليه وسلم إذا سافر: (يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُتَقَلِّبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ) [صحيح مسلم] ومن دَعَا الله عليه وسلم كذلك: (وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا وَانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا) [سنن الترمذي]، (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِلَّةِ وَالذَّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ) [سنن النسائي].
فالدعاء الدعاء

- الأخذ على يده. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ) [سنن الترمذي].

- اجتنابه. وأما اجتنابه فقد جاء في نصوص كثيرة ما يدل عليه؛ أمثال: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون] وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [هود] حتى مساكنهم بعد موتهم؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم) [صحيح البخاري] وقد جاء في موطأ مالك أن عروة بن الزبير قال: (ما أحب أن أدفن بالبقيع لأن أدفن بغيره أحب إلي من أن أدفن به إنما هو أحد رجلين إما ظالم فلا أحب أن أدفن معه وإما صالح فلا أحب أن تنبش لي عظامه). فإمّا الأخذ على يديه أو الدعاء عليه.

والاجتناب حالة لا يتخلى عنها المسلم في كل أحواله إذا ما تعامل مع الظالم.

وفي الختام قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم].

والحمد لله رب العالمين.

القبور (1) .. مشاهد وعبر.

العناصر:

أولاً: أول منازل الآخرة (رؤية من الخارج).

ثانياً: ما يُسأل عنه في القبور.

ثالثاً: عذاب القبر ونعيمه من القرآن والسنة (رؤية من الداخل).

رابعاً: أثر الأعمال في القبور.

(الموضوع)

أول شيء يستلفت الأنظار في هذا المشهد المهيّب؛ هو قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: (ما رأيتُ منظرًا قطُّ إلا القبرُ أفضَحَ منه) [سنن الترمذي]. فما هو وجهُ الفظاعة التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الحفرة (أو هذه البناية)؟!؛ فما هو إلا ميّتٌ قد وُضِعَ في قبره ثمَّ أهيلَ عليه التراب؛ إكراماً له وصيانةً، وحتّى لا يجد الناس ريحاً كريهة يتأذّون بها. وإذا كانت هذه المدة التي يقضيها المرء في قبره - بالغّة ما بلغت - قد جاء التعبير القرآني عنها بأنّها زيارة؛ في قوله تعالى: ﴿الْهَلْكُمْ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر]؛ فإذا كانت مدة الزيارة - وهي في العادة قليلة - قد استفظعها النبي صلى الله عليه وسلم؛ فما هو الشأن ما بعدها؟.

(1) ما ذكرته في هذه الخطبة من الأحكام الفقهية؛ لم أستطرد في تفاصيله لمناسبة المقام، ومن أراد ذلك فعليه بكتاب: (أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية) وغيره من المراجع والمصادر.

أولاً: أول منازل الآخرة (رؤية من الخارج).

الآخرة منازل، وأول منازلها؛ هو هذا المكان الذي يُدفن فيه الإنسان، وقد: (كان عثمان بن عفان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبُلَّ لحيتُهُ، فقيل له: تذكر الجنة والنار، ولا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إنَّ القبرَ أولُ منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسرُ منه، وإن لم ينجُ منه، فما بعده أشدُّ منه) [سنن ابن ماجه]. فالقبر إذا يُشكّل منزلاً من منازل الآخرة، وهو بداية المنازل، وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بعد نهْيٍ سابق بزيارتها؛ وما ذاك إلا للاتعاظ والعبرة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (نهيئكم عن زيارة القبور، فزوروها) [صحيح مسلم]، وفي رواية: (نهيئكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي أنها تُرِقُّ القلب، وتُدمع العين، وتُذكر الآخرة، فزوروها ولا تقولوا هُجْراً..). [عند أحمد في المُسند] وفي رواية أخرى: (فإنَّ لكم فيها عبرةً) [صحيح الجامع، للألباني]. فهذا منزل من منازل الآخرة أمام عينيك في الدنيا، وهو يُخالف منازل الدنيا جملة وتفصيلاً؛ فمثلاً:

فمنزل الدنيا: تكتبُ عليه اسمك وعملك وعائلتك. وتشيده وتجصصه. ترفعه طوابق وأدواراً؛ وهذه كلها أمور منهي عنها في منزل الآخرة فقد: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبنى على القبر، أو يُزاد عليه، أو يُجصص أو يُكتب عليه) [سنن النسائي]. وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهياج الأسدي: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) [صحيح مسلم]. فالقبر لا يُبنى عليه ولا يُزاد فيه؛ بل ولا يجصص بالجير.

ومنزل الدنيا كذلك: تجعل فيه وأمامه المصابيح والسرُج. وأما هذا فاتفق العلماء من المذاهب الأربعة على تحريم هذه السرُج وإيقادها على المقابر؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُرُج) [أحمد وأبو داود والترمذي - ولفظة السرج فيها خلاف حديثي].

حتى وضع شيء تحت الميت من الفُرش - كالمخدة وما شابه - كرهه العلماء؛ فإن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (حين حضره الموت قال: إذا انطلقتم بجنائرتي فأسرعوا المشي ولا تتبعوني بمجمرة، ولا تجعلوا على لحي شيئا يحول بيني وبين التراب ولا تجعلوا على قبري بناءً وأشهدكم أنني بريء من كل حارقة أو سالقة أو خارقة قالوا سمعت فيه شيئاً قال: نعم، من رسول الله صلى الله عليه وسلم) [سنن ابن ماجه] وكذلك روي عن ابن عباس كراهته. رضي الله عنهم.

- تجمع فيه شهواتك كلها؛ أموالاً ونساءً وبنين وبنات تستأنس بهم ويؤنسوك .. أمّا هذا فلا؛ فليس فيه شيء من هذا كله فلا مال ولا بنون ولا بنات ولا زوجات ولا أنيس ولا جليس؛ بل أنت بمفردك فيه، وكذلك فالأصل أن كل ميت يُدفن في قبر بمفرده. هذا هو المعروف استقراءً من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك فقد أمر بخلافه عن الضرورة. ولأجل هذا فإن عزة بن الزبير قال: (ما أحب أن أدفن بالبيع لأن أدفن بغيره أحب إلي من أن أدفن به إنما هو أحد رجلين إما ظالم فلا أحب أن أدفن معه وإما صالح فلا أحب أن تنبش لي عظامه) [موطأ مالك]. فقد كره مجاورة الظالم، وكره أن يُنبش له عظم الصالح تكريماً له وصيانة.

وأما الذي يؤنسك ويدخل معك ولا يتولى عنك؛ فهو (عملك). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ) [صحيح البخاري]. فما أشده من فراق!.

وكان هذه الرسالة المهمة التي تظهر للناظرين إذا رأوا القبر؛ تعني: أن الدار الآخرة من بدايتها تختلف تمام الاختلاف عن الدنيا، وأن جميع ما يتباهى به الناس في دنياهم؛ من المناصب، والبيوت، والأسرة، والسُرُج والإضاءة والفُرش، والأزواج والأولاد والأحفاد؛ هذا كله لا اعتبار له، ولا وزن له ولا قيمة، إلا من آمن وعمل صالحاً.

ثانياً: ما يُسأل عنه في القبور.

ثبت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن المسلم سيُسأل في قبره عن أمور؛ وهذه الأسئلة هي: عن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن ربه وعن دينه؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (العبد إذا وُضع في قبره، وتُولى وذُهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأفعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فيراهما جميعاً، وأمّا الكافر - أو المنافق - فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين [صحيح البخاري]. وفي حديث البراء بن عازب عند أبي داود: (وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حين يقال له: يا هذا، من ربك وما دينك ومن نبيك؟ قال هناد: قال: ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.. وإن الكافر فذكر موته قال: وتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه هاه، لا أدري، فينادي من السماء: أن كذب،..) [سنن أبي داود].

وهذه الأسئلة سيوفق للإجابة عليها من عاش عليها ومات؛ أمّا من لم يؤمن بها أو قالها نفاقاً كاذباً فيها؛ فإن الله تعالى لا يوفقها لذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون].

ثالثاً: عذاب القبر ونعيمه من القرآن والسنة (رؤية من الداخل).

جاءت إشارات كثيرة في القرآن الكريم حول عذاب القبر؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ التِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۖ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة]. قال المفسرون: «مرة في الدنيا بانكشاف نفاقهم وقتلهم وأسرههم، ومرة في الآخرة بعذاب القبر، ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب عظيم في الدرك الأسفل من النار»، وقال سبحانه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر] «وبعد موتهم يعرضون على النار في قبورهم أول النهار وآخره، ويوم القيامة يقال: أدخلوا أتباع فرعون أشد العذاب وأعظمه، لما كانوا عليه من الكفر والتكذيب والصد عن سبيل الله». وقال أيضاً: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح]؛ فلم يدخلوا نار الآخرة وإنما نارا في الدنيا في قبورهم. وغيرها من النصوص التي يُستدل منها على عذاب القبر من القرآن الكريم.

أما من السنة: فقد جاء أن يهودية دخلت على عائشة رضي الله عنها: (فَذَكَرْتُ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَسَأَلْتُ عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَقَالَ: نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) [صحيح البخاري] وأحاديث الاستعاذة من عذاب القبر أكثر من تحصر في هذا المكان.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (.. إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بَوَّجْهِهِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ عَذَابِ النَّارِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ..) [صحيح مسلم].

وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْيَسَا) [صحيح البخاري]

وفي الصحيح (أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا، أَوْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمَرَهُ، فَقَالَ: دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ) [صحيح مسلم]

- ومن أنواع العذاب التي جاءت النصوص بذكرها في القبور: ما جاء عن المنافق أو الكافر - وسبق الحديث - (ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صِيحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا النَّفْلَيْنِ)، وحديث: (أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ ثُمَّ يُقَيِّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمٌ مَعَهُ مَرْزِيَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا قَالَ فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا التَّقْلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا قَالَ ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ) [أخرجه أحمد في مسنده]، وكذلك الذي يأخذ من الفيء أو من الغنائم قبل أن تصيبها المقاسم: (والذي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلْ عَلَيْهِ نَارًا) [صحيح البخاري]. وكذلك حديث الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم؛ والتي انطلق به فيها ملكان وأرياه من الأمور الغريبة والعجيبة لأنواع من العذاب المتعلقة ببعض الذنوب؛ وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (.. قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ قَالَا لِي: أَمَّا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُنَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ. يُفْعَلُ

بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أُتِيَتْ عَلَيْهِ يُشَقُّ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمُنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكُذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ. فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَمَّا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أُتِيَتْ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا [صحيح البخاري].

ومن صور العذاب والتي لها أكبر الوقع على النفوس؛ ما جاء في هذا الحديث عن الكافر أنه: (يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فيقول: هذا منزلُكَ لو آمَنتَ بربِّكَ، فأَمَّا إذْ كَفَرْتَ بِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَدَلَكَ بِهِ هَذَا، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَقَمَعُهُ قَمْعَةً بِالْمِطْرَاقِ يَسْمَعُهَا خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ) [أخرجه أحمد]. فما أشدها من حسرة وندامة؛ وبئس البديل هو للظالمين!.

رابعاً: أثر الأعمال في القبور.

لا شك بأن العمل الصالح عموماً؛ من الأسباب الواقية من العذاب عموماً؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلَالٌ﴾ [النساء]. ومع ذلك؛ فمن فضل الله تعالى علينا أن جعل جملة من الأعمال الصالحة واقية من عذاب القبر خاصة؛ أمثال:

- وهو أعظمها: تحقيق التوحيد. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (المُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: 27]) [صحيح البخاري]

- قراءة سورة الملك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر) [صحيح الجامع للألباني].

- الأعمال الصالحة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصَّوْمُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ

يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّلَةِ، وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْحَلٌّ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصَّوْمُ: مَا قَبْلِي مَدْحَلٌّ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَسَارِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْحَلٌّ، وَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رِجْلَيْهِ، فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالصَّلَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قَبْلِي مَدْحَلٌّ) [المستدرك على الصحيحين]

- الرِّبَاطُ فِي سَبِيلِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا أَنَّ الْمَرَابِطَ يَأْمَنُ الْفِتَانُ، أَي: سُؤَالَ الْمَلَائِكِينَ فِي الْقَبْرِ، أَوْ أَنَّ الْمَلَائِكِينَ لَا يَضُرُّانِهِ) [صحيح مسلم].

وغير ذلك من الأعمال الصالحة. فنسأل الله تعالى أن يقينا عذاب القبر وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وفي الختام .. هذه القضية من القضايا التي تتعلق بالغيبيات التي ليس للمسلم فيها إلا التسليم للخبر الصادر عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا من أساس إيمانه؛ فقد ذكر الله تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ لِلْمَتِّقِينَ ۖ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۖ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۖ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [البقرة]. وكما قيل: «من الله تعالى الرسالة، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم التبليغ، وعلىنا التسليم».

والحمد لله رب العالمين

من القبور .. إلى ساحات الفرح والثُّبُور⁽¹⁾.

"مشاهد وعبر"

المقدمة.

أولاً: الصعق ثم النشور.

ثانياً: الحشر وأهواله (مشاهد للمتقين والفجار).

ثالثاً: الحساب والميزان.

رابعاً: الصراط.

(الموضوع)

من أركان الإيمان التي لا يستقيم إيمانُ العبد بدونها: (الإيمان باليوم الآخر)؛ وقد جاءت تفاصيل هذا اليوم في القرآن الكريم وفي السنة النبوية على قائلها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما على المؤمن - حيال هذا الأمر أو غيره - إلا أن يؤمن بما جاءه عنه من أخبار صحيحة، وأن لا يعارضها بعقله أو رأيه؛ لأن هذا من الإيمان بالغيب الذي هو علامة التسليم والإذعان لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى عن المتقين وأوصافهم: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة] والمقصود بالغيب هنا: «الوحي، القرآن، الله عز وجل، ما غاب عن العباد من أمر الجنة أو النار، قدر الله عز وجل، النبي صلى الله عليه وسلم»، وقيل في تفسيره كذلك: «هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان

(1) استفتت كثيراً من كتاب: (اليوم الآخر - 2 القيامة الكبرى) د/ عمر سليمان الأشقر. وبعض المصادر الأخرى.

بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله» وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الَّتِي شَاءَ) [صحيح مسلم] فالإيمان بالجنة والنار وبحقيقتهما وما أعدّه الله تعالى فيهما؛ يستلزم الإيمان بما قبلهما من مشاهد وأحوال؛ والتي منها:

أولاً: الصعق ثم النشور.

ذَكَرَتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ فِي الصُّورِ - الذي هو: "القرن" - وهي: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل] وقال سبحانه كذلك: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر] ومعناها: «ونُفِخَ في «القرن» فمات كلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ عدم موته، ثم نفخ المَلَكُ فِيهِ نفخة ثانية مؤذناً بإحياء جميع الخلائق للحساب أمام ربهم، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم؟». وقد جاء عن هذه النفخة أو هذه الصعقة أنها يوم الجمعة؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعَقَةُ فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نَعْرِضُ صَلَاتَنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ - يَقُولُونَ بَلَيْتَ - فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ) [سنن أبي داود]، وقال عليه

الصلاة والسلام أيضا: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ) [صحيح مسلم] ولأجل ذلك ف: (ما من دابةٍ إلا وهي مُسِيخةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنْ السَّاعَةِ إِلَّا الْجَنِّ وَالْإِنْسَ) [سنن أبي داود].

وقد ذكرت النصوص النبوية أن بين النفختين قدر أربعين؛ وقبل النفخة الثانية ينزل ماءٌ من السماء ينبت الناس بسببه من عظمة في أجسادهم لا تأكلها الأرض وهي: "عجب الذنب" فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما بين النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَنْبَلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [صحيح البخاري ومسلم]؛ وليس في الروايات ما يُوضِّحُ كُنْهَ الأَرْبَعِينَ؛ هل هي: "سنة أو شهر أو يوم".

ثانيًا: الحشر وأهواله (مشاهد للمتقين والفجار)

من أعظم الأهوال يوم القيامة؛ الحشر. فبعد بعث الناس وقيامهم من القبور يأتي حشرهم وسوقهم إلى أرض المحشر. وفي هذا الحشر مواقف وعبر؛ منها:

- أنه حشر لجميع الخلائق. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف]. وقد حكى الله تبارك وتعالى استبعاد الكافرين للبعث وما يتبعه من مواقف الحشر والجزاء ورد عليهم في عدة مواضع من كتابه، منها؛ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة] ومعنى (ضللنا: الغيبة والاختفاء). فقد ظنوا أنهم إذا اختفوا أو غابوا وتحلوا في باطن الأرض لن يعودوا!!.

- **حَتَّى الدَّوَابِّ.. تُحْشَرُ.** قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام]. فالصواب من قولي العلماء - كما نصوا عليه - «وَأَمَّا البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه وتعالى كما دلَّ عليه الكتاب والسنة» وذلك لإظهار عدل الله تعالى فيقتص من الشاة القراء للشاة الجلحاء، ثم يقول الله تعالى لها بعد: (كوني ترابا)؛ وحينها: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ].

- **حَشْرٌ .. تسوقه النار.** ومن أهوال هذا الحشر أن له سائقا يسوق الناس؛ يُرحّلهم، ويبيت معهم إذا باتوا، وهو ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: .. وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ، - وفي رواية - تَنْزِلُ معهم إذا نَزَلُوا، وَتَقِيلُ معهم حيثُ قالوا) [صحيح مسلم]. ومعناها: «نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ، أي: قَعْرِ أَرْضِ عَدَنٍ، وهي مَدِينَةٌ سَاحِلِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي جَنُوبِ الْيَمَنِ، هذه النَّارُ تُزِيحُ النَّاسَ وَتَطْرُدُهُمْ وَتَأْخُذُهُمْ إِلَى مَكَانٍ حَشَرَهُمُ لِلْحِسَابِ. زاد بعضُ الرُّوَاةِ أَنَّهَا: «تَنْزِلُ معهم إذا نَزَلُوا، وَتَقِيلُ معهم حيثُ قالوا» مِنَ الْقَيْلُولَةِ، وهي استراحةُ نِصْفِ النَّهَارِ بَنَومٍ أو غيرِ نَومٍ. والمعنى: أَنَّهَا تَلْزِمُهُمْ كُلَّ حِينٍ وَلَا تُفَارِقُهُمْ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ الْمُحْشَرِ».

- **وحالتهم في الحشر:** ومن أهوال الحشر كذلك أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ بهيئة تتخلع لها القوب؛ فها هم: (النار وراءهم؛ لا تُفارقهم)، وكذلك: (حفاة عراة غرلا) وها هم: (يسعون سعيا سريعا كأنهم يتسابقون)، وها هم: (أذلة أبصارهم)، كما قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكْرٍ ۖ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر] «فإذ لم يهتدوا فاتركهم - أيها الرسول - وأعرض عنهم منتظرا يوم يدعو الملك الموكل بالنفخ في الصور إلى أمر فظيع لم تعرف الخلائق مثله من قبل، ذليلة أبصارهم، يخرجون من القبور كأنهم في سعيهم إلى موقف الحساب جراد منتشر» وهذا السعي ليس سعيًا بطيئًا وإنَّما هو كما وصفه ربنا تبارك وتعالى: "سعيٌ سريع": ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾

[المعارج]. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم - في حديث عائشة -: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ! قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) [صحيح البخاري]. ومنهم كذلك مَنْ يُحْشَرُ عَلَى وَجْهِهِ - نَعُودَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]. وفي الصحيح (أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى، وَعِزَّةُ رَبِّنَا) [صحيح مسلم] وقد جاء أيضاً في صفة الحشر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَانِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشَرُ بِقِيَّتِهِمُ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا) [صحيح مسلم].

وقد ذكر الله تعالى صورة الفريقين - المتقين والفجار - في هذا الحشر؛ فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ [مريم] «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا عَنْهُ زَجَرُوهُمْ: أَنَّهُ يُحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفْدًا إِلَيْهِ. وَالْوَفْدُ: هُمُ الْقَادِمُونَ رُكْبَانًا، وَمِنْهُ الْوَفُودُ وَرُكُوبُهُمْ عَلَى نَجَائِبَ مِنْ نُورٍ، مِنْ مَرَائِبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْرٍ مَوْفُودٍ إِلَيْهِ، إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ. وَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفُونَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُسَافُونَ عُنْفًا إِلَى النَّارِ، ﴿وَرِدًّا﴾ عِطَاشًا». وأختم هذا المشهد المهيّب بحالة ذكرها الله تعالى عن قومٍ تنكبوا طريق الهداية فضلوا بكفرهم وأنكروا البعث بعدما صاروا رُفَاتًا. فكان حالهم في الحشر بنس الحال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ

سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ [الإسراء].

ثالثاً: الحساب والميزان .. وما أدراك!.

والمراد بالحساب: «أن يوقف الله تبارك وتعالى عباده بين يديه ويُعرفهم بأعمالهم التي عملوها والتي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا»، ولأجل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يُجري في هذا اليوم أموراً وأهوالاً عظمية؛ كي يعلم العباد نتيجة أعمالهم وما قدموه في هذه الحياة الدنيا، ثم يأتي الجزاء عليها، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِّلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير]. ف: «عندما يحصل ذلك تعلم كل نفس ما قدمت من الأعمال لذلك اليوم»، «وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص وتعم المخاوف، وتحت أولي الأبواب للاستعداد لذلك اليوم، وترجرهم عن كل ما يوجب اللوم» وفي سورة الانفطار يقول الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار] «إذا السماء انشقت، واختل نظامها، وإذا الكواكب تساقطت، وإذا البحار فجر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها، وإذا القبور قلبت بيعت من كان فيها، حينئذ تعلم كل نفس جميع أعمالها، ما تقدم منها وما تأخر، وجوزيت بها». وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ اُنْشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق]، وفي تفسيرها: «إذا السماء تصدعت، وتقطرت بالغمام يوم القيامة، وأطاعت أمر

ربها فيما أمرها به من الانشقاق، وحق لها أن تنقاد لأمره. وإذا الأرض بُسِطت ووسَّعت، ودكت جبالها في ذلك اليوم، وقذفت ما في بطنها من الأموات، وتخلَّت عنهم، وانقادت لربها فيما أمرها به، وحق لها أن تنقاد لأمره، يا أيها الإنسان إنك ساعٍ إلى الله، وعامل أعمالاً من خير أو شر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فيجازيك بعملك بفضلته أو عدله»

وفي هذا الجزاء والحساب أهوالٌ تقشعر منها الأبدان، منها:

1 - الله سبحانه وتعالى هو الذي سيُحاسبُ عباده. وقد وصف نفسه سبحانه بقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء]، وقال أيضاً: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَاسِبًا﴾ [النساء] وفي مثالٍ ضربته الله تعالى لأعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور]. فانظر إلى وصف الله تعالى نفسه بأنه يضع الموازين يوم القيامة إقامة للعدل، ولو كانت مِثقال حبة من خردل يأت بها سبحانه وتعالى؛ فلا تغيب عنه ولا تعزب، وأنه سبحانه سيوفي كلَّ عباده بأعمالهم كاملة، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء] فكفى به سبحانه وتعالى مُحاسباً لعباده. فهي مُحاسبةٌ من: العالم، الخبير، البصير، السريع الحساب. وقد جمع الله تبارك وتعالى بين الأهوال العجيبة في الآخرة وبين الجزاء على أعمال العباد مع سرعة حسابه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [١٨] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿١٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعْشَىٰ جُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٢٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم]. وقد قيلَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي يَوْمٍ؟ قَالَ كَمَا يَرْزُقُهُمْ فِي يَوْمٍ!.. فإللهم نسألك لطفك وبرك وعفوك.

2 - مشهد الإحصاء وكتابة الأعمال.

وهذا من المشاهد التي تتخلع لها قلوب المؤمنين في مواقف الجزاء، إذ يفاجئ الإنسان بأمر قد أُحصيت عليه إحصاء؛ وقد نسيها: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة] فالله سبحانه وتعالى شهيدٌ يرى من عباده ما يفعلون، أحصاه إحصاء؛ فقد: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن]، وقال كذلك: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا]. وهذا الكتاب الذي تُحصى فيه أعمال العباد؛ قد قال الله عنه وعن تعجب المجرمين من دقة إحصائه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّيْتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف]. وقد قال سبحانه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وجاء في تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنه: «يَكْتُبُ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَكْتُبُ قَوْلَهُ: "أَكَلْتُ، شَرِبْتُ، ذَهَبْتُ، جِئْتُ، رَأَيْتُ"، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ عَرَضَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ، فَأَقْرَأَ مِنْهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَالْقَى سَائِرَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وَذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَبْنِي فِي مَرَضِهِ، فَبَلَغَهُ عَنْ طَاوُسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَكْتُبُ الْمَلَكُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ. فَلَمْ يَبْنِ أَحْمَدُ حَتَّى مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ».

وهذا الكتاب: قد قال الله تعالى عنه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ ﴿١٣﴾ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء] وفي تفسيرها: «وكل إنسان جعلنا عمله الصادر عنه ملازمًا له ملازمة القلادة للعنق، لا ينفصل عنه حتى يُحاسَبَ عليه، ونخرج له يوم القيامة كتابًا فيه جميع ما عمل من خير وشر يجده أمامه مفتوحًا مبسوطًا». وقال ابن جرير الطبري هو: «مثل لما كانت العرب تتفاعل به أو تتشاع من سوانح الطير وبوارحها، فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره

في عنقه نحسا كان ذلك الذي ألزمه من الطائر، وشقاء يورده سعيرا، أو كان سَعْدًا يورده جنات عدن»، وعند إخراج هذا الكتاب أصحاب السعادة من أهل اليمن يأخذونه باليمن، وأصحاب الشقاوة من أهل الشقاء يأخذون وراء ظهورهم بالشمال؛ وقد قال الله تعالى عن كلا الفريقين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١٠ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١١ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٢ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ۝١٣ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق].

3- الميزان. وهذا الميزان حق، له كِفَتَانِ حقيقتان، وأكثر العلماء على أنه ميزان واحد، تُوزن به أعمال العباد حسنُها وسيئُها. وقد يأتي في النصوص ما يدل على أنه أكثر من واحد؛ وإنما هو من قبيل تعدد الأعمال الموزنة لا من تعدد الموازين والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۝١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ۝١١﴾ [القارعة] وكأنَّ السورة كلها قد سبقت لهول هذا الأمر. والذي يُوزَنُ إما العامل وإما العمل وإما صحائف العمل؛ وبكل ذلك جاءت الأخبار والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) [صحيح البخاري]. وقال أيضا: (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإنَّ صاحبَ حسن الخلق ليلبُغ به درجة صاحب الصوم والصلاة) [سنن الترمذي]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: (إنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَقَالَ: افْرُؤُوا {فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَنًا} [الكهف: 105]) [صحيح البخاري] ف«كَمِ مِنْ عَظِيمِ الْجُنَّةِ لَا وَقَعَ لَهُ! لَأَنَّ الْوَقَعَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمَعَانِي لَا

بالصُّورِ» وهذا قلبه خالي من الإيمان، والله تعالى لا ينظر إلى الصور بل إلى ما في القلوب. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن رجل من أمته: (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجًّا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عَذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزَنَّاكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَّلَاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تَظْلُمُ، قَالَ: فَتَوَضَّعَ السَّجَّلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجَّلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يَتَقَلُّ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ) [أخرجه الترمذي وأحمد].

رابعاً: الصراط.

وبعدما يُفارق الناس الموقف؛ وتؤمّر كلُّ أمة أن تتبع ما كانت تعبد؛ يُحشرون إلى دار القرار إمّا إلى الجنة - نسألها الله تعالى لنا وللمؤمنين - أو إلى النار - أعاذنا الله تعالى منها - ثم يكونون في ظلمةٍ دون الجسر وهو: «جسرٌ ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة بين الجنة والنار» وهذا الصراط كما قال: (أبو سعيدٍ رضي الله عنه: بَلَّغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ) [صحيح مسلم].

ومرورُ الناس على الصراط له أحوال مختلفة؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحَ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرَ، وَشَدَّ الرَّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَرَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، قَالَ: وَفِي حَافَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِيْبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ) [صحيح مسلم]. وفي رواية للبخاري: (ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ

وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُقْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيفَاءُ، تَكُونُ بَنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ، فَتَاجٌ مُسَلَّمٌ، وَتَاجٌ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا) [صحيح البخاري]. وفي رواية: (حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا) [صحيح مسلم].

فالأعمال هي التي تجري بأصحابها على الصراط. وبالإيمان والعمل الصالح يؤتى العبد من النور ما يستطيع السير على الصراط بسببه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد] وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: (عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ يَمْرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ، مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ فِي إِبْهَامِهِ يَنْقُدُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً) [من تفسير ابن كثير].

وهو على ظهر جنهم، وعليه كلاليب وخطاطيف؛ فهو مدحضة مزلة لا تستقر عليه الأقدام إلا مَنْ ثبته الله تعالى. ودعوى الرسل يومئذ على الصراط تقول: (اللهم سلم سلم). فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ) [صحيح البخاري].

ومن الأمور العظام التي لها أثر كبير في نجاة العبد أو هلاكه على الصراط: "الأمانة والرحم"؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَّبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا) [صحيح مسلم] قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْأَمَانَةَ وَالرَّحِمَ لِعِظَمِ شَأْنِهِمَا وَفَخَامَةِ مَا يَلْزَمُ الْعِبَادُ مِنْ رِعَايَةِ حَقِّهِمَا يُوقَفَانِ هُنَاكَ لِلْأَمِينِ وَالْخَائِنِ وَالْمُوَاصِلِ وَالْقَاطِعِ، فَيَحَاجَّانِ عَنِ الْمُحَقِّ وَيَشْهَدَانِ عَلَى الْمُبْطِلِ». فنسأل الله تعالى أن يُثَبِّتَ أقدامنا على الصراط، وأن يُنجِبنا في يوم الحسرات والزفرات. آمين.

الجنة.. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾⁽¹⁾.

العناصر:

المقدمة.

أولاً: الجنة. (تعريفها. وعددها. وساكنوها).

ثانياً: بعض ما جاء في أوصافها.

(الموضوع)

كلامنا عن الجنة لا بد له من مقدمة ندخل من خلالها إليه، وفيها أمور؛ هي:

— هي من الإيمان بالغيبيات. فمن أنكر الغيبيات؛ لم يؤمن بالدار الآخرة وما فيها. وقد قال الله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم] وفي تفسيرها: «جنات إقامة واستقرار التي وعد الرحمن عباده الصالحين بالغيب أن يدخلهم فيها، وهم لم يروها فآمنوا بها، فوعد الله بالجنة - وإن كان غيباً - آتٍ لا محالة».

— طبيعتها تختلف عما نشاهده. واختلاف الطبائع أمر لا تأباه العقول؛ بل تُنكر على من يُنكره، فطبيعة الرجل والمرأة مختلفة، والماء والنار، والسماء والأرض، والحديد والمعادن كلها، لكل واحد منها طبيعة تخصه عن غيره، وهكذا.. وهذا من بدائيه الفطر وضرورات العقول.

فالنفوس في الجنة على هيئة أخرى فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴿[الأعراف] فالمعاني التي قد تعتري النفس من الغل والحقد والحسد

(1) من المصادر التي استفدت منها كثيرا في هذا الموضوع: (الموسوعة العقدية على موقع الدرر السنية) جزي الله تعالى القائمين عليها خير الجزاء.

والممل، .. هذه لا وجود لها في الجنة، وكذلك قد أنشأ الله تعالى فيها أهلها بصورة أخرى؛ فقال سبحانه عن نسائها: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ [الواقعة]، أي: «إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء» وقال صلى الله عليه وسلم: (يدخل أهل الجنة الجنة جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جَعَادًا مُكْحَلِينَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، وَهُمْ عَلَى خَلْقِ آدَمَ؛ سِتُونِ ذِرَاعًا) [أخرجه أحمد وغيره] وقال أيضا: (خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُونِ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ، تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فزادوه: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ) [صحيح البخاري].

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء) [صحيح الترغيب والترهيب للألباني]. «وَأَمَّا الْمُسَمَّيَاتُ فَبَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ؛ وَإِلَّا فَالذَّوَاتُ غَيْرُ الذَّوَاتِ، وَالذَّوَاتُ غَيْرُ الذَّوَاتِ». وقد قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة] فقد: «قُدِّمَتْ لَهُمْ ثَمَارٌ مُتَشَابِهَةٌ فِي شَكْلِهَا وَاسْمِهَا حَتَّى يَقْبَلُوا عَلَيْهَا بِحَكْمِ الْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَلَكِنِهَا مُخْتَلِفَةٌ فِي طَعْمِهَا وَمَذَاقِهَا، وَلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَزْوَاجٌ مُبَرَّاءَةٌ مِنْ كُلِّ مَا تَنَفَّرُ مِنْهُ النَّفْسُ، وَيُسْتَقْدَرُ طَبْعًا مِمَّا يُتَصَوَّرُ فِي أَهْلِ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي نَعِيمٍ دَائِمٍ لَا يَنْقَطِعُ، بِخِلَافِ نَعِيمِ الدُّنْيَا الْمُنْقَطِعِ».

- ومما يدل على اختلاف طبيعتها كذلك: (أَوَّلُ زُمَرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَنْتَعِطُونَ، آيِبُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مَخُّ سَوْقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [صحيح البخاري]. ولذلك نعيمها لا يُقَارَنُ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَمَوْضِعُ سَوَاطِئِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) [صحيح البخاري]

- علاقة جزاء .. لا غير. فالعلاقة التي بيننا وبين الآخرة عموماً؛ هي علاقة جزاء على عملٍ قدّمناه في الدنيا. فإن كان خيراً كان الجزاء خيراً؛ وهو الجنة، وإن كان سوى ذلك فالنار عافانا الله تعالى منها بفضلِهِ وكرمه. فهي علاقة جزاء على عملٍ عملناه.

وقد قال الله تعالى عن الْمُتَّقِينَ بعد ذكر أوصافهم: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت] وقال كذلك عن الجنة وما فيها من النعيم: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة] لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات]. وقال كذلك عن إرث المؤمنين الطيبين لها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر].

وبعد هذه المقدمة:

ما هي الجنة؟ «هي كلُّ بستانٍ ذي شجرٍ يستر بأشجاره الأرض، قيل: وقد تسمَّى الأشجار الساترة جنة. وسمّيت الجنة إمّا تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، إمّا لسترة نعيمها عنّا المُشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» و«هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعدّه الله لأوليائِهِ وأهل طاعته، وهي نعيمٌ كاملٌ لا يشوبه نقص، ولا يُعكّر صفوه كدر، وما حدّثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسولُ صلى الله عليه وسلم يُحيّر العقل ويذهله؛ لأنّ تصوّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه».

عدّها: هل هي واحدة أم أكثر؟! قد ذكر الله تعالى في القرآن كثيراً من الجنّات؛ فمنها: جنة عدن، جنة الفردوس وقد جاء في الحديث: (أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ أَصَابَهُ غَرُبٌ سَهْمٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتُ مَوْقِعَ

حَارِثَةً مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ لَهَا: هَبِلْتِ! أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى..) [صحيح البخاري] وكذلك في سورة الرحمن ذكر الله تعالى أربع جنان؛ اثنتين لِمَنْ خاف مقام ربه، ثم ذكر ربُّنا تبارك وتعالى مِنْ دونهما جنتين. فالجنان كثيرة وليست جنة واحدة، وفي الحديث: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) [صحيح البخاري]. ومعنى أوسط الجنة: أي أفضلها أو أعدلها وأوسعها.

وَأَمَّا سَاكِنُوهَا⁽¹⁾. فَهُمْ: (الصالحون، والمؤمنون، والطيبون، والمتقون، والصادقون، والمصلون والمؤدُّون الزكاة، والموفون بعهدهم، والشهداء، والحجاج، والصائمون، والمعرضون عن اللغو ..)

ثانيًا: بعض ما جاء في أوصافها.

- تُرْبَتُهَا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - في حديث الإسراء والمعراج -: (ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ) [صحيح البخاري] وفي الحديث عند الإمام مسلم: (أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ، سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: دَرَمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ) ومعناه أي أنها بيضاء كـ «الدَّقِيقُ الْخَالِصُ الْبَيَاضُ»، و«مِسْكٌ»، يَعْنِي أَنَّهَا فِي الْبَيَاضِ دَرَمَكَةٌ وَفِي الطَّيِّبِ مِسْكٌ» وفي فتح الباري: «والملاط: التراب الذي يختلط بالماء، فيصير كالطين، فلوَّنه لون الزعفران في بهجته وإشراقه. وريحه كريح المسك، وطعمه كطعم الخبز؛ يؤكل»

- أَنْهَارُهَا. قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ

(1) انظر - غير مأمور - إلى سلسلة "الوارثون جنان الخلد من هذه الكنانة"؛ فكل موضوع منها لخصلة من خصال ساكنيها.

كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿[محمد]

«فيها أنهار من ماء غير متغير ريحاً ولا طعمًا لطول مكث، وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وفيها أنهار من خمر لذينة للشاربين، وأنهار من عسل قد صفّي من الشوائب، ولهم فيها من كل أنواع الثمرات ما يشاؤون» وهذه الأنهار؛ وصفها الله تعالى بقوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة] «ليست كخمر الدنيا، فلا يلحق شاربها صدام، ولا ذهاب عقل» ومن أوصافها ما جاء: (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَعَلَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي فِي أُخْدُودٍ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهِ إِنَّهَا لَتَجْرِي سَائِحَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، حَافَاتُهَا قَبَابُ اللَّوْلُؤِ، وَطِينُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ) [تفسير ابن كثير]، ومن أنهار الجنة كما في الحديث: (سَيحَانٌ وَجَيْحَانٌ، وَالْفُرَاتُ وَالنَّيْلُ كُلُّهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ) ⁽¹⁾ [صحيح مسلم] وأنهار الجنة تُفَجَّرُ مِنَ الْفِرْدَوْسِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) [صحيح البخاري]. وقد ذكر ربنا تبارك وتعالى عنها أيضا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِينِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ف: «من يؤمن بالله ويعمل عملاً صالحاً يكفر الله عنه سيئاته، ويدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكين فيها أبداً، لا يخرجون منها، ولا ينقطع عنهم نعيمها، ذلك الذي نالوه هو الفوز العظيم الذي لا يدانيه فوز»

- أبوابها: أمّا عددها في ثمانية؛ فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ

(1) قال الألباني رحمه الله تعالى «لعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها، كما أن أصل الإنسان من الجنة، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مُشَاهِدٌ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَتَّبِعُ مِنْ مَنَابِعِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى أَوْ مَا يُشَبِّهُهُ، فَالْحَدِيثُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا، وَالنَّسْلِيمُ لِلْمُخْبِرِ عَنْهَا»

الْعَمَلِ. - وفي رواية زَادَ -: مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، أَيُّهَا شَاءَ [صحيح البخاري ومسلم] وهذه الأبواب لها أسماء ترتبط بالأعمال التي تميّز بها أصحابها؛ كما في حديث: (فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرِّيَّانِ..) [صحيح البخاري ومسلم] وهناك باب: (الوالد)، وباب (لمتوكلون)، وباب: (التائبون)، وباب: (الذكر). كما في الأحاديث الأخرى.

وقد جاء في وصف ما بين مصراعيه أحاديث؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وحِمير - أو كما بين مكة وبُصرى -) [صحيح البخاري؛ في حديث الشفاعة] وفي حديث عتبة بن غزوان قوله: (ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً وليأتين عليه يومٌ وهو كظيظ من الزحاح) [صحيح مسلم]. وقد يكون بينها اختلافا في السعة فهذا كما بين مكة وحِمير وآخر سعته مسيرة أربعين عاماً. والله أعلم

- شجرها: جاء في وصفها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة لشجرة، يسيرُ الرَّاكِبُ في ظلِّها مائة عامٍ لا يقطعُها - وفي رواية - اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَضِلٌّ مَمْدُودٌ﴾) [صحيح البخاري] ويُقال بأن هذه الشجرة هي طوبى. وهل كل شجر الجنة كذلك؟ الله أعلم.

فعلى المسلم الحريص على آخرته؛ أن يستكثر شجره في الجنة بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ويقول سبحان الله وبحمده. فإنها جميعاً غراس الجنة كما صحت بذلك الآثار.

- أكلها وظلالها: قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد] «ثمارها دائمة لا تنقطع، عكس ثمار الدنيا، وظلها دائم لا يزول، ولا يتقلص»، ف «فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء» ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في حديث: (خَسَفَتِ الشَّمْسُ

عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَتَأَوَّلَتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكْعَكَعْتَ، قَالَ: إِنِّي أُرِيتُ الْجَنَّةَ، فَتَتَأَوَّلْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا [صحيح البخاري]. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفَلَكِهَ كَثِيرَةٌ ۖ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ [الواقعة]، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَلَكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۖ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور]، وفي الأثر أنه: (أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ من اليهود، فقال: يا أبا القاسم، ألسنتُ تزعمُ أنَّ أهلَ الجنةِ يأكلونَ ويشربونَ؟ وقال لأصحابه: إنَّ أقرَّ لي بهذه خصمته. قال: فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بلى، والذي نفسي بيده، إنَّ أحدهم ليُعطى قوَّةَ مئةِ رجلٍ في المطعمِ، والمشربِ، والشهوةِ، والجماعِ. قال: فقال له اليهوديُّ: فإنَّ الذي يأكلُ ويشربُ تكونُ له الحاجةُ؟ قال: فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حاجةُ أحدهم عرقٌ يفيضُ من جلودهم مثلُ ريحِ المسكِ، فإذا البطنُ قد ضمَرَ) [أخرجه أحمد في المسند] فليس في نعيمها أذى ولا أوساخ.

- **غرفها وخيامها وقصورها.** قال الله تعالى عنها: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ] وقال سبحانه وتعالى في أوصافها: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر]. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنَّ في الجنةِ غُرَفًا يَرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا. فقال أبو مالكٍ الأشعريُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ) [أخرجه أحمد وهو في الترغيب والترهيب] وجاء أيضا قوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ أهلَ الجنةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِبَ فِي الْأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ؛ لِنِقَاضِ مَا بَيْنَهُمْ. قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قال: بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) [صحيح البخاري] أي: «أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْأَقْلَى فِي الْجَنَّةِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ الْغُرَفِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا فَوْقَهُمْ، وَيَرَوْنَهُمْ كَمَا يَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْمُضِيءَ الَّذِي

ذَهَبَ بَعْدَ انْتِشَارِ ضَوْءِ الْفَجْرِ فِي أَطْرَافِ السَّمَاءِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ، وَلِبُعْدِ مَنَازِلِ أَهْلِ الْغُرْفِ الْعَالِيَةِ عَنْ بَاقِي أَهْلِ الْجَنَّةِ» وَقَدْ جَاءَ كَذَلِكَ عَنْ خِيَامِهَا: (إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخِيْمَةً مِّنْ لُّوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُّجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا) [صحيح مُسلم] وَمِنْ أَوْصَافِ بَيْوتِهَا كَذَلِكَ أَنَّهُ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَفِيهِ: (هَذِهِ خَدِيجَةُ أَتَتْكَ بِإِنَاءٍ فِيهِ طَعَامٌ - أَوْ إِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ - فَأَقْرَبَتْهَا مِنْ رَبِّهَا السَّلَامَ، وَبَشَّرَهَا بِبَيْتٍ مِّنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ) [صحيح البخاري]. وَمِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ بَيْوتٌ فِي الْجَنَّةِ فَلْيُحَافِظْ عَلَى صَلَاةِ النَّافِلَةِ خَلْفَ الْفَرَائِضِ، أَوْ يَبْنِي لَهِ عِزَّ وَجَلَّ مَسْجِدًا كَمَا صَحَّتْ بِذَلِكَ الْآثَارُ.

- نَسَاؤُهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَعِيمِ الْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان] فَمِنْ النِّعَمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ الْحُورُ الْعِينُ؛ وَمَعْنَاهَا: «وَهِيَ الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ الْحَسَنَاءُ الْجَمِيلَةُ الْبَيضَاءُ شَدِيدَةُ سَوَادِ الْعَيْنِ» وَقَدْ جَعَلَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَبْكَارًا عُرْبًا أَتْرَابًا؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة] أَي: «إِنَّا أَنْشَأْنَا الْحُورَ الْمَذْكُورَاتِ إِنْشَاءً غَيْرَ مَأْلُوفٍ. فَصَيَّرْنَاهُنَّ أَبْكَارًا لَمْ يُلْمَسْنَ مِنْ قَبْلِ، مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، مُسْتَوِيَّاتٍ فِي السِّنِّ». فَكَلَّمَا أَتَى إِلَيْهَا زَوْجُهَا وَجَدَهَا بِكَرٍّ لَمْ يُجَامِعْهُنَّ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٍ، عَرُوبًا مُتَحَبِّبَةً إِلَيْهِ؛ بَلْ إِنَّمَا، قَصَرَتْ طَرْفُهَا عَلَى زَوْجِهَا، لِعِقَّتِهَا وَعَدَمَ مُجَاوِزَتِهِ لِغَيْرِهِ، وَلِجَمَالِ زَوْجِهَا وَكَمَالِهِ، بِحَيْثُ لَا تَطْلُبُ فِي الْجَنَّةِ سِوَاهُ، وَلَا تَرْغُبُ إِلَّا بِهِ، فَقَصَرَتْ طَرْفَ زَوْجِهَا عَلَيْهَا، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِهَا وَجَمَالِهَا الْفَائِقِ، الَّذِي أَوْجَبَ لِرِزْوَجِهَا أَنْ يَقْصُرَ طَرْفَهُ عَلَيْهَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي عِدَدِ مَا لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ؛ قَوْلُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدُّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مَخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ) [صحيح البخاري].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلّعت إلى الأرض لأضاعت ما بينَهُما، ولمَلأت ما بينَهُما ريحاً، ولنصيفُها - يعني الخمار - خير من الدنيا وما فيها) [صحيح البخاري].

وأختم حديثي عن الجنة بأعلى نعيم يلقاه أهلها فيها؛ وهو: رؤية الله عز وجل. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تُريدُونَ شيئاً أزيدُكُمْ؟ فيقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنةَ، وتُنَجِّنَا مِنَ النارِ؟ قال: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فما أُعْطُوا شيئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ. وفي رواية: وزادَ ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] [صحيح مسلم].

فنسأل الله تعالى من فضله وكرمه

النَّارُ ﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَمْرُودُ﴾

العناصر:

المقدمة.

أولاً: أوصافها (خِلْقَةً)

ثانياً: أهلها وساكنوها.

ثالثاً: من أوصاف عذابها.

رابعاً: الاستعاذة منها.

(الموضوع)

جاء في الأثر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تنسوا العظيمنتين. قال الصحابة وما العظيمنتان يا رسول الله قال: الجنة والنار) [ابن أبي الدنيا في صفة النار] وجاء فيه أيضاً: (إن النار لا ينام هاربها وإن الجنة لا ينام طالبها، اطلبوا الجنة جهدكم واهربوا من النار جهدكم). [والأثران ضعيفان]. فالمسلم ينبغي عليه أن لا ينسى هذه المسألة العظيمة. فهو مقبل عليها لا محالة إما إلى الجنة وإما إلى النار. وهذه الكلمات في وصف النار والتخويف منها وبيان أهلها. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الجنة وأن يُعيدنا من النار إنه نعم المولى ونعم النصير.

أولاً: أوصافها (خِلْقَةً).

- طريقها الموصول إليها؛ قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ) [صحيح مسلم]. وقد قَرَّبَهَا النبي صلى الله عليه وسلم لنا في حجم العذاب بما نُشَاهِدُهُ من نار الدنيا؛ فقال: (تَأْرُكُمُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فَضَلَّتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا) [صحيح البخاري].

- وعندما تأتي إلى أرض المحشر؛ فلها صورة وهيئة قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مع كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا) [صحيح

مُسلم]. والزمَام: «هو ما يُشدُّ ويُربطُ به، وهذه الأُزِمَةُ الَّتِي تُساقُ بها جهنَّمُ تَمْنَعُ خُرُوجَهَا على أَهْلِ المَحْشَرِ، فلا يَخْرُجُ منها إِلَّا الأَعْنَاقُ الَّتِي أُمِرَتْ بِأَخْذِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَخْذَهُ». وقد قال الله تعالى: ﴿وَجِئَاءَ يَوْمِيذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمِيذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر].

- **ولها خزنة موكلون بها.** فقد قال الله تعالى عن خازنها: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُونَ﴾ [الزخرف] وقد جاء وصفه في حديث الرؤيا التي فيها انطلاقُ المَلَكَيْنِ برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وفيه: (.. فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ كَرِيهِ المَرَاةِ، كَأَكْرَهٍ ما أَنْتَ رَءِ رَجُلًا مَرَاةً، وإذا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا قَالَ: قُلْتُ لهما: ما هذا؟ .. وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرَاةِ، الذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ) [صحيح البخاري] ومالك هذا على رأس التسعة عشر ملكاً الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ ۚ ۞ لَّوَاحُۃٌ لِّلْبَشْرِ ۚ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۚ ۞ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۚ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر] وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (مَا بَيْنَ مَنَكِبَيِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مَسِيرَةُ سَنَةٍ، وَقُوَّةُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَضْرِبَ بِالْمَقْمَعِ فَيُدْفِعَ بِتِلْكَ الضَّرْبَةِ سَبْعِينَ أَلْفَ إِنْسَانٍ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ).

- **وأما أبوابها وبعدها ما بين أطرافها.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ۞ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر] وفي وصف هذه الأبواب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَإِنَّ لِلنَّارِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ ما منها بابانِ إِلَّا بينهما مَسِيرَةُ الرَّكَّابِ سَبْعِينَ عَامًا) [المستدرک على الصحيحين].

- **وأما سعتها.** فعن أبي هريرة، قَالَ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "تَدْرُونَ مَا هَذَا؟" قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ "هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا. فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا) [صحيح مُسلم].

- وأما وقودها وما تشتعلُ به. فقد قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم]. ولأجل أن يعظم العذاب ويشد على أصحابه فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن الكافر بأنه سيُعظم - يُضخم - للنار فقال: (ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أَحَدٍ، وَغِلَاطٌ جِلْدُهُ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ) [صحيح مُسلم]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَا بَيْنَ مَنْكَبِي الْكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّكَّابِ الْمُسْرِعِ) [صحيح مُسلم]. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

- ولها عرقٌ أو عُصارة، واسمها: طِينَةُ الْخَبَالِ. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذي يشرب المُسْكِرَ: (كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ) [صحيح مُسلم].

ثانياً: أهلها وساكنوها.

أهل النار كثيرون جداً. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَادَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف] وجاء في الحديث القدسي؛ أن الله تبارك وتعالى قال لآدم عليه السلام: (يا آدَمُ، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قال: يقول: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قال: وما بَعَثَ النَّارَ؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ) ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ) [صحيح البخاري].

- **ومن أهلها الكفار من اليهود والنصارى والمشركين بالله تعالى؛** فقد قال ربُّنا تبارك وتعالى عنها: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران]. وقال سبحانه أيضا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٍّ، ولا نصرانيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) [صحيح مُسلم].

- **ومن أهلها المنافقون.** قال ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء].

- **والذين يكتُمون ما أنزل الله.** فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أخرجه أحمد في مسنده وغيره]. وهو العلم الذي يحتاج إليه السائل في أمر دينه.

- **المرتد.** قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة].

- **الذين يعتدون على الحرمات ويتعدون حدود الله تعالى.** فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء].

- **المسرفون.** قال الله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر]. وهم المفرطون المجاوزون للاعتدال فأسرفوا بالكفر والمعاصي وتجاوزوا حدود الله تعالى.

- **ومنهم أكلة أموال اليتامى.** فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء].

- ومنهم ما جاء في عياض بن حمار المُجاشعي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ؛ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَائَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَذَكَرَ الْبُخْلَ - أَوْ الْكَذِبَ - وَالشَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ) [صحيح مسلم].

- ومنهم ما جاء في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرَّةٍ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُثْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ) [صحيح البخاري]

- ومنهم ما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ) [صحيح البخاري]. وفيه أيضا: (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ. فَقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّغْنَ، وَتُكْفِرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَارِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ).

ثالثاً: صور من أوصاف عذابها.

عن الثُّعْمَانَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ، تُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ) [صحيح البخاري].

ومما يدل على تفاوت أهل النار في العذاب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ - حَقْوِيهِ -، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوتِهِ) [صحيح مسلم]. من عصاة المسلمين مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ عَلَى قَدَرِ ذُنُوبِهِمْ؛ ففي حديث شفاعة المؤمنين في إخوانهم: (فَيَقُولُونَ أَيُّ رَبَّنَا عِبَادٌ مِنْ عِبَادِكَ كَانُوا مَعَنَا فِي الدُّنْيَا يَصَلُّونَ صَلَاتَنَا وَيَزُكُّونَ زَكَاتَنَا وَيَصُومُونَ صِيَامَنَا وَيَحْجُونَ حَجَّنَا وَيَعِزُّونَ غَزَوَنَا لَا نَرَاهُمْ فَيَقُولُ اذْهَبُوا إِلَى النَّارِ فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْهُمْ فَأَخْرِجُوهُ قَالَ فَيَجِدُونَهُمْ قَدْ أَخَذَتْهُمُ النَّارُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَى قَدَمَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَى

نصف ساقيه وَمِنْهُمْ من أخذته إلى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ من أزرته وَمِنْهُمْ من أخذته إلى نُدْبِيهِ وَمِنْهُمْ من أخذته إلى عنقه) [أحمد في مسنده].

ثم إن من صور عذابها:

- **فِرَاشُهَا وَمِهَادُهَا.** ما ذكره ربُّنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف] فـ«لهؤلاء المكذبين المتكبرين من جهنم فراش يفترشونه، ولهم من فوقهم أغطية من نار».

- **أَغْلَالُهَا وَسِلَاسُهَا.** قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان] «إنا أعتدنا للكافرين قيودًا من حديد تُشدُّ بها أرجلهم، وأغلالًا تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم» وكقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (تَدْخُلُ فِي اسْتِهِ ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، ثُمَّ يُنْظَمُونَ فِيهَا كَمَا يُنْظَمُ الْجَرَادُ فِي الْعُودِ حِينَ يُشَوَّى) [تفسير بن كثير].

- **طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا.** ففي شرابها يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشَوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف] «وإن يطلبوا غوثًا بماء من شدة ما يلاقون من العطش يغاثوا بماء كالزيت العكر شديد الحرارة، يشوي وجوههم من شدة حرِّه، ساء شرابًا هذا الشراب الذي يُغاثون به، فهو لا يغني من عطش بل يزيده، ولا يطفئ اللهب الذي يُلْفَح جلودهم». وهو كقوله تبارك وتعالى: ﴿مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم]، وأما الطعام: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۚ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة]. والغسلين: «ليس له طعام يطعمه إلا من عصارة أبدان أهل النار» وقيل هو: شرُّ طعام أهل النار. وقيل: شجرة في جهنم. وقيل: هي الزقوم. كقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ] أي: «لا يذوقون إلا ماءً شديد الحرارة، وما يسيل من صديد أهل النار». وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۖ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية] «ليس لهم طعام يتغذون به إلا من أخبث الطعام وأنتته من نبات يسمَّى الشَّبْرُق إذا يبس صار مسمومًا».

- **ظلالها وحرها وشرها.** قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١٥﴾ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ فَاتَّقُوا ١٦﴾ [الزمر] «أولئك الخاسرون لهم يوم القيامة في جهنم من فوقهم قطع عذاب من النار كهيئة الظلل المبنية، ومن تحتهم كذلك». وهذه الظلال قال الله عنها: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ٣٠ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ ٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ٣٢ كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صُفُرٌ ٣٣﴾ [المرسلات] أي: «سيروا إلى ظل من دخان النار مفترق ثلاث فرق. ليس فيه برد الظلال، ولا يمنع لهيب النار وحرها أن ينفذ إليكم. وذلك إن النار تقذف بشرات، كل شرارة مثل القصر في عظمها» وقال ربنا تبارك وتعالى للمنافقين عن حرها: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة].

- **ثيابهم وسراويلهم ومقامعهم.** قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ٢٠﴾ وَلَهُمْ مَّقْمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ٢١﴾ [الحج] «فُصِّلَتْ لَهُمْ مَقْطَعَاتٌ مِّن نَّارٍ. وقيل: مِنْ نُّحَاسٍ وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرَارَةً إِذَا حَمِيَ، وَيُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْمَاءُ الْمَتَنَاهِي فِي الْحَرَارَةِ، يُذَابُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَحْشَاءِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ، وَيَصِلُ إِلَى جُلُودِهِمْ فَيَذِيبُهَا، وَلَهُمْ فِي النَّارِ مَطَارِقٌ مِنْ حَدِيدٍ تَضْرِبُ الْمَلَائِكَةُ بِهَا رُءُوسَهُمْ» وقولهم: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ١٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ٢٠﴾ [إبراهيم] وهذا يعني أن: «الكفار والمشركين قد شُدَّ بعضهم إلى بعض في القيود، قُرِنَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إِلَى رِقَابِهِمْ بِالسَّلَاسِلِ، ثِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا مِنَ الْقَطِرَانِ (وهي مادة شديدة الاشتعال)، وتعلو وجوههم الكالحة النار».

- **نارها لا تخبو.** قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء] «منزلهم الذي يأوون إليه جهنم، كلما سكن لهيبها زدناهم اشتعالًا».

- **الخلود الأبدي.** وهذا من أعظم صور عذابها؛ إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ

تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39] [صحيح البخاري]. وقال الله عز وجل عند مُناداةِ أهل النار مالكاً خازن النار: ﴿وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف] «أَي: لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا».

رابعاً: الاستعاذة منها.

وردت نصوص كثيرة في القرآن والسنة عن الاستعاذة بالله من النار أو سؤال الله تعالى النجاة منها؛ وما ذاك إلا لأن شأنها عظيم وخطرها جسيم.

فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة]. وقال أيضاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران] وقال سبحانه كذلك في دعاء عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان].

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغَنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ) [صحيح البخاري]، وقال أيضاً: (قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ..) [صحيح مسلم].

فعلى المسلم أن يلهج لسانه بهذا الأمر سائلاً ربه الجنة مُستعيذاً به من النيران. وأن يكون في هذا كما: (قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ: كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: أَتَشْهَدُ

وأقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ أَمَا إِنِّي لَا أَحْسُنُ دَنْدَنْتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَوْلَهَا نُدْنُدُنْ [سنن أبي داود].
والحمد لله رب العالمين

أثر الإيمان باليوم الآخر

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)

المقدمة.

أولاً: حديث القرآن والسنة عن مجيء الساعة.

ثانياً: اقتران الإيمان باليوم الآخر والأعمال الدينية والدنيوية.

ثالثاً: اقتران الإيمان باليوم الآخر والأعمال الغيبية.

(الموضوع)

صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الإيمان: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) [صحيح مُسلم] وقد حكم الله تعالى بالضلال على مَنْ لم يؤمن بهذه الأركان؛ فقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] فالإيمان باليوم الآخر من الأركان التي يقوم عليها اعتقاد العبد، وبدونه لا يُعدُّ المؤمن مؤمناً. فالمُسلم الذي يستحضر أهوال الآخرة وما فيها، ويتفكَّر في الجنة ونعيمها أو في النار وعذابها؛ لا شك بأنَّ هذا الوازع سيكون له أثر كبير في حياته كلها.

بل وفي بعض النصوص؛ يأتي التصريح بأن عذاب الدنيا مهما كان فهو بالنسبة للعذاب الآخروي هينٌ بل لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ بِنُورِ آدَمَ جُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ. قالوا: والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله، قال: فَإِنَّهَا فَضِّلَتْ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُمْ مِثْلُ حَرِّهَا) [سنن الترمذي]. وفي حديث المتلاعنين عندما: (أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النور: 6] فَتَلَاهُنَّ عَلَيْهِ، وَوَعَظَهُ، وَذَكَرَهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، قَالَ: لَا، وَالَّذِي

بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَذَبْتُ عَلَيْهَا، ثُمَّ دَعَاَهَا فَوَعَّظَهَا وَذَكَّرَهَا، وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ
الْآخِرَةِ. قَالَتْ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّهُ لَكَاذِبٌ [صحيح مُسلم].

فإذا ما أيقن المسلم بالدار الآخرة وما فيها؛ قذف ذلك في قلبه صبراً على بلاء الدنيا، فتحمل
في سبيل ذلك ما يقع عليه من الحدود والكفارات جزاء معاصيه؛ لأنه يُريد أن يكون وافداً على ربه
في الآخرة كما كانت هذه المرأة - الزانية - التي أقام عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حدَّ
الرجم؛ ثم صَلَّى عليها!! (فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ رَزَنْتَ؟ فَقَالَ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً
لَوْ فُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ
تَعَالَى) [صحيح مُسلم]. فقد أرادت أن لا يدخر الله تعالى لها في الآخرة عذاباً؛ فعذابها شديد..
عافانا الله والمسلمين.

أولاً: حديث القرآن والسنة عن مجيء الساعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِشِجْزَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه].
وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر] وقال كذلك: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾
[الحج]. وقال جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ
هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان]. وغير ذلك من الآيات التي فيها استحضر اليوم الآخر وأنه من
الأمر التي يجب على العبد أن يستعدَّ لها.

وقد صحَّ: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ:
وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا. قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَنْتَ مَعَ
مَنْ أَحْبَبْتَ) [صحيح البخاري] فالواجب على المسلم أن ينشغل بما أعدَّ لهذه الساعة، لا أن ينشغل
بوقتها فهي آتية لا محالة. ولأجل ذلك المعنى كان الاقتران بين الإيمان باليوم الآخر والأعمال
والمعاملات الدنيوية والدنيوية ظاهراً في النصوص الشرعية؛ فمثلاً:

ثانياً: الاقتران بين الإيمان باليوم الآخر والأعمال الدينية والدنيوية.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء]. وقال كذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب]. وفي هذا تقوية للإيمان بالله تعالى واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهذا قطب الإسلام ورحاه.

وقال كذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء].

وقال كذلك: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة].

وانظر إلى هذا الميزان الجامع المانع: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة]. فالذي يؤمن بالله تعالى لا ينتظر في البذل والطاعة والعطاء إذنا من أحد؛ بل يُسارع إلى مرضات الله تعالى. بخلاف أولئك المنافقين الذين لا يتحركون ولا ينهضون إلا إذا استنهبوا فهم كُسالى عن فعل الخيرات وترك المنكرات. وهذا كله لأنهم لم يُقدِّروا اليوم الآخر حق قدره، أمّا المؤمنون فلا.

وقال كذلك: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور].

وفي تطفيف الكيل والميزان يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين].

ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ قوله عليه الصلاة والسلام: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِتْ) [صحيح البخاري].

وكذلك قول التابعي حنّس الصنعاني رضي الله عنه: (كُنَّا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ فِي غَزْوَةٍ، فَطَارَتْ لِي وَلِأَصْحَابِي قِلَادَةٌ فِيهَا ذَهَبٌ وَوَرِقٌ وَجَوْهَرٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِيَهَا، فَسَأَلْتُ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ، فَقَالَ: انْزِعْ ذَهَبَهَا فَاجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ ذَهَبَكَ فِي كِفَّةٍ، ثُمَّ لَا تَأْخُذَنَّ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَأْخُذَنَّ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلِ) [صحيح مسلم].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَخْلُونَ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مَحَرَمٍ مِنْهَا، فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ) [أخرجه أحمد].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَلْبَسُ حَرِيرًا وَلَا ذَهَبًا) [أخرجه أحمد].

فانظر إلى هذه المنظومة المتكاملة .. كيف ربطت بين اليوم الآخر وأعمال الإسلام العظام؛ فالذين يؤمنون باليوم الآخر:

- سِيَحْكُمُونَ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا مَا تَنَازَعُوا فِي أَيْ شَيْءٍ. وليس هذا فحسب بل سيتخذونه قدوة في كل شئونها لأنهم يرجون الله تعالى واليوم الآخر.

- سَيُعْمَرُونَ المساجد؛ قِيَامًا وَرُكْعًا وَسُجْدًا.

- سَيَتَصَدَّقُونَ بأموالهم خالصةً لله تعالى؛ لأن في الذين يراؤونهم خُسْرَانًا لهم في الآخرة.

- إِذَا مَا طَبَّقُوا الحدود - كَحَدِّ الزَّنا - فَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فَلَمْ تَأْخُذْهُمْ رَافَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وهذا من علامة إيمانهم بالآخرة.

- وَكَذَلِكَ لَا يَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا، وَلَا يَلْبَسُونَ الْحَرِيرَ وَلَا الذَّهَبَ، وَلَا يَخْلُو وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِامْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ لَهُ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمْ، وَكَذَلِكَ لَا يُطْفِقُونَ فِي الْكِيلِ وَالْمِيزَانِ.

- وَكَذَلِكَ يُكْرَمُونَ ضِيُوفُهُمْ، وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا، وَلَا يُقَدِّمُونَ الْأَذْيَةَ لِحَبِيرَانِهِمْ.

وهذا وغيره .. لأن اليوم الآخر على بالهم لا يغيب.

وقد تكون هناك أعمالٌ ظاهرها الصلاح وباطنُها الفساد، ولا يعلم بذلك الفساد أحدٌ؛ فيأتي التنبيه الإلهي والتذكير الرباني فيها باليوم الآخر الذي ستُبلى فيه السرائر وينكشف فيه ما في الضمائر. ومن هذه الأعمال:

ثالثاً: الاقتران بين الإيمان باليوم الآخر والأعمال الغيبية.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة] فلا يعلم ما في القلب من الإخلاص أو الرياء إلا الله تعالى.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة]، «ولا يحل لهن أن يخفين ما خلق الله في أرحامهن من الحمل أو الحيض، إن كانت المطلقات مؤمنات حقاً بالله واليوم الآخر» فهي

مَنْ سَتَخْبِرَ عَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى فِي رَحْمَتِهِ؛ فَهِيَ مُسْتَأْمَنَةٌ عَلَى ذَلِكَ؛ فَلْتَخَشِ اللَّهَ وَالْدارَ الْآخِرَةَ إِنْ كَانَتْ مُؤْمَنَةً وَلَا تَخْدَعْ أَحَدًا بِغَيْرِ الْحَقِيقَةِ.

ومعهم كذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة]. وإكرامه الأولياء بناتهن على الزواج ربما يكون أمرا خفيا؛ ومع ذلك لن يقدم عليه إلا من أغفل ذكر الآخرة

وفي المودة وهي عمل قلبي يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة]. فكيف يكون مؤمنا بالجزاء الأخروي من تودد إلى أعداء الله تعالى وأحبهم وبذل في مرضاتهم الغالي والرخيص.

وكذلك من الأعمال التي قد تخفى على الخلق ولكنها على الله تعالى ليست بخافية؛ ما في قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْكَبُ دَابَّةً مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ، وَلَا يَلْبَسُ ثَوْبًا مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ رَدَّهُ فِيهِ) [سنن أبي داود]. فمن يستعمل أموال المسلمين العامة في مصالحه حتى إذا ما أعجفها أو أهلكها أو أخلقها؛ رَدَّهَا فِي خَزَائِنِهِمْ بَعْدَمَا بَلِيَتْ .. لم يؤمن باليوم الآخر، وإن خفي عمله على أحد فلن يخفى على الله تعالى مالك يوم الدين.

وكذلك من الأمور التي قد تخفى على الناس والله تعالى شاهد عليها: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماءه ولد غيره) [سنن أبي داود]. فإذا ما كان الزرع للغير فأياك ثم إياك أن تدخل ماءك عليه؛ فالأرض مشغولة بزرع غيرك والمشغول لا يُشغل. فلا يقتحم الرجل عِدَّةَ غيره، ولا يطان موطوءة أحد فهو زنا .. عافانا الله تعالى والمسلمين ومهما خفي فانه تعالى به عليم.

وفي لَمَحَةٍ من لمحات الوحي الشريف يأتي هذا التنبيه النبوي للنساء في المسجد إذ كنَّ يُصلين خلف الرجال: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا تَرْفَعُ رَأْسَهَا حَتَّى يَرْفَعَ الرَّجُلُ

رءوسَهُم، كراهةً أن يرينَ مِنْ عَوْرَاتِ الرِّجَالِ) [أخرجه أبو داود وأصله في مُسلم وغيره] وسبب ذلك كما يقول شُرَّاح الحديث: «لأنَّ أهلَ المدينة كانوا في أوَّلِ أمرِهِم فُقراء؛ فَمِنْهُمْ مَنْ كان لا يَمْلِكُ إِلَّا الثُّوبَ الواحدَ، أو القصيرَ ليس له غيرُهُ، فإذا رَكَع أو سَجَد انكَشَفَتْ عورَتُهُ».

فالتعلُّقُ بالآخرة يُوَدِّي إلى استيقاظ القلوب .. واستدراك ما فات من المطلوب

والحمد لله رب العالمين

وصايا مُودَّع **

العناصر:

المقدمة.

من الأمور التي ينبغي الاهتمام بها؛ تلك الأمور التي خُتِمَتْ بها الرسالة، سواءً أكان هذا في آيات القرآن الكريم أو في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهذه الأمور تُشكِّل خلاصات الرسالة ومفاصل بُنيانها. كالرجل الكبير الذي عاش دهرًا مع أولاده؛ ناصحاً حريصاً مربياً مُعلماً أميناً وعندما حضرته الوفاة قال لهم بخبرته: إن صلاحكم وفلاحكم في كذا وكذا؛ فافعلوه. وإن هلاككم وفسادكم في كذا وكذا؛ فاحذروه واجتنبوه.

فمثلاً الآية التي خُتِم بها القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة] تحذير من الآخرة؛ وما أدراك ما الآخرة وما أدراك ما الحاقة والقارعة، فالأمور راجعة إلى فعل المأمورات وترك المنهيات؛ ومآل هذا كله إلى اليوم الآخر: «لأنَّ في تَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ سَلَامَةً مِنْ آثَامِهَا، وَفِي فِعْلِ الْمَطْلُوبَاتِ اسْتِكْثَارًا مِنْ ثَوَابِهَا، وَالْكُلُّ يَرْجِعُ إِلَى اتِّقَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تُطْلَبُ فِيهِ السَّلَامَةُ وَكَثْرَةُ أَسْبَابِ النَّجَاحِ» فكأنها وصيةٌ يُودَّع بها الوحي أهل الأرض.

وأما في سنة النبي صلى الله عليه وسلم فقد وردت النصوص التي تُوضِّح وتُبيِّن تلك الوصايا التي ختم النبي صلى الله عليه وسلم بها رسالته؛ وهي وصايا عليها صلاح المرء في دينه ودنياه. وهي وصايا يظهر منها حرصُ النبي صلى الله عليه وسلم على أُمته وشفقته ورأفته ورحمته بها؛ فقد وصفه ربه بذلك فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]. من هذه الوصايا:

الأول: حُسن الظن بالله عز وجل. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بثَلَاثٍ يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ) [أخرجه مُسلم]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرِ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) [صحيح البخاري]. فعلى قدر ظنك بالله؛ يكون عطاء الله لك خيراً كان أو شراً، فمن ظن أن الله يقبل توبته ويُقِلَّ عثرته ويُفَرِّجْ كُرْبَتَهُ وأخذ مع ذلك بكل الأسباب المُيسرة لذلك كان الله عند ظنه هذا. وإلا كان هذا من الغرور والتواكل الذي لم يأذن به الله تعالى وقد قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار] وقال أيضاً: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات] وقد عصيتم أمره وارتكبتم نهيه!!.. وكذلك مَنْ ظَنَّ بالله أو بصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه شراً؛ كان ذلك سبباً في هلاكه ورداه؛ فقد جاء: (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَقَفِيَّانِ وَفُرْشِيٌّ - أَوْ فُرْشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ - كَثِيرَةٌ شَحْمُ بَطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فَقَهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا، فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٣٣] وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [صحيح البخاري وأحمد]. فالحذر الحذر من أن تظن أن الله لا يسمعك أولاً يراك أو لا يرزقك أو يخفى عليه حالك أو لا ينصر أوليائه أو أنه يظلم فلانا بالمنع أو العطاء أو نحو ذلك .. فهذا فيه الهلاك والردى.

وقد استحَب العلماء للمسلم أن يُغْلَبَ جانبَ الرجاء والرغبة والمحبة إذا ما كان في إقبال على آخرته وإدبار من دنياه إحساناً للظن به سبحانه وتعالى.

الثاني: الصلاة، وما ملكت أيمانكم. فقد: (كانت عامّة وصيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضرته الوفاة وهو يُعَرِّغُ بنفسه الصلّة وما ملكت أيمانكم) [ابن ماجة وأحمد]، وفي بعض الروايات: (حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَرِّغُ بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه) [وهي: عند أحمد في مسنده].

فما أعظم هذه الوصية من النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مثل هذه الحال (يُعَرِّغُ بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه).

فأمر الصلاة⁽¹⁾: من أكد الأمور التي إذا صلحت صلح للإنسان سائر عمله وإذا فسدت فسد أمره كلّهُ؛ وهذا مُشاهد مرئي. وهو الأمر الذي بيننا وبين غيرنا من المشركين؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر) [أخرجه الترمذي وأحمد]. ولذلك فقد كانت أخوة الدين قائمةً عليها فقد قال جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه: قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد) [أخرجه الترمذي]. وقد قال عبدُ الله: (لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عَلِمَ نِفَاقَهُ، أَوْ مَرِيضٌ، إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةَ، وَقَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَدَّنُ فِيهِ) [صحيح مسلم]. وقد أمرنا الله تعالى بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة]. وغير ذلك من الأخبار والآيات الدالة على عظيم فضل المحافظين عليها والمداومين.

ولكن .. وكما قال ابن الجوزي في بعض كلماته واصفاً بعض الناس: «أنت في طلب الدنيا صحيح الجسم وفي طلب الآخرة بك أوجاع وأسقام» كثيرٌ .. هؤلاء الذين يكدون ويجتهدون

(1) في هذه السلسلة؛ موضوع عن الصلاة؛ انظره في: (الوارثون جنان الخلد).

ويبذلون من أوقاتهم وأعمارهم وأموالهم وصحتهم في طلب الدنيا؛ وعند الآخرة تراهم يشكون الفقر والمرض والعوز؛ وكذلك يستيقظون لدنياهم في البكور؛ بل وقبل البكور، ويتكاسلون بل ويثبطون أنفسهم ويتأقلون عن الصلوات والطاعات .. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما (ما ملكت أيمانكم): فالمقصود بها كل شيء يدخل تحت ملك الإنسان من الأموال الأنفس. فأموالك؛ من الحيوانات العجماوات كالذباب والطيور، ويدخل في ذلك أيضا الأمر بأداء حق الله تعالى في أموالك من الزكوات والصدقات وما افترض عليك فيها. وكذلك الأنفس التي ملكك الله تعالى إياها كالرقيق من العبيد والإماء وكذلك يدخل فيه الزوجات. كل هذا تشمله وصية النبي صلى الله عليه وسلم.

فهذه امرأة دخلت النار في هرة؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: (عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهِ أُعْلِمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ) [صحيح البخاري].

وهذا جمل أن إلى النبي صلى الله عليه وسلم واشتكى صاحبه: فقد: (.. دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ إِلَيْهِ، وَدَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ ذِفْرِيهِ؛ فَسَكَنَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ قَالَ: فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُذِئِبُهُ؟) [أخرجه أحمد وأبو داود].

وهذه الزوجات يُوصي بهنَّ النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما موضع فيقول عنهنَّ: (أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ. لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ. فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرَحٍ. فَإِنْ أَطْعَمَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا. أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا. وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا. فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوْطِئَنَّ فَرْشَكُمْ مِنْ تَكْرِهٍ وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بَيْتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي

كسوتهن وطعامهن) [أخرجه الترمذي وغيره]، وقال أيضاً: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) [أخرجه الترمذي وغيره]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء].

الثالث: إخراج المشركين من جزيرة العرب. فقد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (يَوْمَ الْخَمِيسِ، وما يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعُهُ، فَقَالَ: انْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا، فَتَنَازَعُوا وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيِّ تَنَازُعٍ، فَقَالُوا: مَا شَأْنُهُ، أَهَجَرَ اسْتَقْفَهُمْ؟ فَذَهَبُوا يَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: دَعُونِي، فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ وَأَوْصَاهُمْ بِثَلَاثٍ، قَالَ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِخَوٍ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ أَوْ قَالَ فَنَسِيْتُهَا) [صحيح البخاري]. فالأمر بإخراج المشركين من جزيرة العرب من آخر الوصايا التي وصَّى بها النبي صلى الله عليه وسلم أمته حفاظاً على التوحيد، وعلى المعقل الذي انبثق فيه نور الوحي، وقال أيضاً: (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب) [فيه خلاف في تصحيحه وتضعفه ووصله وإرساله وهو عند البيهقي وغيره] ولمَّا بلغ عمر هذا الخبر أجلاهم - أي: اليهود - من خيبر.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن مُساكنة المسلم للمشركين في ديارهم: (أنا بريء من كلِّ مسلمٍ يُقيم بين أظهرِ المشركين، لا تراءى نارهما) [صحيح الجامع للألباني]. فإنَّ هذا المسلم لا يستطيع إظهار شعائر دينه في وسط هؤلاء، ولن يُعان على ذلك.

الرابع: الوصية بالأنصار والمهاجرين. فقد (مَرَّ أَبُو بَكْرٍ، وَالْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَّا، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرِ، وَلَمْ يَصْعُدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضُوا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَأَقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئَتِهِمْ) [صحيح البخاري]. وكذلك وصية عمر رضي الله عنه عندما طعن للخليفة من بعده؛ فقال: (أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيراً، أن يعرف

لَهُمْ حَقُّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأَوْصِيَهُ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأَوْصِيَهُ بِذِمَّةِ اللَّهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ [صحيح البخاري].

فلماذا الأنصار والمهاجرون؟ لما لهم من الحق الواجب علينا؛ فقد بلغونا دينَ الله عز وجل ودافعوا عن الإسلام ونشروه أذاعوه وفعلوا وفعلوا ما لم نستطع نحن أنفعل عُشر معشاره في خدمة ديننا؛ فلولاهم لما عبدَ الله عز وجل في الأرض⁽¹⁾!!

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم. وقال: (لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ وَادِيًا - أَوْ شِعْبًا - لَسَلَكَتُ وَادِيِ الْأَنْصَارِ، - أَوْ شِعْبَ الْأَنْصَارِ -). [صحيح البخاري] وقال أيضاً: (آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ) وفي رواية أخرى: (الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ) [صحيح البخاري].

ومن مناقبهم أنهم هم الذين قالوا يوم بدر: (قَالَ الْمُقَدِّادُ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} وَلَكِنْ أَمْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ، فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [البخاري] فالأنصار والمهاجرون لهم في الإسلام قدمٌ راسخ لا يطعن فيهم إلا مَنْ أَبْغَضَ النبي صلى الله عليه وسلم، وَأَبْغَضَ ما جاء به بل وَأَبْغَضَ الإسلام جملةً وتفصيلاً.

الخامس: لا تتخذوا القبور مساجد. وهذه من أعجب الوصايا؛ فحالها حالٌ عجيب، فقد جاء: (أَنَّ عَائِشَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرَحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ

(1) فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم يوم بدر: (اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلُكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعَذِّبُ فِي الْأَرْضِ) [صحيح مسلم]. وفي هذه الكِنَانَةِ خطبة كاملة عن الصحابة رضوان الله عليهم.

وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحْدَرُ مَا صَنَعُوا) [صحيح البخاري] سبحانه الله وهو في هذه الحال!! فلاشك من أنها من كُبريات الوصايا التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يختم بها حياته؛ هذا تحذيراً لأمته أن يفعلوا بقبره فعل السابقين؛ فقد جاء في رواية للبخاري: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، لَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ - أَوْ خُشِيَ - أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) وقال أيضاً: (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) [أخرجه مالك في الموطأ وهو ثابت]. وقد جاء أنه: (لَمَّا اشْتَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرْتُ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيْسَةً رَأَيْتَهَا بِأَرْضِ الْحَبْشَةِ يُقَالُ لَهَا: مَارِيَّةُ، وَكَانَتْ أُمَّ سَلَمَةَ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَتَتَا أَرْضَ الْحَبْشَةِ، فَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرِ فِيهَا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ) [صحيح البخاري].

فلا يجتمع عندنا في الإسلام قبر ومسجد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا) [صحيح مسلم] وقد جاء عن أهل العلم قولهم - قول ابن القيم -: «لا يجتمع في دين الإسلام قبر ومسجد، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه وكان الحكم للسابق». وهنا لابد من لفت النظر إلى شيء وهو: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُدفن في المسجد كما هو الحال الآن؛ وإنما دُفِنَ في بيته بيت عائشة حيث قُبِضَ؛ وإنما جاءت بعد ذلك التوسعات التي أدخلت على المسجد - فبعد وفاته بما يُقارب التسعين سنة - فدخلت الحجرة الشريفة وفيها القبر مسجده صلى الله عليه وسلم.

فهي وصايا تُحَسِّنُ علاقة العبد بربه؛ إذا ما أحسن به الظن، وكذلك تجعل المجتمع طاهراً إذا ما حَسَّنَ علاقته بما ملك يمينه، وكذلك تجعل دينه سليماً إذا ما حافظ على صلاته، وكذلك تجعل توحيده كاملاً إذا ما علق قلبه بالله تعالى لا بالقبور ولا بالأضرحة ولا بمخالطة المشركين.

والحمد لله رب العالمين

الخاتمة (أسأل الله تعالى - لي ولكم - حُسْنَهَا)

وبعدُ .. فالحمد لله تعالى أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً؛ فهو الذي بنعمته تتم الصالحات، وهو الموفق والهادي إلى سواء الصراط، وأسأله سبحانه وتعالى أن يُلهمنا شُكْرَهُ وَذِكْرَهُ، وأن يُلهمنا رُشْدنا وأن يقينا شرَّ نفوسنا. إنه نعم المولى ونعم النصير. وأصلي وأسلم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

هذه الخطب التي بين يديك إنما هي: عُمَلُ بشرٍ ولا يخلو من نقص أو خلل. فإن وَجَدْتَهُ - ولابد من حصوله وكيونته - فالمرجو منك إصلاحه والتنبية عليه والدعاء بالستر والغفران لقائله وكاتبه.

وأعوذ بالله تعالى أن أكون ممن شغل وقت إخوانه بما لا ينفع، وأعوذ به كذلك من الرياء والسمعة. ومن علم يكون وبالا على صاحبه يوم القيامة.

نفعني الله تعالى وإياكم بما نقول ونسمع إنه سميع قريب مجيب الدعوات

(على خيرٍ تَمَّت)

والحمد لله رب العالمين

قُبيل العشاء. ليلة الجمعة الموافق: (30 / 1 / 1447) هـ. (18 / 7 / 2025) م

فهرس الموضوعات¹

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	4
فكرة هذه الكِنانة	6
مسرد الخطب	9
الفهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم	13
1 - بين الوحي والهوى	14
2 - القرآن الكريم	24
3 - السنة النبوية	30
4 - الصحابة رضي الله عنهم	36
5 - التزكية	42
6 - علاقات للمسلم	48
7 - الاستجابة والتسليم	55
8 - العبادة	61
9 - مُحَبِّطَات الأعمال	68
10 - التوحيد	73
11 - الكلمة المقدسة **	79
12 - الله جل جلاله في محاوراة الملحدين **	88
13 - النبي صلى الله عليه وسلم (آيات الصدق ودلائل الاصطفاء). **	96
14 - حقوق النبي صلى الله عليه وسلم **	108

(1) المواضيع التي أمامها هذه العلامة (***)؛ هي التي تمَّ إضافتها في المجموعة الثانية. والتي بدونها هي مواضيع المجموعة الأولى. والتي تمَّ نشرها قبل ذلك.

117	الضروريات الخمس وغيرها
118	15 - الدين
126	16 - النفس
133	17 - النسل (العرض)
139	18 - المال
146	19 - العقل
152	20 - معالم في الحلال والحرام **
157	21 - العلم والجهل **
163	22 - الإخلاص والنية **
169	23 - القلوب وما أدراك ما القلوب **
175	24 - غير المغضوب عليهم ولا الضالين **
184	25 - الشبهات والشهوات **
193	26 - مكفرات الذنوب والآثام **
200	الوارثون جنان الخلد
201	27 - الإرث الأخرى
207	28 - الصالحون
212	29 - الطيبون
217	30 - المتقون
223	31 - المؤمنون
230	32 - المعرضون عن اللغو
235	33 - المحافظون على الصلاة
242	34 - الخاشعون في الصلاة

249	35 - المؤثرون الزكاة
255	36 - الصائمون **
271	37 - الحجاج **
281	38 - الراعون الأمانة
288	39 - الراعون العهود
293	40 - الحافظون فروجهم
299	41 - النفس المسلمة
308	42 - المحسنون
315	43 - الصادقون
320	44 - الشهداء
327	45 - مَنْ يحبهم الله تعالى **
338	46 - التوابون **
348	في الفضاء المجتمعي
349	47 - أهمية الرأي العام
354	48 - في ترك الفضول
362	49 - خطورة الشائعات
370	50 - الرجولة والشباب
377	51 - النبلاء **
386	52 - القدوة **
395	53 - الوطن **
403	54 - المصلحة العامة والخاصة **
409	55 - صلة الرحم **

416	56 - حِرَاسَةُ الْفَضِيلَةِ **
423	57 - الْأَخْلَاقُ **
430	58 - سَفَاسِفُ الْأُمُورِ وَمَعَالِيهَا (عَلُو الْهَمَّةِ) **
437	59 - الْوَقْتُ وَالْفَرَاغُ فِي الْأَجَازَاتِ **
444	60 - السَّخَرِيَّةُ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِالْآخِرِينَ **
450	61 - وَصِيَّةٌ بِحَقِّ الطَّرِيقِ **
456	62 - حَقُّ الْجَوَارِ **
462	63 - الْمَوْسِيقَى وَالْغِنَاءُ **
468	64 - الرِّبَا **
475	65 - الْأَعْدَاءُ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ **
482	66 - وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ **
489	67 - أَسْبَابُ زِيَادَةِ الرِّزْقِ **
497	مُخْتَارَاتٌ وَمُلْحٌ
498	68 - مَوَازِنَةُ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
503	69 - مَاذَا قَدِمْنَا لِدِينِنَا؟ **
511	70 - الدَّعَاءُ
516	71 - الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **
524	72 - الْمَسَاجِدُ آدَابٌ وَأَحْكَامٌ **
531	73 - بَرُّ الْوَالِدِينَ
537	74 - الطَّهَارَةُ وَالنِّظَافَةُ
543	75 - الْإِدْمَانُ وَالتَّدْخِينُ
549	76 - ضَوَابِطُ الْأَسْوَاقِ

554	77 - خيرُ أمةٍ
560	78 - الحياءُ كلّهُ خيرٌ **
567	79 - المسؤولية
573	80 - يريد الله بكم اليسر ولا يُريد بكم العسر **
581	81 - حق المسلم على المسلم
590	82 - ما تصلح به الدنيا
599	83 - التوكل والأخذ بالأسباب **
607	84 - ملعونون **
614	85 - الأسرة (بيوتنا)
624	86 - من نواقض الإيمان
638	87 - الشهود على العبيد
644	88 - ذكر الله تعالى
652	89 - فرائض الإسلام (مقاصدها)
659	90 - تصحيح المفاهيم **
669	91 - بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان **
675	92 - الظن **
682	93 - العدل **
690	94 - الظلم **
699	95 - القبور مشاهد وعبر **
707	96 - من القبور إلى ساحات الفرح والتبور **
718	97 - الجنة **
727	98 - النار **

736	99 - أثر الإيمان باليوم الآخر **
743	100 - وصايا مودع **
750	الخاتمة
751	فهرس الكنانة